

## مذكرات يابلو نيرودا

## أعترف بأنني قد عشت



17.6.2015

ترجمة وشرح: د. محمود صبح



# مذكرات يابلو نيرودا

---

## أعترف بأنني قد عشت

ترجمة وشرح: د. محمود صبح



# مذكرات يابلو نيرودا أعترف بأنني قد عدلت

مذكرات بابلو نيرودا / سيرة - مذكرات  
بابلو نيرودا / مؤلف من تشيلي  
ترجمة وشرح: د. محمود صبح / مترجم من فلسطين (مقيم في إسبانيا)  
الطبعة الثالثة، 2015  
حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربية للدراسات والنشر  
المركز الرئيسي:

المصيبة - شارع حبيب أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام  
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت  
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190  
هاتفكس: +961 1 707891/2

بيروت - لبنان

E-mail: mkpublishing@terra.net.lb

موقع الدار الإلكتروني: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان، ص. ب. 9157، هاتف: +962 6 5605431/2، هاتفكس: +962 6 5685501

E-mail : info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفني:

ستيب © ، عمّان، الأردن 95297109 7 +962

خطوط الغلاف: زهير أبو شايب / الأردن

الصفّ الضروتي: المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت، لبنان

التنفيذ الطباعي: ديمو برس / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.

ISBN: 978-614-419-504-8



## الفهرس

7	ملاحظات حول هذه المذكرات :
9	الفصل الأول : الشاب القروي
39	الفصل الثاني : ... ضائعاً في المدينة
71	الفصل الثالث : دروب العالم
99	الفصل الرابع : الوحلة المضيئة
139	الفصل الخامس : إسبانيا في القلب
171	الفصل السادس : خرجت أبحث عن شهداء
191	الفصل السابع : المكسيك المزهر الشائك
211	الفصل الثامن : الوطن في دياجير
245	الفصل التاسع : بداية منفى ونهايته
277	الفصل العاشر : إبحار مع إياب
313	الفصل الحادي عشر : الشعر حرفة
403	الفصل الثاني عشر : وطن عذب وقاس



## ملاحظات حول هذه المذكرات:

- ١- إن عنوان المذكرات بالإسبانية هو: بابلو نيرودا، أعترف بأنني قد عشت مذكرات (Pablo Neruda, CONFIESO QUE HE VIVIDO, Memorias).
- ٢- لقد تم طبع هذا الكتاب في برشلونة، بتاريخ ٢٣ آذار (مارس) من عام ١٩٧٤، أي بعد مضي ستة أشهر على وفاة الشاعر، كما جاء في الصفحة الأخيرة من الكتاب بالنص.
- ٣- إن عدد صفحات الكتاب في نصه الأصلي هو (٥١٥) صفحة من الحجم المتوسط وبحرف متوسط وبورق عادي.
- ٤- لقد شرعنا في ترجمة هذه المذكرات في منتصف شهر أيار (مايو) من عام صدور الكتاب، وقد اقتنينا أول نسخة بيعت في مدريد.
- ٥- لقد قمنا بتعريبها على مرحلتين؛ الأولى: ترجمة حرفية استغرقت ثلاثة أشهر، والثانية: تعريب مع المحافظة على النص الأصلي وذلك بصياغة الترجمة الحرفية صياغة عربية جملة فجملة ومراجعة النص الأصلي في الوقت نفسه، وقد استغرقت هذه المرحلة أربعة أشهر.
- ٦- وضعنا بعد ذلك الشروح الضرورية، وهذه الشروح هي:
  - أ- عرّفنا بأسماء الأعلام الواردة في الكتاب، وذلك بالعودة إلى كتب التراجم والموسوعات وغير ذلك.
  - ب- عرّفنا ببعض أسماء الأماكن.
  - ج- أشرنا إلى الكلمات التي أصلها عربي، وهي كثيرة في اللغة الإسبانية.
  - د- حافظنا على التعابير والأمثال الإسبانية كي نزيد لغتنا العربية غنى على غناها، ولكننا أشرنا إلى ذلك، وفي أكثر الأحيان وضعنا ما يقابل أو يماثل كل واحد منها في اللغة العربية.
  - هـ- شرحنا الكلمات التي لم نجد لها تعريباً، مثل أسماء بعض الأشجار والأزهار والأطيّار والحيوانات وغير ذلك.
  - و- فسّرنا ما غمض أحياناً أو ما كان تضميناً الخ.
- ٧- لم نترجم ما ورد في الكتاب من كلمات وعبارات بلغات أخرى غير الإسبانية، إلا في ما ندر.
- ٨- لم نشرح الكلمات العربية الصعبة التي اضطررنا أحياناً إلى استعمالها إلا في ما ندر، وذلك لاعتقادنا أن هذا من عمل القارئ ولفائدته -مع الاعتذار-.

٩- حاولنا أن نحافظ على ما جاء في الكتاب من علامات ونقط وغير ذلك من علامات التعجب والاستفهام والفواصل والأقواس الخ ، كلما أمكن ذلك . (إن جمل (نيرودا) قصيرة ، أحياناً ، وهو يضع كثيراً من النقط) .

١٠- وضعنا أسماء الأعلام بين قوسين ، وبجانب كل اسم يذكر لأول مرة ، رسمه بالحروف اللاتينية ، تجنباً للخطأ في النطق ، فإن تكرر الاسم لم نرسمه باللاتينية ، إلا ما فاتنا . (وهذا يدل القارئ على أن الاسم كان قد ذكر من قبل وعرف به) .

١١- وضعنا أسماء الأماكن بين فواصل ، ووضعنا كل اسم مكان يذكر لأول مرة ، داخل قوسين بالحروف اللاتينية ، إلا ما اشتهر منها أو فاتنا في الحالتين .

١٢- لقد حاولنا أن نتقل إلى القارئ أسلوب (نيرودا) في هذا الكتاب ، فهو مختلف متباين يتراوح بين الأسلوب النقي العالي وبين الأسلوب المباشر العادي ، (يستعمل ضمير «أنا» مثلاً ، كثيراً جداً) .

١٣- قد يأخذ علينا القارئ أننا أسرفنا في أسلوبنا العربي ، أحياناً ، أو أجحفنا (مثلاً ، ذكرنا ضمير «أنا» بعد الاسم لا قبله ، فلم نقل ، على سبيل المثال : أنا والملك ، بل قلنا : الملك وأنا) فترجو منه الصفح .

١٤- لم نشأ أن نكتب مقلمة نبيّن فيها رأينا في هذه المذكرات وندحض بعض أفكار (نيرودا) الحاططة ، (مثلاً ، رأيه في حرب العصابات ، تحامله على (ماوتسي تونغ) و(فيديل كاسترو) ، وغير ذلك من الآراء السياسية والأدبية التي تستدعي الرد والدحض) ، تجنباً للإطالة ، فالكتاب كبير ضخم .

١٥- لقد وضعنا نصب أعيننا منذ أن بدأنا بترجمة هذه المذكرات إلى أن أنهيناها ، الحديث النبوي الشريف :

«إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» .

وبيت المتنبّي :

ولم أرفي عيوب الناس عيباً

كتقص القادرين على التمام

فترجو من القارئ أن يضع نصب عينيه ، حين يقرأ هذا الكتاب ، بيت أبي تمام :

وعين الرضا عن كل عيب كليله

ولكن عين السخط تبدي المساويا

د . محمود صبح

مدريد في ١٦/٢/١٩٧٥

## الفصل الأول الشاب القروي

### الغابة التشيلية

... تحت حمم البراكين ، إزاء القمم الثلجية العاصفة ، بين البحيرات الكبيرة ، الغابة التشيلية المتشابكة الساكنة الشدية . . . تغوص الأقدام في أوراق الشجر الميتة ، لقد خشخش غصن هش ، ها هي أشجار «الراولي»<sup>(١)</sup> الضخمة تشمخ بقاماتها المتغضنة ، ثمه عصفور يعبر من الدغل البارد ، يرفرف ، يتوقف في غصون الشجر الظليلة ، ثم من مخبئه يصفر مثل مزار صغير . . . يسري عبر أنفي حتى مسارب روحي شذى الغار البري ، شذى شجيرة «البولدو»<sup>(٢)</sup> الداكن . . . سرو المخافر يعترض خطوي . . . إنه لعالم شاقولي : أمة من العصافير ، حشد من الأوراق . . . أتعثّر بحجر ، أجدش الوقبة المكشوفة ، عنكبوت هائل ذو شعر أحمر يرمقني بعينين ثابتتين ، بلا حراك ، كبير في حجم سرطان . . . عقرب مذهّب ينفتح نحوي سمه المنبثق ، بينما يختفي قوسه الفزحي المشعّ مثل برق خاطف . . . حين أمرّ أجتاز غابة من شجر السرخس أكثر علواً من قامتي : تدع أن يساقط عليّ ، فوق وجهي المشرب ، ستون دمعة تنهمر من عيونها الباردة الخضراء ، ومن خلفي تظل مراوحها ترتعد لمدة طويلة . . . ثمه جذع متأكلة : ياله من كنز! . . . نبات الفطر الأسود والأزرق قد منحها أذانا ، نباتات طفيلية حمراء قد أفعمتها بالجواهر والحلي ، نباتات كسلى أخرى أعارتها لحاها وينفجر ، سريعاً ، أفعوان يطلع من أحشائها المتأكلة ، كما انبثاق

---

(١) راولي (Rauli) : الكلمة من أصل «أراوكاني» (Araucano) وهي لغة قبيلة هندية كانت تسكن في إحدى مناطق تشيلي ، أما «الراولي» فهو شجر عظيم ، يبلغ ارتفاعه حوالي خمسين متراً ، له ورق شاحب اللون ، متغضن ، تؤخذ الأخشاب من هذا الشجر للبناء وصنع الأبواب والنوافذ .

(٢) بولدو (Boldo) : الكلمة من أصل «أراوكاني» ، وهو شجر ضخم ، أوراقه دائمة الخضرة وأزهاره بيضاء ، تؤكل ثماره ، وتطبخ أوراقه العطرة لتتلك بعد ذلك في سبيل شفاء أمراض المعدة والكبد .

الفجر، كما لو أن الروح هربت من جذعها الميتة... وهناك بعيداً، كل شجرة انتحت مكاناً قصياً مبتعدة عن نظيراتها... تيمس فوق بساط الدغل الكتوم، وكل ورقة سواء أكانت هيفاء أو مكتنزة أو ورفاء أو ملساء لها نمط مختلف وشكل آخر كما لو أن مقصاً ذا حركة متبدلة قد قصها ففصلتها بعضها ليس كبعض... ثمة غدِير، الماء الشفاف من تحت ينزلق فوق الحجر الأعبل واليشب... تطير فراشة نقية كنقاوة الليمون، تتراقص بين الماء والنور... تحييني عن قرب الرياحين وهي تنحني لي برؤوسها الصغيرة الصفراء... وهناك في الأعالي، مثل قطرات فُصدت من الشرايين، تماوج زهور «الكوبيهوية»<sup>(١)</sup> الحمراء... الأحمر منها هو زهر الدم، والأبيض منها هو زهر الثلج... قد شق السكون ثعلب سريع فاهتزت الأوراق، بيد أن السكون هو ناموس هذه الأوراق... قلماً يسمع صراخ بعيد لحيوان متململ... رجع وخآز لعصفور مختبئ إلا لماما... قلماً يوشوش عالم النبات إلا قليلاً قليلاً إلى أن تهب زوبعة فتجعل موسيقى الدنيا كلها تتجاوب.

من لا يعرف الغابة التشيلية، فهو لم يطأ هذا الكوكب الأرضي.  
من تلك الأراضي، من ذاك الطين، من ذاك السكون، خرجت أنا لأسير،  
لأغني عبر الكون.

### طفولة وشعر:

سوف أشرع في الكلام عن أيام طفولتي وأعوامها قائلاً، إن المطر كان لي الشخصية الوحيدة التي لا أنساها. مطر القطب الجنوبي الغزير الذي يهطل مثل شلال من قطب «بولو» (Polo) ينحدر من سماء «كابو دي هورنوس»<sup>(٢)</sup> حتى سماء الشجر. في هذا الشجر، أو «فار ويست»<sup>(٣)</sup> بالنسبة لوطني، ولدت للحياة، للأرض، للشعر والمطر.

مع أنني قد تجولت كثيراً فإنه يبدو لي أنه قد ضاع فن الأمطار هذا الذي كان يمارس وكأنه موهبة متسلطة هائلة بارعة، في أرضي، أرض «أراوكانيا»

(١) كوبيهويه (Copihue): الكلمة من أصل «أراوكاني»، وهو زهر جميل يشبه الليلك، يستعمل للزينة.

(٢) كابو دي هورنوس: معناها، رأس الأفران، وهو على ساحل تشيلي.

(٣) فار ويست: هي منطقة الغرب الأقصى من الولايات المتحدة الأمريكية.

(Araucania) . كانت السماء تمطر خلال أشهر بكاملها ، أعوام بأسرها . كان المطر يتدلى خيطاناً كأنها إبر طويلة من البلور يتكسر على أسطح المنازل ، أو أنه يستحيل أمواجاً شفافة تلمن النوافذ ، وكانت كل دار كأنها سفينة لا تبلغ الميناء إلا بشق الأنفس والجهد الجهد في ذلك المحيط الشتائي .

فليس لمطر جنوب أمريكا البارد هذا هبات الرياح الهائجة التي تسف المطر الساخن لافحاً كأنه السياط ثم يمضي وإذ بالسماء زرقاء صافية . مطر الجنوب على العكس من ذلك له صبر وأناة فهو لا يفتأ يتساقط من السماء الرمادية اللون بلا حد ولا قيد .

تجاه داري ، الشارع أمسى بحراً هائلاً من الوحول . أرى عبر النافذة ومن خلال المطر عربة قد أوحلت في وسط الشارع . وهناك فلاح ملتف بعباءة سوداء يسوّط الثيران التي لم تعد تقوى على المضي بين المطر والوحل .

لقد كنا نتوجه إلى المدرسة عبر الدروب ، ننقل الخطى من حجر إلى حجر ، متعرضين للبرد والمطر . الرياح تتخاطف المظلات ، الماطرات (البرشكواتات) كانت غالية جداً ، ولم تكن تستهويني القفازات ، وكانت الأحذية تبتل بالماء . سوف أذكر دائماً الجرباب المضمخة وهي تجفف قرب الموقد وكثيراً من الأحذية وهي تنفث بخاراً يتقطر ، كأنها قاطرات بخارية صغيرة ، ثم تأتي الفياضانات ، التي كانت تجرف القرى والمساكن حيث كان يعيش أكثر الناس فقراً ، إلى النهر . كذلك كانت الأرض تنهز راجفة ، أحياناً أخرى ، كانت تطلّ من سلسلة الجبال قنزعة نور رهيب : البركان «يايما» (Llaima) كان يستيقظ .

إن «تيموكو» (Temuco) هي مدينة رائدة ، من هذه المدن التي لا ماض لها ولا تراث ، غير أن لها دكاكين حدادة ، بما أن الهنود لا يعرفون القراءة ، فإن دكاكين الحدادة تتباهى بشعاراتها البارزة في الشوارع : منشار ضخمة ، قدر كبيرة ، قفل فخم ، مغرفة هائلة . هناك بعيداً محلات الاسكافية ، عليها جزمة عظيمة .

إذا كانت «تيموكو» هي السبّاقة الرائدة في الحياة التشيلية بأراضي جنوب تشيلي ، فإن هذا يعني تاريخاً دامياً طويلاً .

أثناء زحف الفاتحين الأسبان ، بعد ثلاثمائة سنة من الكفاح والنضال ، اضطرت قبائل (أراوكانو) إلى التقهقر نحو تلك المناطق الباردة . لكن التشيليين واصلوا ما سُمّي بـ«تهدئة أراوكانيا» ، أي ، مواصلة حرب بالدم والنار لانتزاع الأراضي من أبناء



وطننا، ولقد استخدمت كل أصناف الأسلحة بسخاء ضد الهنود: إطلاق نيران البنادق عليهم، إحراق أكواخهم، ومن بعد، بطريقة أكثر أبوية، استعمل القانون والخمر، فالحمامي أصبح اختصاصياً كذلك في إجلائهم عن أراضيهم، والقاضي أدانهم حين اعترضوا، والكاهن هددهم بالنار الخالدة الدائمة. أخيراً، ماء الحياة (العرق) أنجز تصفية جنس عريق عظيم، من مآثره الشجاعة والجمال، وهو ما تركه محفوراً في مقاطع شعرية من حديد ويشب، السيد (الونسو دي ارثيا)<sup>(١)</sup> في ديوانه «أراوكانا».

والداي هما من بلدة «بارال»<sup>(٢)</sup>، حيث ولدت أنا، هناك، في وسط تشيلي، تنمو الكرمة ويكثر النبيذ. من غير أن أذكر، دون أن أعرف إن كنت نظرت إليها مرة بعيني، ماتت أمي السيدة (روسا باسوالتو). أنا ولدت في الثاني عشر من شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٠٤. بعد شهر، في آب (أغسطس)، هلكت أمي بمرض السل، أمي لم تعد توجد.

الحياة كانت قاسية بالنسبة لصغار المزارعين في وسط البلاد. لقد كان لجدي السيد (خوسه انخل ريبس Jose' Angel Reyes) قليل من الأرض وكثير من البنين. لقد كانت أسماء أعمامي تبدولي وكأنها أسماء أمراء من ممالك نائية قديمة. فقد كانوا يسمون (أموس)، (أوسياس)، (خويل)، (أباديس Abadias)<sup>(٣)</sup> والذي كان اسمه بسيطاً (خوسه ديل كارمن). هجر أبي ملكيات أبيه وهو شاب صغير ليعمل في سدود ميناء «تالكاهوانو». ثم أصبح عاملاً في السكك الحديدية بـ«تيموكو».

كان سائق قطار صابورة. قلائل هم الذين يعرفون ما هو قطار صابورة. في المنطقة الجنوبية ذات الزوايح الهائلة، تجرف المياه القضبان الحديدية إن لم يكن قد وضعت لها حصوات وحجيرات بين الروافد، ولذلك فإنه يجب أن تستخرج الصابورة من المقالع في قفف ثم يقلب الحجر الصغير إلى العربات المستوية السطوح في القطار. قبل أربعين سنة كان سائقو قطار من هذا النوع يجب أن يكونوا فطاحل أشداء. أما أجور الشركة فقد كانت بائسة جداً، وما كان يطلب من الذين كانوا يريدون العمل في

(١) الونسو دي أرثيا: شاعر إسباني (١٥٣٣-١٥٩٤).

(٢) بارال (Parral): معناها، العرائش أو الدوالي.

(٣) يقال إن أسرة (نيرودا) كانت يهودية ثم تنصرت.

القطارات الصابورية أن يبرزوا شهادة بلا سوابق (لا حكم عليه) . والذي كان يسوق القطار، ليس إلا ، لكنه كان قد تعود على الأمر والطاعة فهو أحياناً يأمر وأحياناً يطيع . ولطالما أخذني معه ، كان الرجال هناك يقتلعون الأحجار في منطقة «بوروا» التي هي القلب البري للشجر والتي كانت مسرحاً للمعارك الراهبة بين الإسبان والأراوكانيين .

كانت الطبيعة هناك تمنحني نوعاً من النشوة وتبعث فيّ شيئاً من الشمالة . لشدة ما كانت تجذبني العصافير ، الخنافس ، بيوض الحجل ، وكم كان صعباً العثور عليها خبيثة بين الفجاج والشقوق ، غامقة اللون براقّة الحيا والبشرة ، لونها كان شبيهاً بلون ماسورة البندقية . ولشد ما كنت أعجب بكمال الحشرات ودقة إبداعها . كنت ألتقط «أمات الحنش» . بهذا الاسم الغريب كان يشار إلى كبرى الحشرات من صنف مغمدمات الأجنحة ، سوداء الجبلة ، صقيلة البدن ، لماعة المظهر ، متينة الأضلاع ، قوية الهمة ، عملاقة الحشرات في تشيلي . لقد كانت رؤيتها بغتة تقشعر لها الأبدان ، رابضة في أحضان جذوع شجر «الماكي»<sup>(١)</sup> والتفاح البري و«الكوبيهوية» ، لكنني كنت أدري أنها جد قوية ومنتينة ، فلو دست عليها بأقدامي لن تتهشم . وهي في صلابتها الدفاعية العظيمة ما كانت لتحتاج لسلاح السم .

إن استكشافاتي هذه كانت تثير حب الاستطلاع في نفوس الشغيلة ، وسرعان ما أخذوا يولون اهتماماً بهذه المكتشفات . فما إن يسهو والذي أو يلتهي حتى ينطلقوا إلى الغابة البكر ، وكانوا يعثرون لي على كنوز غريبة عجيبة ، طبعاً ، بمهارة وذكاء وقوة تفوق ما كان عندي من هذه المواهب . من بين هؤلاء الرجال كان ثمة رجل اسمه (مونخه) ، كان والذي يقول عنه إنه ضارب سكاكين خطير . وكان له في وجهه الأسمر خطان كبيران ، أحدهما كان عبارة عن ندبة شاقولية خدتها على خده حد سكين ، والخط الآخر كان مرسم ابتسامته البيضاء ، أफीة الطيف ، مفعمة باللطافة والمكر معاً . (مونخه) هذا كان يجلب لي زهور شدر «الكوبيهوية» البيضاء ، عناكب كثيفة الشعر ، أفراخ الحمامات المطوقة ، وذات مرة عثر لي على ما هو أكثر خلباً للأبصار ، أحضر لي جعل شجرة «الكوبيهوية» والقمر . لست أدري إن كنتم قد رأيتموه ذات مرة ، فأنا لم أراه إلا في تلك المرة . كان برقاً يرتدي قوس قزح . لقد كانت

(١) ماكي (Maqui) : الكلمة من أصل «أراوكاني» ، وهو شجر يبلغ علوه ثلاثة أمتار ، له ثمر حلو الطعم .

ألوان ذيله وقشرته تخلب الأبصار بالأحمر والبنفسجي والأخضر والأصفر ، ثم فر من بين يديّ حين لم يكن معي (مونخه) لكي يعود فيلتقطه لي . ما استطعت قط أن أبرأ من تلك المشاهدة الخلابّة ولا نسيت أبداً ذاك الصديق . لقد قص عليّ أبي حكاية موته ، لقد وقع من القطار وهوى متدحرجاً في بادئ الأمر ، فتوقف القطار ، لكن ، كما كان يروي لي أبي ، ما عثروا إلى على جثة هامدة وكيس من العظام .  
إنه لمن الصعوبة بمكان إعطاء فكرة دقيقة عن دار مثل دارنا ، فقد كانت داراً تقليدية كأغلب دور الثغر قبل ستين سنة .

أولاً ، المساكن العائلية كانت تتحاذى ، بعضها كان يتصل ببعض ، هناك في عمق كل فناء كان يسكن آل (رييس) ، آل (اورتيغا) ، آل (كانديا) ، آل (ماسون) . وكانت هذه العائلات تتبادل الأدوات أو الكتب أو الحلويات في مناسبات أعياد الميلاد ، أو المراهم لذلك ، أو المظلات أو الطاولات والكراسي .  
هذه الدور الرائدة كانت تغطي حاجات شعب بكامله وتلبي فعالياته .

كان زعيم آل (ماسون) هو السيد (كارلوس Carlos) وكان ذا شعر أبيض كثيف مسترسل يشبه (أميرسون)<sup>(١)</sup> ، وقد قدم من أمريكا الشمالية . وقد كان أبناؤه أصليين في انتسابهم إلى طائفة «كربويوس Carillos»<sup>(٢)</sup> . وكان له كتابه المقدس وله نواميس يسير عليها ويطبّقها ، لم يكن إمبريالياً ، بل كان مؤسساً أصلياً . في هذه الأسرة لم يكن أحد يملك شيئاً من المال ومع ذلك فقد كانت تمولها مطابع وفنادق ومحلات بيع اللحوم . بضعة من أبنائه كانوا مديري صحف وآخرون كانوا عمالاً في المطبعة نفسها . كل شيء كان يمضي مع مضي الزمن وكل الناس كانوا يظنون فقراء كما كانوا عليه من قبل . الألمان فقط كانوا يواصلون حديثهم الفائنض عن حده ، عن ممتلكاتهم وثوراتهم ، وهذا ما كان يميزهم عن غيرهم من سكان الثغر .  
فدورنا كان لها شيء من حقل أو بعض من مرآب ، تعلن عن نفسها ؛ فما إن يدخل المرء حتى يرى براميل وأدوات ومطايا وحاجات صعبة الوصف .

كانت الغرف تمكث دائماً من غير إتمام وانتهاء ، والسلالم أو الأدراج غير مكتملة البناء ، وداثماً كانوا يتحدثون عن ضرورة مواصلة التعمير والبناء ، ثم شرع الآباء

(١) أميرسون : شاعر وكاتب من الولايات المتحدة الأمريكية (١٨٠٣-١٨٨٢) .

(٢) كربويوس : هو من كان أمريكياً من أصل أوروبي ، و(S) هو حرف الجمع في اللغة الإسبانية .

يفكرون في ضرورة إدخال أبنائهم إلى الجامعات .  
في دار السيد (كارلوس ماسون) كانت تجري الاحتفالات الكبرى في مناسبات الأعياد .

في كل وليمة كان يدعو إليها ، كان ثمة أوزّ مع كرفس ، خرفان مشوية على السفود وحليب مخثر مثلج في نهاية الأكل . منذ كثير من السنوات لم أتذوق طعم الحليب المخثر المثلج . رب العائلة ذو الشعر الكثيف المسترسل الأبيض كان يجلس في رأس المائدة غير المتناهية ، وإزاءه زوجته السيدة (مياثيلا كانديا) . خلفه كان يوجد علم تشيلي كبير وقد ألصق عليه بدبوس راية أمريكا الشمالية ولكن بحجم صغير جداً ، هذا كان أيضاً يمثل نسبة حصة الدم ، فنجمة علم تشيلي الوحيدة كانت تسود وتطفى .

في دار آل (ماسون) هذه كان ثمة قاعة أخرى كذلك ، لم يكن يسمح لنا نحن الصغار بالدخول إليها ، ما عرفت أبداً لون أثاثها حين كنت ألج إليها لأن هذا الأثاث كان مغطى بأغطية بيضاء تمنع عنها التوسخ والتلف إلى أن هبت النار يوماً فابتلعت الأثاث وأعطيته . كان في هذه القاعة مجمع (البوم) صور للأسرة . وكانت هذه الصور أكثر رقة وروعة من صور التكبيرات الفظيعة التي اجتاحت الثغر في ما بعد .  
في هذه القاعة كان معلقاً رسم أمي داخل إطار ، كانت سيدة ترتدي ثوباً أسود ، نحيلة متأملة . لقد قالوا لي إنها كانت تكتب الأشعار ، غير أنني ما شاهدت هذه الأشعار أبداً ، لم أر إلا ذاك الرسم البديع .

تزوج والدي للمرة الثانية بالسيدة (ترينداد كانديا ماريبرده) ، فغدت بهذا خالتي زوجة أبي . يبدو لي شيئاً مستحيلاً قبيحاً أن يطلق هذا الاسم على الملاك الذي كفل طفولتي وحدث عليهما . لقد كانت امرأة نشيطة عذبة ، كان له روح الدعابة الريفية وكان لها طيبة حيوية متجددة فياضة .

فما إن كان يذلف والدي إلى الدار حتى تستحيل إلى طيف عذب وظل خفيف ليس إلا ، كجميع نساء ذلك الزمن وذاك المكان .  
في بهو دارنا رأيت رقصات «ماثوركا»<sup>(١)</sup> و«كوادريا»<sup>(٢)</sup> تبعث الفرح والطرب .

(١) ماثوركا: الكلمة من أصل بولوني ، وهي رقصة بطيئة الحركات ، تعبر عن الود والمحبة .

(٢) كوادريا: هي رقصة جماعية ، تعبر عن التألف والانسجام .

كان في دارنا كذلك صندوق يحتوي على أغراض وأشياء ساحرة فاتنة . وفي أسفله كان يلتمع قفص رائع . ذات يوم ، بينما كانت «أمي» تعيد تنظيم تلك السفينة المقدسة ، وقعت على رأسي في جوف الصندوق لأبلغ ذاك القفص . لكن مع نحو عمري وجسمي كنت أفتحه سرا لأنظر ما فيه ، كانت فيه مراوح نسائية ثمينة جداً لم تمس قط .

أحتفظ بذكرى أخرى عن ذلك الصندوق . أول رواية غرامية أثرت بي وهي عبارة عن بطاقات بريدية مرسله من شخص ما ، يتوقع ، لم أعد أذكره ، أهو (انريكه) أم (البرتو) ، وكانت جميعها مرسله إلى (ماريا ثيلمان) ، وكانت هذه البطاقات رائعة حقاً ، فهي صور لمثلاث شهيرات في ذلك الوقت مطلية ببرنيق وكانت ما تزال في رونقها غير متلفة ولا ممحوة وأحياناً كانت ملتصقة عليها خصلات شعر . كذلك كان في هذه البطاقات صور قلاع ومدن ومناظر طبيعية غير مألوفة . خلال عدة سنوات كنت أتمتع برؤية الصور فقط ، غير أنني ما إن كبرت قليلاً حتى أخذت أتلذذ بقراءة تلك الرسائل الغرامية المسطرة بخط جميل متقن . وكنت دائماً أتخيل ذلك العاشق أنه رجل بقبعة سوداء وعكاز ، وبألماس في ربطة عنقه ، بيد أن تلك السطور خطتها يد عاشقٍ وكه ، ومداد عاطفة جيّاشة أخاذه ، لقد أرسلها مسافر من جميع أنحاء العالم . كانت مدبجة بعبارات ساحرة باهرة أملتها جراءة عشق واندفاع هوى . شعرت أنني قد بدأت أعشق أنا كذلك (ماريا ثيلمان) ، لقد كنت أتصورها ممثلة أنوفا متوجة بالدر والجوهر . لكن كيف وصلت هذه الرسائل إلى صندوق أمي؟ ما استطعت أن أعرف ذلك قط .

ها هو ذا عام ١٩١٠ يصل إلى «تيموكو» . في هذا العام الذي أذكره دائماً دخلت إلى المدرسة . كانت عبارة عن دارة كبيرة فسيحة ذات قاعات غير متناسقة وسرادب تحت الأرض معتمة . وهناك من علو المدرسة كان يلمح ، في الربيع ، نهر «كاوتين» المنعطف اللذيذ وهو يصفح ضفافه العامرة بأشجار التفاح البرية .

كنا نهرب من الدروس لكي نغطس أرجلنا في الماء الفرات الذي يتفرق فوق الأحجار الصقيلة البيضاء .

لكن المدرسة كانت حقلاً لمجالات عديدة بالنسبة لأعوامي الستة . فكل شيء كان له احتمال المجهول . منخب الفيزياء الذي ما تركوني أدخله أبداً ، كان مليئاً بأدوات باهرة ، بأنابيب معوجة ، بأوان كثيرة . المكتبة كانت بشكل دائم مغلقة أبوابها . ما

كان أبناء الرواد يتذوقون المعرفة والعلم . بيد أن القبو أكثر الأماكن سحراً وروعة . ففيه كان يخيم السكون وتسود العتمة ، وهناك كنا في ضوء الشموع نلعب لعبة العسكر واللصوص ، فكان الغالبون يربطون الأسرى بالاعمدة العتيقة . ما زلت حتى الآن أشتّم رائحة الرطوبة ، رطوبة مكان محصور ، رطوبة جدث ، رطوبة كانت تفوح من قبو مدرسة «تيموكو» .

كنت آخذ بالنموّ جسماً وعقلاً ، وراحت تثير اهتمامي الكتب وراحت تجول روحي عبر مناطق الحلم في حماسة (بوفالو بيل Buffalo Bill)<sup>(١)</sup> وفي رحلات (سالغاري Salgari)<sup>(٢)</sup> . أما أوائل الحب النقية جداً فقد كانت تفيض في رسائل موجهة على (بلانكا ويلسون) . وكانت هذه الفتاة هي ابنة حداد البلدة الشهير ، وبناء على طلب أحد الفتيان التائهين في حبها كنت أكتب باسمه هذه الرسائل الغرامية إليها . لم أعد أذكر كيف كانت هذه الرسائل ، لكن ربما أنها باكورة أعمال الأدبية ، إذ إنه ، ذات مرة ، سألتني زميلتي الفتاة المعنية عما إذا كنت أنا هو من كان يصوغ لها هذه الرسائل الغرامية التي كان ينتحلها عاشقها حين يحشرها في يدها ، ما كنت لأجرؤ على إنكار أعمال الأدبية ، وبتلكو أحببتها أن أجل . إذآك ناولتني سفرجلة لم أشأ أن أقضمها فاحتفظت بها وكأنها كنز ثمين ، وهكذا ، وقد أجلت عن قلبها صاحبي ، حللت موضعه فمضيت أدبج لها رسائل غرامية لا تنضب ولا تنتهي ورحت أكنز سفرجلة إثر سفرجلة .

ما كان صبيان المدرسة يعرفون أنني شاعر ، وإن عرفوا ما كانوا يقدرّون لي هذه الموهبة . لقد كان للشعر هذا الطابع الرائع طابع «فار ويست» الخالي من الأوهام والهواجس . ألقاب زملائي كانت على النحو التالي : (شناكس) ، (شيلير) ، (هاوسيرس) ، (سميت) ، (تايتوس) ، (سيرانيس) . وكانت ألقاب عائلتنا متشابهة فهي : (ارائناس) ، (راميريث) ، (ريببس) . لم تكن هناك ألقاب «بسكوية» . كان ثمة ألقاب «سيفارديّة» : (البالاس) ، (فرانكو) . كانت هذه ألقاب إيرلاندية : (ميك غينيتيس) ، بولونية : (يانيشيويكيس) . كانت تشعّ نوراً غامقاً الألقاب الأراوكابية ،

---

(١) بوفالو بيل: هو ممثل من الولايات المتحدة كان «بطلاً» من أبطال الغرب الأمريكي في الأفلام ، يسلي

الأطفال ويشير حماسهم (١٨٤٦-١٩١٧) .

(٢) سالغاري : كاتب إيطالي (١٨٦٣-١٩١١) .

وهي تفوح برائحة الخشب والماء : (ميليبيلوس) ، (كاتريوس) .  
 كنا نتراشق ، أحياناً ، في البهو المغلق ببلوطات<sup>(١)</sup> . لا أحد ، ما لم يكن قد تلقى ضرباته ، يعرف كم هو موجه البلوط حين يصيب جسم المرء أو رأسه . قبل الوصول إلى المدرسة ، كنا نملأ جيوبنا بالأسلحة والذخائر ، أما أنا فقد كانت لي قدرة ضئيلة ، أقذف من غير حول ولا قوة ، أصوبّ بقليل من البراعة والدهاء . بينما كنت أتلهى بتأمل البلوطة الرائعة الشكل كانت تتوالى عليّ أخواتها فيصيبني منها أسوأ قسط ولكن أكثره وأوجعه . كم هي جميلة البلوطة ، خضراء رشيقة ، بقلنسوتها الخشنة الرمادية ، في أثناء ما كنت أحاول ، بغباوة وقلة دراية ، أن أصنع منها غليوناً من هذه الغليونات التي كان يصنعها رفاقي ، كانوا يتخاطفونها مني ، بعد أن ينصبّ فوق رأسي طوفان من زخات البلوط ووخزاته .

خطر لي ، حين كنت في السنة الثانية من المدرسة الابتدائية ، أن أضع على رأسي قبة غير نافذة للماء ، ذات لون أحمر فاقع ، وكانت هذه القبة لوالدي ، بما أن دثارها القشتالي<sup>(٢)</sup> وسهامها ذات الشارات الخضراء والحمراء كانت تسحرني وتدهشني ، فقد كنت أضعها ، كلما استطعت ذلك ، وأمضي بها إلى المدرسة مختالاً مزهواً . ذات مرة كانت السماء تمطر بلا هوادة ولا رحمة ، إذن ، فليس هناك أفضل من هذه القبة ذات المشمع الأخضر التي كانت تبدو وكأنها ببغاء ، وما إن ولجت البهو الذي كان يتراكم فيه حوالي ثلاثمائة من اللصوص وقطاع الطرق ، حتى طارت قبعتي كما يطير ببغاء . وكلما كنت أتبعها وأوشك أن أصطادها ، كانت تعود فتطير من جديد بين النباح والعواء والمواء بما كان يخز في سمعي ويصمّ أذني ، في حياتي كلها ما سمعت قط مثل هذه الجبلية ومثل هذا الضجيج ، أما القبة فقد طارت إلى الأبد .

لست أرى جيداً في هذه المذكرات تتابع الزمن وتسلسل الحوادث بدقة ونظام ، تتشابك في مخيلتي وتتراكم أحداث كثيرة كانت ذات أهمية بالنسبة لي ، ويبدو لي أن هذه الحادثة الممتزجة في شكل غريب بالتاريخ الطبيعي هي أولى مغامراتي الهزلية . ربما كان الحب والطبيعة منذ مطلع حياتي هما فلزات شعري .

(١) بلوطات : هكذا في الأصل Bellotas عن العربية .

(٢) القشتالي : نسبة إلى «قشتالة» Castilla وهي المنطقة الوسطى في أسبانيا .



مقابل دارنا كانت فتاتان تقيمان هناك ، على الدوام وباستمرار كانتا ترميانى بنظرات تبعث في نفسي الحياء والخجل . بقدر ما كنت أنا وجلاً خجلاً ، صامتاً ساكناً ، كانتا هما يافعتين قبل الموسم والأوان ، ماكرتين شيطانتين . في إحدى المرات ، بينما كنت واقفاً على باب دارنا وأنا أحاول ألا أنظر إليهما ، لمحت بين أيديهما شيئاً خبلني فخبلني ، فدنوت منهما بحيلة واحتياط فأرتاني عش عصفور بري ، منسوجاً من الطحلب واليريشات ، يكنّ في داخله بُيضات صغيرة رائعة ذات لون فيروزي . حين هممت لأخذه ، قالت لي واحدة منهما إنه بادئ ذي بدء لا بد من أن يجسّاني ويتحسّساني تحت سروالي فارتعدت هلعاً وأقفلت مسرعاً ، تطاردني الفتاتان البكران اللتان كانتا تلوّحان بالكنز المثير ، في أثناء عملية المطاردة دلفت في زقاق باتجاه محل خاو كان مخبئاً يمتلكه والدي ، وهناك أدركتني المعتديتان وطفقتا تنزعان عني سروالي وملبسي ، وما إن همّتا بي حتى سمعت في المشي خطوات أبي ، إذآك تهشّم العش وانفقصت بيضاته البديعات الرائعات في ذآك المخبز المهجور ، بينما كنا نحن : المعتدى عليه والمعتديتان ، نكتم أنفاسنا تحت المنضدة .

أذكر كذلك أنه ، ذات مرة بينما كنت أفتش عن حاجات عالمي الصغيرة وحيواناته الضئيلة في فناء دارنا ، عثرت على فجوة في السياج الخشبي ، نظرت من خلال الفجوة فرأيت حوشاً شبيهاً بحوش دارنا ، أرضاً بوراً ودشرة خلاء ، تراجعت بضع خطوات لأنه تولّد لديّ إحساس غامض مبهم بأنني على وشك أن أدوس شيئاً ما ، وبغثة ظهرت يد صغيرة ، إنها يد طفل في سنّي ، لما اقتربت من جديد لم أعثر على يد الطفل بل على حمل صغير أبيض اللون ضئيل الحجم .

كان حملاً ذا صوف قليل باهت اللون ، قد فرت منه العجلات التي كان يتدحرج عليها ، ما رأيت طيلة حياتي حملاً في رشاقة ذاك الحمل وجماله ، ذهبت إلى بيتنا لأعود له بهدية وضعتها في المكان ذاته! كوزا من الصنوبر ، نصف مفلوق ، ذا شذى ، بلسمياً ، وكنت أنا أعبده وأتعشّقه .

أبداً من بعد ، ما عدت فرأيت يد الطفل ، ما شاهدت قط حملاً مثل ذاك الحمل . لقد فقدت الحمل في حريق اختطفه مني ، وما زلت حتى الآن على كبر عمري ، حين أمرَ بحمل للعب الأطفال ، انظر خلصة إلى الواجهاة الزجاجية ، علني أعثر عليه ، لكنني عبثاً أبحث ، فلقد عجزت المصانع أن تأتي بحمل كمثل ذاك الحمل .

مثلما كان يحل البرد والمطر ووحل الدروب ، أي شتاء جنوب أمريكا المستهتر المدمر ، كان كذلك يكتسح هذه المناطق الصيف الأصفر اللافح ، كانت تحيط بنا الجبال البكر ، غير أنني كنت في شوق عارم لرؤية البحر والتعرف عليه . لحسن حظي استطاع أبي ذو النية الطيبة أن يحصل على دار أعاره إياها أحد عرّابيه العديدين في السكة الحديدية . في الساعة الرابعة ليلاً (ما استطعت حتى الآن أن أعرف لماذا يقال الساعة الرابعة صباحاً) ، وفي جو يسوده الضباب الكثيف ، أيقظ والدي ، السائق ، جميع من في الدار بصفّارته ، صفّارة سائق . منذ هذه اللحظة ما عاد ثمة سلام وهدهوء ، ولا حتى ضوء ، وعلى لهب الشموع الذي كان يترنح ويذبل كلما تسللت من جميع الجهات هبّات الرياح ، كانت تلوب أُمي ، أختي (لاورا) ، أخي (ارودولفو) ، الطاهية ، يتراوحن من مكان إلى آخر ، ويطوون الفرش الكبيرة فتغدو مثل كرات ضخمة ، ويلفونها بأقمشة من القنب الهندي ، وكان لا بد من شحن الأسرة في القطار ، حين انطلقنا إلى المحطة القريبة كانت الفرش لما تزال ساخنة دافئة . أما أنا ، المراض والمحموم بطبيعتي ، فكنت أشعر بالغيثان والقشعريرة وقد قفزت من عز نومي ، بينما كانت التحركات في الدار تتابع من غير هواده وبلا انتهاء . ما بقي شيء لم يحمل في سبيل هذا الشهر ، شهر عطلة الفقراء ، حتى المجففات المصنوعة من الصفصاف والتي كانت توضع فوق المجرم المتوقدة حتى تسخن ثم تجفف بها الشراشف والملابس التي كانت تغدو بليلة دائماً بسبب رطوبة الطقس ، قد رقت فحشرت في العربة التي كانت تنتظر الطرود والحزم .

كان القطار يجتاز جزءاً من تلك الناحية الباردة ، من «تيموكو» حتى «كاراهوه» . كان يعبر مساحات واسعة غير أهلة لا بالبشر ولا بالزرع ، كان ينسرب عبر الغابات البكر ، كان يرتج كأنه هزة أرضية وهو يخترق الأنفاق والقناطر . كانت المحطات تبدو منعزلة في وسط الحقول بين الأشجار الشذية وأشجار التفاح المزهرة . كان الهنود «الاراوكانوس» بأزيائهم الطقوسية وبهيبتهم العريقة ينتظرون في المحطات لكي يبيعوا للمسافرين خرافاً ، دجاجاً ، بيضاً ، منسوجات . وكان والدي بعد الكثير من المفاصلة والمماحكة يشتري شيئاً منهم . وكم كان جميلاً أن يرى وهو يشيل دجاجة حتى مهوى لحيته الصغيرة الشقراء ، في وجه امرأة «أراوكانية» جلفة عنيدة لا تخفض ثمن بضاعتها ولا بنصف فلس .

كان لكل محطة اسم جد بديع ، هذه الأسماء جميعها تقريباً كانت تراثاً ينحدر من منازل «الراوكانوس» القديمة . وهذه المنطقة كانت مجالاً للمعارك الطاحنة بين الغزاة الأسبان وأوائل التشيليين ، أولئك الذين كانوا أبناء هذه الأرض عن أصالة وصدق محتد .

«لابرانشا» كانت أولى هذه المحطات ، ثم تتوالى محطة «بوروا» فمحطة «رانكيلكو» . أسماء ذات شذى كشذى النباتات البرية ، كانت تأسرني بنبرات مقاطعها ، فهذه الأسماء «الأراوكانية» كانت تنبئ دائماً عن شيء لذيذ : شهد خبيء ، بحيرة أو نهر إزاء غابة ، جبل بلقب عصفور . كنا نجتاز «أمبريال» الضيعة<sup>(١)</sup> الصغيرة فذكرت أنه هنا أعدم الحاكم الأسباني الشاعر السيد (الونسودي ارثيا) . فلقد كانت هنا عاصمة الغزاة الفاتحين خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فاخترع «الأراوكانيون» تكتيك الأرض المحروقة ، فلم يدعوا حجراً على حجر في هذه المدينة التي وصفها (ارثيا) بالجمال والجلال .

لقد أن الوصول إلى المدينة النهرية ، فالقطار كان يطلق أكثر صفاراته فرحاً وكان يغطي الحقول والمحطة بدجاجير من خصلات الدخان الفحمي المنسدلة ، فشرعت الأجراس تدق وبدأنا نتنسم عطر المجرى المديد لنهر «أمبريال» السماوي الهادئ عند اقترابه من مصبه في المحيط . إنزال الطرود والحزم العديدة ، ترتيب الأسرة الصغيرة ، أركابها والأحزمة في عربة تجرها الثيران حتى تتوجه نحو المركب الذي سيهبط عبر نهر «أمبريال» ، كل ذلك كان عملية يقودها والدي ويوجهها بعينيه الزرقاوين وبصفيه القطاري . انحشرنا نحن والحزم في البويخرة التي كانت ستقلنا إلى البحر . لم يكن ثمة غرف في البويخرة ، ولذا فإنني قعدت قرب قيومها . كانت العجلات تحرك بريش مراوحها التيار النهرية ، وكانت آلات السفينة الصغيرة تلهث وتسهل ، وكان أناس الجنوب المطرقون يمشون بلا حراك منتشرين على ظهر المركب .

كان ثمة أكورديون يرسل نغمات أساه الرومانطيكية ، يبعث شكواه إلى الحبيب . ليس من شيء يجتاح قلباً ذا خمسة عشر عاماً كمثل إبحار عبر نهر عريض مجهول بين ضفاف جبلية باتجاه البحر الطلسم .

---

(١) الضيعة : هكذا في الأصل Aidea عن العربية .

إن «باخو امبريال» (1) «Bajo Imperial» كان عبارة عن صف من المنازل ذات سقوف ملونة تقوم على جبهة النهر . من الدار التي نزلناها بله من الأرصفة المتشققة حيث رسا المركب ، أخذت أنصت ، من على بعد ، إلى الرعد البحري ، إلى هيجان قصبي . لقد كان التموج يتسرب إلى أعماق وجودي .

كانت هذه الدار التي نزلناها ملكاً للسيد (اوراثيو باتشيكو) ، كان مزارعاً جباراً فذاً ، كان خلال هذا الشهر الذي أحتلنا فيه داره ، يمضي عبر التلال والدروب الوعرة الصعبة بعربته وآلته الدارسة ، وكان بألة أخرى يحصد القمح للهنود الحمر ولبعض الفلاحين النائين عن سكان الساحل . كان رجلاً ضخماً ، على حين غرة ودون سابق إنذار أو إخبار ، كان يقتحم الدار ويفجأ أسرتي السكك حديدية ويتكلم بصوت جهوري ويجسم مغطى بالغبار وتبن الحبوب ، ثم بالجلبة ذاتها وبالسرعة نفسها يعود إلى أعماله في الجبال ، وكان بالنسبة لي أنموذجاً آخر لهذه الحيات الصعبة القاسية في منطقتي الجنوبية .

كان كل شيء يبدولي غريباً غامضاً ، الدار نفسها ، الشوارع المتشققة ، الكائنات المجهولة التي تحيط بي ، النغم العميق للبحر المديد البعيد . كانت للدار ، كما بدالي ، حديقة فسيحة غير منظمة ولا معتنى بها ، وفي وسطها ، فسحة كانت قد أتلفتها الأمطار ، وكانت هذه الفسحة مصنوعة من أخشاب بيضاء تغطيها بعض النباتات . وما من أحد غير شخصيتي التي لا أهمية لها ، كان يأوي إلى هذه الوحدة الظليلة حيث تنمو أشجار اللباب وزهور العسل وشعري . على فكرة ، كان في تلك الحديقة الغربية شيء آخر يخلب الألباب ويشير المشاعر : زورق كبير ، غدا يتيماً بعد أن غرقت أمه السفينة ، كان هناك في الحديقة يرقد بلا أمواج هائلة ، ساكناً بين شقائق النعمان .

ما هو غريب أيضاً في تلك الحديقة هو أنه ، سواء أكان ذلك عن تصميم أو عن غير تصميم ، ما كان يوجد من النبات إلا شقائق النعمان ، أما النباتات الأخرى فقد انسحبت من ذلك المكان الظليل . وكانت شقائق النعمان على أنماط وألوان مختلفة ، منها ما هو كبير أبيض كالحمامة ، منها ما هو قرمزي كقطرات الدماء ، منها ما هو بنفسجي وأسود كالأرملة المنسية . ما كنت شاهدت من قبل مثل هذه الكثرة من

(1) باخو : معناها ، تحت ، فالبلدة اسمها إذن : امبريال التحتانية .

زهور شقائق النعمان ، وأبدا من بعد ، ما عدت فرأيت مثلها كثرة وتنوعاً . مع أنني كنت أنظر إليها بكثير من الاحترام والإجلال ، وبشيء من الخوف الخرافي الذي لا تبثه إلاها من بين أصناف الزهور كلها ، فإنني من حيث إلى حين كنت أقطف واحدة منها فترك ساقها المهشمة في يدي حليبا حشن الملمس ، ورشة من الشذى الدفين ، ثم أداعبها وأدغدغها ثم أحتفظ بها في كتاب بأوراق حريرية فاخرة . لقد كانت هذه الشقائق بالنسبة لي فراشات كبيرة لا تحسن القفز ولا تعرف الطيران .

حين مضيت إلى المحيط لأول مرة وبقيت وحيداً أمامه ، شعرت بالهلع والذهول . ومن هناك ، بين ربوتين كبيرتين ربوة «أل هويلكة» وربوة «ال ماوله» ، كان يصطخب غضب البحر ، ليس غضب الأمواج الهائلة الهاوية التي تعلو عدة أمتار فوق رؤوسنا فحسب ، بل كذلك كان دوي قلب جم ، وجيب كون وخفقان م .

هناك على شاطئ البحر ، عائلتي كانت تفتersh أعطيته وتعدأوانيتها ، وكان الأكل يبلغ فمي رملي الطعم واللون ، ولكن هذا ما كان يهمني كثيراً بل إن الذي كان يبعث في نفسي الهلع والخوف هو اقتراب اللحظة التي يأمرنا فيها والدنا بالاستحمام البحري الذي كان خبزنا كفاف يومنا ، ومع أننا كنا : أنا وأختي (لاورا) ، بعيدين عن الأمواج العملاقة ، فإن الماء كان يجلدنا بضربات سياطه الباردة اللاذعة . وكنا نظن مرتعدين أن إصبع إحدى الموجات سوف يجرجرنا نحو جبال البحر السامقة الرهيبة ، وعندما انتهياً للموت وقد أخذنا نتقارب يدأ بيد ، وبأسنان مصطكة برداً وخوفاً وبأضلاع دكناء مزروقة ، ترن الصفارة القطارية ويأتي أمر والدنا لينقذنا من العذاب . سوف أروي الآن غرائب وعجائب أخرى عن تلك المنطقة ، وسأكتفي بقصتين الأولى عن الخيول والأخرى عن دار النساء الثلاث ، الساحرات الرائعات .

في ريف البلدة كانت تشمخ بيوت كثيرة ، كانت عبارة عن أماكن للدباغة ، في ما أظن . يملكها بعض «البشكنس»<sup>(1)</sup> الفرنسيين ، كان هؤلاء «البشكنس» دائماً ، يقومون في جنوب تشيلي بصناعة الجلود ودباغتها . الحقيقة هي أنني ما كنت أعرف

---

(1) البشكنس : هو الاسم الذي أطلقه العرب على «البسك» Vascos وهم شعب يسكن في شمال إسبانيا وجنوب غرب فرنسا ، لا يُعرف من أين جاء هذا الشعب ولا مصدر لغته ، فهي ليست من أصل لاتيني ، لم يعتنق «البسك» الديانة المسيحية إلا في وقت متأخر فقد بدأوا باعتناقها في القرن الثالث عشر .

على وجه الدقة عما كان عليه أمرهم وشأنهم ، بل إن ما كان يهمني معرفته هو أن أرى الخيول وهي تخرج من بوابات كبيرة في ساعة معينة عند الغروب لتكتسح القرية وتجتازها ، كانت الخيول مؤلفة من أحصنة ومهور وأفراس ذات أجسام ضخمة قوية ، أعرافها الكبيرة كانت تتدلى وكأنها ضفائر شعر أو خصلات صبية على سهوات الخيل العالية ، أرجلها ضخمة متينة مغطاة كذلك بغصون من الشعر تتماوج لدى القمص كأنها مجموعة من القنابر والقنزعات والخصلات ، حمراء ، بيضاء ، وردية اللون . لو أن البراكين تحب وتقمص لبدت مثل هذه الخيول الجسيمة الهائلة . كانت تمضي عبر الشوارع المغبرة المنقضة كأنها الزلزال الرجراج المهزاز ، غطاريس صناديد تختال وتنوس ، كانت كالتماثيل والأصنام المتحركة ، لا عد لها ولا حصر ، أبدا ما عدت فرأيت مثلها في حياتي ، اللهم إلا تلك التي شاهدتها في الصين محفورة منحوتة في الحجر الصلد نصباً وشواهد على أحداث سلالة (مينغ Ming) ، لكن مهما كان الحجر قيماً ومقدساً فإنه لا يمكن له أن يمثل أو يتمثل تلك الحيوانات الرائعة الفياضة بالحركة والحياة ، تلك الخيول بدت أمام مخيلتي الطفولية وكأنها تنبثق من ظلمات الأحلام لتلجّ في عالم آخر ، عالم العمالقة .

والواقع أن ذلك العالم كان مكتظاً بالخيول ، فعبر الشوارع ، كان الفرسان التشيليون والألمان والهنود الحمر من قبائل «مابوتشيس»<sup>(١)</sup> بعباءاتهم المغزولة المنسوجة من الصوف الأسود القشالي ، يمتطون سهوات خيولهم أو ينزلون عنها . وتبقى الخيول الضامرة أو المكتنزة ، النحيلة أو الثخينة ، هنك حيث يتركها فرسانها ، تعلق الكلاً وعشب الدروب ، تقذف الدخان والأنفاس من خياشيمها . لقد ألفت سواعد فرسانها وتعودت على حياة الدشرة الوحشة المنفردة . . . ثم ، إذا جاء المساء ، تؤوب مثقلة بأكياس العلف والعُدد والأدوات ، تمضي نحو الأرباض البعيدة المتشابكة ، تصعد الدروب الوعرة أو تقمص إلى الأبد في الرمال إزاء البحر . من حين إلى حين كان يخرج من إحدى وكالات الشغل أو من إحدى الحانات المعتمة أحد الفرسان «الأراوكانيين» ، يحاول ، بصعوبة ، أن يمتطي حصانه الثابت الراسخ ، ثم يولي وجهه شطر داره بين الجبال ، يترنح من جانب إلى آخر وقد بلغت منه الخندريس غايتها . حين أراه يشرع المسير ثم يواصل الطريق ، كان يخيل إليّ أن

(١) مابوتشيس : هو اسم آخر للقبائل «الأراوكانية» .

المسخ<sup>(١)</sup> الثمل سيهوي على الأرض كلما مال به جسده ناحية أو أخرى بشكل خطير ، غير أنني كنت أخيب في ظني وتحسبي ، فقد كان يعود فيستقيم ، ثم يميل إلى الجانب الآخر مرة أخرى ثم يعود فيستقيم وهكذا دواليك ، وفي كل مرة يستعيد أنفاسه ويلتصق بالسرج ، ثم يروح على ظهر حصانه يقطع فرسخاً إثر فرسخ إلى أن ينصهر والطبيعة الغابية البرية كأنه حيوان ساهم متردد ، لا يصيبه سهم ولا أذية . .

لقد عدنا ، دائماً بالاحتفالات والتحركات العائلية عينها ، لنقضني عطلة الصيف مرات كثيرة ، إلى هذه المنطقة المثيرة الساحرة . وكنت أنا أخذ في النمو ، أقرأ ، أكتب ، مع مضي الزمن ، بين فصول الشتاء المرة في «تيموكو» وبين فصول الصيف العجيبة في الساحل .

ألفت ركوب الخيل ، وحياتي كانت تصير أكثر علواً وأوسع مدى حين أتهادى عبر الدروب الطينية المزلاجة ، عبر الطرقات المنعطفة على حين غرة تخف للترحيب بي النباتات المتشابكة ، السكون أو نغم العصافير البرية ، حفيف شجرة مزهرة ملتخفة بشبو قرمزي كأنها أسقف جليل لهذه الجبال أو مندوفة بثلوج معركة أزهار مجهولة . أو تبرز من حين إلى حين كذلك زهرة الـ«كوييهويه» ، هكذا فجأة ، متوحشة ، برية ، وحشية ، مزمنة الألم والوحدة ، متدلّية كأنها قطرة دم نضرة . . . لقد تعودت على ركوب الخيل ، وتمرت باللجم والمهاميز القاسية التي كانت تظن تحت عقبي وكعبي . لقد بدأ اتصال ما بين سواحل لا نهاية لها وجبال كثيفة متشابكة وبين روحي ، أي بين هذه الأرض ، أكثر الأراضي وحشة في العالم ، وبين شعري . هذا جرى قبل سنوات كثيرة ، بيد أن هذا الاتصال وهذا الوحي وهذا الحلف المقدس مع الفضاء ، ما فتئت جميعها تقيم في وجودي ، تستمر في حياتي .

### أولى قصائدي:

الآن سأروي لكم حكاية عن العصافير ، كانوا في بحيرة «بودي» (Budi) يطاردون البجع بشراسة ، كانوا يقتربون منها بزوارقهم في صمت وسكون ، ثم في سرعة ، في سرعة يجففون البجع ، مثل القواديس ، شروعا بالطيران صعب ، إذ لا

(١) المسخ : El Centauro كلمة من أصل أغريقي ، وهي في الأساطير اليونانية مسخ نصفه إنسان والنصف الآخر حصان ، قد يكون النسناس .



بد لها من أن تجري متزجلة على سطح الماء لترفع في ما بعد بصعوبة فائقة أجنحتها الكبيرة . كانوا يدركونها فيقضون عليها بضربات هراوات ثم يحملونها .

أحضروا لي بجمعة نصف مية . كانت واحدة من هذه الطيور التي ما عدت فرأيت مثلها في الدنيا ، بجمعة ذات عنق أسود . سفينة من ثلج ، بعنق رقيق أهيئ ، كأنما أدخل في جراب ضيق من حرير أسود ، المنقار برتقالي اللون والعينان حمراوان . إن هذا حدث قرب البحر في «بورتو سابيدرا» ، ببلدة «أمبريال ديل سور»<sup>(١)</sup> .

لقد أعطونيها شبه مية ، غسلت جراحها وحشرت لها في حلقتها فتات خبز وفتايل سمك . كانت تتقيأ كل شيء ، ثم أخذت تستعيد قواها وتبرأ من أوجاعها ، وبدأت تعي بأني صديق لها . وبدأت أنا أعي أن الحنين يضيئها والشوق إلى الماء ينضيئها . فاحتضنت العصفور الثقيل بين ذراعيّ ومضيت عبر الشوارع لأخذها إلى النهر . كانت تعوم قليلاً ، قريبة مني ، كنت أريد لها أن تصطاد شيئاً فأدلها على الحجيرات في القعر وعلى الرمال حيث تنزلق أسماك الجنوب المفضضة . لكنها كانت تنظر البعد فتحشاه بعينين جد حزينتين .

هكذا كل يوم ، أكثر من عشرين يوماً ، كنت أخذها إلى النهر وأحملها إلى بيتنا . كانت البجمعة كبيرة ، حجمها حجمي . ذات مساء كانت غارقة في التفكير جداً ، سبحت قربي لكنها ما اهتمت بالزبابات التي أردت بها تعليمها الصيد من جديد . مكثت هادئة فأخذتها إلى حضني من جديد بنية أن أحملها إلى دارنا ، وما إن أوشكت أن ترتاح في صدري حتى شعرت أن شريطاً قد انحلّ ، إن شيئاً كأنه ذراع سوداء ، قد لمس وجهي وكشطه فالتفت وإذ بعنقها الطويل الملتوي يتهاوى . آنذاك تعلمت أن البجع حين تموت لا تغني .

إن الصيف لحر لافح في «كاوتين» . يحرق السماء والقمح . إن الأرض تود لو تستفيق من سباتها . والدور لم تتخذ عدتها للصيف ، كما لم تتخذ مؤونتها للشتاء . كنت أمشي عبر الحقول أسير وأمشي . أضيع في تلة «نييلول» (Nielol) . هأنذا وحدي ، جيبي مليء بالخنافس ، في صفت صغير أحمل عنكبوتاً كثيف الشعر حديث الصيد . السماء لا تُرى . الغابة دائمة الرطوبة ، أنزحلق ، فجأة يصرخ

(١) امبريال ديل سور : معناها امبريال الجنوب .

عصفور ، إنه الصراخ الشجي لـ «ال تشوكاوا»<sup>(١)</sup> (El Chucao) . تنمو من أخصص قديمي قشعريرة نذيرة رهيبة . زهور «ال كوبيهويس» هي قطرات دم تكاد لا تبين . لست غير مخلوق ضئيل تحت السراخس العملاقة الهائلة . قاب قوسين أو أدنى من فمي تطير حمامة مطوقة ، حفيف أجنحتها جاف خفيف . عصفير أكثر تحليقاً تضحك مني وتستهزئ بي ضحكة جشاء بحيحة . أتلمس الدرب فأجده وقد لا أجده . ها هو الليل يرخي سدوله .

لما يأت والدي بعد ، سيأتي في الثالثة أو الرابعة صباحاً . أصدع إلى غرفتي ، أقرأ لـ (سالغاري) . المطر ينسكب كأنه شلال . المطر والليل في لحظة يخيفان الكون . هأنذا هنا وحيداً أكتب الأشعار في دفتر الحساب . أنهض في صباح اليوم التالي مبكراً . الخوخ لما يزل أخضر . أقفز فوق الروابي ، أحمل معي عليبة صغيرة فيها ملح . أصدع إلى شجرة ، أتمركز في موضع مريح . أقضم في حذر خوخة فأنال منها فلقة ثم أغمسها في الملح فأكلها . هكذا إلى أن التهمت مائة خوخة . من بعد عرفت أنني أفرطت وأفضت .

بما أن دارنا قد احترقت ، فإن هذه الدار الجديدة تبדولي غريبة عجيبة . أصدع على سور الحائط وأنظر إلى الجيران ، ما من أحد . أرفع بعض العصي عن السور الخشبي ، لا شيء إلا عناكب بائسة صغيرة . هناك في آخر فناء الدار المرحاض . للأشجار القريبة منه يسارع ، أشجار اللوز تعرض فاكهتها المبطنة في قطيفة بيضاء . أعرف كيف أصيد قمع الذباب بمنديل دون أن أسبب لها أذى . أحتفظ بها سجيناً لفترة من الزمن وأدنيها من أذني . يا له من طنين رائع بديع .

يا للوحدة ، وحدة طفل شاعر صغير ، يرتدي السواد ، في الثغر الفسيح المديد الرهيب . كانت الحياة وكانت الكتب تجعلني أرى شيئاً فشيئاً غرائب كثيرة جمّة . لا أستطيع أن أنسى ما قرأته تلك الليلة : فاكهة الخبز أنقذت «ساندكان» وأصحابه في بلد بعيد يسمى «مالاسيا» .

لا يعجبني (بوفالو بيل) لأنه يقتل الهنود ، لكن يا له من عداء على الخيل . ماهر سريع ! يا للمروج ويا للخميات المخروطية الشكل ذات البشرات الحمراء!

---

(١) التشوكاوا : كلمة من أصل «مابوتشي» ، وهو عصفور في حجم الزرزور ، ذو ريش أغبر اللون ، يقطن الغابات الكثيفة جداً .

لقد سئلت مرات عديدة متى كتبت أولى قصائدي ، متى ولد فيّ الشعر . سأحاول أن أتذكر ذلك ، في مهتل طفولتي وفي بداية تعلمي الكتابة ، شعرت ذات مرة بعالج عارم يغمري فسطرت بضع كلمات شبه مسجوعة ، عجبت لها ومنها فقد كانت مختلفة متميزة عن الحديث اليومي والكلمات الأليفة . أعدت نسخها في خط أنيق بعد أن شذبتها ، كنت حينذاك أسير جوى عميق ، سجين شعور ما كنت شعرت به من قبل البتة ، شعور مستبطن غير مسبور ، نوع من الكآبة والأسى . كانت قصيدة موجهة إلى أمي ، أي ، إلى المرأة التي كنت أدعوها أمي ، إلى خالتي زوجة أبي الملائكية التي حمى ظلها الخفيف اللطيف طفولتي كلها وحبب عليها ورعاها . ما كنت بقادر على تقييم قصيدتي ، أخذتها إلى والديّ ، كانا في غرفة الطعام غارقين في حديث من أحاديثهما هذه التي كانا يهمسان بها همساً بصوت خفيض جداً ، أحاديث تفصل أكثر من نهر بين عالين : عالم الصغار وعالم الكبار ، وكان ذلك الحديث على ما يبدو خاصاً بعالم الكبار . مددت لهما الورقة ذات السطور ، وكنت ما زلت أرتعد من هول زيارة الوحي الأولى ، تناولها والدي وهو ساه غافل ، فقرأها وهو ساه غافل ، أعادها لي وهو ساه غافل ، ثم قال :

- من أين استنسختها؟

وتابع حديثه مع أمي في صوت خفيض عن شؤونهما المهمة العاجلة والأجلة . هكذا ولدت أولى قصائدي وهكذا تلقيت أولى عينات النقد الأدبي الغافل

الساهي .

بيد أنني كنت أمضي قدماً في عالم المعرفة ، في نهر الكتب على غير هدى أو ترتيب مثل بحار يبحر في الخضم وحده . ما كان ليرتوي أو يقنع نهمي للقراءة في آناء الليل وأطراف النهار . عثرت ، على الشاطئ بميناء «بورتو سايدرا» على مكتبة تابعة للبلدية وعلى شاعر أصيل ، هو السيد (اوغوستو وينتر) ، فأكبرني وأكبر فيّ نهمي الأدبي . «أفقراتها جميعها؟» كان يقول لي ، وهو يناولني كتاباً جديداً لـ(بارغاس بيلا) أو لـ(ايبسن Ibsen)<sup>(١)</sup> ، أو لـ(روكامبول Rocambole) . كنت ألتهم كل شيء دون تمييز كما النعامه .

في ذلك الوقت وصلت إلى «تيموكو» سيده طويلة القامة ، ترتدي ملابس طويلة

(١) ايبسن : هو الروائي والمؤلف المسرحي النرويجي الشهير (١٨٢٨-١٩٠٦) .

فضفاضة ، تنتعل حذاء ذا كعب واطى قصير . إنها المديرية الجديدة لمدرسة الإناث ، قدمت من مدينتنا الجنوبية ، من ثلوج «ماغا يانيس» . تدعى (غابرييلا ميسترال Cabriela Mistral) (١) .

كنت أنظر إليها وهي تجتاز شوارع قريتي بأثوابها السابغة الفضفاضة فكنت أحشاها . غير أنه ، حين قابلتها وجدتها فتاة طيبة . كانت تتألق أسنانها البيضاء في وجهها الملوح الذي يسوده الدم الهندي كما يسود في دن «أراو كاني» جميل ، حين تبسم ابتسامة عريضة سخية تضيء المكان .

ما كنت لأكون خليلاً لها لأنني كنت بعد صبياً هيباً مغرقاً في التفكير والتأمل . رأيته من بعد مرات قليلة ، وفي كل مرة أراها ، كنت أخرج وأنا أحمل كتباً تهديها إليّ ، مجموعة من الروايات الروسية تعتبرها هي أفضل وأجمل ما في الأدب العالمي . أستطيع القول إن (غابرييلا) قد أربكتني في هذه الرؤية الجدية الرهيبة الفظيعة ، رؤية الروائيين الروس ، وأن (تولستوي) و(ديستوفسكي) و(تشيخوف) كانوا الأثريين عندي وما زالوا يرافقونني .

### دار الأرامل الثلاث:

دُعيت ذات يوم لمشاهدة درس الحنطة بالأفراس ، كان البيدر في مكان عال بالجبال بعيد جداً عن القرية . استهوتني مغامرة أن أمضي وحيداً أستجلي الدروب وأتبينها بين سلسلة الجبال تلك . وإن تهت فلا ريب في أنني سأجد من يغيثني ويعينني . ابتعدنا : أنا ومطيتي ، عن «باخو امبريال» واخترقنا حاجز النهر . كان المحيط الهادي هناك يفك عقاله فيلطم في تواتر وكرف الصخور وأحراج ربوة «ماوله» . آخر تلة على الشاطئ ، شاهقة سامقة جداً . ثم انحرفت عبر ضفاف بحيرة «بودي» . تلاطم الأمواج كان يقذف قواعد التلة بضربات هائلة عنيفة . كان علينا أن ننتهز تلك الفرصة ، حين تتفتت إحدى الموجات وتتقهقر لتستعيد أنفاسها ، لنعبر بضيق شديد المضيق بين الربوة والماء ، قبل أن تأتي موجة جديدة تهرسني ومطيتي بمهراس التلة المسننة الحادة .

(١) غابرييلا ميسترال : شاعرة من تشيلي مشهورة جداً حازت على جائزة نوبل للآداب (١٨٨٩-١٩٥٧) .

عند الغروب وقد انقضى الخطر ومضى الحذر، بدت تتجلى صفيحة البحيرة الزرقاء الساكنة . كانت الرمال تنجرف بعيدة عن الشاطئ حتى مصب بحيرة «تولتين» (Tol'ten) . إن هذه الشواطئ التشيلية هي صخرية ناتئة ولكنها سرعان ما تستحيل أشرطة رفيعة مديدة تسمح للعاير أن يطأها لمدة نهارين وليتين تحته الرمال وإزاءه زيد البحر .

إنها سواحل تبدو أبدية غير منتهية ، كأنها تشكل على امتداد تشيلي خاتماً لكوكب ، خاتماً محققاً تضغط عليه بحار الجنوب الصخابة ، مدرجاً يبدو كأنه يدور عبر سواحل تشيلي إلى ما هو أبعد من القطب الجنوبي .

على جوانب الطرقات كانت تحييني أشجار البندق ذات الأغصان المورقة الخضراء الغامقة البراقة بجميع أصنافها ، ما كان منها مرصعاً بعناقيد فاكهة وما لم يكن ، أشجار بندق تبدو كأنها قد طليت وزينت بزنجفر فبرزت حمراء فاتنة في هذه الفترة من السنة . سراخس جنوب تشيلي الضخمة سامقة جداً إلى درجة أننا ، أنا وحصاني ، كنا نسير تحت أغصانها دون أن نستطيع لمسها . وإن دنت أحياناً فجست رأسي ، فإنها ترش علينا من نداها . على جانبي الأيمن ، تمتد بحيرة «بودي» : صفيحة مثابة زرقاء تتجاور والغابات النائية .

ما رأيت أحداً إلا في آخر الشوط ، صيادين غريبين ، في ذلك المدى حيث يلتصق المحيط والبحيرة يتعانقان أو يتشاحنان ، كان ثمة بعض أسماك بحرية ، تجرفها الأمواج الشديد العنيفة . أكثرها جشعاً وطمعاً هي الأسماك الملساء العريضة المفضضة التي كانت تتشاحن في هذه المنخفضات البحرية متخبطة تائهة . كان الصيادون ؛ واحداً ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، وهم في وضع شاقولي وفي حالة تمعن وانتظار ، يترصدون حالة السوق ومعرض الأسماك التائهة ، ثم على حين غرة ، يقدفون خطأً طويلاً إلى الماء ، من بعد يشيلون نحو الأعلى وقد غنموا تلك الأبواب الكروية الشكل ، الفضية اللون التي ترتعد وتلتمع في شعاع الشمس قبل أن تلفظ أنفاسها في أسفاط السمّاقة . لقد دنا الغروب . كنت قد خلّفت ورائي ضفاف البحرية وكنت قد مارست البحث عن السبيل عنر منحدرات الجبال المعقدة الوعرة . كان الظلام يمضي شبراً فشبراً ، فجأة اخترق الفضاء أنين عصفور وحشي مجهول كأنه همس أجش . صقر أو عقاب بدا من علوه الشفقي وكأنه يوقف أجنحته السوداء عن الطيران ليشير إلى حضوري ووجودي ، يواكبني من عل في طيران ثقيل بطيء . تعوي

أو تنجح أو تخرق ثعالب سريعة عجولة ذات ذيول حمراء ، أو وحوش ضارية مجهولة من هذه الغابات السرية .

أدركت أنني قد تهت . الليل والغابة ، اللذن كانا لي البهجة والسرور ، ها هما يتهدداني ويتوعداني ، يملأني رعباً وهلعاً ، طارق وحيد ، فجأة ، تقاطع وإياي في وحدة الطريق المدلهمة . حين تقاربنا توقفت فرأيتة فلاحاً من هؤلاء الفلاحين الحفاة العراة ، ليس له إلا عباءة بالية وحصان ضامر ، واحداً من هؤلاء الرعاة الذين يطلعون من السكون .

قصصت عليه ما جرى لي .

أجابني بأني لن أبلغ البيدر تلك الليلة . هو كان يعرف المكان كله موضعاً موضعاً وزاوية زاوية ، يعلم علم اليقين أين يدرسون القمح . قلت له إنني لا أريد أن أقضي الليلة في الخلاء ، وطلبت منه أن يرشدني إلى موضع أوي فيه إلى أن يبزغ الفجر ، فأشار لي في إيجاز بأن أمضي في درب متفرع عن الطريق مسافة فرسخين . «سوف ترى من بعيد بيتاً خشبياً كبيراً ذا طابقين» ، قال لي :  
- أهو فندق؟ سألته .

- كلا ، أيها الفتى ، لكنك سوف تلقى الترحاب والرحابة . إنهن ثلاث فرنسيات يعملن في تجارة الأخشاب ويقمن هناك منذ ثلاثين سنة . إنهن طيبات المعشر مع الناس جميعاً . ولسوف يؤوينك ويرحبن بك .

شكرت الفلاح على نصائحه الشحيحة المختزلة . هو ابتعد يخب به حصانه المقووض وأنا سلكت الدرب الضيق كأني نفس في جوى وأسى . هلال بكر أبيض معقوف كقلامة ظفر حديثة القص كان يشرع الصعود عبر السماء .

لمحت عند التاسعة ليلاً أنواراً ، لا مندوحة في أنها منبعثة من منزل ، أجهدت حصاني قبل أن تحرمني الأقفال والمفاتيح من دخول ذلك المعبد ذي الأعاجيب ... اجتزت حواجز الحمى ، متجنباً جذوعاً مقطوعة وجبالاً من نشارة ، وصلت إلى الباب بله على رواق أبيض لتلك الدار الضائعة في تلك الأنحاء المنفردة المتوحدة . ناديت من وراء الحجرات ... قرعت الباب ، بادئاً في رفق ثم في قوة ثم في عنف . حين يئست وقد مرت دقائق رهيبة ، وظننت أن ما في الربع من أحد ، أطلت سيدة ذات شعر أبيض ، نحيلة ، في ثياب حداد ، تتفحصني بعيون صارمة ، ثم فتحت الباب بينَ بينَ ، كي تستقصي الطارق القادم في غير وقت .

من أنت وماذا تريد؟ قال صوت لطيف ناعم ، صوت شبح .  
لقد تهت في الغابة . أنا طالب في مدرسة . دعاني لحضور درس الحنطة على  
البيدر آل (ايرانانديث) لقد أنهكني المسير ، لقد قيل لي إنك وأختيك فعالات للخير ،  
لست أبغي إلا أن أنام في أي ركن وأن أوصل حين يطلع الفجر نحو حصاد آل  
(ايرانانديث) .

تفضل -أجابتنى- لأنت في بيتك .

قادتني إلى بهو معتم وهي بنفسها أشعلت قنديلين أو ثلاثة من زيت القطران .  
لاحظت أن القناديل جميلة Art-nouvau<sup>(١)</sup> ، من البرونز المذهب . البهو يفوح برائحة  
الطوبة ، ستائر كبيرة تنسدل على النوافذ العالية ، مقاعد مغطاة بأغطية تحفظها  
وتصونها . ثم؟

كان ذاك البهو من عهد آخر ، صعب التحديد ومغلق كالحلم . السيدة الساهمة  
الحاملة ذات الشعر الأبيض كانت تتحرك دون أن أتبين لها قدماً أو أن أسمع لها  
خطواً ، يداها تلمسان شيئاً أو آخر ، مجمع صور ، مروحة ، هنا وهناك داخل  
السكون .

تخيلت أنني قد هويت إلى قعر بحيرة وفي أعماقها أحيا ، مرهقاً منهوكاً . فجأة  
دخلت سيدتان طبق الأصل من التي استقبلتني . كان الوقت متأخراً وكان ثمة برد  
شديد . جلستا من حولي ، إحداهما في ابتسامة خفيفة ذات غنج عتيق ، والأخرى  
تنظر إليّ بعينين كئيبتين ، كعيني التي فتحت لي الباب .

ابتعد الحديث كثيراً عن تلك الحقول النائية ، عن تلك الليلة المثقوبة بألاف  
الحشرات ، المخترقة بنقيق الضفادع وغناء العصافير الليلية . سألتني عن دروسي .  
فاجأتهن حين لفظت من غير توقع منهم اسم (بودليير)<sup>(٢)</sup> واستغربن حين قلت لهن  
بأنني قد بدأت بترجمة أشعاره .

كان ذاك كشرارة كهربائية ، السيدات الثلاث المنطفئات اشتعلن . تغيرت  
عيونهن المكروبة ووجوههن الصارمة ، كما لو أن ثلاثة براقع نزعت عن وجوههن  
ذوات الملامح العتيقة .

(١) Art-nouvau : التعبير فرنسي ، معناه : فن حديث .

(٢) (شارل بودليير) : الشاعر والناقد الفرنسي المعروف (١٨٢١-١٨٦٧) .



- (بودليس) - هتفن . لعل هذه هي المرة الأولى التي فيها يُتلفظ باسمه في هذه الأماكن المنعزلة منذ أن وجد الكون . لدينا هنا كتابه *Fleurs du mal* <sup>(١)</sup> . ليس من أحد غيرنا يستطيع قراءة صفحاته الرائعة في هذه الأماكن على مسافة دائرة قطرها ٥٠٠ كيلومتر . لا أحد يعرف الفرنسية في هذه الجبال .

اثنان من الأخوات الثلاث ولدتا في «أفينيون» (Avignon) ، الصغرى تشيلية المولد لكنها كذلك فرنسية الدماء طبعاً . جدودهن ، أبأوهن ، أقربأوهن جميعاً ، ماتوا منذ زمن بعيد . هن الثلاث كنّ قد تعودن على المطر ، على الريح ، على نشارة الأخشاب ، على التعامل مع عدد قليل من الفلاحين البدائيين والخدم الأجلاف المتأخرين . قررن البقاء هنا في هذه الدار الوحيدة الموحشة وسط تلك الجبال المسننة الوعرة .

دخلت خادمة فهمست بشيء إلى السيدة الكبرى . حينذاك خرجنا بإشارة منها عبر دهاليز باردة جداً إلى غرفة الطعام . اندهشت وزهلت . في وسط القاعة ، مائدة مستديرة بسماطين بيضاوين طويلين ، مضاءة بشمعدانين من فضة مليئين بشموع مشتعلة ، كان الزجاج والفضة يلتمعان معاً على تلك المائدة المفاجئة .

اجتاجني حياء عارم ، كما لو أن الملكة (فيكتوريا) كانت قد دعنتني على وليمة في قصرها . فقد جثتهن أشعث الشعر ، مغبر الشياب ، مرهق الجسد ، وهذه المائدة تبدو وكأنها تتوقع زيارة أمير ، وأنا على حالتي أبعد الناس عن أن أكون أميراً ، بالأحرى كنت أبدو وكأنني راعي بغال برائحة كريهة ، ترك عند الباب قطع ماشيته ودوابه .

مرات قليلة جداً أكلت كمثّل هذه المرة ، مضيفاتي كنّ معلّمات في الطهي ، ورثن عن جداتهن وصفات فرنسا العذبة في فن الطهي والتطبيب .

على الرغم من أن التعب كان يغمض لي العينين على حين غرة ، فإنني كنت أسمعهن يتحدثن عن أشياء غريبة . كان فخر الأخوات الأعظم الأكبر هو التفنن في الطهي ، المائدة بالنسبة لهن هي ممارسة إرث مقدس ، ممارسة ثقافة لن يعدن إليها أبداً وقد عزلهن عن وطنهن الزمن العتي والبحار الهائلة ، أرينني كأنهن يستهزئن من أنفسهن ، سجلاً غريباً .

(١) *Fleurs du mal* : بالفرنسية ، أزهار الشر .

-نحن عجائز معتوهات- قالت لي الصغرى .

خلال ثلاثين سنة زارهن ٢٧ عابراً قصدوا هذه الدار النائية ، بعضهم بغرض التجارة وبعضهم بهدف الاستطلاع وبعضهم كحالي بمحض الصدفة . ما لم ير من قبل مثله البتة ، كان احتفاظهن ببطاقة عن كل واحد من زوارهن ، تاريخ الزيارة ، وجبة الأكل التي أعددها في كل مناسبة .

- نسجل وجبة الأكل حتى لا نقدم ولا طبقاً واحداً في ما إذا عاد فزارنا من كان قد تذوق هذه الأطباق من قبل .

رحت لأنام فهويت على الفراش مثل كيس بصل في سوق . عند انبثاق الفجر ، في العتمة ، أشعلت شمعة ، فاغتسلت ، ولبست ملابسني . عندما أسرج لي الحصان أحد الخدم كان النهار يأخذ بالطلوع والوضوح .

ما تجرأت على توديع السيدات الكريمت السخيات اللابسات ثياب الحداد . في أعماقي شيء كان يقول لي إن ذلك كله كان حلاماً غريباً لذيذاً ، وإنه ما كان لي أن أصحو منه حتى لا يتلاشى السحر وتضيع الرقية .

لقد انقضى على هذا الحدث أربعون سنة ، كان ذاك في مستهل فترة مراهقتي . فماذا جرى لتلك السيدات المنفيات وكتابهن (أزهار الشر) في وسط تلك الغابة البكر؟ ماذا حصل لزوجات نبيذهن المعتق ، لمائدتهن البراقة المضاءة بعشرين شمعة؟ ماذا كان مصير المناشر والدار البيضاء الضائعة بين الأشجار؟

لا بد أنه طراً ما هو أبسط شيء! الموت والفناء . ربما أن الغابة التهمت تلك الحيوانات وتلك القاعات التي احتضنتني ذات ليلة غير منسية . لكنهن ما زلن يحيين في ذاكرتي كما لو كنّ في عمق بحيرة الأحلام الشفاف . مجدداً وطيباً لهاته النساء الثلاث الحزانى اللواتي صارعن بلا جدوى في وحدتهن القاسية لكي يصنّ لياقة عريقة . كنّ يدافعن عما أتقنت صنعه أيدي أسلافهن ، أي : أواخر قطرات ثقافة عذبة لذيدة ، هناك بعيداً ، في أقصى حدود جبال هي أكثر الجبال صلابة ووحدة في هذا العالم .

### الحب إزاء القمح؛

وصلت إلى مراتع آل (ايرنانديث) قبل الظهيرة ، منتعشاً جداً ، موكبي المنفرد عبر الدروب الخالية ، استجمامي من الإرهاق والوسن ، كل ذلك كان يتألق في

شبابي الصموت ويبدو على محيائي النضر .

في ذلك العهد كان درس الخنطة والشوبان والشعير تقوم به دابة تلف وتدور . ليس من شيء في العالم أروع وأبدع من رؤية دوران الأفراس وهي تخب حول أكداش الحبوب المكومة ، تحت صراخ الفرسان المزعج لها كي لا تحزن أو تراوح أو تماطل . الشمس تشرق رائحة باهرة ، النسيم كأنه ألماسة برية غابية تجعل الجبال تلتمع تحت أشعة الهجير . إن الدرس لهو مهرجان ذهبي . التبن الأصفر يتكوم في جبال مذهبة ، كل شيء كان نشاطاً وفعالية وبهجة ، أكياس تجري فتملاً ، نساء تطهو ، أحصنة تملك الشكيمة ، كلاب تنبح ، أطفال لا بد من إنقاذهم في كل لحظة يبدون وهم يلعبون كأنهم أوراق التبن أو أرجل الخيول .

إن آل (ايرناندث) هم قبيلة فريدة في نوعها ، كان رجالها شعث الشعر ما تطيبوا ولا حفوا ذقونهم يوماً ، يمشون ، دائماً ، بلا سترة مكتفين بأكمام قمصانهم ، مسدساتهم في أحزمتهم ، مدسمين بالزيت ، أو معفرين بغبار الحبوب ، أو موحلين بالطين ، أو مبتلين حتى العظام بالمطار . كانوا جميعاً ، آباء ، أبناء ، أحفاداً ، أعماماً ، أخوالاً ، أبناء عمومة ، أبناء خؤولة ، أنساباً ، أصهاراً ، يبدون في مظهر من البداوة والجلافة ينم عنهم ويدل عليهم . يمكثون ساعات بكاملها منهمكين في إصلاح محرك ، أو مجففين سلاتقهم على أسطح منازلهم ، أو متسلقين آلة حاصدة أو دراسة . أبداً ما كانوا يتحدثون أو يثرثرون . ما كان كلامهم إلا مزاجاً في كل أمر اللهم إلا حين يتشاحنون ويتخاصمون ، فهم في العراك والنزال أعاصير بحرية ، يقوضون كل من أو ما يقف في وجوههم . أما في الشواء ، وبخاصة شوي رؤوس الغنم ، في النبيذ الأحمر ، في القيثارة النواحة فقد كانوا جهابذة أوائل . كانوا رجالاً من الثغر ، أي القوم الذين أعجب بهم ويطيبون لي . كنت أحس أنا الطالب الشاحب بضالتي وصغري إزاء أولئك البرابرة النشيطين الفعالين ، وهم ، لست أدري ، كانوا يعاملونني بلطافة لم تكن لأحد غيري .

بعد الشواء والقيثارة والتعب المعمي من شمس ومن قمع ، كان لا بد من ترتيب الأمور لقضاء الليل ، المتزوجون مع زوجاتهم ، والنساء الوحيديات ، جميعاً رقدوا في الخيمة المنصوبة على عمد حديثه القطع . أما نحن الفتیان فقد خصص لنا البيدر لننام عليه . إن البيدر بجبله التنيبي يمكن لقرية بأسرها أن تترصع في طراوته الصفراء . كان ذاك الموضوع بالنسبة لي مزعجاً مقلقاً ، لم أكن أعرف كيف أنصرف ، كيف

أتمدد ، وضعت في حذر حذائي تحت طبقة من التبن لتكون لي مخدة أو وسادة ،  
نزعت ثيابي ، التحفت بعباءتي وغطست في جبل التبن . كنت بعيداً عن الآخرين  
جميعاً ، لكنهم سرعان ما أخذوا بالشخير في عزف جماعي .

مكثت هكذا فترة طويلة ، مستلقياً على ظهري ، عيناى محدقتان في السماء ،  
وجهي وذراعي مغطاة بالتبن . كان الليل جلياً بارداً لاسعاً ، ما كان القمر قد طلع في  
السماء لكن النجوم تبدو حديثة الابتلال بالمطر ، وفوق نوم الآخرين الأعمى كانت  
تنلأ في حضن السماء لي ، ليس غير .

ثم غفوت قليلاً فصحوت لأن شيئاً ما كان يدنو مني ، جسم شيء كان يتحرك  
من تحت التبن ويقترّب شيئاً فشيئاً من جسدي ، شعرت بالخوف ، هذا الشيء كان  
يقترّب أكثر فأكثر ولكن في تودة ، شعرت أن أقداء التبن كانت تتكسر من حولي  
تتهشم كلما تماست والجسد الزاحف ، كان جسدي جميعه في حالة طوارئ ، أترقب  
مرتعداً ، كدت أنهض ، كدت أصرخ ، كلني بقيت جماداً بلا حراك ، أسمع أنفاساً  
قرب رأسي .

على حين غرة تحسستني يد ، يد كبيرة ، خشنة الملمس كيد عاملة ، بيد أنها يد  
أنثى ، لمست جبيني ، جفني ، وجهي ، كل وجهي ، بعذوبة ، ثم إن ثغراً نهماً التصق  
بفمي فأحسست على طول جسدي حتى أخصم قدمي ، بجسد امرأة كانت  
تشدني وأشدها شداً .

لذة عارمة كانت تهزم دياجير خوفي شيئاً فشيئاً ، أجلت يدي في خصلات شعر  
منسدل ، فوق جبين أملس ناعم ، على عينيّ بجفنيّين مطبقين ناعمين لزجين  
كشقائق النعمان ، يداي راحتا تبحثان عن كنوز ، لقفت نهدين راسخين عظيمين ،  
جسست أردافاً عريضة ، لمست ساقين التفتتا بساقي ، أغرقت أصابعي في عانة غضة  
بضة مثل طحالب الجبال ، ولا بكلمة واحدة نبس ذلك الثغر المجهول .

كم هي صعبة ممارسة المضاجعة دون إثارة ضجيج ولا حتى حفيف في جبل من  
تبن مجوف بسبعة أو ثمانية من الفتيان الغارقين في النوم الذين إن أوقظوا غضبوا  
وأثاروا التبن والفضيحة . غير أن الفتى لقادر على إنجاز كل شيء مهما كلفه من جهد  
وحذر . وما إن مضى هزيع من الليل أو بعضه حتى همدت تلك المجهولة نائمة قربي ،  
وأنا محموم من تلك الحالة ، بدأت بإثارة الفرع في نفسي . عما قريب سينبثق  
الفجر ، كنت أفكر ، أوائل العاملين في البيدر سيجدون هذه المرأة عارية ، مستلقية

قربي . لكنني أنا كذلك أخذت للنوم ، وحينما صحت مددت يدي فزعاُ فما لمست غير فجوة باردة وما وجدت إلا غيابها وارتحالها . ها هو عصفور يزقزق ثم ضجت الغابة وامتلأ الجبل أغاريد وأناشيد . رن مزمار آلة وإذ بهم جميعاً رجالاً ونساء ينطلقون نحو البيدر يكدون ويعملون . بدأ يوم للدرس جديد .

عند الظهرية بينما كنا متحلقين حول طاولات كبيرة ، وبينما كنت أنظر وأنا أكل ، نظرات خاطفة ، باحثاً عن زائرتي في الظلام ، بين النساء ، أهذه هي؟ لا ، فهذه عجوز شمطاء ، أتلك؟ كلا فهذه نحيفة ضامرة . أنا أبحث عن امرأة مكتنزة رداح بنهدين طيبين وبذوائب مسترسلة طويلة ، وإذ بامرأة تتقدم ومعها شريحة من اللحم المشوي ناولتها لزوجها من آل (أيرنانديث) أهذه؟ ، أجل ، قد تكون هي . حين رمقتها من طرف المائدة وهي في الطرف الآخر ، لاحظت أن تلك السيدة الجميلة ذات الذوائب المسترسلة لحظتني بنظرة سريعة وابتسمت لي ابتسامة صغيرة جداً . غير أن هذه الابتسامة كانت تكبر في عيني ، تتعمق في قلبي ، تتفتح في جسدي .



## الفصل الثاني ... ضائعاً في المدينة

### غرف للإيجار

بعد عدة سنوات قضيتها في المدرسة حيث كنت دائماً أتعرّف في شهر كانون الأول بامتحان الرياضيات ، أصبحت مهياً ، خارجياً ، لمواجهة الجامعة في «سانتياغو» بتشيلي<sup>(1)</sup> . أقول ، «خارجياً» ، لأنه «داخلياً» كان رأسي مليئاً بالكتب والأحلام والقصائد التي كانت تثرز كالنحل .

مجهزاً بصندوق من صفيح ، بالبدلة التي لا غنى عنها ، بدلة الشاعر السوداء ، نحيلاً جداً ومبرياً كشفار ، صعدت في الدرجة الثالثة للقطار الليلي الذي كانت رحلته تستغرق يوماً بليلاً ونهاره في الوصول إلى «سانتياغو» .

ما زلت أذكر لهذا القطار حتى الساعة سحره الغريب ، فلطالما سافرت فيه وهو يجتاز مسافات مختلفة ومناطق عديدة وأجواء متباينة . كانت تجري في عربات الدرجة الثالثة حياة بكاملها ، فلاحون بعباءات تتقطر ماء وبسلاسل مكتظة بالدجاج ونساء من قبائل «مابوتشه» (Mapuche) عابسات متجهمات . الكثيرون كانوا يسافرون مجاناً دون أن يدفعوا شيئاً . على ما يبدو المفتش كان يمسح الأرواح والأجساد ، بعضهم يختفي ، بعضهم يختنق تحت عباءة يجلس فوقها حالاً اثنان ويتظاهران بأنهما يلعبان الورق ، فيمر المفتش دون أن تلفت نظره هذه الطاولة التي نصبت فجأة .

كان يمر القطار من حقول البلوط والصنوبر والبيوت ذات الخشب البليل ، إلى حور

---

(1) سانتياغو Santiago : هي عاصمة تشيلي ، وتذكر معها ، عادة ، كلمة «تشيلي» تمييزاً لها عن مدينة أخرى بهذا الاسم تقع في شمال غرب إسبانيا وهي (Santiago de compostela) ، وكان العرب يدعونها ، «شانت (قديس) يعقوب» .

أواسط تشيلي، إلى الأبنية المعمولة من الطوب المغبر، مرات كثيرة قمت بهذه الرحلات ذهاباً وإياباً بين العاصمة والناحية لكنني دائماً كنت أشعر بالاختناق حين أخرج من الغابات الكبيرة، من جوف أمي، من الخشب. بيوت الطوب واللبن، المدن ذات الماضي العريق، جميعها كانت تبدولي مليئة بالهزل والسكون والعناكب والدخان. ما زلت حتى الآن شاعر الزواجر والأعاصير، شاعر الغابة الباردة التي فقدتها منذ ذلك الحين.

لقد نصحت قبل الحجيء من قريتي باستئجار غرفة في بيت يقع في شارع «ماروري» (Maruri) رقم البيت هو ٥١٣. لا أنسى هذا الرقم أبداً، قد أنسى التواريخ كلها والسنين جميعها، لكن هذا الرقم ٥١٣ سوف يبقى حياً في دماغي ما حييت، إذ إنني حشرته فيه منذ كثير من السنين خوفاً من أن لا أبلغ هذا البيت وأن أتيه في العاصمة المجهولة الكبيرة. في الشارع المذكور أعلاه وفي البيت المذكور في دماغي وعلى شرفة غرفتي كنت أجلس أقرب حشرجة المساء، أجلي النظر في السماء المزدانة بالرايات بألوانه البديعة من أخضر وأزرق وأحمر قان، ألح كآبة أسطحة منازل ضواحي المدينة المهتدة بحريق السماء.

حياة الطلبة في غرف الإيجار هذه خلال تلك السنين العجاف كانت جوعاً على جوع. كتبت شعراً أكثر مما كتبت من قبل لكنني كنت أكل أقل بكثير. لقد هلك الكثير من الشعراء الذين عرفتهم في تلك الأيام بسبب صوم الجوع الصارم. من بين هؤلاء أذكر شاعراً كان في عمري لكنه أكثر طولاً وأسوأ رفلة مني. شعره الغنائي القشيب مفعم بالهيولى والشفافية. كان حيث ينشد تنتشي الأجواء وتطرب الأسماع. يدعى (روميو مورغا).

ذهبنا: هو وأنا، ذات مرة لننشد أشعارنا في مدينة «سان برناردو» القريبة من العاصمة. قبل أن نصد المنصة لإنشاد شعرنا كانوا قد احتفلوا باختيار ملكة الزهور، فهناك كانت الملكة بثيابها البيضاء وشعرها الأشقر، كان وجهاء المدينة قد ألقوا خطباً رنانة، والفرق الموسيقية قد عزفت ألحاناً نشازاً، عندما صعدت وبدأت بإنشاد أشعاري في صوت متأوه، لم يكن في العالم كله صوت أكثر منه تأوها، تبدل كل شيء، الجمهور يعطس، يُنكت، يتلهى بشعري الكثيب الحزين. حين رأيت هذه الاستجابة المخزية من قبل هؤلاء البرابرة الهمج أسرع في القراءة وأوجزت فنزلت تاركاً المنصة لزميلي (روميو مورغا). إن ما حدث عند ذلك لجدير بالتخليد والذكر.



فما إن صعد (دون كيخوته)<sup>(١)</sup> هذا الفارع الطول بثيابه الغامقة الرثة المضحكة وأخذ ينشد بصوت أكثر من صوتي أنيناً وتأوها ، حتى بدا الجمهور وقد فقد قدرته على ضبط النفس وكظم الغيظ ، بالصراخ والهتاف : «يا شعراء الجوع ، لا تفسدوا لنا الاحتفال» .

من تلك الغرفة بشارع «ماروري» انسحبت مثلما ينسل رخوي من صدفه . ودعت ذيل السلحفاة ذاك لكي أعترف على البحر ، أي ، على العالم . البحر المجهول هو : شوارع «سانتياغو» التي ما كنت شاهدهتها من قبل حين كنت أمضي غادياً أو راثحاً ، ذهاباً أو إياباً بين الجامعة العتيقة والغرفة الخاوية في دار تلك العائلة بشارع «ماروري» رقم ٥١٣ .

كنت أدري أن مجاعاتي المتراكمة سوف تزداد في هذه المغامرة . أكثر من مرة ، سيدات تلك الدار اللواتي لهن علاقة بعيدة بمنطقتي ، كنّ ينقذنني بحبة بطاطا أو برأس بصل ، تنزل عليّ كرحمة من السماء . لكنما ، لم يكن من ذلك بد ؛ الحياة ، الحب ، المجد ، التحرر ، كل هذه المغريات كانت تدعوني لألبها أو هكذا خيّل إليّ . إن أول تحفة مستقلة ملكتها كانت غرفة استأجرتها في شارع «ارغوييس»<sup>(٢)</sup> قريبة من المعهد التربوي . في إحدى نوافذ هذا الشارع الرمادي كانت تطل لافتة مكتوب عليها : «للإيجار» ، صاحب الدار كان يشغل الغرف المظلة على الشارع ، كان أشعث الشعر شائبه ، له مظهر نبيل ، ذا عينين كانتا تبدوان لي غريبتين . كان ثنائراً متحذلقاً ، يكسب عيشه بمقصه ومشطه فقد كان حلاقاً للسيدات ، لكنه لم يكن يولي أهمية لهذا الفن ، إذ إن اهتماماته قد انحصرت واقتصرت ، حسب ما شرح لي ، على العالم اللامرئي ، على عالم ما هناك ، عالم ما وراء الطبيعة .

أخرجت كتبي وملابس الزهيدة القليلة جداً من الحقيبة والصندوق اللذين جاء

---

(١) دون كيخوته (Don Qijote) : هو بطل رواية (سيرفانتس) الخالدة المعروفة بهذا الاسم ، والنطق هو كما رسمناه ، وليس (دون كيشوت) الذي أخذنا نطقه عن النطق الإنجليزي أو الفرنسي ، حيث لا تنطق الحاء كما هو في الإسبانية والعربية معاً .

(٢) ارغوييس : سوف يسكن (نيرودا) في شارع أو بالأحرى حي بهذا الاسم نفسه حين يسافر إلى مدريد .

معي من «تيموكو» واضطجعت على الفراش لأقرأ ، لأنام ، معتزلاً باستقلالي مزهواً بكسلي .

لم يكن للدار فناء بل دهليز تطل عليه غرف مغلقة لا حصر لها ولا عد . حين سبرت أغوار الدار المتوحدة الخالية في صباح اليوم التالي ، لاحظت أن على الجدران وفي المرحاض لوحات معلقة مكتوباً عليها كلها العبارة التالية : «اقنعي ، لا تستطيعين الاتصال بنا ، إنك لميته» . في كل موضع عُلقَت لافتة كأنها إشارات تحذير وخطر ، في غرف النوم ، في غرفة الأكل ، في الدهاليز ، في القاعات ، لها تقول : «اقنعي ، لا تستطيعين الاتصال بنا ، إنك لميته» .

كان الفصل شتاء ، من هذه الفصول الشتوية القارصة الصقيعية ، في «سانتياغو» تشيلي . لقد ورث بلدي عن الاستعمار الإسباني ازدياء الطبيعة الصارمة وعدم الارتياح إليها (بعد خمسين سنة على حدوث ما أرويه الآن ، قال لي (إيليا ايهرمببورغ) إنه ما أحس ببرد أشد مما أحس به في تشيلي ، في أي مكان من العالم البتة ، وهو كان يعيش في موسكو الثلجة دائماً) . كان ذلك الشتاء لغزارته قد طلى الزجاج بمادة مانعة للتأكسد ، أشجار الشوارع ترتعد برداً ، خيول العربات القديمة تقذف غيوماً دخانية من خياشيمها ومخاطمها . لقد كانت تلك الفترة أسوأ فترة يحيها المرء في تلك الدار ، بين إيماءات الجفن وتحذيرات ما وراء الطبيعة .

شرح لي صاحب الدار حلاق السيدات الألمعي وطبيب العيون اللوذعي في جدية ، بينما كان يغرز عينيه في أعماق عيني ، كأنه مجنون بعينين لا تهدآن ولا تستقران ، فقال :

- لقد ماتت زوجتي (لا تشاريتو)<sup>(1)</sup> منذ أربعة أشهر . إن حالة الموت حالة صعبة بالنسبة للأموات . هم يرتادون دائماً الأماكن نفسها حيث كانوا يحيون . نحن لا نراهم ، لكنهم هم لا يعرفون بأننا لا نراهم . لا بد من إشعارهم بأننا لا نراهم حتى لا يظنوا بأننا غير مباليين بهم وكيلا يتعذبوا من أننا لا نراهم . لذلك وضعت هذه اللافتات وكتبت عليها هذه العبارة حتى تدرك (لا تشاريتو) حالتها الأنية المؤقتة في أنها متوفاة .

---

(1) لا تشاريتو : هو تصغير محب لمن تسمى (Charo) ، وأداة التعريف ، المؤنثة هنا : (La) ، لا تدخل على

اسم العلم إلا للتعجب أو التحقير .

لكن الرجل ذا الشعر الرمادي قد يكون حسبني حياً بإفراط وزيادة فقد بدا يراقب دخولي وخروجي ، يقيد عدد من يزورني من الإناث ، يتجسس على رسائلي وكتبي . كنت ألج إلى حجرتي في غير الوقت المعتاد أحياناً فأجد طبيب العيون يتفحص أثنائي الضئيل ، يجس حوائجي الفقيرة .

كان لا بد لي من أن أبحث في عز الشتاء ، متخبطاً في الشوارع العدائية ، عن مأوى جديد حيث أحفظ استقلالتي المهدد . عثرت عليه في مكان قريب من ذلك ، على بعد بضعة أمتار من هناك ، في مغسلة من هذه المغاسل الكبيرة . بدا للعيان وللعين أن صاحبة هذه المغسلة ليست لها علاقة بما وراء الطبيعة . بعد اجتياز فناءات باردة وباحات كأنها البحيرات وينابيع ماء راكد لا دافق حيث الطحالب المائية تغطي سجاجيد متينة خضراء ، وعلى الجانبين تمتد حدائق مهملة مهجورة ، وصلت إلى غرفة ذات سماء وجدران ملساء جرداء ، ذات نوافذ متسلقة مثقوبة فوق ساكف الأبواب العالية الفسيحة . وهذا ما جعل المسافة بين الأرضية والسقف تكبر في عيني وتعظم في تقديري ، في هذه الدار وفي هذه الغرفة مكثت .

لقد كنا نحن الشعراء الطلبة نحيا حياة غريبة عجيبة ، أنا دافعت عن عاداتي الريفية ، كنت أشتغل في غرفتي ، أكتب عدة قصائد في اليوم ، أتناول طاسات من الشاي لا تنتهي . كنت أطيب الشاي وأعدّه أنا بنفسني ، لكن ، خارج غرفتي وبعيداً عن شارعي ، أنطلق كما أهوى فقد كان لفوضى تلك الفترة واضطرابها جاذبيتها الخاصة . زملائي ما كانوا ليرتادوا المقاهي بل الخمارات والحانات . كانت الأحاديث والأشعار تروح وتجيء حتى مطلع الفجر ، ودراستي تروح وتجيء لآعنة شائعة .

كانت شركة السكك الحديدية تهب والدي بردة ذات نسيج سميك رمادي اللون ، تقيه البرد والصقيع ، لكن والدي ما استعملها أبداً فوهبها للشعر . بدأ ثلاثة من زملائي الشعراء أو أربعة منهم يشتملون ببرود شبيهة ببردتني التي كنت أعيرها كذلك لآخرين . هذا الطراز من الثياب كان يشير حفيظة الناس : الطيب منهم والسيء . كانت تلك الفترة هي فترة رقصة «التانغو» التي قدمت إلى تشيلي ليس بأنغامها و«مقصها» العازف ، بالآت «الأكورديون» ووقع ألحانه ، فحسب ، بل كذلك بجوقة من الصعاليك الأوغاد الذين اكتسحوا الحياة الليلية والزوايا التي كنا فيها نجتمع .

إن هذه الطغمة من الأوباش ، برقصهم وعربدتهم ، كانوا يشنون المعارك ضد برودنا

ووجونا ، فكنا نحن الشعراء نكيل لهم الصاع صاعين ونقاومهم ببسالة وصلابة .  
في تلكم الأيام اقتنيت صداقة غير متوقعة ، صداقة أرملة ما نسيتها قط ، ذات  
عينين زرقاوين واسعتين تعبران في حنان ورقة عن ذكرى زوجها الحديث الوفاة . كان  
زوجها روائياً شاباً ، شهيراً برشاقته البديعة ، كانا قد كونا معاً ثنائياً جديراً بالذكر  
والذكرى ، هي بشعرها القمحي وجسدها المتقن الصنع وعينيها المحيطتين وهو بقامته  
الفارعة وعضلاته المفتولة . الروائي هلك من بعد مرض السل ، من هذا النوع الذي  
ينعتونه بالسل المستعجل . من بعد فكرت في أن رفيقة حياته الشقراء لا بد أنها  
ساهمت بنصيبها من السل المستعجل في القضاء عليه فهي «فينوس» السل والشبق ؛  
فالسل المستعجل ، قبل اكتشاف البنسلين ، وهذه الشقراء الملتهبة ، نقلا من هذا  
العالم ذاك الزوج المتين كالصنم في أشهر معدودة .

لم تكن تلك الأرملة الجميلة قد نزعت عنها بعد ، لي ، ثيابها الغامقة المنسوجة  
من حرير أسود وبنفسجي ، التي كانت تجعلها تبدو وكأنها ثمرة يانعة رطبة محفوفة  
بلحاء من سواد . هذا اللحاء انزلق ذات مساء في غرفتي ، هناك في عمق المغسلة ،  
فلمست وقطفت تلك الفاكهة الخالدة من ذوات الثلج المحرق والرونق المتوهج . حين  
أوشكت الغيبوبة الطبيعية على الاستنفاد ، لمحت تحت عيني عينيها وهما تطبقان  
تغيبان وهي تصرخ متتهدة أو جاهشة : «أه ، إيه ، آي» (روبرتو ، روبرتو) . (بدا لي  
ذلك كأنه مشهد من الأعمال الطقوسية . العذراء في المعبد الروماني تنادي الإله  
المختفي قبل أن تستغرق في طقس جديد) .

على الرغم من شبابي المتدفق الظمئ فإن هذه الأنثى بدت لي مفرطة في  
سغبها وغليلها . كانت تهيجاتها وتهيجاتها تزداد استعجالاً في كل مرة ، وقلبها  
المتقد الحار يقودني شيئاً فشيئاً إلى هلاك عاجل : وما كانت الغلطة لتتوافق مع الفاقة  
وعدم التغذية . وفاقتي كانت في كل يوم تغدو أكثر مأساوية .

## الخجل:

إن الحقيقة هي أنني عشت خلال كثر من سنواتي الأولى ، قد تكون سنوات  
العقد الأول والثاني من حياتي ، كأنتي أصم أبكم .  
كنت أرثدي رداء أسود منذ صباي ، أقلد بذلك شعراء القرن الماضي الأصيلين ،  
فقد كان لي انطباع غامض بأني لست قبيح المظهر . لكنني بدل من أن أقترب من

الفتيات كنت أفضل أن أمرّ بهن جانباً وأبتعد عنهن مظهراً لا مبالاة بهن . الحق يقال أنني كنت في داخلي أهتم بهن وأبالي غير أنني كنت أخشى إن دنوت منهن وكلمتهن أن أتلعثم أو أحمر خجلاً أمامهن . لقد كن بالنسبة لي طلسماً وسراً عميقاً لا تسبر أعماقه . وددت لو أنني أموت احتراقاً في هذه المجمرة السحرية ، اختناقاً في هذه البثر ذات القاع اللغز بيد أنني ما كنت لأجرؤ أن أقذف بنفسي إلى النار أو إلى اللجة . ربما كان سبب ذلك هو أنني ما عثرت على من يدفني فأنقذ . كنت أحاذي ضفاف السحر دون أن ألتفت ولو بنظرة أو ابتسامة .

الشيء نفسه كان يقع لي مع الكبار أيضاً ، مع أناس فقراء ، مع مستخدمين في السكك الحديدية أو في البريد ، مع «سيداتهم حرمهم» ، فهكذا كانوا يدعونهن إذ إن البورجوازية الصغيرة كانت تشعر بالفضيحة والعار إن لفظت كلمة «امراتي» ، امرأتك ، امرأته . كنت أنصت للأحاديث في مجالس والدي ، لكن ، إذا ما صادفت في اليوم التالي ، أحداً من الذين كانوا قد تعشوا في بيتنا الليلة البارحة ، ما كنت أجرؤ على تحيته أو رد السلام عليه ، بل إنني كنت أعير سبيلي كي أتفادي اللحظة الحرجة .

إن الخجل لهو طبع غريب ، إنه لمرتبة ، إنه لمدى يطل على الوحدة والشعور بالانفراد والعزلة . وهو كذلك معاناة لا تنفصم عن المعاشية فكأنما للمرء بشرتان اثنتان : الباطنية منهما تشمئز وتشنج تجاه الحياة ، إن هذه الميزة وهذه الأذية بين بني الإنسان ، لهما جزء من السبيكة التي تدعم ، في ظرف مديد ، تأييد الوجود وتخليد الإنسان .

لقد استغرق تناقلي في المسير ، إغراقي في التفكير المستديم فترة أكثر مما يجب . عندما قدمت إلى العاصمة تباطأت في كسب الصديقات والأصدقاء . كلما أولاني أحدهم أهمية أقل أوليته صداقتي بسهولة أقل . ما كان عندي إذاك فضولية في التعرف على النوع البشري . لا أستطيع أن أعرف على أناس هذ العالم كلهم ، كنت أقول في نفسي . وهكذا نشأت في بعض الأوساط فضولية شاحبة حول هذا الشاعر الجديد ذي ١٦ سنة من العمر أو أكثر قليلاً ، فتى منطو منعزل يُرى في مجيئه وذهابه وهو صامت ساهم لا يلقي السلام ولا يرد التحية ، لا يودع ولا يستودع . بالإضافة إلى أنني كنت أرثدي بردة طويلة من الطراز الإسباني تجعلني أشبه شيء بقراعة عصفير . ما كان أحد يظن أن رداي الفصفاض هذا كان نتاجاً مباشراً لفقرتي وعوزي .

من بين الذين استقصوا عني واهتموا بي اثنان كانا من أبرز طليعة تلك الفترة

في التألق وحب البروز: (بيلو يانيث) وزوجته (مينا). كانا يمثلان النموذج الكامل في البطالة الرائعة التي وددت أن أحيها، غير أنها بعيدة المنال بالنسبة لي، أبعد من حلم جميل. لأول مرة في حياتي تلك دخلت إلى دار ذات تدفئة وثرثبات بديدة هادئة ومقاعد لطيفة مريحة وجدران طافحة بكتب أكعابها مختلفة الألوان والأشكال كأنها ربيع دائم. آل (يانيث) كانوا يدعونني مرات كثيرة لزيارتهم فقد كانوا كرماء رصينين لا يعيرون اهتماماً لبذاءة بردتي الغربية، بردة الرهينة والتأمل والانكباب. أغدو من بينهم راضياً فيلاحظون ذلك فيدعونني من جديد فألبي راضياً.

في تلك الدار رأيت لأول مرة لوحات تكعيبية ومن بينها لوحة (خوان غريس Juan Gris)<sup>(١)</sup>. أحبروني أن (خوان غريس) كان صديقاً لعائلتهم في باريس. لكن أكثر شيء لفت انتباهي هو البيجاما التي كان يرتديها صديقي (بيلو). كنت أستغل كل فرصة سانحة لأنظر إلى هذه البيجاما الجميلة شزراً بطرف عيني وفي إعجاب شديد. لقد كان الوقت شتاء وتلك كانت بيجاما من قماش سميك كأنها قטיפه طاولة «البلياردو»، لكنها في زرقه لجة البحر. آنذاك ما كنت أعرف صنفاً آخر لبيجاما اللهم إلا تلك الخطوط التي تبدو كأنها زيّ سجين في حبس معتم. إن بيجاما (بيلو يانيث) هذه فاقت البيجامات جميعها وخرجت عن الأطر كلها، نسيجها المتين السميك وزرقتها المشعة كانا يثيران حسد شاعر فقير يعيش في ضواحي سانتياغو. لكنني، في الحقيقة، ما رأيت عيناها خلال خمسين سنة بيجاما مثل تلك.

لم أعد أرى آل (يانيث) لسنين طويلة. هي هجرت زوجها وفارقت كذلك الدراري والأروقة الفاخرة ومضت مع بهلوان سيرك روسي مريوماً بسانتياغو. في ما بعد صارت تبيع التذاكر في العالم من أستراليا حتى الجزر البريطانية، مساهمة في استعراضات بهلوان الذي بهتها وخب قلبها. ثم تسمت بد(روسا كروث) أو شيئاً من هذا القبيل، وعاشت في مجمع متاع مختلط الجنسين بجنوب فرنسا.

أما (بيلو يانيث) زوجها، فقد غير اسمه واستبدل به اسم (خوان إمار)، وتحول مع مرور الزمن إلى كاتب قدير ولكن باسمه المستعار هذا. كنت له صديقاً طيلة حياته. صامتاً وأنيقاً وفقيراً عاش ومات هكذا. إن مؤلفاته الكثيرة ما زالت حتى الآن دون نشر، بيد ان إبداعه لا بد أن يظهر ذات يوم.

(١) خوان غريس: رسام إسباني عاش في فرنسا (١٨٨٧-١٩٢٧).

سأنهي الحديث عن (بيلو يانيث) أو (خوان إيمار) (ولسوف أعود من بعد لموضوع خجلي) ذاكراً أنه خلال عهدي الجامعي ، أصر صديقي (بيلو) هذا على تقديمي إلى والده . «سيؤمّن لك السفر إلى أوروبا بكل تأكيد» قال لي . في تلك الأوقات شعراء أمريكا اللاتينية ورساموها جميعهم كانت عيونهم مسمرة في باريس . والد (بيلو) كان شخصية مهمة جداً ، عضواً في مجلس الشيوخ . كان يعيش في دار من هذه الدور الضخمة القبيحة ، في شارع قريب من ساحة «ارماس» ومن القصر الجمهوري ، الذي كان يفضل هو من غير ما شك ، أن يعيش فيه لو سنحت له الظروف .

صديقي (بيلو) وزوجته -لما تكن قد هجرته- بقيا في الرواق بعد أن نزعا عني بردتي لكي أبدو شخصاً عادياً . فُتح باب قاعة الشيخ لي ثم أغلق خلف ظهري . قاعة واسعة جداً ، ربما من قبل كانت قاعة للاستقبالات الحافلة ، غير أنها كانت خاوية خالية . ميزت من بعيد ، في الطرف الآخر من القاعة ، تحت مصباح مرتكز على سارية ، مقعداً عظيماً والشيخ عليه . صفحات الجريدة التي كان يقرأها كانت تخفي عني طلعه كأنما الجريدة حجاب يحجبه .

حين خطوات أول خطوة فوق الأرضية الخشبية المصقولة والمشمعة بشكل إجرامي ، تزلقت كأني متزلج ماهر . سرعة هرولتي كانت تتزايد في عجلة هائلة ، دعست على المكبح كي أتوقف وإذ بي أنخض وأهتز وأرتض عدة مرات كانت آخرها عند أقدام الشيخ الذي خزني بعينين باردتين مواصلاً قراءة الجريدة .

توصلت إلى أن أجلس نفسي على مقاعد بجانبه . الرجل العظيم تفحص في نظرة عالم حشرات تعب قد أحضر له نموذج من الحشرات عرفه بالذاكرة ، عنكبوت مسالمة . سألني في تكاسل عن مشاريعي ، أنا ، بعد الرضضة والتدحرج ، كنت أكثر خجلاً وأقل فصاحة مما أنا عليه عادة .

لا أدري ماذا قلت له . بعد عشرين دقيقة ناولني بعضاً من يده كعلامة للانصراف . كأني سمعته يقول بصوت ناعم خفيف بأنه سيتصل بي ويخبرني بشيء . ثم عاد ليواصل قراءة جريدته وأنا شرعت بالإياب ، عبر تلك الأرضية الخشبية الخطيرة ، مسرفاً في اتخاذ الاحتياطات اللازمة التي كان عليّ أن أتخذها من قبل حين انطلقت لأجتازها . طبعاً ما وصلني من الشيخ والد صديقي أية بشرى ولا خبر ، أبداً . انتفاضة عسكرية ، على فكرة ، غبية ورجعية ، أطاحت به من على مقعده هو وصحيفته التي لا تنتهي . أعترف بأنني سررت لذلك وفرحت .

## اتحاد الطلبة:

في «تيموكو» كنت مراسلاً لمجلة «كلاريداد»<sup>(١)</sup> الناطقة باسم اتحاد الطلبة، وكنت أبيع منها من عشرين إلى ثلاثين نسخة بين زملائي في المدرسة. إن الأخبار التي وصلت إلينا ونحن في «تيموكو» عام ١٩٢٠، قد طبعت أبناء جيلي بندوب دموية... منظمة «الشبيبة الذهبية»، لدى طبقة الأقلية الحاكمة، كان قد هاجم أفرادها مقر اتحاد الطلبة فحطموه تحطيماً. العدالة التي منذ الاستعمار حتى الوقت الحالي كانت في خدمة الأغنياء، لم تسجن المعتدين الأثمين بل الأبرياء المعتدى عليهم. (دومينغو غومث روخاس) الشاب الذي كان أمل الشعر التشيلي إذاك، جن من وطأة العذاب وقضى نحبه في معتقله. كان صدى هذه الجريمة، ضمن الأوضاع المحلية لبلد صغير، شديداً وعميقاً، كما لو كان اغتيال (فيدريكو غارثيا لوركا) بغرناطة.

حين وصلت إلى «سانتياغو» في آذار من عام ١٩٢١، لكي ألتحق بالجامعة، لم يكن عدد من سكان العاصمة يبلغ خمسمائة ألف نسمة. كانت تفوح برائحة الغاز والبن. آلاف الدور كانت مسكونة بأناس غرباء وبالبق. تقوم بالمواصلات بين الشوارع والأحياء حافلات «ترام» صغيرة غير منظمة، تضطرب في مسيرها وتزج بحدائد كانت لها وأجراس صغيرة. السفر بين نهج «اينديبيندنتيا» وبين الطرف الآخر من العاصمة، حيث كان معهدى الجامعي قرب المحطة المركزية، كان لا ينتهي لطول المسافة وتباطؤ الحافلة.

كان يدخل ويخرج من مقر اتحاد الطلبة زعماء التمرد الطلابي المشهورون حينذاك، وهم عقائدياً كانوا مرتبطين بالحركة الفوضوية القديرة الكاسحة في تلك الفترة. كان أكثر هؤلاء القادة والزعماء تاريخياً في النضال، الرباعي العنيف: (الفريديو ديماريا)، (دانييل سشيويتزير)، (سانتياغو لباركا)، (خوان غاندولفو)، وكان (خوان غاندولفو)، من غير ما شك، أعظمهم وأروعهم، كان يُهاب لوعيه السياسي العميق الجريء ولشجاعته المجربة في كل معترك. كان يعاملني كما لو كنت طفلاً صغيراً وفي الحقيقة كنت لما أزل طفلاً. ذات مرة وصلت متأخراً عن الموعد إلى عيادته من أجل استشارة طبية، نظر إليّ مقطب الجبين وقال: «لماذا لم تأت في الساعة المحددة؟، هناك مرضى آخرون ينتظرون». «ما كنت أعرف كم كانت الساعة»، أجبته. «خذ من أجل أن تعرف الوقت في المرة القادمة»، قال لي وأخرج

(١) كلاريداد، معناها، الوضوح.



ساعة من جيب صدرته فأعطانيها هدية ، شكرته عليها .

(خوان غاندولفو) كان صغير القامة ، مكور الوجه مدوره ، أصلع قبل الأوان . غير أن هيئته كانت دائماً تفرش نفسها . تحدها للمبارزة ذات مرة أحد العسكريين الذين قاموا بالانقلاب في ذلك الحين ، وكان هذا مشهوراً بأنه عربيذ وقح ، فقبل (غاندولفو) التحدي ، ثم تعلم فن المبارزة في خمسة عشر يوماً ، وفي يوم النزال جندل خصمه وعفره . وفي هذه الأيام ذاتها حفر على الخشب غلاف أول ديوان لي «شفقيات» Crepusculario ومشاهده المرسومة فيه . فأتت حفريات مدهشة قام بها رجل لا أحد يقارنه في الخلق الفني والإبداع .

إن أكثر الشخصيات أهمية ، في الحياة الأدبية الثورية ، كان هو (روبيرتو ماثا فوينتيس) ، مدير مجلة «خوبينتود»<sup>(١)</sup> ، التي كانت أيضاً تابعة لاتحاد الطلبة ، كانت أحسن انتقاء وأكثر إتقاناً من مجلة «كلاريداد» . وعلى صفحاتها كان يبرز (غونثاليث بيررا) و(مانويل روخاس)<sup>(٢)</sup> ، وهما من جيل أقدم من جيلي . (مانويل روخاس) جاءنا من الأرجنتين ، وله من العمر سنون كثيرة ، فأدهشنا بقامته الهيابة وبكلماته التي يسقطها من فمه بشيء من الازدراء أو من الزهو والإعجاب . كان يعمل صافناً للحروف في المجلة . أما (غونثاليث بيررا) فقد كنت أعرفه منذ أن جاءني إلى «تيموكو» هارباً إثر هجوم الشرطة على مقر اتحاد الطلبة ، جاء مباشرة من محطة القطار التي تبعد بضعة أمتار عن بيتنا ليراني . كان مظهره جديراً بأن أذكره دائماً وقد كان لي إذاك ١٦ سنة ، في بداية مسيرتي الشعرية . أبدأ ما رأيت من قبل وجهاً أكثر شحوباً من شحوب وجهه الضئيل جداً كأنه قد من عاج وجمع من عظام ، كان يتشح برداء أسود قد انفرط خيطه في الأكمام والأطراف ، دون أن يفقده أناقته . كلامه رن لي منذ اللحظة الأولى حاد النبر هازلاً ، أثارني حضوره في تلك الليلة الممطرة التي قادته إلى بيتنا ، دون أن أدري من قبل عن وجوده شيئاً ، كان وصوله كوصول ذاك العدمي الثائر إلى بيت (ساتشا يغوليف) ، بطل (أندرييف Andreiev)<sup>(٣)</sup> ، تلك الشخصية التي كان شباب أمريكا اللاتينية المتمرد يتخذها أنموذجاً وأمثلة .

(١) خوبينتود : معناها ، الشباب .

(٢) مانويل روخاس : روائي ولد عام ١٨٩٦ .

(٣) أندرييف : روائي ومسرحي روسي (١٨٧١-١٩١٩) .

في مجلة «كلاريداد» التي انتميت إليها عضواً سياسياً وأديباً ، كل شيء تقريباً كان يدار ويوجه من قبل (ألبرتوروخاس خيمينيث) ، الذي غدا في ما بعد من أكثر زملائي الذين في سني ومن جبلي حباً في نفسي وتعظيماً . كان يتجلجل بقبعة قرطبية ويضع شارات طويلة كأنه شريف من الشرفاء . أنيقاً رشيماً يخاطر ويتخايل ويتمنخر كأنه عصفور مذهب مزدان على رغم بؤسه وعوزه . كانت تتمثل فيه صفات الفتوة الجديدة كلها . سلوك متعفف أبي ، إدراك كامل للنزاعات العديدة والمأم بها ، معرفة جذلي (وشهية طبية) بكل الأشياء الحويوية . كتب وفتيات ، زجاجات وسفن ، مسالك وأرخبيلات ، كل هذا كان يعرفه ويستعمله حتى الشماله وفي تفاصيله ودقائقه ، غادياً أو رائحاً . كان ينتقل في الوسط الأدبي بنسيم منعش وطلعة تنم عن فاسق وفتات تدل عن حاذق ومبادهات تنبئ عن نابغ وإشارات تخبر عن ساحر . ربطات عنقه كانت دائماً عينات غنى ومساطر ثروة ، في إطار الفقر العام ، كان يبدل دوراً ومدناً وبلداناً دائماً أبداً لا يقرله قرار ولا يستقر على حال ، وهو بهذا التنقل وبسروره الفرح الجذل وببوهيميته الفطرية كان يسرّ لبضعة أيام أو أسابيع السكان المباغتين المفاجئين حيث يحل أو يمر بـ«رانكاغوا» ، بـ«كوريكو» ، بـ«بالديبيا» ، بـ«كونثيشيون» ، بـ«البارائيسو» . كان يرحل كما قدم ؛ حيث ينزل ، يدع أشعاراً ، رسومات ، ربطات عنق ، عاشقات ، صداقات . بما أنه كان من جبلة أمير حكايات شرقية ومن محتد كريم خيالي لا يصدق ، فقد كان يهدي كل شيء ويجود بكل ما عنده : قبعته ، قميصه ، سترته ، صرافيته ، وحتى بحدائه . حين لا يبقى معه شيء مادي يمنحه ويهديه فإنه كان يرسم شيئاً على الورق ، أو يكتب جملة أو بيت شعر أو أية أمْلوحة لطيفة ، وبإعطاء كريمة منه يعطيكه فترضى كما لو أنه ترك في يديك جوهرة لا تقدر ، ثم ينطلق .

كان ينظم أشعاره على الطراز الأخير ، متابعاً في ذلك تعاليم (أبوللينير)<sup>(١)</sup> والعصبة التطرفية<sup>(٢)</sup> في أسبانيا . لقد أسس مدرسة شعرية جديدة باسم «أغو» Agu

(١) أبوللينير : شاعر فرنسي (١٨٨٠-١٩١٨) .

(٢) العصبة التطرفية : هي عصبة شعرية انتشرت مبادئها في إسبانيا عام ١٩١٨ ثم عمت أمريكا اللاتينية كلها ، كانت تدعو إلى ضرورة الإسراع في إجراء تغييرات جذرية في الشعر وفي الحياة .

هذه الكلمة ، كما كان يقول ، هي صرخة الإنسان الأولى ، أول بيت شعر ينطق به الوليد .

إن (روخاس خيمينيث) فرض علينا أنماطاً من اللبس ، في طريقة التدخين ، في الخط والكتابة . مستهزئاً بي ولكن في لباقة لا حد لها ، ساعدني على أن أنزع مني نغمتي الكثيبة . لم يعدني أبداً بتشككه الظاهري وارتياحه في كل شيء ولا بسكره العاصفي ، فقد خرجت من ذلك سليماً . بيد أنني ما زلت أذكر حتى الآن بحنين شديد شكله الذي كان يضيء كل شيء ، يجعل الجمال يطير من كل الأنحاء كما لو كان يبعث الحركة في فراشة مختبئة .

لقد تعلم من السيد (ميغيل دي أونامونو)<sup>(١)</sup> صنع عصافير من ورق . كان يشيد عصفوراً ذا عنق طويل وأجنحة مديدة فينفخ فيه ليطير . كان يدعو هذا النفث ، إعطاء العصافير «الدافع الحيوي» ، كان يكتشف شعراء من فرنسا ، قوارير خمر في الأقبية ، كان يوجه رسائل غرامية إلى بطلات (فرانثيس جيمس)<sup>(٢)</sup> .

إن أبياته الجميلة كانت تنعوج وتلتف في جيوبه ، وهي حتى الآن لم تُنشر . إن شخصيته المفرطة في غرابتها كانت كثيراً ما تلفت الأنظار إلى درجة أنه في أحد الأيام ، بينما كان جالساً في مقهى ، اقترب منه رجل مجهول وقال له : أيها السيد ، لقد كنت أستمع إليك فأعجبتني فاستلطفتك ، أسمح لي أن أقول لك شيئاً؟ ، «وما هو هذا الشيء؟» أجابه (روخاس خيمينيث) في جفاء ، «أن تسمح لي أن أقفز فوقك» قال الرجل المجهول ، «لكن ، كيف؟» قال الشاعر «هل أنت جد قدير ونشيط إلى درجة أنك تقدر على أن تقفز من فوقي ، وأنا جالس في هذه الطاولة؟» «كلا ، أيها السيد» استدرك الرجل المجهول في صوت خفيض ، «أنا أريد أن أقفز من فوقك في وقت آجل ، حين تستريح حضرتك في التابوت ، إن هذا هو الشكل الذي أكرم فيه الشخصيات المهمة التي أتعرف عليهم في حياتي ألا وهو القفز من فوقهم ،

---

(١) ميغيل دي أونامونو : هو المفكر والشاعر الأسباني المشهور جداً (١٨٦٤-١٩٣٦) ، لقد ترجمنا له وعنه في كتابنا «دون كينخوته في القرن العشرين» منشورات المعهد الأسباني العربي للثقافة في مدريد عام ١٩٦٨ ، وفي كتابنا الآخر «مختارات من الشعر الأسباني المعاصر» منشورات وزارة الإعلام العراقية عام ١٩٧٣ .

(٢) فرانثيس جيمس : شاعر وروائي فرنسي (١٨٦٨-١٩٢٨) .

أن يسمحوا لي بذلك ، حين يكونون جشاً في التواييت ، أنا رجل وحيد متوحد وهويتي الوحيدة هي هذه ، ثم أخرج مفكرة من جيبه وقال له : «هنا في هذه المفكرة لدي قائمة بأسماء الشخصيات الذين قفزت من فوق جشهم» . فقبل (روخاس خيمينيث) وقد جن فرحاً ، هذا الاقتراح الغريب . بضع سنوات من بعد ، في فصل من فصول الشتاء الأكثر أمطاراً وبردأ بما أذكر أنه مر علينا في تشيلي ، مات (روخاس خيمينيث) كان قد ترك سترته كعادته في إحدى حانات مركز مدينة «سانتياغو» . وليس على جسده غير قميص خفيف عبر المدينة في ذلك الشتاء القارص القاسي متوجهاً إلى منزل أخته (روسيتا) بدار المعلمات الخامسة . لم يمض يومان حتى اختطف من هذا العالم ، ذات الرئة ، واحداً من أكثر الأشخاص الذين عرفتهم سحراً وروعة ، ذهب الشاعر بعصافيره الورقية طائراً عبر السماء وتحت المطر .

لكن ، في الليلة التي كان يسهر أصدقاه حول نعشه ، جاءهم زائر غريب . كان المطر يتساقط مداراً على أسطح المنازل ، والرياح والرعود والبروق كانت تضيء وتهز أشجار اللوز في باحة دار المعلمات ، حين فُتح الباب فدخل رجل متشع بالسواد وعليه علامات الحزن والحداد ومبتلاً بالأمطار ، لا أحد منهم كان يعرفه ، أمام استغراب هؤلاء الذين كانوا يسهرون حول النعش ، تراجع المجهول قليلاً ثم قفز من فوق التابوت ، دون أن ينبس ببنت شفة غادر المكان فجأة مثلما جاء ، ثم اختفى تحت أجنحة الليل وزخات المطر . وهكذا ختمت حياة (البرتو روخاس) المفاجئة ، بمفاجأة طقس لغز لا أحد حتى الآن استطاع له تفسيراً وتبياناً .

كنت على وشك الوصول إلى إسبانيا ، حين نعي إليّ . مرات قليلة في حياتي شعرت بألم شديد وحزن ممضٍ كالذي شعرت به وأنا في برشلونة ، على فقد هذا الصديق ، حالاً شرعت بكتابة مرثاتي (ألبرتو دوخاس خيمينيث) «يجيء وهو يطير» (Alberto Rojas Gimenez Veine Volando) ثم نشرتها من بعد في مجلة «أوكشيدنته»<sup>(١)</sup> .

لكن ، كان عليّ أن أؤدي طقساً من الطقوس لتوديعه . لقد مات بعيداً عني ، في

---

(١) أوكشيدنته : معناها ، الغرب وهي مجلة أسسها في مدريد الفيلسوف الإسباني (أورتيجا أي غاسيت) ، وقد ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور «دون كينخوته في القرن العشرين» ، وما زالت هذه المجلة تصدر حتى الآن .

تشيلي، في أيام ذات أمطار مخيفة أغرقت المقبرة بأسرها. لا بد أن أجري للاحتفال بذكره شيئاً، فأنا لم أمكث عند رفاته نادياً ولم أمش في جنازته نائحاً، ذهبت إلى صديقي الرسام (أسائياس كابيثون)، فرافقني في التوجه إلى الكنيسة الكبيرة الرائعة، كنيسة «سانتا ماريا ديل المار»<sup>(١)</sup>. اشترينا شموعاً كبيرة، طويلة جداً تقريباً بقدر طول هيكل إنسان، ودخلنا بها إلى ظلال ذلك المعبد الغريب. بما أن «سانتا ماريا ديل المار» كانت كاتدرائية البحارة فقد بناها حجراً على حجر منذ عدة قرون صيادون وبحارة. من بعد زينت بالآلاف النذور، بقوارب من جميع الأشكال والحجوم تمخر عبر الخلود، كانت تُفرش بها جدران الكنيسة الجميلة وسقفها البديع. تصورت أن هذا المكان هو مشهد ومسرح جديران بالشاعر الفقيد، فلو كان حياً وعرف هذه الكنيسة لاتخذها مرحاً له ومسرحاً ولكان مكانه المفضل. أشعلنا الشموع في صحن الكنيسة العظيمة تحت قبابها العديدة، ونحن جالسان في الكنيسة الخاوية، وزجاجة نبيذ أخضر إزائي وأخرى إزاء صديقي الرسام، فكّرنا في أن هذا الاحتفال الصامت، على الرغم من اعتقادنا بمذهب اللاإرادية، يقربنا من صديقنا في عالمه السحري بشكل من الأشكال السحرية الغامضة. الشموع المشتعلة في وسط هذه الكنيسة الكبيرة الخاوية كانت تبدو وكأنها شيء حي يلتهم حياة وبريقاً، كما لو أن عيني ذاك الشاعر المجنون الذي أحمده قلبه إلى الأبد كانتا تنظران إلينا من بين الظل والنور في تلك النذور.

### مجانين في الشتاء

على ذكر (روخاس خيمينيث) أقول إن الجنون، نوعاً من الجنون، يمضي أحياناً كثيرة في أحضان الشعر. فكما أن ذوي الحكمة والعقل يكلفهم جهداً كبيراً أن يصبخوا شعراء، كذلك فإن الشعراء يكلفهم طاقة عظيمة من العناء أن يغدوا عقلانيين، بيد أن العقل دائماً يريح الجولة ويكسب الشوط، فالعقل أساس العدل الذي يجب أن يسود في العالم ويسوده. (ميغيل دي أونامونو)، الذي كان يحب تشيلي كثيراً، قال ذات مرة: «ما هذا القول، بالحجة أو بالقوة؟ بالحجة ودائماً بالحجة».

(١) سانتا ماريا ديل مار: معناها، القديس مريم البحر، وكذلك فإن اسم مريم معناها قديسة اليم.

من بين الشعراء المجانين الذين عرفتهم في فترة أخرى سأخص بالحديث الآن (ألبرتو بالديبيا Alberto Valdivia)، كان واحداً من أكثر الخلق نحافة، شاحب الوجه أصفر اللون، كما لو أنه خلق من عظم بلا لحم ولا شحم ولا دم، ذا لبدة كثيفة جداً، رمادية اللون، وزوجاً من النظارات تحجب عينيه المبلتين بقصر النظر ولكنهما ترسلان نظرات بعيدة. كنا نسميه «الجثة بالديبيا».

كان يدخل ويخرج في سكّون من الحانات والندوات والمقاهي وحفلات عزف الموسيقى، دون أن يثير ضجيجاً ولا غباراً وتحت إبطه حزمة من الصحف، غريبة عجيبة. «أيتها الجثة العزيزة» كنا نقول له نحن أصدقاءه، ونحن نحضن جسده اللاجسدي فنحس كأننا نعاق مجرى هوائياً.

لقد نظم أشعاراً قيّمة رائعة مفعمة بشعور رقيق وعذوبة أسرة، إليكم بعض هذه الأبيات:

«كل شيء سوف يمضي، السماء، الشعاع، الحياة:

انتصار الشر يقوى والردى الحتمي يطفى

ليس يبقى غير عينيك إزائي في مصيري

يا ابنة النور ويا أخت حياتي في الغروب».

شاعراً حقيقياً كان ذلك الذي كنا ندعوه في محبة وود «بالديبيا الجثة». مرات كثيرة قلنا له: «أيتها الجثة، ابق للأكل معنا». لم يكن ينزعج أبداً من هذه التسمية، أحياناً في شفتيه الرفيعتين الرقيقتين كانت تطل ابتسامة. جملة كانت موجزة مقتضبة لكن مشحونة بالتلميح والفحوى. لقد أصبح طقساً من الطقوس المقدسة أخذه كل سنة إلى المقبرة. في الليلة السابقة لفتح تشرين الثاني كنا نقدم له عشاء فاحراً جداً بقدر ما كانت تسمح به جيوبنا الضامرة، جيوب طلاب وأدباء شبان. «جثتنا» هذا كان يشغل مكان الصدارة ويجلس على حجر الشرف، في الساعة الثانية عشرة تماماً من منتصف الليل طبعاً كانت المائدة تُرفع فنذهب في مسيرة طروب نحو المقبرة. في سكّون الليل كانت تُلقى بعض الخطب احتفالاً وتكريماً وتأيينا للشاعر «المرحوم». من بعد، كل واحد منا يودعه في حزن وخشوع ووقار ثم ننطلق راجعين تاركينه وحده عند بوابة الجبّانة. «الجثة بالديبيا» كان يقبل هذا التقليد الذي لم يكن فيه قساوة أو احتقار، برحابة صدر، إذ إنه كان يشارك في هذه المسرحية الهزلية حتى آخر لحظة يؤدي دوره على أحسن وجه. قبل أن نتركه كنا نعطيه عادة

«بيسوس» Pesos؛ قروشاً حتى يستطيع أن يأكل ما طاب له من «سندويش»، في حفرة بالمقبرة.

لم يكن يفاجأ أحد منا حين يدخل هو بعد يومين أو ثلاثة من جديد في صمت وسكون إلى حلقات التنكيت والتبكيت، أو المقاهي، طمأنينته مضمونة حتى فاتح تشرين الثاني من العام التالي.

في «بونوس أيريس» تعرفت على كاتب أرجنتيني غريب الأطوار جداً، يدعى (عمر بيغنوله Omar Vignole). لا أدري إن كان ما يزال حياً حتى الآن. كان رجلاً ضخماً الجثة عظيم الهيئة، يحمل في يده عكازاً ثخيناً غليظاً. ذات مرة، في أحد مطاعم مركز المدينة حيث دعاني إلى العشاء، بينما كنا قرب المائدة أشار لي بيده المبسوطة وقال بصوت جهوري سمع في قاعة المطعم الغاصة بالزبائن: «تفضل اجلس، يا سيد (عمر بيغنوله)»، فجلست وعلائم الانزعاج بادية على وجهي وسألته حالاً: لماذا تناديني باسم (عمر بيغنوله) علماً أنك أنت هو وأنا (بابلو نيرودا)؟، «أجل، -أجابني- لكننا في هذا المطعم ثمة أناس لا يعرفونني إلا باسمي فحسب، وبما أن هناك عدداً ليس بالقليل يرغب أن يعرفني شخصياً فينهال عليّ ضرباً، فإني أفضل أن تكون من نصيبك هذه الضربات بدلاً مني».

إن (بيغنوله) هذا كان مهندساً زراعياً في محافظة أرجنتينينة ومنها احضر معه إلى العاصمة بقرة كان بها يعقد صداقات متينة حميمة. كان يتنزه وينزه بقرته عبر شوارع «بونوس أيريس» قاطبة، وهو يجرب بقرته بحبل ورسن. في ذلك الحين نشر عدة كتب يعنونها دائماً بعناوين تلميحية: ما يدور في خلد البقرة، أنا وبقرتي<sup>(١)</sup> الخ.

حين انعقد في بونوس أيريس لأول مرة مؤتمر «نادي القلم» العالمي Pen Club<sup>(٢)</sup>، كان الكتاب المؤتمرون برئاسة (فيكتوريا أوكامبو)<sup>(٣)</sup> يرتحفون فزعاً بعد أن

---

(١) أنا وبقرتي: وهو تقليد لكتاب الشاعر الإسباني (خوان رامون خيمينيث Juan Ramon Jime'nez)

(١٨٨١-١٩٥٨) المعروف باسم أنا وحماري، وقلد هذا الكتاب كذلك أدينا (توفيق الحكيم)، وقد

ترجمنا لهذا الشاعر وعنه في كتابنا المذكور مختارات من الشعر الإسباني المعاصر.

(٢) نادي القلم: هو جمعية أدبية لها طابع امبريالي وصهيوني، هناك قصة حدثت مع (نيرودا) مع هذا

النادي سيروها في ما بعد.

(٣) فيكتوريا اوكامبو: هي كاتبة أرجنتينية معاصرة.

بلغهم أن (بيغنولة) وبقرته سوف يأتيان للمشاركة في جلسات المؤتمر ومداولاته .  
أبلغوا السلطات المسؤولة عن الخطر الذي سوف يداهمهم ويهددهم فجاء رجال الأمن  
وطوقوا الشوارع المؤدية إلى فندق «بلانا» كي يمنعوا أن يصل إلى المقر الفخم حيث كان  
ينعقد المؤتمر ، موكب صديقي الغريب الشاذ وبقرته المجترّة ، عبثاً كان ما حاولوه  
واتخذوه من إجراءات واحتياطات ، إذ إنه بينما كانوا يتدرسون العلاقات بين عالم  
الإغريق الكلاسيكي ومجرى التاريخ الحديث ، اقتحم قاعة المحاضرة ببقرته التي لا  
تفارقه أبداً ، وثالثه الأنفي أن هذه البقرة حين اتخذت لها موضعاً في القاعة أخذت  
تخور كما لو أنها كانت تريد المشاركة في الجدل والبحث . كان قد أحضرها إلى مركز  
المدينة حيث الفندق داخل عربة شحن مغلقة كبيرة ، فهزئت بحراسة الشرطة  
وبالمؤتمرين .

عن هذا (بيغنولة) نفسه سأروي الآن حكاية أخرى ، حُكي أنه ذات مرة ، تحدى  
(بيغنولة) بطلاً في المصارعة اليابانية الحرة ، بعد موافقة البطل المحترف وتحديد المكان  
والزمان ، وحين حانت ساعة التواجه وليلة التقابل وهيئت حلبة النزال وامتألت  
الساحة وغص المكان ، برز (بيغنولة) وبقرته في الموعد المحدد ، فقيدها بركن من أركان  
الحلبة المربعة ، ثم نزع عنه طيلسانه الأنيق ودثاره ذا البريق وصعد الحلبة لمنازلة البطل  
الشهير باسم (مارد كالكوتا) .

لكنه لسوء حظه وأقول نجمه ما أفادته بقرته في النزال ولا نفعته زينتته في  
السجال ولا أعانه شعره في القتال ، فقد خرّ عليه «مارد كالكوتا» وما هي إلا لحظات  
حتى جعله منظر حراً مرمياً كأنه كتلة هامة بلا حول ولا طول ، ثم وضع المارد رجله  
على حلقه إذلاً له وإرغاماً ، فيا للثور الأديب المعفر ويا للحنجرة الشاعرة المهروسة  
المدعوسة بين استهزاء الجمهور الشرس واستخفاف المتفرجين الذين كانوا يطالبون  
باستمرار الصراع ومواصلة القتال ولكنه كان في حال من الأحوال .

بعد بضعة شهور نشر كتاباً جديداً بعنوان «أحاديث مع البقرة» ، أبدأ  
لن أنسى الإهداء الذي لم يُسبق إليه ، والذي استهل به كتابه ، هذا نصه ، إن  
لم تخنّي الذاكرة : «أهدي هذا الكتاب الفلسفي إلى الأربعين ألف ابن قحبة الذين  
كانوا يصفرون لي ويستهنئون بي ويطالبون بموتي في حلبة الصراع ليلة ٢٤ من  
شباط» .

في باريس ، قبل الحرب العالمية الأخيرة ، تعرفت على الرسام (البارو غويفارار)



وكانوا دائماً ينادونه في أوروبا باسم (تشيلي غيفارا) . ذات يوم اتصل بي هاتفياً وقال لي : «إنه موضوع مستعجل وفي غاية الأهمية» .

كنت قد قدمت من إسبانيا وكان صراعنا في تلك الفترة ضد (نيكسون) ذلك الزمان المدعو (هتلر) . كانوا في مدريد قد أغاروا على منزلي بغارات جوية ورأيت هناك رجالاً ونساء وأطفالاً وقد مزقت أجسادهم قنابل المغيرين وتناثرت جثثهم في كل مكان . الحرب العالمية كانت على وشك الانفجار فعدنا العزم نحن فئة من الكتاب ، على محاربة الفاشية بسلاحنا الخاص ألا وهو كتبنا التي كانت تعرّف الناس بالخطر الداهم وتحضهم على الاستعجال في درء شروره .

ابن بلدي هذا كان على هامش هذا الصراع ؛ كان رجلاً هادئاً صموتاً ، رساماً يشتغل كثيراً ، مكباً على أعماله وأشغاله . لكن الجو اذاك كان من بارود . عندما تمنع القوى الكبرى وصول الأسلحة إلى الجمهوريين الإسبان ليدافعوا عن انفسهم ، ومن بعد ، في «مونيخ» يقررون فتح الأبواب أمام الجيش الهتلري ، فإن هذا يعني أن الحرب لا بد واقعة .

أسرعت في التوجه لمقابلة من يسمى بـ«تشيلي غيفارا» ، فقد كان شيئاً مهماً وعاجلاً ما كان يريد أن يبلغني به .

- م يتعلق الأمر؟- قلت له .

- ليس هنا وقت لإضاعته -أجابني- . ليس لك أن تعادي الفاشية ، وليس على المرء أن يكون ضد أي شيء . يجب الذهاب مباشرة إلى لب الموضوع ، وهذا اللب قد عثرت عليه أنا . أريد إخبارك به كي تترك المشاركة في المؤتمرات المعادية للنازية فتتنصرف بكليتك إلى العمل الأدبي ، ليس ثمة من وقت تضيعه .

- حسناً ، قل لي م يتعلق الأمر ، فالحقيقة يا (البارو) أن وقت الفراغ عندي لقليل جداً .

- الحقيقة يا (بابلو) هي أن أفكاري شرحتها في عمل مسرحي من ثلاثة فصول ؛ أحضرته معي كي أقرأه عليك .

وبوجهه ذي الحاجبين الوارفين وملامح مصارع قديم ، كان ينظر إليّ في ثبات وإمعان وهو يخرج من جيبه مخطوطاً ذا حجم كبير جداً .

من فزعي احتججت له بقلة الوقت وأقنعتة أن يشرح لي شفهاً أفكاره التي يعتقد في أنها ستنقذ العالم والإنسانية .

- إنه بيضة (كولبوس)<sup>(١)</sup> - قال لي - ، سأشرح لك ذلك . كم حبة بطاطا تخرج من حبة بطاطا تُغرس؟

- حسناً ، يمكن أن تخرج أربعاً أو خمساً - قلت له على سبيل المجاملة .  
- أكثر بكثير -أجاب- . أحياناً أربعون ، أحياناً أكثر من مائة . تصور لو أن كل شخص يغرس حبة بطاطا في الحديقة ، في الشرفة ، في أي مكان . كم نسمة عدد سكان تشيلي؟ ثمانية ملايين ، فإذاً ، ثمانية ملايين حبة بطاطا مغروسة ، اضرب ، يا (بابلو) ، بأربعة ، بمائة ، إذن الحرب انتهت إلى الأبد بانتهاء الجوع . كم نسمة في الصين؟ خمسمائة مليون نسمة ، أليس كذلك؟ إن غرس كل صيني حبة بطاطا واحدة ، فإنه ستخرج من كل حبة بطاطا مغروسة أربعون حبة بطاطا فالنتيجة هي حاصل ضرب خمسمائة مليون نسمة بأربعين حبة بطاطا ، وبهذا تنقذ الإنسانية نفسها .

حين دخل النازيون باريس لم يهتموا بهذه الفكرة المنقذة : بيضة (كولبوس) أو بالأحرى حبة بطاطا (كولبوس) . اعتقلوا (البارو غيفارا) في ليلة باردة ذات ضباب ببيته في باريس . أخذوه إلى معتقل ، وهناك احتفظوا به وعلى ذراعه وصمة إلى أن انتهت الحرب . خرج من جهنم وقد غداً هيكلاً عظيماً . لكنه ما استطاع أن يستعيد عافيته وقواه ، فعاد في نهاية الأمر إلى تشيلي كما لو أنه أحب أن يودع أرضه ويطلع عليها القبلية الأخيرة ، قبله رجل مروص ، ثم عاد إلى فرنسا حيث انتهى من موته في الحياة .

أيها الرسام العظيم ، يا صديقي العزيز ، أيا «تشيلي غيفارا» أريد أن أقول لك شيئاً : أنا أدري أنك ميت ، وأنه لم تجدك نفعاً كونك لا سياسياً وأنه لم تكن لك من سياسة غير سياسة البطاطا . أدري أن النازيين قد قتلوك . بيد أنني ، في شهر حزيران من العام الماضي ، دخلت إلى «صالة العرض الوطنية» ما كنت أنوي أن أشاهد غير لوحات (تورنير) فقط ، لكنني قبل أن أصل إلى القاعة الكبرى لمحت لوحة رائعة مؤثرة : لوحة بدت لي جد بديعة مثل لوحات (تورنير) إتقاناً وإبداعاً ، لوحة مدهشة باهرة . كانت صورة لسيدة مشهورة ، تدعى (إديث سيتويل Edith Sitwell)<sup>(٢)</sup> . رأيت

(١) بيضة كولبوس : هو تعبير إسباني يشبه في معناه ما نقوله بالعربية ، العصا السحرية .

(٢) (إديث سيتويل : شاعرة إنجليزية (١٨٨٧-١٩٦٤) .

توقيعك عليها فكبرتك وعظمتك ، كانت اللوحة الوحيدة لرسام من أمريكا اللاتينية بلغ من العبقرية والمهارة درجة بؤاته مكاناً بين تلك النماذج الفريدة في ذلك المتحف العظيم بلندن .

ليس المكان ما يهمني ولا القيمة ما يثيرني ولا حتى تلك اللوحة ما يبعث في نفسي الإعجاب ، بل إن ما يحز في نفسي هو أننا ما تعارفنا كثيراً ، ما تفاهمنا كثيراً ، ما توافقنا كثيراً ، إن ما يهمني ويؤلني هو أننا قد تقابلنا وما تفاهمنا وما كان الذنب عليّ أو عليك يا صاح ، بل علي حبة البطاطا .

أنا كنت رجلاً بسطياً جداً : هذا شرف لي وعار عليّ . لقد رافقت فرقة تمثيلية متجولة كان يجوب بها الأصدقاء لي في هذه الحياة ، فحسدت فيهم يراعهم اللامع وسلوكهم الشيطاني ، عصافيرهم الورقية وحتى هذه البقرات التي قد يكون لها علاقة ما في شكل غامض سحري مع الأدب . على كل حال يبدو لي إنني ما ولدت كي أتهم وأدين بل كي أحب وأعشق . أما هؤلاء الهمازون اللمازون المفسدون المثبطون الذين يهاجمونني ، الذين يتجمعون ويتكلمون يريدون إطفاء نور عينيّ ، فقاء بصيرتي بعدما تغذوا من شعري وغرفوا من بحري . هؤلاء جميعاً لا يستحقون مني إلا الصمت والسكوت فأنا قط ما خشيت أن أنعدي بسمومهم أو أن أغدو من طينتهم وليس لي من أعداء إلا أعداء الشعب .

لقد قال (أبولينير) : «الرحمة لنا نحن الذين نستنبط حدود اللاواقع» . أروي من الذاكرة ، وأنا أفكر في هذه الحكايات التي روايتها ، حكايا أناس ، ليس لكونهم غربي الأطوار يستحقون محبة أقل وليس لأنهم شاذون ، هم أقل قيمة .

### صفات كبيرة:

نحن الشعراء تفكر دائماً بأن لدينا أفكاراً عظيمة لكي نشري ونغني ، وأنا عباقرة في التخطيط لصفقات تجارية مع أن الآخرين لا يدركون عبقرتنا . أذكر أنني ، مدفوعاً بفكرة من هذه التشكيلة المزدهرة في حديقة الأفكار ، بعث على ناشر في تشيلي عام ١٩٢٤ حقوق نشر كتابي «شفقيات» وملكيته لا لطبعة واحدة بل إلى الأبد ، طانا بأني سوف أثري بهذه الصفقة ، فوقعت العقد أمام كاتب بالعدل ودفع لي هذا المخلوق مبلغاً قدره خمسمائة «بيسو» عدداً ونقداً ، وهي تساوي في تلكم الأيام أقل من خمسة دولارات . (روخاس خيمينيث) و(البارو هينوخوسا) و(هوميرو ارثه) ، كانوا ينتظرونني

عند باب كتابة العدل لكي نحتفل بهذا النجاح التجاري . فعلاً رحنا فأكلنا في أحسن مطعم كان يوجد في ذلك الحين وهو «لا باهيا»<sup>(١)</sup>، وشربنا نبيذاً فاخراً ودخنا تبغاً ممتازاً وختمنا ذلك بتناول بعض المشروبات، وكنا قبل هذا قد لمعنا أجديتنا فغدت نضية كأنها مرايا، وما استفاد من تلك الصفقة إلا صاحب المطعم وأربعة مساحي أحذية وناشر، أما الشاعر فلم تدن الرفاهية منه ولا صافحه الرخاء واليسر .

إن من كان يقول إن له عيني باز في الأعمال التجارية هو (البارو هينوخوسا) . كان يدهشنا بخطه العظيمة جداً التي لو أنها توضع موضع التنفيذ لجعلت السماء تمطر دنانير فوق رؤوسنا . وكنا نحن ، بوهيمين محرومين تعسين ، لا نشك في أن إتقانه اللغة الإنجليزية ، لفافته ذات التبغ الأشقر ، سنواته الجامعية في نيويورك سوف تضمن نجاح الفلسفة العملية لدماعه التجاري العظيم .

ذات يوم دعاني إلى التباحث في سرية مطلقة وقال لي إنه يريد أن يجعلني عضواً مشاركاً في محاولة رائعة بغية اكتساح ثروة سريعة واكتساب غنى داني القطوف ، أنا سأكون شريكه في ربح الخمسين بالمائة على أن أساهم ببضعة «بيسوس» قد استلمها من جهة ما وهو سيدفع المبلغ الباقي . ذلك اليوم سنشعر أننا رأسماليون حقيقيون من غير رب ولا دين ولا قانون ، عازمين على كل شيء ومصممين على المغامرات الراجعة الأخرى .

- وما هي هذه التجارة؟ سألت في خوف ملك التمويلات العجيب .  
(البارو) أغمض عينيه ، قذف بنفحة من دخان استحالت إلى دوائر صغيرة ، ثم أجاب في صوت خفيض :

- جلود .  
- جلود؟ أعدت مندهشاً مستغرباً .  
- أجل ، جلود ذئب البحر ، لكي أكون دقيقاً ، جلود ذئب البحر ذي الشعر الوحيد الواحد .

ما تجرأت على أن أستقصي عن دقائق وتفصيلات أكثر . كنت أجهل أن عجول البحر أو الذئاب البحرية لها شعر واحد وحيد . حين أمعنت نظري فيها وهي على صخرة في سواحل الجنوب بتشيلي ، رأيت لها شعراً براقاً يلتمع تحت شعاع الشمس

(١) لا باهيا La Bahia : معناها ، الرصيف ، رصيف الميناء .

دون أن ألحظ لها أي شعر فوق كروشها الكسلى .

قبضت ما وردني من دخل ، في سرعة البرق ، ومن غير أن أسدد ما كان عليّ من إيجار ، ومن قسط للخياط ومن وصل للإسكافي ، وضعت مساهمتي المالية في يديّ شريكى الممول .

ذهبنا لنرى الجلود . كان (البارو) قد ابتاعها من عمّة (خالّة) له ، من أهل الجنوب ، مالكة لعديد من الجزر غير المنتجة . فوق الجزر الصغيرة ذات المجالات غير الموجة كانت الذئاب البحرية قد اعتادت على ممارسة احتفالاتها الغرامية واتصالاتها الجنسية . ها هي الآن أمام عينيّ ، وقد غدّت حزماً كبيرة من الجلود الصفراء بعد أن ثقبها بطلقات البنادق خدم العمّة الماكرة فخرّت صريعة . كانت أسفاط الجلود تبلغ سقف ذلك القبو الذي استأجره (البارو) كي يبهر بها أنظار المشتريين المزعومين .

- وماذا سنفعل بهذا الحشد ، بهذا الجبل من الجلود؟ سألتته في خطف من الكلام .

- إن الناس كل الناس في حاجة ماسة إلى جلود من هذا الصنف الجيد وسوف ترى . فخرجنا من القبو ، (البارو) مودعاً شرراً من الطاقة يطلقه من لفافته وأنا مطرق الرأس صامتاً .

(البارو) كان يروح من هنا إلى هناك وهو يحمل سجلاً فيه عينة من جلودنا الأصلية الأصيلة ، جلود «ذئب بحري ذي شعر واحد وحيد» وكان قد ملأ السجل بأوراق بيضاء في بياض لكي يعطيه مظهراً تجارياً . قروشنا الأخيرة ذهبت في إعلانات بالصحافة عسى أن شخصية مهتمة ومتفهمة تقرؤها فتكفينا وكفى . وسنصبح إن بعناها ، أغنياء أثرياء . (البارو) ، وهو ما هو من رجل متأنق أنيق ، كان يحلم بشراء نصف اثنتي عشرة بدلة من الجوخ الإنجليزي ، أما أنا ، أكثر تواضعاً منه ، فكنت أداعب أحلامي لترضى بأنني سوف أقتني مرشّة ماء أو فرشاة حلاقة أحسن بها ذقتني ، إذ إن الفرشاة الحالية كانت توشك على أن تغدو صلعاء جرداء .

أخيراً حضر المشتري ، كان سراج خيل ، ذا جسيم ضليع متين ، قصير القامة ، ذا عينين رابطتي الجأش ثابتتي الجنان ، قليل الكلام ، وفي عرض<sup>(1)</sup> من الصراحة هي

---

(1) عرض : هكذا في الأصل مع «ال» التعريف Alarde ، والكلمة من أصل عربي واضح ، ومن معانيها

كذلك في اللغة الإسبانية ، مفاخرة ، استعراض ، تبجح .

في حكمي بعض من السفاهة . استقبل (البارو) في جفاء وفتور واقبين حتى لا يعرف مدى اهتمامه به وحدد له موعداً بعد ثلاثة أيام لكي نريه بضاعتنا الممتازة .  
في مجرى هذه الأيام الثلاثة ، اقتنى (البارو) لفائف من الدخان الإنجليزي وبعضاً من السيجار الكوبي من صنف «روميو وجولييت» وضعها بشكل مرثي في الحيب الخارجي من سترته . حين حانت ساعة انتظار وصول المغني ، بعثنا على أرض القبو الجلود التي تتم عن حالة أحسن ووضع أفضل ومنظر أجمل .  
الرجل خف على الموعد المحدد بالضبط ، لم ينزع عنه قبعته ، وحيثاًنا بهمهمة تكاد لا تسمع ، ثم نظر إلى الجلود الممدودة على الأرض نظرة سريعة مزدرية ، من بعد أجال عينيه الصارمتين الخبيثتين في الرفوف المكتظة . رفع يداً غليظة سميكة وسنّ إظفراً كي يحزّ به حزمة من الجلود فيختبرها ، في المكان ذاته حيث حشرت أنا أكثر الجلود حقارة وأقلها قيمة .

(البارو) استغل تلك اللحظة الحرجة ليقدم له واحداً من السجاير الأصيلة الكوبية ، فالتقطه المشتري بسرعة خاطفة وعضه من طرفه ثم تف ثم أدخله في حلقة بين شذقيه وهو ثابت الجأش والنظر ، مشيراً إلى الحزمة التي كان يريد أن يجتزمها ويقيّمها .

لم يكن بد من عرضها عليه وإظهارها له ، شريك صعد السلم وهو مبتسم ابتسامه المحكوم عليه بالموت شنفاً ، ثم نزل وأنزل الحزمة الثخينة . المشتري استعرض جلود الحزمة واحداً إثر واحد ومن حين إلى حين كان يسحب من سيجار (البارو) الذي أهدها إليه دخاناً ثم يقذف به جواً .

كان الرجل يرفع جلدأ من الجلود ، يدلّكه ، يدعكه ، يكشطه ، يطويه ، يبصق عليه ، يرميه ، يتناول آخر وهكذا دواليك . بعد أن انتهى من تفحصه وتفتيشه أجال من جديد نظره البازي عبر الرفوف المكومة المرصوفة بجلودنا الذئبية البحرية ذات الشعر الوحيد ، آخر الأمر ركز عينيه في جبين شريك الخبير بالتمويلات والصفقات . كانت اللحظة مؤثرة جداً .

وقتذاك قال بصوت حازم جملة خالدة ، على الأقل بالنسبة لنا .

- يا سادتي ، أنا لا أتزوج بهذه الجلود . ورحل إلى الأبد ، وقبّعته على رأسه كما دخل ، وهو يدخن سيجار (البارو) الهائل ، دون أن يودّع أو يستأذن بالانصراف ، ففضى من غير رحمة ولا شفقة على أحلامنا المليونيرية .

التجأت إلى الشعر في سرعة الخائف الوجل . كانت ترفرف فوق «ساتياغو» المدارس الأدبية الجديدة . في شارع «ماروري» ، رقم ٥١٣ ، انتهيت من كتابة ديواني الأول . كنت أكتب قصيدتين ، ثلاثاً ، أربعاً ، خمساً ، في اليوم الواحد . في الأماسي عند أفول الشمس ، أمام الشرفة كان يجري يوماً مهرجان ما كنت لأستبدل به أي شيء في العالم . كان غروب الشمس يختال في حشد من الألوان عظيم ، توزيعات نور متقنة ، مراوح هائلة من لون برتقالي وآخر قرمزي . الفصل الرئيسي في ديواني أسميته «شفق ماروري» ، لا أحد سألني أبداً ، ما هو هذا «ماروري» ، لعل القليلين هم الذين يعرفون أنني أشير بهذا إلى شارع متواضع يزوره أروع شفق وأبدعه .

في عام ١٩٢٣ ، نُشر ديواني الأول هذا «شفيقيات» . كي أدفع تكاليف الطباعة كنت أواجه كل يوم صعوبات جمّة وأحقق انتصارات عظيمة ، أثاثي القليل بيع ، إلى دار الرهائن على عجل مضت ساعتني التي كان والدي قد أهداني إياها في وقار وجلال ، إذ إنها كانت ساعتة الخاصة به وكان قد نقش عليها بيرقين صغيرين مُتصاليين . ولحقت بالساعة بدلة الشاعر السوداء . لقد كان صاحب المطبعة رجلاً لا يرحم ولا يشفق إذ إنه بعد أن أصبحت الطبعة جاهزة والأغلفة ملصقة ، قال لي في نفس الخاسر : «لن تأخذ منه ولا نسخة واحدة حتى تدفع لي قبل كل شيء التكاليف كلها» . ساهم الناقد الأدبي (الونه Alone) في سخاء بدفع ما تبقى عليّ من «بيسوس» فابتلعتها حلاقيم صاحب المطبعة ، وخرجت إلى الشارع وكتبي على منكبني بحذاء مهترئ ممزق ، مجنوناً من الغبطة والطرب .

يا لديواني الأول! كان رأيي دائماً هو أن عمل الكاتب ليس لغزاً ولا هو بالمأساوي ، بل إنه ، على الأقل بالنسبة للشاعر ، عمل شخصي ، ذو منفعة عامة . إن ما هو أكثر شبيهاً بالشعر ، هو رغيف خبز أو وعاء خزفي أو حفر على الخشب مشغول في طراوة وحنان ، ولو أن الأيدي التي تصنع هذه التحف كانت بليدة غير متقنة . بيد أنني أعتقد أنه ليس ثمة من صانع واحد يشعر ، كما يشعر الشاعر ، لمرة واحدة خلال حياته كلها ، هذا الشعور الثمل نحو أول خلق ابتدعته يده وجناه تبه أحلامه الذي لما يزل خافقاً دافقاً لحظة الإبداع . إنها لحظة أبداً لن تعود مرة أخرى ، أعني لحظة الإبداع الأولى والفرح الأول بأول كتاب . قد يُنشر في طبعات أخرى كثيرة أكثر إتقاناً وأجمل مظهراً من طبعته الأولى ، قد تنتقل كلماته وأشعاره لتسكب في كأس لغات

أخرى مثل نبيذ يغني ويفوح في أماكن أخرى من الأرض بعيداً عن موطنه ، غير أن هذه اللحظة التي يولد فيها أول ديوان طازج المداد طري الورق ، إن هذه اللحظة الفاتنة الساحرة المسكرة ذات الأنغام كأنها حفيف أجنحة عصفور يرفرف لأول مرة ، ذات الألوان كأنها تفتق برعم يتبدى في أعلى قمة لأول مرة ، لهي الحضور الوحيد في حياة الشاعر .

إن إحدى قصائدي بدت وكأنها حادت عن ذاك الديوان الطفولي واتخذت لها طريقاً خاصة بها ، ألا وهي قصيدة «فيرويل Farrwell»<sup>(١)</sup> ، التي يحفظها كثير من الناس حتى الآن عن ظهر قلب . حيثما ذهبت وفي الأماكن التي لا أتوقع أن أسمعها ، ينشدونها لي من الذاكرة أو أنهم يطلبون مني أن أنشدها عليهم . ما إن أحضر في مكان للمشاركة في ندوة أو اجتماع أو جلسة حتى تنطلق فتاة من الفتيات الحاضرات في صوت مرتفع بترديد تلك الأبيات المسيطرة على الذهن ، وإن كان ذلك يزعجني كثيراً . وأحياناً كان وزراء يستقبلونني وقد اتخذوا وضعاً عسكرياً احتراماً وإجلالاً فيباغتوني بإنشادهم المقطع الأول من القصيدة .

بعد عدة أعوام ، حكى لي (فيديريكو غارثيا لوركا) ، بإسبانيا ، أن الشيء نفسه كان يحدث له بالنسبة لقصيدته «المتزوجة غير الوفية»<sup>(٢)</sup> . فقد كان كل واحد من الناس يطلبه بأن ينشد له قصيدته الجميلة الشهيرة هذه برهاناً منه على ما يمكنه من صداقة نحو هذا الشخص أو ذلك . ثمة حساسية إيجابية عند الناس نحو النجاح الاستاتيكي الساكن الدائم لعمل ما من أعمالنا الأدبية . إن هذا لهو شعور صحي وحتى إنه إحساس بيولوجي ، إن هذا التكليف من لدن القارئ يحاول تجميد الشاعر في لحظة واحدة ، بينما الخلق في حقيقة الأمر هو عجلة دائمة تدور على الدوام نحو الأمام بمهارة أكثر وبوعي أعمق وأشمل ولو أنها برونق أقل وعفوية أصغر .

كنت أمضي مخلفاً ورائي ديواني «شفقيات» . كان ثمة قلق يدفع شعري ويحركه . كنت أجدد قواي في رحلات سريعة وأسفار عابرة نحو جنوب تشيلي . في عام ١٩٢٣ اقتنيت تجربة غريبة . كنت قد عدت إلى بيتنا في «تيموكو» . بعد

(١) فيريويل : الكلمة إنجليزية ، معناها ، رحلة ممتعة .

(٢) المتزوجة غير الوفية : لقد ترجمنا هذه القصيدة في كتابنا «مختارات من الشعر الإسباني المعاصر» (ص ٩١-٩٣) .



منتصف الليل وقبل أن أضطجع فتحت نوافذ غرفتي ، خلبتني السماء وبهرتني . كانت عامرة بجمهرة من النجوم المتلاطئة المتكاثرة . الليل حديث التضمخ بالرداذ غب المطر والنجمات القطبية تتناثر على رأسي .

شملتني نشوة ، أخذتني سكرة ، تعتنتني خمرة سماوية كونية . أسرعت إلى قرطاسي فكتبت في هذيان كما لو أنه كان يُوحى إليّ ويُملى عليّ ، القصيدة الأولى لديوان أسميته بأسماء عديدة إلى أن استقر في النهاية على اسم «حامل المقلع المتحمس» . كنت أعوم في يم صيغ سلسلة أعرف منها ما أعرف وكأني أسبح في مياهي الحقيقية .

في اليوم التالي قرأت مفعماً بالمتعة قصيدتي الليلية . من بعد ، حين وصلت إلى «سانتياغو» ، قرأتها على الناقد السارح (اليريو اوبارثون) ، الذي ياستمع إليها بإنصات وأعجب بها ، ثم سألتني بصوته العميق :

- أنت متأكد من أن هذه الأبيات لبت متأثرة بـ(سابات أرسكاتي)<sup>(١)</sup> ؟

- أعتقد أنني متأكد . لقد كتبتها في نوبة هيجان .

خطر لي آنذاك أن أبعث بقصيدتي إلى (سابات أرسكاتي) نفسه ، ذلك الشاعر العظيم ، شاعر «أورغواي» الكبير ، الذي تنوسي في هذه الأيام ظملاً وإجحافاً . كنت قد رأيت في هذا الشاعر أنه قد تحقق فيه تطاعي وطموحي لشعر لا يحتوي على الإنسان فحسب بل على الطبيعة أيضاً ، على القوى الخبيثة ، شعر ملحمي يواجه سر الكون في الوقت الذي أعمل فيه جهداً على إنضاج شعري وتطويره ، أتمنئ ملياً في رسائل (سابات أرسكاتي) التي كان يهديها إلى شاعر شاب غير معروف فأستزيده شاكراً .

أرسلت إليه في «مونتيفيدو» هذه القصيدة تلك الليلة ذاتها متسائلاً عما إذا كان يرى فيها تأثيراً بشعره ، أجباني على جناح السرعة في رسالة كريمة نبيلة : «مرات قليلة في حياتي قرأت قصيدة في غاية الإتقان وفي أوج الروعة كما هي عليه قصيدتك هذه ، لكنني أجد أنه لا بد لي من أن أقول لك شيئاً : أجل ، ثمة في أبيات قصيدتك هذه بعض من التأثير بشعر (سابات أرسكاتي)» .

كان منا قاله لي مثل نور يرق في ليل داج ، ما زلت حتى الآن أشكره عليه ،

(١) سابات أرسكاتي : (كارلوس Carlos) : شاعر من أورغواي ولد عام ١٨٨٧ .

بقيت الرسالة في جيبتي خلال عدة أيام ، تنطوي وتتجمد إلى أن اهترأت . لقد كان كل شيء بعدها قيد الرهان محك الاختبار . كنت أهجس بالهذيان العاقر لتلك الليلة حتى لا يفتنني هذيان ليلة أخرى فأهذي أو ألغو أو أقلد . عبثاً غطست في لجة تلك النجوم ، عبثاً غمرت حواشي تلك العاصفة الجنوبية . لقد كنت في ضلال . عليّ ألا أتق بالوحي والإلهام . يجب أن يقودني الوعي عبر السبل الصغيرة خطوة إلى خطوة . عليّ أن أتعلم أن أكون متواضعاً . مزقت قصائد كثيرة ، أضعت أخرى . بعد عشر سنين من ذلك الحين ، يُعثر على هذه القصائد فتُنشر .

انتهى برسالة (سابات أرسكاتي) طموحي في الإحاطة بشعر فسيح . أغلقت الباب على فصاحة كان محالاً أن أستمر على سننها . اختصرت متعمداً أسلوبتي وعبارتي . وأنا أبحث عن ملامحي الأكثر بساطة ، عن عالمي المتناسق الخاص بي ، شرعت بكتابة ديوان غزلي آخر . فكان حصيلة ذلك كتاب «عشرون قصيدة» .

إن ديوان «عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة» ، هو كتاب أليم ورعوي يتضمن عواطف مراهقتي العاصفة جداً ، ممتزجة بالطبيعة المستبعدة الجارفة في جنوب وطني . هو كتاب أحبه كثيراً لأنه على الرغم من كآبته الحادة ، فيه متعة الوجود حاضرة . ساعدني في كتابته نهر ومصبه : نهر «امبريال» . إن قصائد «عشرون قصيدة» لهي «رومانث»<sup>(1)</sup> سانتياغو ، بشوارعها الطلابية ، لهي الجامعة ، وهي فوح الزيزفون للحب المتبادل .

إن المقاطع المتعلقة بـ«سانتياغو» نظمت بين شارع «ايتشورين» و«نهج إسبانيا» وفي داخل المبنى القديم للمعهد التربوي ، لكن المنظر العام مستوحى من مياه الجنوب وأشجاره . أما أروضة قصيدة «أغنية يائسة» فهي الأروضة العتيقة لـ«كارهويه» و«باخو امبريال» . إن الألواح الغليظة الثخينة المتكسرة والأخشاب كأنها جدعات يلطمها النهر الفسيح ورفرفة النوارس كنت أحس بها وما أزال ، كأنها تسري في مسام الجسد عند ذاك المصب .

في زورق مهجور طويل نحيل ، لباخرة غريقة ، قرأت كتاب (خوان كريستوبال) بكامله وكتبت قصيدة «أغنية يائسة» . كان للسما من فوق رأسي زرقه عنيفة جداً لم أر مثلها قط . أنا كنت أنظم في القارب المختبئ في الأرض . أعتقد أنني ما عدت

(1) رومانث Romance : هي نوع من القصائد نشأت في إسبانيا في العصور الوسطى .

شعرت بأني جد شامخ إلى السماء وجد عميق في باطن الأرض ، كما كنت أشعر  
 إذاك . من فوقني السماء الزرقاء العميقة ، في يدي كتاب (خوان كريستوبال) أو  
 الأبيات الوليدة في قصيدتي ، إزائي كل ما وجد وما يزال يوجد في شعري : صراخ  
 العصافير البرية والبحر المتوقد دائماً ليس يخمد أو ينفد كأنه العوسج الذي لا يموت .  
 لقد سئلت دائماً من هي ملهمة «عشرون قصيدة» ، إنه لسؤال صعب الإجابة .  
 الاثنان أو الثلاث اللواتي تداخلن في هذا الشعر الكثيب المتوقد فلنقل إنهن  
 «ماريسول»<sup>(١)</sup> و«ماريسومبرا»<sup>(٢)</sup> . إن (ماريسول) هي «عتابا»<sup>(٣)</sup> منطقة رائعة ساحرة ،  
 ذات نجوم ليلية هائلة وعينين غامقتين كسما «تيموكو» البليلة المضمخة . تتجدد  
 بفرحها وجمالها الحي في صفحات الديوان كلها ، محاطة بمياه الميناء ومكحلة بالهلال  
 الذي يطل من فوق الجبال . أما (ماريسومبرا) فهي الطالبة الجامعية ، قبعة رمادية ،  
 عينان رقيقتان ناعمتان ، شذى الحب الطلابي المنقل المتجول الذي فوح كعطر  
 اليزفون ، خمود جسدي إثر اللقاءات عاصفية مثيرة في مخابيء المدينة .  
 أثناء ذلك كانت الحياة تتبدل في تشيلي .

مدوياً كان يعلو نداء الحركة الشعبية التشيلية وهي تبحث بين الطلبة والكتاب  
 عن دعم أصلب وتأييد أمتن . من جهة أخرى ، كان الزعيم الكبير للبرجوازية  
 الصغيرة ، (أرتورو اليساندري بالما) الديناميكي الديماغوجي ، قد توصل إلى أن يصبح  
 رئيساً للجمهورية بعد أن هز البلد قاطبة بفصاحته الساطعة المخيفة . على الرغم من  
 شخصيته الفائقة فإنه سرعان ما تحول وهو على كرسي الحكم إلى حاكم تقليدي  
 شبيه بمن سبقه من حكام أمريكا الجنوبية . إن الفئة المسيطرة من البرجوازية الكبيرة  
 التي كان من قبل يجارها ، فتحت بلاعيمها وابتلعت خطبه الثورية واحتوته  
 واستحوذت عليه فغدا يآتمر بأمرها . واستمر بلدنا يتخاصم في نزاعات رهيبة عنيفة .  
 في الوقت نفسه ، كان الزعيم العمالي (لويس اميليو ريكابارين) بفعالته  
 المدهشة ، ينظم صفوف البروليتاريا ، يشكل نقابات مركزية ، يؤسس حوالي عشر  
 صحف عمالية في طول البلاد وعرضها . كانت البطالة وقلة الأعمال تهز مؤسسات

(١) ماريسوك : معناها ، مريم الشمس .

(٢) ماريسومبرا : معناها ، مريم الظل .

(٣) عتابا : في الأصل Idilio ، وهي مقاطع شعرية شعبية تتغنى بالرعي والرعاة .

النظام الرأسمالي . أنا كنت في تلك الأوقات أكتب في مجلة «وضوح» أسبوعياً . كنا نحن الطلبة ندعم المطالب الشعبية وندافع عنها وكثيراً ما كنا نصطدم بالشرطة أثناء مظاهراتنا في شوارع «سانتياغو» فينهال رجال الأمن علينا ضرباً وتشتيماً . كان يصل إلى العاصمة آلاف العمال المطرودين من أعمالهم في مناجم ملح البارود والنحاس . لقد كانت المظاهرات وما يتبعها من حملات الاعتقال والاضطهاد تصيغ الحياة القومية للبلاد بطابع مأساوي .

منذ تلك الفترة وعلى تناوب امتزجت السياسة في شعري وفي حياتي . لم يكن ممكناً أن أغلق الباب عن الشارع وأقبع داخل قصائدي ، كما لم يكن ممكناً إغلاق الباب عن الحياة ، عن الفرح ، أو عن الحزن في قلبي ؛ قلب شاعر شاب .

### (الكلمة)

... كل ما شئت ، أيها السيد ، أجل كل ما شئت ، بيد أن الكلمة ترم ، تحلق وتهبط ... فأركع لها وأسجد ... أهيمن بها ، أذعن لها ، أتابعها ، أئتمها ، أئتمظها ، أذيبها ... أنا مغرم بالكلمة ... كل كلمة مباغته ... أنتظرها في نهم ، أترصدها في شغف ، إلى أن تحط على حين غرة ... لفظة حبسية ... تلتمع كالدرة ، تقفز كالسمكة الفضية ، إنها لزبد ، لحيط ، لمعدن ، لندي ... الأحق كلمة أطارد أخرى ، أريد لحسنها أن ألتقطها جميعها ، أن أحضنها في شعري ... أوشك أن ألتقط هنا وهناك ، تطير ، تثر ، أفتنص إحداها ، أنظفها ، أنتف شعرها ، أهيء نفسي أمام الصحن ، أجسها فأحس بها شفاقة ، رجراجة ، عاجية ، لزجة ، دبقة ، كالثمرة ، كالطحلب ، كمصقل العقيق ، كحبة الزيتون ... أقلبها ، أخضها ، أهزها ، أترشفها ، أئتمها ، أئتمها ، أزرخفها ، أعتقها ... تتدلى من القصيدة كما تتدلى عناقيد الرواسب من سقف مغارة ، صقيلة كرصائع خشب ثقيف ، كالماس ترسب في شعري كما ترسب بقايا سفين غريق في قاع اليمّ ، مجلية كهدايا الموج كالدر ... كل شيء يكمن في الكلمة ... تتبدل الفكرة إن كلمة حُرقت عن موضعها أو إن أخرى تربعت مثل مليكة على عرش جملة ، عنوة ، فخضعت لجبروتها ... إن للكلمة لظلاً ، لرونقاً ، لوزناً ، لزغباً ، إن لديها كل ما اقتنته في تسيارها عبر مساري الأنهار ، كل ما اكتنته في ترحالها عبر مسالك الأوطان ، كل ما ادخرته في تجوابها عبر نسغ الجذور ... إنها لتليدة جداً وجديدة جداً ... تكتنّ في عش خبيء ، تجتنّ

في برعم زهرة... لكم هي طيبة لساني، لكم هي رائعة هذه اللغة التي ورثناها عن أولئك الغزاة القساة... أولئك كانوا يمشون قدماً يجتازون سلاسل الجبال الهائلة، يخترقون غابات أمريكا الشائكة بحثاً عن البطاطا، عن شرائح اللحم، عن الفاصولياء، عن التبغ الأسود، عن الذهب، عن الذرة، عن بيض مقلي، في شهية نهمة شرهة ما شوهد لها في العالم مثيل من بعد البتة... كانوا يلتهمون كل شيء: الأديان، الأهرام، القبائل، الأصنام الشبيهة بالصلبان والأنصاب التي أحضروها معهم في أكياسهم الكبيرة... أينما مروا هدموا، حيثما حلوا أفسدوا فالأرض منهم موات يباب خراب... غير أنه كانت تتساقط من هؤلاء البرابرة، من نعالهم، من لحاهم، من خوذهم، من حدوداتهم، عدد الحصص، كلمات مضيئة بقين هنا يلتمعن يتوهجن... مكثت اللغة. أجل لقد خسرننا... بلى لقد غنمنا... أخذوا منا الذهب، تركوا لنا الذهب... أخذوا كل شيء، تركوا كل شيء... لقد تركوا لنا الكلمة.



## الفصل الثالث دروب العالم

### صعلوك «بالبارائيسو» (Valparaiso)

إن «بالبارائيسو» لقريبة جداً من «سانتياغو». لا يفصل بينهما إلا الجبال الهلباء المزبثرة المسننة التي في قممها ترتفع، كأنها المسلات، أشجار «كاكتوس»<sup>(١)</sup> Cactus الضخمة العدائية المؤذية المزهرة، غير أنه ثمة شيء صعب التحديد يبعد بينهما. «سانتياغو» هي مدينة سجيئة تحيط بها أسوارها الثلجية، بينما «بالبارائيسو» هي على العكس من ذلك تشرع أبوابها على البحر اللامحدود، على ضجيج الشارع، على عيون الأطفال.

في لحظات شبابنا الأكثر فوضوية كنا نحشر أنفسنا في عربة قطار الدرجة الثالثة دائماً دون أن نكون قد نمنا بعد، ودون أي فلس في جيوبنا، كنا شعراء ورسامين في العقد الثاني من عمرنا مزودين بشحنة قيّمة من الجنون العنيد تريد أن تفرغ، أن تمتد، أن تنفجر. كانت نجمة «بالبارائيسو» تناديننا بنبضها الساحر.

ما شعرت بمثل هذا النداء إلا بعد عدة سنوات وذلك في مدينة أخرى. وخلال سنوات إقامتي في مدريد فقد كنت وأصدقائي، كلما دخلنا إلى حانة أو خرجنا من مسرح في السحر، أو تجولنا في شارع أو آخر، نسمع صوت طليطلة ينادينا، صوت أشباحها الأبيك، لحن سكونها. في هذه الأوقات المتأخرة كنا نغضي مجموعة من الأصدقاء المجانين كجنون رفاق شبابي في تشيلي، نحو هذه المدينة العريقة ذات البيوت الكلسية والأزقة الضيقة المعوجة كي ننام فوق ضفاف نهر «التاخو»<sup>(٢)</sup> تحت القناطر الحجرية.

لست أدري ما سبب أنه من بين رحلاتي الرائعة الساحرة إلى «بالبارائيسو»

---

(١) كاكيتوس: هي أشجار كثيرة الأضلاع، مخددة، ذات أزهار كبيرة صفراء، تكثر في المكسيك.  
(٢) التاخو: هو نهر يمر بطليطلة، كان العرب يدعون: التاجه، والقناطر الموجودة عليه هي من العرب.

بقيت رحلة واحدة عالقة بذاكرتي ومحفورة في ذهني ، مضمخة بشذى أعشاب اقتلعتها على فزع من الحقول . كنا نروح لتوديع صديقين لنا أحدهما شاعر والآخر رسام يعزمان السفر إلى فرنسا ، طبعاً ، بالدرجة الثالثة . بما أننا جميعاً لم نكن نملك ما ندفع به أجرة مبيتنا في فندق من الفنادق ولو كان أكثرها فيرانا ، فقد فتشنا عن (نوبوا Nova) وهو أحد مجانيننا المفضلين ومن سكان مدينة «البارائيسو» العظيمة . لم يكن الوصول إلى بيته بالأمر السهل . صعدنا وتزلقنا فوق تلال وتلال لا تنتهي ، لا نرى في العتمة غير طيف (نوبوا) الذي كان يقودنا ويرشدنا .

كان (نوبوا) رجلاً مهيباً ، ذا لحية عامرة ، وشوارب ثخينة ، كانت أطراف رداثة الغامق يخفق بعضها بعضاً كأنها أجنحة طيور في قمم تلك الجبال العجيبة التي كنا نصعد فيها على عماوة وفي ضيق شديد . ما كان يسكت أو ينصت . كان قديساً مجنوناً ، معروفاً جيداً لدينا نحن الشعراء . وكان ، طبعاً ، طبيعياً من المؤمنين بالطبيعة ، نباتياً من أكلتي النبات حتى منبت الأصالة . كان يشيد علاقات سرية ، لا يعرفها غيره ، بين الصحة الجسدية وهبات الأرض الطبيعية . كان يعظنا بينما كنا نطلع على التلال ، يوجه نحو الخلف صوته المنغم ، كما لو كنا تلاميذ له . كان شكله الضخم يزحف كأنه قامة القديس (كريستوبال Cristobal) لكن هذا القديس ولد في الليالي المعتمة وفي الضواحي المنعزلة .

بعد المشقة والعناء ألقينا عصا الترحال في بيته وإذ به مجرد كوخ صغير أو خص حقيير من غرفتين ليس غير ، الواحدة منهما يشغلها سرير صاحبنا القديس (كريستوبال) والأخرى يملأ جزءاً كبيراً منها كرسي عظيم مصنوع من شجر الصفصاف ، متشابك في وفرة بتزيينات هشة من القش وبجوارير غريبة عجيبة مضافة إلى أرجله وأذرعته ، إنه لتحفة فنية من عهد الملكة (فيكتوريا) . المقعد الكبير خُصص لي كي أنام عليه تلك الليلة . أما أصدقائي فقد مدوا على الأرض صحفاً مسائية وتمددوا في وقار وقناعة فوق الأخبار والافتتاحيات .

بعد قليل من الوقت عرفت بفضل الزفير والشخير أنهم قد ناموا جميعاً . لقد كان صعباً بالنسبة لتعبي أن يصالح النوم ويصاحبه طالما أنه لا يستريح فوق ذلك المقعد التذكاري . ما كان يسمع إلا سكون مرتفعات وصمت قمم متوحدة أو نباح كلاب فلكية كانت تخرق الليل أو صفير سفينة بعيدة جداً تدخل إلى الميناء أو تخرج منه . كل هذا كان يؤكد لي أنني في «البارائيسو» .



شعرت فجأة بنشوة غريبة فاتنة تسري في جسدي . نشوة شذى جبلي ، فوح سفوح المروج ، عطر كعطر نباتات كانت قد نمت ونمو طفولتي ثم نسيتها في ضوضاء حياتي بالمدينة . شعرت أنني قد تصالحت والنوم فعفوت عنه وغفرت له أنني يقظ مسهّد تلك الليلة ، أحسست أنني ملفوف بهديل الأم الأرض وترنيمها . من أين يجيء خفق الأرض البرّي هذا؟ ، بكاراة الأشداء الطاهرة النقية هذه من أين تأتي؟ وأنا أدخل أصابعي من خلال الوعور الصفصافية لذلك المقعد الضخم اكتشف جُويريرات لا حصر لها وفي داخلها جسست نباتات جافة ملساء ، أغصاناً خشنة مدوّرة ، أوراقاً رمحية الشكل ، طرية أو صلبة . عثرت إذن على دار الصناعة الصحية التي يخبئها واعظنا النباتي ، عن صورة طبق الأصل لحياة هذا القديس العاكف على التقاط الأعشاب بيديه الكبيرتين كيدي القديس (كريستوبال) ، وهو أبدأ خصب الجنى ، جَوَاب الحقول .

بعد أن كشفت عن اللغز وعرفت السير نمت في طمأنينة ، في رعاية شذى تلك الأعشاب الساهرة الحارسة .

لقد سكنت خلال بضعة أسابيع ، في بيت يواجه بيت السيد (ثوبلو ايسكوبار) بشارع ضيق في شوارع «بالبارائيسو» . شرفات غرفنا كانت تقريباً تتلامس ، كان جاري يخرج مبكراً إلى الشرفة ليجري تمارين رياضية في جسم ناسك زاهد متكشف تتمّ عنه أوتار قيثار أضلاعه . يرتدي دائماً بدلة شغل (فارول) فقيرة أو سترة خالقة بالية . كان نصفه ملاكاً والنصف الآخر بحاراً . وكان قد انسحب منذ زمن بعيد من إبحارته ، من الجمارك ، من الموانئ والبواخر . كل يوم يمسخ وينفض ويسحج بدلته ، بدلة الزينة الوحيدة في إتقان وكمال دقيقين . كانت بدلة من الجوخ الفاخر الأسود ما رأيته أبدأ يلبسها ولا مرة واحدة خلال عدة سنين ، فلقد كان يحفظه في الخزانة بين كنوزه الكثيرة .

لكن كنزه الأكثر حدة والأكثر تمزيقاً للقلب كان آلة كمان من نوع «ستراديفاريوس» احتفظ به وصانه في حيطه واعتناء طيلة حياته كلها ، دون أن يلمسه أو يعزف عليه ودون أن يسمح لأحد أن يلمسه أو يعزف عليه . كان السيد (ثوبلو) يفكر في أنه سوف يبيع هذا الكمان في مدينة نيويورك ، فهناك سوف يدفعون له مبلغاً محترماً ثمناً لهذه الآلة الموسيقية الشهيرة . يخرجها أحياناً من الخزانة الفقيرة ويسمح لنا أن نتأمله في خشوع ديني وعاطفة مؤثرة . كان يحلم في أنه سيسافر إلى

الشمال ذات يوم وسيعود بلا كمان لكن سيعود محملاً بالخواتم الفاخرة والأسنان الذهبية التي ستحل في فمه بدل التجاويرف التي حتّها ونخرها مجرى السنين وعبور الدهر الطويل .

صباح ذات يوم لم يخرج السيد (تويولو) إلى الشرفه لإجراء التمارين الرياضية . دفناه هناك في أعلى المدينة ، في مقبرة الربوة ، مكفناً ببدلته السوداء التي لأول مرة غطت هيكله العظمي الصغير ، هيكل ناسك زاهد متقشف ، أوتار كمانه ما بكت على رحيله ، لا أحد كان يعرف أن يعزف عليه إلاه . حين عدنا ففتحننا الخزانة لم نعثر على ذلك الكمان اليتيم لعله طار إلى البحر أو إلى نيويورك ، كي يحقق أحلام السيد (تويولو) .

إن مدينة «البارائيسو» هي كتوم ، ملتوية ، متدرجة . تنسح الفاقة على سفوح روابيها كأنها شلال عارم . نعرف عن سكان هذه الروابي المكتظة بهم ما يأكلون وما يلبسون (ونعرف كذلك ما لا يأكلون وما لا يلبسون) . الملابس المنشورة للتجفيف ترفرف كالبيارق فوق كل دار ، والأقدام الحافية المعرضة للشمس بلا توقف علها تطهرها من أوساخها ، تمّ عن حبها الذي لا يخمد نحو هذا الحبيب الذي ليس يخمد .

لكنما ، قرب البحر ، في السهل ، ثمة بيوت لا تفتح نوافذها ولا تشرع شرفاتها ، لا تدخل إليها أقدام كثيرة ولا تحمل إليها الغبار قط . من بين هذه الدور كانت دار الرائد . قرعت الباب بمطرقة برونزية كبيرة ، عدة مرات متتالية كي يسمع طريقي . أخيراً سمعت خطوات خفيفة تقترب وإذ بالباب يفتح نصف مصراع ويطل منه وجه متفحص لا تبدو عليه علائم الثقة بي وكأنه يرغب أن يطردني ، كان وجه الخادم العجوز العتيقة في تلك الدار ، عليها منديل كبير وعلى خصرها مشرط طويل يكاد لا يسمح لخطوها أن يهمس .

كان الرائد أيضاً رجلاً عجوزاً ، يسكن وخادمه وحيدتين منعزلين هذه الدار الفسيحة ذات النوافذ المغلقة . قصده كي يريني تشكيلة مجموعته من الأصنام . كانت تملأ الدهاليز والجدران مخلوقات عجيبه شقراء اللون ، مساخراً<sup>(1)</sup> مخدّدة ، باللون الأبيض وباللون الرمادي ، تماثيل تمثل جثثاً بائدة لألهة هائلة ، خصلات شعر

---

(1) مساخراً : هكذا في الأصل Mascaras ، وهي جمع إسباني للكلمة العربية مسخرة ، بمعنى فتاع أو

مجففة ، دروع رهيبة فوق أطر خشبية مليسة بجلود نمر رقطاع ، أطواق من أسنان مفترسة ، مجاديف قوارب لعلها كانت قد قطعت زبد المياه السعيدة المحظوظة<sup>(١)</sup> .  
مُدَى ونصال وسكاكين عنيفة كانت تبعث الذعر في الجدران التي تتدلى منها أوراق فضية اللون كأنها أفراع تتلوى في الظلال .

لاحظت أن التماثيل الخشبية للالهة الذكور كانت مصغرة جداً ، العضو الذكري منها كان مغطى في اعتناء بستر من قماش هو نفسه القماش الذي استفيد منه لصنع مندبل الخادم وممزرها ، كان التأكد من هذا في غاية السهولة .

الرائد العجوز كان يتنقل في خفوت بين تلك الأنصاب التذكارية . يشرح لي قاعة إثر قاعة بين جد وهزل عن هذه المخلوقات العجيبة شرح من عاش كثيراً وما يزال يعيش على قبس تماثيله . ذُقيته الأبيض يبدو كلحية وثن في «ساموا» . أراني البنادق ذات المواسير الطويلة والمسدسات التي بها طارد العدو وعقر الرثم والنمر . كان يحكي لي عن مغامراته دون أن يماوج في لحن همسه الوتير . كان ذلك كما لو أن الشمس تسربت على الرغم من النوافذ المغلقة وتركت هنا شعاعاً صغيراً واحداً لا غير ، فراشة حية ضئيلة ترفرف بين التماثيل والأصنام .

عند التوديع قلت له بأن لديّ مشروعاً للقيام برحلة نحو الجزر ، وأن لديّ رغبات شديدة للتوجه شطر الرمال المذهبة في أقرب وقت ممكن ، آنذاك ، بعد أن التفت إلى الجانبين ، قرب من أذني شاربيه البيضاوين المتأكلين وهمس لي راجحاً : «حتى لا تسمع هي ، حتى لا تعرف ، أنا كذلك أنوي أن أقوم برحلة وقد أعددت لها العدة» . بقي هكذا ساهماً ، لحظة ، وإصبعه بين شفثيه ، كأنه يصغي لوطء نمر في الغابة . ثم أغلق الباب فجأة ، على الظلام ، كما يهبط الليل على أفريقيا .

سألت الجيران :

- هل ثمة رجل آخر غريب الأطوار هنا؟ هل ثمة شيء يحرز همّ مجيئي إلى «البارائيسو» .

أجابوني :

- ليس لدينا تقريباً أي شيء مما يتمتع بغرابته أو أي شخص مما يستحق المشاهدة

---

(١) قد يعني بهذا جزر «كناريس» Canaries ، التي كان العرب يدعونها «الجزر السعيدة» ، وكذلك تدعى

بالإسبانية Las Islas Afortunadas .

لشدوده، لكن، إن مضيت في هذا الطريق سوف تتعثر بالسيد (بارتولوميه) .  
وكيف سأميزه من بين الآخرين وأتعرّف عليه؟  
- ليس ثمة مجال للخطأ، آيته أنه يرحل دائماً في عربة يجرها حصان .  
بعد ساعات قليلة، بينما كنت أشتري تفاحاً من دكان بهذا الشارع نفسه،  
توقفت عند بابها، عربة يجرها حصان، ونزل منها رجل طويل، أرفل عديم الرشاقة  
والهندام ليس له إلا ثوب أسود مهلهل .  
جاء ليشتري تفاحاً كذلك . على منكبه ببغاء أخضر سرعان ما طار نحوي وحط  
على رأسي دون تقدير أو احترام .

- هل حضرتك هو السيد (بارتولوميه)؟ - سألت ذلك الفارس .  
- أجل، إنها الحقيقة، أنا أدعى (بارتولوميه) - وأشهر سيفه الذي كان يتمنطق  
به تحت ثوبه أعطانيه كي ينحني ويملاً سلته بالتفاح والعنب . كان سيفاً عتيقاً، طويلاً  
حاداً، ذا مقبض بديع صنعته أيدي صناع ماهرين، مقبض كأنه الوردة المفتحة .  
أنا ما كنت أعرفه من قبل ولا عدت فرأيت من بعد، لكنني رافقته في إجلال  
واحترام، ثم فتحت له باب العربة فصعد ودخل ودخلت سلته، وضعت بين يديه،  
في وقار وكياسة، البيغاء والسيف .

إن عوالم «البارائيسو» لهي مهجورة متروكة، بلا معنى ولا زمن، كأنها صناديق  
رست ذات مرة إلى قعر قبو سفينة ليس يُدرى من أين جاءت ولا أحد سأل عنها أو  
ادعاها لنفسه، فهي أبداً حبيسة ذلك القبو المعتم لن تستطيع البتة الانطلاق من  
حدودها ودياجيرها . ربما مكثت في أسرار «البارائيسو» المسيطرة وفي أرواحها  
الطاغية، إلى الأبد، سلطة موجة ضائعة، عاصفة، ملح، بحر يهوج ويهوج، بحر كل  
نسمة من سكان «البارائيسو»، يرغي ويزبد، يثور ويهدد، لكنه حبيس سجين فغداً  
هديراً لا تستجاب شكواه، حركة وحيدة أليمة تتفتت طحيناً وتمج زبداً إذ تخيب  
أحلامها وترتد على صخر الوقع الصلد .

في هذه الحيوانات الغريبة الأطوار التي عثرت عليها أو بها، كانت دائماً تفجؤني  
وحدتهم المطلقة والميناء المؤثر، انصهارهم الكامل في مياه البحر، فهناك في الأعالي،  
عبر الروابي، يزهر البؤس وينبتق في فوران محموم من القطران<sup>(١)</sup> والفرح . إن أرفصة

(١) القطران : هكذا في الأصل Alqutra'n، عن العربية .

الميناء والرافعات والعربات وأشغال العمال تغطي خصر الساحل ببرقع صبغته السعادة الهاربة من بؤس الروابي . غير أن ثمة آخرين ما استطاعوا أن يبلغوا الأعالي ليسكنوا التلال ولا الأسافل ليعملوا في الميناء بل مكثوا في صناديقهم محتفظين بنصيبهم من عالم اللانهاية عالم البحر .

لقد صانوا كل ذلك بأسلحتهم الخاصة ، بينما الفناء يقترب منهم كما الضباب . إن «البارائيسو» لتهتز أحياناً مثل حوت جريح . ترتج ، تحتضر ، تموت وتبعث . إن كل مواطن هنا يحمل في ذاكرته زلزالاً . إنه لهول ملتصق بقلب المدينة . إن كل مواطن هنا لهو بطل من قبل أن يولد . إذ إن في ذكرة الميناء انطبعت رعشة الأرض التي ترتعد من إخفاقها وتثور على فشلها وتطلق صرخة من الندم تبلغ أعماقها ، كما لو أن مدينة ترسو تحت البحر وتستقر تحت الأرض ، فجأة ، شرعت أبراجها وأشرعتها الدفينة لتقول للإنسان إن كل شيء قد انتهى وإنها ستقلع باحثة عن مغامرة أخرى قد تكون رابحة ظافرة .

أحياناً ، حين تكون الأسوار والجدران والسقوف قد تدرجت بين الغبار وألسنة النيران ، بين الضجيج والسكون ، بعد أن يخمد كل شيء إلى الأبد في أحضان الموت ، تخرج من البحر ، كأنها آخر هول ، الموجة الكبيرة ، اليد الخضراء الهائلة ، طائلة ملوَّحة بالخطر ، تلعو كأنها برج حاقد ثم تهوي لتسحق وتجرف حيثما وقعت أو صفت ، كل ما تبقى من حياة .

كل شيء كان يبدأ بحركة كسلى فيستيقظ من كان قد نام من سكان «البارائيسو» . تأخذ الروح وهي بين الأحلام تتصل بجذور عميقة ، بعمقها الأرضي . لقد أحبت الروح دائماً أن تعرف عمقها وها هي تعرفه . ثم تنقض حركة الارتجاج الأخير ، ليس ثمة من يغيث أو يعين فالآلهة رحلوا والكنائس المزهوة غدت كتلا مطحونة مهروسة .

إن هذا الرعب ليس كرعب من يعدو هارباً من ثور هائج غضوب ، ليس كذعر من يهدده خنجر ، ليس كخوف من أو شك على الغرق ، إنه لهول كوني ، إنه لخطر مفاجئ . الكون ينهار يتهدم يتقوض بينما الأرض تدوي في رعد أصم ، بصوت ، ما من أحد سَمعه قبل ولا عرف له مثيلاً .

يترسب الغبار الذي أثارته البيوت عند انهيارها شيئاً فشيئاً وكل شيء يهدأ ، يخمد . نظل وحدنا مع أمواتنا دون أن ندري أننا أموات نحن أم أحياء .

تطلق المدارج من تحت ومن فوق وتتلوى درجة درجة بعضها فوق بعض دون تماس بين الواحدة والأخرى . تغدو نحيلة رفيعة كأنها شعر أو خيط ، تستريح قليلاً ، تطلع شاقولية الظهر ، تراوح ، تسرع الخطو ، تمتد . تتقهقر . لا تنتهي أبداً .

كم من مدارج؟ كم من درجة مدارج؟ كم قدم على الدرجات؟ كم قرن من الخطى ، من النزول والصعود مع الكتاب ، مع الطماطم ، مع السمك ، مع الزجاجات ، مع الخبز؟ كم ألف من الساعات دارت على هذه الدرجات فأبلتها وجعلتها قنوات تجري فيها الأمطار لاعبة أو باكية؟  
يا لها من مدارج!

ما من مدينة سفحت المدارج ، عرّتها في تاريخها ، في وجهها ، ذرتها ثم جمعتها ، كما مدينة «بالبارائيسو» . ما من وجه له مثل هذه الأثلام والأخاديد حيث تروح وتحييء الحيوانات كما لو أنها دائماً وأبداً تصعد إلى السماء ، كما لو أنها دائماً أبداً تهبط إلى البحر مصدر الخلق .

يا لها من مدارج أنبتت في منتصف الدرب حراشف من الزهور الأرجوانية! يا لها من مدارج أخذت بيد بحار آب من سفره إلى آسيا ليجد في بيته ضحكة جديدة أو غياباً رهيباً! يا لها من مدارج هوى من عليها مثل نيزك أسود ، سكير فتدحرج فوقها! يا لها من مدارج تصعد الشمس عليها لتمنح حبها الخالد إلى التلال!  
إن مشينا مدارج «بالبارائيسو» كلها فإننا نكون قد درنا حول العالم كله .

يا «بالبارائيسو» يا مدينة آلامي . . . ماذا جرى لك في وحدة المحيط الهادي الجنوبي؟ أنت نجمة تائهة أم معركة ديدان نجا تألقها من المصيبة!  
يا له من ليل ، ليلك! نقطة من الكوكب الأرضي وقد أضيء ، ضئيلاً في الكون الفارغ الخاوي . حباحب خفقت ، حدوة من ذهب توهجت بين الجبال .

إن ليلك الهائل نشر من بعد أشكالاً عظيمة ضاعفت من نورك . فنجمة الدبران<sup>(١)</sup> سطعت بنبضها القصي البعيد ، الثريا نشرت ملابسها البراقة عند أبواب السماء ، بينما كانت تدور عربة القطب الجنوبي الصامتة في المدى الليلي لنهر المجرة .  
إذاك برج القوس الشامخ الكثيف الشعر ألقى الماسة من أقدامه الضائعة ، برغوثاً من جلده القصي البعيد .

(١) الدبران : هكذا في الأصل Aldebara'n ، عن العربية .

لقد وعدت «بالبارائيسو» ، متوهجة وثرثارة فاضحة ، مزبدة وبغيا .  
 امتلاً ليل أزقتها بحور البحور السمرارات السوداءوات ، تترصدك في الظالم  
 الأبواب ، تتخاطفك الأيدي في العتمة ، شراشف الجنوب تيهت البحارة ، أسرتها  
 ضيعت الرحالة والجوالة والعابر والمسافر . إن البغايا : (بولياتنا) ، (كارميلا) ، (فلور دي  
 ديوس) ، (مولتيكولا) ، (بيرينيثه) وغيرهن كثيرات ، أنشأن الحانات والملاهي ، صنّ  
 الغرقى من الهذيان بالهذين ، حفظن السكرى من التعتعة بالتعتعة ، تبدلكن ،  
 تجددن ، رقصن ، بلا خلاعة ، ولكن بكأبة أصيلة ممطرة وحزن جنسي دام .  
 لقد خرجت من الميناء لصيد الحيان أكثر السفن صلابة وجلداً ، وسفن أخرى  
 انطلقت نحو جزر الذهب . هذه الأخيرة عبرت البحار السبعة لتأخذ فيما بعد من  
 الصحراء التشيلية فلزات «الأزوت» التي ترقد هناك كأنها غبار لا يحصى لتمثال  
 محق وسحق تحت أكثر منطقة في العالم جفافاً .  
 لقد كانت هذه هي المغامرات الكبرى .

لقد تلالأت «بالبارائيسو» عبر ليل الكون ، لقد بدت بواخر تمخر من عالم إلى  
 عالم ، سفن موشاة كأنها حمائم سحرية ، سفن شذية عطرة ، أشرعة جائعة أرساها  
 «كابو دي أورنوس» في مراسيه ردهاً من الزمن . . . أحابين كثيرة كان الرجال حديثو  
 العهد في الإقلاع والإبحار يستعجلون اليابسة ويستوحشون الكلا . . . كانت أياماً  
 ضارية ساحرة حين لم تكن المحيطات تتصل في ما بينها إلا عن طريق مسافات  
 المضيق «الباتاغوني» ، حين كانت «بالبارائيسو» تدفع بعملة جيدة أجرة البحارة الذين  
 كانوا يتفون عليها ويعشقونها .

في إحدى السفن وصلت آلة موسيقية من الطراز القديم ، في أخرى عبرت  
 السيدة (فلورا تريستان) وهي الجدة «البيروانية»<sup>(١)</sup> لـ(غاوغين Cauguin)<sup>(٢)</sup> ، وفي  
 «واجير» (Wager) وصل (روبينسون كروزو) ، الآلة الموسيقية شحنت بقدها  
 وقديدها<sup>(٣)</sup> من ميناء «خوان فيرنانديث» ؛ سفن أخرى جلبت ثمر الأناناس ، بنا ،

(١) البيروانية : نسبة إلى «البيرو» ، إحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية .

(٢) غاوغين : رسام فرنسي (١٨٤٨-١٩٠٣) .

(٣) بقدها وقديدها : في الأصل بلحمها وعظمها .

فلقلاً من «صوماطرا»، موزا من «غواياكيل» Cuayaquil، شايأ مع الياسمين<sup>(١)</sup> من «أسام» Assam، مشروب «ال أنيس»<sup>(٢)</sup> من أسبانيا . . . امتلأ الرصيف البعيد وحدوة «سنتورو» Centauro المؤكسدة بالأشذاء والعطور: في هذا الشارع تفعمك عذوبة الفرقة، إذ ذاك تخترق روحك مثل سهم أبيض رائحة فاكهة «تشيريمويا» Chirimoyas<sup>(٣)</sup> من هذا الزقاق أو ذاك تطل لتقاتلك فتات طحالب البحر: طحالب البحر التشيلي كله .

كانت «بالبارائيسو» آنذاك، تتشح وتتقلد بالذهب الأسود، تستحيل إلى شجرة يرتقال بحرية، كان لها أغصان وأوراق، كان لها نضارة وظل، كان لها تلالؤ الشمر وألق البحر .

لقد قررت قمم «بالبارائيسو» إلقاء رجالها . الإطاحة بالمنازل من الأعلى كي تحور هذه المنازل في المستنقعات التي يصبغها الصلصال باللون الأحمر، المتاهات الذهبية باللون المذهب، الطبيعة النفور باللون الأخضر . لكن الرجال أبوا والمنزل جفخت فتشبت الرجال والمنازل بالقمم، التفوا عليها، تسمروا فيها، تعذبوا منها، تعودوا على كل ما هو شاقولي بها، تعلقوا بأسنانهم في كل مغارة، غرزوا أظافرهم في كل هاوية . وما ميناء «بالبارائيسو» إلا الحرب السجال بين البحر وطبيعة الجبال المراوغة، بيد أن الإنسان في هذا الصراع ربح الجولة فتصالحت القمم والأمواج وتعاونت الرايبة والشاطئ على تكوين المدينة وخلقها فألبسها زياً واحداً ليس كما هو الحال عليه في الثكنات بل في تنوع الربيع، في تلون ألوانه، في تشكل رسومه، في تناغم ألحانه، في نشاطه، في حركته . فغدت المنازل ألحانا وألواناً: من أزرق وأصفر ومن أسود وأحمر ومن أرجواني وأخضر . هكذا أنجزت «بالبارائيسو» مهمتها فغدت ميناء حقيقياً، سفينة راسية لكنها حية تعج نشاطاً، أشرعة راياتها مشرعة على الرياح فلقد كان المحيط العظيم بأمواجه ورياحه يستحق مدينة ذات بيارق ورايات .

(١) الياسمين : هكذا في الأصل (Jazmin)، عن العربية .

(٢) ال أنيس Anis : مشروب يشبه العرق، منه الحلو ومنه الحاد .

(٣) تشيريمويا : هي كلمة من أصل أمريكي، وهي شجرة تكثر في أمريكا الوسطى، يبلغ علوها حوالي ثمانية أمتار، على جذعها أغصان كثيرة، وقرمتها كثيفة، أزهارها عطرة، أوراقها مستطيلة خضراء، تؤكل فاكهتها .



لقد عشت بين هذه الربا الشذية الجريحة ، هي ربا مفعمة لذيدة فيها الحياة تلطم  
بأمواج تتجاوز الأسوار ، تقذف بأصداف لا تُسبر ، تعزف بأبواق معوجة . في المدرج  
ينتظرك ، مهرجان برتقالي ، راهب يهبط ، طفلة حافية غارقة في بطيختها التي  
تأكلها ، زحمة من بحارة ونساء ، بيعة من حدائد متأكسدة ، سيرك صغير جداً لا  
يسع شبوطه إلا شاربي المروض المهرج ، مدرج يصعد إلى الغيوم ، مصعد يرتفع وقد  
حمل بالبصل ، سبعة حمير تحمل ماء ، سيارة إطفاء تعود من حريق ، واجهة محل  
فيها من الزجاجات ما يحيي أو يميت .

لكن هذه الروابي لها أسماء عريقة عميقة . إن الحفر بين هذه الأسماء ليس  
ينتهي أو ينقضي لأن رحلة «البارائيسو» لا تنتهي لا في الأرض ولا في الكلمة .  
إليك هذه الأسماء أو بعضاً منها<sup>(١)</sup> : الربوة الفرحة ، الربوة الفراشة ، الربوة القطبية ،  
ربوة المستشفى ، ربوة المسيح ، ربوة الركن ، ربوة الذئب ، ربوة المراسي ، ربوة أواني  
الفخار<sup>(٢)</sup> ، ربوة السنديان ، ربوة البطم ، ربوة الطاحونة ، ربوة القصب ، ربوة السيد  
(البيرا) ، ربوة القديس (اسطفان) ، ربوة الزمردة ، ربوة اللوزة ، ربوة (رودريغيث) ، ربوة  
المدفعية ، ربوة الحلابين ، ربوة مريم العذراء ، ربوة المقبرة ، ربوة شوك الدراج ، ربوة  
الشجرة المطوقة ، ربوة المستشفى الإنجليزي ، ربوة سعف الجريد ، ربوة الملكة  
(فيكتوريا) ، ربوة القديس (خوان دي ديوس) ، ربوة الفرضة ، ربوة «فيثكايا» ، ربوة  
السيد (إلياس) ، ربوة الرأس ، ربوة قصب السكر ، ربوة السفرجل ، ربوة الثور ، ربوة  
«فلوريدا» .

لم أعد أقدر على المسير بعد في أماكن أخرى كثيرة . إن «البارائيسو» تحتاج إلى  
نسناس يجري جديد أو إلى أخطبوط<sup>(٣)</sup> حتى يستطيع أن يتعرف عليها ويطوف بها .  
أما أنا فإني أستغل شيئاً ما من مداها الفسيح ، مداها الذاتي الودود ولكنني لا أبلغ  
أن أضمها من يمينها ذات الألوان العديدة ، من يسارها ذات الخصوبة والعتاء ورأسها  
أو من هاويتها .

أنا فقط أتبعها في أجراسها ، في تموجاتها ، في أسمائها .

(١) نحاول هنا أن نترجم هذه الأسماء ، علماً بأنها أسماء أعلام وأماكن .

(٢) أواني الفخار . هكذا في الأصل Alfareras ، عن العربية .

(٣) أخطبوط (Octopierna) : كلمة من أصل اغريقي ومعناها ، ذو الثماني أرجل ، تقرأ بضم الهمزة .

لا سيما أسماءها ، إذ إن للأسماء جذوراً وأصولاً ، إن لها لهواء وزيتاً ، إن لها تاريخاً ، لدنهما دم في مقاطعها وحروفها .

### قنصل لتشيلى في جُحر:

جائزة أدبية طلابية ، بعض من الشهرة لكتبي الجديدة ، بردتي الشهيرة ، كل هذا منحني هالة من الوقار والاحترام ، وذلك خارج أطر الدوائر الفنية والأدبية . لكن الحياة الثقافية لبلداننا في عام ٢٠ كانت تتوقف كلية على أوروبا ، ما عدا استثناءات بطولية معدودة . في كل جمهورية من جمهوريات أمريكا اللاتينية كان هناك محفل كوني لا يهتم إلا في الثقافة الأوروبية وبخاصة الفرنسية منها ، وأما بالنسبة لكتاب الفئة الحاكمة فقد كانوا يعيشون في باريس . لم يكن شاعرنا الكبير (بيشنته هويدوبرو)<sup>(١)</sup> يكتب باللغة الفرنسية ، فحسب ، بل إنه غير اسمه لينطق كما هو بالفرنسية ، استبدل به اسم «فينسنت» .

والحقيقة هو أنه ، ما إن حزت على شيء من الشهرة في مستهل شبابي ، حتى بدأ الناس ، يسألوني إن رأوني في أحد الشوارع أو أحد الأماكن : «لكن ، ماذا تفعل هنا؟ عليك أن تذهب إلى باريس» .

لقد توسط لي صديق من أصدقائي لدى رئيس دائرة في وزارة الشؤون الخارجية ، فاستقبلني هذا الرئيس حالاً أحسن استقبال ، إذ إنه كان قد قرأ شعري .

- بالإضافة إلى شعرك فإني أعرف كذلك تطلعاتك . اجلس في هذا المقعد المريح ، فمنه تستطيع أن ترى الساحة ومهرجان الساحة . تأمل في هذه السيارات ، إن كل شيء لباطل وعبث . إنك لسعيد كونك شاعراً شاباً . أفترى ذاك القصر؟ لقد كان ملكاً لعائلي . وها أنت تراني هنا ، في هذه الحظيرة ، مكبلاً وقد غدوت بيروقراطياً . ليس من شيء ذي قيمة سوى الروح . هل يعجبك (تشايكوفسكي)<sup>(٢)</sup>؟

بعد ساعة من الحديث الأدبي والفني . عندما مد لي يده لتوديعي ، قال لي بألا أقلق حول هذا الموضوع إذ إن الأمر في أيدي أمينة ، كيف لا وهو مدير الخدمات

(١) بيشنته هويدوبرو : شاعر من تشيلي (١٨٩٣-١٩٤٨) .

(٢) تشايكوفسكي (Pioty Ilich) : الموسيقي الروسي الشهير (١٨٤٠-١٨٩٣) .

القنصلية وصاحب الأمر والنهي في هذا الموضوع .

- اعتبر نفسك من الآن معيّنًا لمنصب في الخارجية .

كنت أتردد خلال سنتين كاملتين إلى دائرة هذا الرئيس الدبلوماسي الكيس ، وهو في كل مرة أكثر كرمًا وترحيباً . ما إن يراني أطل من الباب حتى ينادي في فتور على أحد من مساعديه ويقول له وهو يفتل شاربيه : اسمع ، لست اليوم مستعداً لاستقبال أحد مهما كان ، دعني أنسى النثر اليومي ، إن ما هو روعي في هذه الوزارة هي زيارة الشاعر ، ليس إلا ، ليته لا يغادرنا أبداً .

كان يكلمني في صراحة وصدق ، أنا متأكد من هذا ، من بعد يأتي الفصل التالي ، يحدثني عن الكلاب الأصيلة «من لا يحب الكلاب ، لا يحب الأطفال» . ثم يستعرض الروايات الإنجليزية ، ثم يعرّج على علم طبائع الإنسان ثم يحلّق إلى الروحانيات لينتهي متحدثاً عن مسائل تتعلق بعلم الأنساب وبخاصة أشعرة الأشراف . لدى توديعي يعيد عليّ مسمعي هامساً ، كما لو كان الأمر سرّاً بين اثنين لا يجوز البوح به ، أن لا أحزن أو أقلق وأن منصبي في الخارج أكيد . مع أنني كنت في عوز واحتياج إلى المال لكي أكل على الأقل ، فقد كنت أخرج من عنده راضياً ، أستنشق الهواء كأنني وزير أو مستشار . وحين كان يسألني أصدقائي «ماذا كنت تعمل هذا اليوم؟» أجبت بأنني أعدّ نفسي للسفر إلى أوروبا .

لقد دام هذا الأمر إلى أن التقيت صدفة بصديقي (بيانتشي Bianchi) . إن آل (بيانتشي) في تشيلي هم فخذ من قبيلة نبيلة . منهم رسامون وموسيقيون مشهورون وقضاة وكتاب ورواد مكتشفون ومتسلقون لجبال «الأنديس» Andis ، تنفذ الحكومة لهم ما يشاؤون وتلبي مطالبهم أو وساطاتهم في أسرع وقت . سألني صديقي هذا الذي كان سفيراً يعرف الأسرار الوزارية والدبلوماسية :

- ألم يصدر تعيينك حتى الآن؟

- سوف أحصل عليه بين لحظة وأخرى ، كما أكد لي ذلك أحد حماة الفنون والأدب ممن يعملون في الوزارة .

ابستم لي ثم قال :

- هيا بنا إلى الوزارة .

تأبطني من ذراعي إلى أن وصلنا الوزارة فصعدنا الدرجات المرمرية ، فكان يخلي لنا الدرب الصاعد فراشون ومستخدمون ونازلون وطاقون . لقد كنت مندهشاً جداً إلى

درجة أنني ما استطعت أن أنطق ببنت شفة حين استقبلنا وزير الخارجية فهذه هي أول مرة ألتقي فيها بوزير للخارجية ، كان قصير القامة جداً ولكي يخفي قصره ، جلس على مقعد عال وراء مكتبه . شرح لي صديقي الأمر وكلمه عن رغباتي الشديدة بالخروج من تشيلي ، فوضع الوزير إبهامه على زر من أزرار أجراسه الكثيرة واذ بحامي الأدب وحامي حماي الروحي وشفيعي يطلّ بطلعته البهية فجأة بما ضاعف من بلبتي وزاد من ارتباكِي .

- ما هي المناصب الخالية في دائرتكم؟ قال له الوزير .

لم يكن ليستطيع هذا الموظف المويخ أن يتكلم الآن عن (تشايكوفيسكي) ، بل اقتصر على تعداد أسماء مدن مبعثرة في العالم ، ما التقطت منها سوى اسم واحد لا غير بدا لي أنني كنت قد سمعت به أو قرأته من قبل . . . «رانغون» .

- إلى أين تريد الذهاب يا (بابلو)؟ قال لي الوزير .

- إلى رانغون - أجبته بلا تردد .

- أصدر تعيينه حالاً - أمر الوزير ظهيري وشفيعي الذي جرى ثم عاد بقرار

التسمية .

كان هناك في القاعة الوزارية كرة للكرة الأرضية . صديقي (بيانتشي) وأنا أخذنا نبحث فيها عن مدينة «رانغون» المجهولة . كان للخارطة الكروية العتيقة جداً انبعاج عميق كأنه جُحر ، بناحية من آسيا وفي هذا التجويف اكتشفناها .

رانغون . ها هي هنا رانغون .

لكن حين التقيت من بعد بأصدقائي الشعراء ، وأرادوا الاحتفال بتعييني ، حصل أنه نسيت كلياً اسم المدينة ، ما استطعت إلا أن أقول لهم بأنني عيّنت قنصلاً في الشرق الخرافي وأن المكان الذي عينت فيه يوجد في جُحر من الخارطة .

«مونتبارناسه» (Montparnasse) ،

انطلقنا ذات يوم من أيام حزيران لعام ١٩٢٧ نحو المناطق القصية البعيدة . استبدلنا ببطاقتي من الدرجة الأولى اثنتين من الدرجة الثالثة وأقلعنا في سفينة «البادين» Baden . كانت باخرة ألمانية ، قيل بأنها وحيدة في نوعها ، لكن كان يجب أن يقال بدلاً من هذه «وحيدة» ، خامسة أو سادسة الخ . كانت الوجبات في هذه الباخرة تقوم على مرحلتين متتابعتين إن انتهي من الأولى شرع بالثانية : واحدة

منهما سريعة إلى المغتربين البرتغاليين والجليقيين<sup>(١)</sup>، والأخرى إلى المسافرين الآخرين على اختلاف أجناسهم وبخاصة الألمان الذين كانوا يعودون من عملهم في المناجم أو المعامل بأمريكا اللاتينية. صاحبي (البارو Alvaro) صنف المسافرين حالاً: كما مغازلاً فعلاً، فقد قسمهن إلى مجموعتين، اللواتي يهاجمن الرجل، واللائي يخضعن للسطو، لم تكن هذه الصيغ في التصنيف والتقسيم دقيقة دائماً. كان يستعمل أنواع الحيل جميعها ليقوع الفتيات في حباله ويصيدهن في شبابه. حين كان يطل عند جسر الباخرة مثنى من المسافرين المهمات، يأخذ يدي بسرعة ويتظاهر بأنه يفسر لي معاني خطوط كف يدي، بإشارات غريبة، حين ترجع المنتزهتان من جولتهما الأولى، تتوقفان فترجوانه أن يقرأ لهما البخت. فوراً يأخذ يد هذه أو تلك فيداعبها ويدغدها أكثر مما يجب، وكان يتوقع لهما المستقبل السعيد ألا وهو زيارة غرفتنا في السفينة.

بالنسبة لي تحوكت رحلتي إلى شيء آخر فلم أعد أنظر إلى المسافرين الذين كانوا دائماً يحتجون صارخين على وجبة الطعام الخالدة من «كارتوفيل»<sup>(٢)</sup>، لم أعد أتأمل في الكون أو في المحيط الأطلسي الرتيب، فقد قصرت نظري على التمعن في عينين سوداوين واسعتين لفتاة برازيلية، برازيلية في كل شيء، برازيلية إلى حد ما لا حد له، منذ أن صعدت إلى الباخرة بصحبة أبويها وأخويها في ميناء «ريو دي جينيرو». إن مدينة «ليشبونة» البهجة الفرحة في تلكم الأعوام بصياديها الذين يملأون أرصفة مينائها وشوارعها، ومن غير أن يكون بعد في العرش (سالازار)<sup>(٣)</sup>، أدهشتني وفتنتني، الأكل في الفندق الصغير كان لذيذاً، صوان كبيرة من الفواكه كانت تتوَج المائدة، الدور الكثيرة الألوان، القصور القديمة ذات الأقواس فوق الأبواب، الكنائس الهائلة المخيفة كأنها بقبابها قشور بيض الرخ والتي كان الله قد غادرها منذ قرون ليعيش في أماكن أخرى، دور الميسر داخل القصور العتيقة، الجمهور المتطفل بشكل

(١) الجليقيون (Gallegos): هم سكان منطقة «غاليشيا» Galicia أو «جليقيا» كما كان يدعواها العرب، وهي المنطقة الشمالية الغربية من إسبانيا.

(٢) كارتوفيل: هو نوع من الأكل الألماني.

(٣) سالازار (Antonio de Olivera): الديكتاتور البرتغالي المعروف (١٨٨٩-١٩٧٠).

طفولي في الشوارع الطويلة ، (الدوقة براغانثا)<sup>(١)</sup> ، وقد فقدت عقلها ، تمضي عبر شارع مرصوف بالأحجار ، في وقار وجلال ، وهي تُتبع بمائة من الشبان الصعاليك الذاهلين ، هكذا كان دخولي إلى أوروبا .

ومن بعد ، مدريد بمقاهيها المكتظة بالناس ، في تلك الأيام كان (بريمو دي ريبيرا)<sup>(٢)</sup> الدمث يلقي الدرس الأول في الديكتاتورية على بلد سيتلقى من بعد الدرس الأكمل . إن قصائدي الأولية في ديواني «مقام في الأرض» قد تأخر الأسباب في فهمها ، وهم ما فهموها واستوعبوها إلا حين نشأ جيل (البرتي)<sup>(٣)</sup> و(لوركا) و(اليكساندروه) و(دييغو) . وأسبانيا كانت بالنسبة لي كذلك القطار اللامتهي والعربة من الدرجة الثالثة ، أكثر العربات قساوة ورداءة في العالم ، التي أقلتني إلى باريس .

لقد اختفينا ؛ أنا وصاحبي ، بين جمهرة مقهى «مونتبارناس» الدخانية ، بين أرجنتينين وبرازيليين وتشيليين . أما الفائزويليون فلم يكونوا قد حلموا بعد بأن يبينوا ويظهروا ، فقد كانوا مقبورين إذاك تحت نير حكم (غومث Comez)<sup>(٤)</sup> . وهناك في زاوية من زوايا المقهى جلس أوائل الهنود الحمر من الذين أتوا إلى باريس بملابسهم السابغة . وقربي على طاولة مجاورة جارتني تناول في تودة قهوة بالحليب وحول عنقها التفت أفعى . كانت جاليتنا الأمريكية الجنوبية تشرب «كونياك» ، ترقص «التانغو» وهي تنتظر سانحة كي تبدأ بمشاجرة كبيرة والتعارك مع أكثر الناس هناك .

لقد كانت باريس وفرنسا وأوروبا بالنسبة إلينا نحن القرويين البوهيميين القادمين من أمريكا الجنوبية لا تعدو أن تكون مئتي متر ليس إلا ، وزاويتين : «مونتبارناس» ،

---

(١) الدوقة براغانثا : من الأسرة الملكية البرتغالية التي أقصيت عن الملكية والحكم .

(٢) بريمو دي ريبيرا (Miguel) : كان جنرالاً في الجيش ثم حكم إسبانيا حكماً ديكتاتورياً (١٨٧٠-١٩٣٠) .

(٣) البرتي : لقد ترجمنا له وعنه وكذلك لشعراء جيله المعروف بجيل عام ٢٧ في كتابنا المذكور «مختارات من الشعر الإسباني المعاصر» ، وهو شاعر ولد في قرية من قرى «قاديش» عام ١٩٠٢ ويعيش منذ نهاية الحرب الأهلية الإسبانية في إيطاليا ، وله كذلك مسرحيات رائعة . لقد عاد إلى إسبانيا في عام ١٩٧٧ .

(٤) غومث (Juan Vicente) : ديكتاتور فينزويلي (١٨٥٧-١٩٣٥) .

والـ«روتوند» والـ«روم» والـ«كوبول»، وثلاثة مقاه أو أربعة أخرى ليس أكثر. لقد أصبحت عادة عند الأمريكيين الجنوبيين وبخاصة الأرجنتينيين منهم الذين كانوا أكثر عدداً وأكثر عريضة وأكثر غنى، مسامرة الملاهي المليئة بالسود. في كل لحظة كانوا يثيرون الشغب في هذا المقهى أو ذاك ويُشاهد دائماً منظر أحد الأرجنتينيين وهو يحمل بين أربعة من النوادل ويمر بين الطاولات بلا توقف ليوضع على ناصية الشارع في صخب واحتجاج إذ لم تكن تعجب أبناء عمنا أبناء «بونوس ايرس»، هذه التصرفات العنيفة -علماء بأنهم كانوا هم الذين يبدؤون بها- التي تفسد لهم سراويلهم الأنيقة. وما هو أكثر خطورة أنها كانت تخربط تسريحات شعرهم، فلقد كانت الأناقة واللياقة جزءاً أساسياً في الثقافة الأرجنتينية تلك الفترة من الزمن.

إن الحقيقة هي أنني، في هذه الأيام الأولى لي ببarris التي كانت تطير ساعاتها دون أن أدري، لم أعرف على أي فرنسي ولا على أي أوروبي ولا على أي آسيوي بله على أي مواطن من أفريقيا أو من المحيط الهادي. كان الأمريكيون الناطقون باللغة الإسبانية جميعاً، من المكسيكيين حتى البانتاغونيين، يقضون أوقاتهم في مجالس للتبكي والتبكي يضخمون العيوب، يصغر بعضهم بعضاً ويحقره. دون أن يستطيعوا أن يعيشوا مفترقين لحظة واحدة فقد كان رجل من غواتيمالا، مثلاً، يفضل لقضاء الوقت في شكل لذيق، مصاحبة صعلوك من باراغواي على مصاحبة (باستور)<sup>(١)</sup>.

في هذه الأيام تعرفت على (ثيسار باييجو)<sup>(٢)</sup>، الذي هو «تشولو»<sup>(٣)</sup> عظيم وشاعر شعر متغصن صعب اللمس خشن الجس كأنه جلد الغابة، لكنه شعر عظيم جداً ذو أبعاد إنسانية.

لقد وقعت لي معه حادثة حين قدموني إليه في مقهى الـ«روتوند» فقد قال لي وهو يصفحني في لهجته البيروية المهذبة:

أنت أعظم شعرائنا كلهم، لا يقارن بك إلا (روبين داريو)<sup>(٤)</sup>.

(١) باستور Louis: كيميائي فرنسي (١٨٢٢-١٨٩٥).

(٢) ثيسار باييجو: شاعر من البيرو (١٨٩٣-١٩٣٨).

(٣) تشولو Cholo: هو الهجين المختلط الدماء من دماء الهندود الحمر ومن دماء الأوروبيين.

(٤) روبين داريو: شاعر مشهور جداً من «نيكراغوا» (١٨٦٧-١٩١٦).

- يا (بايينخو) -قلت له- إذا أردت أن نكون أصدقاء دائماً فأرجوك ألا تعود فتقول لي شيئاً من هذا القبيل ، فلست أدري إن بدأنا علاقتنا على هذا النحو من المدح والمجاملة وعلى هذا الشكل في التخاطب بأننا أديبان كبيران ، أين سنقف في ما بعد وإلى أين سنصل .

بدا لي أن كلماتي هذه قد أزعجته جداً . تربيته المعادية للأدب كانت تجعلني أصير سيء الأدب ، بينما هو ، على العكس من ذلك ، ينتمي إلى جنس أكثر عراقة من جنسي ذي مجد وكياسة ولباقة . لقد شعرت حين لاحظت أنه تضايق من كلامي ، كأني ريفي جلف فظ .

لكن ذلك مر كسحابة صيف ومنذ تلك اللحظة غدونا صديقين حميمين . بعد عدة سنوات ، حين عرجت على باريس مرة أخرى لقضاء بعض من وقت ، كنا نتقابل يومياً . حينذاك عرفته في عالمه الذاتي وأحبهته أكثر فأكثر .

كان (بايينخو) أقصر قامه مني ، أكثر عظماً ، كان كذلك أكثر «مهنداً»<sup>(١)</sup> مني بعينه الغامقتين وبجبهته الشامخة المعقودة قناطر وقباباً ويمسّمه الـ «إينكي»<sup>(٢)</sup> الجميل الحزين في شيء من الجلالة والمهابة . كان مزهواً معجباً متباهياً بجميع الشعراء قاطبة فلقد كان يسره ويرضيه أن يطنب الناس في الحديث عن سجاياه البدوية وملامحه الهندية ، كان يشمخ برأسه كي ألحظ في وجهه هذه المزايا فأكبرها وأطريها ويقول لي :

- أفليس حقاً أن في وجهي لنضارة البدوي؟ ثم يضحك من نفسه في ابتسامه صامتة .

إن افتخاره لمختلف جداً عن فخر (بيثينته هويدوبرو) ، هذا الفخر الذي كان يبديه أحيان كثيرة هذا الشاعر المتقاطر و(بايينخو) في أشياء كثيرة ، فلقد كان (هويدوبرو) يترك على جبينه عقيصه من الشعر تتدلى ويحشر أصابعه في صدريته ويشرب رأساً وصدراً ثم يتساءل :

- أفما تلاحظون شبيهي من (نابلليون بونايرت)؟

- بلى ، كانوا يجيبونه مستهزئين أحياناً .

---

(١) مهند : لم نجد أصلح من هذه الكلمة لترجمة ما معناه أنه كان أكثر هندياً أحمر .

(٢) الـ «إينكي» : نسبة إلى (inca) وهو ملك أو أمير أو نبيل من قبائل «البيرو» القديمة .



كان (بايخو) متجهماً عبوساً كئيباً ، بيد أن ذلك لم يكن إلا في المظهر فكانه رجل يقف في شبه ظل نصفه نور ونصفه الآخر عتمة ، خلال رده طويل من الزمن ، فلا النور يبلغ الظلام ولا الظلام يبلغ النور ، وكل في مكانه لا يبرحه . كان في طبعه جليلاً وقوراً ، ووجهه كأنه قناع صلب لا يرق ولا يلين ، رصين يحسبه الناس تكلفاً وما هو بذلك . لقد رأته عدة مرات (وبخاصة حين كنا نقدر على اجتثائه من سيطرة زوجته ، كانت امرأة فرنسية طاغية مدعية وهي ابنة بواب) . لقد شاهدته حين يخرج معنا ، وهو يقفز قفزات التلامذة فرحاً وغبطة ، ثم يعود إلى وقاره وجلاله إلى خضوعه وانقياده .

على حين غرة طلع من ظلال باريس نصير الأدب هذا الذي كنا ننتظره ولا يأتي أبداً ، نصيراً يؤوينا ويعطينا . كان حامي الأدب هذا كاتباً تشيلياً ، صديقاً لـ(رافائيل البرتي) وللفرنسيين ولنصف العالم . وكذلك كان ، وهذه ميزة أكثر أهمية من غيرها ، ابن صاحب أكبر شركة تشيلية للسفريات البحرية . وكان شهيراً بتبذيره وإطلاق يده .

كان ذلك المسيح الحديث السقوط من السماء يريد أن يحتفل بي ويكرمني فقادنا جميعاً إلى ملهى للروس البيض يدعى «الحانة القفقاسية» ، كانت جدران هذه الحانة مزينة بأزياء ومناظر من جبال القفقاس ، ما إن جلسنا حتى أحاط بنا عدد كبير من الروسيات أو المدعيات بأنهن روسيات ، متزينات كما تتزين فلاحات تلك الجبال .

إن (كوندون) ، هذا هو اسم مضيفنا راعي الفنون ، يبدو وكأنه آخر روسي من عصر الانحطاط ، هشاً أشقر ، كان يطلب بلا هوادة أو انقطاع زجاجة «شمبانيا» إثر زجاجة ، يقفز قفزات جنونية ، مقلداً رقصات «القوزاق»<sup>(١)</sup> التي ما رآها أو رآهم قط . - «شمبانيا ، شمبانيا» ثم خرّ ساقطاً مضيفنا المليونير الشاحب الوجه والبدن . ظل مخزوناً تحت الطاولة ، نائماً نوماً سباتاً كأنه جثة هامة لقفقاسي أهلكه الدب الأبيض .

سرت بنا رعشة ثلجية وهزة جليدية ، لا الرجل يستفيق فيدفع لـقَدْ حاولنا بعثه

(١) القوزاق (Cosacos) : هم سكان بعض مناطق روسيا ، وكذلك هم العساكر الخيالة في روسيا القيصرية .

بأضمدة من ثلج بزجاجات من نشادر مفتوحة موضوعة قيد أنفه- ولا نحن نملك أن ندفع . الراقصات ما عدا واحدة منهن ، هجرنا وقد رأينا في حيرة وتشتت . بحثنا في جيوب مضيفنا فما عثرنا إلا على دفتر «شيكات» مزخرف ، ما كان صاحبنا في شروطه الجثثية تلك بقادر على التوقيع .

لقد ألح صاحب الحانة القفقاسي الأعظم على أن يكون الدفع عدداً ونقداً وحالاً ، فأغلق باب الخروج تحسباً كيلا نولي الأدبار ، فما استطعنا أن ننجو من السجن إلا بترك جواز سفري الدبلوماسي الجديد القشيب هناك حبساً لديه مرهوناً بدلاً منا . خرجنا وقد حملنا مضيفنا المليونير المنهك فكلفنا جهداً كبيراً نقله إلى سيارة «تكسي» ، تكفيته فيها ، إنزاله منها عند باب فندق فاخر فتركناه بين أذرعة بوابين ضخمين لابسين أزياء حمراء فحملاه كما لو أنهما يرفعان أمير بحر<sup>(1)</sup> سقط على جسر سفينته .

كانت تنتظرنا في سيارة «التاكسي» فتاة الحانة ، الفتاة الوحيدة التي ما هجرتنا في وقت الضيق والتعاسة . دعوناها ، أنا و(البارو) ، إلى مطعم «ليس هالليس» Les Halles لتتذوق حساء البصل عند الفجر ، اشترينا لها وروداً من السوق وقبلناها قبلات شكر وامتنان على سلوكها السامري فشعرنا أن لها جاذبية ما . لم تكن لا بالجميلة ولا القبيحة ، بل إن أنفها الباريسية المتجعدة المتغضنة كانت تمنحها شيئاً من الاعتبار . آنذاك دعوناها إلى فندقنا البائس التعس ، لم يكن هناك من جانبها أي مانع أو تعقيد في الذهاب معنا .

دخلت مع (البارو) إلى غرفته ، وأنا هويت في فراشي مستسلماً للنوم ، لكن ما إن غفوت قليلاً حتى أحسست أن أحداً يهزني ، يخضني ، كان (البارو) ، وجهه بدا لي غريباً كوجه مجنون وديع .

- هناك شيء يجري - قال لي - إن لهذه المرأة شيئاً متميزاً غريباً غير مألوف ، شيئاً ما أنا بقادر على أن أشرحه لك ، عليك أن تجربها بنفسك الآن حالاً .

بعد دقائق معدودات جاءت هذه المرأة فحشرت نفسها بلطافة وهي كأنها حاملة ساهمة ، في فراشي . حين ضاجعتها خبرت فيها هذه الميزة الغريبة ، هذه الهبة السحرية ، كان شيئاً لا يوصف ، شيئاً ينبع من أعماقها يتفجر ، ثم يرجع أدراجه إلى

(1) أمير بحر: أو أمير البحر ، هكذا في الأصل Almirante ، عن العربية .

أصل الشهوة ، نبع اللذة ، مولد الموجة ، إلى سر «فينوس» الخصب ، ثم يعود يقذف ثم ينخطف . إن (البارو) لعلى حق وفي يقين .

في اليوم التالي ، أثناء الفطور ، حذرني (البارو) قائلاً باللغة الإسبانية :

- إن لم ندع هذه المرأة الآن ، فإن سفرنا سيبوء بالفشل والإحباط إذ إننا ، يا عزيزي ، لن نركب البحر بل سر الجنس المقدس ولغز هذه المرأة الذي لا يسبر .  
قررنا أن نفعمها هدايا : وروداً ، شوكولاتا ، نصف ما تبقى معنا من «فرنكات» .  
اعترفت لنا بأنها ما كانت تعمل في ذلك المهمل القفقاسي ، بل إنها زارته لأول مرة تلك الليلة . ثم من بعد أخذنا لها سيارة تاكسي وركبنا معها . كان سائق التاكسي يجتاز حياً مجهولاً ، حين أمرناه بالتوقف فودعناها وتودعنا منها بقبل كثيرة كبيرة ، تركناها هناك ، تائهة لكن مبتسمة .  
أبدأ لم نرها من بعد ، قط .

### سفر إلى الشرق:

كذلك لن أنسى القطار الذي أقلنا إلى مرسيلىا ، محملاً مثل سلة فواكه غريبة ، بأناس شتى ، بفلاحين وبحارة ، بالآت «أكورديون» وأغان كانت تتسوق وتتجاوب في عربات القطار كلها . كنا نمضي نحو البحر الأبيض المتوسط ، نحو أبواب النور . . . عام ١٩٢٧ . لقد سحرتني مرسيلىا برومنطيكيتها التجارية وميناء «بيوكس» ، المنح بأسرعته الفوارة في كدرها القائم . لكننا الباخرة التي كانت تابعة إلى شركة «ميساجريس» البحرية والتي قطعنا تذكرتين للركوب بها حتى «سينغابور» ، كانت قطعة من فرنسا في البحر ، ببرجوازيته الصغيرة التي كانت تهاجر لتشغل مناصبها في المستعمرات النائية . حين لاحظ بحارة السفينة أن لدينا آلة كاتبة وأنه يبدو علينا من كتبنا وأوراقنا أننا من الكتّاب ، وذلك خلال الرحلة ، طلبوا منا أن نكتب لهم على الآلة الكاتبة رسائلهم . كنا نكتب ما يملونه علينا من رسائل غرامية بحارية غريبة عجيبة ، إلى خطيباتهم في مرسيلىا ، في «بوردو» في الريف . ما كان يهمهم كثيراً أن نحسن الأسلوب وندبج الجمل الجميلة ، بل إن ما كان يهمهم هي الآلة الكاتبة ، لكن ما كان يقولونه في هذه الرسائل كان يشبه قصائد (تريستان كوربيير) ، رسائل كلها فظاظة وطراوة معاً . راح البحر الأبيض المتوسط يفتح أمام قيدوم سفينتنا بموانئه ، بسجاجيده ، ببضائعه ، بأسواقه . في البحر الأحمر أدهشني ميناء

«جيبوتي» Djibuti ، الرمال المحترقة المحددة من كثرة ذهاب (ارثور رامبو Arthur Rimbaud)<sup>(١)</sup> ، تلك الفتيات السوداوات كأنهن تحف بسلاهن المليئة بالفاكهة ، تلك الأكواخ البائسة لأولئك السكان البدائين ، وهواء غير متناسب ونسيم تلك الأنحاء في مقاه منارة بضوء شاقولي ذي أطراف . . . هناك كانوا يتناولون الشاي المبرد بالليمون .

إن المهم هو رؤية ما يجري في «شانغهاي» ، ليلاً . إن المدن ذات السمعة السيئة والصيت «الحسن» تجذب المرء إليها كمثل نساء سامات . كانت «شانغهاي» تفتح شدقها الليلي لتبتلعنا نحن الاثنين . فنحن اثنان من ريفيي العالم ، مسافران من الدرجة الثالثة ، ليس لهما إلا قليل من المال وكثير من الفضولية الحزينة .

دخلنا إلى هذا الملهى وذاك ، إلى القريب والبعيد . كانت ليلة في منتصف الأسبوع ، لذلك فإن الملاهي كانت خاوية . لقد كان محزناً ومحبطاً أن ترى تلك المدارج ؛ مدارج الرقص الهائلة ، كأنما بُنيت لكي يرقص فوقها مئات الفيلة ، وهي خاوية على مدارجها ، لا يرقص فيها أحد . في الزوايا الكثيبة كانت تطلع منها فجأة روسيات ضامرات من عهد القيصر يتشاءبن وهنّ يطلبن منا أن ندعوهن على زجاجة «شمبانيا» . هكذا تجولنا في ستة أو سبعة من محلات إضاعة الوقت حيث لم يكن يضيع منا إلا وقتنا .

كان الوقت متأخراً كي نعود على أرجلنا إلى الباخرة التي خلفناها بعيدة جداً ، خلف أزقة الميناء المتصالبة فلذلك استأجرنا لكل واحد منا «ريكتشا» . لم تكن متعودين على هذا النوع من النقلات بأحصنة بشرية . لقد كان صينيو عام ١٩٢٨ يخبّون وهم يجرون العربة بلا هواة ولا راحة عبر مسافات طويلة بعيدة .

«يا للصينيين من عرق جدّ ناعم وجدّ ماهر ، ليس عبثاً أن لهذا الجنس ألفي عام من الحضارة» كنا نفكر في هذا : (البارو) وأنا ، كل في مقعده المتدرّج الجاري .

غير أن شيئاً بدأ يوسوس في صدري ويقلقني . لم أكن أرى شيئاً ، وأنا سجين تحت حصار اتخذت فيه الاحتياطات كافة كيلا أرى شيئاً ، لكن ، بلى ، كنت أسمع على الرغم من القماش المشمع ، صوت حصاني وهو يهمهم ويدمدم وصوت حوافره وهي تحبّ وتدبّ . على نغم حوافره أضيفت من بعد أصوات أخرى متناغمة لأقدام

(١) ارثور رامبو (أرثور Jean) : الشاعر الفرنسي الشهير (١٨٥٤-١٨٩١) .

حافية كانت تحب عبر الإسفلت اللليل . أخيراً همدت الأصوات والضجّات ، علامة بأن الأسفلت قد انتهى . لقد أصبح مؤكداً أننا نسير فوق أراضي حقول بور ، خارج المدينة .

توقفت فجأة ، عربتي . فك الحوزي في مهارة القماش الذي كان يحميني من المطر . لم يكن ثمة أية ظل لأية باخرة في تلك الضاحية غير الأهله . والعربة الأخرى كانت واقفة إزائي ، ثم نزل منها (البارو) تائهاً مخبولاً .

- «موني ، موني» Money Money (الفلوس ، الفلوس) كانوا يرددون بالإنجليزية في صوت هادئ ، ونظرنا وإذ بهم سبعة أو ثمانية يحيطون بنا .

أبدي صديقي حركة بيده وكأنه يبحث عن سلاحه في جيب السروال فكان هذا كافياً لكي يضربونا كلينا بضربة في القفا لكل منا . أنا هويت نحو الخلف ، لكن الصينيين في خفة وسرعة تلقفوا رأسي وهو في الهواء كي يحيلوا بينه والصدمة العنيقة على الأرض ، وفي رقة ونعومة فرشوني على الأرض البليلة مستلقياً . قلبوا جيوبي ، بحثوا في قميصي ، خلعوا عني قبعتي ، نزعوا مني حذائي ، سلخوا مني جرابي ، فكوا عن عنقي ربطتي ، في سرعة عجيبة وفي حذاقة بالغة كما البهلوان . لم يدعوا سانتيمترا واحداً من الملابس إلا حركوه وقلبوه ولا «سانتيما» واحداً بما كان معنا وهو قليل وحيد ، إلا وأخذوه وسرقوه . لكن لصوص شانغهاي بما لهم من لباقة تقليدية وعفة نفس أبية احترمو لنا في حرص وقداسة ، أوراقنا ، وجوازي سفرنا .

بعد أن مضوا وبقينا وحدنا ، تحركنا باتجاه الأنوار التي كانت تُرى من على بعد ، فوجدنا مئات من الصينيين الليليين لكنهم شرفاء محترمون ، لم يكن بينهم من يعرف الفرنسية أو الإنجليزية أو الإسبانية ، غير أنهم أبدوا استعدادهم لمساعدتنا في الخروج من وطننا وانقطاعنا عن الباخرة فأرشدونا إلى أن وصلنا إلى غرفتنا من الدرجة الثالثة ، غرفة فردوسية تنفسنا فيها واسترحنا .

وصلنا إلى اليابان . لا بد أن المال الذي كنا ننتظر أن يصل من تشيلي ، قد وصل إلى القنصلية . اضطررنا أن ناوي تلك الليلة إلى ملجأ بحارة في «يوكوهاما» . فقضينا فيه عدة أيام ، كنا ننام فوق نضائد من الحلفاء ، انكسر زجاج النافذة ، أثلجت السماء ، كان البرد يلدغ ويلذع حتى روحنا ، وما من أحد يهتم بنا أو يرثي لحالنا . ذات سحر انشقت سفينة بتروال إلى قسمين أمام الساحل الياباني فامتلاً الملجأ بالناجين من الغرق . من بينهم بحار بشكائسي لم يكن يعرف من اللغات إلا لغته

واللغة الإسبانية فحكى لنا مغامرته : خلال أربعة أيام بلياليها بقي عائماً على قطعة من الباخرة ، وهو محاط بأمواج النفط الملتهبة . هؤلاء الناجون من الغرق كانوا يتلقون مساعدات ومؤناً ، وكان هذا الشاب البسكوي الكريم يعطينا من كل شيء وكأنه حامينا وراعيننا .

نقيضه كان القنصل العام لتشيلي - يبدو لي أنه يدعى (دي لا مارينا) أو (دي لا ريبيرا) - استقبلنا من مقامه العالي الرفيع وهو يحاول أن يشعرنا بضالكتنا ، بضالكة من نجا من الغرق ويطلب العون والمساعدة . فهو وقته قصير جداً ، وهذه الليلة سيتعشى مع «الكونديسه» (يوفو سان) ، الحاشية الإمبراطورية ، دعتنا لتناول الشاي في القصر ، هو عاكف على دراسة عميقة عن السلالة الملكية .

- يا له من إنسان رقيق جداً جلالة الامبراطور ، الخ .

كلا ، ليس عنده هاتف ، فما هي حاجة الهاتف في «يوكوهاما» بالنسبة له؟ إن كلموه فإنهم سيكلمونه باللغة اليابانية أما بالنسبة لأخبار أموالنا ، فإن مدير المصرف ، وهو صديق حميم له ، لم يكن قد تفضل فأخبره بشيء حول هذا الأمر . إنه ليأسف أن يودعنا ، إذ إنهم ينتظرونه في حفلة استقبال ، إلى الغد ، إن شاء الله ، إلى الغد . وهكذا كل يوم ، كنا نغادر القنصلية ونحن نرتعد من البرد لأن ملابسنا كانت قد تضاءلت نظراً للسطو والهجوم الذي شن علينا ، لم نكن نلبس إلا ما يُعطى لنا من ملابس الناجين من الغرقى . علمنا في آخر لحظة أن أرصدتنا قد وصلت إلى «يوكوهاما» قبل أن نصل نحن إليها . وكان المصرف قد أرسل ثلاث رسائل يخبر فيها السيد القنصل بوصول المبلغ ، لكن تلك الدمية ذات القلائد ، أعني ذلك الموظف العالي السامي جداً لم يكن قد درى بهذا الشيء الضئيل الذي هو أقل كثيراً من أن يصل إلى عالي مقامه ورفيع شأنه . (حين أقرأ في الصحف أن قنصلاً أو آخر قد اغتيل من قبل أحد مواطنيه الغاضبين ، أفكر بحنين في ذاك المقلد المبحّل) . تلك الليلة ذهبنا إلى أحسن مقهى في طوكيو وهو مقهى الـ «كورونكو» Koroncko بـ«غينزا» Ghinza . لقد كان يؤكل جيداً في تلكم الأوقات بطوكيو ، بفضل أسبوع الجوع الذي كان يملأ الأطنمة توابل . شربنا بمصاحبة فتيات يابانيات لذيدات ، عدة مرات ، نخب المسافرين التعساء كلهم ، نخب أولئك المسافرين الذي لا يعتني بهم القناصل الفاسدون التافهون الموزعون في أنحاء العالم .

إنها «سينغابور» . كنا نظن أنفسنا قرب «رانغون» . يا له من فشل مرير! إن ما

كان في الخارطة وهو لا يعدو أن يكون بضعة ميليمترات قد استحال إلى هاوية مرعبة . ما زالت تنتظرنا عدة أيام على ظهر الباخرة ، ولكن أية باخرة! فالباخرة الوحيدة التي تقوم عادة برحلة بين المدينتين كانت قد أقلعت في اليوم السابق إلى «رانغون» . لم يكن معنا ما ندفع به أجرة الفندق ولا ثمن التذكريتين . فأرصدتنا الجديدة تنتظرنا في «رانغون» .

لقد وجدتها! فلأمر ما ثمة هنا في «سينغابور» قنصل تشيلي ، إنه زميلي ، السيد (مانسيًا) . اتصلنا به فخفّ سريعاً إلى فندقنا ، لكن ابتسامته أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً ، تخفّ إلى أن اختفت كلياً لتترك مكانها تكشيرة غضب وانزعاج .

- لا أستطيع مساعدتكما في شيء ، اتصلنا بوزارة الخارجية في تشيلي . حرّضت فيه النخوة وتضامن القناصل الأخوي . عبثاً ، فلقد كان للرجل وجه كوجه سجان لا يرحم ولا يشفق ، أخذ قبّعته وخرج مهرولاً ، وما كاد أن يختفي حتى خطرت لي فكرة رائعة :

- يا سيد (مانسيًا) ، إنني لأجد نفسي مضطراً أن أقوم بالقاء عدة محاضرات عن بلدنا على أن يدفعا لي مقابلها مبالغ مسبقة ، وبهذا أستطيع أن أجمع ما يكفي لشراء البطاقتين والمصاريف الأخرى ، فلهذا إنني أرجوك أن تؤمّن لي المكان والمترجم والاذن اللازم .

أصبح الرجل عند ذلك شاحب الوجه مضطرباً . ثم أردف قائلاً :

- ماذا ، أمحاضرة عن تشيلي في «سينغابور»؟ لا أسمح بهذا ، هذه هي منطقة اختصاصي ومجال نشاطي ، ما من أحد يستطيع الكلام عن تشيلي هنا سواي .

- هدئي من روعك ، يا سيد (مانسيًا) - أجبتّه . كلما كان عدد المحاضرين عن وطننا النائي أكثر ، كان أفضل ، لا أرى بهذا ما يدعوك للغضب .

أخيراً عقدنا صفقة في هذه التجارة الغريبة من التلميح بالتهديد في أنه يعادي الوطنية . جعلنا نوقع له على عشرة وصول ، وهو يرتعد من غضب ، ثم ناولنا النقود التي حين أحصيناها وعددناها وجدنا أن الوصول كانت تتضمن مبلغاً أكثر مما دفعه لنا .

(بعد عشرة أيام أرسلت له أنا «شيكاً» لإيفائه الدين من «رانغون» ، لكن بدون تضمين الفوائد ، طبعاً) .

من على ظهر السفينة التي كانت تنهدى مقتربة من «رانغون» ، رأيت ، مظلّ القمع الذهبي الهائل للمعبد الرائع ، معبد «سوي داغون» Swei Dagon . كانت

جمهرة من الأزياء الغربية تتزاحم على رصيف الميناء في حشد من الألوان عنيف .  
نهر عريض وسخ يصب هناك في خليج «مارتابان» . إن لهذا النهر اسماً هو أجمل  
اسم نهر من أنهار العالم جميعها «ايراوادهي» .  
إزاء مياهه ، على ضفافه بدأت حياتي الجديدة .

### «البارو» Alvaro

... إنه لعفريت (البارو دي سيلبا)<sup>(١)</sup> ... يعيش في نيويورك ... أتخيله وهو  
يأكل برتقالة في لحظات غاضبة شامة ... يحرق بالكبريت ورق لفائفه من التبغ ،  
يوجه أسئلة مزعجة مغيظة إلى نصف العالم ... لقد كان دائماً معلماً فوضوياً ، ذا  
ذكاء لامع ، ذكاء يستقصي لكنه لا يؤدي إلى أية جهة ، إلا إلى نيويورك ، كان ذهابه  
إلى هذه المدينة في عام ١٩٢٥ ... كان يحيا بين شقائق النعمان التي كانت تفرّ من  
بين يديه وهو يعدو مسرعاً ليقطفها فيعطئها إلى مسافرة مجهولة يريد مضاجعتها دون  
أن يعرف لها اسماً ولا جهة ، ولا يدري من أين جاءت وإلى أين تمضي وبين قراءاته  
التي لا تنتهي لـ (جويس Joyce)<sup>(٢)</sup> ، كان يدلي إليّ وإلى آخرين كثيرين ، بأراء  
يُشكّ في مدى صحتها ، وجهات نظر في كل شيء كأنه مواطن يعيش في كهفه  
بالمدينة ويخرج من حين إلى آخر ليتمتع بالموسيقى ، بالرسم ، بالكتب ، بالرقص ...  
دائماً يأكل برتقالاً ، يقشر تفاحاً ، حمية غذاء لا تحتمل ، يتدخل في كل شيء ، لقد  
رأيت فيه مجسماً نقيض الريفى الذي طالما حلمت في أن أكونه ، بله نحن الريفيين  
جميعاً نحلم دائماً أن نكونه ، لا يرحل بعناوين ملصقة على الحقائق ، بل يمضي  
يدور حول نفسه وفي نفسه مزيج من البلدان والألحان والحفلات والمقاهي حتى مطلع  
الفجر ، والجامعات ذات الثلوج على الأسطحة ... لقد بلغ في أحلامه المفرطة حداً  
جعل لي العيش مستحيلاً ... أنا حيث أصل أحاول أن أحلم حلم النبات في أن  
يكون له موضع لا يتزحزح منه ، أن أحدد لي مكاناً لا أبرحه ، أن أغرز جذراً كي  
أفكر ، كي أوجد ... بينما (البارو) كان يمضي من كهربة إلى أخرى ، من فكرة إلى  
أختها ، مسحوراً بالأفلام التي يمكن أن تمثل فيها ، لبسنا ذات مرة ملابس جعلتنا

(١) سيلبا : معناها ، غابة .

(٢) جويس (جيمس James) : كاتب إيرلاندي (١٨٨٢-١٩٤١) .



نبدو كمسلمين كي نذهب إلى الاستوديووات فيتعاقدوا معنا للتمثيل ... ثم توجهنا إلى هذه الاستوديوهات (في الطريق حين دخلنا إلى حانوت لنشتري تبغاً وأنا أرتدي زياً بنغالياً ، وذلك في «كلكوتا» ، الناس ظنوا أنني من عائلة (طاغور)) . وصلنا إلى استوديوهات «دوم-دوم» Dum-Dum وسرعان ما خرجنا منها مطرودين - ما زلت أحتفظ بصور لي في تلك الأزياء- ووشيكاً خرجنا راكضين من فندق «بي م ك أ» YMCA لأننا ما دفعنا أجره إقامتنا فيه ... أما عن المرضات اللواتي كنّ يعشقنا فحديثهن يطول ... (البارو) حشر نفسه في أعمال تجارية هائلة ... كان يريد أن يبيع شاي «أسام» Assam أقمشة من «كشمير» ، ساعات ، كنوزاً قديمة ... كل شيء كان يعطي ثماره عما قريب ... كان يترك عينات من الحرير الكشميري ، مساطر من الشاي فوق الطاولات ، فوق الأسرة ... كل ذلك وقد هياً حقيقته للسفر أو أنه قد أصبح في مكان آخر من العالم ... في ميونيخ ... في نيويورك ...

إن كنت أنا قد تعرفت على كتاب ماثارين ، مشميرين ، متقنين ، خصبين فإنني أجزم قائلاً بأن (البارو) هو أعظمهم جميعاً وأفضلهم على الإطلاق ... قلماً ينشر ما يكتب ... لا أفهم لماذا ... كان في كل صباح ، وهو في السرير ، ونظارته طالعة من حديبة<sup>(١)</sup> أنفه ، (هزي ، هزي)<sup>(٢)</sup> على الآلة الكاتبة ، مستهلكاً مواعين وحزماً من أنواع الورق كله ، والأوراق جميعها ... لكنه لا يستنفد حركاته ، كهرباءه ، انتقاداته ، برتقالاته ، تحولاته الزوبعية ، كهفه في نيويورك ، باقاته من شقائق النعمان ، غموضه الذي يبدو واضحاً ، وضوحه الذي يبدو غامضاً ... وما يبدعه ويؤلفه يقبع ولا يخرج ... قد يكون لأنه لا يرغب ... ربما لأنه لا يستطيع نشره ... قد يكون لأنه جد مشغول ... ربما لأنه جد غير مشغول ... بيد أنه يعرف كل شيء ، يعلم بكل شيء ، يرى كل شيء ، عبر القارات بهاتين العينين الزرقاوين الجريبتين ، بهذا اللمس الحاذق الذي يدع رمل الزمن يتسلل بين أصابعه .

(١) حديبة : في الأصل Jorobilla ، وهو تصغير إسباني للكلمة العربية حديبة .

(٢) هزي : في الأصل Dale que Dale ، بمعنى أعطيه ، أعطيه ، وهذا يقال للراقصة أو الراقص كي

يتحمس ويعيد ويزيد .



## الفصل الرابع الوحدة المضيئة

### أطراف من الغابة:

لقد غرقت في هذه الذكريات ، عليّ أن أستيقظ توأ . إنه لصخب البحر . أكتب الآن ، في «ايسلا نيغرا Isla Nigra»<sup>(١)</sup> على الساحل ، قرب «بالبارائيسو» . لقد هدأت زوابع عظيمة كانت تسوّط<sup>(٢)</sup> الشاطئ . إن المحيط - ينظر إليّ بألف عين من زيد أكثر بما أنظر إليه أنا عبر نافذتي - ما يزال يحقن في توجه إصرار العاصفة الرهيب .

يا لها من سنين بعيدة نائية! إن تشييدها من جديد لهو كما لو أن أنغام الأمواج هذه التي أصغي إليها الآن تتسرب في داخلي مترادفة متتابعة متذبذبة ، أحيانا تتماوج كي تنيمني ، وأحيانا أخرى تلتمع كبريق سيف مباغت . سألتقط هذه الأطراف بلا سرد تاريخي متصل ، مثل هذه الأمواج التي تروح وتجيء .

عام ١٩٢٩ ، ليلاً . أرى جمهرة من الناس وقد اجتمعوا في الشارع ، إنه احتفال إسلامي . لقد حفروا خندقاً كبيراً في الشارع وملؤوه جمرأ . اقترب . تلهب وجهي حدة الجمر المكوم ، تحت طبقة خفيفة من الرماد ، فوق شريط قرمزي من نار حية متوهجة . تظهر فجأة شخصية غريبة ، بوجه مصبوغ بالأبيض والأحمر ، محمولة على أكتاف أربعة رجال يلبسون كذلك ثياباً حمراء . ينزلونه ، يبدأ يمشي متمائلاً عبر الجمر أو فوقه ؛ ويصبح بينما هو يمضي سائراً :

- الله ، الله (٣) .

كان الحشد الهائل من الناس يبلع هذا المنظر مذهولاً مندهشاً . لقد عبر الساحر ، سليماً هذا الشريط الطويل من الجمر . حينذاك ينطلق رجل من بين صفوف الحشد ،

(١) ايسلا نيغرا : معناها ، جزيرة سوداء .

(٢) تسوّط : هكذا في الأصل ، والفعل مشتق من الكلمة العربية السوط .

(٣) الله ، الله : هكذا في الأصل (Ala' Ala') .

يخلع خفيّه ويقوم حافي القدمين بالمسير على الجمر . ثم ينطلق متطوع آخر فأخر وهكذا دواليك . بعضهم يتوقف في الخندق لكي يراوح فوق النار على صياح «الله ، الله» يؤدي حركات وإشارات فظيعة ، يرفع النظر إلى السماء . آخرون يعبرون حاملين أطفالهم في أحضانهم . لا أحد منهم يُصلى بهذه النار الحامية أو لعلهم يُصلون فيصبرون ونحن لا نعرف .

إزاء النهر المقدس يرتفع معبد «كهالي» إلهة الموت عندهم . دخلنا مع مئات الداخلين من الحجاج الذين أتوا من أقاصي البلاد كي يتبركوا بها ويحصلوا على نعمتها . حفاة عراة ، أو بأثياب رثة وأسمال بالية ، خائفين فزعين ، يدخلون فيجبرهم البراهمة على أن يدفعوا مالا في كل خطوة يخطونها مقابل أي شيء يروونه أو يتبركون به . كان البراهمة يرفعون مسحا من المسوح السبعة للإلهة الكريمة ، وحين يرفعونه ترن ضربة قارعة كأنها قُرعت كي تقوض الكون كله ، وما إن يرى الحجاج ذلك حتى ينخروا سجداً ثم يكبرون وأيديهم مرفوعة كأنهم يحيون معاً ، ولكن بكلتيهما معاً ، ثم يسجدون ويضعون جباههم على الأرض ويمضون هكذا إلى أن يرفع المسح الثاني فالثالث . . . الخ . يأخذ الكهنة بتجميع الحجاج في فناء واسع حيث يضحون التيوس ويقطعون رؤوسها بضربة واحدة تذبحها وتدميها فيقبضون منهم أناوات جديدة . ثغاء الحيوانات الجريحة لا يُسمع إذ تخنقها الضربات الطارقة القارعة وتخفيها . تُرشّ الحيطان الكلسية الوسخة بالدم حتى السقف . وما هذه الإلهة إلا صنم ذو وجه غامق اللون وعينين بيضاوين ولسان قرمزي طوله متران ينزل من فمها حتى يبلغ الأرض . في أذنيها وفي عنقها علقت أطواق من جماجم وشعارات ترمز للموت . يدفع الحجاج نقودهم الأخيرة قبل أن يُدفعوا إلى الشارع .

لقد كان الشعراء الذين تحلقوا من حولي لينشدوا الي أغانيهم وأشعارهم مختلفين جداً عن أولئك الحجاج المدعنين الخاضعين . فلقد جاء هؤلاء الشعراء ومعهم طنبييرات<sup>(١)</sup> ، وهم يرتدون ملابسهم البيضاء السابغة الفضفاضة ، فجلسوا القرفصاء على السندس الأخضر ، كل واحد منهم كان يطلق بحة وصرخة بين بين تكاد لا تبلغ أن تكون صرخة ، فتصعد من شفثيه أغنية نظمها هو بنفسه وأجراها على بحر من بحور الأغاني القديمة الألفية ، غير أن المعنى جديد والمحتوى قد تغير . لم تكن هذه

(١) طنبييرات : في الأصل صيغة تصغير إسبانية ، وبالجمع للكلمة العربية طنبور .

الأغاني أغاني حسية شهوانية لمتعة أولذة، بل هي أغاني احتجاج على الجوع، أغان مكتوبة في السجون. إن كثيراً من هؤلاء الشعراء الشبان الذين التقيت بهم في كل مكان على طول الهند و عرضها، والذين لن أنسى نظراتهم الظليلة الكثبية، كانوا قد خرجوا من السجن أمس أو أول أمس وربما يعودون إليه غداً أو بعد غد. لأنهم كانوا يحاولون التمرد على البؤس والثورة على الآلهة. إن هذا هو الزمن الذي قدر لنا أن نعيش فيه، وهو العصر الذهبي للشعر العالمي. بيننا تطارد الأغاني الجديدة والأناشيد الجديدة، فإن مليوناً من البشر يفترشون الدروب ليلة بعد ليلة، ينامون في العراء في ضواحي «بومباي». ينامون، يولدون، يموتون. لا دار ولا خبز ولا دواء. في هذه الشروط القاسية، تركت إنجلترا المتمدنة المتبحجة مستعمراتها: مستعمرات إمبراطوريتها العظمى. لقد ودعت مواطنيها القدماء دون أن تترك لهم شيئاً؛ لا مدارس ولا مصانع ولا مساكن، اللهم إلا سجوناً وجبالاً من زجاجات ويسكي فارغة.

إن ذكرى إنسان الغاب «رانغو» لهي طيف آخر غص طري يأتي خياله مع الأمواج. في «ميدان» بسومطرة المست، أحيان، باب تلك الحديقة النباتية الخراب. كان هو بنفسه يأتي ليفتح لي الباب فأدهش وأعجب، كنا نتجول معاً وقد أخذني من يدي إلى أن مجلس حول طاولة كان هو يضربها بيديه وبرجليه، عند ذلك يظهر نادل ويأتي لنا بزق من خمرة الجعة (بيرة)، لا هو بالصغير ولا بالكبير ولكنه كاف لإنسان الغاب وللشاعر.

كنا نرى في حديقة الحيوانات بـ«سينغابور» الهدهد داخل قفص متألماً وهائجاً، رائع الجمال كأنه طير قد جاء لتوه من جنة عدن، وهناك كان يتنزه في قفصه نمر أرقط أبيض وأسود كان ما يزال يفوح برائحة الغابة، لقد كان مقطعاً غريباً من الليل المنجم، شريطاً مغناطيسياً يهتز بلا هوادة، بركاناً أسود مطاطياً يريد إحراق العالم، محرك قوة نقية تتلوى تتموج، له عينيان صفراوان مسددتان كما الخنجر، تتساءلان بنارهما عما لم يكن يفهمه لا السجن ولا البشر.

وصلنا إلى المعبد الغريب معبد «لا سيربيينته La Serpiente»<sup>(1)</sup> في ضواحي مدينة «بينانغ»، في المنطقة التي كانت تسمى من قبل، الهند الصينية. إن هذا المعبد معروف موصوف من قبل رحالة وصحفيين، لست أدري، بعد

(1) لا سيربيينته: معناها، الأفعى.

العديد من الحروب والتهديم وبعد عتو الدهر ومضي الزمن وتساقط الأمطار ، إن كان ما يزال صامداً حياً . تحت سقف من قرميد ثمة بناء واطىء ومسود ، متآكل بأسنان الأمطار المدارية وحتتها ، تحفّ به غابة كثيفة من أوراق الموز الكبيرة الحجم ، وله رائحة كرائحة الرطوبة ، شذى كشذى الخبز العفن . لما دخلنا إلى المعبد لم نر شيئاً في الظليل (تصغير ظل) . أريج قوي شديد كرائحة البخور ، وثمة شيء يتحرك . إنها لأفعى تتشاب تتجبد . شيئاً فشيئاً لمخنا أخرى فأخرى ثم أخرى ، وإذ هي بالعشرات . من بعد عرفنا أن هناك بالئات وبالآلاف ؛ منها صغيرات ملتفات معقوفات على شمعدانات ، منها غامقات ، منها معدنيات ، منها نحيلات رفيفات ، كلها غافية متخمة . ففي كل الجهات ، فعلاً ، ثمة أطباق رقيقة من الزجاج الفرفوري (بورسلان) ، بعضها طافح بالحليب وبعضها مليء بالبيض ، لم تكن الأفاعي تنظر إلينا أو تلحظنا . مررنا محاذين لها عبر مئاهاث ضيقة في المعبد ، ها هي فوق رؤوسنا ، معلقة بالفن العماري المزخرف ، ها هي تنام في الحراب المحجري ، ها هي في المذابح ، وها هي ذي أفعى «روسيل»<sup>(١)</sup> المهابة ، تبتلع بيضة قرب اثنتي عشرة حية قاتلة كأنها جوقة من الراقصات اللواتي لهن خواتم تفصح عن سمهن السريع الفتك . ميزت من بينها حية «فيردي لانس» ، عدداً كبيراً من تنينات البر (ذا القرون) ، حية «ديروسي» ، حية «نويا» ، كانت تملأ البهو الأفاعي الخضراء ، الرمادية ، الزرقاء ، السوداء . كل شيء في سكون . من حين إلى حين كان يعبر الظل كاهن برداء زعفراني<sup>(٢)</sup> . كان بريق لون بردهته يجعله يبدو وكأنه حية أخرى ، تتحرك ، تتشاب ، تتجبد بحثاً عن بيضة أو عن طبق من حليب .

أأتيتم بهذه الأفاعي إلى هنا؟ كيف تألفت وتعودت؟ على أسئلتنا كانوا يجيبون بابتسامة ، قائلين لنا إنها أمت وحدها وإنها ستذهب وحدها حين يخطر لها ذلك . ما هو أكيد أن الأبواب كانت دائماً مفتوحة وليس عليها مشبكات من حديد أو خشب وليس فيها زجاج ، ولا شيء من هذا القبيل مما يجبرها على البقاء في المعبد . خرجت سيارة الركاب من «بينانغ» وكان عليها أن تجتاز أدغال الهند الصينية وضيعها كي تصل إلى «سايفون» . لا أحد في هذه السيارة يعرف لغتي ولا أنا أعرف

(١) روسيل : هذه الأسماء كلها بالفرنسية .

(٢) زعفراني : هكذا في الأصل Azafran ، عن العربية .

لغة أحد منهم . كنا نتوقف في منعطفات الغابة البكر ، على مدى الطريق الذي لا ينتهي ، فينزل المسافرون ، فلاحون بملابس غريبة ، وبكرامة صامته مطرقة ، وعيون زائغة ، لم يبق إلا ثلاثة مسافرين أو أربعة في السيارة التي تشق طريقها وهي تصرصر وتهدد كني تنطلق تحت الليلة الحارة .

شعرت فجأة برعب متدفق طاغ ، أين أنا؟ وإلى أين أمضي؟ لماذا أقضي هذه الليلة الطويلة بين أناس لا أعرفهم؟ كنا نجتاز «لاوروس» و«كامبوديا» . تمنعت في وجوه آخر مرافقي في هذه الرحلة الغربية ، كانت وجوهاً صلبة متجهمة . وعيونهم مستيقظة ، ملامحهم وتقاسيم وجوههم بدت لي مريعة مخيفة ، لا شك في أنني بين عصابات قطاعي طرق أصيلين من هؤلاء الذين تحكي عنهم الحكايات الشرقية .

كانوا يتبادلون نظرات من ذكاء حاد ويلحظونني عرضاً وخطفاً ، في هذه اللحظة توقفت السيارة في سكون وسط الغابة . لقد اخترت موضعاً لي كي أموت هنا غريباً وحيداً . لا ، لن أسمح لهم أن يأخذوني فيصلبوني تحت ظل تلك الأشجار التي لم أرها من قبل ، والتي تخفي عني السماء بظلمتها الغامق الشاحب . سأموت هنا في هذه السيارة الحانية ، على مقعدها ، بين سلال الثمار وأقفاص الدجاج ، فهذه الدجاجات هي الشيء الوحيد الأليف في هذه اللحظة الرهيبة . نظرت في ما حولي ، مقررراً أن أواجه غيظ جلادّي إن همؤا بقتلي ، فتنبّهت إلى أنهم قد اختفوا .

انتظرت زمناً بدا لي دهرأً وحيداً ، بقلب واجف خائف ، مغموراً مطموراً بظلام هذه الليلة الأجنبية الشديد الكثيف . أنا سأموت ، هأنذا أموت دون أن يدري يموتي أحد ، بعيداً عن بلدي الصغير الحبيب ، نائياً عن أهلي وحيي وكتبي . على حين غرة ، بزغ نور ، طلع نور آخر ، امتلأت الطريق بالأنوار والأضواء ، قرع طنبور ، تفجرت أنغام تصرّ الأذن من ألحان موسيقى «كامبوديا» ، صدحت النايات تجاوبت الطنبيبرات ، تملأت المشاعل ، فملأت الطريق أنغاماً وأنواراً . صعد رجل فقال لي باللغة الإنجليزية :

لقد حصل عطل في السيارة ، بما أن الانتظار سيكون طويلاً ، ربما حتى شروق الشمس ، وليس هنا من مكان صالح للنوم فإن المسافرين قد ذهبوا إلى الضيعة للبحث عن فرقة موسيقية وراقصين حتى تسامروا الليل وتقضوا وقتاً ممتعاً جميعاً ، وها هم قد عادوا والفرقة الموسيقية .

خلال ساعات عديدة ، تحت تلك الأشجار التي لم تعد تتهددني وتتوعدني ،

شاهدت الرقصات الطقوسية الرائعة البديعة لشعب ذي ثقافة نبيلة وحضارة عريقة ، واستمعت إلى أن أشرفت الشمس ، الموسيقى اللذيذة التي كانت تكتسح الطريق .  
ليس للشاعر أن يخشى الشعب ، بدا لي أن الحياة كانت تحذرنني وتعلمني إلى الأبد درساً : درس الشرف المكتنز ، درس الأخوة التي لا نعرفها ، درس الجمال الذي يزدهر في الدياجير .

### مؤتمر في الهند:

إن هذا اليوم لهو يوم مشرق ، ها نحن في مؤتمر الهند . أمة في أوج كفاحها في سبيل تحررها . آلاف المندوبين يملأون الأروقة . أعرف (غاندي) شخصياً وكذلك أعرف (البانديت موتيلال نهرو) الذي هو أيضاً زعيم الحركة التحررية وأعرف ابنه الشاب الأنيق (جواهر لال نهرو) الذي وصل حديثاً من إنجلترا . (نهرو) كان من مؤيدي الاستقلال الكامل بينما (غاندي) كان يدعو إلى نوع من الحكم الذاتي البسيط كخطوة أولى لازمة . (غاندي) : وجه ناعم لثعلب ذكي جداً ، رجل عملي ، سياسي شبيه بزعمائنا المتأمركين<sup>(١)</sup> القداماء ، معلم ماهر في اللجان والمؤتمرات ، عالم خبير بالتكتيك والمراوغة ، لا يتعب ولا يمل . بينما كانت الجماهير مثل تيار جارف لا ينتهي ، تلمس بشكل طقوسي ديني ، طرف برده البيضاء وتصيح (غاندي! غاندي!) ، هو كان يحييهم تحية هادئة وبيتسم لهم دون أن يرفع عن عينيه النظارة ، يستلم رسائل ويقراها ، يجيب على البرقيات ، يؤدي أعماله كاملة دون أن يبذل جهداً كبيراً حتى لا يتعب ، إن (غاندي) لقديس لا ينفد . وأما (نهرو) فهو أستاذ ذكي للثورة الهندية .

كانت الشخصية الكبيرة في ذلك المؤتمر هو (سوبحاس شانندرا بوسه Subhas Chandra Bose) هو ديماغوجي مندفع ، عدو للامبريالية عنيف ، شخصية سياسية تسحر أبناء وطنه . انضم في حرب عام ١٩١٤ إلى اليابانيين الذين غزوا بلده ، وذلك لكي يقاوم الامبراطورية البريطانية ، بعد عدة سنوات ، في الهند نفسها ، حكى لي أحد رفاقه كيف سقط رجل «سينغابور» القوي :  
- كانت أسلحتنا موجهة نحو اليابانيين المحاصرين . ثم تساءلنا . . . ولماذا؟ أمرنا

(١) المتأمركون : وجدنا أنها أصلح كلمة لترجمة Criollos وهم الأمريكيون ذوو الأصول الأوروبية .



جنودنا : «وراء ، در» وصوبناها ضد القوات الإنجليزية . القضية كانت واضحة . كان اليابانيون غزاة عابرين ، بينما الإنجليز كانوا غزاة خالدين .

لقد اعتقل (سويحاس شاندرابوسه) ، حوكم ، أدين بالموت من قبل المحاكم البريطانية في الهند نظراً لأنها اعتبرته قد اقترف الخيانة العظمى . توالت الاحتجاجات وتضاعفت من طرف الجناح الاستقلالي . أخيراً ، بعد معركة قانونية حامية ، توصل محاميه - (نهررو) على وجه الدقة- إلى الحصول على العفو عنه . منذ تلك اللحظة استحال إلى بطل شعبي .

### (الآلهة المتكئة)

... في كل جهة تماثيل (بوذا) ، «اللورد» (بوذا) ... تماثيل صارمة ، شاقولية ، متأكلة ، بمذهب من الزينة كأنه ألقى ذو حياة وبمسحة من الإحباط كأنما هذه التماثيل تخشى أن يستنفدها الهواء ... وبما يزيد في إبراز المذهب وهذه المسحة من الإحباط بها أن عليها في حدودها ، في ثناياها ، في مرافقها ، في سررها في أفواهاها وابتساماتها لطخات صغيرة ، فطر ، نباتات مسامية ، روث ، براز ، غائط ، من حيوانات الغابة ... أو بالأحرى ثمة رواقد كبيرة ، نصب حجرية بأربعين متراً ، من الغرانيت المرمل ، شاحبة ، ممددة بين الأدغال الهامسة ، على حين غرة ، تطلع من هذه الزاوية بالغابة أو من تلك ، تبرز من على منصة محدقة بالأشجار أو من على مرتفع من الأرض مكتنف بالأيك ... أراقدة هي أم غير راقدة في أحلامها العميقة؟ لست أدري ، بيد أنها هناك هي منذ مائة سنة ، ألف سنة ، ألف سنة ... لكنها تنتظر ناعمة هادئة وهي بهذا الحشر الأرضي الغامض المعروف لا تدري أفستمكت أم ستمضي ... عجباً هذه الابتسامة الحجرية الناعمة ، هذه الجلالة المهيبية المصنوعة من حجر صلد خالد ، لمن تبتسم ، لمن ، فوق هذه الأرض الدامية؟ ... لقد مرت بها الفلاحات الهاربات ، رجال الحرائق ، المحاربون المتقنعون ، الكهنة ، السواح الشرهون ... فما برحت مكانها هذه النصب ، هذه الأحجار الهائلة ذات الركب ، ذات الانحناء في العبادة الحجرية ، ذات النظرة الضائعة لكنها موجودة باقية ، لقد مكثت هذه النصب اللاإنسانية إلى الأبد ، سرمدية خالدة ولكنها كذلك إنسانية ، بشكل ما ، أو في تضاد من النحت متناقض ، فسواء أكانت آلهة أم لم تكن ، وسواء أكانت أحجاراً أم لم تكن ، لقد مكثت تحت نعيب الطيور السوداء ، بين رفرقة الطيور

الحمراء : طيور الغابة . . . نحن كذلك نفكر بشكل أو بآخر في تماثيل المسيح الإسبانية الرهيبة التي ورثناها نحن بدماملها وبكل شيء ، ببشورها وكل شيء ، بندوبها وكل شيء ، بهذه الرائحة كرائحة الشمع ، كرائحة الرطوبة ، كرائحة قطعة لدى الكنائس حبيسة . . . تماثيل المسيح هذه كذلك شكّت في أن تكون بشراً أو أن تكون آلهة . . . كي تصبح بشراً ، لكي تقترب أكثر من يعانون ويتعذبون ، من النساء الحوائض ومن المضروبة أعناقهم ، من المفلوجين والبخلاء ، من أصحاب الكنائس ومن الناس الذين يحيطون بالكنائس ، كي تصبح هذه التماثيل إنسانية فإن المثاليين النحات وهبوا قروحاً تقشعر لها الأبدان فاستحال كل ذلك العذاب إلى دين : «اذنب تتعذب ، لا تذنب تتعذب ، عش وتعذب ليس لك من منجى يحرك ولا من مهرب . . .» . . . هنا ، كلا ، هنا السلام بلغ الحجر . . . فلقد تمرد المثالون النحات على نواميس الألم فتماثيل بوذا هذه الهائلة الجسيمة ذات أقدام آلهة عملاقة ، لديها في الوجه ابتسامة حجرية إنسانية تبعث في النفوس الطمأنينة ، تحررها من المعاناة والألم . ينبع منها أريج ، ليس كرائحة غرفة ميتة ، ليس كرائحة خزانة أشياء الكنيسة المقدسة ورائحة بيوت العنكبوت ، بل كشذى فضاء من نبات ، كعطر زخات إعصارية تتساقط مشحونة بطلع من الغابة الفسيحة اللامحدودة ، بريش طيورها بأوراق أشجارها .

### أسرة إنسانية تعيسة:

لقد قرأت في بعض المقالات حول شعري أن إقامتي في الشرق الأقصى أثرت في جوانب معينة من شعري ، وأنها انطبعت بشكل خاص في ديواني «مقام في الأرض» . في الحقيقة أن أشعاري الوحيدة لتلك الفترة هي القصائد التي يحتويها «مقام في الأرض» ، لكن ، دون أن أجرؤ على دعم هذا الرأي الذي سأبديه في شكل صارم ، أقول إنه يبدو لي مخطئاً هذا الكلام عن التأثر والتأثير .

إن كل هذه الباطنية الفلسفية للحياة في الأقطار الشرقية ، حين واجهت الحياة الواقعية تكشف عن قلق ، عن عصاب ، عن ضياع ، عن انتهاز غربي ، أي عن أزمة المبادئ الرأسمالية . لم يكن في الهند خلال تلك السنوات مجال واسع للتأملات الباطنية العميقة ، حياة ذات متطلبات مادية قاسية ، شروط استعمارية مستندة إلى أكثر الدناءات نقاوة في الخسة ، آلاف الموتى كل يوم بالكوليرا ، بالجذري ، بالحمى ،

بالجوع ، قطاعات إقطاعية غير متوازنة بسبب الغنى المفرط في السكان والفقير المدقع بالصناعة ، كل هذه الأمور كانت تضغط على الحياة وتطبعها بشراسة ؛ ففيها تنعدم التأملات الصوفية وتختفي الانعكاسات الروحية .

لقد كانت الخلايا الصوفية توجه ، تقريباً دائماً ، من قبل مغامرين غربيين ، من بينهم الأمريكيون سواء من الشمال أو الجنوب . ليس هناك مجال للشك في أن من بين هؤلاء وأولئك ثمة أناساً ذوي نيات حسنة ، لكن الأكثرية كانت تستغل سوقاً رائجة رخيصة حيث كانت تباع ، في كميات هائلة وبالجملة ، تماثيل ، تعاويذ ، أو تان غربية ، محفوفة ملفوفة بالماورائيات التافهة المتهافئة . هؤلاء كانوا يُتخمون بفضل الـ«دهارما» والـ«يوغا» ؛ فلقد كانوا يستطيعون جداً الرياضة الدينية المضمخة بالفراغ والسفسطة .

لهذه الأسباب ، فإن الشرق أثر في نفسي كونه أسرة إنسانية كبيرة تعيسة ، دون أن أفرغ في ضميري أي مكان لطقوسه أو آلهته . لا أعتقد ، إذن ، أن شعري في ذلك الحين ، قد عكس شيئاً آخر غير الشعور بالوحدة ؛ وحدة غريب نقل من منبت غرسه إلى عالم عنيف غريب .

أذكر واحداً من أولئك السواح ؛ سواح الباطنية ، كان نباتياً ومحاضراً فذا . كان طرازاً صغيراً في حجمه ، قصير القامة ، في منتصف العمر ، ذا صلعة لماعة كاملة شاملة ، وعينين زرقاوين صافيتين واضحتين ونظرة حارقة مستهترة ، لقبه هو (بويرس) ، قدم من الولايات المتحدة ، من كاليفورنيا ، كان يؤمن بالديانة البوذية ومحاضراته كانت تنتهي دائماً بهذه الوصفة النافعة في الحمية : «كما كان يقول (روكيفلر Rockefeller)<sup>(١)</sup> : تغذ ببرقالة كل يوم» .

(بويرس) هذا ، استلطفته لقله أدبه ووقاحته الحلوة المفرحة ، وكان يعرف اللغة الإسبانية . بعد محاضراته كنا نروح معاً لنلتهم وجبات كبيرة مُتخمة من الخروف المشوي (كباب)<sup>(٢)</sup> ، مع البصل . كان بوذياً لاهوتياً ، لست أدري إن كان بشكل شرعي أو غير شرعي ، ذا شراهة أكثر أصالة من مضمون محاضراته . لقد افتتن ، أولاً ، بفتاة خلاسية هجينة ، هامت بملابسه (سموكين) وبنظرياته ،

(١) روكيفلر John Danjon : هو الرأسمالي اليهودي الأمريكي (١٨٣٩-١٩٣٧) ، وابنه كذلك كان له

الاسم نفسه (١٨٧٤-١٩٦٠) ، وهو والد نائب رئيس الولايات المتحدة السابق .

(٢) (كباب) : هكذا في الأصل Khebab ، والقوسان من المؤلف .

كانت أنسة ضامرة هزيلة ، ذات نظرة أليمة وهي كانت تعتقد أنه إله ، أنه بوذا حياً ، هكذا تبدأ الديانات .

بعد مضي عدة أشهر على هذا الحب ، جاء ذات يوم يبحث عني كي أحضر زواجاً جديداً له . تركنا خلفنا ، ونحن على درأجته النارية التي كانت تضعها تحت تصرفه شركة تجارية يخدم فيها بائع مبردات كهربائية ومراوح هوائية ، غابات ، منازل ، مزارع رز ، إلى أن وصلنا أخيراً إلى ضيعة صغيرة بأثنية من الطراز الصيني وسكان صينيين . استقبلوه بأسهم نارية وموسيقى بينما الخطيبة الصغيرة ظلت جالسة في مكانها وهي متزينة بالبدلة البيضاء كأنها صنم ، على كرسي أعلى من كراسي الأخرى ، على وقع الموسيقى تناولنا المشروبات المرطبة من كل نوع . (بويرس) وعروسه ما تبادلنا كلمة واحدة .

عدنا إلى المدينة ، شرح لي (بويرس) أنه في هذه الملة ، حسب شرعها ، الخطيبة هي وحدها من يتزوج . وأن الاحتفالات ستستمر دون حاجة إلى أن يكون العريس موجوداً ، وأنه في وقت لاحق سيعود ليعيشاً معاً .  
- أفندري أنك بهذا تمارس تعدد الزوجات؟ سألته .

- إن زوجتي الأخرى تعرف هذا وستكون سعيدة جداً وراضية؟ - أجاب .  
كان في تأكيد هذا كثير من الحقيقة مثلما هو الأمر عليه . في برتقالة كل يوم . حين وصلنا إلى بيته ، بيت زوجه الأولى ، وجدناها ، أعني الخلاسية الأليمة ، تحشرج وكأسها من السم موضوعة على المائدة الصغيرة قرب سريرها ، وقرب الكأس رسالة وداع . كان جسدها الأسمر ، عارياً تماماً ، هامداً تحت كلتها . دام احتضارها عدة ساعات .

لقد صاحبت (بويرس) على الرغم من أنني شعرت بالأسف لهذا الأمر مشمئزاً ، لأنه كان يتألم بشكل واضح . لقد حطمه الاستهتار الذي كان يحمله في داخله . ذهبت معه إلى الاحتفال الجنائزي . على ضفة نهر وضعنا التابوت<sup>(١)</sup> الرخيص فوق تل عال من الحطب . أشعل (بويرس) النار في العيدان بعود ثقاب ، وهو يتمتم بالسانسكريتي جملاً طقوسية .

كان بضعة من العازفين وهم يرتدون بروداً بلون مائل إلى البرتقالي ، يرتلون أو

(١) التابوت : هكذا في الأصل El ataud ، عن العربية .

ينفثون في آلات جد حزينة . انطفأت النار في الحطب وهي في منتصف استفادها للعيدان ، فكان لا بد من تجديد الجذوة بعود ثقاب ، كان النهر يجري داخل مجراه غير مبال ولا مهتم . كانت السماء الزرقاء الخالدة ؛ سماء الشرق ، تبدي جموداً مطلقاً ، سكوناً سرمدياً نحو تلك الجنائز الحزينة الموحشة ، جنازة مهجورة مسكينة .

لم تكن حياتي الرسمية تشتغل إلا مرة واحدة كل ثلاثة أشهر . فلقد كان عليّ حين يصل مركب إلى «كالكوتا» وهو ينقل زيت القطران (برفين) الصلب وأسفاطاً كبيرة من الشاي إلى تشيلي ، أن اختم وأوقع وثائق وأوراقاً بسرعة محمومة . من بعد ثم ثلاثة أشهر أخرى من البطالة والعطالة ، من التأمل الصوفي في أسواق ومعايد . هذه هي أكثر فترة أليمة في شعري .

لقد كان الشارع هو ديني ومعبودي . الشارع البيرواني ، المدينة الصينية بمسارحها في الهواء الطلق وتنانينها المصنوعة (جمع تئين) من الورق ، وفوانيسها الرائعة . الشارع الهندي ، هو أكثرها تواضعاً ، بمعابده التي كانت أماكن تجارة لهذه الطائفة أو لتلك ، والناس المساكين الفقراء الساجدين على الوحل وخارجها . إن الأسواق حيث أوراق الـ«بيتيل»<sup>(١)</sup> ترتفع في أهرامات خضراء مثل جبال من دهنج . حوانيت الطيور ، أماكن لبيع الوحوش والطيور المتوحشة . الشوارع الملتفة المتجعدة حيث تعبر النساء البيروانيات الرجراجات وفي ثغورهن لفافة تبغ طويلة . كان كل هذا يستولي عليّ ، يمتصني ثم يروح يغرقني في رقية الحياة الواقعية .

إن الطوائف جعلت سكان الهند يُصنّفون كما لو كانوا في مدرج أروقة يعلو بعضها بعضاً وهذا المدرج متوازي السطوح ، في أعلاه تجلس الآلهة ، كان الإنجليز من جهتهم لهم مدرجهم من الأجناس يبدأ من المستخدمين الصغار في الحوانيت ، يمر بأصحاب المهن والمثقفين ، يأتي إلى المستوردين ويتوج بسطح هذا المركب الذي يجلس فيه براحة تامة أرسوقراطيو الخدمة المدنية وأصحاب بنوك الإمبراطورية .

ما كان لهذين العالين أن يتماسا . فلم يكن أبناء البلاد الأصليون يستطيعون الدخول إلى الأماكن المخصصة للإنجليز . وكان الإنجليز يعيشون بعيدين عن نبض البلاد . لقد جلبت لي هذه الوضعية صعوبات ومشاكل ، ذات مرة شاهدني أصدقائي البريطانيون وأنا أركب عربة تسمى «غاهري» Gharry وهي عربة مختصة بمواعيد

(١) بيتيل : هو نبات يشبه ثمرة الفليفلة ، ولأوراقه طعم كطعم النعناع .

الغرام المؤقتة المتدحرجة حيث يمارس الحب على عجل . لفتوا نظري بشكل لطيف قائلين إن قنصلاً مثلي أنا يجب عليه ألا يستعمل هذه العربات مهما كان السبب ، كذلك أسروا لي أشياء وقالوا إنه يجب عليّ ألا أجلس في مطعم فارسي ، وهو مكان مليء بالحياة ، كنت فيه أتناول أحسن شاي بالعالم في طاسات<sup>(١)</sup> صغيرة شفافة . كانت هاتان النصيحتان آخر ما قالوه لي من عتاب ونصيحة ، من بعد لم يعودوا يسلمون عليّ أبداً ولا يردون لي تحية ألبتة .

شعرت أنني سعيد بهذه المقاطعة . لم يكن أولئك الأوروبيون ذوو الأفكار المسبقة والعقد النفسية يهمونني في شيء إذ إنهم لم يكونوا مهمين حتى نقول . . . وفي نهاية الأمر ، أنا ما جئت إلى الشرق كي أتعاش ومستعمرين عابرين ، بل جئت كي أحييا مع روح ذاك العالم القديمة ، مع تلك الأسرة الإنسانية الكبيرة التعيسة . لقد تغلغلت في روح هؤلاء الناس وحياتهم جداً إلى درجة أنني عشقت هناك واحدة من بنات البلد . كانت تلبس مثل إنجليزية واسمها الفني الشارعي كان هو (خوسيه بليس) ، لكن في العلاقات الحميمة بيتها الذي شاركتها السكن فيه ما إن تعرفت عليها وعشقتها ، حتى كانت تنزع عنها تلك الملابس وذلك الاسم وتستعمل ثوبها الباهر «سارونغ» واسمها البيروماني العميق الخفي .

### «تأنغو»<sup>(٢)</sup> الأرامل»

لقد كانت لي صعوبات في حياتي العاطفية الخاصة . إذ إن هذه الفتاة الحلوة (خوسيه بليس) راحت تكثف حبها لي وتتأجج عاطفة إلى أن أصيبت بداء الغيرة . ولربما ، لولا هذا السبب ، كنت قضيت حياتي معها إلى الأبد . كنت أهيم بأقدامها العارية ، كنت أغرم بالزهور البيضاء التي كانت تتألق في شعرها الغامق . لكن مزاجها الحاد كان يقودها إلى حالة من النوبة الهمجية . كانت تغار وتنفر من الرسائل التي تصلني من بعيد ، تخبيء البرقيات التي تصلني دون أن تفتحها ، كانت تنظر في حقد إلى الهواء الذي أستنشقه .

أحيان كان يوقظني شبح يتحرك خلف الكِلة ، وإذ بها هي ، بشوبها الأبيض ،

(١) طاسات : هكذا في الأصل Tazas ، عن العربية .

(٢) تأنغو : اسم رقصة .

تسن لي سكينها الطويلة الحادة ، أو تنزعه حول سريري حائرة تهمّ بقتلي ولا يطاوعها قلبها . «حين تموت ستنتهي مخاوفي» كانت تقول لي . في اليوم التالي كانت تؤدي طقوساً غريبة كي تهبها الجن ضماناً عن وفائي .

لا بد أنها قاتلتي يوماً ما . لحسن حظي ، تلقيت رسالة رسمية بانتقالي إلى «سيلان» . لقد حضرت سفري سراً ثم خرجت من البيت صباح ذات يوم كما هي عادتي ، طبعاً تركت ملابسني وكتبي ، وصعدت إلى الباخرة التي ستقلني إلى مكان بعيد .

لقد هجرتها ، هجرت هذا النمر الأرقط المدعو (خوسه بليس) ، والألم يمضني والحزن يضمنيني . ما إن شرعت الباخرة بالاهتزاز في أمواج خليج «بينغالا» حتى جلست أكتب قصيدة «تانغو الأرملة» ، وهي قطعة مأساوية من شعري ، موجهة إلى المرأة التي فقدتها وفقدتني لأن في دمها بركان الكوليرا يزفر ، يفرقع ، يقرقر من غير هواده ولا استراحة . فيا لها من ليلة جد كبيرة ويا لها من أرض جد وحيدة .

### (الأفيون)

... كانت ثمة شوارع برمتها عاكفة على الأفيون ... جالسين على منصات وعتبات يمتد المكيفون المدخنون فوقها ... إنها لمعابد الهند الحقيقية ... فلا سجاجيد ولا وسائد من حرير ولا بذخ ولا أبهة ... بل ألواح خشبية بلا لون ، غلايين من خيزران ، وسائد من فخار صيني ... تطفو في الأجواء سكينه وورصانه وصرامة ما عهدتها المعابد ... الرجال صرعى خاشعون بلا حراك ولا صراخ ولا عياط ... تناولت غليوناً فنشقتة ... ليس بشيء ... ما هو إلا دخان قائم بارد فاتر لزج لزوجة اللبن ... دخنت أربعة غلايين ، مكثت خمسة أيام مريضاً ، غثيان إثر غثيان ، يأتيني من البصلة النخاعية ، من الشوكة الظهرية ، ينزل عليّ من المخ من النخاع من الدماغ ... كراهية للشمس ، حقد على الوجود ... عقاب الأفيون ... ما كان لهذا أن يكون خاتمة المطاف ... فلطالما كُتب عن هذا السم المقدس الشهير ، ولشد ما قيل عنه ، وكثيراً ما قلبت الحقائق ونفضت المحافظ في مخافر الحدود الجمركية وفي المطارات بحثاً عنه علّ هذا السم يُقتنص أو يمسك به قبل أن يطير ... كان لا بد لي من أن أهزم القرف ، أغلب التقزز ، أقهر الاشمشزاز ... كان لا بد لي من معرفة الأفيون معرفة حقاً ، من أن أسبر غوره ، أكشف سره ، أعرف أمره ، أفصح لغزه ، كي

أعطي شهادتي وأظلي بحكمي ... عكفت عليه ، دخنت غلايين كثيرة ، حتى  
خبرت كنهه ... ليس فيه من حلم ، ليس فيه من خيال ، ليس فيه من نوبة ، ليس  
فيه من حدة ... كل ما فيه وهن ، كل ما فيه ضعف ، كل ما فيه ارتخاء رخيم  
مطرب كما لو أن معزوفة موسيقية ناعمة أبدية امتدت في الزمن ، في الفضاء ...  
يحس المرء أن إغماء بداخله ، إن دغلا بعروقه ... فأية حركة مرفق أو قفا ، أي  
صوت مركبة بعيد ، أي تزمير ، أية جلبة شارع ، تأتي فتشكل قسماً من كل ، من لذة  
مريحة ... أدركت لماذا كان بياذق الزراعة والمستخدمون المياومون والحوذيون الذين  
يجرجرون عربات الـ«ريشكا» كل يوم ، ينحرون تَوّاً هناك غافلين هامدين ساكنين ...  
لم يكن الأفيون جنة الشاذين أو فردوس هواة اللذة والغرابة ، كما قيل لي كذباً  
وبهتاناً ، بل منجى المستغلين الوحيد ، مناص الفقراء الوحيد ... لقد كان أولئك  
العاكفون على الأفيون جميعهم أناساً فقراء مساكين ... لا أريكة مطرزة عندهم ولا  
وسادة حريرية لديهم ، لا علامة على غنى ولا إشارة عن ثروة ... لا شيء يلمع في  
ذاك المكان حيث يقبع المكيفون المدخنون ولا حتى عيونهم الساهمة شبه  
المغمضة ... أتراهم يستريحون ، أم تراهم يغفلون؟ ... أبداً ما عرفت ، قط ما  
درت ... لا أحد ينطق ... لا أحد ينبس ... لا أحد يهمس ... ليس ثمة من  
أثاث ، ليس هناك من فرش ولا أرائك ... لا شيء غير مخدات خشبية صغيرة ...  
لا شيء إلا السكون ورائحة الأفيون جباراً عتياً ، مسيطراً سائداً يبعث الاشمزاز  
والنفور ... لا شك في أن هناك طريق الإبادة ، درب الفناء ... إن أفيون الشرفاء  
والأعيان والمستعمرين كان يخصص للفقراء المستعمرين ... فلقد كان لأولئك  
المدخنين لافتة علقت على الباب ، تبين الترخيص بالبيع والترويج ، رقم المحل ، تاريخ  
الامتياز ... وفي الداخل كان يسود سكون رهيب كثيب ، جمود خافت هامد ،  
عطالة تخفف التعاسة تحلي التعب ... سكينه مظلمة ، رواسب أحلام مبتورة وجدت  
غديرها وماءها ... أولئك الذين كانوا يحلمون بعيون ساهمة مغمضة بين بين ، كانوا  
يحيون ساعة مغمورين في لجة البحر ، ليلة كاملة على ظهر ريوه متلذذين باستجمام  
رفيق تمتع ...

بعد ذلك ما عدت إليهم ... فلقد عرفت ... ولقد خبرت ... ولقد لمست ...  
ولقد جسست شيئاً لا يسك ... لا يُحتوى ... شيئاً خفياً قصياً يتلاشى في  
الهواء ...



لقد كان لسيلان، أجمل جزر العالم الكبيرة، عام ١٩٢٩ الوضع الاستعماري نفسه الذي كان يسيطر في بيرمانيا والهند. كان الإنجليز يتحصنون في أحيائهم وفي نواديهم، محاطين بجمهرة غفيرة من موسيقيين، من صانعي أوان فخارية، من خياطين، من أفنان، من زهبان يرتدون الملابس الصفراء، من آلهة هائلة مصنوعة في الجبال الحجرية.

ما كنت أنا لأستطيع أن أختار بين الإنجليز الذين يرتدون «سموكين» كل ليلة، وبين الهنود الذين كانوا في أكثريتهم الغفيرة منعزلين لا أطلهم، إلا أن أعيش وحيداً. لقد كانت هذه الفترة من حياتي أكثرها وحدة ووحشة، لكنني أذكرها على أنها أكثر فترات حياتي إضاءة وبريقاً، كما لو أن إشعاعاً خارقاً حط على نافذتي كي يضيء مصري، نوراً ينبعث من داخلي، ومن خارجي.

ذهبت لأعيش في بيت صغير، حديث البناء بضاحية «ويلويذا» إزاء البحر. كانت منطقة غير أهلة. كانت الأمواج تتكسر على الأرصفة، في الليل تنمو الموسيقى البحرية.

كانت تأسرني في كل صباح أعجوبة تلك الطبيعة المجلية الحديثة الاغتسال. منذ مطلع الشمس وأنا مع الصيادين. كانت القوارب المجهزة بعوامات طويلة جداً تبدو كأنها عنكب بحرية. يجلب الرجال أسماكاً ذات ألوان عنيفة من قاع البحر، أسماكاً مثل عصافير الغابة الفسيحة اللامحدودة، بعضها بزرقه غامقة فصفورية لماعة مثل مخمل فاقع اللون ينبض بالحياة، بعضها على شكل كرة واخزة ناخسة، يفرغ هواؤها في الفضاء حتى يستحيل إلى كيس صغير مسكين من الشوك.

كنت أتأمل في رعب اغتيال جواهر البحر وتحفه وحليه. كانت الأسماك تُقطع فتباع إلى السكان الفقراء قطعاً قطعاً. لقد كانت مدى الذابحين تقطع هذه الأضاحي، فتنت مادة اللجّة الربانية كي تحيلها تجارة دامية.

كنت أمشي عبر الشاطئ حتى أبلغ حمّام الفيلة. ما كنت أضيع أو أخطئ دربي وقد اتخذت لي رفيقاً كلبى. كان يطلع من الماء الهادئ فطر رمادي جماد، من بعد يغدو أفاعي، من بعد يصير رؤوساً هائلة مكومة، من بعد يصبح جبلاً ذات أنياب. لا فطر في العالم له مثل هذا الفطر، لا بلد له مثل هذه الفيلة التي تعمل في الطرق. لو أراها الآن -ليس في السيرك أو في الحديقة الحيوانية تحت الدوالي- كما كنت

أراها مندهشاً وهي تعبر بحمولتها الخشبية من جانب إلى آخر ، كأنها عمال مستخدمون ضخام عظام مجدّون مجتهدون .

ما كان لي من رفيق أو صديق غير كلبتي ونمستي . كانت هذه النمسة الحديثة الخروج من الغابة تنام في سريري ، تأكل من زادي على مائدتي ، لا أحد يستطيع أن يتصور مدى حنان النمسة وحنونها . كانت حيوانتي الصغيرة تعرف كل لحظة من وجودي ، كل شيء عن حياتي . تتنزه عبر أوراقتي تجري خلفي كل يوم ، تحشر نفسها بين كتفي ورأسي ساعة القيلولة ، تنام في هذا الحلم الفزع الكهربائي الذي تتصف به الحيوانات البرية .

صارت نمستي الأليفة شهيرة في الضاحية . إن للأمناس في المعارك التي نخوضها ضد الأفاعي الأصلال لقيمة وسمعة حسنة إلى درجة تكاد تبلغ أن تكون شيئاً خرافياً . أنا أعتقد بعد أن رأيتها تتصارع كثيراً من المرات ضد الحيات أن الدله تهزم الحية بسبب ما للدله من خفة وسرعة حركة وبسبب جلدها السميك ذي الشعر الملون بلون ملحي ولون فلفلي مختلطين وهذا يحير الزحافة . من هنا جاء الاعتقاد بأن الدله بعد خوضها المعارك ضد أعدائها السامة تخرج تبحث عن عشبات الترياق .

إن هذا الصيت الشائع الذي اكتسبته نمستي - كانت دائماً تصحني في تجولاتي الطويلة عبر الشاطئ - جعل أطفال الرض<sup>(١)</sup> يتوجهون ذات مساء نحو بيتي في مسيرة مهيبة . فلقد ظهرت في الشارع أفعى فظيعة فجاؤوا يستنجدون بـ«كيريا» Kiria ، نمستي المشهورة ، لأن انتصارها الأكيد جعلهم يستعدون لإجراء احتفال عظيم سيقومون به حال القضاء على العدو الدايم . فحملت نمستي بين ذراعي وتقدمت العرض العسكري ومن خلفي أتبع بالمعجبين -عصابات بأسرها من الأولاد السيلانيين ، لا يلبسون إلا خرقةً بالية تغطي عوراتهم- .

الأفعى كانت نوعاً أسود مما يسمى الأفعوان الخفيف أو حية «روسيل» ، ذات قدرة مميّزة . كانت تتشمس بين أعشاب خضراء وهي على أنبوب أبيض تبدو واضحة متميزة كأنها سوط فوق الثلوج .

توقف الأولاد بعيداً وهم ، هادثون ، ينتظرون ، يرقبون ، أنا تقدمت على الأنبوب الغليظ الكبير إلى بعد مترين من الأفعى التي كانت قبالتني ، أطلقت نمستي ،

(١) الرض : هكذا في الأصل Arrabal ، عن العربية .

اشتمت الخطر من الهواء ، توجهت بخطى بطيئة نحو الأفعى ، أنا وأصحابي الصغار  
كتمنا أنفاسنا ، فالمعركة العظيمة على وشك البدء ، التفتت الأفعى ، رفعت رأسها ،  
فحنت شدقها ، صوّت نظرتها المخدرة إلى الحيوان ، الدله استمرت تتقدم ، لكن ، ما  
إن أصبحت على بعد قليل من السنتمترات من فم المسخ حتى انتبهت انتبهاً  
دقيقاً وتبتهت لما سيجري وإذ بها تقفز قفزة هائلة وتشرع بمسابقة سريعة جداً باتجاه  
عكسي تاركة خلفها الأفعى والمتفرجين الذين فوجئوا بجنب النمسة ، لم تتوقف عن  
جريها حتى وصلت غرفة نومي وهناك ارتاحت واطمأنت .

هكذا أضعت سمعتي الحسنة وصيتي العظيم في ضاحية «ويلواذا» منذ أكثر من  
ثلاثين سنة .

في هذه الأيام أحضرت لي شقيقتي دفترأ يحتوي على أشعاري الأولى ، نظمتها  
بين عام ١٩١٨ و عام ١٩١٩ . حين تصفحتها ابتسمت لذلك الألم الطفولي والعذاب  
المراهقي ، ضحكت من ذلك الشعور الذهني بالوحدة الذي يطبع كل تأليف الشبان .  
إن الكاتب الشاب لا يستطيع أن يكتب شيئاً دون هذه الرهبة من الوحدة ولو كان كل  
ذلك وهمياً ذهنياً فرضياً ، كما أن الكاتب الكهل الناضج لا يستطيع أن يعمل شيئاً  
من غير طعم المصاحبة الإنسانية ، طعم المجتمع .

الوحدة الحقيقية عرفتها في تلكم الأيام والأعوام بـ«ويلواذا» ، لقد نمت خلال  
ذلك الزمن كله على سرير مثل هذه الأسرة التي يستعملها الجنود أو متسلقو الجبال .  
ما كان يصحبنى في بيتي غير طاولة وكرسيين وعملي وكلبي ونمستي والغلام الذي  
كان يخدمني ويعود إلى ضيعته في الليل . هذا الرجل لم يكن ليبلغ ما نسميه  
مصاحبة لأن شرطه كخادم شرقي كان يفرض عليه أن يكون أكثر صمتاً من ظل ،  
كان يسمى أو أنه ما زال يسمى (برامبي) Brampy لم أكن أضطر إلى أن أطلب منه  
أي شيء أو أمره بأي شيء ، إذ إن كل شيء كان معداً جاهزاً ، دائماً ، طعامي على  
المائدة ، ملابسه نظيفة مكوية ، زجاجة الويسكي على الشرفة ، كان يبذو وكأنه قد  
نسي الكلام ، ما كان يعرف إلا أن يبتسم بأسنان كبيرة .

لم تكن الوحدة في هذه الوضعية موضوعاً لابتهاال أدبي وروحي شعري فحسب  
بل كانت كالجدار ؛ كجدار سجين ، تستطيع أن تضرب رأسك به وتكسره دون أن  
يخف لنجدتك أحد ، تصيح وتبكي وما من مجير .

لقد كنت أدرك أنه كان هناك عبر الهواء الأزرق ، في الرمل المذهب ، أبعد من

الغابة التي كنت أتردد عليها ، أبعد من الأفاعي والفيلة التي كنت أشاهدها ، مئات الآلاف من البشر الذين يغنون ويعملون إزاء الماء وفي البحر ، يصنعون ناراً ، يصوغون جراراً ، وأن هناك نساء كذلك ملتهبات ينمن عاريات فوق الحصر وعلى الأرض تحت ضوء النجمعات الرائعات . لكن ، كيف أقترب من هذا العالم الخافق دون أن يعتبروني عدواً يتجسسهم ويتجسس عليهم؟

رحت أتعرف خطوة فخطوة على الجزيرة العظيمة . ذات ليلة عبرت كل أحياء «كولبو» العتمة المظلمة كي أحضر وليمة عشاء . كان ينطلق من دار معتمة صوت طفل أو امرأة تغني . أمرت الخوذي أن يقف . فاكتسحتني حين اقتربت من الباب الفقير ، هبة أريج عطر ، أريج «سيلان» الذي لا يخطئه الإنسان ، مزيج من الياسمين<sup>(١)</sup> والعرق وزيت الجوز الهندي ، والمغنوليا . فدعاني أصحاب البيت أن أدخل على الرحب والسعة ، كانت وجوههم غامقة اللون مصهورة بالحر وشذى الليل ، قعدت هادئاً ساكناً على الحصيرة المفروشة ، بينما كان يرغم في العتمة من إحدى الزوايا المظلمة ذلك الصوت الإنساني الساحر الذي جعلني أتوقف فأطرق باباً لا أعرف أصحابه ، صوت طفل أو امرأة ، مرتعش باك ، صوت يصعد ، يصعد إلى ما لست أدري ، يخفت فجأة ، يتظامن ، يهبط حتى يغدو معتماً كالدياجير ، صوت يتحد والعنبر ، يلتف في توريقات رسوم عربية (أرابيسكو) ، يسقط على حين غرة بكل ثقله الشفاف كما لو أن فؤارة من ماء لمست السماء كي تنعق لتوها فتنهار بين أزهار الياسمين .

لقد أمضيت هناك وقتاً طويلاً ، ساكناً جماداً تحت رقية الطنبور وسحر ذلك الصوت ، من بعد تابعت طريقي ، ثملا من لغز شعور لا يفسر ، من نغم سره كان يخرج من كل الأرض ، أرض رنانة منغمة ، ملفوفة بالظل ، محفوفة بالشذى . كان الإنجليز قد جلسوا على المائدة ، لابسين أسود وأبيض .

-سامحوني ، فلقد توقفت في الطريق كي أستمع إلى موسيقى - قلت لهم . هم ، وقد عاشوا خمسة وعشرين عاماً في «سيلان» ، تفاجأوا بشكل أنيق ، موسيقى؟ أفلا أبناء هذا البلد موسيقى؟

ما كانوا يدرون بهذا ، كان بالنسبة لهم ، الخبر الأول حول هذا الموضوع . لم يكن لهذا الانفصام الرهيب بين المستعمرين الإنجليز والعالم الآسيوي الفسيح

(١) الياسمين : هكذا في الأصل Jazmin ، عن العربية .

الرحب حد ولا نهاية . وكان يعني دائماً انزعالاً لا إنسانياً ، جهلاً كاملاً بقيم أولئك الناس وحياتهم .

كانت هناك بعض الاستثناءات في الاستعمار ، تحققت من ذلك في وقت لاحق . لقد عشق أحد الإنجليز عشقاً جنونياً فتاة هندية أصيلة ، كان هذا الإنجليزي يعمل في «نادي الخدمات» فعزل من منصبه ، حالاً وعزل عن أبناء وطنه وكأنه أجم . حدث كذلك في ذلك الوقت أن المستعمرين أمروا بحرق كوخ فلاح سيلاني بقصد إخلائه والاستيلاء على ملكية الأرض ، كان الإنجليزي الذي يجب عليه تنفيذ الأوامر بإحراق الكوخ موظفاً بسيطاً يسمى (لونرد وولف) ، لكنه رفض أن يطيع فخلع من منصبه وعاد إلى إنجلترا . كتب هناك كتاباً من أحسن ما كُتب حول الشرق (Avillage in The Jungle) هو مؤلف أنموذجي في الحياة الحقيقية ، في الأدب الواقعي . لكن هذا المؤلف أفحم كثيراً أو قليلاً بشهرة زوجته (وولف) التي هي (فيرجينيا وولف)<sup>(١)</sup> ، كاتبة عظيمة وأصيلة ذات شهرة عالمية كبيرة فغطت شهرتها على شهرة زوجها ، فما لاقى هذا الكتاب الشهرة التي يستحقها .

شيئاً فشيئاً أخذت تتحطم القشرة الصلبة وبدأت باكتساب أصدقاء قليلين ولكنهم جيدون . اكتشفت في الوقت نفسه الشبان الغاطسين في الثقافة الاستعمارية الذين ما كانوا يتكلمون إلا عن آخر كتاب ظهر في بريطانيا . وجدت أن عازف البيانو المصور السينمائي الناقد (ليونيل وينديت) هو مركز الحياة الثقافية التي كانت تعج بالمناقشة والمجادلة بين كتاب الامبراطورية مع ميل لعكس قيم «سيلان» البكر .

إن (ليونيل وينديت) هذا الذي كان يملك مكتبة كبيرة ويستلم أواخر الكتب الصادرة في إنجلترا ، كانت له عادة غريبة وجيدة في الوقت نفسه ، ألا وهي أنه كان يرسل لي إلى داري البعيدة عن المدينة رجلاً يركب دراجة ومعه كيس مليء بالكتب والمجلات كل أسبوع . وهكذا خلال تلك الأوقات كنت أقرأ الكثير من الكيلومترات من الروايات الإنجليزية ، من بينها «ليدي تشارلي» في طبعتها الأولى الخاصة المنشورة في «فلورنسا» . إن مؤلفات (لورانس Lawrance)<sup>(٢)</sup> أدهشتني بسبب أسلوبها الشعري وبسبب ما له من مغناطيسية حيوية أكيدة موجهة إلى العلاقات الخبيثة بين أبناء

(١) فيرجينيا وولف : الكاتبة الإنجليزية الشهيرة (١٨٨٢-١٩٤١) .

(٢) لورانس (D.H.) : روايتي إنجليزي (١٨٨٥-١٩٣٠) .

الوجود . لكن بعد مدة وجيزة انتبعت إلى أنه ، على الرغم من عبقريته ، كان خائباً فاسداً كما هم عليه الكثير من الكتاب الإنجليز الكبار ، بسبب رغبته التربوية ونزعته التعليمية . إن السيد ( د . هـ . لورانس ) يجلس على كرسي الأستذة في التربية الجنسية التي ليس لها إلا ما ندر من العلاقة مع تعلمنا الفطري الطبيعي للحياة وللحب وللجنس . انتهيت منه مالاً بشكل نهائي ، سئماً تماماً دون أن يقل إعجابي ببحثه الصوفي - الجنسي المعذب الذي كان أكثر ألماً كلما كان أكثر عديم جدوى وغير مفيد .

أذكر من بين أشياء «سيلان» ، عملية صيد الفيلة الضخمة . كانت الفيلة قد تكاثرت بإفراط في ناحية معينة من تلك المنطقة وكانت تغير على المنازل والمزارع فتؤذيها ، فراح الفلاحون - بالنيران والمجامر وأنغام «تام - تام» - يجمعون القطعان الوحشية من هذه الفيلة ويدفعونها نحو ركن من الغابة ، واستمروا على هذا المنوال أكثر من شهر على طول نهر كبير يخترق الغابة ، ليل نهار والمجامر في أيديهم وهم يرددون «تام - تام» وهذا على ما يبدو كان يخيف الفيلة ويقلقها فأخذت هذه الوحوش الكبيرة تتحرك مثل نهر بطيء نحو الشمال الغربي من الجزيرة .

ذات يوم وقد هُيِّع الـ «كرال» El Kraal والحواجز كانت تسد قسماً من الغابة ، رأيت في ممر ضيق ، أول فيل دخل ، وما إن دخل حتى شعر بأنه محاط فلم يعد يستطيع التراجع . ثم تقدمت المئات وعبرت في هذا الممر الضيق المسدود . لم يستطع هذا القطيع المؤلف من حوالي خمسمائة فيل لا أن يتقدم ولا أن يتقهقر .

توجهت فحول الفيلة الأكثر قدرة وهمة نحو الحواجز لتحطمها ، لكن خلف هذه الحواجز كان الفلاحون يكمنون فرشقوها بسهام عديدة أوقفتها عن زحفها . عند ذلك قررت الفيلة التراجع إلى مركز ذلك المكان المسور بالحواجز والرجال لحماية الإناث والصغار . لقد كان دفاعهم وتنظيمهم مؤثرين في نفسي جداً . كانت الفيلة تطلق نداءً مقلقاً ، نوعاً من الصهيل أو الحنين ، وهي من يأسها كانت تجتث الأشجار من جذرها الأكثر وهناً وضعفاً .

ثم ، دخل مروضان يمتطيان صهوتي فيلين أليفين كبيرين . كان هذ الزوج الأليف من الفيلة يعمل وكأنه شرطة رخيصة سخيفة . كان هذان الشرطيان يتمركزان على جانبي الحيوان السجين ثم يضربانه بخرطوميهما حتى تهن قواه إلى درجة لا يقدر بعدها على التحرك ، إذآك يأتي الصيادون فيربطون رجلاً من رجليه الخلفيتين بحبال سميقة متينة إلى جذع شجرة متينة قوية . وهكذا فقد أخضع الفيلة واحداً فواحداً .

يرفض الفيل السجين الغذاء لعدة أيام . لكن الصيادين يعرفون نقطة الضعف فيه . يتركونه يصوم زمناً ما ، ثم يحضرون له براعم ونوى من شجيرات المفضلة ، من هذه الأشجار التي كان يبحث عنها ، حين كان حراً طليقاً ، في رحلات طويلة عبر الغابة . وفي النهاية يقرر الفيل أكل هذه المغريات وإذ به يغدو حيواناً أليفاً ويبدأ بتعلم أعماله المرهقة وحمل أثقاله المضنية .

### الحياة في «كولومبو»:

لم يكن يبدو في «كولومبو» أي إرهاب لشوثة أو تمرد . كان الجو السياسي مختلفاً عما هو عليه في الهند . فلقد كان كل شيء غارقاً في سكيننة جائرة مزعجة . كان هذا البلد يعطي للإنجليز أفضل أنواع الشاي الناعم الرفيع في العالم . كان هذا البلد مقسماً إلى نواح أو مقاطع يعلو بعضها بعضاً . تأتي ، بعد الإنجليز الذين كانوا يشغلون قمة الهرم ويعيشون في منازل كبيرة ذات حدائق واسعة فسيحة ، طبقة متوسطة شبيهة بالطبقة المتوسطة في أمريكا الجنوبية . كان أفراد هذه الطبقة يدعون أو ما زالوا يسمون «البورجوازيين» ، وهم ينحدرون من «البوير» القدماء ، أولئك المستعمرين الهولانديين في أفريقيا الجنوبية الذين نفوا إلى «سيلان» خلال الحرب الاستعمارية التي جرت في القرن الماضي .

تحت هذه الطبقة تأتي طبقة السكان البوذيين والمحمديين<sup>(١)</sup> من السيلانيين وهذه الطبقة مؤلفة من ملايين كثيرة ، وتحت هذه الطبقة تأتي طبقة أخرى في أسوأ شروط عمل وأقل أجره وهي كذلك كانت تعد ملايين من المهاجرين الهنود جاؤوا من جنوب الهند وهم يتكلمون «تاميل» وديانتهم هي «الهندوسية» .

كان في ما يسمى «بالعالم الاجتماعي» الذي كان يقيم احتفالاته في نوادي «كولومبو» الجميلة ، زعيمان يتنازعان الميدان ، أحدهما نبيل فرنسي مزيف اسمه (الكونت ماوني) الذي كان له مريدوه وأتباعه ، والآخر بولوني أنيق مستهتر ، صديقي (وينزر) الذي كان يبدي آراءه في مجالس محدودة . هذا الرجل كان عبقرياً بشكل ظاهر واضح ، مستهتراً بشكل مبالغ ، عالماً بكل ما في الكون ، مهنته كانت غريبة عجيبه : «محافظ الكنز الثقافي والأثري» ، وما كنت أدري بهذا إلى أن اصططحته مرة

(١) المحمديون : هكذا في الأصل Mahometanos ، يعني بهم المسلمين .

في جولة من جولاته الرسمية .

ما كان صديقي (وينزر) يؤدي مهنته بشكل سيء ، بل كان يذهب إلى الأديرة النائية ، وبرزى من الرهبان البوذيين كان ينقل إلى سيارة شحن صغيرة رسمية أعمال النحت الرائعة من حجر ألفي ، ثم ينتهي مصير هذه التحف النحتية في متاحف إنجلترا . كان هؤلاء الرهبان المرتدون بروداً بلون زعفراني ، حين يترك لهم (وينزر) كتعويض عن تحفهم القديمة ، دمي سيئة الصنع من «سليوليود» ياباني تمثل (بوذا) ، يفرحون جداً وينظرون إلى هذه التماثيل الصغيرة التافهة بإجلال وتقديس ويضعونها في المذابح نفسها ، حيث كانت تبتسم خلال قرون وقرون تلك التماثيل اليصيبة والغرائبية التي تنقل إلى إنجلترا .

لقد كان صديقي (وينزر) نتاجاً ممتازاً للامبراطورية ، أي ، كان رجلاً وغداً أنيقاً . جاء شيء ليعكر لي تلك الأيام التي كانت تستهلكها الشمس وتستنفدها . حبيبتي البيرمانية العاصفة (خوسه بليس) تركزت تجاه بيتي . جاءت من بلدها البعيد تحمل معها كيساً من الرز - كما لو أنه لا رز إلا في «رانغون» - أسطواناتها المفضلة لـ (باول روبيسون) سجادة طويلة مطوية . عكفت على مراقبتي من الباب المواجه لبابي ، من بعد شنت السب والشتم ضد كل من كان يزورني ، بدافع من غيرتها الشرهة ومن توجسها المسيطر عليها ، وكانت تهدد بإحراق بيتي دائماً . أذكر أنها أغارت وسلاحها سكين ، على فتاة حلوة أورو آسيوية جاءت لتزورني .

اعتبرت الشرطة الاستعمارية أن وجودها يشكل بؤرة فوضى في هدوء ذلك الشارع ، وقالوا لي بأنهم سوف يطردونها من البلاد إن لم أتول شأنها أنا وأخذها إلى بيتي . عانيت عدة أيام ، حائراً متذبذباً بين الحنان الذي يوحى لي به حبها التعميس ، وبين الرهبة التي كنت أشعر بها إذ إنني لم أكن أدعها توضع رجلاً في بيتي خوفاً منها وحذراً ، فقد كانت إرهابية غرامية قادرة على كل شيء .

أخيراً قررت ذات يوم الرحيل ، رجعتني أن أصطحبها حتى الباخرة . عندما كانت الباخرة على وشك الإقلاع وكان عليّ أن أغادرها ، انطلقت هي من بين مرافقيها في السفر فانكبّت عليّ تملأ وجهي بالدموع وهي تقبلني في رباط<sup>(1)</sup> من الحب والألم .

(1) رباط : هكذا في الأصل Arrebato ، وكانت تعني باللهجة الأندلسية العربية ، إغارة وهي تعني

بالإسبانية ، هيجان ، اعتداد ، نوبة ، الخ .



كما في طقس من الطقوس كانت تقبل لي ذراعياً، يديّ، بدلتي، ثم هوت على  
حذاثي قبله دون أن أستطيع أن أتجنب ذلك، حين نهضت من جديد كان وجهها  
مغبراً ملطخاً بحوَار حذاثي الأبيض. لم أستطع أن أقول لها أن تدع السفر وأن تغادر  
معني الباخرة التي كانت ستبعدها عني إلى الأبد. لقد كان العقل يمنعي من ذلك،  
لكن قلبي تفتطر لها وما زال فيه ندب ما التأم ولم يبرأ منه حتى الآن. لم تزل في  
ذاكرتي ذكريات ذلك الألم المضطرب العنيف الحاد وتلك الدموع الرهيبة المنحدرة  
على الوجه المغبر الحزين.

كنت قد انتهيت تقريباً من كتابة الجزء الأول من ديواني «إقامة في الأرض»،  
غير أنني كنت أكتب في ببطء. لقد كنت منفصلاً عن عالمي بسبب البعد والسكون  
وكنت عاجزاً عن الدخول في العالم الغريب الذي يحيط بي.

كان ديواني يلتقط كفضول طبيعية نتائج حياتي الراسبة في الفراغ: «أقرب إلى  
الدم منها إلى المداد»<sup>(١)</sup> لكن أسلوبني أصبح أكثر صرماً وأشد نقاوة وأعطيت نفسي  
أجنحة في تكرار كآبة محتدمة. أصررت على الحقيقة والبلاغة (لأن طحين الحقيقة  
والبلاغة يصنع خبز الشعر) في أسلوب مرأح بشكل إصراري نظامي على تهديمي  
الذاتي، ليس الأسلوب هو الإنسان فحسب بل هو أيضاً ما يحيط به، فإذا الجولم  
ينفذ إلى داخل القصيدة فإن القصيدة تكون ميتة، ميتة لأنها لم تستطع التنفس.

أبدأ ما قرأت في عذوبة ولذة ونهم وكثرة كما في تلك الضاحية من «كولومبو»  
التي عشت فيها زمناً طويلاً. من حين إلى حين كنت أرجع إلى (رامبو)، إلى  
(كيبيلو)<sup>(٢)</sup>، إلى (بروست)<sup>(٣)</sup>. إن مقطوعة «عبر طريق سوان» أعادتني إلى الحياة،  
جعلتني أعيش من جديد عواصف مراهقتي وحبها وغيرها. وأدركت أنه في تلك  
المقطوعة لقطعة «فينتويل» الموسيقية، مقطوعة موسيقية نعتها (بروست) بأنها  
«نسيمية وأليمة»، ليس يذاق الوصف الأكثر لذة للأنغام المؤثرة فحسب، بل كذلك  
مدى العاطفة اليائس.

لقد كانت مشكلتي في تلك الوحدة الممضة هي إيجاد هذه الموسيقى والعثور

(١) بيت شعر من قصيدة في الديوان.

(٢) كيبيلو: كاتب وشاعر إسباني مشهور (١٥٨٠-١٦٤٥).

(٣) بروست (مارسيل): الروائي الفرنسي المعروف، مؤلف الزمن الضائع (١٨٧١-١٩٢٢).

عليها ، لاستماعها . بحثت بمساعدة صديقي الموسيقي والعالم بالموسيقى إلى أن عرفت أن «فينتويل (بروست)» ألفها ، ربما ، (شوبرت)<sup>(١)</sup> و(فاغنز Wagner)<sup>(٢)</sup> ، و(سينت-سينس)<sup>(٣)</sup> ، و(فوري Faure)<sup>(٤)</sup> ، و(ثيسار فرانك Cessar Frank)<sup>(٥)</sup> ، و(سيندي Cindy)<sup>(٦)</sup> . لقد بقيت تربيتي الموسيقية السيئة الشنيعة جاهلة بكل هؤلاء الموسيقيين تقريباً ، وظلت أعمالهم العظيمة مثل صناديق غائبة أو مغلقة . لم يستطع سمعي أن يميز حتى أكثر الألحان وضوحاً ، وإن ميز ذلك فبصعوبة بالغة وبمساعدة أحد أصدقائي .

توصلت أخيراً وأنا أستقصي استقصاء أكثر أديباً منه موسيقياً إلى الحصول على مجمع (البوم) بثلاث اسطوانات من عزف موسيقي على البيانو والكمال لـ(ثيسار فرانك) . لم يكن ثمة مجال للشك بأن في هذه الاسطوانات كانت مقطوعة (فينتويل) ، ليس في هذا شك ألبتة .

إن شغفي ما كان إلا أديباً . لقد توقف (بروست) ، وهو في رأبي أعظم أديب واقعي شعري ، في تاريخه النقدي لمجتمع يحتضر كان يحبه ويمقته في الوقت نفسه ، في مسرة عاطفية ، عند أعمال كثيرة من الفن ، من اللوحات ، من الكاتدرائيات ، من الفنانات الممثلات ، من الكتب . لكنه أعاد ، مع أنه كان يضيء كل ما كان يلمسه ، سحر هذه القطعة الموسيقية وعبارتها المنبعثة من جديد في حدة ما أظنه وهبها لقطع وصفية أخرى . لقد قادتني كلماته إلى أن أعيش من جديد حياتي الذاتية ، مشاعري البعيدة الضائعة في داخل نفسي ذاتها ، في غيبوبتي نفسها . أحببت أن أرى في المقطوعة الموسيقية مقال (بروست) الأدبي الساحر أخذت محمولاً على أجنحة الموسيقى .

إن المقطوعة تختبئ في خطورة الظل ، تنطلق ، تبلغ باحتضارها درجة الخطر ثم

(١) شوبرت (فرانز) : الموسيقي النمساوي الشهير (١٧٩٧-١٨٢٨) .

(٢) فاغنز (ريتشارد) : الموسيقي الألماني المعروف (١٨١٣-١٨٨٣) .

(٣) سينت-سينس (كميل) : موسيقي فرنسي (١٨٣٥-١٩٢١) .

(٤) فوري (غابرييل) : موسيقي فرنسي (١٨٤٥-١٩٢٤) .

(٥) ثيسار فرانك : موسيقي فرنسي (١٨٢٢-١٨٩٠) .

(٦) سيندي (Vicente) : موسيقي فرنسي (١٨٥١-١٩٣١) .

تطيل هذا الاحتضار . تبدو وكأنها تبني احتباس أنفاسها مثل العمارة «القوطية» التي تكرر الحلى المعمارية فيها ، مدفوعة بالنغم الذي يعلو بلا هوادة ، المربعات نفسها .  
إن المادة المولودة من الألم تبحث عن مخرج لها منتصر ، لا ينكر وهو في القمة أصل هذه المادة التي أمضتها الألم وعنفها الحزن . يبدو هذا المخرج وكأنه يتلوى وينعقف في شكل حلزوني مؤثر ، بينما البيانو الشاحب الغامق يصحب مرة بعد أخرى الموت وانبعث اللحن . إن أحشاء البيانو الظليلة تلد طلقاً إثر طلق هذا الوليد الحلزوني الأفعواني إلى أن يندغم الحب والألم في الانتصار المحتضر .

لم يكن ثمة شك ، بالنسبة لي ، في أن هذه هي القطعة الموسيقية المنشودة .  
كان هذا الظل المباغت يسقط مثل قبضة اليد فوق داري الضائعة بين أشجار الجوز الهندي في «فيلا واذا» ، لكن هذه القطعة الموسيقية كانت كل ليلة تعيش معي ، تقودني ، تلفني ، تهيني حزنها الدائم الخالد ، كاتبها المنتصرة .

لما ير النقاد الذين طالما نكلوا بمؤلفاتي حتى الآن هذا التأثير السحري الذي أعترف به هنا . لأنني هناك في «فيلا واذا» كتبت قسماً كبيراً من ديواني «مقام في الأرض» . مع أن شعري ليس هو «شذياً ولا نسيمياً» بل هو أرضي في شكل حزين ، فإنه يبدو لي أن مواضيع قصائدي التي ترتدي لباس الحداد في هذا الديوان لها علاقة وشيجة بالذاتية الباطنية البلاغية لتلك الموسيقى التي تعايشت وإياي هناك .

حين عدت إلى تشيلي بعد عدة أعوام تلاقيت في ندوة أدبية مع ثلاثة من الموسيقيين الشبان كانوا أعظم موسيقيي تشيلي ، جرى ذلك ، في ما أظن عام ١٩٣٢ ، في بيت (مارتا برونيت) . كان (كلاوديو أراو) Claudio Arrau<sup>(١)</sup> يتحدث على حدة مع (دومينغو سانتا كروث) و(أرماندو كارباخال) ، فاقتربت منهم ، فما أعاروني انتباهاً أو التفاتاً ، بل مضوا في حديثهم الصافي الهادئ عن الموسيقى والموسيقيين ، حاولت أن ألمح بالتكلم عن تلك القطعة الموسيقية الوحيدة التي كنت أعرفها .

نظروا إليّ بشكل ذاهل ثم قالوا لي في تكبر :

- (ثيسار فرانك) ، لماذا (ثيسار فرانك)؟ إن الذي عليك أن تعرفه هو (فيردي) .  
ثم تابعوا حديثهم بعد أن قبروني في جهلي الذي لما أخرج منه حتى الآن .

(١) كلاوديو اراو : عازف بيانو تشيلي ولد عام ١٩٠٣ .

الحقيقة هي أن الوحدة التي كنت أشعر بها في «كولبو» لم تكن ثقيلة خانقة فحسب بل كانت كذلك كابوساً سباتياً. لم يكن لي إلا القليل من الأصدقاء في ذلك الشورع الذي كنت أسكن فيه. كانت تمر بسريري ذي الطراز العسكري صديقات من مختلف الألوان دون أن يدعن فيه ذكرى البرق الجسدي. لقد كان جسدي مجمرة متوقدة متوحدة ليل نهار في ذلك الشاطئ المداري. كانت تجيء صديقتي (باستي)، على الدوام، بمجموعة من صديقاتها: صبايا سمرارات ومذهبات، ذوات دماء مختلفة؛ دم «بويري»، دم إنجليزي، ومن مشتقات الله وأصنافه، كن جميعهن يضطجعن معي بشكل رياضي وغير مصلحي.

لقد باحت لي إحداهن بزيارة قامت بها إلى «شوميريس» Chummeries وهو اسم المنازل التي كان يعيش فيها مجموعات من الشبان الإنجليز، من مستخدمي المحلات والشركات، يعيشون معاً كي يقتصدوا في الملابس والأغذية على شكل مشاعة صغيرة. حكمت لي هذه الفتاة بشكل طبيعي ودون شعور بالابتذال أو بالبذاء أنه في إحدى المناسبات ضاجعها أربعة عشر رجلاً منهم.

- وكيف فعلت ذلك؟ سألتها.

- كنت المرأة الوحيدة بينهم تلك الليلة، وكانوا يحتفلون بشيء ما. وضعوا الحاكي وأنا أخذت أرقص مع كل واحد منهم بضع خطوات ثم أثناء الرقص كنا نضبع في غرفة النوم، هكذا أرضيتهم جميعاً واحداً إثر واحد.

لم تكن هذه الفتاة بغياً محترفة بل كانت بالأحرى نتاجاً استعماريّاً، فاكهة ساذجة ومعطاء، حكايتها هذه أثرت بي جداً ولكنها ما أثرت على علاقاتي بها فقد ظلت أكن لها المحبة والاستلطاف.

لقد كان منزلي المتوحد المنعزل بعيداً عن المساكن الأخرى كلها. حين استأجرته حاولت أن أعرف أين يقع المرحاض منه، إذ إنه ما كان يُرى ولا في أية ناحية من هذا المنزل، من بعد اكتشفت أنه في عمق المكان وراء الحمام.

بدافع من حب الاستطلاع تفحصته وإذ به صندوق من الخشب وفي وسطه فتحة، كان لهذا المرحاض شبه غريب بذاك الذي عرفته في طفولتي الفلاحية، في بلدي، غير أن مراحضنا تلك كانت تتركز فوق بئر عميقة أو فوق مجرى مائي، بينما مراحضي هذا ليس له من مستودع إلا سطل معدني بسيط يقع تحت تلك الفتحة المدورة.

كان السطل هذا يصحو مع الشروق نظيفاً كل يوم دون أن أدري كيف كان يتخلص من مضمونه وأين يختفي هذا المضمون . صباح ذات يوم نهضت من فراشي في وقت أبكر مما كانت عليه عادتي في النهوض ، فدهشت حين رأيت ما كان يجري .

كانت هناك امرأة تسير نحو هذا المرحاض كأنها تمثال غريب يمشي ، امرأة ما رأيت مثلها في الحسن بسيلان من قبل قط ، من جنس «تاميل» ومن طائفة «باريا» Paria<sup>(١)</sup> ، كانت ترتدي «ساري» Sari أحمر ومذهب من قماش خشن جداً ، وفي قدميها الحافيتين كانت تضع خلاخيل<sup>(٢)</sup> ، على كل جانب من أنفها كانت هناك خرزتان صغيرتان حمراوان تلتمعان ، قد تكونان بلورتين عاديتين ، لكن عليها كانتا تبدوان وكأنهما جوهرتان .

توجهت بنخى جليلة وقورة نحو المرحاض ، دون أن تلتفت إليّ أو تعيرني انتباهاً وكأنها لا تشعر بوجودي ثم اختفت والإناء القذر فوق رأسها مبتعدة بخطوها الرباني . لقد كانت جد جميلة إلى درجة أنني بقيت مشغول البال مضطرباً . كأنها غزال نفور أتى من الأدغال وهو ينتمي إلى عالم آخر ، إلى وجود آخر ، إلى عالم منفصل لا يمت بصلة إلى عالمي . ناديتها فلم تجب ، ذات مرة تركت لها في طريقها هدية : حريراً ، مرة أخرى فاكهة ، مرة أخرى عطراً ، كانت تمر ولا تدري بي ولا تنظر إليّ هداياي . لقد تحول طريق مسيرها وعملها البائس إلى احتفال إجباري بملكة غير مبالية ، كنت أنا المحتفل وهي الملكة الأنوف بما لها من جمال وحسن .

ذات صباح وقد قررت ما قررت وعزمت أن أغامر ، أخذتها بقوة من معصمها وجذبتها إليّ ونظرت إليها وجهاً لوجه وما وجدت لغة أكلمها بها ، فانصاعت وتأودت فقّدتها ، دون أن تبدو على شفيتها أية ابتسامة ، وعريتها دون أن تبدي حراكاً ، أملتتها على السرير فمالت ، أتمتها فنامت ، كان خصرها النحيل جداً ، الضامر جداً ، كانت أردافها المكتنزة جداً ، الممتلئة جداً ، كان نهدها الطافحان جداً ، الواثبان جداً ، تجعلها تبدو وكأنها تحفة ألفية من تحف جنوب الهند وتماثيلها . وكان اللقاء لقاء رجل بضمه . مكثت الوقت كله وعيناها ساهمتان مفتوحتان ، كانت جماداً بلا حراك .

(١) باريا : هي طائفة من البراهمة ، محرومة من الحقوق الإنسانية والمدنية .

(٢) خلاخيل : في الأصل Ajorcas ، وهي مأخوذة من الكلمة العربية الشركة .

لقد أحسنت صنعاً باحتقاري وازدرائي ، والتجربة ما تكررت من بعد .  
لقد كلفني جهداً أن أقرأ البرقية التي وصلتني ، وزارة الخارجية تعلمني بنقلي إلى مكان جديد . فقد نقلت من قنصل في «كولوبو» إلى قنصل في «سينغابور» و«باتافيا» أي المهمة ذاتها والعمل نفسه ، ولكن هذا المنصب الجديد يرفعني من دائرة الفقر الأولى إلى دائرة الفقر الثانية . كان لي الحق بكولوبو في أن أحجز لنفسي من المبالغ التي تكسبها القنصلية ، مرتبتي (إن توفر في هذه المبالغ) وقدره مائة وستة وستون دولاراً وستة وستون سنتيماً . الآن بعد أن أصبحت قنصلاً في مستعمرتين معاً فإنني سوف أستطيع أن أخذ مبلغاً قدره ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون دولاراً واثنان وثلاثون سنتيماً (إن توفر في صندوق القنصلية) وهذا يعني أنني ، عما قريب ، سوف أدع النوم على السرير العسكري ، طموحي المادي ما كان مفراطاً وما كنت أطمع بأكثر من هذا .

لكن ، ماذا سأفعل بـ(كرينا) نمستي؟ أهديها إلى أولاد الحي الذين لم يعودوا يكونون لها الاحترام اللازم بعد أن فقدوا إيمانهم بقدرتها على مقارعة الأفاعي؟ لا ، لا ، أبداً ، فإنهم لن يعتنوا بها ولن يدعوها تأكل معهم على المائدة كما كنت قد عودتها على ذلك ، بل إنهم سيفلتونها في الغابة لترجع إلى وضعها البدائي الحيواني ، فهي من غير شك فقدت غرائزها الدفاعية وأصبحت أليفة وهناك في الغابة ستلتهمها الطيور الجارحة أو الزاحفة دون سابق إنذار أو أعذار . من جهة أخرى ، كيف أحملها معي؟ إنهم في الباخرة لن يقبلوا بمثل هذا المسافر الغريب من نوعه .

قررت حينذاك أن أصطحب معي في السفر (برامبي Brampy) خادمي السيلاني ، كان ذلك مصروفاً باهظاً لا يتحملة إلا مليونير وكذلك كان جنوناً ، لأننا سنذهب إلى قطرين وهما ماليزيا وأندونيسيا ، يجهل خادمي (برامبي) لغتيهما . لكن النمسة تستطيع السفر خفية في داخل سبط نضعه على ظهر الباخرة تحت جسرهما وهناك يرقد خادمي قريباً فهي تعرفه وتطمئن إليه فتظل خبيثة دون أن يراها أحد ، لكن المشكلة كانت الجمارك فلعلمهم ينقبون في السبط ويرونها ، لكن خادمي (برامبي) الماكر تكفل بخداع رجال الجمارك .

وهكذا ، بحزن ، بفرح ، بنمسة ، تركنا جزيرة سيلان قاصدين عالماً آخر لا نعرفه .

قد يكون من الصعب على الآخرين أن يفهموا لماذا كان لتشييلي هذا العدد

الكثير من القناصل المبعثرة في أنحاء العالم كله . إنه فعلاً لغريب أن جمهورية صغيرة منزوية قرب القطب الجنوبي ترسل ممثلين رسميين إلى أرخبيلات ، سواحل ، أرصفة<sup>(١)</sup> في الجانب الآخر من الكرة الأرضية .

في عمق الأمر -أشرح أنا وهذا رأيي الخاص- أن هذه القناصل كانت نتاج الوهم وإعطاء الأهمية للذات والتركيز عليها ، وهذا ما تتميز به نحن الأمريكيين الجنوبيين عادة . من ناحية أخرى كنت قد قلت في مجال آخر إنه من هذه الأماكن النائية جداً كانت تشحن إلى تشيلي ، قنب هندي ، زيت القطران الصلب (بارفينا) لصنع الشموع وبخاصة شاي ، شاي كثير جداً ، إذ إننا نحن التشيليين نتناول الشاي أربع مرات في اليوم ، ولا نستطيع زرعه في بلادنا . لقد أضرب مرة عمال ملح البارود إضراباً هائلاً محتجين على نقص هذه المادة الغذائية الغريبة جداً . أذكر أن أحد المصدرين الإنجليزي سألتني في إحدى المناسبات بعد أن سقاني ما سقاني من الويسكي ، عما نفعل نحن التشيليين بمثل هذه الكميات الهائلة من الشاي .  
-تناولها- قلت له .

(لقد كان يظن أنه سأبوح له بسر استغلاله صناعياً ليعرف هذه الصناعة وينقلها إلى بلده ، تأسفت لتخيبني آماله) .

لقد كان للقنصلية التشيلية في سينغابور عشر سنوات من الوجود . نزلت من الباخرة بالثقة التي كانت تعطينها الثلاث والعشرون سنة من العمر ، دوماً بصحبة خادمي (برمبي) ونمستي (كرينا) . توجهنا مباشرة إلى فندق «رافليس» . هناك أمرت بغسل ملابسني التي لم تكن بالقليلة ، ومن بعد جلست على شرفة الغرفة ، تمددت في كسل على كرسي مريح هزاز وطلبت كأساً ، كأسين ، ثلاث كؤوس من «الجن» .

كل شيء كان Sommerst Maufham<sup>(٢)</sup> جداً ، إلى أن خطر لي البحث في دليل الهاتف عن مقر قنصليتي ، فلم تكن مسجلة هذه القنصلية في الدليل ، يا للشياطين! طلبت أن يصلوني حالاً بمركز الحكومة الإنجليزية هنا ، أجابوني بعد طول استشارة وبحث أنه ليس ثمة قنصلية تشيلية . سألتهم عما إذا كانوا يعرفون أي شيء

---

(١) أرصفة : هكذا في الأصل Arrecifes ، وهي في الإسبانية تعني الهوادي أو الصخور تحت الماء أو

الحيود البحرية . عن العربية .

(٢) لا نحاول ترجمة التعبيرات الواردة بلغة غير اللغة الإسبانية .

عن القنصل السيد (مانسيا) فأجابوني بالنفي المطلق .

شعرت بالانزعاج والضيق إذ لم يكن معي من المال ما يكفي لدفع أجرة تلك الليلة في الفندق وتكاليف غسل ملابسني . فكرت في أن مقر القنصلية لا بد أن يكون في «باتافيا» ، ولذلك فإني قررت المضي في السفر على ظهر الباخرة نفسها التي أحضرتني إلى هنا وكانت ما تزال راسية في المرفأ على وشك الإقلاع نحو «باتافيا» . أمرت بإخراج ملابسني من الغلاية حيث كانت تنتقع ، صنع (برامبي) منها حزمة بليلة وانطلقنا مسرعين نحو رصيف الميناء .

كانوا قد رفعوا سلم الصعود إلى ظهر السفينة . صعدت درجات السلم لاهثاً . نظر إليّ رفاق سفري السابقون المستمرون في رحلتهم وضباط الباخرة مستغربين مندهشين . حشرت نفسي في الغرفة نفسها التي كنت قد تركتها صباحاً ثم تمددت على ظهري في السرير وأغمضت عينيّ فيما كانت الباخرة تبتعد عن الميناء المشؤوم . لقد تعرفت في الباخرة على فتاة يهودية ، تدعى (كروزي) شقراء ، سمينة شيئاً ما ، ذات عينين طافحتين بالفرح ولونهما برتقالي . قالت لي إن لها منصباً جيداً في «باتافيا» ، اقتربت منها في الحفلة الأخيرة للرحلة البحرية . بين كأس وكأس كانت تجرني إلى الرقص وأنا كنت أتبعها بشكل غبي في تلك الالتواءات البطيئة التي كان الرقص عليها في تلك الأوقات . في هذه الليلة الأخيرة قررنا أن نمارس الحب في غرفتي بشكل ودي ، عارفين بأن مصيرنا التقيا صدفة ولمرة واحدة . حكيت لها عن خيبة آمالي وفشلي فأشفقت عليّ ورقت لي في نعومة بالغه فوصل حنانها إلى قلبي وتغلغل في روحي .

اعترفت لي (كروزي) من جهتها بالعمل الحقيقي الذي كان ينتظرها في «باتافيا» . كان ثمة منظمة فلندعها دوليّة ، كانت مهمتها هي أن تشبك فتيات أوروبا في أسرة آسيويين معتبرين ذوي مناصب أو ألقاب مهمة . بالنسبة لها فقد كانوا أعطوها الحق في الاختيار بين «مهاجراً» أو أمير من سيام أو تاجر صيني غني فقررت اختيار هذا الأخير ، لكونه شاباً وديعاً .

حين هبطنا إلى اليابسة ، في اليوم التالي ، لمحت سيارة «رويل رويز» وجانباً من وجه صاحبها الصيني ، العين الغني الذي كان يجلس في الخلف وذلك من خلال ستائر حريرية مزهرة على نوافذ السيارة . ثم اختفت (كروزي) بين الناس والعفش والبضائع .



أنا نزلت في فندق «دير نيدرلاند» ، كنت أستعد للغداء حين رأيت (كروزي) تدخل ثم ارتمت بين ذراعيّ مختنقة بالبكاء .

- إنهم يطردونني من هنا ، يجب على أن أرحل غدا .

- لكن ، من هم هؤلاء الذين يطردونك ، ولماذا يطردونك؟ .

حكمت لي بشكل متقطع عن خيبتها وعن الضرر الذي لحق بها ، قالت إنها كانت على وشك الصعود إلى السيارة الفخمة حين جاء رجال شرطة الهجرة فاعتقلوها كي يخضعوها إلى تحقيق قاس ، لم تجد بدا من الاعتراف بكل شيء . اعتبر المسؤولون الهولنديون أن نيتها في العيش مع رجل صيني على شكل تسرّهي جنائية خطيرة . أطلقوا في النهاية سراحها شريطة ألا تزور عشيقها هذا وشريطة أن تترك ، لترحل في اليوم التالي ، الباخرة نفسها التي وصلت بها والتي كانت ستقلع لتعود إلى الغرب .

إن ما كان يحزّ في نفسها هو أنها خيبت آمال ذلك الرجل الذي كان ينتظرها ، لم يكن بعيداً عن التأثير في شعورها هذا إغراء تلك السيارة الفخمة . لكن (كروزي) في أعماقها كانت عاطفية جداً . كان في دموعها شيء أكثر من مصلحة خابت ، أكبر من إغراء مادي : كانت تشعر بأنها أهينت وأنها جُرحت في كرامتها .

- هل تعرفين عنوانه ، أليس عندك رقم هاتفه؟ سألتها .

- بلى -أجابتنى- لكنني أخاف أن يعتقلوني فلقد هددوني بالسجن في زنزانه .

- لن تخسري شيئاً ، اذهبي كي تري هذا الرجل الذي قد فكر فيك دون أن يعرفك ، فأنت تدينين له على الأقل بوضع كلمات تشرحين بها له الأمر . ماذا يهملك بعد من رجال الشرطة؟ دعيهم وشأنهم . اذهبي وانظري صينيّك ، خذي احتياطاتك واهزني عن أهانوك وستشعرين أنك انتقمتم وبهذا تخرجين من البلد وأنت أكثر رضى وأحسن حالاً .

لقد عادت تلك الليلة صديقتي في وقت متأخر . فقد ذهبت ورأت المعجب بها عن طريق المراسلة ، فقصت عليّ تفاصيل المقابلة التي جرت بينهما . الرجل هو شرقي متفرنس ومثقف ، يتلكم الفرنسية بشكل طبيعي ، متزوج على طريقة الشرفاء الصينيين وهو يعلّم من زوجه وحياته كثيراً .

كان هذا الخطيب الأصفر قد جهز لخطيبته البيضاء التي جاءت من الغرب منزلاً بحديقة فسيحة ، تشبيكات على النوافذ ضد الذباب والناموس ، أثنائاً من طراز لويس

الرابع عشر ، سريراً كبيراً ذا كَلَّة حريرية وضع تحت التجربة تلك الليلة . أخذ صاحب الدار هذا يُريها التحف الصغيرة التي أعدها وهياها : الشوك ، السكاكين الفضية ( هو لا يأكل إلا بالعيدان) ، المشروبات الأوروبية ، الشلاجة المكومة بالفواكه وأشياء أخرى .

من بعد توقف إزاء صندوق كبير مغلق بشكل محكم ، أخرج مفتاحاً صغيراً من جيب سرواله ، فتح ذلك الصندوق وأرى عيني (كروزي) أعجب كنز في الكنوز ، مئات من الكلاسين النسائية ، سراويل قصيرة ناعمة الملمس ، كلسات ضئيلة الحجم . مشدات خاصة بالحريم بالمشات بل بالألاف كانت تتوج ذلك الكنز المطهر بالشذى والمعطر بأريج الصندل . هناك اجتمعت أنواع الحرير كلها ، الألوان جميعها ، فالسلسلة كانت تندرج من البنفسجي إلى الأصفر ، من الألوان الوردية المختلفة إلى الألوان الخضراء السحرية ، من الألوان الحمراء العنيفة إلى الألوان السوداء البهية ، من الألوان السماوية الكهربائية إلى الألوان البيضاء الشفافة الرفافة . جمع هذا الوثني قوس قزح الشهوة الذكورية كله في سبيل إرضاء لذته الشهوانية الغربية .

- لقد بهرت وسحرت - قالت لي (كروزي) ثم غرقت بالبكاء والنحيب - تناولت أنا هكذا على غير قبضة من هذه المشدات وها هي الآن معي - أردفت قائلة . لقد شعرت أنا كذلك بالتأثر واستهواني هذا السر الإنساني . هذا الصيني التاجر الجدي الحازم المستورد أو المصدر يصنف ويجمع كلاسين ومشدات نسائية كما لو كان هاوي فراشات يتابعها ويصطادها ، كيف هذا ومن يفكر في مثل هذا؟

- دعي لي واحداً من هذه الكلاسين - قلت لصديقتي . هي اختارت واحداً أبيض أخضر وداعته بنعومة وحنان قبل أن تعطينيه . أهديه لي واكتبي لي عليه شيئاً ، يا (كروزي) ، من فضلك . إذك هي مطته بعناية تامة وكتبت اسمي واسمها على سطح الحرير الذي بللته كذلك بالدموع .

في اليوم التالي انطلقت راحلة دون أن أراها وما عدت فرأيتها من بعد أبداً . كلسونها الخفيف الرقيق الشفاف وهداؤها عليه ودموعها فيه مشت مع حقائبي ، مختلطة بملابسي وكتبي خلال سنين كثيرة . لا أعرف متى وكيف إحدى زائراتي المستغلات خرجت من داري وقد لبسته فطار معها .

في تلكم الأزمان ، حين لم تكن توجد بعد الفنادق الضخمة كان نزل «نيديرلاند» شيئاً خارقاً للعادة . كان له بهو مركزي كبير مخصص لقاعة الطعام وللمكاتب ، وشقة لكل مقيم نازل تفصلها عن الأخرى حديقة صغيرة وأشجار قديرة عظيمة ، وفي قمم هذه الأشجار كانت تستوطن عصافير لا حصر لها ، سناجب غشائية تطير من غصن إلى آخر ، حشرات تصر وتصرف كما في الغابة . كان خادمي (برامبي) منصرفاً إلى عمله في الاعتناء بالنمسة التي كانت كل يوم أكثر قلقاً وأشد حزناً في منزلها الجديد هذا .

هنا ، نعم ، كان ثمة ما يسمى بقنصلية تشيلي ، على الأقل كانت مذكورة في دليل الهواتف . في اليوم التالي بعد أن غدوت أحسن حالاً وأنتق ملبساً توجهت شطر مكاتبها . كان الشارع القنصلي لتشيلي معلقاً في صدر بناء كبير ، وعلى واجهة محل كتب عليه كذلك ما يدل على أنه مقر شركة للسفريات البحرية . قادني أحد الأشخاص العديدين الذين كانوا هناك إلى مكتب المدير ، وهو رجل هولاندي ضخيم الهيئة عظيم الجثة ملون الوجه والبشرة ، لا تبدو عليه علائم مدير شركة بل له ملامح عتال ميناء .

- أنا القنصل الجديد لتشيلي هنا - قدمت نفسي - إنني لأبدأ بإجزال الشكر إليكم على خدماتكم الجليلة العظيمة ، راجياً أن تطلعوني على مجريات الأمور المهمة في القنصلية ، إذ إنني أرغب بتولي مهام منصبتي توأماً .  
- ليس من قنصل هنا سواي - أجاب حانقاً هائجاً .  
- وكيف ذا؟

- ابدأوا بأن تدفعوا لي ما أنتم مدينون به - صرخ .  
قد يعرف هذا الرجل عن الإبحار الشيء الكثير ، لكن اللياقة لم يكن يعرفها ولا في أية لغة . كان يهرس الجمل يدعسها ويقضم بعضات غاضبة السيجار الثقيل الذي كان يذعف الهواء في ما حوله .

لم يدع لي هذا المسوس المتخبط فرصة كي أقاطعه في أثناء كلامه المتدفق . إن شعوره بالإهانة والسيجار كانا يسببان له هجومات من السعال مدوية صخابة حين لا تسببان له تفاعلاً ونفاً وغرغرة . أخيراً استطعت أن أحشر جملة في محاولة للدفاع عن نفسي :

- أيها السيد ، أنا لا أدين لك بشيء وليس عليّ أن أدفع لك شيئاً ، إنني لأعرف أن حضرتك قنصل Ad Honorem أي فخري ، فإن كان هذا أمراً قابلاً للنقاش في رأيك فإنني لا أجد ما يمكن إصلاحه بهذا الصراخ الذي لست على استعداد للقبول به مطلقاً .

في وقت لاحق تأكدت من أن هذا الشخص الهولاندي كان لديه بعض من الحق . فلقد كان هذا الرجل ضحية لنصب واحتيال حقيقيين ما كنت أنا ، طبعاً ولا حكومة تشيلي بمسؤولين عما لحقه من إجحاف وظلم . لقد كان (مانسيا) هذه الشخصية الماكراة المتتوية ، هو من كان يهيج حق الهولاندي وغضبه . فلقد بدأت أعرف أن (مانسيا) هذا لم يقم على رأس عمله في «باتافيا» أبداً ، بل كان يعيش في باري منذ زمن طويل ، وكان قد اتفق مع هذا الهولاندي كي يقوم بمهامه القنصلية بدلاً منه ، وأن يرسل إليه الأوراق والعوائد المالية لقاء مرتب شهري ، غير أنه لم يدفع له هذا المبلغ قط . ومن هنا شعور الهولاندي بالإهانة والظلم ، ومن هنا غضب الهولاندي الأرضي<sup>(١)</sup> الذي تداعى فوق رأسي كتداعي طف الحائط .

في اليوم التالي شعرت بأني مريض جداً ؛ حمى خبيثة ، زكام ، ضنك ، وحلة ونزيف ، حر وعرق . كانت الأنف تنزف مني دماً مثلما في طفولتي بتيموكو ، تحت برد تيموكو .

توجهت بعد أن بذلت جهداً قوياً ، جهد من يريد أن يحيا ، إلى قصر الحكومة حيث كان يقع في منطقة «بويتنزور» Buitenzor داخل حديقة أشجار رائعة فسيحة . أبعد البيروقراطيون بصعوبة عيونهم الزرق عن أوراقهم البيض وزووا ما بين عيونهم ثم أخرجوا أقلاماً كانت كذلك تترشح مثلي وكتبوا اسمي ببعض قطرات من عرق . خرجت أكثر مرضاً مما دخلت . مشيت عبر النهج إلى أن جلست تحت فيء شجرة هائلة . كل شيء هنا كان منعشاً صحياً طازجاً حياً ، الحياة تتنفس هادئة قديرة . تكشف الأشجار السامقة الهيفاء عن سيقانها الصقيلة الملساء لجينية البدن ، كثيفة الفرع ، إزائي ، أمامي ، وراثي ، كان يبلغ علوها مائة متر أو أكثر . قرأت الصفائح المطلية بالميناء حيث تصنف الأشجار فصائل فصائل من أشجار الكافور ، لم أكن أعرفها من قبل . تنزكت من العلو الهائل موجة من الشذى الرطب فتتنسجت ملء

(١) الهولاندي الأرضي : إشارة وتمييزاً للهولاندي البحري وأسطورته المعروفة .

رثتي ، تساقطت عليّ موجة من الأريج الزكي فأفعمت قلبي . تلك الشجرة  
الامبراطورة بين الأشجار رقت لحالي فأرسلت إليّ من روحها نفحة عطر أعادت إليّ  
روحي وشفّفتني .

أو لربما كانت شفائي جلاله الحديقة الخضراء ، تناغم الأوراق ، تلون الشمار ،  
تصالب الخطوط ، السحليات التي كانت تنفجر مثل نجومات بحر بين أوراق النبات ،  
العمق البحري لذلك الحرش الغابي ، صراخ الببغاوات ، عياط القروود . كل هذا أعاد  
لي الثقة في مصيري ، أرجع لي الفرحة بالحياة التي كانت تُطفأ فيّ مثل شمعة  
استهلكت فنفذت .

عدت إلى النزل وقد استعدت أنفاسي . جلست في شرفة شقتي ومعني أوراق  
للكتابة ونمستي فوق الطاولة الصغيرة جالسة ، وقررت إرسال برفية إلى حكومة  
تشيلي . كان ينقصني المداد . ناديت على نادل في النزل وطلبت منه بالإنجليزية حبراً  
Ink كي يحضر لي محبرة . لم يبد عليه أنه فهمني بل اقتصر على النداء إلى نادل  
آخر كان يرتدي بدلة بيضاء مثله وكان حافياً جداً مثله كي يساعده على تفسير  
رغباتي المبهمة اللغز . لم يكن هناك ما يمكن عمله إذ إنني حين كنت أقول Ink  
وأحرك قلمي وأنا أغمسه في محبرة خيالية وهمية كي يفهموا قصدي كان الغلمان  
السبعة أو الثمانية الذي خفوا لمساعدة الأول على حل هذا المعضل ، يكررون إيقاع  
مناورتي بأقلام يخرجونها من جيوبهم وينادون في حدة واندفاع (ink, ink) ميتين  
ضحكاً . كان هذا الذي أقوم به من حركات يبدو لهم على أنه طقس من الطقوس  
الجديدة يريدون تعلمه وإتقانه . بعد أن يثست انطلقت إلى الشقة المجاورة وأنا أتبع  
بسلسلة طويلة من الخدم المرتدين البياض ، الحفاة الأقدام ، وتناولت من على طاولة  
وحيدة منزوية محبرة كانت هناك بأعجوبة فأشهرتها أمام عيونهم المندهشة وصرخت  
بهم :

- هذا ، هذا ، This This .

عند ذلك ابتسموا وقالوا في إيقاع واحد :

حبر ، حبر Tinta! Tinta! .

وهكذا عرفت أن الحبر كما هو في الإسبانية يقال له بلغة «ملايو» (Tinta) .

لقد حانت اللحظة التي أعيد فيها إليّ الحق بأن أتمركز قنصلياً . كانت ثروتني  
المتنازع عليها هي : خاتم مع محاة متأكلة منقرضة منقزمة ، قطعة قماش مغموسة

بالمداد كي أحبر الخاتم ، بعض ملفات ووثائق تحتوي على الجمل والباقي . كان الباقي قد راح ليتوقف في جيوب ذلك القنصل الغشاش الذي كان يعمل من باريس في هذه القنصلية . سلمني الهولاندي الذي استهزىء به أعواماً كثيرة الحزمة التافهة ، دون أن يدع علك سيجاره ، في ابتسامة باردة ، ابتسامة «مستدون»<sup>(١)</sup> خائب الأمل .

من حين إلى حين كنت أوقع على وصولات قنصلية وأضع عليها الخاتم الرسمي المتضعع . وهكذا أخذت تردني الدولارات التي كانت تحوّل إلى العملة الوطنية «غولديرس» Gulders فتكفي بشكل مضغوط لدعم وجودي : المبيت والتغذية لي ، راتب خادمي ، العناية بنمستي (كيريا) التي كانت تنمو بشكل واضح جلبي وتأكل ثلاث بيضات وأحياناً أربع بيضات في اليوم ، بالإضافة إلى هذا فقد كان عليّ أن أشتري سموكين Smoking أبيض و«فراك» Frac والتزمت أن أدفع الثمن على أقساط شهرية . كنت أجلس أحياناً ، وحيداً دوماً ، في المقاهي الخاصة بالناس في الهواء الطلق ، إزاء القنوات العريضة كي أشرب بيرة أو «جن» فعدت من جديد لأحيا حياة هادئة يائسة .

إن وجبة مطعم الفندق كانت جليلة . كانت تدخل إلى قاعة الطعام مسيرة مؤلفة من عشرة خدام إلى خمسة عشر خادماً أحياناً ، ثم يروحون يستعرضون أنفسهم أمام كل واحد من نزلاء الفندق وقصعاتهم مرفوعة على أكفهم التي تعلق وتهبط ، وكل قصعة مقسمة إلى أوعية ، وفي كل وعاء يلمع طعام لذيذ غريب . فوق قاعدة من الرز كانت تلك المأكولات اللانهائية تشيد دعائمها . كنت أنا ، وأنا رجل أكل ولزمن طويل غير مغذّي ، أختار شيئاً من كل قصعة من هذه القصعات ، من كل خادم من الخمسة عشر خادماً أو الثمانية عشر ، حتى يصبح طبقي جبلاً حيث الأسماك الغريبة ، حيث البيضات المعماة ، حيث الخضراوات غير المتوقعة ، حيث الفراخ غير المفسرة ، حيث اللحوم غير المألوفة ، كانت كل هذه اللذائذ تتوج قمة غدائي كما راية على قمة جبل قاعدته من رز . يقول الصينيون إن الأكل يجب أن يحتوي على ثلاث خصائص لذيذة : طعم ورائحة ولون . كانت وجبة نزلي تجمع هذه الخصال الثلاث ورابعة أخرى وهي : الوفرة .

في تلك الأيام فقدت (كيريا) : نمستي . كانت لها العادة المجازفة الخطرة وهي

(١) مستدون Mastodonte : فيل أثري منقرض .

متابعتي حيث أمضي بخطىواتها السريعة القصيرة . إن الذهاب خلفي كان يعني اجتياز الشوارع التي تخرقها السيارات الصغيرة والكبيرة والشاحنات وعربات «ريكيشا» التي يجرها البشر والمارة الهولانديون والصينيون والملايويون . إنه لعالم مضطرب مزدحم بالنسبة لنمسة لا تعرف في الدنيا إلا شخصين اثنين : أنا وخادمي .

لقد جرى ما لا يمكن تفاديه وكان ما خفت أن يكون . حين عدت إلى الفندق ونظرت إلى خادمي فهمت المأساة ، لم أسأله شيئاً . لكن حين جلست في الشرفة ، هي لم تقفز إلى حضني ولا أمرت ذيلها الكثيف الشعر عبر رأسي . وضعت إعلاناً في الصحف : «نمسة ضائعة ، تستجيب لنداء (كيريا)» . ما من أحد أجاب ولا من جار رآها فدل عنها ، ربما ماتت ، لقد اختفت إلى الأبد .

شعر حارسها (برامبي) بذنب كبير إلى درجة أنه اختفى عن نظري خلال زمن طويل . كان شبحاً كان من يغسل ملابس وينظف أحذيتي . كان يخيل إلي أحياناً وكأني أسمع صراخ (كيريا) يناديني من على غصن شجرة في الليل ، أشعل النور ، أفتح النوافذ والأبواب علها تأتيني . أتحرى شجر الجوز الهندي ، أستقصي كل مكان ، واذ هي ليست إياها . إن العالم الذي كانت (كيريا) تعرفه وتألّفه قد استحال إلى احتيال ، انهارت ثقتها في غابة المدينة المهتدة المتوعدة . لقد شعرت لزمن طويل أنني مشقوب بالكآبة ، منخول بالهمّ .

قرر (برامبي) من خجله العودة إلى بلده . تأسفت لهذا كثيراً ، لكن ، في الحقيقة ، تلك النمسة كانت الشيء الوحيد الذي يجمعنا . جاء ذات مساء بغرض أن يريني البدلة الجديدة التي اشتراها كي يصل إلى قريته الأم ، حسن الهدام بهي المنظر . ظهر فجأة وهو يرتدي الأبيض ومزرزر حتى العنق . ما كان أكثر مفاجأة هي قلنسوته الهائلة كأنه رئيس الطهارة فقد كان قد ألبسها رأسه الغامق جداً ، حين بدا هكذا انفجرت في قهقهة عارمة . لم يشعر (برامبي) بالإهانة بل على العكس ابتسم لي في عذوبة شديدة بابتسامة تصفح لي جهلي وتفهمه .

إن اسم شارع داري الجديد في «باتافيا» هو «بروبولينغو» . هذه الدار هي عبارة عن قاعة ، وغرفة نوم ومطبخ وحمام . أبداً ما امتلكت سيارة ولكن في هذه الدار كان يوجد كراج ظل دائماً فارغاً . كان في هذه الدار الجديدة متسع يزيد على حاجتي . اتخذت طاهية من جزيرة «جاوا» ، فلاحه عجوزاً تشعر بالمساواة وتؤمن أن الناس

سواسية وكانت كذلك لطيفة جداً ، واتخذت كذلك خادماً صغيراً جاوياً أيضاً كان يخدمني في المائدة وينظف ملابسي ويمسح أحذيتي . هناك أنهيت ديواني «مقام في الأرض» .

لقد تضاعف شعوري بالوحدة ففكرت بالزواج . كنت قد تعرفت على فتاة «كريويا» ، وبالأحرى هولندية مع قطرات دم من ملايو . كانت تعجبني جداً ، كانت امرأة طويلة وناعمة لطيفة ، غريبة كلياً عن عالم الفنون والآداب (بعد عشرين سنة ستكتب كاتبة تاريخ حياتي وصديقتي (مارغاريتا أغيرّه) عن زواجي هذا ما يلي : «لقد عاد (نيرودا) إلى تشيلي في عام ١٩٣٢ . قبل هذا بعامين تزوج في «باتافيا» بـ(ماريا انطونيته اجينار Maria Antonieta Agenar) وهي شابة هولندية مستقرة في «جاوا» . تفتخر جداً لكونها زوجة فنصل ، ولها عن أمريكا الجنوبية فكرة غريبة جداً ، هي لا تعرف الإسبانية فتبدأ بتعلمها . لكن ليس ثمة شك في أن ما لم تتعلمه ليس اللغة فحسب . ومع كل هذا فإن انسجامها العاطفي مع (نيرودا) هو قوي جداً فدائماً يُريان معاً . إن (ماروكا) وبهذا الاسم يدعوها (بابلو) ، هي طويلة جداً ، بطيئة ، متكلفة الرصانة» .

كانت حياتي بسيطة جداً . تعرفت من بعد على أشخاص آخرين لطفاء جداً . القنصل الكوبي وزوجته كانا صديقيّ الإيجابيين إذ كنا متحدثين باللغة . كان هذا القنصل يتكلم بلا انقطاع ولا هوادة كأنه آلة متحركة دائماً . كان رسمياً يمثل (ماتشادو Machado)<sup>(١)</sup> طاغية كوبا ، غير أنه ، كان يحكي لي أن ثياب السجناء السياسيين ، ساعاتهم ، خواتمهم ، وأحياناً أسنانهم الذهبية كانت تظهر في بطون الأسماك الكبيرة الشرهة بخليج «هافانا» .

كان القنصل الألماني (هرث) يعجب بالتشكيلية الحديثة La plastica ، بالخيل الزرق لـ (فرانث مارك) بالأشكال المستطيلة لـ(ويلهيلم ليهمبروك) . كان شخصاً حساساً ورومانطيكياً ، وهو يهودي ذو قرون من التراث الثقافي ، سألته ذات مرة :  
- (وهتلر) هذا الذي يظهر اسمه من حين إلى حين في الصحف ، هذا الزعيم المعادي للسامية وللشيوعية ، ألا تعتقد أنه قد يصل يوماً إلى سلطة الحكم؟  
- مستحيل - قال لي .

(١) ماتشادو Morales, Cerardo : كان رئيساً للدولة الكوبية (١٨٧١-١٩٣٩) .



- كيف تجزم بأنه مستحيل ، بينما نشاهد في التاريخ كل ما هو محال وغير معقول؟

- أنت لا تعرف ألمانيا -أدلى برأيه- ثم أردف قائلاً :

- أجل ، هناك في ألمانيا هو أمر مستحيل ، إن محرضاً مجنوناً مثل هذا (هتلر) لا يمكن له أن يحكم ، ولا حتى في ضيعة .

يا صديقي المسكين ، يا للقنصل المسكين (هيرث) ، لقد كان ينقص القليل كي يحكم ذاك المحرض المجنون العالم كل العالم . لا بد أن (هيرث) الساذج قد انتهى في غرفة غاز مجهولة ورهيبية مع كل ثقافته ورومانطيكته النبيلة .



## الفصل الخامس إسبانيا في القلب

كيف كان (فيديريكو Federico)<sup>(١)</sup>،

سفر طويل عبر البحر دام شهرين أعادني إلى تشيلي عام ١٩٣٢ . هناك في تشيلي نشرت ديواني «حامل المقلاع المتحمس» الذي كان مبعثراً بين أوراقي ، ونشرت كذلك ديواني «مقام في الأرض» الذي نظمته في الشرق . في عام ١٩٣٣ عينت قنصلاً لتشيلي في «بونيس أيرس» حيث وصلت في شهر آب .

لقد وصل إلى هذه المدينة في الوقت نفسه تقريباً (فيديريكو غارثيا لوركا) كي ي دشن مسرحيته ، مأساة «أعراس الدم» ، ويشرف على تمثيلها الذي قامت به فرقة (لولا ميمبريبيس Lola Membrives) . لم نكن قد تعارفنا بعد فتم تعارفنا في «بونيس أيرس» . وكثيراً ما كان الأدباء والأصدقاء هناك يحتفلون بنا معاً ويكرمونا . على فكرة ، لم تنقصنا بعض الحوادث . كان لفيديريكو خصوم . وكذلك كان لي أيضاً خصوم وما زال هناك لي خصوم كثيرون . هؤلاء الخصوم يشعرون بأنهم مدفوعون غريزياً كي يطفئوا النور حتى لا يُرى . وهذا ما حصل في تلك المرة . بما أنه كان هناك اهتمام عند الناس لحضور حفلة التكريم التي كان يريد إقامتها على شرفنا «نادي القلم» في فندق «بلاثا» ، فإن أحد هؤلاء الخصوم أخذ يتصل بالناس هاتفياً كل يوم لينبهرهم بأن التكريم الذي كان سيقام على شرف (لوركا) و(نيرودا) قد ألغي . وقد بلغ بهذا الخصم أو الخصوم الحد من الصفاقة أنهم اتصلوا بمدير الفندق وعاملة الهاتف ورئيس الطهاة كي لا يشاركوا في الاحتفال ولا يعدّوا الوليمة . لكن هذه المناورة فشلت وانعقد شملنا أخيراً وحضر الاحتفال بنا مائة من الكتّاب الأرجنتينيين .

---

(١) فيديريكو غارثيا لوركا : هو الشاعر الأسباني المشهور جداً (١٨٩٨-١٩٣٦) ، ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور ، مختارات من الشعر الأسباني المعاصر . ونحن في صدد إعداد كتاب عن المواضيع والألفاظ العربية في أعماله .

لقد بادرنا الحضور بمفاجأة أدهشتهم . كنا حضرنا خطاباً على التناوب «أل اليمون»<sup>(١)</sup> . أعتقد أن كثيراً من القراء لا يعرفون معنى هذه الكلمة وأنا كذلك لم أكن أعرفها ، لكن (فيديريكو) الذي كان دائماً مليئاً بالإبداعات والأملوحات والنوادر والخواطر شرح لي ذلك فقال :

«إثنان من مصارعِي الثيران يصارعان في الوقت نفسه وبمعطف واحد وحيد . إن هذه الطريقة في المصارعة هي أخطر تجربة في فن مصارعة الثيران ، ولذا فقلماً تُرى في حلبات المصارعة . لا تُرى إلا مرة أو مرتين كل قرن ، ولا يمكن أن يؤديها إلا مصارعان أخوان أو أن لهما دماً مشتركاً ، وهذا ما يسمى عندنا في أسبانيا بالمصارعة على «أل اليمون» . وهذا ما سنقوم به ، أنت وأنا ، في خطاب نلقيه على المحتفلين بنا» . وهذا ما صنعناه ، وما من أحد من الحضور كان يعرف هذا الأسلوب في المصارعة أو المخاطبة . حين وقفنا لكي نشكر مدير النادي على هذا التكريم ، وقفنا معاً في الوقت نفسه كأننا مصارعاً خطاب واحد . بما أن الوليمة قد قدمت على موائد صغيرة منفصلة ، بعضها يبعد عن بعض ، فإن (فيديريكو) كان في طرف وأنا في الطرف الآخر ، ولهذا فإن الناس الجالسين قربي كانوا يشدوني من طرف سترتي معتقدين أنني على خطأ وأن المتكلم الآن هو (فيديريكو) ، والشيء ذاته جرى لفيديريكو في الطرف الآخر من القاعة . شرعنا في الوقت نفسه بالخطاب ، فقلت أنا «سيداتي» وتابع (فيديريكو) «سادتي» وهكذا . أخذنا نتناوب وتتشابك جملنا إلى درجة أن هذه الجمل بدت وكأنها نص وحيد متناسق مترابط إلى أن ختمنا كلامنا . ذات الخطاب كان مخصصاً ومهدياً على (روبين داريو (Ruben Dario)<sup>(٢)</sup> لأننا ، (فيديريكو) وأنا ، كنا نبجل (روبين داريو) باعتباره واحداً من عظماء مبدعي اللغة الشعرية في اللغة الإسبانية ، دون أن نتهم في أننا «محدثون Modernistas»<sup>(٣)</sup> . وإليكم نص الخطاب :

---

(١) ليمون : أصل الكلمة عربي ، الليمون ، وال«اليمون» أي على الليمون ، هو نوع من اللعب يقوم به الأطفال وهم يفتنون ويرددون هذه الكلمة بالتناوب ، وهو كذلك ما يشرحه (نيرودا) والمصارعة أخذته من لعبة الأطفال هذه .

(٢) روبين داريو : هو شاعر من «نيكراغوا» بأمريكا الوسطى (١٨٦٧-١٩١٦) .

(٣) محدثون : من ينتمون إلى مذهب أدبي عرف باسم «الحداثة» Modernismo وقد انتشر هذا المذهب في إسبانيا وأمريكا اللاتينية في مطلع هذا القرن ، وكان (داريو) زعيماً لهذا المذهب .

نيرودا : سيداتي ...

لوركا : ... وسادتي : ثمة في فن مصارعة الشيران طريقة تدعى :  
«المصارعة على «أليمون»» ، في هذه الطريقة يصارع اثنان معاً مختلساً أحدهما  
جسد الآخر ، أخذين بالدثار ذاته .

نيرودا : (فيديريكو) وأنا ، مربوطين بسلك كهربائي ، سوف تتناوب كي نجيبكم  
على هذا الاستقبال الحار .

لوركا : إنها لعادة نبيلة في مثل هذه الندوات أن الشعراء يعرضون كلمتهم الحية ،  
سواء أفضية كانت أم خشبية ، ويحيون بصوتهم الخاص زملاءهم وأصدقاءهم .

نيرودا : لكننا الآن سنبعث في ما بيننا رجلاً ميتاً ، نديماً أرمل ، داكناً في  
دياجير ميتة هي أكبر ميتة ، إنه أرمل الحياة ، ذاك الذي كان في إبانة وزمانه بعلاً  
ماهراً ، سنختبئ تحت ظله المتوقد ، سنكرر اسمه حتى تقفز قدرته من الفناء  
والنسيان .

لوركا : إننا سنروح ، بعد أن نرسل تحياتنا في حنان طائر البطريق إلى الشاعر  
الراقيق (أمادو بيار Amado Villar) ، سنروح نقذف فوق هذا السماط باسم عظيم ،  
متأكدين أنه لا بد من أن تتكسر الأقداح ولا بد من أن تتناثر في الفضاء الشوك  
والسكاكين بحثاً عن العين التي طالما اشتاقت إليها وحتت ، وأنه لا بد أن تلتخ هذا  
السماط ضربة من بحر . نحن سنذكر اسم شاعر أمريكا وأسبانيا : (روبين) ...

نيرودا : (داريو) . لأنه سيداتي ...

لوركا : وسادتي ...

نيرودا : أين هي ، في بوينس ايريس ، ساحة (روبين داريو)؟

لوركا : أين هو تمثال (روبين داريو)؟

نيرودا : لقد كان يعشق الحدائق ، فأين هي حديقة (روبين داريو)؟

لوركا : أين هو حانوت الزهور والورود باسم (روبين داريو)؟

نيرودا : أين هي شجرة التفاح وتفاحات (روبين داريو)؟

لوركا : أين هي اليد القطعاء يد (روبين داريو)؟

نيرودا : أين؟

لوركا : إن (روبين داريو) ينام في مسقط رأسه : «نيكاراغوا» تحت أسده المرمري

الفضيع مثل هذه الأسود التي يضعها الأغنياء عند أبواب منازلهم .

نيرودا : أسد مطمور في مخزن لمن أسس الأسود ، أسد بلا نجوم لمن كان يمنح النجوم!

لوركا : لقد صورّ حفيف الغابة بكلمة نعت واحدة وكان مثل (فراي لويس الغرناطي Fray Luis de Cranada)<sup>(١)</sup> رئيس لغات ، لقد صنع إشارات نجمية بالليمون ورجل الأيل ، والرخويات المليئة بالرعب والأبد ؛ ووضعنا على البحر بزوارق والظلال في بآبى عيوننا ، وشاد منتزهاً هائلاً من جن<sup>(٢)</sup> فوق أكثر مساء رمادي امتلكته السماء ، وحيى نداءً لندّ ربح الجنوب الداكنة ملء رثييه ومدى صدره كأنه شاعر رومانطيكي ، ووضع يداً فوق تاج العمود «الكورنتي»<sup>(٣)</sup> في شك تهكمي حزين من العهود كلها .

نيرودا : إن اسمه لجدير بالذكر في اتجاهاته الجوهريّة ؛ بآلام قلبه الرهيبة ، بارتياحه المتوهج ، بهبوطه إلى متاهات جهنم ، بصعوده إلى قلاع الشهرة ، بنعوته ؛ نعوت شاعر كبير ، منذ أن كان وإلى الأزل ، ولا بد من ذكره .

لوركا : لقد علّم ، كونه شاعراً إسبانياً ، قدماء المعلمين وعلّم الأطفال ، بشعور من العالية والكرم لا نجدهما في الشعراء الحاليين ، لقد علّم (بايه-انكلان Valle Inclán)<sup>(٤)</sup> و(خوان رامون خيمينيث) والأخوين (ماتشادو Machado)<sup>(٥)</sup> ، وكان صوته ماء وملح بارود ، في أخدود اللغة الموقرة . لم يكن للغة

---

(١) فراي لويس الغرناطي : كاتب وشاعر إسباني ولد في غرناطة (١٥٠٤-١٥٨٨) .

(٢) جن : هكذا في الأصل Gin وهي كلمة لا توجد في قاموس المجمع الملكي للغة الإسبانية ، قد تكون ما قيدناه أو خمر «الجن» المعروف أو شيئاً آخر ، وقد سألنا عنها المختصين فلم يهتدوا إلى معناها في هذا النص .

(٣) الكورنتي : نسبة إلى جزيرة «كورينتو» Corinto باليونان .

(٤) بايه-انكلان Ramon del : كاتب إسباني معروف (١٨٦٩-١٩٣٥) .

(٥) الأخوان ماتشادو : هما الشاعران الإسبانيان (مانويل Manuel) (١٨٧٤-١٩٤٧) ، و(أنطونيو An-tonio) (١٨٧٥-١٩٣٩) ، وقد ترجمنا لهما وعنهما في كتابنا المذكور ، ونحن الآن في صدد إعداد كتاب عن (أنطونيو) بتكليف من وزارة الإعلام العراقية . -قيد الطبع- .

الإسبانية منذ زمن (رودريغو كارو) إلى زمن الأخوين (أرخينسولا)<sup>(١)</sup> أو السيد (خوان ارغويخو)<sup>(٢)</sup>، أعياد كلمات، اصطدامات حروف، أضواء وصيغ مثلما كان لها في (روين داريو). لقد تنزه (داريو) من منظر (بيلاثكيث Vilazquez)<sup>(٣)</sup>، ومجمرة (غويا)<sup>(٤)</sup> وكأبة (كبييدو) حتى لون الفلاحات «المايوركيات»<sup>(٥)</sup> التفاحي الخفي، في أرض إسبانيا كما في أرضه نفسها.

نيرودا: لقد أتت به إلى تشيلي دوامة بحر الشمال الساخن فتركه هناك البحر، مهجوراً على الشاطئ القاسي المسنن وكان المحيط يلطمه بأزباد وأجراس، وكانت ريح «الباراايسو» السوداء تملأه بملح ذي جرس ورنين، فلنصنع هذه الليلة تمثاله بالهواء يخترقه الدخان والصوت والظروف والحياة على منوال شاعريته المخترقة بالأحلام والأحان.

لوركا: لكنني أريد أن أضع فوق هذا التمثال الهوائي دمه مثل غصن مرجان يهزه التموج، أعصابه على غمط مطابق لباقية أشعة، رأسه الكوكبي حيث الثلج «الفونغوري»<sup>(٦)</sup> اللجيني النقي يلونه ويدبجه طيران الطيور الصداحة، عينيه الداكنتين الساهمتين الرقراقتين بليون دمعة، وكذلك عيوبه. إن الرفوف قد أكلها اللفت البري، حيث يرن القصب فارغاً من الناي، زجاجات الكونياك فارغة من الشمالة المأساوية، حيث ذوقه السيء اللذيذ وفضلاته المهتكة التي تملأ بالإنسانية جمهرة أشعاره. إن المادة الخصبه لشعره العظيم تظل منتصبه صامدة خارج الأشكال والصيغ والمهاميز.

نيرودا: إننا: (فيديريكو غارثيا لوركا)، إسبانيا، وإيأي، تشيليًا، نوجه أنظار المسؤولية في هذه الليلة الرفاقية نحو هذا الظل العظيم الذي غنى أعلى مما غنينا

(١) الاخوان أرخينسولا: هما الكاتبان الإسبانان (بارتولوميه ليوناردو) (١٥٦٢-١٦٣١) شاعر ومؤرخ، (ولويرثيو ليوناردو) (١٥٥٩-١٦١٣) شاعر وكاتب مسرحي.

(٢) خوان ارغويخو: شاعر إسباني (١٥٦٧-١٦٢٣).

(٣) بيلاثكيث: رسام إسباني شهير (١٥٩٩-١٦٦٠).

(٤) غويا Francisco رسام إسباني معروف (١٧٤٦-١٨٢٨).

(٥) المايوركيات: نسبة إلى جزيرة «مايوركا» وهي جزيرة إسبانية في البحر الأبيض المتوسط.

(٦) الفونغوري: نسبة إلى (غونغورا) وهو شاعر إسباني (١٥٦١-١٦٢٧).

وحيى بصوته العبقري هذه الأرض الأرجنتينية التي نطأها .  
لوركا : إننا ؛ (بابلو نيرودا) ، تشيليا ، وإيبي ، إسبانيا ، قد توافقنا في اللغة وفي  
الشاعر النيكراغوي الأرجنتيني التشيلي الإسباني العظيم : (روبن دارو) .  
نيرودا ولوركا : تكرماً له وتمجيداً نرفع كؤوسنا لنشرب نخبه .

أذكر أنني ذات مرة ، تلقيت من (فيدريكو) دعماً مفاجئاً في مغامرة هزلية -  
فلكية - لقد دعانا إلى عشاء وقضاء ليلة صاحبة مليونير من هؤلاء الذين لا يمكن أن  
تنتج أمثالهم إلا الأرجنتين أو الولايات المتحدة . كان هذا المليونير رجلاً متمرداً  
عصامياً استطاع أن يجمع حظاً من المال عن طريق صحيفته الواسعة الانتشار ذات  
التأثير المهم في الأوساط جميعها ، كانت داره الفسيحة المحاطة بحديقة واسعة تجسد  
أحلام غني جديد يحب التطيل والتزوير . المكتبة ليس فيها إلا الكتب القديمة التي  
كان يشتريها بريقاً من المزايدات التي كان يقيمها من حين إلى حين أصحاب مكتبات  
أوروبيون ، وهذه المكتبة بالإضافة إلى سعتها كانت طافحة عامرة . لكن ما هو أكثر  
فخفخة وفخامة كان سطح قاعة القراءة العظيمة هذه فقد كانت مفروشة كلها بجلود  
نور رطاء ، مخاط بعضها إلى بعض حتى تبدو وكأنها سجادة واحدة ضخمة مديدة .  
عرفت أن لهذا الرجل في أفريقيا وفي آسيا وفي الأمازون أشخاصاً مهمتهم هي حصد  
جلود النمرور الأراقط والأياثل والوعول والقطط الرائعة الخلابة التي كانت تلتصق بقع  
من بعضها تحت قدمي في هذه المكتبة الفاخرة .

هكذا كانت الأشياء عليها في دار الشهير بـ(ناتاليو بوتانا) رأسمالي قدير مسيطر  
على الرأي العام في بونوس آيريس . (فيدريكو) وأنا جلسنا حول المائدة على جانبي  
صاحب الدار المليونير ، وجلست مقابلنا شاعرة طويلة شقراء خفيفة الظل والدم  
صوبت عينيها الخضراوين خلال الأكل إليّ أكثر مما صوبتهما إلى (فيدريكو) . كان  
هذا الأكل مؤلفاً من عجل ضخم حُمل بكامله إلى الجمر والرماد على نعش هائل ،  
وكان المشيعون الذين حملوه على أكتافهم هم أربعة عشر راعياً من رعاة البقر . كانت  
الليلة زرقاء مليئة بالنجوم بشكل غاضب نزق ، وعطر المشوي بجلده ، اختراع رفيع  
للأرجنتينيين ، يمزج بنسيم السهوب ، بأشذاء البرسيم والنعناع على وشوشة آلاف  
الجداجد والاشراغ .

وقفنا بعد الأكل واقتربنا ، أنا و(فيدريكو) الذي كان يبتهج لكل شيء ويبتسم  
لكل شيء ، من الشاعرة ، ثم ابتعدنا سوية نحن الثلاثة باتجاه المسيح المضاء هناك ،



(فيديريكو) كان يسير أمامنا ولم يكن يدع الضحك والكلام ، فقد كان سعيداً وهذا طبعه وهذه عادته فلقد كانت السعادة جلده ، بشرته .  
كان هناك برج عال يطل على المسبح ، وكان بياضه المتلألئ يلمع تحت الأنوار الليلية .

صعدنا حتى أعلى مرأى في البرج .  
هناك بقينا نحن الشعراء الثلاثة ذوي الأساليب المختلفة ، منفصلين عن العالم ، عين المسبح الزرقاء تبرق من تحت ، من بعيد تُسمع أنغام القيثار وأغاني الحفلة ، من فوق يكاد يسك الليل ذو النجوم القريب الداني برؤوسنا ليغرقتنا في أعماقه .  
حضنتُ الفتاة الشاعرة الطويلة الذهبية فعرفت حين قبلتها أنها امرأة مغتلمة ناضجة ومجربة . أمام دهشة (فيديريكو) انبطحنا أرضاً في ذلك المرأى ، وما إن بدأت بتعريتها من ملابسها قطعة قطعة حتى لمحت فوقنا عيني (فيديريكو) مختلتين مضطربتين تنظران وهما لا تصدقان أن ما يجري ، يجري .  
- ابعد عنا ، امشن اذهب من هنا ، خذ بالك من أن يصعد على الدرج أحد من الناس ، صرخت به .

بينما كانت الأضحية إلى السماء ذات النجوم وإلى (افروديت) الليلية تستهلك ، تستنقد ، هناك في أعلى البرج ، ركض (فيديريكو) فرحاً لتأدية مهمته ؛ مهمة قواد وناطور ، لكنه هرول كثيراً وكان حظه سيئاً في هذه المهمة ، فتدحرج عبر درج البرج المعتم فكان علينا أن نخف : أنا وصديقتي ، لمساعدته ولم يكن الأمر سهلاً . وظل (فيديريكو) يعرج خلال خمسة عشر يوماً .

(ميغيل ايرنانديث Miguel Hernandez) (١)؛

لقد مكثت زمناً طويلاً في قنصلية تشيلي ببونس أيريس . ثم نقلت في بداية عام ١٩٣٤ إلى قنصليتنا في برشلونة بأسبانيا . كان السيد (توليو ماكيبيرا) هو رئيسي في عملي الجديد ، إذ إنه كان قنصلاً عاماً لتشيلي في أسبانيا . كان هذا الرجل أحسن موظف من عرفتهم ، تأدية لواجبه ، كان صارماً حازماً مشهوراً بأنه نفور غضوب ولكنه كان يعاملني بشكل ممتاز في طبية وتفهم وود .

(١) ميغيل ايرنانديث : هو شاعر إسباني مشهور (١٩١٠-١٩٤٢) ترجمناه له وعنه في كتابنا المذكور .

لقد اكتشف السيد (توليو) بسرعة أنني كنت أضرب وأطرح في صعوبات كثيرة وتعثرات جمّة ، وأني ما كنت أحسن التقسيم (أبدأ ما استطعت أن أتعلّم هذا التقسيم اللعين) ، عند ذلك قال لي :

- (بابلو) ، يجب أن تعيش في مدريد ، هناك الشعر ، هنا في برشلونة ثمة هذه الضربات والطرحات والتقسيمات الرهيبة التي لا تحبك ، وأنا أستطيع أن أكتفي بنفسي في هذا الأمر .

حين وصلت إلى مدريد وقد غدوت في ليلة وضحاها وبفن الخفة قنصلاً لتشيلى في عاصمة إسبانيا ، تعرفت فيها على أصدقاء (فيديريكو غارثيا لوركا) و(رفائيل البرتي) جميعهم . كانوا كثيرين ، خلال بضعة أيام وإذ بي أصبح شاعراً إسبانياً آخر بين الشعراء الأسبان . طبعاً نحن الأمريكان مختلفون عن الأسبان ، اختلافاً يبرز دائماً في افتخار أو خطأ من قبل هذا الفريق أو ذاك .

كان إسبانيّو جيلي أكثر مودة وأكثر تضامناً وأكثر بهجة مما هم عليه زملائي في أمريكا اللاتينية . تأكدت في الوقت نفسه أننا نحن كنا أكثر عالمية ، أكثر تمثلاً ومعرفة للغات أخرى وثقافات أخرى . فلقد كان عدد الذين يعرفون اللغات الأجنبية من بينهم جد قليل وما كانوا يتكلمون إلا اللغة القشتالية . حين جاء (ديسنوس) و(كريفيل) إلى مدريد ، كان عليّ أن أقوم بالترجمة بينهما وبين الكتاب الأسبان .

كان أحد أصدقاء (فيديريكو) و(رفائيل) هو الشاعر الشاب (ميغيل إيرنانديث) . لقد عرفته حين جاء وهو ينتعل نعلًا مصنوعاً من خيوط القنب ويلبس سروالاً فلاحياً محاكاً من نسيج صفيق ، من أراضي بلده «أوريولية» Orihuela حيث كان فيها راعي عنز . أنا نشرت له في مجلتي «كابايو فيرده» Caballo Verde<sup>(١)</sup> أشعاره فكانت تبهرني بوميضها وبريقها وغزارتها .

كان (ميغيل) فلاحاً جداً إلى درجة أنه كانت تُشتمّ منه رائحة التراب ، له وجه من قطعة سكر ، من كعك ، ومن بطاطا ، يُستخرج في شروشه ويقتلع مع جذوره ويظل محتفظاً بنضارته وروثق ما تحت التراب .

كان يعيش ويكتب في منزلي . لقد أثر به شعري ذو الآفاق الأمريكية والأبعاد الأخرى فراح هذا الشعر يبده ويغيره .

(١) كابايو فيرده : معناها ، الحصان الأخضر .

كان يروي لي حكايا أرضية عن حيوانات وعصافير . كان هذا الكاتب الطالع من الطبيعة مثل حجر لم يُمسّ من قبل في عذرية غابية وقوة حيوية جارفة . كان يحكي لي عن مدى الروعة والتأثير والدهشة حين يضع المرء سمعه فوق بطن العنزة النائمة فيسمع جلبة الحليب الذي يصل إلى الضروع ، الحفيف السري الذي ما استطاع أحد سماعه إلا ذاك الشاعر ؛ شاعر العنز .

كان ، مرات أخرى ، يكلمني عن شدو العنادل . كان الشرق الأسباني ، موطنه ، مليئاً ببيارات البرتقال المزهرة وبالعنادل . بما أنه في بلدي لا يوجد هذا العصفور ، هذا المغني الرفيع فإن الجنون (ميجيل) أحب أن يعطيني أكثر صورة تعبيرية تشكيلية عن حيوية هذا الطائر ، فتسلق شجرة في الشارع حتى بلغ الغصن الأخير ثم أخذ يصفر ويزغرد ويغرد مثل عصافير بلده مسقط رأسه ، مثل العنادل الحبيبة إليه .

لم يكن عنده ما يعتاش به ولذلك بحثت له عن عمل . لقد كان صعباً في تلك الأوقات إيجاد عمل لشاعر في أسبانيا . في النهاية اهتم بالموضوع رجل «فيكونت» كان موظفاً عالياً في وزارة الخارجية وأجابني بأنه موافق على تعيين (ميجيل) في منصب من المناصب ، وأنه أعجب بأشعاره التي قرأها ملياً ، وأن الأمر الآن يتوقف على (ميجيل) إذ إن عليه أن يقول ما هو المنصب الذي يرغب به كي يصدر قرار التعيين تَوْأ . طرباً<sup>(١)</sup> قلت للشاعر :

- (ميجيل) ، ها إن لك مصيراً وحظاً . إن «الفيكونت» سيوظفك . ستصبح موظفاً عالياً . قل لي ما هو العمل الذي ترغب ان تشغله حتى يصدر قرار تعيينك . ميجيل أطرق مفكراً . تغطى وجهه ذو التجعيدات الكثيرة المبكرة عن موسمها ، بغشاء من الترويات والتأملات . مرت الساعات ولم يجيني إلا في المساء فقال لي وعيناه تومضان كمن وجد حلاً لمشاكل حياته :

- ألا يستطيع «الفيكونت» هذا أن يتوسط فيجد لي قطعاً من العنز أراعها هنا قرب مدريد؟

إن ذكرى (ميجيل ايرنانديث) لا يمكن أن تفلت من جذور قلبي . شدو العنادل

---

(١) طربا : في الأصل Alborozado ، وهي مشتقة من الكلمة العربية ، البروز al borozo ، ومن معانيها بالإسبانية ما قيدها .

الشرقية (شرق أسبانيا) وأبراجها النغمية المنصوبة بين العتمة والأزهار<sup>(١)</sup> كانت بالنسبة له حضوراً متسلطاً على عقله وجزءاً من مواد دمه ، من شعره الأرضي الغابي الذي اندغمت فيه رائعات الشرق الأسباني ؛ لونه ، شذاه ، صوته بغزارة الفتوة الرجولية القديرة وأريجها .

لقد كان وجهه وجه إسبانيا ، مصقولاً بالنور ، متجعداً مثل أرض مفلوحة مزروعة بشيء حاسم من قمح ومن تراب . كانت عيناه المتوهجتان في هذا الميسم المحروق المتصلب على الريح<sup>(٢)</sup> ، شعاعين من قوة ومن حنان .

لقد رأيت مواد الشعر نفسها تخرج من كلماته لكنها الآن تنبثق من ضخامة جديدة ، من بريق غابي ، من أعجوبة الدم التليد الذي تمثل في ابن<sup>(٣)</sup> . إنني لأستطيع الجزم في أنني خلال حياتي كلها ؛ حياة شاعر رحالة ، ما رأيت ولم تعطني الحياة فرصة كي أرى ظاهرة شبيهة ، من نبوغ ومعرفة كهربائية شفوية ، بظاهرة (ميغيل إيرنانديث) .

### «كابايوفيرده» (حصان أخضر)؛

كنا نتقابل يومياً في منازل ومقاه على شكل مجموعة واحدة أو مجموعات صغيرة مؤلفة من (فيديريكو) و(ألبرتي) الذي كان يسكن في بيت قريب من بيتي ، في ملحق يطل على دغل من الأشجار ، ندعوه الغيل الضائع ، والرسام (البرتو) وهو خباز من طليطلة كان إذاً معلماً في النحت التجريدي ، و(التولاغيره)<sup>(٤)</sup> ، و(بيرغامين)<sup>(٥)</sup> ، والشاعر العظيم (لويس ثيرنودا)<sup>(٦)</sup> و(بيثينته اليكساندره)<sup>(٧)</sup> شاعر

(١) الأزهار : هكذا في الأصل Azhares ، وهي في الأسبانية زهر البرتقال المنتشر في شرق إسبانيا .

(٢) الريح : إشارة إلى ديوان الشاعر «رياح الشعب» .

(٣) ابن : إشارة إلى ابن الشاعر الوحيد ، وقد أهدى إليه أبوه قصيدة وهو في سجنه ، ترجمناها في كتابنا المذكور (ص١٤٨-١٥١) .

(٤) التولاغيره (مانويل Manuel) : شاعر إسباني (١٩٠٦-١٩٥٩) .

(٥) بيرغامين (خوسيه Jose) : كاتب إسباني ولد عام ١٨٩٧ .

(٦) لويس ثيرنودا : شاعر إسباني (١٩٠٢-١٩٦٣) ترجمناه له وعنه في كتابنا المذكور .

(٧) بيثينته اليكساندره : شاعر إسباني ولد عام ١٨٩٨ في اشبيلية ، ترجمناه له وعنه في كتابنا المذكور ونحن في صدد إعداد كتاب عنه . حاز على جائزة نوبل للآداب لعام ٧٧ . وثلت أنا جائزته عام ٧٨ .

ذي مدى غير محدود ، والمهندس المعماري (لويس لاكاسا) . كنا نرحل من شارع «لا كاستيانا» أو من محلات البيرة عند «البريد» حتى نصل قرب بيتي ، الذي كنا ندعوه بيت الزهور ، في حي «ارغوايس» . كنا نهبط من الطابق الثاني لحافلة كبيرة كان يدعوها مواطني وابن بلدي العظيم (كوتابوس) سيارة إطفاء ، مجموعات صاحبة للأكل والشرب والغناء . أذكر من بين الشباب زملاء في الشعر والسرور (ارتورو سرانو بلاخا)<sup>(١)</sup> ، وهو شاعر ، و(خوسه كاباييرو) وهو رسام ، ذو حذق وبراعة ولطافة ، و(انطونيو اباريثيو)<sup>(٢)</sup> ، الذي وصل من الأندلس<sup>(٣)</sup> مباشرة إلى بيتي ، وآخرين كثيرين لم يعودوا موجودين في المكان أو لم يعودوا موجودين في الحياة بيد أن أخوتهم تنقصني الآن بشكل حي كجزء من جسدي ومادة من روحي .

يا لمريد تلك! كنت أغدو مع (ماروخا مايو) الرسامة الجليقية عبر الأحياء السفلى لمريد باحثين عن محلات بيع الحصر والحلفاء ، باحثين عن أزقة صانعي البراميل ودكاكين بائعي الحبال ، ونبحت ثم نبحت عن مواد إسبانيا الصلبة كلها ، مواد تجدل قلبها ، تفتل قلبها وتشده . إن إسبانيا لصلبة وقديرة تلوّحها الشمس الشاقولية وتُخرج من سهولها وسهوبها الشرر وتبني قلاع نور وسط العجاج . إن أنهار إسبانيا الحقيقية الوحيدة لهم شعراؤها ، (كبييدو) بمياهه الخضراء العميقة ذات الأزياد السوداء ، (كالدرون)<sup>(٤)</sup> بغدرانته التي تغني ومقاطع حروفه التي تشد ، الأخوان (ارخينسولا) الشفافان الفراتان ، (غونغورا) نهر جواهر وحلى .

لقد شاهدت (بايه-انكلان) مرة واحدة فقط ، كان جد نحيل ، بلحيته البيضاء اللامنتهية ، بدالي وكأنه يخرج من بين صفحاته وأوراق كتبه نفسه وقد طُبع بها فجاء بلون صفحة صفراء .

لقد تعرفت على (رامون غوميث دي لا سيرنا)<sup>(٥)</sup> في سردابه بـ«بومبو» ومن بعد رأيته في بيته . لا أستطيع أبداً أن أنسى صوت (رامون) الجمهوري وهو يوجه ويقود ،

(١) ارتورو سرانو بلاخا : شاعر وناقد إسباني ، ولد عام ١٩٠٩ .

(٢) انطونيو اباريثيو : شاعر إسباني هاجر إلى أمريكا عام ١٩٣٦ .

(٣) الأندلس : هو الإقليم الجنوبي من إسبانيا .

(٤) كالدرون de la Barca : كاتب إسباني معروف (١٦٠٠-١٦٨١) .

(٥) رامون غوميث دي لا سيرنا : كاتب إسباني (١٨٨٨-١٩٦٣) .

من مكانه في المقهى ، الحديث والضحك ، الأفكار والدخان . إن (رامون غومث دي لاسيرنا) هو في رأبي أحد عظماء كُتّاب لغتنا ، وعبقريته لها من العظمة الملونة المتنوعة ما لـ (كيبيدو) و(بيكاسو)<sup>(١)</sup> . إن كل صفحة من صفحات (رامون غوميث دي لاسيرنا) تتمعن مثل ابن مقرض في ما هو فيزيائي وفي ما هو ما ورائي ، في الحقيقة وفي الطيف ، وما يعرفه وما كتبه عن إسبانيا لم يقله أحد سواه . لقد كان مجمع عالم سرّي ، قد غير نحو اللغة بيديه الذاتيتين الأصيلتين ، بعد أن ضمخ اللغة بأثار أنامله التي لا أحد يجروء بعد على محوها .

لقد رأيت السيد (أنطونيو ماتشادو) عدة مرات وهو جالس في مقهاه ببدلته السوداء كبذلة كاتب عدل ، صامتاً جداً ورصيناً جداً ، عذباً متجهماً كشجرة عتيقة في إسبانيا . كان يقول عنه الهمزة للهمزة (خوان رامون خيمينيث) ، الطفل الشيطاني القديم للشعر ؛ إن السيد (انطونيو) يغدو دائماً وهو مليء بالرماد ، وأنه ما كان يحمل في جيوبه إلا أعقاب سجائر .

كان (خوان رامون خيمينيث) وهو شاعر ذو لمعان كبير ، هو الذي تكلف بإخباري عن الحسد<sup>(٢)</sup> الإسباني الخرافي مجسداً فيه . لم يكن هذا الشاعر العظيم بحاجة أن يحسد أحداً من الناس أو يغبطه في نعمة ، نظراً لأن إبداعه الشعري كان بريقاً كبيراً بدأ مع غموض القرن العشرين ، كان يعيش مثل ناسك مزيف ، يجرح وهو في مخبئه كل من يظن أنه يغطيه بظلاله أو يقلل من شأنه وشهرته .

كان الشعراء الشبان - (غارثا لوركا) ، (البرتي) ، (خورخه غمين)<sup>(٣)</sup> ، (بيدرو ساليناس)<sup>(٤)</sup> ، مطاردين مضطهدين من قبل هذا (خوان رامون) الشيطان الملتحي الذي كان كل يوم يرسل سهمه وسمه ضد هذا أو ذاك من الشعراء . كان يكتب أسبوعياً ضدي في تعليقات ملتوية حلزونية ينشرها كل يوم أحد في صحيفة (ال سول) El Sol<sup>(٥)</sup> . لكنني آثرت أن أحيا وأن أدعه يحيا ، فما رددت عليه بشيء

(١) بيكاسو Picasso, Pablo : الرسام الإسباني الخالد (١٨٨١-١٩٧٣) .

(٢) الحسد : هو من عيوب الإسبان ، وقد تكلم في ذلك كثير من كتابهم ، وبخاصة (اونا مونو) .

(٣) خورخه غمين : شاعر إسباني ، ولد عام ١٨٩٣ ، ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور .

(٤) بيدرو ساليناس : شاعر إسباني هاجر إلى أمريكا بعد الحرب الأهلية ومات هناك .

(٥) السول : معناها ، الشمس .

ألبنة . لم أحب -ولا أجيب- على التهجمات الأدبية .  
 وصل ذات يوم إلى بيتي الشاعر (مانويل التولاغيره) الذي كان يمتلك مطبعة  
 وكان عنده ميل لأن يكون طابعاً فيها هو بنفسه ، وحكى لي أنه ينوي إصدار مجلة  
 شعرية بديعة تمثل أحسن ما في إسبانيا من شعر وأفضله .  
 - ليس ثمة إلا شخص واحد يمكن له أن يدير هذه المجلة -قال لي- وهذا  
 الشخص هو أنت .

أنا كنت مخترعاً ملحمياً لمجلات سرعان ما تركتها أو تركتني . في عام ١٩٢٥  
 أسست مجلة دعوتها «حصان ذو رحال» ، كان ذلك الزمن هو الزمن الذي كنا نكتب  
 فيه بلا علامات وقف ولا فواصل ولا تنقيط . في ذلك الزمن كان (هوميرتو دياث  
 كاسانوف) يستعمل «سويتر» بعنق سلحفاة ، جرأة كبيرة بالنسبة لشاعر في تلك  
 الفترة ، شعره كان جميلاً ناصعاً وسيبقى هكذا جميلاً ناصعاً إلى الأبد ، (روساميل  
 ديل بايه) كان يرتدي ثوباً أسود وبشكل أسود من القبعة حتى الحذاء كما كان فرضاً  
 على الشعراء إذآك ، أذكر هذين الزميلين بصفتهما مشاركين فعالين . أعرف أنني أنسى  
 آخرين . لكن عدو حصاننا ذلك هز الفترة والعصر هزاً .  
 - أجل ، يا (مانوليتو)<sup>(١)</sup>! إنني أقبل بإدارة المجلة .

كان (مانويل التولاغيره) طابعاً مجيداً ، يده كانتا تغنيان صناديق الحروف  
 بخصائص فياضة رائعة . (مانوليتو) كان يشرف الشعر بشعره وبأيديه الملائكيتين  
 العاملتين . لقد ترجم وطبع في جمال فريد «أدونيس» لـ(شيلي)<sup>(٢)</sup> ، مرثاة لـ(جون  
 كيتس)<sup>(٣)</sup> ، طبع أيضاً «حكاية خينيل La Febula del Ceni» لـ(بيدرو اسبينوسا  
 Pedro Espinosa)<sup>(٤)</sup> ، كم من بريق كانت تودع مقاطع القصيدة المذهبة المطلية  
 بالميناء في تلك المطبعة ذات الطراز الواحد ، الجليلة التي كانت تبرز الكلمات منصهرة  
 من جديد في البوتقة .

أخرجت من مجلتي «حصان أخضر» خمسة أعداد متقنة في جمال لا يشك

(١) مانوليتو Manolito : هو تصغير تحب لمن يسمى Manolo .

(٢) شيلي : الشاعر الإنجليزي المعروف (١٧٩٥-١٨٢١) .

(٣) جون كيتس : الشاعر الإنجليزي المعروف (١٧٩٥-١٨٢١) .

(٤) بيدرو اسبينوسا : شاعر إسباني (١٥٧٨-١٦٥٠) .

فيه ، كان يعجبني أن أرى (مانوليتو) وهو دائم الضحك مفعم الابتسامة وهو يصف الحروف ، يرتبها وهو من بعد يدفع بالقدم الآلة الصغيرة الورقية . أحياناً كان يحمل نسخ الطبعة في عربة طفلته (بالوما)<sup>(١)</sup> . كان المارة يطرونه ويشنون عليه معتقدين أن في العربة الطفلة الصغيرة :

- يا للأب الجدير بالتقدير والاعتبار! كيف يعبر وسط حركة المرور الشيطانية بهذه المخلوقة حانياً على ابنته حادبا!

لقد كانت المخلوقة هي الشعر الذي يمضي في رحلة على ظهر «حصانه الأخضر» . نشرت المجلة أول قصيدة جديدة لـ(ميغيل ايرنانديث) وطبعاً ، قصائد (فيديريكو) و(ثيرونودا) و(اليكساندره) و(غيين) (الطيب : الإسباني)<sup>(٢)</sup> . كان (خوان رامون خيمينيث) المريض باختلال عصابي لاذع ، يستمر في توجيه النبال الأحادية (كل يوم أحد) .

### العنوان لم يعجب (رفائيل البرتي):

لماذا يجب أن يكون الحصان أخضر؟ «حصان أحمر» يجب أن تسمى المجلة . لم أغير لون الحصان ، لكن (رفائيل) وأنا أبداً ما تخصامنا ، لهذا السبب ولا لأي سبب آخر ، ثمة في العالم أماكن للأحصنة جميعها وثمة شعراء من ألوان قوس القزح كلها .

لقد مكث العدد السادس من «حصان أخضر» في شارع «بيرياتو» دون تصفيف ولا تخطيط ولا ترتيب . كان هذا العدد مخصصاً لـ(خوليو ايريرا أي ريسينج Julio Herrera y Reissig)<sup>(٣)</sup> . وكان قد كتب هذه النصوص تكريماً له وتعظيماً الشعراء الإسبان ، فقبعت هناك هذه النصوص بجمالها دون أن تحبل ولا أن تلد . كانت المجلة ستظهر إلى النور يوم التاسع عشر من تموز عام ١٩٣٦ ، لكن في ذلك اليوم امتلاً

---

(١) بالوما : معناها ، حمامة ، وهي الآن صديقة لي وزميلة في جامعة مدريد وفي جمعية الأدب المقارن التي أسست حديثاً .

(٢) (الطيب : الإسباني) : القوسان من المؤلف ، وهو هنا يميز (خورخه غيين) عن الشاعر الكوبي (نيكولاس غيين Nicolas Cuillen) الذي لم تكن علاقته به حسنة .

(٣) خوليو ايريرا أي ريسينج : شاعر من الأوروغواي (١٨٧٥-١٩١٠) .



الشارع باروداً ودخاناً . جنرال غير معروف يدعى (فرانثيسكو فرانكو)<sup>(١)</sup> قد تمرد على الحكم الجمهوري في محميته بأفريقيا .

### الجريمة حدثت في غرناطة:

وأنا أكتب هذه السطور الآن ، تحتفل إسبانيا الرسمية بأعوام كثيرة -جداً- من التمرد والعصيان . يستعرض القائد وهو يرتدي الملابس الذهبية والزرقاء ، محاطاً بالحرس المغربي<sup>(٢)</sup> وعلى جانبيه سفير الولايات المتحدة وسفيراً إنجلترا وآخرون كثيرون ، في هذه اللحظة بشوارع مدريد ، القوات المسلحة ؛ قوات مسلحة مؤلفة في أغلبيتها من شبان فتيان ما عرفوا تلك الحرب ولا شهدوها .

أما أنا فلقد عرفتها ؛ مليوناً من الضحايا الإسبان! مليوناً من المنفيين الإسبان! كان يبدو لي أن هذه الشوكة الدامية لن تمحى أبداً من ضمير الإنسانية . لكن هؤلاء الفتيان الذين يسرون الآن في العرض العسكري أمام الحرس المغربي قد يجهلون حقيقة ذلك التاريخ الفظيع .

كل شيء بدأ بالنسبة لي ليلة التاسع عشر من تموز عام ١٩٣٦ . كان يعمل شاب تشيلي لطيف ومغامر يدعى (بوبي ديغلان) متعهداً في السيرك الكبير «بريش دي مدريد» . صرحت له بتحفظاتي حول جدية هذه الألعاب «الرياضية» فأقنعني أن أذهب إلى السيرك وأن أصطحب (غارثيا لوركا) معي لتأكد من أصالة هذا الاستعراض الجميل . أقنعت (لوركا) واتفقنا أن نتلاقى هناك في ساعة محددة مناسبة . كنا سنقضي فترة ممتعة بالتفرج على تهريجات «ساكن الكهوف المبرقع» و«المارد الحبشي» و«إنسان الغاب الشرير» .

تخلف (فيدريكو) عن الموعد ، كان قد راح ليلقى حثفه ، لم أره من بعد هذا أبداً . مواعده كان مع مرده وسفاحين آخرين . هكذا بدأت حرب إسبانيا التي غيرت شعري ، لقد بدأت بالنسبة لي باختفاء شاعر .

(١) فرانثيسكو فرانكو : كان رئيساً للدولة الإسبانية ولد عام ١٨٩٢ وتوفي عام ١٩٧٥ .

(٢) المغربي Moro : هي كلمة أطلقها الرومان على سكان شمال أفريقيا ، وهي تطلق الآن على العرب جميعاً ، ومن المعروف أن فرقة من الجنود المغاربة قد ساعدت (فرانكو) أثناء الحرب الأهلية ، ثم اتخذ منهم حرسه الخاص حتى عام ١٩٥٨ حين نشب النزاع بين إسبانيا والمغرب على «افني» .

وأبي شاعر! أبداً لم أر شاعراً مثله اجتمعت فيه اللطافة والعبقرية ، القلب المنح والشلال الشفاف . لقد كان (فيديريكو غارثيا لوركا) العبقرى المسرف فى وحيه والهامة ، بؤرة الفرح التى تشيع كالكوكب بسعادة الحياة . كان نابغة وفكها ، كونياً وريفياً ، موسيقياً فذاً ، ممثلاً رائعاً ، فزعاً ومعتقداً بالخرافات ، لامعاً ونبيلاً ، كان خلاصة أعمار إسبانيا وعهودها ، صفوة الازدهار الشعبى ، نتاجاً عربياً-أندلسياً ينير ويفوح مثل أبكة ياسمين على مسرح إسبانيا ، كان كل هذا ، يا ويلتى لقد اختفى ذلك المسرح فأواه وآه .

لقد كان يفتننى (غارثيا لوركا) بقدرته العظيمة على الاستعارات والمجازت ، وكان يهمنى أن أقرأ كل ما كان يكتبه ، وهو كان يطلب منى أن أقرأ له آخر ما كتبه من قصائد ، وحين أكون فى منتصف القراءة يقاطعنى صارخاً : «لا تستمر ، لا تستمر ، إذ إننى أتأثر بك» .

لقد كان (لوركا) فى المسرح وفى السكون ، وسط الجمهرة وفى الانزواء ، يضيف الجمال ويزيد الروعة . أبداً ما رأيت مثله أمودجاً له هذا السحر العظيم فى يديه ، قط ما كان لى أخ أكثر منه بهجة . كان يضحك ، يغنى ، يموسق ، ينغم ، يقفز ، يبذل ، يخترع ، يطلق شرراً . ياله من مسيكن ، فلقد كانت له هبات العالم كلها وكما كان صائغ ذهب ، خلية نحل من الشعر العظيم ، كان يسرف فى نبوغه ، يستنفد قريحته .  
- اصغ - كان يقول لى ، وقد أخذنى من ذراعى - أفترى هذه النافذة؟ أفلا تجدها «شورباتيلية» Chorpate'lico؟

- وماذا تعنى كلمة «شورباتيلية»؟

وأنا كذلك لست أدري ، لكن علينا أن نميز بين ما هو «شورباتيلي» وبين ما ليس هو «شورباتيلياً» وبدون هذا يكون المرء ضائعاً . انظر إلى هذا الكلب ، ياله من «شورباتيلي»!

أو أنه كان يحكى لى أنه ذات مرة دُعى إلى مدرسة للأطفال الصغار فى غرناطة كانت تحتفل بإحياء ذكرى «الكيخوته»<sup>(١)</sup> ، وحين وصل إلى قاعة الاحتفال ، غنى الأطفال جميعهم تحت إدارة المديرية :  
دائماً دائماً سيحتفل

(١) الكيخوته Quijote : هو كتاب (ثيرفانتيس Cervantes) الخالد .

من الأبد إلى الأجل

بهذا الكتاب المفسر المتين

من لدن (ف. رودريغيث مارين)<sup>(١)</sup>.

ألقيت ذات مرة محاضرة عن (غارثيا لوركا)، وذلك بعد عدة سنوات من موته،

فسألني أحد الحاضرين :

- لماذا تقول في قصيدة «نشيد إلى (فيديريكو) إنه من أجله «تدهن المشافي

باللون الأزرق»<sup>(٢)</sup>؟

- انظر، أيها الرفيق -أجبت-، إن توجيه مثل هذه الأسئلة إلى شاعر هو كمن

يسأل النساء عن أعمارهن .

ليس الشعر بمادة ساكنة (استاتيكية) بل هو تيار متدفق إلى حد أنه أحياناً يفلت

من يدي خالق هذا الشعر ذاته . إن مادة الشعر الخام هي مصنوعة من عناصر هي هي

وفي الوقت نفسه ليست إياها، من أشياء موجودة وغير موجودة . على كل حال

سأحاول أن أجيبك في صراحة وصدق : إن اللون الأزرق بالنسبة لي هو أكثر الألوان

جمالاً . إن للون الأزرق انحناء الفضاء الإنساني، مثل القبة السماوية، نحو الحرية

والفرح . إن حضور (فيديريكو)، سحره الشخصي، كانا يفرضان جواً من البهجة

حوله . يريد أن يقول بيت شعري هذا إنه حتى المشافي، حتى حزن المشافي، يمكن

لها أن تستحيل بتأثير من رقيته وفتنته، بغتة، إلى أبنية جميلة زرقاء .

لقد كان ليفيديريكو إدراك مسبق بموته . حين عاد ذات مرة من جولة مسرحية قام

بها، ناداني كي يقص عليّ حادثة غريبة جداً . كان قد وصل مع فناني فرقته «لا

برآكا»<sup>(٣)</sup> إلى قرية نائية جداً في «قشتالة»، فنزلوا في جوار القرية وهناك خيموا . ما

استطاع (فيديريكو) أن ينام تلك الليلة وقد أضناه المسير وكان مرهقاً مشغول البال

بالرحلة وهموم الفرقة ومشاكل السفر . حين تفتق الفجر قليلاً نهض من فراشه وخرج

---

(١) ف. رودريغيث مارين : هو كاتب وعلامة إسباني (١٨٥٥-١٩٤٣)، وحرف الروي في الأصل على

النحو التالي : ١. ب. ١. ب.

(٢) هذه القصيدة تشغل الصفحات (٧٧-٨٣) من كتابنا، بابلو نيرودا، مختارات شعرية، منشورات وزارة

الإعلام العراقية عام ١٩٧٤ .

(٣) لا برآكا : معناها، الكوخ .

كبي يقوم بجولة وحده عبر الحقول المترامية هناك ، كان ثمة برد لا ذع كحد السكين من هذا البرد الذي تُعدّه «قشتالة» للمسافر والعابر والدخيل . كان الضباب ينطلق سحائب سحائب بيضاء تحيل كل شيء إلى مداه الشبحي الرهيب .

ما كان ثمة إلا حاجز شعر كبير من حديد متأكسد ، تماثيل مهشمة ، أعمدة مكسرة فلاقاً فلاقاً بين أوراق الأشجار اليباس الهشة الموشوشة . توقف عند باب نطاق عتيق ، كان المدخل إلى مزرعة فسيحة لدارة إقطاعية . كان الخلاء والخواء والوقت والبرد تجعل الوحشة أكثر تغلغلاً وأشد وهرة . شعر (فيديريكو) على حين غرة أنه جزع هلع فزع مشدود بما سيطلع من ذلك الشروق ، مشدود إلى شيء غامض لا بد أن يحدث ، أن يقع في ذلك القفر . هناك جلس على تاج عمود ساقط .

جاء خروف حولي صغير ليقضم أطراف الأعشاب بين الأطلال والخرائب . كان ظهوره ظهور ملاك صغير من ضباب يؤنس الوحشة ، يسمر عشباً عند انشقاق عمود الصبح ، كان وقوعه وقوع زهرة حنان فوق وحدة الربع اليتيم ، ف شعر الشاعر أن هذا السامر يؤنسه ويصحبه .

فجأة وإذا بقطع من الخنازير يجتاح الحظيرة . اقتربت أربع أو خمس بهائم داكنة اللون ، خنازير شبه متوحشة ذات جوع جموح وأظلاف صلدة .

(فيديريكو) حضر إذًا مشهداً مفزعاً مرعباً ، فلقد انقضت الخنازير على الخروف تعمل فيه أنيابها فقطعته إرباً إرباً والتقمته والشاعر يرتعد خوفاً ، يرفض منه صليده . هذا المشهد الدموي الوحشي جعل (فيديريكو) يأمر فرقة مسرحه المتجول أن تواصل المسير توّاً وأن تفلح راحلة عن ذلك المكان .

كان يقص عليّ (فيديريكو) هذه الحكاية الرهيبة وهو ما يزال ينتفض رعباً ، وذلك قبل ثلاثة أشهر من الحرب الأهلية . أنا أدركت من بعد في وضوح جلي أو غير جلي أن هذه الحادثة ما كانت إلا عرضاً مسبقاً لتمثيلية مصرعه ، إرهاباً لمأساته التي لا تصدق .

إن (فيديريكو غارثيا لوركا) لم يعدم رمياً بالرصاص ، بل اغتيل . بديهياً ما كان يخطر على باب أحد أنهم سيقلتونه ذات يوم ، ما كان أحد يفكر في ذلك . كان هو من بين الشعراء الأسبان الأكثر محبوباً الأكثر معشوقاً الأكثر شبيهاً بطفل لما له من بهجة رائعة . من كان يمكن له أن يظن أن ثمة فوق هذه الأرض ، وبخاصة فوق أرضه ، مرده مسوخاً قادرة على اقتراف جريمة غير مفسرة مثل هذه؟

إن حدوث تلك الجريمة بالنسبة لي كانت أكثر حوادث ذلك الصراع الطويل ألماً . لقد كانت إسبانيا دائماً مسرحاً لمصارعين مجالدين ، أرضاً ذات دماء كثيرة . إن ساحة مصارعة الثيران بقربانها وأناقته القاسية تعيد وقد وشيت وزخرفت بفرقة تمثيل متجولة ، ذاك الصراع القديم بين النور والظل .

إن (فراي لويس دي ليون)<sup>(١)</sup> تسجنه محاكم التفتيش ، (كيبيدو) يموت في زنزانتة ، (كولبوس)<sup>(٢)</sup> يمشي والسلاسل في قدميه ، وكان المشهد الأكبر هو مستودع العظم في «الأسكوريال El Escorial»<sup>(٣)</sup> كما هو عليه الآن «ال نصب التذكاري للشهداء»<sup>(٤)</sup> ، والصليب يعلو فوق مليون من الأموات<sup>(٥)</sup> وفوق ذكريات مظلمة لا حصر لها .

### كتابي عن إسبانيا:

لقد مر الزمن ، بدأنا نخسر الحرب ، لقد صاحب الشعراء الشعب الإسباني في نضاله . (فيدريكو) كان قد اغتيل في غرناطة ، (ميغيل إيرنانديث) تحول من راعي عنز إلى مناضل فعلي ، كان ينشد أشعاره وهو في الزي العسكري في الخط الأول من المعركة النازية ، (مانويل التولاغيره) استمر في مطابعه . نصب مطبعة في حماة المعركة بالجبهة الشرقية ، قرب «خيرونا» في دير قديم . هناك طبع في شكل فريد من نوعه كتابي «إسبانيا في القلب» . أظن أن كتباً قليلة في تاريخ الكتب الغريب ،

(١) فراي لويس دي ليون : شاعر وكاتب إسباني ولد بمدينة «ليون» Le'on (١٥٢٧-١٥٩١) .

(٢) كولبوس Colon Cristobal : مكتشف أمريكا (١٤٥١-١٥٠٦) .

(٣) الأسكوريال : هو دير في بلدة بهذا الاسم تقع على بعد أربعين كيلومتراً من مدريد ، وفيه مكتبة مشهورة .

(٤) النصب التذكاري للشهداء : أقيم هذا النصب تخليداً لشهداء الحرب الأهلية ، وهو قريب من «الأسكوريال» .

(٥) يقتبس (نيرودا) هذا من بيت شعر للوركا ، وقد اقتبسه كذلك الشاعر المصري (عبدالرحمن الأبنودي) في قصيدة يهديها إلى (لوركا) فقمنا بترجمتها إلى الإسبانية ونشرناها في العدد الثاني من مجلة Mundo Arabe في بحث عن الأدب المصري ما بين حرب حزيران ٦٧ وتشيرين الأول ٧٣ . وفوق النصب التذكاري هذا صليب كبير كذلك .

كانت لها مثل ما كان لهذا الديوان من مخاض عجيب ومن مصير غريب .  
فلقد تعلم الجنود في الجبهة صف حروف المطبعة ، لكن كان ينقصهم الورق .  
وجدوا طاحونة قديمة فقرروا صنعه هناك . لقد كان خليطاً غريباً ما صنعه ، بين  
القنابل المتساقطة ، في أجيح المعركة . كانوا يقذفون بكل شيء إلى الطاحونة من راية  
للعدو إلى عباءة مدماة لجندي مغربي . على الرغم من هذه المواد غير المتألفة في ما  
بينها ومع قلة خبرة الأيدي الصانعة فقد خرج الورق بديعاً جداً . إن ما يحفظ حتى  
الآن من نسخ قليلة لهذا الكتاب تُدهش بما فيها من وضوح الحروف والطباعة ذات  
الصناعة السرية . رأيت بعد عدة سنوات نسخة من هذه الطبعة في «واشنطن»  
بمكتبة «الكونغرس» موضوعة في واجهة زجاجية تعرض أكثر الكتب غرابة في زمننا .  
ما إن طُبع ديواني وُجِّد حتى أخذت تتسارع هزيمة الجمهورية . لقد امتلأت  
الدروب التي تؤدي إلى خارج إسبانيا بمئات الآلاف من الرجال الهارين . لقد كان  
هذا النزوح أشد الحوادث إيلاماً في تاريخ إسبانيا .

مع هذه الحشود الراحلة إلى المنفى كان الجنود الذين نجوا من فرقة الجبهة الشرقية  
يضمون مهزومين ، وكان من بينهم (مانويل التولاغيره) وكذلك الجنود الذين صنعوا  
الورق وطبعوا «إسبانيا في القلب» . إن كتابي هذا كان مفخرة هؤلاء الرجال الذين  
طبعوا شعري في تحدٍّ للموت . عرفت أن كثيرين منهم آثروا شحن الأكياس بالنسخ  
المطبوعة على شحنها بأغذيتهم وملابسهم . والأكياس على أكتافهم شرعوا بالمسيرة  
الطويلة باتجاه فرنسا .

لقد هوجم هذا الطابور الهائل من الهارين إلى المنفى بالقنابل التي كانت تُساقطها  
الطائرات مئات من المرات . وهناك وراء الحدود ، في فرنسا ، لاقى من نجا من هؤلاء  
الإسبان معاملة سيئة في المنفى . لقد قدمت النسخ الأخيرة من هذا الكتاب أصحابي  
في إحدى المجامر ، وهكذا فإن هذا الديوان المتوهج ولد ومات في وطيس المعركة .  
لقد بحث (ميغيل إيرنانديث) عن ملجأ في السفارة التشيلية التي كانت خلال  
الحرب قد أوت عدداً هائلاً لا يقل عن أربعة آلاف من أنصار (فرانكو) ، لكن السفير  
في ذلك الوقت وهو (كارلوس مورلا لينش) رفض أن يؤوي الشاعر الكبير في سفارته ،  
مع أنه كان يزعم أنه صديق حميم له . بعد أيام قليلة اعتقل (ميغيل) وسُجن ، ثم  
مات بالسلس في زنزانته بعد ثلاث سنين من الأسر إذ إن العندليب لم يطق أصفاده  
وما قدر على تحمل وطأة أسره .

كان عملي القنصلي قد انتهى ؛ إذ إن الحكومة التشيلية قررت خلعي من منصبى بسبب مشاركتى في الدفاع عن الجمهورية الإسبانية .

### الحرب وباريس؛

وصلنا إلى باريس . استأجرت بمشاركة (رافائيل البرتي) وزوجته (ماريا تيريسا ليون) شقة في حي «كواي دي لـ هورلوخ» وهو حي هادئ ورائع . كنت أرى قبالي «البونت نوف» وتمثال (هنري الرابع) وصيادي الأسماك الذين كانوا منتشرين على ضفتي نهر «السين» . خلف بيتنا كانت ساحة «دوفين» الكثيرة العروق تفوح برائحة كرائحة أوراق الشجر والمطاعم . هناك كان يسكن الكاتب الفرنسي (اليجو كارينتير)<sup>(١)</sup> ، وهو واحد من أكثر الرجال الذين عرفتهم حباً بالحياد ، فلم يكن يجرؤ على إبداء الرأي حول أي شأن من الشؤون ، ولا حتى حول النازيين الذين كانوا يغيرون على باريس مثل الذئب الجائعة .

من على شرفتي ، من جانبها الأيمن ، كنت ألمح ، منحنيماً قليلاً إلى خارج الشرفة ، أبراج «كونسيرجير» الكبيرة ، كانت ساعتها بالنسبة لي هي حد الحي الأخير .

لقد حزت لحسن الحظ صداقة اثنين من أعظم أدباء فرنسا ، فكانا لي صديقين حميمين خلال سنين عديدة ألا وهما (بول إيلوار)<sup>(٢)</sup> و(أراغون)<sup>(٣)</sup> . لقد كانا وما زالوا كلاسيكيين غربيين في الملاحظة الظرافة ذوي أصالة حيوية تضعهما الموضع الأكثر رنيناً في غابة فرنسا . وهما في الوقت نفسه مساهمان حقيقيان راسخان في الأخلاق التاريخية . ثمة قليلون من الأشخاص مختلفون متباينون في ما بينهم كتباين هذين الاثنين واختلافهما . لقد تمتعت باللذة الشعرية في إضاعة الوقت كثيراً من الأحيان مع (بول إيلوار) . أن يُجب الشعراء على الروايز فإنهم سيطلقون السر ويبوحون به ، ليس هناك أجمل ولا أروع من إضاعة الوقت عبثاً . وكل واحد له أسلوبه الخاص به لممارسة هذا الميل القديم . لم أكن أحس مع (بول) لا بالليل ولا بنهار ، كيف يمضيان

(١) اليجو كارينتير : ولد في كوبا عام ١٩٠٤ .

(٢) بول إيلوار : الشاعر الفرنسي المعروف (١٨٩٥-١٩٥٢) .

(٣) Louis ارغون : شاعر المقاومة الفرنسية والروائي المعروف ولد عام ١٨٩٧ .

وينقضان وأبدا ما عرفت إن كان لما كنا نتحدث به أهمية أم ليس له من أهمية البتة . . . (أراغون) هو آلة إلكترونية من الذكاء ، من المعرفة ، من العبقرية اللوغية ، من السرعة البلاغية والفصاحة وسرعة الخاطر . من بيت (إيلوار) كنت دائماً أخرج وأنا أبتسم دون أن أعرف مما أبتسم ، بينما بعد قضاء بضع ساعات مع (أراغون) كنت أخرج منهكاً لأن هذا الإبليل كان يجبرني على التفكير . لقد كان هذان الاثنان صديقين من خلص أصدقائي وكنت مشدوداً إليهما جداً ، ولعل ما كان يعجبني فيهما أكثر من الخصال الحميدة ، هو عظمتها المتنافرة المتناقضة .

### نانكي كونارد Nancy Cunard

قررنا ، أنا و(نانكي كونارد) ، إصدار نشرة شعرية عنونها أنا «شعراء العالم يدافعون عن الشعب الإسباني» .

كان لـ(نانكي) مطبعة صغيرة في دارها الريفية بالريف الفرنسي . لست أذكر الآن اسم هذه الناحية ، لكن كانت بعيدة عن باريس . حين وصلنا إلى دارها كان الوقت ليلاً وكان في السماء قمر منير . كان الثلج والقمر يرتجفان مثل ستارة تحيط بالزرعة . أنا ، متحمساً ، خرجت للتنزه . حين أردت الرجوع كان ندف الثلج يدوم فوق رأسي في عناد وإصرار ، ولذلك أضعت دربي ومشيت نصف ساعة أخبط خبط عشواء في بياض الليل .

كان لـ(نانكي) تجربة في الطبع والطباعة ، عندما كانت صديقة (أراغون) نشرت ترجمة قصيدة Hunting of The Snark وكانت قد ترجمتها هي بالاشتراك مع (أراغون) . في الحقيقة ، هذه القصيدة لـ(لويس كارول)<sup>(١)</sup> هي غير قابلة للترجمة وأعتقد أننا لا يمكن لنا أن نجد عملاً شبيهاً من فسيفساء مجنون إلا في أعمال (غونغورا) .

بدأت أهيء أنماطاً من الحروف وأظن أنه ليس هناك صاف حروف أسوأ مني على الإطلاق . بما أنني كنت أضع أنماط حرف (p) على العكس فإنها كانت تستحيل إلى حرف (d) بسبب غبائي المطبعي . في بيت شعر ظهرت مرتين كلمة Parpados<sup>(٢)</sup>

(١) لويس كارول : هو عالم بالرياضيات وكاتب قصص إنجليزي (١٨٣٢-١٨٩٨) .

(٢) معناها : جفون .



فأصبحت مرتين مكررتين كلمة Dardapos<sup>(١)</sup> . لقد عاقبتني على ذلك (نانكي) فقد كانت تناديني خلال عدة سنين ، دائماً على هذا النحو dardapos وكانت تبدأ رسائلها إليّ من لندن بعبارة My dear dardapo . لكن النشرة خرجت لاثقة جداً واستطعنا أن نطبع ستة أو سبعة أعداد . بالإضافة إلى الشعراء الملتزمين مثل (غوثاليث تونيون) أو (البرتي) أو بعض الشعراء الفرنسيين ، فإننا نشرنا قصائد ملتعبة حماسية وعاطفة لـ (و. هـ. أودين W.H. Auden)<sup>(٢)</sup> ، و(سبيندير) الخ . هؤلاء السادة الإنجليز لن يعرفوا أبداً ما عانتها أصابعي الكسلى وهي تصفّ حروف أشعارهم .

من حين إلى حين كان يصل من إنجلترا شعراء أصدقاء لـ(نانكي) وكل واحد منهم كان يضع زهرة بيضاء في العروة ، وكان هؤلاء كذلك يكتبون قصائد ضد (فرانكو) .

أبداً ما وجد في التاريخ الفكري الثقافي مادة خصبة للشعر والشعراء كما توفرت هذه المادة في الحرب الإسبانية . إن الدم الإسباني كان بمثابة مغناطيس جعل الشعر يهتز خلال فترة عظيمة ولمدة طويلة .

لست أدري إن كانت تلك النشرة قد لاقت نجاحاً أم لم تلق ؛ لأنه في تلك الحقبة انتهت بشكل سيء الحرب الإسبانية لتبدأ بشكل سيء حرب عالمية جديدة ، هذه الأخيرة على الرغم من ضخامتها ، على الرغم من قساوتها التي لا عد لها ولا حصر ، على الرغم من بطولاتها المسفوكة المسفوحة ، لم تستطع أبداً أن تأسر قلب الشعر الجماعي كما أسرته الحرب الأهلية الإسبانية .

كان عليّ أن أعود من أوروبا إلى بلدي ، (نانكي) كذلك سافرت إلى تشيلي يصحبها مصارع ثيران ترك في «سانتياغو» الثيران و(نانكي كونارد) لكي يفتح محلاً لبيع النقانق والسجق والمحاشي الأخرى . لكن صديقتي العزيزة جداً لا تقبل الهزيمة ؛ لأنها من النوع الرفيع جداً فاتخذت لها في تشيلي عشيقةً : شاعراً صعلوكاً ، متشرداً قذر الهندام سيء المظهر ، تشيلياً من أصل «باسكوي» . لم يكن ينقصه النبوغ بل حرم من الأسنان . أضف إلى هذا وذاك أن هذا العاشق المفضل الجديد كان سكيراً

(١) كلمة لا معنى لها .

(٢) أودين : مؤلف مسرحي وشاعر إنجليزي ولد عام ١٩٠٧ .

عريداً، وكان يخشش هذه المرأة الارستوقراطية الإنجليزية بصفعات ليلية معادة مكررة، بما كان يجبرها على الظهور في المجتمع بنظارة غامقة الحدقتين كبيرة الحجم .  
 في الحقيقة كانت هي شخصية من الشخصيات «الكيخوتية» المزممة الشجاعة المثيرة للشجون، وهي كانت أكثر من عرفت منهم غرابة . وهي الوريثة الوحيدة لـ (كوناردينه) وابنة السيدة . . . . . قامت بفضيحة اهتزت لها لندن وذلك في عام ١٩٣٠ ، فقد هربت مع رجل أسود ، كان مؤسقياً (صيغة تحقير) في أول عصابة «جاز» استوردها فندق Savoy ، حين وجدت Lady Cunard السرير خالياً من ابنتها ورسالة منها تخبرها فيها ، مفتخرة مزدهية ، بمصيرها الأسود ، توجهت هذه السيدة النبيلة إلى محامها وقررت حرمانها من الوراثة . هكذا ، إذن من عرفت أنها ، متشردة عبر العالم كانت محرومة من إرث العظمة البريطانية . كان يحضر مجالس السمر التي كانت تقيمها والدة (نانكي) ، (جورج مور)<sup>(١)</sup> ، (كان يشاع بأنه هو الوالد الحقيقي لـ (نانكي) و(السير توماس بيشام)<sup>(٢)</sup> ، والشاب (الدوس هوكسلي)<sup>(٣)</sup> ، وأمير «غاليس» الذي أصبح من بعد دوق «ويندسور»<sup>(٤)</sup> .

(نانكي كونارد) أعادت الصفعة صفتين ، ففي شهر كانون الأول الذي حرمتها فيه أمها من الوراثة ، تلقت الارستوقراطية الإنجليزية جميعها كهدية في عيد الميلاد كتيباً ذا غلاف أحمر معنوناً على النحو التالي :  
 (Negro man and white Lady Ship) لم أر أكثر من هذا الكتيب تقريباً ، يبلغ أحياناً وبالة (سويفت Swift)<sup>(٥)</sup> .

كانت حججها في الدفاع عن السود تنزل كضربات هراوة على رأس Lady Cunard وعلى المجتمع الإنجليزي . أذكر أنها كانت تقول لهم ، وأورد من الذاكرة لأن كلماتها وعباراتها كانت أكثر بلاغة :  
 «إذا حضرتك ، أيتها السيدة البيضاء ، أو بالأحرى جماعتك ، خطفتهم قبيلة

(١) جورج مور : روائي إيرلاندي (١٨٥٢-١٩٣٣) .

(٢) السير توماس بيشام : ضابط إيقاع فرقة موسيقية ، إنجليزي (١٨٧٩-١٩٦١) .

(٣) الدوس هوكسلي : كاتب إنجليزي (١٨٩٤-١٩٦٣) .

(٤) دوق ويندسور : كان ملكاً لإنجلترا باسم (إدوارد الثامن) تنازل عن العرش عام ١٩٣٦ .

(٥) سويفت (جوناثان Jonathan) : كاتب إنجليزي (١٦٦٧-١٧٤٥) .

أكثر قدرة وقوة منهم ثم ضربتهم وقيدتهم بالأصفاد ، ثم نقلتهم بعيداً عن إنجلترا كي يباعوا في سوق النخاسة ، معروضين كنماذج رخيصة للوفاء الإنساني ، مجبرين على الأعمال الشاقة تحت لدغ السياط ، وبتغذية لا تكاد تسد الرمق ، فماذا سيبقى من أبناء جنسك؟ لقد عانى السود من هذا ومن غيره من التعنيف والقساوة . فغدوا بعد قرون عديدة من المعاناة والعذاب أفضل الرياضيين وأقواهم ، وكذلك فقد خلقوا موسيقى أكثر عالمية من غيرها . أفكنتم تستطيعون أيها البيض أن تخرجوا منتصرين من مثل هذا الجور الكثير؟ إذن ، من هم أكبر قيمة ومن هم أجدر؟» .  
وهكذا في ثلاثين صفحة .

لم تستطع (نانكي) أن تعود لتقييم في إنجلترا ، ومنذ هذه اللحظة احتضنت قضية الجنس الأسود الملاحق المضطهد . لقد ذهبت إلى «أديس أبابا» خلال غزو الحبشة . من بعد وصلت إلى الولايات المتحدة كي تتضامن وتدعم الفتيان السود من «سكوتسبورو» الذين اتهموا بفضائح لم يرتكبوها . لقد أدانت العدالة العنصرية في أمريكا الشمالية هؤلاء الفتيان السود وطردت الشرطة الديمقراطية في الولايات المتحدة (نانكي كونارد) خارج الحدود .

في عام ١٩٦٩ ماتت صديقتي (نانكي كونارد) في باريس . في أزمة احتضارها نزلت شبه عارية في مصعد (أسانسور) الفندق ، وهناك خرّت وأغلقت للأبد عينيها السماويتين الجميلتين .

حين ماتت كانت تزن خمسة وثلاثين كيلوغراماً ، ما كانت إلا هيكلًا عظمياً ، كان جسدها قد استهلك ونفذ في معارك خاضتها ضد الظلم في العالم . ما كان ثوابها إلا حياة كانت تغدو في كل يوم أكثر وحدة ووحشة ، وإلا ميتة مهجورة مخدولة .

### مؤتمري في مدريد:

كانت الحرب الأهلية في إسبانيا تمضي من سيء إلى أسوأ ، لكن روح المقاومة لدى الشعب الإسباني كانت قد عدت العالم قاطبة بصمودها وثباتها . كانت تحارب في إسبانيا فرق المتطوعين الأعميين . أنا رأيتهم يأتون إلى مدريد عام ١٩٣٦ موحدني الصفوف . كانوا مجموعة كبيرة من أجناس وأعمار وأشكال وألوان مختلفة . نحن في باريس عام ١٩٣٧ ، والأمر الرئيسي كان هو الإعداد لمؤتمر ضد الفاشية

يحضره الكتاب من أنحاء العالم قاطبة . مؤتمر يُعقد في مدريد . آنذاك بدأت بمعرفة (أراغون) معرفة عميقة . أول ما فاجأني منه كانت قدرته العجيبة على العمل والتنظيم ، يلي الرسائل جميعها ، يصححها ، يذكرها عن ظهر قلب ، لا تفر منه صغيرة ولا كبيرة ، يقضي ساعات متواصلة عاكفاً على العمل في مكتبنا الصغير ، ثم ، كما هو معروف عنه ، يكتب كتباً ضخمة في النثر ، وأما شعره فهو أحسن ما كتب في اللغة الفرنسية . لقد رأيتُه ينقح تجارب ترجمة كتب قام بترجمتها عن الروسية والإنجليزية ، ورأيتُه يعيد صياغة بعض التعبيرات على الورق نفسه ، ورق الملازم المطبوعة ثم يدفع بها ثانية إلى المطبعة . إنه ، في حقيقة الأمر ، لرجل عجيب وقد انتهت إلى عظمته منذ ذلك الحين .

كنت قد نُحيت عن عملي الفصلي وهذا معناه أنني بقيت بلا سينتيم واحد . فعملتُ بأجرة قدرها أربعمائة فرنك فرنسي قديم في جمعية الدفاع عن الثقافة التي كان يديرها (أراغون) . كان لزوجتي (ديليا ديل كاريل Delia del Carril) في ذلك الحين ، ولسنين طويلة ، شهرة بأنها غنية ، مالكة ، مخولة ، لكن ما هو أكيد أنها كانت أكثر فقراً مني . كنا نعيش في فندق صغير مشبوه حيث كان الطابق الأول منه مخصصاً للأزواج العابرين العرضيين ، يدخلون مثني ويخرجون مثني بعد ساعة من الزمن . لقد كنا لا نأكل إلا القليل الزهيد ، وإن أكلنا فأكل سيء وذلك خلال بضعة أشهر . لكن مؤتمر الكتاب المعادين للفاشيستية كان واقعاً وحقيقة . كانت تصل من الجهات جميعها جوابات قيّمة جريئة . وصل جواب إيجابيني من (بيتس Yeats)<sup>(١)</sup> ، شاعر وطني من إيرلاندا . جواب آخر من (سيلما لاغيرلوف Selma Lagerlof)<sup>(٢)</sup> ، كاتبة سويدية كبيرة . لقد كان هذان الكاتبان كبيرين في السن فما كانا يستطيعان السفر إلى مدينة محاصرة مقبلة كما كانت عليه مدريد إذًا ، لكنهما كانا متضامنين في الدفاع عن الجمهورية الإسبانية .

لقد اعتبرت نفسي دوماً شخصية ذات أهمية ضئيلة ، وبخاصة في ما يتعلق بالقضايا العملية والمهام العالية ، لذلك فقد بقيت مشدوهاً ، بقم مفتوح ، حين وصلني أمر مصرفي جاء من الحكومة الإسبانية بمبلغ كبير من المال لتغطية مصاريف

(١) بيتس (ويليم بظلر Williams Butler) : شاعر إيرلاندي (١٨٦٥-١٩٣٩) .

(٢) سيلما لاغيرلوف : كاتبة سويدية (١٨٥٨-١٩٤٠) .

المؤتمر ، بما فيها ثمن تذاكر سفر المؤتمرين والمندوبين القادمين من أقطار أخرى ، وفعلاً فقد بدأ الكتاب يقدون بالعشرات إلى باريس .

لقد حرت ، ماذا أستطيع أن أعمل بهذا المبلغ من المال؟ أثرت أن أحوله إلى المنظمة التي كانت تعد لهذا المؤتمر .

- حتى إنني ما رأيت هذا المبلغ من المال ، ولو قبضته لما كنت قادراً على التصرف به- قلت ذلك لـ(رفائيل البرتي) الذي كان يمر بباريس في تلك الأيام .

- أنت غببي جداً-أجانبني (رافائيل)- تخسر منصبك القنصلي في سبيل إسبانيا ، وتمشي بأحذية مفتقة ولا تخصص لنفسك من هذا المبلغ بضعة آلاف من الفرنكات لمصاريفك الضرورية لقاء عملك .

نظرت إلى حذائي فرأيت أنه فعلاً كان مفتوقاً ، فأهدى إليّ (البرتي) زوجاً من الأحذية الجديدة .

خلال بضع ساعات سننطلق باتجاه مدريد مع بقية المندوبين جميعهم . وجدنا أنفسنا ، أنا وزوجتي (ديليا) و(أمبارو غونثاليث تونيون Amparo Conzalez Tunon) ، أننا مثقلون برسائل الكتاب التي كانت تصلنا من أطراف المعمورة بأسرها ، كانت تأثيرات الخروج من لدن السلطات الفرنسية تسبب لنا مشاكل كثيرة . عملياً سيطرنا على مكتب الشرطة المسؤول عن إعطاء التأشيرات في باريس ، حيث كانت تمتد هناك هذه اللوازم الضرورية التي كانت تسمى بشكل تهكمي Recipisson أحياناً كنا نحن بأنفسنا نطبع على جوازات السفر بهذه الآلة الفرنسية الرفيعة المدعوة Tampon .

- بين نارويجيين وإيطاليين وأرجنتينيين ، وصل من المكسيك الشاعر (أوكتاويو باث)<sup>(١)</sup> ، بعد أن قام بألف مغامرة سفرية هنا وهناك . لقد كنت أشعر بالافتخار لأنني أحضرته للمشاركة في المؤتمر . كان قد نشر ديواناً واحداً ، كنت قد استلمته قبل شهرين من مجيئه ، فبدأ لي أنه يحتوي على نواة حقيقية من الشعر . لم يكن يعرفه في ذلك الوقت أحد غيري .

جاء ليراني صديقي القديم (ثيسار بايخو) بوجه مكفهف ، كان غاضباً لأن زوجته ما أعطيت بطاقة سفر ، وكانت هذه الزوجة ثقيلة لا يتحملها أحد . حصلت بسرعة

(١) أوكتاويو باث : شاعر مكسيكي ولد عام ١٩١٤ .

على بطاقة لها فأخذ البطاقة (بايخو) وخرج شاحب الوجه كما جاء . كان يجري له شيء تأخرت بضعة أشهر في اكتشافه .

«أم الخروف»<sup>(١)</sup> كانت ما يلي : كان قد وصل إلى باريس لحضور المؤتمر ابن بلدي ومواطني (بيشنته هويدوبر)<sup>(٢)</sup> . كنا ، أنا و(هويدوبر) متعادين متخصصين لا يحيي أحدنا الآخر ، فيما كان هو صديقاً حميماً لـ(بايخو) واستغل هذه الأيام في باريس كي يملأ رأس صاحبي الساذج بمفتريات عني . ثم توضح كل شيء بعد حديث صاحب أليم جرى بيني وبين (بايخو) .

لم يكن قد خرج من قبل قطار مكتظ بالكتاب من محطات باريس كما كان عليه ذلك القطار الذي أقلنا إلى مدريد . عبر بمرات القطار كنا نتعارف أو نحلّ التعارف وننتهي إلى خصام . ذهب بعضهم إلى النوم ، آخرون كانوا يدخلون تباعاً بشكل لا ينتهي . لقد كانت إسبانيا بالنسبة للكثيرين منهم لغزاً وكانت وحي تلك الفترة من التاريخ .

لقد تنحى (بايخو) و(هويدوبر) ناحية من القطار . توقف (اندرية مالرو)<sup>(٣)</sup> لحظة للحديث معي في تشنجات وجهه ومشمعه على كتفه . كان هذه المرة يسافر وحده إذ إنني قبل كنت أراه دائماً مع الطيار (كورتون-موغلينبير) الذي كان المنفذ الرئيسي لمغامراته عبر سماوات إسبانيا : مدن ضائعة يكشفها ويغير عليها بطائراته أو يزود الجمهورية بالطائرات .

أذكر أن القطار توقف لزمان طويل في الحدود . يبدو أن (هويدوبر) أضاع حقيقته . بما أن الناس جميعهم كانوا مشغولين أو منشغلين بسبب تأخر القطار فما كان أحد منهم ليهتم به وبحقيقته . فجاء هذا الشاعر التشيلي بأسوأ اللحظات يبحث عن حقيقته ، وتوجه نحو رئيس الحملة (مالرو) الذي كان عصبياً بطبعه ، وكان قد وصل إلى الحد الأقصى من الإرهاق بسبب كومة المشاكل الملقاة على عاتقه ، ربما لم يكن يعرف (هويدوبر) من قبل لا اسماً ولا شكلاً ، وحين اقترب منه وهو على الرصيف لإخباره بفقدان حقيقته ، فقد (مالرو) ما تبقى له من الصبر وضاق ذرعاً به ، فصاح -

---

(١) أم الخروف : تعبير إسباني بمعنى مفتاح السر .

(٢) بيشنته هويدوبرو : شاعر من تشيلي (١٨٩٣-١٩٤٨) .

(٣) أندريه مالرو : شاعر وسياسي فرنسي ولد عام ١٩٠١ .

هذا ما سمعته- . «حتام تزعج حضرتك الناس كلهم؟ اذهب» je vous emmerde (١) .  
شاهدت صدفة هذا الحادث الذي أذلّ غرور الشاعر التشيلي وزهوه . كنت أفضل  
لو أنني كنت على بعد ألف كيلومتر من هناك في تلك اللحظة ، لكن الحياة غريبة  
الأطوار تأتي بالمفارقات والصدف العجيبة . لقد كنت أنا الشخص الوحيد الذي كان  
يكرهه ويمقتّه (هويدوبرو) بمن كانوا يسافرون في القطار وكان من نصيبي أنا ، وثلاثة  
الأثافي أنني تشيلي مثله ، أن أكون الشاهد الوحيد على الإهانة التي لحقت في تلك  
الحادثة .

حين تابع القطار السفر وقد حل الليل وبدأنا نتدحرج على أرض إسبانيا ، فكرت  
في (هويدوبرو) ، في حقيبتة ، وباللحظة الحرجة التي عانى منها ، عند ذلك التفتُّ  
إلى بعض الكتاب الشبان من جمهوريات منتصف أمريكا الذين وفدوا إلى غرفتي  
في القطار وقلت لهم :

- رجاء ، اذهبوا لتروا (هويدوبرو) فقد يكون وحيداً حزيناً خائباً . ذهبوا ليعودوا  
بعد عشرين دقيقة وهم فكهون يستهزئون منه إذ إنه قال لهم : «لا تكلموني عن  
الحقيرة الضائعة ، فليس لهذا أهمية ، بل ما هو خطير جداً أنه بينما جامعات  
«تشيكاجو» و«برلين» و«كوبنهاغن» و«براغ» تمنحني ألقاباً تشريفية ، أجد أن جامعات  
بلادكم الصغيرة القليلة الأهمية هي الوحيدة التي تصرّ على تجاهلي وحتى إنها لم  
تدعني لإلقاء محاضرات حول مذهب الخلق الإبداعي» .

أخيراً وصلنا إلى مدريد ، فيما كان المؤتمرون الزوار يتلقون الترحاب ويوزعون على  
الفنادق ، أردت أن أرى من جديد داري التي كنت قد تركتها مغلقة منذ حوالي عام ،  
كتبي وأشياتي ، فقد تركت فيها كل حاجاتي . وكانت هذه الدار عبارة عن شقة في  
بناية مسماة «دار الزهور» عند مدخل المدينة الجامعية . كانت الفرق المتقدمة من  
قوات (فرانكو) تتأخم هذه المنطقة ، وكانت تتقدم أحياناً فتستولي عليها إلى درجة أن  
المنازل الكائنة هنا غيرت عدة مرات أصحابها ما بين الجمهوريين والفرانكويين .

توصل (ميغيل ايرنانديث) وكان يرتدي زي المحاربين المتطوعين (ميليشياً)  
ويتنكب بندقيته ، إلى الحصول على عربة لشحن كتبي وما كان يهمني أخذه من  
أثاث بيتي .

(١) الكلام بالفرنسية : معناه «كل خرا» .

صعدنا إلى الطابق الخامس وفتحنا في شغف باب الشقة . كانت طلقات الرشاشات قد كسرت النوافذ وخرقت أجزاء من الحيطان ، والكتب كانت قد انهارت من على الرفوف ، وكان من المستحيل أن نرشد بين الأنقاض إلى ما كنا نريد حمله . على كل حال بحثت عن بعض الأغراض في تخبط . والغريب في الأمر أن الأثواب والملابس والحاجات التافهة أو غير المفيدة كانت قد اختفت ، فقد اختطفها الجنود الغزاة أو المدافعون ، فيما كانت الحلل والقدور وآلة الخياطة والصحون والأواني غارقة هناك في الفوضى ولكنها ناجية بنفسها سليمة ، لم يبق أثر لبدلتي القنصلية الرسمية ولا أفنعتي «البولونيزية» ولا سكاكيني الشرقية .

- إن الحرب لهي كثيرة الأهواء غريبة الأطوار كالأحلام ، يا (ميغيل) .  
وجد (ميغيل) هناك بين الأوراق المبعثرة على الأرض بعض النسخ الأصلية من مؤلفاتي . إن تلك الفوضى كانت باباً نهائياً يغلق في حياتي . قلت لـ(ميغيل) :  
- لا أريد أن أخذ شيئاً .  
- لا شيء؟ ، ولو كان كتاباً؟  
- ولو كان كتاباً - أجبته .  
وعدنا بالعربة فارغة .

### (الأقنعة والحرب)

... منزلي أمسى بين حجري الرحي ... من هناك يتقدم المغاربة والإيطاليون ... من هنا يتقدم أو يتقهقر أو يصمد المدافعون عن مدريد ... المدفعية يقنابلها اخترقت الجدران ... النوافذ تهشمت دقاً فتاتاً ... عثرت على بقايا الرصاص بين كتبي الطريحة الأرض ... لكن أفنعتي ، أين أفنعتي؟ ، لقد ولت ... أفنعتي التي التقطتها في «سيام» في «بالي» في «سوماطرا» ، في أرخبيل «الملايو» ، في «باندونغ» ... مذهبة ، رمادية اللون ، بلون الطماطم ، بحواجب فضية ، زرقاء ، جهنمية ، متجهمة ، مقطبة . أفنعتي كانت الذكرى الوحيدة لذلك الشرق الأول الذي وصلت إليه متوحداً فاستقبلني بمسكه : أريج الشاي ، رائحة الروث ، شميم الأفيون ، فوح العرق ، شذى الياسمين ، عبير النعناع ، عطر الفاكهة العفنة في الشارع ... إن تلك الأقنعة لهي ذكرى الرقصات النقية جداً ، ذكرى التجليات أمام المعابد ... إنها لقطرات خشبية ملونة بالأساطير ، لبقايا معتقدات مزدهرة ترسم في



الهواء أحلاماً ، عادات ، شياطين ، غرائب لم تعرفها من قبل طبيعتي الأمريكية . . .  
 وإذن . . . ربما أن المحاربين وضعوها على وجوههم وأطلّوا من نوافذ منزلي كي يربعوا بها  
 المغاربة<sup>(١)</sup> ، بين طلقة وطلقة . . . كثير منها غدا مزقاً أرباً مدماة ، هناك عند  
 النوافذ . . . بعضها تدرج من طابقي السابع<sup>(٢)</sup> وقد اقتلعتة طلقة من الطلقات . . .  
 هناك قبالتها تمركزت قوات (فرانكو) المتقدمة . . . تجاهها كانت تزعق شرذمة المرتزقة  
 الأميين . . . من بيتي ثلاثون قناعاً لآلهة من آسيا شرعت بالرقصة الأخيرة ، رقصة  
 المنية . . . كانت لحظة هدنة . . . كانت المواقع قد تبدلت . . . جلست أنظر إلى  
 النفايات ، إلى لطخات الدم في الحصيرة . . . ثم سرحت بنظري من خلال النوافذ  
 الجديدة ، أي من خلال الفجوات التي أحدثها الرشاش ، نحو البعد ، نحو المدى ، إلى  
 ما وراء المدينة الجامعية ، نحو السهول ، نحو القلاع القديمة . . . بدت لي فارغة ،  
 إسبانيا . . . بدالي أن أواخر ضيوفني قد رحلوا إلى الأبد . . . بأقنعة أو بلا أقنعة ، بين  
 الطلقات والأنشيد الحماسية ، بين الفرحة المجنون ، بين الدفاع غير المصدق . . . بين  
 المنية أو الحياة ، ذلك كان قد انتهى بالنسبة لي . . . لقد كان السكون الكبير غب  
 الوليمة . . . بعد الحفلة الأخيرة . . . بشكل من الأشكال ، مع الأقنعة التي رحلت ،  
 مع الأقنعة التي سقطت ، مع الجنود الذين ما دعوتهم أبداً إلى بيتي ، رحلت عني  
 كذلك إسبانيا . . .

(١) كان على شاعر عظيم مثل (نيرودا) أن يميز بين فرقة من المرتزقة وبين شعب بكامله ، وكان عليه ألا

يتماذى في هذه الكراهية تجاه المغاربة .

(٢) كان من قبل قد ذكر أنه الخامس ولعله هنا يقول السابع على سبيل المبالغة والمجاز .



## الفصل السادس خرجت أبحث عن شهداء

### اخترت طريقاً؛

مع أنني استلمت هوية الانتساب في وقت متأخر بتشيلي ، حين انخرطت رسمياً في الحزب ، فإنني أعتقد أنني حددت نفسي أمام نفسي شيوعياً خلال الحرب الأهلية في إسبانيا . إن أشياء كثيرة ساهمت في قناعاتي العميقة .

كان زميلي المتناقض ، الشاعر «النيثشي»<sup>(١)</sup> (ليون فيليب Le'on Filipe)<sup>(٢)</sup> رجلاً رائعاً حقاً . أحسن ما فيه من جاذبية كان حسه الفوضوي<sup>(٣)</sup> بالعصيان وبالتمرد التهكمي . ففي أوج الحرب الأهلية تبنى بسهولة المذهب الفوضوي ذا الجاذبية الذي كان يتمثل في «اتحاد الفوضويين الأيبيرين»<sup>(٤)</sup> . كان يخفّ دوماً إلى الجبهات الفوضوية حيث يعرض أفكاره وينشد قصائده المعادية للدين . كانت هذه القصائد تعكس عقيدة تدعو على إلغاء السلطة بشكل غامض ، وتعادي الكنيسة ورجالها بتحريض وكفر وإلحاد . كلماته كانت تأسر المجموعات الفوضوية التي كان يتضاعف عدد أفرادها بشكل هائل يوماً بعد يوم في مدريد ، بينما سكان المدينة كانوا ينطلقون إلى جبهة المعركة التي كانت تقترب أكثر فأكثر منها . كان الفوضويون قد دهنوا الحافلات والسيارات نصفها أحمر والنصف الآخر أصفر . كانوا يبهرجون بلبد شعرهم ولحاهم ، وأطواقهم وأساورهم من الرصاصات ، مهرجان إسبانيا المحتضر . لقد رأيت العديد منهم وهم ينتعلون أحذية رمزية نصفها من جلد أحمر والنصف الآخر من جلد أسود ، ولا بد أن صنعها قد كلف الإسكافية جهداً جهيداً . ولا يظن أحد أنهم

(١) النيثشي : نسبة إلى (نيثشه) الفيلسوف الألماني المشهور .

(٢) ليون فيليب : شاعر إسباني مات في المكسيك (١٨٨٤-١٩٦٨) ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور .

(٣) الفوضوي : نسبة إلى المذهب الفوضوي وليس إلى الفوضى .

(٤) اتحاد الفوضويين الأيبيرين Federacion Anarquista Iberica ويعرف بحروفه الأولى .

كانوا عبارة عن فرقة تمثيلية متجولة غير قادرة على الدفاع؛ إذ إن كل واحد منهم كان يحمل سكاكين، مسدسات ضخمة، بنادق سريعة الطلقات وبنادق خفيفة الخ. كانوا يتربعون عند مداخل أبواب الأبنية الرئيسية، فرقاً فرقاً، بعضهم كان يدخل، الآخر يبصق، وهم يستعرضون بنادقهم ويهددون بأسلحتهم. كان همهم الرئيسي هو قبض إيرادات من المستأجرين الفزعين أو بالأحرى جعل هؤلاء الناس يتركون لهم بحض إرادتهم حلبيهم، خواتمهم وساعاتهم.

كان (ليون فيليب) يعود من إحدى محاضراته الفوضوية وقد حل الليل حين التقينا في مقهى يقع بزواية العمارة التي كنت أسكن فيها. كان الشاعر يرتدي برودة إسبانية تليق به في لحيته الناصرية<sup>(١)</sup>. حين خرجنا من المقهى لمس بأحد هذاب بردته الرومانطيكية الأنيقة أحد رفاقه الحساسين. لا أعرف في ما إذا كانت الواجهة ومظهر النبيل العريق الذي كان يبدو على (ليون فيليب) هما ما أزعج ذلك «البطل» من الطليعة المناضلة، لكن ما هو أكيد أننا اعتقلنا على بعد بضعة خطوات من مكان ذلك الحادث، من لدن مجموعة من الفوضويين يتراهم ذلك الذي أهين عند مدخل المقهى. أرادوا التحقق من أوراقتنا وبعد أن ألقوا عليها نظرة قادوا الشاعر «الليوني»<sup>(٢)</sup> وهو محاط من جانبيه برجلين مسلحين.

بينما كانوا يأخذونه إلى ساحة الرمي القريبة من داري، والتي كانت فرقعتها الليلية لا تدعني أنام وذلك في مناسبات عديدة، رأيت اثنين من المليشيا المسلحة وهما يعودان من الجبهة، شرحت لهما الأمر وعرفتهما من هو (ليون فيليب) وأنبأتهما بالخطر الذي ينتظره، فاستطعت بفضلهما أن أعتق صديقي.

إن هذا الجو من البلبلة العقائدية ومن التهديم الرخيص، جعلني أفكر كثيراً. لقد عرفت مآثر رجل فوضوي نمساوي عجوز حسير البصر، وبلبدة طويلة شقراء تخصص في القيام بـ«تنزهات»، وكون فرقة أسماها «شروق» لأنها كانت تفعل ما تفعل عند شروق الشمس.

- ألم تشعر حضرته مرة بألم في الرأس؟ كان يسأل الضحية.

- بلى، طبعاً، بعض المرات.

(١) الناصرية: نسبة إلى مدينة الناصرة بفلسطين، أي أنها تشبه لحية المسيح الناصري.

(٢) الليوني: نسبة إلى مدينة الشاعر Le'on، وهي مدينة بشمال إسبانيا، ومعنى الاسم: أسد.

- إذن سأعطيك مسكناً للآلام - كان يقول لهذه الضحية ذلك الفوضوي النمساوي ، فيصوب المسدس إلى جبين الضحية ويطلق النار .  
 فيما كانت هذه العصابات تتكاثر في ليل مدريد الأعشى ، كان الشيوعيون هم القوة الوحيدة المنظمة التي خلقت جيشاً لمجابهة الألمان والإيطاليين والمغاربة ورجال الكتائب<sup>(١)</sup> «الفلانج» (Falangistas) وكانوا في الوقت نفسه القوة المعنوية التي تنمي المقاومة والنضال ضد الفاشية .  
 ببساطة : كان عليّ أن أختار طريقاً . وهذا ما فعلته أنا في تلكم الأيام ولم أندم أبداً على قرار اتخذته بين دياجير تلك الفترة المأساوية وأملها .

### (رفائيل البرتي):

إن الشعر لهو دوماً فعل سلم . إن الشاعر يولد من السلام كما يولد الخبز من الدقيق .  
 إن المُشعلين ، والحريبين ، والذئاب ، يبحثون عن الشاعر ، لخرقه ، لقتله ، لعضّه ، عرييد يجيد الضرب بالسيف ترك (بوشكين)<sup>(٢)</sup> جريحاً جرح موت بين أشجار غابة مظلمة . أحصنة عدت محمولة فوق جثة (بيتوفي)<sup>(٣)</sup> ، مصارعاً ضد الحرب مات (بايرون)<sup>(٤)</sup> في اليونان ، الفاشيون الأسبان بدأوا الحرب في أسبانيا باغتيال أحسن شعرائها .  
 إن (رفائيل البرتي) يمكن أن ندعوه الناجي من الموت . ألف ميتة كانت قد أعدت له ، واحدة في غرناطة كذلك ، ميتة أخرى كانت تنتظره في «باداخوث»<sup>(٥)</sup> ، كانوا يبحثون عنه في «اشبيلية» المفعمة بالشمس أو في وطنه الصغير «كاديث»<sup>(٦)</sup> أو

(١) الكتائب Falange : هو حزب أسسه (خوسه أنطونيو بريمو دي ريبيرا) (١٩٠٣-١٩٣٦) .

(٢) بوشكين Aleksandr : الشاعر والروائي الروسي الشهير جداً (١٧٩٩-١٨٣٧) .

(٣) بيتوفي Sandor : شاعر من هونغاريا (١٨٢٢-١٨٤٩) .

(٤) بايرون : شاعر إنجليزي معروف (١٧٨٨-١٨٢٤) .

(٥) باداخوث : هي مدينة تقع في جنوب غرب مدريد ، كان العرب يدعونها ، بطليوس .

(٦) كاديث : هي مدينة أسسها الفينيقيون على الساحل الجنوبي من إسبانيا ، وكان العرب يسمونها

في «بورتو دي سانتا ماريا»<sup>(١)</sup>، يبحثون عنه في كل مكان لظنه بالخناجر، كي يقتلوا فيه الشعر، مرة أخرى .

لكن الشعر لم يمت، إن للشعر لأرواح القطة السبع . قد يزعجون، قد يجرجرون، قد ينفون، قد يحبسونه، قد يفرغون فيه أربع طلاقات، لكن الشعر يخرج من هذه الحوادث العرضية بوجه نقي وبابتسامة من أرز .

لقد عرفت (البرتي) في شوارع مدريد بقميص أزرق وربطة عنق ملونة، عرفته مناضلاً في صفوف الشعب حين لم يكن هناك شعراء كثر يؤدون هذه المهمة الصعبة ويقومون بهذا المصير الخطير . لم تكن قد قرعت الأجراس<sup>(٢)</sup> في إسبانيا ولم يكن قد دق ناقوس الخطر بعد، لكنه كان يعرف ما يمكن أن يأتي به الغد . إنه لرجل من الجنوب، ولد إزاء البحر المديوي، قرب خوابي النبيذ الأصفر<sup>(٣)</sup> كالزيرجد . لقد جبل قلبه من نار الأعناب من هدير الموج . لقد كان شاعراً منذ قلامة أظفاره مع أنه ما كان يدري بهذه المهابة المختزنة آنذاك<sup>(٤)</sup>، ثم عرف هو، ثم عرفته إسبانيا، ثم عرفه العالم كل العالم شاعراً كبيراً .

إن (رفائيل البرتي) يعني بالنسبة لنا نحن الذين كان لنا الحظ في التكلم بالإسبانية وفي معرفة هذه اللغة القشتالية، بريق الشعر في هذه اللغة . ليس هو بشاعر فطري مطبوع فحسب، بل هو كذلك عالم بالصيغ الشعرية . إن لشعره، كما الوردة الحمراء المزدهرة في الشتاء بأعجوبة، ندفة ثلج من (غونغورا)، جذراً من (خورخه مانريكه)<sup>(٥)</sup>، تويجا من (غارثيلاسو)<sup>(٦)</sup>، شذى متشحاً بالحداد من

(١) بورتو دي سانتا ماريا: هي قرية على الساحل قرب «قادش» حيث ولد (البرتي) .

(٢) إشارة إلى رواية (همنفواي) المشهورة، لمن تفرع الأجراس؟

(٣) تشتهر «قادش» وضواحيها بهذا النوع من النبيذ المسمى «خيريث» باسم البلدة التي كان العرب يدعونها، شريش، ولهذا فإن هذا النبيذ يعرف عالمياً، وبخاصة في إنجلترا باسم «شريش» (Cherry) .

(٤) إشارة إلى أن (البرتي) بدأ رساماً إلى أن شرع في كتابة الشعر فربح الجائزة القومية للآداب عام ١٩٢٥ عن ديوانه «بحار في البر» .

(٥) خورخه مانريكه: شاعر إسباني (١٤٤٠-١٤٩٧) .

(٦) غارثيلاسو: شاعر إسباني (١٥٠١-١٥٣٦) .

(غوستافو أدولفو بيكر)<sup>(١)</sup> أي أنه في كأسه الشفافة ، تنصهر أغاني إسبانيا الجهورية . لقد أضاعت هذه الوردة الحمراء في إسبانيا درب من حاولوا منع الفاشية والوقوف في وجهها . إن العالم كله ليعرف هذا التاريخ البطولي المأساوي . لم يكن (البرتي) يكتب القصائد الملحمية فحسب ، بل كان ينشدها في الثكنات وفي الجبهات ، وهو الذي ابتدع حرب العصابات الشعرية ، اخترع الحرب الشعرية ضد الحرب ، خلق الأغاني التي راشت ورفرفت تحت قصف المدافع ، ثم راحت من بعد تحلق في كل سماء وفوق كل أرض .

إن هذا الشاعر ذا النسب العريق النقي الأصيل علم العالم كيف يكون الشعر نفعاً عاماً وخدمة اجتماعية في لحظة حاسمة حرجة من تاريخ العالم . وهو في هذا يشبه (ماياكوفيسكي (Maiakovski) . إن هذا الانتفاع الشعبي بالشعر يعتمد على القوة ، على الخنان ، على الفرح ، على الجوهر الحقيقي . إن الشعر من غير هذه المزية يرن ولكنه لا يغني .

### نازيون في تشيلي؛

لقد عدت مرة أخرى في الدرجة الثالثة بالباخرة إلى تشيلي . مع أنه ليس لنا في أمريكا اللاتينية ظاهرة أن يغدو كتاب بارزون مثل (ثيلينه Ce'lie)<sup>(٢)</sup> ، (دريو لا روشيل) ، (عزرا باوند) خائنين ، في خدمة الفاشية ، فقد كان لدينا تيار قوي منتعش بشكل طبيعي أو اصطناعي بالتيار الهتلري . ففي الجهات جميعها كانت تتألف مجموعات صغيرة تقف لترفع الذراع بالتحية الفاشية ، متنكرة بأنها حرس وطني . ولم يكن الأمر مقتصراً على هذه المجموعات الصغيرة فحسب ، بل إن الطبقة الحاكمة الإقطاعية في هذه القارة كانت تتعاطف (وما زالت) مع كل من يعمل ضد الشيوعية ، سواء أكان ألمانياً أو من اليسار المتطرف في صفوف (كربويا) ، أضف إلى هذا ، أن مجموعات كبيرة من سلالات ألمانية الأصل كانت تستوطن مناطق معينة في تشيلي والبرازيل والمكسيك وتشكل فيها الأكثرية من السكان . ولقد أسرت هذه

(١) غوستافو أدولفو بيكر : شاعر إسباني رومانطيكي (١٨٣٦-١٨٧٠) .

(٢) ثيلينه Louis Ferdinand : طبيب وكاتب فرنسي (١٨٩٤-١٩٦١) .

الفئات جميعها وحلبت بطلوع (هتلر) النيزكي وحكايا العظمة الألمانية الخرافية الألفية وعودتها إلى الدنيا .

في تلكم الأيام من المجد المدوّي والنصر الصاحب للهتلرية ، كان عليّ أن أعبر أكثر من مرة شارعاً في قرية أو مدينة بجنوب تشيلي تحت غابات حقيقية من رايات ذات صلبان معقوفة . في إحدى المناسبات ، بإحدى القرى الصغيرة الجنوبية ، رأيتني مضطراً لاستعمال الهاتف الوحيد في ذلك المكان ، فكان عليّ أن أحنّي رأسي على غير إرادتي إجلالاً للفوهرر ، إذ إن صاحب ذلك المحل الألماني كان قد «تعبقر» فوضع آلة الهاتف في هيئة تجبر المرء على أن يبقى في حالة استعداد وذراعه مرفوعة نحو الأعلى باتجاه صورة لهتلر كانت هناك معلقة .

لقد كنت مديراً لمجلة «أورورا دي تشيلي»<sup>(١)</sup> : المدفعية الأدبية قاطبة (لم يكن لدينا من مدفعية غير هذه المدفعية) أخذت تشن طلقاتها ضد النازيين الذين كانوا يستولون على البلدان بلداً إثر بلد فيبتلعون ما كانوا يكتسحون . في تلك الأوقات أهدى السفير الهتلري بتشيلي كتباً مما يدعى بالثقافة الألمانية الحديثة ، إلى المكتبة الوطنية ، فأجبنا على هذا بتوجيه نداء إلى قرائنا نطلب منهم أن يرسلوا لنا الكتب الحقيقية الألمانية لألمانيا الحقيقية التي كان (هتلر) قد منع تداولها بين الناس ، فكان هذا تجربة عظيمة ، إذ إننا استلمنا أسفاطاً كثيرة محزومة ومرتبّة بشكل صحيح جيّد لم تكن تحتوي إلا على نجاسات وأقذار . تلقيت أنا تهديدات بأنني لا بد مقتول ، استلمنا كذلك مجموعات كاملة من صحيفة «ستورنير» وكانت صحيفة مختصة بوصف العهارة والبغاء ، سادية وضد السامية ، كان يرأس تحريرها (جوليوس ستريشار)<sup>(٢)</sup> الذي أعدم من بعد في «نوريمبورغ» فلاقى قصاصه المستحق . لكن ، شيئاً فشيئاً ، وعلى حذر ، بدأت تصلنا منشورات باللغة الألمانية منها كتب (هينريش هاينه)<sup>(٣)</sup> و(توماس مان)<sup>(٤)</sup> و(أنا سيغيرس) و(أرنولد زويغ)<sup>(٥)</sup> . حين حزننا على

(١) أورورا دي تشيلي : معناها ، فجر تشيلي .

(٢) جوليوس ستريشار : سياسي ألماني (١٨٨٥-١٩٤٦) .

(٣) هينريش هاينه : شاعر ألماني (١٧٩٧-١٨٥٦) .

(٤) توماس مان : روائي ألماني (١٨٧٥-١٩٥٥) .

(٥) أرنولد زيف : كاتب ألماني يهودي ، ولد عام ١٨٨٧ .



خمسائة مجلد من الكتب توجهنا إلى المكتبة الوطنية لنودعها هناك .

يا للمفاجأة! كانت الأبواب قد أغلقت في وجهنا بأقفال متينة .

إذآك نظمنا مسيرة وتسللنا إلى مدرج الجامعة هناك ونحن نحمل صور الأب (نوميير)<sup>(١)</sup> و(كارل فون اوسيتيسكي)<sup>(٢)</sup> ، ولست أدري بأية مناسبة كان يجري احتفال برعاية السيد (ميغيل كروتشاغا توكورنال) وزير الشؤون الخارجية حينذاك . وضعنا الكتب واللوحة في سدة الرئاسة حيث كان الوزير ، وربحنا المعركة إذ إن الكتب قد قبلت منا وظلت هناك .

### ايسلا نيغرا<sup>(٣)</sup> Isla Negra

فكرت في أن أنصرف إلى عملي بإخلاص أكثر وقوة أشد . لقد كان تماسي بأسبانيا قد عززني وأنضجني ، فلقد حان أن تنتهي ساعات شعري المرة وأن لي أن أبدأ شيئاً جديداً ، وكانت الذاتية والكأبة اللتان صبغتاً قصائد ديواني «عشرون قصيدة حب» والحالة الأليمة المؤثرة التي طبعت «مقام في الأرض» تقترب من نهايتها . بدا لي أنني عثرت على عرق معدن دفين ، ليس تحت الصخور في باطن الأرض ، بل تحت أوراق الكتب . أفني مكنة الشعر أن يخدم أشباهنا من بني البشر؟ أفيستطيع أن يصاحب الإنسان في صراعه ونضاله؟ لقد كنت أفرطت في المسير في درب اللامعقول ، وفي مجال ما هو سلبي ، فكان لا بد لي من أن أوقف نفسي عن هذا وذاك وأن أبحث عن طريق ما هو إنساني ، مبتعداً عن الأدب المعاصر ولكن بجذور عميقة تمتد إلى تطلعات الكائن البشري .

لقد شرعت بالعمل في كتابي «نشيد عام» .

ولهذا فإنني كنت أحتاج إلى مكان للعمل ، وجدت بيتاً حجرياً يواجه المحيط ، في موضع غير معروف ، يدعى «ايسلا نيغرا» . كان صاحب هذا البيت قبطاناً إسبانياً ، اشتراكياً قديماً اسمه (ايلاديو سوبرينو) ، كان هذا السيد يبنيه ليسكن فيه

(١) نيوميير Martin : هو عالم باللاهوت وراهب بروتستانتي ألماني ، ولد عام ١٨٩٢ .

(٢) كارول فون اوسيتيسكي : كاتب ألماني وداعية للسلم (١٨٨٩-١٩٣٨) .

(٣) ايسلانيغرا: معناها ، جزيرة سوداء ، وهي قرية صغيرة على الساحل بتشيلي ، كان للشاعر هناك منزل

فيها .

وعائلته لكنه شاء أن يبيعه لي ، فكيف ابتعته؟ عرضت مشروع كتابي «نشيد عام» على دار النشر «ايرثيا» التي كانت تنشر مؤلفاتي لكنها رفضت ذلك . فاستطعت بمعاونة ناشرين آخرين دفعوا مقدماً ، ومباشرة إلى صاحب البيت ، أن أشتري في عام ١٩٣٩ بيتاً للعمل في «جزيرة سوداء» .

إن فكرة قصيدة رئيسية تجمع الأحداث التاريخية والشروط الجغرافية والحياة وصراعات شعوبنا ، كانت تلح وتبدو على أنها عمل عاجل لا بد لي من تأديته . فسمحت «جزيرة سوداء» بما لها من شاطئ بكر وحركة المحيط الصاخبة ، أن أنصرف في شغف وعاطفة لتشييد هذا النشيد الجديد .

### احضروني إسبانياً

غير أن الحياة أخرجتني من هناك تَوّاً .

كانت تصل إلى تشيلي أخبار الهجرة الإسبانية المرعبة ؛ كان قد عبر الحدود الأفرنسية أكثر من خمسمائة ألف رجل وامرأة ، من المحاربين والمدنيين . فحشدتهم حكومة (ليون بلوم)<sup>(١)</sup> الفرنسية أسيرة القوى الرجعية ، في معسكرات ووزعتهم على حصون وسجون وأبعدتهم إلى المناطق الفرنسية المحاذية للصحراء الإسبانية<sup>(٢)</sup> . كانت حكومة تشيلي قد تبدلت إذ إن أرواح الشعب الإسباني وطدت القوى الشعبية التشيلية فكان لنا حكومة تقدمية .

قررت حكومة تشيلي ، حكومة الجبهة الشعبية ، هذه إرسالني إلى فرنسا للقيام بمهمة من أنبل المهمات التي نفذتها في حياتي ، ألا وهي مهمة إخراج عدد كبير من الإسبان المنفيين هناك في سجون فرنسا ومعقلاتها وترحيلهم إلى وطني تشيلي . . . وهكذا سيستطيع شعري أن ينتشر مثل نور متوقد يجيء من أمريكا اللاتينية بين هؤلاء الرجال المكومين الذين عانوا ما لم يطقه أحد غيرهم من جلد وألم وبطولة ، هكذا شعري سينصهر في المساعدة المادية التي تقدمها أمريكا اللاتينية حين تؤوي الإسبان وتساعدهم وبذلك تقوم بإيفاء دين قديم علينا لهم .

(١) ليون بلوم : سياسي فرنسي (١٨٧٢-١٩٥٠) .

(٢) الصحراء : هكذا في الأصل Sahara ، وهي ما ندعوه بالساقية الحمراء ، جنوب المغرب ، والمناطق الفرنسية هي أقطار المغرب العربي المستقلة .

خرجت من خلوتي وعزلتي وأنا غير قادر على الحركة ، مجصص الساق بعد إجراء عملية فيها -هكذا كانت عليه شروطتي الفيزيولوجية في تلك اللحظة- فقدمت نفسي إلى السيد رئيس الجمهورية ، (بيدرو أغيره ثيردا) الذي استقبلني في مودة ومخبة .

أجل ، احضر لي آلافاً من الإسبان ، فنحن لدينا متسع من العمل للجميع ، احضر لي صيادين ، احضر لي باسكاويين ، قشتاليين ، أكستريمادويين<sup>(١)</sup> .

بعد أيام قليلة وأنا ما زلت مجصص الساق ، خرجت أبحث عن إسبان في فرنسا من أجل تشيلي . كانت لي مهمة محددة ، كنت قنصلاً مكلفاً بالهجرة الإسبانية إلى تشيلي . هذا ما كان ينص عليه قرار التعيين فذهبت وأنا مفتخر بلقبني هذا إلى السفارة التشيلية بباريس .

لم تكن الحكومة والوضع السياسي في وطني منسجمين ؛ فمثلاً ، السفارة في باريس ما تغير فيها موظف واحد فظلت على حالها ، وقد كان يغضب رجالها من الدبلوماسيين المصمغين فيها الأنيقين الرشيقيين ، مجرد الاحتمال بأن أستطيع أن أرسل ببعض الأسبان إلى تشيلي . وضعوني في مكتب قرب المطبخ بالسفارة . ضيّفوني إلى درجة أنهم منعوا عليّ استعمال أوراق الكتابة الموجودة في السفارة . أخذ يفتد إلى أبواب السفارة حشد غير المرغوب بهم من الأسبان : من محاربي جرحى ، قضاة ، محامين ، كتاب وأطباء كانوا قد فقدوا مشافيتهم ، عمال من الاختصاصات جميعها .

بما أنهم كانوا يشقون طريقاً في معاكسة الريح ؛ هو وجوه الموظفين المقيتة ، كي يصلوا إلى مكتبي ، وبما أن مكتبي كان في الطابق الرابع من البناية ، فإن هؤلاء الموظفين فكروا بشيء شيطاني ، ألا وهو إيقاف المصعد وتعطيله . كان الكثير من الإسبان جرحى جاؤوا من معسكرات الاعتقال في أفريقيا ، فكان يحزّ في نفسي أن أراهم يصعدون الدرج في مشقة وعناء حتى طابقي الرابع ، بينما الموظفون الشرسون كانوا يتسلّون بهذه الصعوبات ويستهنون بي .

---

(١) أكستريمادويين : نسبة إلى منطقة في جنوب غرب إسبانيا .

## شخصية شيطانية:

كي تزيد حياتي تعقيداً أخبرتني حكومة الجبهة الشعبية لتشيلى بوصول قائم بالأعمال ، وفرحت كثيراً جداً نظراً لأن رئيساً جديداً في السفارة قد يلغي العراقيل التي كان الديبلوماسيون في السفارة قد أسرفوا في وضعها أمام حركة الهجرة الإسبانية . هبط من محطة Saint-Lazare شاب هزيل يضع نظارة بلا إطار Pince nez كانت تجعله يبدو وكأنه فأر عجوز ، وراق يفحص كل شيء في تجارته ، كان يبلغ من العمر حوالي أربع وعشرين سنة أو خمس وعشرين ، له صوت أنثوي رفيع حاد جداً ، فقال لي في صوته هذا المتقطع إنه سيعترف بي رئيساً له وإنه ما جاء إلا لمساعدتي وسيعمل تحت إمرتي مساعداً في هذا العمل العظيم من إرسال «مهزومي الحرب الأماجاد الأكارم» إلى تشيلي . وعلى الرغم من فرحي بالحصول على مساعد جديد فإن هذه الشخصية ما استراحت في روحي وما ارتحت لها ، ولا راقته في عيني ، وعلى الرغم من التملق والمبالغة للذين كان يفرط فيهما فقد بدا لي أنني رأيت شيئاً مزيفاً في شخصيته اللطيفة . عرفت في ما بعد أنه مع انتصار الجبهة الشعبية لتشيلى ووصولها إلى الحكم ، غيّر على حين غرة موقعه من «فارس كولبوس» وهي منظمة يسوعية إلى عضو في الشبيبة الشيوعية ، فسرت هذه الشبيبة في أوج عهد الانخراط فيها بمواهبه الفكرية وفرحت بعضوية السيد (أريانو مارين) الذي كان يكتب مسرحيات هزلية ومقالات ، وكان محاضراً لامعاً ، باختصار ، كان يعرف كل شيء ، كما بدا لهم .

كانت الحرب العالمية الثانية على وشك الاندلاع ، وكانت باريس تتوقع كل ليلة الغارات الألمانية وكانت في كل دار تعليمات نظرية وعملية كي يلجأ الأهالي في حالة غارة من الغارات إلى الملاجئ والخبائى ، كنت أروح كل ليلة إلى بيت صغير في Villiers-sur-Seine مقابل النهر كي أعود كل صباح مكدراً إلى السفارة .

توصل (أريانو مارين) هذا الحديث الوصول ، في بضعة أيام قلائل ، إلى أن تكون له أهمية ما حصلت عليها أنا أبداً . كنت قد قدمته إلى (نيغرين)<sup>(١)</sup> إلى (الباريث ديل بايو) وإلى بعض قادة الأحزاب الإسبانية . بعد مضي أسبوع فقط كان

(١) نيغرين Juan : سياسي وطبيب إسباني (١٨٨٧-١٩٥٦) .

هذا الموظف الجديد يخاطبهم بـ«أنت»<sup>(١)</sup>. كان يدخل أو يخرج من مكاتب زعماء إسبان ما كنت أعرفهم أنا بنفسي ، وكانت محادثاته الطويلة معهم ، بالنسبة لي ، سراً . من حين إلى حين كان يناديني كي يريني قطعة ألماس أو زمردة كان قد اشتراها لأمه أو يحكي لي عن شقراء ذات دله وغنج كانت تحببه على إنفاق مبالغ كثيرة جداً في الملاهي والحانات الباريسية . أصبح (اربيانو مارين) هذا صديقاً سريع الود لـ(أراغون) وبخاصة لـ(إلسا Elsa) اللذين ألقائهما في السفارة لحمايتهما من حركة القمع التي أخذت تلاحق الشيوعيين ، فكان يتحفظهما بملاطفات وهدايا صغيرة ، لا بد أن طبيعة هذا الشخص قد ألهمت (إلسا تريولي Elsa Triolet) إذ إنها تتكلم عنه في واحدة أو اثنتين من رواياتها .

كان عليّ أن أنتقل إلى «بروكسل» كي أحلّ هناك مشكلة مأساوية للمهاجرين ، حين كنت أخرج من الفندق المتواضع جداً حيث كنت أسكن ، وجدت نفسي على بعد فم الجرة<sup>(٢)</sup> من مساعدي اللامع الأنيق (اربيانو مارين) فأخذني في أحضانه وهو يرحب ويهلل ثم دعاني إلى الأكل في اليوم نفسه .

اجتمعنا على مائدة هناك في فندقه ، وهو أكثر الفنادق غلاء في «بروكسل» . كان قد أمر بأن توضع فوق المائدة أصص زهور ، طلب طبعاً «كافيار» و«شمبانيا» . كنت أنا خلال الأكل محافظاً على الصمت المنشغل المهوم ، فيما كنت أسمع خطط مضيبي اللذيذة ومشاريعه الشيقة وأسفاره القريبة للراحة والاستجمام ، وكان يحكي لي عن مجوهراته وتحفه ، كنت كأني أستمع إلى غني حرب جديد ولكن مع بعض علائم الخبل والعتة والجنون ، وكان في حدة نظراته وفي تأكيدات الحازمة الجازمة يسبب لي نوعاً من الدوار ، فقررت أن أقطع بما هو صحي<sup>(٣)</sup> وأن أكلمه بصراحة عن مشاغلي وضيق وقتي ، فطلبت منه أن نتناول القهوة في غرفته لأن عندي ما أبوح به إليه .

عند منحدر الدرج الكبير ، بينما كنا نصعد لنتحدث على حدة ، اقترب منه رجلان

(١) أنت : ضمير المخاطب يستعمل بين الأقارب والأصدقاء بينما الآخرون يتخاطبون usted ، ويقابلها بالعربية «حضرتك» .

(٢) الجرة : هكذا في الأصل jarra ، والتعبير هنا إسباني يقابله بالعربية ، قاب قوسين أو أدنى .

(٣) بما هو صحي : تعبير إسباني ، يقابله بالعربية ، بالتالي هي أحسن .

ما كنت أعرفهما من قبل فقال لهما بالإسبانية أن ينتظراه حتى ينزل بعد دقائق قليلة .  
ما إن ولجت إلى غرفته حتى تركت جانباً القهوة وبدأت بالقول المعنف الطاعني :  
- بيدولي - قلت له - أنك تسير في طريق وخم قدر ، إنك تحولت إلى معتوه  
بالمال . قد تكون ما زلت صغيراً جداً كي تفهم ما أقوله لك ، إن واجباتنا السياسية  
هي جدية جداً فمصير آلاف المهاجرين في أيدينا ، ولا يمكن أن نلعب بهذا المصير ،  
أنا لا أريد أن أعرف شيئاً عن شؤونك وقضاياك ، لكنني أريد أن أحذرك ، ثمة أناس  
يقولون بعد أن يقضوا حياة تعيسة بائسة أنه «لا أحد قدم إليهم النصيحة الجميلة وإنه  
لا أحد حذرهم من مغبة ما كانوا يفعلون» ولكن هذا لا ينطبق عليك فهأنذا أحذرك  
ما تفعل والعاقبة عليك وهذا ما أقوله ، ليس إلا ، والآن فإني سأصرف .

نظرت إليه حين مددت يدي لأودعه فرأيت الدموع تنحدر من عينيه إلى فمه ،  
فشعرت بشيء من الندم ، ألم أذهب بعيداً في تقريعي وتعنيفي؟  
- لا تبك .

- إني لأبكي من غضب - أجنبي .

ابتعدت دون أن أقول له كلمة أخرى ثم عدت إلى باريس ولم أره بعد  
البتة . حين نزلت رأيت هناك عند الدرج الرجلين المجهولين ينتظران ثم رأيتهما يصعدان  
بسرعة إلى غرفته .

إن خاتمة هذه الحكاية جرت بعد زمن طويل في المكسيك ، حيث كنت أنا هناك  
فحصلاً لتشيلى آنذاك . ذات يوم كنت مدعواً إلى الغداء من بين لاجئين إسبان  
يقيمون في المكسيك ، وكان من بينهم اثنان تذكرايني .  
- من أين تعرفاني؟ - سألتهما .

- نحن من كنا في «بروكسل» وصعدنا للتكلم مع زميلك (اريبانو مارين) حين  
رأيناك تهبط من غرفته .

قصا عليّ فصلاً غريباً للغاية . كانا قد وجداه في غرفته مغتسلأ بالدموع ، متأثراً  
بأزمة عصبية وقال لهما وهو في نشيج ونحيب : «لقد عانيت الآن قبل قليل ، أمراً ما  
عانيت مثله أبداً في حياتي كلها ، فلقد خرج (نيرودا) من هنا وهو على نية أن يخبر  
عنكما الـ«جيستابو»<sup>(1)</sup> في أنكما شيوعيان خطيران من إسبانيا ، فلم أستطع إقناعه

(1) الجستابو Gestapo : الشرطة العسكرية الألمانية .

بالعدول عن هذا الأمر الذي أزمع عليه ، ولا قدرت أن أجعله ينتظر بضعة ساعات ريثما تستطيعان الهرب ، فليس لكما إلا دقائق معدودات كي تفرا بجلدیکما ، واطرکا عندي حقائبكما فسأحفظها ثم أوصلها لكما حيث تكونان أو تقيمان» .

• - یا له من فدم ، أبله -قلت لهما- على كل حال من حسن حظكما أنكما استطعتما أن تفلتا من الألمان .

- لكن الحقائب كانت تحتوي على تسعين ألف دولار ، وهي ملك النقابات الإسبانية فلم نستطع أن نستعيد هذا المبلغ لنعيده إلى العمال ، ولم نعد نرى المال ولا الحقائب .

من بعد عرفت أن هذه الشخصية الشيطانية قد قامت بجولة ممتعة طويلة في بلدان الشرق الأدنى ، متمتعاً بصحبة حبيته الباريسية . على فكرة تبين كذلك أن تلك الشقراء المتدلة المتطلبة ما هي إلا طالب أشقر من جامعة السوربون .

ثم بعد مضي زمن قليل نشر في الصحف انسحابه من الحزب الشيوعي قائلاً : «إن اختلافات عقائدية عميقة تجبرني على اتخاذ هذا القرار» .

### جنرال وشاعر:

إن كل رجل وصل من الهزيمة أو من الأسر كان رواية ذات فصول ، ذات نحيب ، ذات ضحك ، ذات شعور بالوحدة ، ذات غرام . بعض هذه الروايات والحكايات كان يذهلني وبأسرني .

لقد عرفت جنرالاً في الطيران ، طويل القامة ، زاهداً في الدنيا ، رجل كلية عسكرية وخبرة ودراية ، له من الأوسمة ما له ، ومن الألقاب أحسنها . هناك كان يسير عبر شوارع باريس ، ظلاً «دونكيخوتيا» للأرض الإسبانية ، عجزواً منتصباً كحور قشتالة .

حين استطاع الجيش الفرنسي<sup>(١)</sup> شطر المنطقة الجمهورية إلى قسمين ، كان على هذا الجنرال (هيريرا) أن يعيش في الظلام المطبق المطلق ، أن يفتش خطوط الدفاع ، أن يعطي الأوامر في هذه الجبهة أو تلك ، في هذا القسم أو ذاك وهو في طائرته يحلق في الليالي المعتمة ، وفي الدياجير المظلمة فوق أراضي جيش العدو ، من حين إلى حين

(١) الفرنسي : نسبة إلى (فرانكو) رئيس الدولة الإسبانية .

طلقة فرانكية كانت تمر فتكاد تلمس مركبته ، ولكن هذا الجنرال لكثرة ما كان عليه أن يتحول ويحلّق ، كان يملّ ويسأم فتعلّم كي يستطيع أن يقرأ في العتمة ، طريقة «برايل» Braille . حين أتقن كتابة العميان كان دائماً يسافر لتأدية مهماته الخطيرة وهو يقرأ بالأصابع ، بينما تحته كانت تتوهج النيران وآلام الحرب الأهلية الإسبانية . لقد حكى لي هذا الجنرال أنه استطاع أن يقرأ خلال جولاته الليلية كتاب «الكونت مونت كريستو» وأنه حين أخذ بقراءة «الثلاثة المسلحون بالبنادق» قوطعت قراءته بالهزيمة ثم اضطر إلى الالتجاء إلى فرنسا .

أذكر حكاية أخرى ذات تأثير كبير في نفس كل إنسان يسمعها ، وهي قصة الشاعر الأندلسي (بيدرو غارفياس) . استقر به المنفى في قلعة للورد بـ«اسكوتلانديا» . كان هذا الحصن منعزلاً وحيداً بعيداً فكان (غارفياس) لطبيعته الأندلسية القلقة الأنيسة يروح كل يوم إلى حانة هناك في المنطقة ويجلس في صمت وسكون ، إذ إنه لم يكن يتكلم الإنجليزية بل إنه يكاد لا يتكلم الإسبانية اللهم إلا لغة أندلسية عجزية ما كنت أنها أفهمها ، يشرب كؤوس بيرته في كآبة ووحدة . لفت هذا الزبون الأخرس الأبكم نظر صاحب الحانة . ذات ليلة وقد غادر الحانة السمار والسكاري ، التفت إليه صاحب الحانة ورجاه أن يظل عنده ليستمر في مقارعة كؤوس الخمر حتى مطلع الفجر ، قرب نار المدفأة المتوقدة التي تقذف الشرر فتبوح بما لا يستطيعان البوح به .

لقد أصبحت هذه الدعوة طقساً وعادة . ففي كل ليلة يستقبله صاحب الحانة الوحيد مثله ، فلا امرأة تؤويه ولا أسرة تشغله أو تسليه . شيئاً فشيئاً أخذت تنفك عقد من لسانيهما فكان (غارفياس) يحكي له قصص الحرب الإسبانية كلها عن طريق صيحات وإيماءات ولعنات وتأوهات أندلسية جداً . كان صاحب الحانة يصغي إليه في سكون مهيب دون أن يفهم ، طبعاً ، ولا كلمة واحدة بما يقول مسامره .

لقد بدأ الاسكوتلاندي من جانبه ، يقص على الشاعر حكاية فشله في حياته -هذا ما كان يخيل للشاعر- حكاية هرب زوجته التي هجرته ، مآثر أبنائه الذين كانت صورهم بالأزياء العسكرية تزين الجدران حول المدخنة ، كل هذا طبعاً قد يكون هو ما كان يحكيه لصديقه ، أقول قد . . . لأن (غارفياس) كذلك ما فهم ولا كلمة واحدة بما كان يقوله الآخر ، وذلك خلال الأشهر الطويلة التي استغرقتها هذه الأحاديث الشيقة الغريبة .



غير أن صداقة هذين الرجلين الوحيدين المهجورين اللذين كانا يتحدثان في ود وعاطفة ، كل عن همومه وشؤونه بلغته التي لا يفهما الآخر ، راحت تزداد وتنمو وتعمق كل ليلة حتى الشروق ، وأصبحت صداقتهما ضرورية لكل منهما .  
حين كان على (غارفياس) أن يرحل مضطراً إلى المكسيك ، تودّعا شاربين ، متحدثين ، متعانقين ، باكيين ، حزينين . إن ما كان يحزّ في نفسيهما هو أنهما سيعودان من جديد ، كل إلى عزلته ووحدته .

- (بيدرو) - قلت له مرات كثيرة - ماذا تظن أنه كان يقص عليك!  
- (بابلو) ، الحقيقة أنني ما فهمت منه كلمة ، لكن حين كنت أنصت إليه كان لديّ الشعور الأكيد أنني أفهم كل ما يقول ، وحين كنت أتكلم أنا ، كنت متأكداً أنه كان يفهم كل ما أقول ، وهذا هو المهم .

### «وينيبغ ، Winipeg»

لقد سلمني موظفو السفارة صباح ذات يوم برقية طويلة وهم يتسمون ، فبدالي غربياً أنهم يتسمون لي ؛ إذ إنهم ما كانوا يردون لي تحية ولا يبادرونني بتحية ، فكيف هذا؟ لا بد أن الرسالة تحتوي على شيء بعث في نفوسهم الغبطة والفرح .  
فضضتها واذ بها برقية من تشيلي ، موقعة من لدن السيد الرئيس (بيدرو اغيره ثيردا) ، أي الشخص نفسه الذي كنت قد استلمت منه التعليمات القاطعة الحاسمة لترحيل الإسبان المنفيين من فرنسا إلى تشيلي .  
قرأت في ذهول ودهشة أن السيد (بيدرو) رئيسنا الطيّب ، علم هذا الصباح أنني أقوم بمحاولة لإدخال المهاجرين الإسبان إلى تشيلي ، ففوجئ وهو يطلب مني أن أنفي هذا الخبر الغريب في أسرع وقت .

استغربت من أمر هذه البرقية التي أرسلها لي السيد الرئيس ، لقد كان عملي في التنظيم والاختيار والتفسير عملاً شاقاً وكنت أقوم به وحدي . لحسن حظي أن الحكومة الإسبانية التي تأسست في المهجر أدركت أهمية المهمة التي ألقيت على عاتقي ، لכן مع ذلك فإن مصاعب جمة كانت تنشأ كل يوم ، مصاعب غير متوقعة تعرقل أعمالني وأشغالي . أثناء ذلك كان يتهاى من معسكرات فرنسا أو أفريقيا آلاف اللاجئين كي يرحلوا إلى تشيلي .

كانت الحكومة الجمهورية في المهجر قد استأجرت باخرة «وينيبغ» لترحيل

اللاجئين ، وهذه الباخرة ضاعفت من قدرتها عن طريق بعض التحويلات التي أجريت في آلتها ، وكانت تنتظر راسية برصيف «ترومبيلوب» ، وهو ميناء صغير قرب «بورديس» .

ما العمل؟ إن ذلك العمل المأساوي المكثف المضاعف ، إذ إننا كنا على حافة الحرب العالمية الثانية ، كان بالنسبة لي قمة وجودي ومحك قدرتي ، إن رمز يديّ الممدودتين نحو أولئك المقاتلين الشجعان المطاردين ، كان يعني بالنسبة لهم الإنقاذ من الفناء ، وكان دليلاً على أن وطني تشيلي هو وطن مناضل كريم يحضن المناضلين الكرماء . لقد خابت آمالي وفشلت أحلامي حين استلمت برقية الرئيس .

قررت استشارة (نيغرين) في هذا الأمر . فلقد كنت محظوظاً بتعرفي وصدائقي بالرئيس الإسباني (خوان نيغرين) وبالوزير (الباريث ديل بايو) وبآخرين من المسؤولين الإسبان الجمهوريين . كان (نيغرين) أكثرهم أهمية . لقد بدت لي دوماً السياسة الإسبانية أنها سياسة محصورة ليس لها آفاق واسعة ، كأنها سياسة تخطط على مستوى محافظة أو ناحية وليس على مستوى قطر أو عالم .

كان (نيغرين) عالمياً أو على الأقل كان أوروبياً . أم دراساته في «ليبزيغ» . كانت له قيمة أكاديمية وكان يحافظ في باريس بجدارة وكرامة على هذا الظل اللامادي الذي يكون عادة لحكومات المهجر .

تحدثنا ، رويت له قصة البرقية الرئاسية الغربية التي جعلتني فعلاً أبدو وكأنني دجال ، محتال ، ثرثار ، مهذار ، يقدم لشعب من المنفيين ملجأ لا يوجد . وقلت له إن الحلول الممكنة هي ثلاثة لا رابع لها ، الأول مستنكر فظيع كريبه وهو أن أعلن ببساطة أنني ألغيت موضوع هجرة الإسبان إلى تشيلي ، الثاني ، مأساوي وهو أن أعلن علنياً عدم موافقتي وإنهاء مهمتي ثم أطلق رصاصة في صدغي ، الثالث غير مناسب وهو أن أملاً الباخرة بالمهاجرين وأن أذهب معهم ونطلق من غير إذن أو سماح نحو «البارائيسو» لنرى ماذا سيحدث .

ارتمى (نيغرين) نحو الخلف في مقعده وسحب من سيجاره الكبير ما سحب ، ثم ابتسم في كآبة وأجابني :

- ألا تستطيع استعمال الهاتف؟

كانت الاتصالات الهاتفية بين أوروبا وأمريكا في تلك الأيام على غابة من الصعوبة والتعقيد إلى درجة لا تطاق ، إذ لا بد من انتظار ساعات وساعات ومع ذلك

فقد اتصلت بتشيلي فاستطعت أن أسمع في ضجيج كبير يبعث على صمم الأذان ، صوت وزير الخارجية النائي البعيد ، من خلال محادثة متقطعة كان يجب أن تعاد عشرين مرة ، دون أن نعرف إن كان يفهم بعضنا الآخر ، ونحن من حين إلى حين نصرخ صراحاً هائلاً ، أو نسمع الجواب يأتينا كأنه صخب محيط هائج ، اعتقدت أنني جعلت الوزير (اورتيغا) يفهم أنني لن أمثل لتناقض كلام الرئيس ، وأعتقد أنني فهمت منه أنه يطلب مني أن أنتظر حتى اليوم التالي .

فقضيت ، كما هو منطقي ، ليلة مزعجة في فندق الصغير بباريس . في مساء اليوم التالي عرفت أن الوزير قدّم في ذلك الصباح استقالته ، فهو كذلك لم يكن ليقبل بتجريدي من الصلاحيات التي خولها إليّ الرئيس ، فارتعدت الحكومة واستعاد رئيسنا الطيب الذي كان قد شوّش وبلبل نتيجة ضغوط مارسها بعضهم عليه ، فاستلمت برقية جديدة تشير أن أستمّر بعملية التهجير .

أخيراً شحنا المهاجرين في باخرة «وينيبغ» : على ذلك الرصيف اجتمع الزوج بزوجته ، الأب بابنه ، بعد أن كانوا مفترقين لزمان طويل ، وكان بعضهم يأتي من طرف في أوروبا أو أفريقيا وبعضهم يأتي من الطرف الآخر . حين يصل قطار كان الناس المنتظرون يخفون لرؤية ذويهم وأصحابهم ، يعرف بعضهم بعضاً بين الدموع والصراخ والركض والازدحام ، وكان القادمون يخرجون رؤوسهم من نوافذ القطار ويشربون لعلمهم يستعجلون رؤية من فقدوه من أهلهم وأقربائهم ، كانت هذه الرؤوس تبدو كأنها عنقايد إنسانية ، ثم تلاقوا وصعدوا معاً إلى الباخرة فرحين باكين . منهم الصيادون ومنهم الفلاحون ومنهم العمال ومنهم المثقفون ، كانوا عينة إسبانية من القوة والبطولة والعمل . إن شعري في فضاله قد استطاع أن يحصل لهم على وطن فكنت بهذا مفتخراً وشعرت بالاعتزاز .

اشتريت صحيفة . كنت أسير عبر شارع Varennes - Sur - Seine ، كنت أمر قرب القلعة القديمة التي تعلو فوق أطلالها المحمرة بالنباتات المتسلقة على جدرانها أبراج صغيرة من الصخر الأسود . ها هي القلعة التي كان فيها (رونسارد)<sup>(١)</sup> وشعراء «لا بلياد» يجتمعون في الزمن القديم . لقد كان لهذه القطعة في نفسي مكانة حجر

(١) رونسارد (بيير دي Pierre de) : شاعر فرنسي (١٥٢٤-١٥٨٥) .

ومرمر ، سحر بيت ذي إحدى عشرة نبرة<sup>(١)</sup> ، مسطر بأحرف ذهبية عريقة . فتحت الصحيفة ، ذلك اليوم كانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت ، هذا ما كانت تقوله في أحرف كبيرة وبمداد أسود قدر تلك الصحيفة التي سقطت من يدي في تلك القرية القديمة الضائعة .

كان العالم كل العالم يتوقعها ، فهتلر كان يبتلع الأراضي والبلدان ، وكان السياسيون الإنجليز والفرنسيون يتراكمون مع مظاهراتهم لكي يهبوه مدناً ومالك وبشرا . لقد كان يملأ الضمائر دخان من التشويش والبلبل . كنت أرى من نافذة غرفتي بباريس مباشرة «لوس انفاليدوس» فأرى أوائل فرق المحاربين وهي تخرج ، والفتيان الذين أبدا ما عرفوا للزي العسكري لوناً من قبل ، وما عرفوا قط أن يرتدوا هذا الزي العسكري وهم ينطلقون كي يدخلوا في منحطم الموت الكبير .

لقد كان انطلاقهم حزيناً والحزن كان بيناً في سيماهم . لقد كانت هذه الحرب حرباً خاسرة من قبل أن تبدأ ، وحزنها كان شيئاً لا يحدد . كانت القوى الشوفينية المتعصبة تجري في الشوارع تطارد المفكرين التقدميين . لم يكن العدو متمثلاً بالنسبة لهم في اتباع (هتلر) ، في مجموعة «لافال» ، بل في زهرة الفكر الفرنسي . لقد حمينا في السفارة التي كانت قد تغيرت كثيراً الشاعر الكبير (لويس أراغون) ففضى فيها أربعة أيام عاكفاً على الكتابة ليل نهار ، فيما الشراذم كانت تنتظره للقضاء عليه . هناك في سفارة تشيلي أنهى روايته «مسافرو لا امبريال» Ios Viajeros de la imperial وفي اليوم الخامس توجه وقد ارتدى الزي العسكري إلى الجبهة ، كانت حربه الثانية ضد الألمان .

لقد تعودت في تلك الأيام الشفقية على هذا الارتباب الأوروبي الذي لا يعاني ثورات مستمرة أو زلازل ، بل يحتفظ بسم الحرب القاتل وهو يملأ الهواء والخبز . خوفاً من الغارات كانت العاصمة الكبيرة تنطفئ ليلاً ، وهذه العتمة ، عتمة سبعة ملايين نسمة معاً ، هذه الدياجير الكثيفة الثقيلة التي كان لا بد من السير في ظلها بمدينة النور ، ظلت ملتصقة في ذاكرتي .

... في نهاية هذه المرحلة ، كما لو أن هذا السفر الطويل كان غير مجد ، أعود فأجد نفسي وحيداً في هذه الأراضي الحديثة الاكتشاف ... مثلما في مخاض

(١) هو بحر من بحور الشعر في اللغات اللاتينية .

الولادة ، كما في البدء المنذر للرب الميتافيزيقي حيث نبعت أوائل أشعاري ، كما في شفق جديد قد هيخته وأثارته قدرتي الإبداعية ، أدخل في احتضار ، أغلغل في حشرجة ، ألج في الوحدة الثانية ، فإلى أين المسير؟ ... وإلى أين العود؟ ... إلى أين التوجه؟ ... أأسكت أم أنبض؟ ... أنظر إلى ضواحي الوضوح وأطراف العتمة فلا أجد إلا الفراغ نفسه ... هذا الفراغ الذي صنعته يداي في عناية قدرية وحيطة مشؤومة ...

بيد أن ما هو أكثر قرباً ... ما هو أكثر جوهرياً ... ما هو أكثر حدة ... ما هو أكثر سعة وامتداداً وعمقاً ... ما كان ليتجلى لي حتى هذه اللحظة ... كنت فكرت في العوالم كلها لكنني أبدأ ما فكرت في الإنسان ... كنت قد استنبطت قلب الإنسان من قساوة واحتضار ... غير أنني ما فكرت في البشر ... كنت أرى مدناً ولكنها مدن فارغة خاوية ... كنت أرى معامل ومصانع في مشاهد مأساوية بيد أنني ما كنت أرى العذاب والعناء والشقاء تحت أسطح المنازل ، فوق الشوارع ، في المحطات ، في المدن في الأرياف ...

حين انطلقت الرصاصات الأولى فاخترقت قيثاره إسبانيا وانبثقت منها بدل الألحان فوارات دم ، توقف شعري مثل شبح في وسط شوارع الكآبة الإنسانية ... وأخذ يتسرب إليه تيار من الجذور والدماء ... منذ ذلك الحين اتحد دربي بدرب الآخرين ... ورأيت أنني قد عبرت من جنوب الوحدة نحو شمالها فكان الشعب ... الشعب الذي أراد شعري المتواضع أن يكون له سيفاً ومنديلاً ... كي يجفف العرق عن آلامه الكبيرة ، كي يعطيه سلاحاً في معركة الخبز ...

إذًاك يتسع المدى ، يغدو كبيراً عميقاً أبدياً سرمدياً ... ها نحن نقف فوق الأرض ... نريد أن نحوز على كل ما هو موجود ... نمتلكه إلى الأبد ... لا نبحت عن اللغز فنحن اللغز ... إن شعري يبدأ كي يصبح جزءاً مادياً من جو فضائي أبدي ... من جو ، هو في الوقت نفسه ما تحت البحري وما تحت الأرضي ... إن شعري يشرع كي يلج عبر دهاليز ما هو نباتي رائع ... إن شعري يتهاى كي يتحادث وأشباحاً شمسية في وضوح النهار ... إن شعري يستعد كيما يسبر ، يستنبط غور المعدن الخبيء في سر الأرض ... إن شعري يعد العدة كي يحدد العلاقات المنسية بين الخريف والإنسان ... إن الجوليعتم أحياناً ولكن وشيكاً ما ينجلي ببريق مشحون بتألق ورعب ... بناء جديد بعيد عن الكلمات المستعملة المستهلكة يبرز في سطح

الهواء . . . قارة جديدة من أكثر مواد شعري اكتنائاً وسرية تشمخ عبر الفضاء . . . لقد قضيت في تعمير هذه الأراضي ، في تصنيف هذا الملكوت ، في لمس ضفافه الطلسم ، في إخماد عواصفه وتهدئة إزباده ، في التجواب عبر حيواناته ، في التسيار عبر جغرافيته الطولانية ، سنين غامضة ، متوحدة ، قصية . . .

## الفصل السابع المكسيك المزهرة الشائك

لقد أرسلتني حكومتي إلى المكسيك . وصلت في عام ١٩٤٠ وأنا مليء بهذا الكدر القاتل الناتج عن آلام كثيرة وفوضى أليمة كي أستنشق النسيم والحياة في هضبة «أناهواك» التي نعتها (الفونسو ريبس Alfonso Reyes)<sup>(١)</sup> ، بأنها أكثر منطقة ، شفافية في العالم .

لقد غمرني المكسيك المزهرة الشائك ، الجاف العاصف ، العنيف الرسم واللون ، العنيف البشرة والخلق ، بتماثمه وبأنواره المباغثة .

لقد جبت المكسيك خلال سنين وسنين من سوق إلى سوق ، لأن المكسيك هو في الأسواق ، ليس هو بالأغاني ذات الحروف الحلقيية التي نسمعها في الأفلام السينمائية ، وليس هو بالتفاهة المزيفة لشارب ومسدس ، إن هو إلا أرض المناديل ذات اللون القرمزي وذات اللون الفيروزي البراق . إن هو إلا أرض الأواني والجرار والفاكهة المنفلقة تحت سرب من الحشرات هنا وهناك . إن هو إلا حقل صبار ذو مداد أزرق فولاذي وذو تاج من الأشواك الصفراء .

إن كل هذا لتمنحه أكثر الأسواق جمالاً في العالم ، وتريك ثمة في أسواق المكسيك ، الفواكه والصفوف ، البنّ والأنوال ، قدرة أنامل المكسيك الخصبية الخالدة المدهشة .

لقد تجولت عبر المكسيك ، ركضت على مدى شواطئه ، شواطئه العالية الجرف ، المتقدمة ببريق سرمدى فوسفوري . لقد انحدرت من «توبولوبامبو» في «سينالوا» . عبر هذه الأسماء نصف الكروية ، أسماء حريفة تركها الآلهة هناك تراثاً في يدي المكسيك ومضوا عنها حين بدأ الرجال الذين هم أقل قساوة من الآلهة ، يأمرن فيها ويسودون عليها . لقد مشيت عبر مقاطع هذه الأسماء ، هذه المقاطع المؤلفة من اللغز

(١) الفونسو ريبس : كاتب وروائي مكسيكي (١٨٨٩-١٩٥٩) .

والروثق ، عبر هذه الأصوات الفجرية الصباحية . فهذه الناحية باسم «سونورا» وتلك باسم «يوكاتان» ، أما «أناهواك» فهي تشمخ كأنها مجمرة باردة حيث تصل إليها الأشداء البليلة من «ناياريت» حتى «ميشواكان» حيث يُدرك أريج دخان الجزيرة الصغيرة «خانيتثيو» ، وعطر الذرة الذي يصعد عبر «خاليسكو» وعبير الكبريت لبركان «باريكوتين» الحديد وقد امتزج بعبق رطب من أسماك بحيرة «باتشكوارو» . إن المكسيك لهو آخر الأقطار السحرية ، إنه لسحري في قدمه وتاريخه ، إنه لسحري في موسيقاه وتضاريسه . لقد شعرت وأنا أطرق دربي عبر هذه الصخور المسوّطة<sup>(١)</sup> بالدم المستدم ، المتصالبة بخيط عريض من الدم والطحلب ، أني هائل وأنني عريق وأنني لجدير بهذه المسيرة بين هذه الإبداعات الكثيرة العريقة . ثمة وديان وعرة مسدودة بجدران هائلة صخرية ، من حين إلى حين تلال مرتفعة متشققة كما لو بسكين ، غابات استوائية عملاقة ، إطلالات متوهجة من خشب ومن أفاع ، من عصافير ومن أساطير . لقد وجدت في تلك الأراضي الشاسعة المعمورة حتى أطرافها الأخيرة بصراع الإنسان في الزمن ، وجدت في أبعادها ومداهها الكبير أننا نحن ، تشيلي والمكسيك ، قطرا أمريكا المتقاطران . أبدا ما حركتني العبارة الدبلوماسية المصطلح عليها والتي تجعل سفير اليابان يجد في أشجار كرز تشيلي ، والإنجليزي يجد في ضباب شواطئنا ، والأرجنتيني أو الألماني يجدان في ثلج بلادنا المحدق الكثيف ، شبةً بما لهم في بلدانهم ، أو بما في بلدان العالم جميعها .

إنه ليسرني التنوع الأرضي ولتطيب لي الفاكهة الأرضية المتميزة في أصنافها كلها . إنني لا أنقص شيئا من قدر المكسيك ، هذا البلد الحبيب إن قرنته في الأشياء البعيدة ببلدنا المحيطي الغلالي ، بل إنني أبين خصائصه وأرفع من ميزات كمي تتباهى قارتنا الأمريكية بكل عبااتها ، بمرتفعاتها وأعماقها قاطبة . وليس ثمة في أمريكا وربما في الكرة الأرضية بلد أكثر عمقا إنسانياً كما هو المكسيك وأناس المكسيك . إنك لترى من خلال إرشاداته المضيئة ومن خلال أخطائه الكبيرة ، السلسلة نفسها من الكرم السخي جداً ، من الحيوية العميقة المتدفقة جداً ، من التاريخ الفريد في نوعه جداً ، من الخضوبة المعطاء الدائمة أبداً .

لقد انحرف بنا المسير ذات يوم عبر القرى صيادة الأسماك ، حيث الشبكة تغدو

(١) المسوّطة : مشتقة من الكلمة العربية ، السوط Azote .



جد شفافة صافية فتبدو فراشة كبيرة تعود إلى المياه كي تحوز على الحراشف الفضية التي تنقصها ، عبر مراكز هذه القرى ذات المناجم التي ما إن يستخرج منها المعدن حتى يغدو شبكية صلبة وسبيكة متينة في هندسة براقه جداً ، عبر الطرق حيث تشاد الأديرة الكاثوليكية الكثيفة الشائكة كشجر الصبار الهائلة ، عبر الأسواق حيث البقول معروضة مثل زهرة ، وحيث غنى الألوان والأذواق يصل إلى درجة الاحتدام والنوبة ، إلى أن اجتازنا مدينة المكسيك لنصل إلى «يوكاتان» ، وهي مهد نشأ من أقدم جنس في العالم أعني شعب «ماياب» Mayab الوثني ، إن الأرض هناك لتتهتز بما لها من تاريخ وما بها من بذور . لما نزل تنمو هناك إزاء شجر الصبار النشط الحيوي ، الأطلال المليئة بالذكاء والأصاحي والتضحيات .

حيث تقاطع الطرق الأخيرة ، وصلنا إلى الأرض المديدة الفسيحة ، حيث ترك أولئك المكسيكيون القدماء تاريخهم الموشى مخبأ تحت أشجار الغابة . هناك نعثر على نوع جديد من الماء ، إنها لأغرب مياه في هذا الكوكب ، ليست كمياه البحر ، ليست كمياه النهر ، ليست كمياه الجدول ، ليست كمياه الغدير ، ليست بالمياه المعروفة ، ليس ثمة في «يوكاتان» من ماء إلا تحت أعماق الأرض تنشق فجأة عن بئر واسعة بكر ثم تعود فتنشق عن بئر أخرى على حين غرة ، انحدارات هذه الآبار مليئة بالنباتات الصغيرة المدارية . إنك لترى من خلال هذه الأعشاب في الأعماق مياهاً عميقة خضراء فلكية . لقد وجدت قبائل «المايا» هذه الشقوق الأرضية المسامة «ثينوته» Cenote<sup>(1)</sup> فألهوها وعبدوها بطقوسهم الغريبة . كما في الأديان جميعها . قدس البشر ، في المبدأ ، الحاجة والخصوبة ، كذلك في هذه الأرض . فلقد هزمت المياه الخبيثة الأرض اليباب الجفاف فكانت الأرض تتصدع خشية منها فتنبتق المياه كي يفرح البشر .

عند ذلك ، فوق الآبار المقدسة ، عبر آلاف السنين ضاعفت الأديان البدائية والأديان الغازية الواردة من سر الماء للغز . لقد ألفت مئات العرائس العذراوات المزينات بالزهر والذهب بعد احتفالات عرائسية على ضفاف الآبار ، بأنفسهن ونفيسهن إلى أعماق هذه المياه الجارية التي لا يسبر غورها . فكانت تطفو على السطح

(1) ثينوته : هي بئر عميقة واسعة .

الزهور والتيجان والحلي . لكن العرائس مكثن في حماة الطين القصي مشدودات إلى الماء بسلاسلهن الذهبية<sup>(١)</sup> .

لقد أنقذ جزء ضئيل جداً من هذه الجواهر بعد آلاف السنين فوضعت في واجهات متاحف المكسيك وأمريكا الشمالية . بيد أنني حين تغلغلت في هذه الأنحاء الخالية الوحيدة لم أبحث عن الذهب بل عن صراخ الصبايا الغارقات . لقد خيل إليّ أنني كنت أسمع في نعيب الغربان والخفافيش الغريب ، حشرجة العرائس الجشاء وأني ألح في طيرانها السريع الذي تعبر به العظمة المعتمة للماء السحيق السواعد الصفراء لتلك الصبايا الغريقات .

لقد شاهدت ذات مرة حمامة تجثم فوق التمثال الذي يطيل ذراعه الحجرية البيضاء ويمدها فوق الماء والهواء الخالدين ، لست أدري أي نسر كان يلاحقها ، كانت هي غريبة في تلك الأصقاع حيث لا طير إلا القبرة ذات الصوت الأبكم ، واليمامة ذات الريش الرائع والـ«كوليبري»<sup>(٢)</sup> الفيروزجي والطيور الجارحة الكواسر ، كانت هذه الطيور جميعها فوق راحة يد التمثال ، بيضاء مثل قطرة ثلج فوق الأحجار الاستوائية المصنوع منها التمثال . نظرت إليها مستغرباً إذ إنها جاءت من عالم آخر ، من عالم متناسق ودّي ، أتت من سارية «فيثاغورية»<sup>(٣)</sup> أو من نقطة في البحر الأبيض المتوسط . لقد توقفت عند حافة الدياجير ، عند حاشية المنايا . فاحتقرت سكوني وهي لا تدري أنني كذلك أتتمي إلى هذا العالم البدائي ، الأمريكي الدامي ، القديم العريق فطارت أمام عيني إلى أن ضاعت في السماء .

### الرسامون المكسيكيون:

كان الرسم مسيطراً على الحياة الفكرية في المكسيك ، الرسامون المكسيكيون يغطون العاصمة بتاريخ وجغرافيا ، بغارات مدنية ، بمجادلات حديدية . على قمة من

---

(١) من المعروف أن حضارة المكسيك هي حضارة قديمة جداً ، وما زال التشابه الموجود بينها وبين الحضارة المصرية موضع بحث الدارسين وعلماء التاريخ القديم .

(٢) كوليبري Colibri : هو عصفور أمريكي صغير ، ذو منقار طويل ضعيف .

(٣) فيثاغورية : نسبة إلى (فيثاغورس Pitagoras) الفيلسوف وعالم الهندسة اليوناني المشهور .

قمم الرسم إذّاك كان يتربع (خوسه كليمينته أوروثكو)<sup>(١)</sup> ، وهو رجل عملاق أقطع اليد ، نحيل الجسم هزيله ، نوع من (غويا Coya)<sup>(٢)</sup> في وطنه الطيفي . لقد تحدثت معه مرات كثيرة ، كان شخصه يبدو خالياً من العنف الذي يظهر في أعماله الفنية . كانت له نعومة صانع الفخار الذي أضاع يوماً يده في المخرطة ويده الأخرى يشعر أنه لا بد يخلق عوالم لا تنتهي . إن فلاحاته المرميات بالرصاص ، وجنوده وصنّاع اللحام وحوذيّيه وكل ناؤوس رسمه بصلبان رهيبه ، إن هذا كله لهو أكثر ما في رسومنا الأمريكية جدارة بالخلود وسيظل يدل على قساوتنا وعنفتنا .

كان (دييغو ريبيرا)<sup>(٣)</sup> قد عمل كثيراً في تلکم الأعوام وكان يتخاصم مع الناس جميعهم ، ذاك أن الرسام العملاق هذا كان ينتمي إلى عالم الخرافة ، حين كنت أراه كنت أستغرب من أن ليس له ذيول ذات حراشف أو أقدام بحوافر .

كان دائماً خلاقاً ومبتدعاً ، فلقد نشر قبل الحرب العالمية الأولى في باريس (ايليا ايهرينبورغ)<sup>(٤)</sup> كتاباً حول مآثر (ريبيرا) وتزييفاته<sup>(٥)</sup> عنونه : «حياة (خوليو خورينيتو Julio Jurenito) وسلوكه» .

بعض مضي ثلاثين سنة كان (دييغو ريبيرا) لما يزل معلماً كبيراً في الرسم والخرافة ، فقد كان ينصح بأكل اللحم البشري كحمية صحية نافعة ، وكان يعطي وصفات عن كيفية طهي نماذج بشرية من الأعمار جميعها ، مرات أخرى كان يصّر على تنظير العلاقات السحاقيّة وفلسفتها ، وكان يدعم رأيه هذا قائلاً بأن العلاقة السحاقيّة هي العلاقة الأخلاقية الوحيدة بناء على ما دلت عليه أقدم الآثار التاريخية التي عثر عليها في حفريات أشرف هو بنفسه عليها .

أحياناً كان يحدثني خلال ساعات طويلة وهو يحرك عينيه الهنديتين مقطبتين الجبين ويبوح لي بأصله اليهودي . . . أحياناً أخرى وقد نسي الحديث السابق يحلف

(١) خوسه كليمينته أوروثكو : رسام مكسيكي (١٨٨٣-١٩٤٩) .

(٢) غويا Francisco de : رسام إسباني مشهور (١٧٤٦-١٨٢٨) .

(٣) دييغو ريبيرا : رسام مكسيكي (١٨٦٦-١٩٥٧) .

(٤) ايليا ايهرينبورغ Crigorievich : كاتب روسي يهودي (١٨٩١-١٩٦٧) .

(٥) تزييفاته : هنا بمعنى لوحاته التي يقلد فيها لوحات آخرين أو ينقلها طبق الأصل .

ويقسم لي أنه هو والد الجنرال (رومل)<sup>(١)</sup>، ثعلب الصحراء، ويطلب مني أن يظل هذا سراً بيننا لأن افتضاحه يمكن أن يؤدي إلى نتائج خطيرة جداً .

لقد كان لحن صوته المقتنع الرائع، أسلوبه الهادئ، في إعطاء التفاصيل والوصف البديء وأكاذيبه المفاجئة تجعل منه مهذاراً ثرثاراً، رائعاً عذباً، ولا أحد من عرفه واستمع إلى تخريفاته يستطيع أن ينسى عذوبة حديثه وإن كان سفالة .

كان في تلك الفترة (دافيد الفارو سيكيروس) سجيناً، فقد كان أحد الأشخاص قد أركبه في غزوة مسلحة على دار (تروتسكي)<sup>(٢)</sup> . فعرفته أنا وهو في السجن، لكن، في الحقيقة، خارج السجن إذ إننا كنا نخرج مع رئيس السجن، العميد (بيريث رولفو) كي نتناول بضعة من كوؤس الخمر في مكان خفي وكنا نعود في ساعة متأخرة من الليل، فأودع (دافيد) رابتاً على كتفه من خلف الأسلاك حيث يبقى سجيناً إلى اليوم التالي وهكذا . . .

أثناء واحدة من هذه السهرات، بينما كنا نعود من الشارع إلى السجن، تعرفت على أخيه، وهو شخص غريب جداً يدعى (خيسوس سيكيروس)، قد تكون كلمة «مدار» أقرب في وصفه من كلمة «منافق»، كان يتسلل من الجدران دون ضجة أو حركة على الإطلاق وإذ به خلفك أو بجانبك، لا يتكلم إلا قليلاً وإن تكلم فبوشوشة لا تكاد تسمع . كان يحمل في محفظة صغيرة كل ما يمكن أن يحشر فيها؛ من ذلك أربعون أو خمسون مسدساً، كذلك في خفوت وسكون وصمت . ذات مرة دون انتباه مني فتحت المحفظة هذه فاكتشفت مندهشاً دار الترسانة هذه بمقابض سوداء، لؤلؤية وفضية .

لقد كان هذا كله في سبيل لا شيء، إذ إن (خيسوس)، كان مسلماً جداً بقدر ما كان أخوه (داود) مشاغباً . وكان لـ (خيسوس) أيضاً مواهب فنية كأخيه، فقد كان مثلاً كبيراً يجيد نوعاً من التمثيل الصامت، دون تحريك الجسد أو اليدين، دون بث أي صوت، لا يتحرك فيه إلا وجهه الذي يبدل ملامحه إرادياً فيعبر عما هو حي كأن له براقع متلاحقة متبدلة، عن الخوف، عن الكآبة، عن الفرح، عن الحنان . كان هذا

---

(١) Rommel, Ervin: هو المارشال الألماني المعروف بشعلب الصحراء، الذي كان يقود القوات

الألمانية في معارك الصحراء الليبية .

(٢) تروتسكي Trotiski Lev: السياسي والمفكر الروسي المعروف (١٨٧٦-١٩٤٠) .

الوجه الشاحب لهذا الشيخ يصحبه في متاهاته الحيوية كلما طلع أو برز أو قفز من حين إلى حين وهو محمل بمسدرات ما استعملها ألبتة .

. كما هؤلاء الرسامون البركانيون يجذبون إليهم الرأي العام كله ، فقد كانوا أحياناً يقومون بمناقشات حادة عنيفة . ذات مرة بعد أن استنفدت الحجج أخرج كل من (دييغو ريبيرا) و(سيكيروس) مسدسيه الكبيرين وأطلقا النار تقريباً في الوقت نفسه . لكن ، على أجنحة الملائكة المصنوعة من الجصّ المعلقة في سقف المسرح حين بدأت ريش الجصّ الكبيرة تتساقط فوق رؤوس المتفرجين ، خرج هؤلاء من المسرح مهولين فرعين ، وانتهت المناقشة برائحة قوية من البارود وبقاعة فارغة .

لم يكن (روفينو تامايو Rufino Tomayo)<sup>(١)</sup> يعيش إذّاك في المكسيك بل في نيويورك . ومن هناك تنتشر رسوماته ولوحاته المتأججة المعقدة التي تمثل المكسيك كما تمثلها فواكه أسواقه وأنسجته .

ليس هناك من تشابه بين رسم (دييغو ريبيرا) ورسم (دافيد الغارو سيكيروس) إذ أن (دييغو) هو كلاسيكي ذو خطوط مستقيمة . وهو بهذا الأسلوب المستقيم المنعطف كأنه نوع من علم الخط التاريخي ، راح يربط تاريخ المكسيك بعضه ببعض ويجلو في أعماله برونق وزخرفة نائثة عادات المكسيك ومآسي تاريخه ، فيما (سيكيروس) هو انفجار مزاج بركاني يؤلف بين فنية مدهشة وأبحاث طويلة .

بين الخروج كل ليلة من السجن وبين أحاديث حول الاحتمالات الممكنة ، دبرنا ، أنا و(سيكيروس) نفسه موضوع هربه وحرية ، فطبع له على جواز سفره تأشيرة دخول إلى تشيلي وتوجه نحو وطني تصحبه زوجته (انجيليكا اريناليس) .

كانت حكومة المكسيك قد بنت مدرسة في مدينة «شيان» بتشيلي ، ثم تهدمت هذه المدرسة بالزلازل ، وفي هذه المدرسة رسم (سيكيروس) جدارية فائقة ممتازة . لقد كافأتني الحكومة التشيلية على هذه الخدمة التي قدمتها للثقافة الوطنية بتوقيفي عن عملي لمدة شهرين .

---

(١) روفينو تامايو : رسام مكسيكي ، ولد عام ١٩٠٠ .

لقد قررت زيارة غواتيمالا . فتوجهت إليها بسيارة عبرت بنا برزخ «تيوانتيببات» ، وهي منطقة ذهبية في المكسيك ، بنسائها المرتديات أزياء فراشات وبرائحة في الهواء كرائحة الشهد . من بعد ولجنا غابة «تشياباس» الكبيرة . كنا نوقف السيارة ليلاً مذهلين بالحفيف والضجيج وبرقيات الغابة التي تبثها في جلبة وصخب . فتجيبها الجداجد بأزيز عنيف ، أزيز كوكبي سيار لا يصدق .

كان المكسيك الغريب يمد ظله الأخضر فوق أبنية قديمة عتيقة ، فوق رسومات سحيقة ، فوق جواهر وحلي ، فوق نصب تذكارية ، فوق رؤوس هائلة لحيوانات حجرية ، كل هذا كان يجثم في الغابة ، في الوجود المكسيكي الألفي الخرافي . بعد اجتياز الحدود ، هناك في أعلى أمريكا الوسطى ، بهتني درب «غواتيمالا» الضيق بخطوطه ونباتاته العملاقة وبحيراته الهادئة السطوح كأنها عيون منسية لآلهة معتومة ، ثم بدت غابات الأرز والأنهار العريضة البدائية التي تطل منها قطعان الحمأة والحجر كأنها بشر أحياء يسبحون هناك .

لقد قضيت أسبوعاً مع (ميغيل انخيل استورياس)<sup>(١)</sup> الذي ما كان قد عُرف بعد برواياته المنتصرة الرائعة ، فأدركنا منذ أن تعارفنا أننا ولدنا شقيقين متحابين ، فما افترقنا يوماً واحداً طيلة هذا الأسبوع ، إذ إننا كنا نخطط في الليل لزيارات خاطفة نقوم بها إلى مشان نائية من سلاسل الجبال المملعة بالضباب أو إلى موانئ استوائية United Fruit .

لم يكن للغواتيماليين الحق في الكلام ؛ إذ لم يكن يجزؤ أحد منهم أن يتكلم في السياسة أمام الآخر ، فلقد كانت الحيطان تسمع وتُبلغ بما تسمع . كنا أحياناً نوقف العربية في أعلى الهضبة ، وهناك ، بعد التأكد الدقيق من أنه ليس ثمة من أحد خلف شجرة أو وراء صخرة كنا نحلل الوضع ونتكلم عن الحالة في حديث يطول جداً . كان زعيم «غواتيمالا» إذّاك رجلاً يُدعى (أوبيكو) ، يتربع على سدة الزعامة منذ سنين طويلة ، وكان بديناً ثخيناً ، ذا نظرة باردة ، قاسياً جباراً في إخلاص وتفان لجبروته وطغيانه ، هو يلمي القانون وهو الأمر النهائي وليس لأحد أن يتحرك أو ينطق

(١) ميغيل انخيل استورياس : روائي من «غواتيمالا» فاز بجائزة نوبل للاداب قبل (نيرودا) (١٨٩٩-

في غواتيمالا إلا بإمرته وبإذنه ، على أن يكون هذا في صريح العبارة والإشارة من لدن سيادته . تعرّقت على أحد مساعديه وهو الآن صديق لي . كان هذا ثورياً جداً إذ تجرّأ ذات يوم فناقش الزعيم في أمر صغير جداً ، فما كان من الزعيم إلا أن قيده هناك وربطه إلى عامود في مكتبه بالقصر الرئاسي وجلّده بلا رحمة عقاباً له على وقاحته وثورته .

طلب مني الشعراء الشباب أن أنشد عليهم بعضاً من قصائدي ، فأرسلوا برقية إلى (أوبيكو) طالبين منه السماح بذلك . فامتلاً المكان بأصدقائي جميعهم وبطلبة شبان ، فقرأت متشرفاً بعضاً من قصائدي ، لأنه بدا لي أنها قد تفتح شيئاً من نافذة ذلك السجن الكبير . جلس رئيس الشرطة في مكان بارز في أول صف جلسة تفتيش وتحمّر وإنذار . من بعد عرفت أن أربع بنادق سريعة الطلقات كانت قد ركزت هناك ووُجّهت نحوي ونحو الجمهور . كانت ستنتقل فيما إذا غادر رئيس الشرطة مقعده وقاطع قراءة الشعر .

لكن ما جرى شيء يستدعي ذلك ، فقد ظل رئيس الشرطة في مقعده يستمع إلى أشعاري حتى النهاية .

ثم رغبوا بتقديمي إلى الديكتاتور ، كان رجلاً متورماً بهوس جنون نابليون ، وكان يدع خصلة من شعره تتدلى فوق جبينه ويقف في تصنع وقفة (بونابرت) . قالوا لي إن رفض هذه اللقطة الكريمة هو أمر خطير جداً ، لكنني أثرت ألا أسلم عليه فعدت مسرعاً إلى المكسيك .

### مختارات من المسدسات:

لقد كان المكسيك في ذلك الوقت أكثر مسدسياً منه استعمالاً لهذه المسدسات في القتل . كان فيه نوع من العبادة نحو المسدس ، نوع من الوثنية . وكان حاملو المسدسات يخرجون كي يلمعوا بمسدساتهم مزهوين مفتخرين . وكان المرشحون إلى النيابة والصحف يبدأون حملات «نزع المسدسات» دائماً ، ولكنهم يدركون أنه أسهل على رجل مكسيكي نزع سنه من نزع سلاحه الناري الحبيب إلى قلبه جداً .

أقام لي ذات مرة الشعراء حفلة تكريم في نزهة على ظهر سفينة قد زُينت بالزهور والأضواء ببحيرة «أكسيوشيميلكو» ، اجتمع ما يقرب من عشرين شاعراً متجولاً فأبحرت معهم بين المياه والزهور عبر القنوات والوعور في ذلك المصب المخصص

للتنزهات الزهرية منذ عهد «الاستيكيين»<sup>(١)</sup>. كان الزورق الكبير يختال في زينة من الزهور على كل جانب وفي أشكال ودمى وألوان زاهية . إن أيادي المكسيكيين لهي مثل أيدي الصينيين غير قادرة على صنع أي شيء قبيح ، سواء أكان من الحجر أم الفضة أم الطين أم القرنفل .

لقد أصرَّ عليّ أحد أولئك الشعراء خلال العبور ، بعد تجرُّع العديد من أقذاح «تيكيلا»<sup>(٢)</sup> كي ينوع في التكرم ويمنح الحفل شيئاً جديداً ، أن أطلق إلى الفضاء بعبارة نارية من مسدسه الجميل الذي كان له في مقبضه ترصيعات من ذهب ومن فضة ، وإذ بالزميل الأقرب إلينا يخرج من حزامه مسدسه وينحني جانباً مسدس المقدم الأول ، وهو في حماسة بالغة ، ثم يدعوني أن أطلق من مسدسه ما شئت من العيارات النارية . في هذا الشغب والهيّاج هبّ الشعراء الرواة الآخرون ، كل يدافع بإصرار عن مسدسه فتحلّقوا حولي وحوموا فوق رأسي ، يريد كل منهم أن اختار مسدسه وليس مسدس الآخر ، ذلك السرادق من المسدسات الذي كان يتصالب أمام أنفي أو يمر تحت إبطي كان يصبح أكثر تهديداً وخطراً على حياتي في كل مرة ، إلى أن خطر لي أن أخذ قبعة مكسيكية أصيلة كبيرة فالتقطت المسدسات كلها في مستقر هذه القبعة ، فطلبت من طابور الشعراء المتحلّق باسم الشعر والسلام أن يدعوا لي مسدساتهم في هذه القبعة ، فأطاعوا جميعاً وبهذا الشكل استطعت أن أصادر لهم مسدساتهم لعدة أيام واحتفظت بها في داري . أعتقد أنني الشاعر الوحيد الذي على شرفه قد قدّمت له مختارات من المسدسات .

### لماذا نيرودا:

كان قد اجتمع في المكسيك ملح العالم . كتاب كثيرون من أقطار العالم جميعها التجأوا إلى الحرية المكسيكية ، فيما كانت الحرب في أوروبا تمتد وتطول وقوات هتلر تحقق الانتصارات واحداً إثر آخر ، بعد أن اكتسحت فرنسا وإيطاليا . هناك في المكسيك كان يقيم (أنا سيجيرس) والمهرج التشيكوسلوفاكي (اغون ايروين كيش) الذي توفي في ما بعد ، وآخرون كثيرون . إن (كيش) هذا ترك بعض الكتب الساحرة

(١) الاستيكيون : هم سكان المكسيك القدماء .

(٢) تيكيللا : نوع من الخمر يشبه «الجن» .



الأخاذة وكنت أنا أعجب كثيراً بعبقريته الفذة وبتمارينه الطفولية وبمعرفته بالشعوذة والتهريج . كان ما إن يدخل إلى بيتي حتى يُخرج بيضة من أذنه أو يبتلع على جرعات سبع قطع من النقود ، كان هذا الكاتب الكبير المسكين المنفي في أمس الحاجة إليها . كنا قد تعارفنا في إسبانيا ، وبما أنه كان يعلن دائماً عن حب الاستطلاع الملح عليه في معرفة لأي سبب أُسمي نفسي (نيرودا) دون أن أكون قد ولدت وارثاً هذا اللقب ، فكنت أقول له مازحاً :

- يا (كيش) العظيم ، إنك أنت مكتشف سر العقيد (ريدل) - قصة مشهورة في التجسس جرت في النمسا عام ١٩١٤- لكنك أبداً لن تستطيع أن تعرف سر اسمي (نيرودا) .

وهكذا كان ، لقد مات في ما بعد في «براغ» وسط تكريمات منحها إليه وطنه المحرر ، غير أنه ما استطاع ذلك الباحث المحترف أن يعرف لماذا (نيرودا) يُدعى (نيرودا) .

لقد كان الجواب سهلاً جداً وهو لا يتضمن ما يبعث على الروعة أو الدهشة ، ومع ذلك فقد كنت لا أبوح به إليه في حيلة مني وتحفظ . حين كان لي من العمر أربع عشرة سنة كان والدي يضطهد نشاطي الأدبي في إمعان وتعنت ، إذ لم يكن يرضيه أن يكون له ولد شاعر . كي أخفي أوائل أشعاري فقد بحثت لي عن لقب أتبتّه لأنشر به هذه الأشعار ، وبهذا يعمّه والدي عن تبيان جلية الأمر ، فعثرت في إحدى المجلات على هذا الاسم التشيكي دون أن أدري إنه اسم كاتب كبير يجله شعب بكامله ، وأنه مؤلف «بالادا»<sup>(١)</sup> وكاتب «رومانشيه»<sup>(٢)</sup> جميلة جداً ، وأن له نصباً تذكاريّاً منتصباً في حي «مالا سترانا» براغ . ما إن وصلت ، بعد سنين كثيرة ، إلى تشيكوسلوفاكيا ، حتى هرعت فوضعت زهرة عند أقدام تمثاله الملتحي .

### اليوم السابق على «بيرل هاريز»:

كان يتردد إلى بيتي ، من الإسبان ، (وينشيلاسو روثيس) و(كونستانثيا دي لا مورا) وهي جمهورية ، قريبة (دوق ماورا) ، وكتابها Inplace of Splendor كان

(١) بالادا Paladala : هي قصيدة عاطفية روائية ذات أبيات متوازية متناسقة نشأت في شمال أوروبا .

(٢) رومانثيه Romance : هي قصيدة غنائية ذات قافية واحدة تعاد في البيت الثاني .

Bestseller في الولايات المتحدة ، و(ليون فيليبس) ، و(خوان ريخانو)<sup>(١)</sup> ، ومورينو بيًا و(هيريرا بيتيره)<sup>(٢)</sup> وهؤلاء جميعهم شعراء ، و(ميغيل بربيتو) و(رودريغيث لونا) وهما رسامان . ومن الإيطاليين (فيتوريو فيدالي) ، وهو شهير لأنه كان هو المقدم (كارلوس) في الطابور الخامس ، و(ماريو مونتغانانا) وهما منفيان إيطاليان ، مليشان بالذكريات والحكايا المدهشة والثقافة الدائمة الحركة . وهناك كان أيضاً (جاك سوستيل) و(جيليبرت ميديوني) ، وكان يتكاثرت المتجشون طوعاً أو على مضض وإكراه من جمهوريات أمريكا الوسطى ؛ غواتيماليون ، سالفادوريون ، هوندوريون . كان هؤلاء جميعاً يملأون المكسيك ويصبغونه بأهمية أمية ، وكانت داري ، وهي عبارة عن منزل قديم في حي «سان انخيل» تخفق كما لو كانت قلب العالم .

مع (سوستيل) هذا الذي كان آنذاك اشتراكياً من اليسار الفرنسي ، والذي بعد سنين أزعج كثيراً الجنرال (ديغول) حين كان هو رئيساً سياسياً للانقلابيين المتمردين في الجزائر ، وقع لي شيء أجدني مضطراً أن أرويه هنا .

كان عام ١٩٤١ قد تقدم ، والنازيون كانوا يحاصرون مدينة «لينينغراد» ويتوغلون في أراض سوفيتية أخرى . كان الثعالب ، العسكريون اليابانيون الملتزمون بمحور برلين روما طوكيو ، يخشون أن يخسروا حصتهم من غنيمة الحرب التي كانت تربحها ألمانيا . كانت تدور عبر العالم شائعات كثيرة تشير إلى أن ساعة الصفر التي فيها تنطلق من الشرق الأقصى القوة الهائلة اليابانية آتية لا ريب . فيما كانت بعثة سلام يابانية تؤدي تحية التملق للحكومة الأمريكية في واشنطن لم يكن ثمة مجال للشك في أن اليابانيين سيشنون هجوماً مفاجئاً عما قريب ؛ إذ إن «الحرب الخاطفة المباغثة» كانت النموذج الدامي لتلك الفترة .

عليّ أن أوضح قبل كل شيء كيما تفهم حكايتي التي سأرويها إثر هذا التوضيح ، أن خطأ يابانياً قديماً من البواخر كان يربط اليابان بتشيلي ، لقد سافرت أنا

(١) خوان ريخانو : شاعر إسباني ولد عام ١٩٠٣ ولجأ إلى المكسيك عام ١٩٣٦ ، مثل زميله الشاعر (ليون فيليبس) وآخرين كثيرين . توفي عام ١٩٧٥ .

(٢) هيريرا بيتيره 'Jose' : شاعر وروائي إسباني ولد عام ١٩١٠ ولجأ إلى فرنسا عام ١٩٣٦ ، ثم إلى المكسيك ، ثم إلى السويد .

أكثر من مرة في هذه السفن وكنت أعرف خط مسيرها ، كانت تتوقف في موانئنا ويهبط منها بحارتها المختصون بشراء الحديد القديم والتقاط الصور ، ثم تُحاذي هذه البواخر الشاطئ التشيلى كله ، فشاطئ «البيرو» ، و«الأكوادور» وتستمر حتى ميناء «مانثانيو» المكسيكي ، كى توجه قيدومها نحو «يوكوهاما» مجتازة المحيط الهادى . حسناً إذن ، ذات يوم وأنا ما زلت بعد قنصلاً عاماً لتشيلى فى المكسيك ، قدم إلى القنصلية سبعة من اليابانيين فطلبوا منى فى إلحاح واستعجال أن أعطيهم إشارات دخول إلى تشيلى ، وقد جاء هؤلاء من الشريط الساحلى لأمريكا الشمالية ، من «سان فرانسيسكو» من «لوس أنجليس» ومن موانئ أخرى ، كانت وجوههم تتم عن بعض القلق والاضطراب ، وكانوا أنيقى اللباس مزودين بوثائق وجوازات سفر ، وعليهم ملامح مهندسين أو صناعيين منفذين .

لقد سألتهم ، طبعاً ، لماذا يريدون الذهاب إلى تشيلى فى أول طائرة تقلع مع أنهم حديثو الوصول إلى المكسيك ، أجبونى بأنهم يرغبون للحاق بباخرة يابانية راسية فى ميناء «توكويبا» بتشيلي ، وهو ميناء لتصدير ملح البارود الناتج من شمال تشيلى . أحببتهم على ما قالوه بأنهم ليسوا بحاجة إلى السفر إلى تشيلى ، وهى فى الطرف الآخر من القارة الأمريكية ، نظراً لأن هذه البواخر اليابانية نفسها ، عادة ، ترسو فى ميناء «مانثانيو» المكسيكى ، حيث يستطيعون أن يصلوا مشياً على الأقدام وفى وقت قريب جداً .

نظر بعضهم إلى بعض وابتسموا مضطربين ، تكلموا فى ما بينهم بلغتهم ثم تشاوروا وسكرتير السفارة الذى كان يرافقهم . هذا السكرتير كان صريحاً معى فقال :

- انظر ، أيها الزميل ، إن ما جرى هو أن هذه الباخرة قد غيرت طريقها ولن ترسو بعد فى ميناء «مانثانيو» . وإذن ، على هؤلاء السادة الاختصاصيين المتميزين أن يذهبوا إلى الميناء التشيلى كى يلحقوا بالباخرة .

لقد مر فى ذهني بسرعة أنني أمام شيء مهم جداً ، فطلبت منهم جوازات سفرهم ، ومعلومات عن عملهم فى الولايات المتحدة ، وقلت لهم تَوّاً أن يعودوا فى اليوم التالى .

لم يكونوا موافقين فقد كانوا يحتاجون إلى تأشيرات الدخول حالاً وكانوا على استعداد لدفع أى ثمن فى سبيل الحصول عليها .

بما أن ما كنت أحاوله أنا هو كسب الوقت ، فقد قلت لهم إنه ليس من  
صلاحياتي إعطاء تأشيرات دخول إلا بعد استشارة ، وإننا سنتكلم عن هذا في اليوم  
التالي .

ظللت وحيداً بعد أن انصرفوا .

شيئاً فشيئاً بدأ يتوضح في ذهني اللغز ، لماذا هذا الهرب العاجل من الولايات  
المتحدة وهذا الاستعجال في الحصول على التأشيرات؟ أفتغير الباخرة اليابانية اتجاهها  
لأول مرة منذ ثلاثين سنة؟ فماذا يعني كل هذا؟ لا بد أن الأمر يتعلق في أنهم  
مجموعة من الجواسيس اليابانيين المهمين جداً ، وأنهم بعد تأدية مهمة مستعجلة في  
الولايات المتحدة هربوا منها ، وهم الآن على عجل نظراً لأنهم يعرفون أن أمراً خطيراً  
لا بد واقع في الحال ، وأن هذا الأمر ما هو إلا مشاركة اليابان في الحرب .

هذه النتيجة التي توصلت إليها جعلتني في حالة عصبية بالغة ، ماذا أستطيع أن  
أفعل؟

لم أكن أعرف من ممثلي الأمم الخليفة للمكسيك لا إنجليزاً ولا أمريكيين  
شمالين ، ما كنت على اتصال وثيق إلا بأولئك الذين عينوا ممثلين رسميين للجنرال  
ديغول وهم على علاقة وطيدة بالحكومة المكسيكية .

اتصلت بهم في سرعة ، شرحت لهم الوضع ، وها هي في حوزتنا أسماء هؤلاء  
اليابانيين وأوراقهم ، فإن قرر الفرنسيون التدخل في هذا الشأن فإننا سنلقي القبض  
عليهم ، هذه حجتي التي أبديتها إليهم متحمساً . ثم إثر ملاحظة الجمود وعدم  
الاهتمام بما قلته وأبديته قلت يائساً من هؤلاء الممثلين الديغوليين :

- أيها الديبلوماسيون الشبان ، اكتشفوا سر هؤلاء العملاء اليابانيين تكسبوا  
الفخر والمجد ، من ناحيتي فإنني لن أمنحهم تأشيرات الدخول ، لكن على حضراتكم  
أن تسرعوا في اتخاذ قراركم حول هذا الشأن .

دام هذا الشد والشد<sup>(١)</sup> أكثر من يومين ، لم يهتم (سوستيل) بالموضوع إطلاقاً ، لم يشأ  
أن يعمل شيئاً ، وأنا ، كقنصل بسيط لتشيلي ، ما كنت لأستطيع أن أفعل أكثر مما  
فعلت . تجاه رفضي إعطاءهم تأشيرات الدخول اضطر اليابانيون أن يحصلوا في سرعة  
على جوازات سفر دبلوماسية وتوجهوا إلى السفارة التشيلية فحصلوا منها على هذه

(١) الشد والشد : تعبير إسباني ، واضح المعنى .

التأثيرات ، فوصلوا في الوقت المناسب إلى «توكابيا» حيث ركبوا في باخرتهم المقصودة .  
بعد أسبوع استيقظ العالم على خبر الإغارة على ميناء «بيرل هاربور» .

### أنا ، الـمالاكولوغو،

لقد نشر في صحيفة بتشيلي ، منذ عدة سنين ، أنه حين وصل صديقي المخلص  
الأستاذ المشهور (جوليان هوكسلي Julian Huxley)<sup>(١)</sup> إلى «سانتياغو» ، سأل عني  
في المطار :

- أفتسأل عن الشاعر (نيرودا)؟ - أجابه الصحفيون .

- كلا ، أنا لا أعرف أي شاعر باسم (نيرودا) ، بل إنني أريد التكلم مع «الـ  
مالاكولوغو» (نيرودا) . إن هذه الكلمة الإغريقية «مالاكولوغو» تعني : «الاختصاص  
في الرخويات» .

لقد منحنتي هذه الحكاية التي كان يستهدف منها إزعاجي ، لذة عارمة . ولم  
يكن (هوكسلي) ليقصد منها إزعاجي لأننا كنا صديقين منذ سنين كثيرة ، على  
فكرة هو إنسان ظريف جداً وهو أكثر أصالة وحيوية من أخيه الشهير (الدوس) .

لقد كنت في المكسيك أذهب إلى الشواطئ وأغرق نفسي في مياهها الشفافة  
الدايفة لألتقط أصداً ومحاراً بحرية رائعة جميلة ، من بعد ، في كوبا وفي أماكن  
أخرى ، كنت أفعل الشيء نفسه ، فراح كنزي البحري يتضخم عن طريق هذا الصيد  
وعن طريق المفايضة والشراء والهدايا والسراقات (ليس ثمة من جامع شيء ، شريف  
البتة) إلى أن ملأ غراًفاً كثيرة في منزلي .

كنت أملك أكثر الأصناف غرابة من بحار تشيلي ، الفيليبين ، اليابان ، البلطيق ،  
جعدات من القطب الجنوبي ، حلزونات ملونة من بحر كوبا ، قوقعات رسامات  
لابسات أحمر وزعفرانياً<sup>(٢)</sup> ، أزرق<sup>(٣)</sup> وبنفسجياً كأنهن راقصات بحر الكريبي ، الحق  
أقول إن النوع الوحيد الذي كان ينقصني هو حلزونة أرضية من ماتو غروسو Mato  
Crosso بالبرازيل ، رأيتهما مرة فلم أستطع شراءها وما قدرت على السفر إلى الغابة

(١) جوليان هوكسلي : عالم بالاحياء وكاتب إنجليزي ولد عام ١٨٨٧ .

(٢) زعفران : هكذا في الأصل Azaferan ، عن العربية .

(٣) أزرق Azul : الكلمة مأخوذة عن الكلمة العربية ذات الأصل الفارسي لازورد .

كي ألتقطها من هناك ، كانت خضراء كلها في جمال زمردة شابة فتية .  
لقد بالغت في هذا المذهب الحلزوني حتى إنني قمت بزيارة بحار نائية قصية ،  
كذلك أصدقائي بدأوا في البحث عن حلزونات في «تحلزة» معدية .  
أما بالنسبة للتي كانت تنتمي إليّ فقد جاورت الخمسة عشر ألفاً ، كانت تملأ  
الرفوف كلها وكانت تتساقط من على الموائد والكراسي . وكتب علم الحلزونات أو  
«مالاكولوجيا» ، فلتسمّ بما تسمى ، ملأت مكتبتي كذلك . ذات يوم أمسكتها  
جميعها ووضعتها في صناديق كبيرة ثم حملتها إلى جامعة تشيلي ، فكانت أولى  
هباتي إلى الروح الأم Alma Mater وكانت مجموعتي هذه ذات شهرة واسعة  
فاستلمتها جامعتي ، هذه المؤسسة الجيدة ، في تشكرات وخطابات ثم دفنتها في  
قبو ، أبداً من بعد ما رثيت ولا شوهدت .

### «أراوكانيا» (Araucania) :

حينما كنت بعيداً ، متميزاً في جزر الأرخبيل البعيد ، كان البحر يوشوش  
والعالم الصامت كان مفعماً بأشياء تحكي عن وحدتي وعزلي ، لكن الحروب الباردة  
والساخنة لوّثت الخدمة القنصلية وجعلت من كل قنصل تمثلاً متحركاً وصنماً من  
غير شخصية لا يستطيع أن يقرر أي شيء ، وكان عمله يدنو كثيراً بشكل مشبوه من  
عمل الشرطة .

كانت الوزارة تفرض عليّ أن أتحرى الأصول العرقية للناس : أفريقيين ، آسيويين ،  
يهوداً ، ولا أحد من هذه المجموعات الإنسانية كان يستطيع الدخول إلى وطني .  
كانت الحماسة تبلغ مدى بعيداً إلى درجة أنني كنت أغدو أنا ضحية لها ، فحين  
أسّست ، دون أي قرش من خزانة الدولة التشيلية ، مجلة متقنة عنونها «أراوكانيا»  
ووضعت على الغلاف صورة امرأة أراوكانية جميلة تضحك بكل أسنانها ، كان هذا  
كافياً لكي تلفت وزارة الخارجية نظري في لهجة شديدة لأنها اعتبرت المجلة استخفافاً  
وعصياناً ، علماً بأن رئيس الجمهورية السيد (بيدرو أغيره ثيردا) له وجه نبيل لطيف  
تبدو في سحناته مواد خلاسيّتنا وهجنتنا كلها .

إنه ليُعرف أن قبائل «أراوكانو» قد أيّدت عن بكرة أبيها ، ثم في النهاية تنوسيت  
بعد أن هُزمت لأن التاريخ لا يكتبه إلا الغالبون أو الذين يجنون ثمرة الانتصار . بيد أنه  
ليس فوق هذه الأرض إلا أجناس قليلة تفوق في جدارتها الجنس «الأراوكاني» .

وسياتي اليوم الذي نرى فيه جامعات أراوكانية وكتباً مطبوعة باللغة الأراوكانية ، وعند ذلك سنعرف ما فقدناه من صفاء ونقاء وطاقه بركانية .

إن الادعاءات «العرقية» الباطلة عند بعض أم أمريكا الجنوبية التي هي نفسها نتاج تصالبات واختلاطات خلاسية هجينة لهي طرحة<sup>(١)</sup> من نوع استعماري . يريدون نصب سقالة حيث بضعة وجهاء بيض موسوسون متشككون أو «مستبيضون» يقدمون أنفسهم في المجتمع وهم يومثون إلى أنفسهم أمام الأريين الأنقياء أو السواح السفسطائين . لحسن الحظ هذا أصبح من مخلقات الماضي وها هي الأمم المتحدة مليئة بمندوبين سود ومنغوليين (صفر) ، أي أن نبات الأجناس الإنسانية يعرض ، بنسخ الذكاء الذي يصعد ، ألوان أوراقه كلها .

لقد انتهى بي الأمر أن ضقت ذرعاً وذات يوم تخليت إلى الأبد عن منصبتي : وظيفة القنصل العام .

### سحروسر:

أضف إلى هذا ، أنني أدركت أن العالم المكسيكي المقموع المردوع ، العنيف القومي ، الملتف بكياسته التي يرجع عهدا إلى ما قبل (كولومبوس) ، سيمضي كما كان بدون حضوري ولا شهادتي .

حين قررت العودة إلى بلدي كنت أفهم الحياة المكسيكية أقل مما كنت أفهمها حين وصلت إلى المكسيك .

كانت الفنون والأداب تنتج في دوائر متنافسة ، لكن الويل لمن يأتي من الخارج فيميل إلى جانب ضد آخر أو يكون مع فئة ضد أخرى ، فإن هؤلاء وأولئك سينقضون عليه ويسحقونه .

عندما هيات نفسي للسفر ، أقاموا لي مظاهرة هائلة ؛ حفلة عشاء حضرها ما يقرب من ثلاثة آلاف مدعو ، دون عد المئات من الذين ما وجدوا مكاناً فارغاً . عدة رؤساء جمهورية أرسلوا يعبرون عن مباركتهم .

بيد أن المكسيك هو حجر المحك لأمريكا كلها ، وليس عبثاً أنه قد نقشت هناك

(١) طرحة : هكذا في الأصل Tara ، وهي تعني ما يطرح من الوزن الكامل مثل وزن الرعاء أو السفظ أو الشاحنة . عن العربية .

ساعة التوقيت الشمسي لأمريكا القديمة ، الدائرة المركزية للبحث ، للمعرفة وللسر .  
إن كل ما كان يمكن أن يجري ، جرى . لقد كان الصحيفة الوحيدة للمعارضة  
تعملها الحكومة ، كانت الديمقراطية الأكثر ديكتاتورية من الديكتاتورية نفسها تحكم  
هناك .

إنني أذكر حادثة مأساوية أثرت في نفسي بشكل رهيب ، كان ثمة إضراب في  
معمل استغرق زمناً طويلاً دون أن يُعثر على أي حل لإنهائه ، ودون أن يُلمح في الجو  
ضوء يشير إلى انتهائه ، فاجتمعت نساء المضربين واتفقن على زيارة رئيس الجمهورية  
كي يشرحن له الموقف ، ربما كنّ يردن أن يعبرن له عن قلقهن وبؤسهن . طبعاً ما كنّ  
ليحملن أسلحة مطلقاً . اشتريين باقة من الورود كي يقدمنها إلى ولي الأمر أو إلى  
زوجته ، كنّ على وشك الولوج إلى القصر حين أوقفهن الحرس الجمهوري فمنع  
عليهن الاستمرار لأن السيد الرئيس ما كان ينوي استقبالهن ، وأمرن بأن يتوجهن إلى  
الوزارة المعنية وأن عليهن أن يخلين المكان حالاً ، فهذا أمر قاطع عاجل .

النساء بيّن قصدهن وشرحن موضوعهن وقلن إنهن لن يتسببن في أي إزعاج  
مهما كان ، وإنهن لا يردن إلا إعطاء هذه الزهور إلى السيد الرئيس أو إلى حرمة  
المصون ، والطلب منه أن يعمل على حل الاضراب في أسرع وقت ممكن ، إذ إنهن لا  
يجدن ما يؤوين به أولادهن ولا ما يسد الرمق ، وإنه من الصعب جداً أن يستمر  
الوضع على هذه الحالة ، فرفض رئيس الحرس أن يحمل أية رسالة أو أي خبر إلى  
السيد الرئيس ، فأصرت النساء من جانبهن على البقاء هناك إلى أن يُلبى طلبهن .  
أنداك سمعت طلقات انطلقت من حرس القصر ، وإذ بسبع من النساء يسقطن  
مضرجات بدمائهن ميتات ، بالإضافة إلى جريحت أخريات .

في اليوم التالي أقيمت الجنائز السبع ، كنت أظن أن موكباً هائلاً سيرافق نعوش  
تلك النساء الشهيدات ، غير أن أشخاصاً قلائل مشوا في الجنائز الموحدة . بلى ، تكلم  
الزعيم النقابي الكبير وكان هذا ثورياً معروفاً ، كان خطابه على المقبرة لا يُقدح فيه لما  
له من أسلوب بلاغي رنان طنان ، قرأته بكامله في اليوم التالي وقد نشرته الصحف ،  
فلم يكن يحتوي على سطر واحد من الاحتجاج ، لم تكن فيه كلمة واحدة من  
الغضب ولا حرف يطالب بمحاكمة المسؤولين عن هذه الفعلة الشنعاء . بعد مضي  
أسبوعين على هذه المجزرة ما كان أحد يتكلم عن الحادثة . أبدأ ما قرأت من بعد أن  
أحداً يشير إلى هذه الحادثة أو يذكرها .



كان رئيس الجمهورية إمبراطوراً «اثتيكياً» ، لا يمكن أن يمس في شيء فهو أكثر رفعة من العائلة البريطانية المالكة بألف مرة . ما من صحيفة ، سواء في مزح أو جد ، كانت تجرؤ على انتقاد هذا الموظف السامي ، وإلا فإنها تتلقى حلاً ضربة مميته قاضية .

إن ما هو جذاب خلّاب ، ليلف مآسي المكسيك إلى درجة أن المرء يعيش مذهولاً أمام التورية ، تورية تبتعد أكثر فأكثر عن النبض الجوهري ، عن الهيكل الدامي . إن الفلاسفة أصبحوا نقاداً في علم الجمال ، ارتموا على البحوث الفنية الوجودية الزهيدة التي تبدو إزاء البركان مشينة معيبة . إن السلوك المدني لمتقطع وصعب . إن القهر ، الإخضاع ، الإذلال ، يأخذ مجاري عديدة ترسب مياهها حول العرش .

لكن كل ما هو سحري ينشأ ويعاد نشوؤه دوماً في المكسيك . من بركان بدأ يولد من جديد فلاحاً في حقله الفقير بينما هو يبذر فاصوليا ، إلى البحث المستمر عن رفات (كورتيس Corte's) الذي حسب ما يقال ، يستريح في المكسيك مع الخنودة الذهبية التي تغطي جمجمة الفاتح ، إلى المتابعة الشديدة التي ليست أقل من الأخرى في البحث عن بقايا الإمبراطور الاثتيكي : (كوانثيموك Cuanthemoc) ، التي ضاعت منذ أربعة قرون والتي قد تظهر هنا أو هناك على حين غرة ، إذ إن هنوداً سرّيين لا يرون يحفظونها ويصونونها ، كي تعود للنسوة مرة أخرى في الليل الطلسم . إن المكسيك يعيش في حياتي مثل نسر صغير ضال يدور في عروقي . ما من شيء سوى الموت يقدر على أن يطوي أجنحته فوق قلبي : قلب جندي غاف .



## الفصل الثامن الوطن في دياجير

«ماكتشو بيكتشو»<sup>(١)</sup>

لقد أسرعت وزارة الخارجية فوافقت على استقالتي من عملي .  
إن انتحاري الدبلوماسي منحني الفرح الأكبر : فرح أنني أستطيع العودة إلى  
تشيلي . إنني لأعتقد في أن الإنسان يجب أن يعيش في وطنه وأومن أن اجتثاث المرء  
من جذوره ، واستئصال البشر من تربتها ، لهما خيبة تعكر وضوح الروح وإحباطاً  
يفسد جلاء النفس . أنا لا أستطيع العيش إلا في أرضي نفسها ، أنا لا أستطيع الحياة  
دون أن أضع قدميّ ويديّ وسمعي في تربة وطني ، أنا لا أستطيع التنفس دون أن  
أحس بدوران مياهها وظلالها ، أنا لا أستطيع النمو دون أن أشعر بجذوري وهي  
تبحث في الحمأة عن الذات الأم ، عن الجواهر الأصل .  
لكن قبل بلوغني تشيلي قمت باكتشاف آخر أضاف تطوراً جديداً إلى تطور  
شعري .

لقد توقفت في «البيرو» وصعدت حتى أطلال «ماكتشو بيكتشو» ، امتطينا  
أحصنة حتى استطعنا السمو إلى أعالي هذه المرتفعات ، إذآك لم يكن ثمة طريق  
معبدة للسيارات . لقد رأيت من على ذراها الأبنية الحجرية القديمة التي تحيط بالقمم  
العالية جداً لسلسلة جبال «الأنديس» الخضراء . كانت تنحدر من القلعة المتآكلة  
المنقزمة بفعل الحت على مضي القرون والدهور ، سيول ووديان ، كانت تصعد من  
نهر «ويلكامايو» Wilcamayo كتل من ضباب أبيض تعمم هذه الذرى ، لقد شعرت

---

(١) ماکتسو بیکتشو : هي بلدة قديمة ، ترتفع ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر ، مبنية من حجر غرانيتي  
أبيض قرب أخدود Urubamba في سلسلة جبال «الأنديس» ، اكتشفها عالم الآثار الإنجليزي  
Hiran Bingham عام ١٩١١ ، وفي أعلى قمة من قمم هذه المدينة تسمو الصخرة المقدسة التي  
توحد الشمس بالمدينة .

بضالتي في مركز تلك السرة الحجرية ، سرة عالم غير مأهول بالسكان ، عالم فخور منيف شاق ، كنت أنتمي إليه بشكل من الأشكال . لقد شعرت أن يدي كانتا قد عملتا هناك في إحدى المراحل التاريخية السحيقة ، كانتا تحفران أحاديث ، تملسان الصخور .

أحسست أنني تشيلي ، بيروي ، أمريكي . عثرت في تلك المرتفعات الوعرة ، بين تلك الأطلال المتناثرة المجيدة ، على عقيدة إيمان كي يستمر غنائي ونشيدي . هناك ولدت قصيدتي «مرتفعات ماكتشو بيكتشو»<sup>(١)</sup> .

### سهوب ملح البارود

لقد وصلت من جديد في نهاية عام ١٩٤٣ إلى «سانتياغو» ، فنزلت في منزلي الذي استطعت تملكه على مدى فترة طويلة بفضل تحسبي لما قد يجيء به المستقبل . في هذا المكان ذي الأشجار الكبيرة السامقة جمعت كتبتي وبدأت مرة أخرى الحياة الصعبة .

لقد بحثت من جديد عن جمال وطني ، جمال الطبيعة العنيف ، عن روعة النساء في بلدي ، عن أعمال زملائي ، عن ذكاء بني وطني .

لم يكن البلد قد تغير أو تبدل ، أرياف وضيق غافية ، فقر مربع في المناطق المنجمية ، والناس المتأنفون يملأون ناديهم : نادي .

لقد سبب لي قراري الذي اتخذته اضطراراً وملاحقة ودقائق نجمية<sup>(٢)</sup> .  
وأبي شاعر يندم؟

إن الصحفي (كورثيو مالا بارت)<sup>(٣)</sup> الذي أجرى معي مقابلة بعد سنوات مضت على ما سأرويهِ الآن ، قال في مقالة ، مصيباً : «لست شيوياً ، لكنني لو كنت شاعراً تشيلياً لأصبحت شيوياً ، كما فعل (بابلو نيرودا) ، يجب على المرء هنا في تشيلي أن يتحزب في سبيل الفقراء ، في سبيل من هم بلا مدرسة وبلا حذاء» .  
لقد اختارني هؤلاء الناس الذين هم بلا مدرسة وبلا حذاء نائباً في مجلس

(١) مرتفعات ماكتشو بيكتشو : لقد ترجمنا هذه القصيدة - الملحمة ولكننا لما نشرها بعد .

(٢) دقائق نجمية : التعبير هنا يشبه ما نقلوه بالعربية ، رؤية نجوم الظهر ، من شدة العذاب والاضطرار .

(٣) كورثيو مالا بارت : صحفي وكاتب إيطالي (١٨٩٨-١٩٥٧) .

الشيخوخة في ٤ آذار من عام ١٩٤٥. إنني سأظل أفتخر مدى حياتي بأن الذين صوتوا لي هم آلاف من التشيليين يعيشون في أقصى منطقة بتشيلي: منطقة المناجم الكبيرة، مناجم للنحاس وملح البارود.

إنه لصعب وعسير جداً المسير عبر هذه السهوب. فالسما لا تمطر في هذه المناطق خلال نصف قرن أو يزيد، والصحراء منحت عمال المناجم سيماء صلبة وملامح متجهمة، فهم رجال ذوو وجوه ملوحة بالشمس محروقة، إن تعبيرات نفوسهم عن الوحدة والعزلة والهجران تختزن في عيونهم ذات الحدة الغامقة والشدة المعتمة. كان عليّ أن أصعد من الصحراء إلى سلسلة الجبال، أن أدخل في كل بيت فقير، أن أعرف الأعمال اللاإنسانية التي يتعرضون لها، أن أشعر أنني مستأمن على آمال الإنسان المنعزل المضطهد المغمور، إن كل هذا ليس بمسؤولية سهلة وعادية. غير أن شعري استطاع أن يفتح طريقاً للاتصال فاستطعت أن أمشي وأن أجري وأن أستقبل على أنني أخ وفي من لدن مواطني الذين يعيشون في ظروف صعبة وحياة قاسية صلبة.

لست أدري، إن كان في باريس أو في براغ، حين راودني شك ضعيف حول موسوعية المعلومات لدى أصدقائي الحاضرين معي هناك، تقريباً كلهم كانوا كتاباً والطلبة كانوا قلة فيهم.

- نحن نتكلم كثيراً عن تشيلي - قلت لهم - وإنني على يقين بأنكم تجاملونني نظراً لأنني تشيلي، لكن، أفتعرفون شيئاً عن بلدي البعيد النائي؟ مثلاً، في أية وسيلة من وسائل النقل نتحرك؟ أعلى فيل، أفي سيارة، أبقطار، أعلى متن طائرة، أعلى دراجة، أم على ظهر جمل أم في مزلفة جليد؟ أجاب أكثرهم في جدية وقناعة: على ظهر فيل.

ليس في تشيلي لا فيلة ولا جمال، لكنني أدرك أنه لأمر مبهم ومحير أن بلداً يولد في القطب الجنوبي الجليدي لينتهي في السهوب السبخة المالحة والصحاري حيث لا مطر منذ نصف قرن على الأقل. كان عليّ أن أجتاز هذه الصحاري وأجوب بها خلال سنين عديدة لأنني كنت نائباً اختاره سكان تلك الفيا في العزلاء، لأنني كنت ممثلاً لتشغيله لا حصر لهم يكذون في ملح البارود والنحاس، هؤلاء ما استعملوا يوماً ربطة عنق قط.

التوغل في تلك السهوب ومواجهة تلك الرمال هو كالدخول في القمر، إن هذا

النوع من الكرة الخالية والكوكب الفارغ يحتزن الثروة الكبرى في وطني ، لكن لا بد من استنباطها من باطن الأرض الجافة القاسية وهذه الأرض ليست مزودة بما يغري للعيش فيها ، إن نقل الماء إليها يكلف جهوداً جديدة ناهيك عن حفظ نبتة تزدهو ولو كانت زهرة متواضعة .

أنا أنتمى إلى الطرف الآخر من الجمهورية التشيلية ، فقد ولدت في أراض خضراء ذات أشجار غابية فكانت لي طفولة ذات مطر وثلج . إن اضطراري لمجاهاة تلك الصحراء القمرية كان يعني انقلاباً في وجودي كذلك أن تمثيل أولئك الرجال في مجلس الشيوخ ، وتمثيل أراضيهم الهائلة المنعزلة كان مشروعاً صعباً وعملاً شاقاً . إن الأرض العارية بلا حشيشة واحدة ، ولا قطرة ماء تائهة ، لهي سر شديد ولغز نفور . في ما تحت الغابات ، إزاء الأنهار ، كل شيء يكلم الإنسان ، الصحراء هي على العكس من هذا لا تخاطب أحداً وأنا ما كنت لأفهم لغتها ، أي ، صمتها .

خلال سنين طويلة ركزت مؤسسات ملح البارود سيطرة حقيقية : إقطاعيات أو ممالك في تلك السهوب ولقد أغلق الإنجليز ، الألمان ، وتشكيلة الغزاة المحتلين كلهم على هذه الأراضي المنتجة لملاح البارود وأقطعوها لأنفسهم وأعطوها اسم مكاتب . هناك صكوا عملة خاصة بهم فرضوها على العمال ، ومنعوا أي اجتماع قد يعقدونه وحرموا الأحزاب ومنعوا الصحافة الشعبية . لم يكن من السهل الدخول إلى تلك المناطق إلا بسماح خاص لا يتوصل إليه إلا القلة المختارة .

كنت ذات مساء أتحدث إلى عمال مرآب في مكاتب ملح البارود التابعة لـ(ماريا إلينا) . كانت أرضية هذا المرآب دائماً موحلة بالماء والزيت والسوائل ، فكنت والقادة النقابيين الذين اصطحبوني ندوس على ألواح ثخينة تعزلنا عن الأرض الموحلة . إن هذه الألواح الثخينة -قالوا لي- كلفتنا خمسة عشر إضراباً متتابعاً وثمانين سنوات من الإلحاح وسبع ضحايا .

بالنسبة للضحايا السبع فقد قصوا عليّ أنه في أحد الاضرابات هذه ، أخذت شرطة الشركة سبعة من قادة العمال ، كذ الحراس يمتطون الخيل فيما العمال وهم مربوطون إلى الخيول بحبال يتابعونهم على الأقدام عبر الأراضي الرملية النائية ثم أفرغوا فيهم ما شاءوا من العيارات النارية . ظلت أجسادهم ممددة تحت أشعة الشمس المتوهجة اللاهبة وبرد الصحراء القارص إلى أن عثر عليهم رفاقهم فدفنوهم .

من قبل كانت الأشياء أسوأ كثيراً ، مثلاً ، في عام ١٩٠٦ بـ«ايكيكه» نزل

المضربون إلى المدينة من مكاتب ملح البارود جميعها ، كي يقدموا مطالبهم مباشرة إلى الحكومة ، فاجتمع آلاف الرجال المنهكين بما قاسوه من المسير الطويل للاستراحة في ساحة تجاه مدرسة هناك ، كانوا ينوون أن يتوجهوا في صباح اليوم التالي ليروا حاكم المنطقة فيعرضوا عليه مطالبهم ، لكنهم ما استطاعوا أن ينفذوا ما عزموا عليه ، فلقد قدمت في فجر ذلك اليوم قوات عسكرية يقودها عقيد فأحاطت بالساحة وبدأت بإطلاق النار والتقتيل دون أي إنذار أو تحذير فسقط صريعاً في تلك المجزرة أكثر من ستة آلاف رجل .

في عام ١٩٤٥ كانت الأمور تجري في صورة أحسن ، لكن ، أحياناً ، كان يبدو لي ، أن زمن الإبادة الجماعية يعود من جديد . ذات مرة مُنعت من التوجه إلى العمال في محل النقابة ، فدعوتهم أنا إلى خارج ذلك السور ، وفي وسط الصحراء بدأت أشرح لهم الوضع وأبين لهم الوسائل الممكنة للخروج من هذه الحالة التي هم عليها ، كنا ما يقرب من مائتي شخص وإذ بي أسمع ضجة ألياء تقترب ، على بعد أربعة أمتار أو خمسة مني وفتت دبابة عسكرية ثم فتحت فوهتها وأطلت فوهة رشاش منها قد صوّب نحو رأسي ، ثم أطل قرب الرشاش ضابط متأنق جداً لكنه جاد جداً ، اقتصر على توجيه نظرة إليّ بينما كنت أتابع خطابي ، وهذا كان كل شيء .

إن الثقة التي وضعها في الشيوعيين أولئك العمال الكثيرون ، وهم أميون في غالبيتهم ، كانت قد ولدت مع (لويس إيميليو ريكابرين) الذي بدأ فضاله في هذه المنطقة اليباب . من عامل محرض بسيط ، من فوضوي قديم ، تحول إلى حضور شبحي هائل في كل مكان ، فلقد ملأ البلد بالنقابات والاتحادات واستطاع أن ينشر أكثر من خمس عشرة صحيفة مهمتها الدفاع عن هذه المنظمات الجديدة التي خلقها ، وكل هذا بلا أي سنتيم . كان المال يخرج من الضمير الجديد الذي كان العمال قد تبّنوه وتكفّلوا به .

لقد رأيت في بعض الأماكن مطابع (ريكابرين) التي خدمت قضية العمال في بطولة وجرأة ، وظلت تعمل في سبيل هذه القضية أكثر من أربعين سنة ، بعض هذه الآلات حطمها رجال الشرطة ثم أصلحت من بعد في دقة واعتناء ، وكانت تلمح فيها الندوب الهائلة تحت اللحم الغرامي الودّي الذي جعلها تتحرك من جديد .

لقد تعودت في تلك الجولات الكثيرة التي كنت أقوم بها عبر السهوب أن أنزل في أكثر البيوت فقراً ، في بيوت صغيرة ، أو أكواخ أو أخصاص يقطنها رجال

الصحراء . كان ينتظرنني دوماً عند مداخل المناجم مجموعة من العمال وهم يحملون رايات صغيرة للترحيب بي ، من بعد كانوا يدلونني على المكان الذي سأبيت فيه . ثم يتوافد عليّ في غرفتي خلال اليوم كله نساء ورجال يعرضون عليّ شكاواهم العمالية ونزاعاتهم المحلية أو العائلية . هذه الشكاوى كان لها أحياناً طابع قد يراه من هو غريب ، مضحكاً هزلياً ؛ مثلاً نقص الشاي قد يؤدي بهم إلى شن إضراب ذي نتائج خطيرة . أهو من الضروريات الملحة كما هو الأمر عليه في لندن ، في هذه المنطقة البائسة الفقيرة؟ لكن ، ما هو أكيد أن الشعب التشيلي لا يمكن له أن يعيش دون تناول الشاي عدة مرات في اليوم ، كان العمال الحفاة الذين يسألونني عن سبب فقدان هذا الشيء الغريب ، هذا المشروب الكريه الطعم ، لكنه ضروري لا غنى عنه ، يقدمون لي حجة عذر قائلين :

- إننا ، إن لم نتناوله ، نشعر بوجع شديد في الرأس .

لقد كان لأولئك العمال المسجونين خلف جدران الصمت ، فوق الأرض المتوحدة وتحته السماء المتوحدة ، حب الاستطلاع السياسي الحيوي ، كانوا يريدون أن يعرفوا ماذا يجري في يوغوسلافيا أو في الصين ، كانوا يهتمون بالتغييرات والتحويلات والمصاعب في البلدان الاشتراكية ، وبناتج الإضرابات العمالية الكبيرة في إيطاليا ، وبشائعات الحروب وبظهور الثوار في أكثر الأماكن بعداً عن تشيلي .

كنت أستمع دوماً خلال الاجتماعات التي تنعقد هنا وهناك إلى مطلب ملح متكرر ألا وهو أن أقرأ عليهم بعضاً من قصائدي ، وكثيراً من المرات يطلبون هذه القصائد بأسمائها . طبعاً ما فهمت أبداً أو عرفت في ما إذا كانوا جميعاً يفهمون أو لا يفهمون ، يدركون أو لا يدركون القليل أو الكثير من أبيات قصائدي التي أنشدها ، فلقد كان هذا صعب التحديد في ذلك الجو من الإطراق والسكون المطلق ، من الاحترام المقدس الذي كانوا ينصتون فيه إلى هذا الإنشاد . لكن ما هي أهمية هذا؟ فأنا ، وأنا واحد من أكثر الأغبياء شهرة ، ما استطعت أبداً أن أفهم أبياتاً ليست بالقليلة من شعر (هولديرين)<sup>(١)</sup> ومن شعر (مالارميه)<sup>(٢)</sup> . مع العلم أنني قرأت هذه

(١) هولديرين Friedrich : شاعر ألماني (١٧٧٠-١٨٤٣) .

(٢) مالارميه Stephane : شاعر وناقد فرنسي (١٨٤٢-١٨٩٨) .



الأبيات بالاحترام المقدس نفسه .

أما الطعام ، فإنه حين يراد له أن يتخذ ملامح وليمة كبرى ، يغدو قدراً كبيرة من دجاجة أو طير غريب يصطادونه من السهوب . وما كان يوضع في الصحون كان بالنسبة لي صعباً ، لا أستطيع أن أعرز فيه سنّي ، وكثيراً ما كان أرانب يقال بأنها مطهية . كانت الظروف تجبر على صنع طبق مفضل من هذا الحيوان الصغير الذي ولد كي يموت في المخابر .

والأسرة التي خصصت لي ، دائماً كانت ذات طراز واحد ، ففي البيوت التي لا حصر لها حيث كنت أنام ، كانت هناك أسرة لها خاصتان اثنتان وميزتان لا تجدهما إلا في الأديرة ، أولاهما شراشف بيضاء مثل الثلج متيبسة بفعل قوة النشا ، قادرة على أن تقف وحدها قائمة ، والثانية يبوسة في السرير شبيهة بيبوسة أرض الصحراء غير الرملية . هناك لا يعرفون ما يسمى بالفراش بل هو ألواح بقدر ما هي ملساء بقدر ما هي قاسية لا ترحم .

ومع هذا فإن كل شيء هناك كان يغفو قرير العين ، فبلا أي جهد كنت أدخل لأشارك في النوم ذلك الفيلق الغفير من زملائي ورفاقي . كان النهر دائماً جافاً ومتوهجاً كأنه جمرة من نار ، فيما الليل في الصحراء كان يمد رطوبته تحت قبة ذات نجوم متقنة الصنع .

لقد جرى شعري وحياتي جريان نهر أمريكي ، مثل تيار من مياه تشيلي ، فشعري وحياتي ولدا من عمق الجبال السرية بالجنوب وتوجها بلا توقف نحو منحرج بحري في حركة تياراتهما . لم يرفض شعري أي شيء مما استطاع جرفه معه في مجراه ، لقد قبل الهوى ، وحضن السر ففتح له طريقاً بين قلوب الشعب .

لقد كان لي أن أكافح وأن أكابد ، أن أحب وأن أغني ، أن أنتصر وأن أنهزم ، أن أتذوق طعم الخبز وأن أذوق طعم الدم ، فماذا يريد الشعب بعد؟ إن النقيضين من دمع ومن قبل ، من وحدة ومن شعب ، يعيشان في شعري ، يعملان في شعري ، لأنني عشت من أجل شعري ، وشعري دعمني في صراعاتي . وإن كنت قد حزت على جوائز كثيرة ، جوائز تفلت هاربة مثل فراشات ذات طلع هارب ، فإني قد نلت الجائزة الكبرى ، جائزة يحتقرها الكثيرون ، ولكنها في واقع الأمر مستعصية على الكثيرين ، لقد غدوت بكد دروس قاسية من جمالية ومن بحث ، عبر متاهات الكلمة المكتوبة ، شاعراً شعبياً ، بلى فهذه هي جائزتي ، ليست الكتب ولا القصائد المترجمة أو

التأليف التي تصف أو تشرح أو تحنط كلماتي ، إن جائزتي لهي هذه اللحظة القصيرة في حياتي حين ، في عمق فحم «لوتا» وسط وهج الشمس بتلك الأرض المحترقة ، من حفرة ملح البارود ، صعد إنسان كما لو كان يصعد من جهنم ، في وجه مشوه بسبب العمل الرهيب ، في عينين محمرتين بسبب الغبار القاتل ، فمد لي يده المتصلبة ، هذه اليد التي تدل عليها خارطة تلك السهول في قساوتها وتقطيعها . فقال لي في عينين تبرقان : «إني لأعرفك منذ زمن طويل ، يا أخي» . إن هذا هو إكليل الغار لشعري ، هذا الثقب في السهوب الرهيبة حيث يخرج عامل قالت له الريح والليل والنجوم بتشيلي مرات عديدة : «إنك لست وحدك ، ثمة شاعر يفكر في الآمك» .

لقد انتسبت إلى الحزب الشيوعي بتشيلي في ١٥ تموز من عام ١٩٤٥ .

### (غونثاليث بيديللا Gonzalez Videla)

كانت المرات التي أنا ورفاقي كنا نمثلها ، لا تصل إلى المجلس إلا في صعوبة جمّة . تلك القاعة المريحة البرلمانية كانت مثل سرير وثير لا تنعكس عليه جلبة الجماهير غير المريحة ولا تجد لها صدًى في مجلس الشيوخ . وزملائي في العصبة المضادة كانوا أكاديميين خبراء في فن الخطابة الوطنية الرنانة ، وتحت هذا الستار الحريري المزيف كانوا يبسطون ويسهبون في كلامهم ، فكنت أشعر بالاختناق .

فجأة تجدد الأمل ، إذ إن أحد المرشحين إلى الرئاسة وهو (غونثاليث بيديللا) أقسم أن يعمل في سبيل العدالة ، فجلبت له بلاغته الفعالة سمعة حسنة ، وأنا كنت قد عينت رئيساً للدعاية في حملته الانتخابية ، فحملت إلى أنحاء أرض تشيلي كلها هذه البشرية الجديدة عن مرشحنا هذا .

فاختاره الشعب بأكثرية كاسحة من الأصوات رئيساً للجمهورية .

لكن رؤساء الجمهورية في قارتنا الأمريكية «الكريوية» كانوا يعانون من مسخ وتغير في الخلق والخلقة مرات كثيرة ، في حالة هذا الذي أروي حكايته الآن ، فإنه غير من أصدقائه في سرعة واستبدل بهم آخرين وأقحم أسرته في الطبقة الارستوقراطية ، وشيئاً فشيئاً أصبح ديماغوجياً عيناً شهيراً .

الحقيقة هي أن (غونثاليث بيديللا) لا يدخل في إطار الديكتاتوريين النموذجيين

التقليديين في أمريكا الجنوبية ، إذ إن في (ملغاريجو)<sup>(١)</sup> ديكتاتور بوليفيا ، وفي الجنرال (غوميث) ديكتاتور فينزويلا ، أرقاقاً أرضية وطبقات معدنية يمكن معرفتها ، ولهما إشارة تنمي ببعض العظمة ، ويبدو عليهما كأنهما يتحركان بدافع قوى مدمرة ، ولكن هذا لا ينفي عنهما أنهما سفاحان ، غير أنهما كانا قائدين جابها المعارك والتيران .

بينما (غونثاليث بيديلا) كان ، على العكس من ذلك ، نتاج الطبخ السياسي ، تافهاً متمادياً في غيه ضعيفاً يحاول أن تبدو عليه ملامح القوة والجبروت .

في حديقة حيوانات أمريكا ، كان الديكتاتوريون هم العظائيات العملاقة ، بقايا إقطاعية هائلة في أراض ما زالت كما كانت قبل التاريخ . إن يهوداً تشيلي ما كان إلا تلميذاً في الطغيان وفي درجات العظائيات ومراتبها لا يمكن له أن يتعدى كونه ضباً ساماً<sup>(٢)</sup> ، بيد أنه فعل ما فيه الكفاية من أذى لتشيلي ، فهو على الأقل أعاد تاريخ البلد إلى الوراء . كان التشيليون في عهده المبارك ينظر بعضهم إلى بعض في خجل دون أن يفهموا كيف جرى ذلك وكيف يجري هذا الأمر المخجل .

كان هذا الرجل من دعاة الاعتدالية ، بهلوان مجلس . توصل إلى أن توضع في يسارية مشهدية . في «ملهة الأكاذيب» هذه كان بطلاً مكاراً خبيثاً . في هذا لا أحد يجادل ، في بلد حيث السياسيون فيه ، عموماً ، جادون جداً أو هكذا يبدو ، ارتاح الناس لظهور التفاهة والسخافة والطيش والخفة والبطلان ، ولكن حين ، راقص «الـ كونغنا» هذا خرج من الأم<sup>(٣)</sup> ، كان الوقت متأخراً جداً : كانت السجون مليئة بالمعتقلين السياسيين إلى درجة أنه أنشئت معتقلات مثل معتقل «يساغوا» . وتركزت الدولة البوليسية ، إذك ، كتجديد قومي في وضع البلاد . فلم يكن ثمة سبيل غير الجلد والصبر والصراع بشكل سرّي للعودة إلى الحشمة والجدية .

إن الكثيرين من أصدقاء (غونثاليث بيديلا) الذين رافقوه حتى النهاية في نشاطاته الانتخابية قد سيقوا إلى السجون في سلسلة الجبال العالية أو في الصحراء

---

(١) مليغاريجو Mariano : عقيد قام بانقلاب عسكري في بوليفيا ، وحكمها ديكتاتورياً (١٨١٨-١٨٧١) .

(١٨٧١) .

(٢) ضب سام : هو الضب الأبرص السام الذي يقال له الوزغ .

(٣) خرج من الأم : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، فاض عن الحد .

بسبب انشغالهم عن مسخه ومخالفتهم لتغيره وتبدله .

فالحقيقة هي أن الطبقة العالية المورّطة بقدراتها الاقتصادية ، ابتلعت مرة أخرى حكومة أمتنا كما جرى ذلك عدة مرات من قبل ، لكن في هذه الحالة ، كان الهضم عسيراً غير مريح فمرت تشيلي في حالة مرضية كانت تتراوح بين الغشبية والحشرجة . لقد تحوّل رئيس الجمهورية الذي اخترناه بأصواتنا ، تحت حماية ورعاية الولايات المتحدة ، إلى وطواط مطاط خسيس دنيء حقير سافل لثيم رذيل بخس تافه شرس عنيف دموي . إنه لا أكيد أن تأنيب ضميره له لم يكن يدعه ينام وبذلك فقد نصب ، قرب القصر الجمهوري ، مواخير للغلمان وللبغايا خاصة به ، زودها بسجاجيد ومرايا للمذاته . لقد كان لهذا التعيس عقلية تافهة بيد أنها ملتوية ، ففي الليلة نفسها التي بدأ فيها القمع واضطهاد الشيوعية والشيوعيين ، دعا اثنين أو ثلاثة من القادة العمال إلى العشاء معه ، بعد انتهاء الوليمة نزل معهم من على درج القصر الجمهوري ، ثم أخرج من عينيه بعض الدموع فعانقهم وقال لهم : «إني أبكي لأنني قد أمرت بسجنكم ، فحين تخرجون من هنا سوف يعتقلونكم ، ولست أدري في ما إذا سيشهد بعضنا بعضاً بعد هذه اللحظة» .

### «الجسد الموزع»:

لقد كانت خطاباتي عنيفة دوماً وكانت قاعة مجلس الشيوخ مليئة دائماً بالناس الذين يأتون ليسمعوني . لكن ، بعد مضي وقت قليل على انتخابي وعضويتي وخطبي ، طُلب من المجلس طردي فطُردت منه ووجّه الأمر إلى الشرطة باعتقالي . بيد أننا ، نحن الشعراء ، نملاً بين جواهرنا الأصيلة ، ذاتاً مصنوعة في معظمها من نار ودخان .

كان الدخان قد خُصّص للكتابة . إن العلاقة التاريخية لكل ما كان يجري لي اقتربت بشكل مأساوي من المواضيع الأمريكية القديمة . في ذلك العام من الخطر والاختباء أنهيت أكثر كتبي أهمية ألا وهو «النشيد العام» .

كنت أبذل داراً بدار في كل يوم تقريباً . في الجهات جميعها كانت الأبواب تنفتح كي تحميني . كان ثمة دائماً أناس لا أعرفهم يعبرون عن رغبتهم في إيوائي لعدة أيام . كانوا يرجون مني أن أبقى عندهم ملتجئاً ولو لبضعة أسابيع ولو لبضعة ساعات . فعبرت قرى ، حقولاً ، موانئ ، مدناً ، مخيمات ، كذلك بيوت فلاحين ،

مهندسين ، محامين ، عمال مناجم ، أطباء ، بحارة .

ثمة موضوع قديم في الشعر الفولكلوري يعاد ويكرر في أقطارنا جميعها وهو موضوع «الجدس الموزع» . يفترض المغني الشعبي أن قدميه في جهة وأن كليتيه في جهة أخرى فيصف أعضاء جسده كلها التي تركها مبددة مبعثرة عبر الأرياف والمدن . وهذا ما كنت أشعر به أنا في تلكم الأيام .

من بين الأماكن المؤثرة التي حوتني وضممتني ، أذكر بيتاً ذا غرفتين ، ضائعاً بين التلال الفقيرة في «الباريايسو» .

فلقد خُصص لي فيه جزء من غرفة وركبنا من نافذة كنت منه أراقب الحياة في الميناء . من هذه المظلة<sup>(١)</sup> الحقيمة كان نظري يحيط بقسم من الشارع . كنت أرى في الليالي مسير الناس المزدحم . كان ربضاً<sup>(٢)</sup> فقيراً وكان ذاك الشارع ، على بعد مائة متر من نافذتي ، يحتكر الإضاءة كلها له في ذلك الحي المعتم ، وتملأه حوانيت صغيرة وخذاريق ولعب أطفال .

قابلاً في ركني كان لي حب للاستطلاع لا حد له ، أحياناً لم أكن أتوصل إلى حل المشاكل ، مثلاً ، لماذا كان الناس الذين يمرون ، سواء منهم المتسكعون أو المستعجلون يتوقفون دائماً في المكان نفسه؟ ما هي هذه السلع السحرية التي كانت تعرض في هذه الواجهة؟ أسر بكاملها كانت تتوقف لمدة طويلة وأطفالها على الأكتاف . ما كنت أبلغ أن أرى وجوه التجلي والوجد التي كانت ولا شك تبدو عليهم حين ينظرون إلى تلك الواجهة الساحرة ، لكنني كنت أتخيلها وأفترضها .

بعد مضي ستة أشهر عرفت أن ذاك المكان كان واجهة حانوت بسيط لبيع الأحذية . سجّل إذن أن الحذاء هو أكثر ما يهم الإنسان . أقسمت أن أدرس هذا الموضوع ، أن أبحث فيه وأن أعبر عنه ، لكن ما كان لي الوقت كي أنفذ هذا العزم أو الوعد الذي أملتة ظروف غريبة . غير أن الأحذية ليست قليلة في شعري . إنها تمشي

---

(١) المظلة : في الأصل atalaya وهي الكلمة العربية الطلائع ، ومن معانيها باللغة الإسبانية ما عربناه في النص .

(٢) ربض : هكذا في الأصل arrabal وهو الحي الشعبي خارج المدينة ، وثورة الربض التي قام بها أهل قرطبة على الخليفة مشهورة معروفة .

على أكتافها في كثير من مقاطع قصائدي دون أن أكون قد عزمت على أن أغدو شاعراً حداثياً .

كانت تصل إلى هذا البيت زيارات تطول أحاديثها ، جيران يمكثون هناك ساعات وساعات ، زوار ثقلاء ثرثارون لا يدرون أنه على بعد قليل منهم ، مفصلاً عنهم بحاجز من ورق صحف قديمة ، ثمة شاعر مطارد من قبل من لست أدري من محترفي الصيد الإنساني .

السبت مساء وكذلك صبيحة كل يوم أحد كان يأتي إلى البيت خطيب إحدى فتيات العائلة التي تستضيفني ، وكان ممن لا يحب أن يُخبروا بوجودي . كان هذا الشاب عاملاً ، يستودع لديه قلب الفتاة ، لكن ، أه ، ما كان أهل الفتاة يثقون به بعد . كنت أراه من كوة النافذة وهو ينزل من على درجته التي كان عليها يوزع البيض في ذلك الحي الشعبي الواسع المديد كله ، بعد قليل أسمعه وهو يدخل مترغماً إلى البيت . كان عدو هدوئي وطمأنيتي ، أقول إنه عدو لأنه كان يصرّ على أن يبقى هناك يغازل الفتاة على بعد قليل من السانتيمترات من رأسي . هي كانت تدعوه إلى ممارسة الحب الأفلاطوني في إحدى الحدائق أو في السينما ، ولكنه كان يقاوم بشكل بطولي ويصر على ممارسة الحب الطبيعي في البيت ، وأنا كنت ألغن هامساً بين أسناني عناد موزع البيض المنزلي .

كان بقية أفراد الأسرة يعرفون سر اختبائي عندهم : الأم الأرملة ، الفتاتان الرائعتان والابن البحّاران . كان هذان الشابان يفرغان الموز في رصيف الميناء وأحياناً كانا يعودان إلى البيت غاضبين لأن ما من باخرة كلفتهما بتفريغ شحنتها من الموز . عن طريقهما عرفت أن مركباً قديماً قد تفكك قطعة قطعة في الميناء . فوجهت أنا من ركني السري العمليات فانتزعا من قيدوم المركب التمثال الجميل وتركاه مخبأً في قبو بالميناء . ما استطعت أن أرى هذا التمثال إلا بعد مضي عدة سنين بعد أن انتهى فراري ونفبي . إن المرأة الخبيثة الجميلة ذات الوجه الإغريقي مثل بقية وجوه التماثيل في المراكب القديمة ، تنظر إليّ الآن في جمالها الكئيب الحزين فيما أكتب هذه المذكرات إزاء البحر<sup>(١)</sup> .

---

(١) لقد كتب (نيرودا) عن هذه الفتاة الخشبية قصيدة بعنوان تمثال على قيدوم السفينة ، ترجمناها ونشرناها في صحيفة الجمهورية العراقية عدد ٢٠٤٩ بتاريخ ١٩-٦-١٩٧٤ ، ضمن مجموعة من القصائد تحت عنوان «سبع قصائد لبابلو نيرودا» .

كانت الخطة هي أن أركب خفية الباخرة المشحونة بالموز في غرفة أحد هذين الشابين وأن أهبط منها حين تصل إلى ميناء «غواياكيل» ، طالعاً من بين عناقيد الموز . شرح لي الشاب البحار أنه يجب عليّ أن أظهر فجأة على ظهر السفينة ، تحت القسم المغطى منها ، حين ترسو في الميناء الإكوادوري ، وأنا ألبس رداء أنيقاً وأدخن سيجاراً نقيماً ، أبدأ ما استطعت أن أدخن هذا النوع من التبغ . فقررت العائلة بعد أن تبين أن الإقلاع قد اقترب ، أن تفصل لي البدلة المناسبة -أنيقة ومحملية- ، لهذا الغرض أخذت لي المقاييس بشكل جيد دقيق .

في ضرب اثنين بثلاثة<sup>(١)</sup> كانت بدلتي جاهزة . أبدأ ما سررت بمثل سروري حين استلمتها . إن فكرة «المودا» هذه التي كانت عند نساء البيت متأثرة بفيلم شهير في ذلك الوقت وهو فيلم : ذهب مع الريح . الشبان من جهتهما كان يعتبران أن الطراز الذي كانا يريدان أن تكون البدلة عليه هو قدوة في الأناقة التقطاه من رقصات «هارلم» ومن حانات الرقص في البحر الكاريبي . إن السترة ، متصالبة ومحزمة ، كانت تصل حتى ركبتيّ ، والسروال كان يشد على رسغيّ .

احتفظت بهذا الزي الجدير بالرسم والوصف ، المصنوع بأيدي أناس طيّبي النية جداً ، ولم تسنح لي مناسبة كي ألبس هذه البدلة . أبدأ ما خرجت من مخبأي في الباخرة ولا نزلت مطلقاً مع الموز بـ«غواياكيل» ، لابساً مثل (كلارك غيبيل)<sup>(٢)</sup> مزيف . لقد اخترت ، على العكس ، طريق البر . انطلقت نحو الجنوب الأقصى لتشيلى الذي هو الجنوب الأقصى لأمريكا وعزمت على اجتياز سلسلة الجبال .

### طريق في الغابة:

كان الأمين العام لحزبي في ذلك الوقت هو(ريكاردو فونسيكا) ، وهو رجل حازم جداً ، دائم الابتسامة ، جنوبي مثلي ، من الطقس البارد والمناخ الرطب بـ«كاراهويه» . إن (فونسيكا) اعتنى بحياتي اللاشعرية ، بمخابثي ، بغاراتي السرية ، بطبع منشوراتي وكتبي الهجائية ، لكنه اعتنى أكثر ما اعتنى ، في حيطة وحذر ، بسر عناويني . لقد

(١) في ضرب اثنين بثلاثة : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، في رفة عين .

(٢) كلارك غيبيل Clark Gable : الممثل الأمريكي المعروف (١٩٠١-١٩٦٠) ، «بطل» فيلم ذهب مع

كان رئيسي هذا الشاب اللامع الأمين العام للحزب الشيوعي (ريكاردو فونسيكا) هو الوحيد الذي كان يعرف على وجهه الدقة خلال سنة ونصف مخابتي وتحركاتي . أين كنت أنام كل ليلة وأين كنت أكل كل يوم . لكن توعدك صحته كان يفضي وينضي ذلك اللهب الأخضر الذي كان يطل من عينيه ، ويطفئ ويخمد تلك الابتسامة التي كانت تملأ وجهه ، وذات يوم رحل عنا إلى الأبد ذلك الرفيق الطيب .

لقد اختير في أجواء اللاشعرية قائداً أعلى ، رجل فظ غليظ القلب ، كان حمالاً في «البارائيسو» يدعى (غالو غونثاليث) ، كان رجلاً معقداً في هيئة خادعة وفي حزم قاتل . يجب عليّ هنا أن أقول إنه ، في حزبنا ، لم توجد عبادة الشخص ، لكن الحزب الشيوعي لتشيلي هو منظمة قديمة مرت بمراحل من الضعف العقائدي ، بيد أنه دائماً كانت تسود روح الضمير التشيلي ، وعي شعب صنع كل شيء بأيديه ، ففي حياتنا القومية كان لنا قادة فلائيل جداً وهذا انعكس أيضاً على حزبنا . غير أن هذه السياسة الهرمية للفترة الستالينية ، أنتجت كذلك في تشيلي جواً مخلصاً محمياً باللاشعرية التي فرضت علينا .

لم يكن (غالو غونثاليث) ليستطيع الاتصال بمجموع الحزب . كانت المطاردة تتفاقم وتشتد ، وكان لنا في السجون آلاف المعتقلين ، وكذلك فقد حشد جمع كبير منا في معتقل خاص بساحل «بيساغوا» Pisagua الخالي الصحراوي . لقد كان (غالو غونثاليث) يقوم وسط حياة لا شرعية ، بفعاليات ثورية كثيفة مهمة ، لكن عدم اتصال القيادة بالهكيل العام للحزب كان يبرز في وضوح . لقد كان رجلاً عظيماً حقاً ، نوعاً من العالم الشعبي والعارف بكل شيء ، مناضلاً جريئاً شجاعاً .

إليه كانت تصل خطط هربي الجديد ، وهذه المرة طبقت هذه الخطط بدقة متناهية ، وكانت ترى هذه الخطط أن أتقل إلى مكان يبعد ألف كيلومتر عن العاصمة ، وأن أعبر من بعد سلسلة الجبال على ظهر جواد ، وسينتظرنني الرفاق الأرجنتينيون في جهة محددة عند الحدود .

خرجنا بعد أن حل الليل في سيارة كانت لنا رحمة وحماية . فلقد قادني صديقي الدكتور (راؤول بولنيس) الذي كان في ذلك الوقت طبيباً للشرطة الآلية ، بسيارته حتى ضواحي «سانتياغو» وهناك أصبحت في عهدة منظمة الحزب التي



أعدت لي سيارة أخرى صالحة للسفر الشاق الطويل ، وكان في انتظاري بها رفيق قديم في الحزب هو السائق (إيسكوبار) .

مضينا ليل نهار عبر الطرق . كنت أنا خلال النهار ، كي أزيد في دعم اللحية والنظارة اللتين كانتا تخفيان ملامحي ، ألتف بأغطية مخفية ، بخاصة حين نعبر القرى والمدن أو نتوقف في محطات البنزين .

مررت بـ«تيموكو» في الظهيرة . لم أتوقف في أي مكان ، لا أحد رأيني فعرفني . للصدفة والزهر<sup>(١)</sup> البسيط ، كانت مدينتي القديمة «تيموكو» هي سبيلي للخروج والهرب . عبرنا الجسر وضاحية «بادره لاس كاساس» ، توقفنا بعيداً عن المدينة ، لأكل شيء ، جالسين فوق صخرة هناك . عبر المنحدر كان يجري نهر نحو مصبه وكانت مياهه تصطخب . كانت طفولتي تودعني . لقد نموت ونشأت في هذه المدينة ، وشعري ولد هنا بين التلة والنهر ، هنا كنت ألتقط صوت المطر ، هنا كنت أتضمخ بالغابات ، هنا كنت أنتشي بالخشب . وهأنذا ، في طريقي نحو الحرية ، أنزل لحظة قرب «تيموكو» أسمع صوت الماء الذي علمني الغناء .

ثم تابعنا السفر . ما كان لنا من لحظة قلق إلا مرة واحدة فقط . فلقد أمرنا ضابط كان واقفاً وسط الطريق في صوت حاسم أن نقف ، فحبست أنفاسي ولكن تبين أنه ليس بهجوم كاسح بل إن الضابط طلب منا أن نأخذ معنا في السيارة إلى مكان يبعد مائة كيلومتر عن ذلك الموضع ، جلس قرب السائق ، رفيقي (إيساكوبار) ، فتحدث في لطافة معه ، وأنا تصنعت النوم كي لا يكلمني ، لأن صوتي ، صوت شاعر ، كانت تعرفه حتى حجارة تشيلي .

ثم وصلنا دون أي خطب من خطوط الدهر ، إلى نقطة النهاية . كانت هذه النقطة هي عبارة عن عزبة مليئة بالأخشاب ، ظاهرياً غير مأهولة ، الماء كان يلمسها من الجهات الأربع ، أولاً كان لا بد من عبور البحيرة الواسعة «رانكو» إلى مكان بين الأحراج والأشجار العملاقة السامقة ، من هناك كان لا بد من امتطاء حصان يمر عبر عر ضيق خلال فترة من الزمن إلى أن نعود فنركب زورقاً لنجتاز مياه بحيرة «مايهويه» . كانت دار صاحب العمل لا تكاد تبين ، وهي مختبئة في سفح سلسلة الجبال الهائلة ، تحت أغصان الأشجار الضخمة ، بين دوي الطبيعة العميق . إنه لقول

(١) الزهر : هكذا في الأصل Azar بمعنى الحظ والبخت ، عن العربية .

معروف بأن تشيلي هي آخر ركن في العالم . ذلك المكان المبطن بالغابة البكر ، المحاط بالثلج ، المطوق بمياه البحيرات ، هو في الحقيقة آخر ركن مسكون في المعمورة .

كانت غرف المنزل حيث أنزلوني مجهزة بما يجب في تلك المنطقة ، بمدفأة من صفر وحديد مليئة بحطب بري حديث القطع ، يتأجج ليل نهار . كان مطر الجنوب الرهيب يلطم بلا هوادة ، النوافذ ، كما لو كان يلتمس الدخول إلى البيت ، يسيطر على الغابة الظليلة ، على البحيرات ، على البراكين ، على الليل ، ويثور غاضباً لأن أولئك الحرس من البشر كان لهم دستور آخر ولم يخضعوا لجبروته وانتصاره .

أنا كنت أعرف قليلاً جداً ذلك الصديق الذي كان ينتظرنى هناك وهو (خورخه بيبيت) ، سائق طائرة قديم ، مزيج من رجل عملي ومن رائد ، كان يحتذي جزمة ويلبس سترة سميكة قصيرة ، كان له طبع أمر فطري ولهجة قائد عسكري ، يتناسبان مع ذلك الجو ، مع أن الفرق الوحيدة المصطفة هناك كانت الأشجار .

صاحبة الدار كانت امرأة هشة نواحة ، محاصرة بمرض العصاب ، كانت تعتبر الوحدة الثقيلة في تلك المنطقة ، المطر الخالد ، البرد ، مسببة لشخصيتها الكريمة ، كانت تتباكى طيلة النهار كله وقسماً كبيراً من الليل ، لكن كل شيء كان يسير لديها سيراً حسناً وكانت تستخرج مواد الغابة والماء .

كان (بيبيت) يقود هذه المؤسسة الخشبية ، وهذه المؤسسة كانت تقتصر على صنع رواقد للسكك الحديدية ، تصدر لاستعمالها في السويد والدانيمارك . خلال النهار كانت تصرّ صريراً حاداً ، المناشر التي تقطع الجذوع الكبيرة ، أولاً كان يسمع التقوض العميق للشجرة التي كانت تسقط وتهوي ، كل خمس أو عشر دقائق كانت تهتز الأرض مثل زلزال غامض حين يرضها انهيار شجر الأرز والبطم والسرو والعفص والميس ، أعمال جسيمة هائلة للطبيعة ، أشجار مغروسة هناك من قبل الريح منذ ألف سنة ، تشكو الآن من فعل المنشار الذي يلوي جسمها ويطرحة أرضاً ، صوت المنشار المعدني يصرّ عالياً مثل نغم الكمان البري الهمجي الذي يتلو قرع الطبول حين تهوي الأشجار على الأرض . كل هذا كان يشكل جواً من التوتر الأسطوري ، من الشدة السرية ، من الرعب الكوني . الغابة كانت تموت ، وأنا كنت أسمع متألماً أنينها كما لو أن أكثر الأصوات قدماً ترن وهي تترنج ، الرنة الأخيرة ، الآهة التي أبدأ لن تعاد .

كان صاحب هذه الغابة كلها هو رجل من «سانتياغو» لا أعرفه ، كان يعلن عن زيارته إلى غابته في أواخر الصيف ، فكان الناس الذين يعملون عنده يخشون هذه

الزيارة ويهاونها ، وهو يدعى (بيبه رودريغيث) . أخبروني أنه أصبح رأسمالياً حديثاً ، وأنه صاحب مناسج ومعامل أخرى ، وأنه رجل صناعي مهم ، وأنه ماهر وكهربائي الحركة . ولزيادة المعلومات أضيف بأنه كان رجعيماً من جفن الكرم<sup>(١)</sup> وهو عضو دائم في أكثر الأحزاب يمينية بتشيلي . بما أني كنت عابراً في مملكته دون علمه ، فإن هذه الميزات التي يتمتع بها كانت عناصر إيجابية بالنسبة لي في هذه الأونة ، فلا أحد كان يستطيع أن يأتي إلى مملكته للبحث عني ، فلقد كان المسؤولون المدنيون ورجال الشرطة دائماً تحت إمرة هذا الرجل العظيم الذي كنت أتمتع بضيافته وحمايته ، دون أن يدري وكان من المستحيل أن يتعرفل بي وأنا بمملكته .

كان انطلاقي من جديد على وشك الابتداء ، إذ إن الثلوج في سلسلة الجبال كانت على وشك الابتداء كذلك ، ولا يمكن اللعب مع جبال «الأنديس» . كان الطريق يتدارسه يومياً أصدقائي . إن كلمة طريق هي من نافل القول ، ففي الحقيقة والواقع كان الأمر هو اكتشاف درب محته منذ زمن الثلوج . لقد أصبح الانتظار مقلماً بالنسبة لي . فرفاقي من الجانب الأرجنتيني لا بد وأنهم قد انطلقوا للبحث عني .

حين كان كل شيء قد أعد ، وكنا على وشك الإقلاع ، جاء القبطان العام والرائد الأعظم للأخشاب ليخبرني بأن شيئاً جديداً قد طرأ ، قال هذا وعلائم التأثير بادية على سيماء وجهه ، فقد أعلن «البطرون» الأعلى عن زيارته وأنه سيصل بعد يومين .

بقيت حائراً ، لم تكن الاستعدادات قد جهزت تماماً في ذلك الوقت ، وما هو أكثر خطورة بالنسبة لوضعي ، بعد ذلك العمل الطويل من الاختفاء والتنقل ، كان أن هذا «البطرون» سيعرف أنني كنت ملتجئاً في أراضيه الخاصة ، وهو صديق حميم لملاحقي ومطاردي (غونثاليث بيديلا) ، وهو يعرف أن السيد الرئيس قد وضع ثمناً لرأسي ، ما العمل؟

كان (بييت) منذ اللحظة الأولى يرتثي أن نكلم (رودريغيث) صاحب المكان ، وجهاً لوجه .

إنني أعرفه جيداً - قال لي - هو رجل في معنى الكلمة ولن يبوح عنك ولن يفشي بسرّك .

كنت غير موافق فإن تعليمات الحزب كانت أن أحتفي في سرية كاملة ،

(١) من جفن الكرم : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي الشعبي ، من أم العنقود ، بمعنى أصيل .

(وبيت) كان يحاول نفس هذه التعليمات ، وهذا ما قلته له ، تناقشنا في حدة وصخب وأثناء النقاش السياسي قررنا أن أذهب لأسكن في بيت شيخ قبيلة «مابوتشه» ، كان هذا البيت عبارة عن كوخ مغروز في طرف الغابة نفسها .  
انتقلت إلى الكوخ فأصبح وضعي هناك مزعزجاً جداً إلى درجة أنني أخيراً ، بعد التفكير والتقدير ، قبلت أن أقابل (بيبه رودريغيث) صاحب المؤسسة والمناشير ، والغابات . عينا نقطة محايدة للقائنا ، بين منزله وكوخ شيخ القبيلة . حين خيم المساء رأيت سيارة «جيب» تقترب ، ثم نزل منها مع صديقي (بييت) رجل كهل «شبوبي» ذو شعر أشيب ووجه حازم . أول ما قاله لي إنه منذ هذه اللحظة يتولى هو مسؤولية حراستي وحفظي . في مثل هذه الظروف ، لا أحد يجرؤ على محاولة الاعتداء على أمني .

تكلمنا من غير ود كبير ، لكن الرجل شيئاً فشيئاً راح يكسب ودي فاستلظفته ودعوته إلى بيت الشيخ لأن البرد كان هناك شديداً جداً ، كي نتابع حديثنا ، فقبل وتابعنا الحديث . وبأمر منه ظهرت زجاجة شمبانيا وأخرى من ويسكي ، وثلج يبرد ويرطب ذلك كله .

حين بدأنا بالكأس الرابعة من الويسكي كنا نتناقش بأصوات عالية مرتفعة . لقد كان هذا الرجل استبدادياً في قناعاته واعتقاداته ، يقول أشياء مهمة ، وكان عالماً بكل شيء ، لكن غطرسته كانت تجعلني غضوباً نزقاً . كلانا كان يضرب ضربات شديدة فوق طاولة الشيخ إلى أن أنهينا في سلام تلك الزجاجة .

لقد استمرت صداقتنا لزمان طويل ، من بين مزاياه وفضائله ، صراحة غير منكرة من إنسان متعود على أن تكون له المقلاة في مقبض يده<sup>(١)</sup> . لكن كذلك كان يتقن قراءة شعري قراءة رائعة حقاً بنبرة صوت رجولية وذكية إلى درجة أن أشعاري هذه كانت تبدولي وكأنها تولد من جديد .

عاد (رودريغيث) إلى العاصمة ، إلى مؤسساته وأعماله . كانت له لطافة أخيرة ، فقد نادى أتباعه المتحلقين حولي وأمرهم بصوته ذي النبرة الأمرة :

إذا كان للسيد (ليغاريته) من هذا اليوم إلى أسبوع أي مانع يعرقل مسيره إلى الأرجنتين عبر عم المهربين ، فإنه يجب عليكم أن تشقوا طريقاً آخر يصل إلى الحدود ،

---

(١) المقلاة في مقبض يده : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، في مقبضه مقاليد الأمور .

أوقفوا أعمال الأخشاب كلها لتعملوا جميعاً في شق هذه الطريق . هذه هي أوامري .  
(ليغاريته) كان اسمي في تلك اللحظة .

إن (بيبه رودريغيث) ذاك الرجل الإقطاعي المسيطر ، مات بعد سنتين من لقائنا ،  
في حالة فقر مدقع ، بعد أن عوقب على تهريب خطير قام به ، ف قضى شهوراً كثيرة  
في السجن ، لا بد أن السجن كان معاناة لا توصف بالنسبة لطبع غطريس وطبيعة  
أمره .

أبدأ ما عرفت من بعد على وجه الدقة إن كان مذنباً أم بريئاً من التهمة التي  
وُجِّهت إليه ، لكنني عرفت أن طبقة الأقلية الحاكمة في بلادنا ، التي كانت تأرق  
متمنية دعوة من (رودريغيث) ، هجرته ما إن رأته يُستنطق ويتهدم .

في ما يتعلق بي ، إنني ما زلت إلى جانبه ، دون أن يُحَي من ذاكرتي ، لقد كان  
(بيبه رودريغيث) بالنسبة لي إمبراطوراً صغيراً أمر بفتح طريق طولها ستون كيلومتراً  
عبر الغابة البكر كي يبلغ شاعر حرته .

### جبال الأنديس؛

إن لجبال الأنديس دروباً غير معروفة ، يستعملها منذ زمن قديم المهربون العداءون  
الصعبون إلى درجة أن الدرك لا يشغلون أنفسهم بتعقبهم وملاحقتهم . إن أنهاراً  
كثيرة ومهاوي سحيقة تتكفل بمنع العابر والسالك أن يسلك .

كان صاحبي (خورخه بييت) هو رئيس تلك الحملة الجبلية ، لقد انضاف إلى  
حامية ظهورنا المؤلفة من خمسة رجال من الفرسان ورعاة البقر ، صديقي القديم  
(فيكتور بيانشي) الذي كان جاء إلى هذه المواضع بصفته مساحاً للأراضي ، كي يحل  
النزاعات القائمة هناك حول تقسيم الأرض ، لم يعرفني إذ إنني كنت في لحيه نامية  
جداً بعد سنة ونصف من الحياة المتخفية . ما إن عرف خطتي لاجتياز الغابة حتى  
أبدى استعداد له لمساعدتي وقدم لنا خدمات لا تثنى لكونه مكتشفاً مدرباً خبيراً .  
ولقد كان من قبل قد صعد قمة «اكوانكاغوا» في حملة مأساوية كان هو الوحيد  
الذي نجا منها سالماً .

كنا نسير في صف منتظم ، محميين بجلالة الفجر . منذ زمن طويل ، أي منذ  
طفولتي ، لم أكن قد امتطيت سهوة جواد ، لكن هنا كنا نمشي خطوة خطوة بطيئين  
متمهلين . إن الغابة الأنديسية الجنوبية لا يسكنها إلا أشجار ضخمة سامقة تتباعد

الواحدة عن الأخرى ، إنها لأشجار عملاقة من الأرز والبطم والعفص والصنوبر .  
أشجار الميس تدهش بضخامتها ، توقفت لأقيس واحدة فكانت في قطر حصان . من  
الأعلى لا تُرى السماء ، من تحت الأوراق قد سقطت خلال قرون عديدة فشكلت  
طبقة من الدبال كانت تغرق بها حوافز المطايا . في مسيرة صامتة كنا نجتاز تلك  
الكاتدرائية من الطبيعة البرية .

بما أن دربنا كان مخفياً ومحرمًا ، فقد كنا نقبل بأقل الصوى إرشاداً وأضعف  
العلامات توجيهاً . لم يكن ثمة من أثار ولم تكن هناك من دروب ، ومع أصحابي  
الأربعة على ظهور الخيل كنا نبحث ، مشكلين كتيبة من الفرسان - ونحن نزيل  
العراقل ، متجنبين الأشجار القديرة ، متخطين الأنهار المستحيلة ، متسلقين الصخور  
الهائلة ، غارقين في الثلوج المدمرة ، عن اتجاه لحرיתי - بالأحرى كنا نخمن تخميناً -  
إن الذين كانوا يصطحبونني كانوا يعرفون التوجه ، الإمكانية بين أوراق الشجر الكبيرة  
وأغصانها المشتبكة المعقدة ، لكن كي يكونوا على يقين فإنهم كانوا يعلمون هنا وهناك  
فوق لحى الشجر بسكاكين حادة تترك أثراً تلهم حين يعودون بعد أن يتركوني  
وحيداً مع مصيري .

أحياناً كنا نتبع أثراً ضعيفاً جداً صنعه -ربما- مهريون أو مجرمون هاريون ، وكنا  
نجهل في ما إذا كان الكثير منهم قد قضوا نحبهم على حين غرة حين فاجأتهم أيدي  
الشتاء الجليدية القارسة وعواصف الثلج الرهيبة التي حين تفرغ شحنتها فوق جبال  
الأنديس تلف العابر وتغرقه تحت سبعة طوابق من البياض .

على كل جانب من جانبي ذلك الأثر من الدرب رأيت ، في تلك الوحشة  
البرية ، شيئاً كأنه بناء إنساني . كأن أجزاء من أغصان مكونة تحملت عدة فصول  
شتائية ، قرباناً نباتياً قدمه مئآت العابرين ، جثوات عالية من خشب ، شواهد لتذكر  
من سقطوا هنا صرعى ، من لم يستطيعوا المضي ، فمكثوا تحت الثلوج إلى الأبد .  
كذلك قطع أصحابي بالمدى والسكاكين الأغصان التي كانت تلامس رؤوسنا وتهبط  
إلينا من أشجار البلوط التي كانت أوراقها الأخيرة تخفق قبل اكتساح زوابع الشتاء .  
وأنا كذلك كنت أترك على كل جثوة ذكرى ، بطاقة بريدية من خشب ، غصناً  
مقطعاً من الغابة كي أزين قبور العابرين الهالكين هناك والذين ما عرفتهم أبداً .

كان علينا أن نجتاز نهراً ، إن هذه المنحدرات الصغيرة المولودة في قمم جبال  
الأنديس كانت تتعجل ، تفرغ شحنة سريعة جداً سرعان ما تصبح شلالات تحطم

الأراضي ، تفتت الصخور بفعل من طاقتها وسرعتها اللتين جلبتهما من تلك المرتفعات الشهيرة : لكن هذه المرة وجدنا غديراً ، مرآة كبيرة من المياه ، مخاضة نهر . الخيول خاضت في المياه إلى أعناقها وسبحت حتى الضفة الأخرى . وجوادي كذلك تابع مسير رفاقه فغرق في المياه كله تقريباً ، فبدأت أنا أترنح وأهتز من غير سند ولا مدعم ، قدماي شدتا على الأنساق بينما الجواد كان يكافح كي يحتفظ برأسه في الهواء الطلق . هكذا عبرنا ، وما إن وصلنا إلى الضفة الأخرى حتى سألني رعاة البقر والفلاحون الذين كانوا يرافقوننا في شيء من الابتسام ولعله استخفاف :

- هل خفت كثيراً؟

- كثيراً جداً ، ظننت أنه قد حانت ساعتني - قلت .

- كنا نسير خلفك والأصرة في اليد - أجابوني .

- في هذا المكان نفسه -أضاف أحدهم- سقط والدي فجرفه التيار . ما كان

ليحدث الشيء نفسه لحضرتك ، فقد احتطنا لذلك فوضعنا الأصرة في اليد حتى ننقذك إن سقطت .

تابعنا المسير إلى أن دخلنا في نفق طبيعي ، ربما كان قد شقه هناك في الصخور الصلبة الصلدة نهر ضائع غزير أو هزة أرضية قامت هناك في الأعالي بهذا العمل ، بهذه القناة الكهفية من حجر محفور ، من غرانيت . فما إن تسربنا في هذا النفق بضعة خطوات حتى أخذت المطايا تتزحلق ، تحاول أن تثبت في المنحنيات الحجرية الملساء رجليها ، فتكبو ، تتفجر الشرار حين تصطك حوافرها بالصخر : أكثر من مرة رأيتني بمدداً فوق الصخور بعد أن هويت من على صهوة مطيتي التي كانت تدمي من أنفها وأقدامها ، لكننا مضينا مصرين فوق ذلك الدرب الصعب المديد الرائع .

كان شيء ينتظرنا في وسط تلك الغابة الوحشية ، على حين غرة ، مثل رؤيا فريدة ، وصلنا إلى مرج براق قابع في حوض الجبال . ماء زلال ، مرج مخضوضر ، أزهار غابية ، خريز أنهار ، السماء من فوق ، نور سمح كريم لا يفصله عنا أية ورقة أو أي غصن أو أية شجرة .

هناك نزلنا كأننا ننزل وسط دائرة سحرية ضيوفاً على حياض مقدسة . وأكثر قداسة كان ذلك الاحتفال الذي شاركت فيه . فلقد نزل البقارة من على ظهور مطاياهم . وسط المرج كانت هناك جمجمة ثور وضعت في موضع بارز كما في قداس . اقترب أصحابي في سكون وصمت ، واحداً إثر الآخر ، كي يضعوا بعض

النقود وبعض الأغذية في فجوات الجمجمة العظيمة . شاركتهم في هذا القربان المقدم إلى ألف «أوليس» تائه هارب ، لعل هؤلاء العابرين التائهين يجدون الخبز والملح في مدارات هذا الثور الميت ، حين يرون به ذات يوم .

لكننا لم نقتصر على تقديم القربان في هذا الاحتفال والقداس ، بل إن أصدقائي الريفيين خلعوا عنهم قبعاتهم وشرعوا في رقصة غريبة ، يقفزون على رجل واحدة فقط حول تلك الجمجمة المهجورة ، وهم يدوسون فوق الأثر الدائري الذي خلفته هناك رقصات كثيرة أداها كل من عبر من قبل . حينذاك أدركت ، وإن كان إدراكاً غير واضح دقيق ، أن ثمة اتصالاً بين مجهول ومجهول ، أن ثمة مطلباً وتلبية ، أن ثمة سؤالاً وجواباً في تلك المناطق الأكثر وحشة ، الأكثر انغزلاً بهذا العالم .

لقد وصلنا ليلاً إلى حلاقيم الجبال الأخيرة ، فأصبحنا على وشك أن نعبر الحدود التي ستبعدني لسنين طويلة عن موطني . رأينا فجأة ضوءاً مشتعلاً كان علامة أكيدة على أن هناك بيتاً إنسانياً ، وحين اقتربنا وجدنا أبنية مقبوضة وأقبية غير منسقة ، بدت لنا فارغة خاوية . ولجنا فرأينا ، في ضوء النار ، جذوعاً كبيرة تتأجج في وسط القبو ، أجساد أشجار هائلة كانت هناك تنوهج ليل نهار ، تطلق عبر تشققات السقف دخاناً يتكاسل يطوف وسط الدياجير كأنه حجاب أزرق عميق . شاهدنا كتلاً من الجبن كومتها هناك الذين خشروه وروبوهم في تلك المرتفعات . وكان قرب النار يرقد بعض الرجال كأنهم أكياس ممددة . ميزنا في السكون نغم أوتار قيثاره ، ولحن كلمات أغنية تولد بين الجمر والعتمة ، فجلت لنا أول صوت إنساني عثرنا عليه في طريقنا الموحشة . كانت أغنية حب وحنين ، أسفاً على الحبيب النائي وحنيناً إلى ذلك الربيع البعيد ، ونداءً أليماً موجهاً إلى تلك المدن التي قدمنا منها ، ولوعة تريد احتضان مدى الحياة اللانهائي ، لم يكونوا ليعرفوا شيئاً عنا ، لم يكونوا ليعلموا شيئاً عن الهارب القادم ، ما كانوا يعرفون شيئاً عن شعري ، ما كانوا قد سمعوا يوماً باسمي ، أو لعلهم يعرفونه ، أفتراهم يعرفونني؟ تملقنا حول النار وغنينا وأكلنا ، ثم توجهنا وسط العتمة نحو غرف بدائية جداً . كان يمر عبر هذه الغرف تيار من ماء معدني حار فغرقتنا فيه وغطسنا ، جدول من الحرارة ينطلق من الجبال ليستقبلنا في كنفه .

كنا نبربط في الماء متمتعين ، نغتسل ونزيل عنا أوضار المسيرة المرهقة ، فشرعنا أننا في غضارة ونضارة وأنا ولدنا من جديد في هذا التعميد . حين بزغت الشمس



في اليوم التالي انطلقنا لنجتاز المسافة الأخيرة التي كانت ستبعد بي عن كسوف وطني وخسوفه ، كنا نتهادى على ظهور مطايانا ، نغني ونشدو ونحن ممتلئون بهواء جديد ، مفعمون بأنفاس تدفعنا نحو درب العالم الفسيح الذي ينتظرنا . عندما أردنا (أذكر هذا جيداً) أن نعطي إلى الرجال الجبليين بضع قطع من نقود مكافأة لهم على ما قدموه لنا من أغان وأغذية ومياه معدنية وسقف وفراش ، أي ، على هذا اللقاء غير المتوقع ، على هذا الكنف الذي أوانا ، على هذا الود الذي شملنا وحضنا ، رفضوا عطاءنا رفضاً باتاً دون أن يقولوا أي شيء ولا أن يبدوا أية حركة جسدية بل اكتفوا بالنظر إلينا عاتبين ، لقد قاموا بواجبهم نحونا ولا شيء أكثر . إن في «لا شيء أكثر» ، في عبارة «لا شيء أكثر» الصامته كان يكمن كل شيء ، ربما أنهم رأوا أنفسهم فينا ، ربما عثروا على أحلامهم ذاتها متجلية في أحلامنا ، من يدري؟

### «سان مارتين» San Martin بجبال الأنديس:

خص مهجور بين لنا الحدود بما كتب عليه ، هأنذا أغدو حراً طليقاً . كتبت على حائط الكوخ : «إلى اللقاء ، يا وطني ، أرحل وأنت معي» .  
 في قرية «سان مارتين» بجبال الأنديس كان يجب أن يكون بانتظارنا صديق تشيلي . إن هذه القرية الصغيرة جداً في سلسلة الجبال الأرجنتينية لم يكن فيها ما يتيه أو يجعل المرء يضيع ، ولذلك فقد أعطوني علامة وحيدة للاستدلال على صديقي هذا وهي ما يلي :  
 - اذهب إلى أحسن فندق في القرية وهناك سيأتي للبحث عنك (بيريتو راميريث) .

لكن الأشياء الإنسانية معرضة للخطأ دائماً ففي «سان مارتين» لم يكن هناك فندق واحد فقط بل كان اثنان وكلاهما من النوع الجيد . فأيهما أختار؟ أثرتنا أغلاهما وهو يقع في أطراف القرية ورفضنا الفندق الأول الذي رأيناه أمام ساحة القرية الجميلة .

لقد حصل أن الفندق الذي اخترناه كان من درجة رفيعة جداً إلى درجة أنهم ما أرادوا أن يقبلوا بنزولنا فيه . لقد لاحظوا في ازدياد آثار عدة أيام من السفر على ظهور الخيل ، أكياساً على أكتافنا ، وجوهنا الملتحية المغبرة ، كان منظرنا يخيف كل من في الفندق من عمال ونزلاء .

وكان هذا المنظر يخيف أكثر ما يخيف صاحب الفندق الذي كان يضيف فيه إنجليزاً نبلاء قادمين من «اسكوتلانديا» ليصطادوا سمك «السلمون» في الأرجنتين . نحن لم يكن علينا ملامح نبلاء ولا مظاهر سادة . فأعطانا مدير الفندق «الهيئات» متأسفاً ومحتجاً بحركات مسرحية في أن الغرفة الأخيرة قد حجزت منذ عشر دقائق . أثناء ذلك أطل من الباب سيد أنيق عليه سيماء رجل عسكري ، تصطحبه امرأة شقراء كأنها ممثلة سينمائية ، فصرخ بصوت رنان :

- قف! التشيليون لا يمكن طردهم من أي مكان ، هنا سيبقون .

وبقينا . كان راعينا هذا يشبه كثيراً الجنرال (بيرون)<sup>(١)</sup> وسيدته التي تصحبه تشبه هي الأخرى (ايفيتا)<sup>(٢)</sup> إلى درجة أننا ظننا أنهما هما ، لكن من بعد ، بعد أن اغتسلنا ولبسنا وجلسنا على المائدة نحتمس في غير لذة زجاجة شمبانيا كنا نشك في أنها شمبانيا ، عرفنا أن الرجل هذا هو قائد الشرطة المحلية وأن الشقراء هي ممثلة من «بونوس ايريس» جاءت لتزوره .

كنا نزعم أننا تجار أخشاب تشيليون جئنا لنعقد صفقات تجارية مربحة . كان العميد قائد الشرطة يدعوني «الإنسان الجبل» . اكتشف (فيكتور بيانتشي) الذي كان ما يزال يرافقني لما يكنه لي من صداقة ولما يكنه من حب للمغامرة ، قيثارة هناك في الفندق ، وبأغانيه التشيلية السافلة البذيئة كان يخلب ويفتن أرجنتينيين وأرجنتينيات . لكن مضت ثلاثة أيام ولم يكن يأتي (بيدريتو راميريث) للبحث عني . لم يكن يرافقني الحظ في الأمور جميعها ، ما كان على جسدي من قميص نظيف ولم يكن معي ما أشتري به قمصاناً جديدة . إن تاجر أخشاب جيد ، كان يقول (فيكتور بيانتشي) ، يجب أن يكون له على الأقل قمصان جيدة نظيفة .

أثناء ذلك قدم لنا قائد الشرطة غداء في المجلس البلدي . لقد توطدت صداقته بنا فاعترف لنا أنه على الرغم من شبهه الجسدي بالجنرال (بيرون) فإنه هو ضد البيرونية . كنا نقضي ساعات طويلة ونحن نتناقش فيمن عنده رئيس أسوأ من الآخر ، أنا أم هو ، هل هي تشيلي أم هي الأرجنتين .

(١) بيرون Juan Domingo : هو الزعيم الأرجنتيني المعروف (١٨٩٥-١٩٧٤) .

(٢) ايفيتا : هو تصغير (ايفا Eva) وكانت زوجة لبيرون ، (١٩١٩-١٩٥٢) .

فجأة بلا سابق إنذار أو أعذار وإذ بـ(بيدريتو راميريث) يلج ذات صباح غرفتي في الفندق .

- يا تعيس ، -صرخت به- لماذا تأخرت كثيراً؟

لقد وقع ما لم يكن في الحسبان ، لقد كان هو ينتظر مطمئناً هادئاً في الفندق الآخر الذي يقع بساحة القرية .

بعد عشر دقائق تدرجنا عبر السهول اللامتناهية وبقينا نتدحرج ليل نهار . من حين إلى حين كان الأرجنتينيون الذين يصحبونني يوقفون السيارة كي يحتسوا «ماته»<sup>(١)</sup> Mate ثم نستمر في عبور تلك الرتابة اللامتناهية .

### في باريس ويجواز سفر:

كان همي الأكبر ، طبعاً ، في «بونوس أيريس» هو أن أحصل على هوية جديدة ، إن الأوراق المزيفة التي أفادتني كثيراً كي أعبر الحدود الأرجنتينية لن تصلح بعد فيما إذا حاولت السفر عبر القارات والتجول في أوروبا . كيف الحصول على أوراق أخرى؟ كانت أثناء ذلك تبحث عني في جد واجتهاد الشرطة الأرجنتينية التي استنفرتها الحكومة التشيلية لهذا الغرض .

تذكرت في هذه الحالة من اليأس والقنوط والضغط والمطاردة شيئاً كان ينام في ذاكرتي . لا بد أن الروائي (ميجيل انخيل استورياس) وهو صديقي منذ أيام في بلده ، هو الآن في بونوس أيريس يؤدي مهمة دبلوماسية في سفارة بلدة «غواتيمالا» . لقد كان لنا شبه فيزيولوجي غريب غامض . في اتفاق مشترك بيننا سميننا أنفسنا «شومبيبه» Chompipe وهي كلمة هندية يشار بها إلى الديكة في غواتيمالا وفي جزء من المكسيك . أنفان طويلان ، يسر في الوجه وفي الجسد ، يوحدنا شبه عام بعالم الدجاج المغذى .

جاء ليراني في مخبأي .

- يا صاحبي «شومبيبه» -قلت له- ، أعرنني جوازك ، امنحني متعة أن أصل إلى أوروبا وقد غدوت (ميجيل انخيل استورياس) .

---

(١) ماته : هو شاي من «بارغواي» يشربه الأمريكيون الجنوبيون والمغتربون العرب الذين يعودون إلى أوطانهم من أمريكا اللاتينية .

يجب عليّ أن أقول هنا أن (استورياس) كان دوماً ليبرالياً ، بعيداً جداً عن السياسة الحزبية ، غير أنه ما تردد لحظة ، إذ إنني ، بعد أيام قليلة كنت أعبر ، بين «يا سيد (استورياس) تفضل من هنا» ، وبين «يا سيد (استورياس) تفضل من هناك» النهر العريض الذي يفصل الأرجنتين عن الأوروغواي فدخلت إلى «مونتيفيديو» ثم عبرت المطارات وتجاوزت مخافر شرطة المراقبة إلى أن وصلت أخيراً على باريس تحت ستار «روائي غواتيمالي عظيم» .

لكن في فرنسا عادت قضية هويتي لتصبح معضلة . إن جواز سفري القشيب لن يقاوم الفحص الذي لا يرحم حين ينقدونه في 'La Surete' لقد كان عليّ أن أترك كوني (ميغيل انخيل استورياس) وأن أعدو من جديد (بابلو نيرودا) ، لكن كيف يتأتى هذا لي و(بابلو نيرودا) لم يصل إلى فرنسا ، بل إن الذي وصل كان (ميغيل انخيل استورياس) . . .

لقد أخبرني مستشاري بأن عليّ أن أوي إلى نزل «جورج الخامس» .

- هناك ، بين جبابرة العالم ، لن يطلب أحد منك أوراقك - قالوا لي .

فنزلت هناك لبضعة أيام ، دون أن أنزعج كثيراً من ملابس الجبلية التي ما كانت لتلائم مع ذاك العالم من الأغنياء والأنيقين . عند ذلك طلع (بيكاسو) الذي بقدر ما هو عبقرى كبير بقدر ما هو إنسان طيب جداً . كان سعيداً كما الطفل لأنه كان قد ألقى أول خطاب في حياته ، كان موضوع الخطاب يدور حول شعري ، حول مطارديتي وملاحقتي ، حول غيابي واختفائي . وها هو العبقرى اللامع في الرسم الحديث ينشغل الآن في ود أخوي وعطف أبوي بحل معضلتي في جزئياتها الأكثر دناوة وحقارة . كان يتكلم مع السلطات المسؤولة ، كان يتصل هاتفياً بنصف الناس كي يعملوا على مساعدتي في الخروج من هذه الورطة . لست أدري كم من اللوحات الرائعة الخالدة ترك رسمها من أجلي ، لقد كنت أشعر بالذنب وأتأسف جداً أنني جعلته يضيع الكثير من وقته المقدس .

في تلكم الأيام كان ينعقد في باريس مؤتمر للسلام العالمي . ظهرت في قاعة المؤتمر في اللحظة الأخيرة كي ألقى قصيدة من قصائدي ، كان المندوبون يصفقون لي ويعانقونني فقد كان الكثير منهم يظنون أنني كنت قد مت ، وما كانوا يعتقدون بأني قادر على الاستهزاء بمطاردة الشرطة التشيلية الغاضبة .

في اليوم التالي وصل إلى الفندق الذي أقيم فيه السيد (الديريت) وهو صحفي

كبير يعمل في وكالة الأبناء الفرنسية ، فقال لي :

- حين علمت حكومة تشيلي عن طريق الصحافة أنك في باريس ، أعلنت أن الخبر عار من الصحة وأنه كذب وبهتان ، وأن الذي حضر المؤتمر هو شبيه لك وليس إياك ، فأنت توجد في تشيلي وأن رجال الشرطة يتقصون أثرك ، وأن مسألة اعتقالك لن تتعدى ساعات قلائل ، فماذا تجيب على هذه المزاعم؟

تذكرت أنه في إحدى المناقشات التي دارت حول موضوع (شيكسبير) إن كان هو من كتب أعماله الخالدة أم لا ، وهي مناقشة أنبيقية<sup>(١)</sup> وعشبية عقيمة ، اشترك (مارك توين)<sup>(٢)</sup> فأدلى برأيه : « في الحقيقة لم يكن (وليم شيكسبير) هو من كتب هذه المؤلفات ، بل رجل إنجليزي آخر ولد في اليوم نفسه والساعة ذاتها ومات أيضاً في التاريخ نفسه ، ولكي تزداد المطابقات بينهما كان كذلك يسمى (وليم شيكسبير) .  
أجب أنت -قلت للصحفي- في أنني لست (بابلو نيرودا) بل أنا تشيلي آخر ، يكتب شعراً يصارع في سبيل الحرية اسمه كذلك (بابلو نيرودا) .

إن قضية تجهيز أوراق ما كانت بالأمر السهل ، فلقد كان (أراغون) و(بول الوار) يساعداني كذلك في الحصول على اسمي . أثناء ذلك عليّ أن أعيش في وضع شبه سرّي . من بين البيوت التي أوتني فيها ، كانت دار السيدة (فرانكويس جيروكس) .  
أبدأ لن أنسى هذه السيدة الأصيلة الذكية . كانت هذه الدار تقع في «بالس رويال» (القصر الملكي) قرب «كوليت» . تبنت هذه السيدة المحترمة ابناً فيتنامياً ، فلقد كان الجيش الفرنسي قد تكفل في فترة من الفترات بالعمل الذي وقع من بعد على عاتق الأمريكيين الشماليين : قتل الأبرياء في أراضي فيتنام البعيدة ، عند ذلك تبنت هي الطفل .

أذكر أنه في هذه الدار كان هناك لوحة لبيكاسو من أجمل اللوحات التي رأيتها في حياتي ، وهي لوحة ذات أبعاد كبيرة ، سابقة على الفترة التكعيبية ، تمثل ستارتين من قطيفة حمراء تتدليان تتغلقتان بين بين كمصراع نافذة ، تلمسان مائدة ، المائدة عليها أربعة أرغفة من الخبز الفرنسي الطويل تتصالب في تناسق ، بدت لي هذه اللوحة أنها جديرة بالانحناء لها إجلالاً واحتراماً . كانت الأرغفة الكبيرة الطويلة

(١) أنبيقية : مأخوذة من الكلمة العربية الأنيق Alambique ، وهي هنا بمعنى شريحة المرود .

(٢) مارك توين : روائي من الولايات المتحدة الأمريكية (١٨٣٥-١٩١٠) .

كأنها الطيف المركزي لـ «الأيقونات»<sup>(١)</sup> أو مثل لوحة القديس (ماوريشيو) تلك اللوحة الرائعة التي رسمها (الـ غريكو El Greco) والتي توجد في دير «الأسكوربال». لقد سميت لوحة (بيكاسو) هذه باسم علم وهو صعود القديس الخبز.

في أحد هذه الأيام جاء (بيكاسو) نفسه لزيارتي في مخبائي، فأخذته ليرى لوحته التي رسمها منذ أعوام كثيرة وكان قد نسيها، فراح يدقق في اللوحة بحدية تامة، غارقاً في هذا الانتباه الفائق والكثيب بعض الكأبة الذي قلماً يبيديه، ظل أكثر من عشر دقائق في صمت وسكون، يقترب خطوة ثم يبتعد أخرى عن عمله الرائع هذا.

- كل مرة تعجبني أكثر - قلت له حين أنهى تأمله - سوف أقترح على متحف بلدي تشيلي أن يشتريها فالسيدة (جيروكيس) على استعداد لتبيعها لنا.  
أدار (بيكاسو) من جديد رأسه نحو اللوحة، ثم سمرّ عينيه في ذلك الخبز الرائع وأجاب بتعليق واحد فقط:  
- ليست سيئة.

عشرت على بيت للإيجار بدا لي غريباً. كان يقع في شارع «بيير ميل» في Arrondissement الثاني، أي، حيث أضاع إبليس عباءته<sup>(٢)</sup>. كان حياً عمالياً ولطبقة متوسطة فقيرة جداً. كان يجب السفر ساعات طويلة تحت الأرض بـ «المترو» كي يصل المرء إلى هذه المحلة. إن الذي أعجبني في هذه الدار هو أنها تبدو مثل قفص. كان لها ثلاثة طوابق، دهاليز، غرف صغيرة، كانت قفص طيور لا يوصف. لقد خصصت الطابق الأول الذي كان أكثر اتساعاً من أخويه، وكانت فيه مدفأة نشارة، للمكتبة، وجعلت فيه قاعة للحفلات المحتملة والزيارات الطارئة. في الطابقين الأعلىين، تمركز أصدقاء لي، جاؤوا جميعاً من تشيلي، فهناك نزل الرسمان: (خوسه بينتوريلي) و(نيميسيو انتونيث) وآخرون لم أعد أذكرهم الآن.  
لقد زارني في تلكم الأيام ثلاثة من كبار الأدباء في الاتحاد السوفييتي: الشاعر (نيكولاي تيخونوف) الكاتب المسرحي (أليكساندر كورنيتشوك) (الذي كان في الوقت نفسه محافظ «أوكرانيا») والكاتب الروائي (كونستانطين سيمونوف). أبدأ ما

(١) الأيقونات: هي الرسوم والألواح البيزنطية القديمة الموجودة في الكنائس.

(٢) حيث أضاع إبليس عباءته: تعبير إسباني يشبه التعبير العربي، حيث أضاع القرد ابنه.

كنت قد قابلتهم من قبل ، فعانقوني كما لو كانوا إخوة عادوا بعد غياب طويل ليجدوا أخواً لهم ، وأعطاني كل واحد منهم بالإضافة للمعانقة قبلاً رنانة ، من هذه القبيل «السلافية» التي يتبادلها الرجال في ما بينهم والتي تعني صداقة كبيرة واحتراماً ، والتي كلفني جهداً جهيداً أن أعود عليها . بعد مضي السنين ، حين فهمت طبيعة هذه القبيل الأخوية الرجولية ، كانت لي مناسبة بأن أبدأ حكاية من حكاياتي بهذه الكلمات :

- إن أول رجل قبلني كان هو فنصل تشيكوسلوفاكيا .

حكومة تشيلي لم تكن تحبني ، لم تكن تحبني لا داخل تشيلي ولا خارجها كذلك . كانت تسبقني إلى كل جهة أمر بها ، رسائل ومكالمات هاتفية تحض الحكومات على معاداتي وطردي .

علمت أنه في قصر «فرساي» كان ثمة تقرير عني جاء فيه تقريباً ما يلي : «إن (نيرودا) وزوجته (ديليا ديل كارمن) يقومان برحلات متكررة إلى إسبانيا ، حيث يوصلان ويأتیان بتعليمات من السوفييت واليهيم ، وإن مرجعها في هذه التعليمات هو الكاتب الروسي (إيليا إيهرينبورغ) الذي يقوم (نيرودا) معه برحلات سرية أيضاً من حين إلى حين ، ولكي تكون هذه الاتصالات بين (نيرودا) و(إيهرينبورغ) أكثر سرية فإن (نيرودا) استأجر شقة في العمارة نفسها حيث يسكن الكاتب السوفييتي» .

لقد تبع هذه الأقاويل سلسلة من التحريضات والهراءات . لقد أعطاني (جان ريتشارد بلوش) رسالة إلى صديق له كان رئيساً مهماً في وزارة الخارجية . شرحت لهذا الموظف العالي كيف أنهم يسعون جهدهم كي يعملوا على طردي من فرنسا مختلقين أكاذيب وادعاءات كثيرة . قلت له إنني في لهفة للتعرف على (إيهرينبورغ) ، لكن ، لسوء حظي ، حتى هذا اليوم ، (إيهرينبورغ) ما خصني بهذا الشرف العظيم . نظر إليّ هذا الموظف الكبير في أسى وأسف ووعدني بأنهم سيقومون بتحرق دقيق حول هذه المسألة لكنهم ، ما قاموا أبداً بشيء من هذا القبيل ، وبقيت الاتهامات الباطلة واقفة على أقدامها .

عند ذلك قررت أن أقدم نفسي إلى (إيهرينبورغ) ، كنت أعلم أنه كان يتردد دائماً إلى «لا كوبول» حيث يتغدى على الطريقة الروسية ، أي ، عند المساء .

- أنا الشاعر (بابلو نيرودا) ، من تشيلي -قلت له- بناء على قول الشرطة نحن صديقان حميمان . إن رجال الأمن ومخبريهم يؤكدون في أننا نعيش في بناء واحد ،

وبما أنهم سيطرودوني بسببك من فرنسا فإني أحببت على الأقل أن أعرفك عن قرب وأن أصفح يدك .

إنني لا أظن أن (ايهرينبورغ) كان يعبر عن علامات مفاجأة إزاء أية ظاهرة تحدث في العالم ، غير أنه ، استغرب واندعش لما قلته ، فرأيت نظرة ذهول تشبه الخدر تخرج من بين حاجبيه المزبثرين ، من حيث عقيدة شعره الغاضبة الشائبة .

- أنا كذلك كنت أود التعرف عليك ، يا (نيرودا) - قال لي - إن شعرك يعجبني جداً . والآن ، كل ، كل هذه الـ«شاوكروت» (Choucrote) المصنوعة على طريقة منطقة الـ«سائيا» .

منذ تلك اللحظة أصبحنا صديقين حميمين . يبدو لي أنه في ذلك اليوم بدأ بترجمة ديواني «إسبانيا في القلب» . يجب عليّ أن أعترف أن الشرطة الفرنسية ، دون أن تقصد ذلك طبعاً ، قد منحتني أكثر الصداقات محبة في حياتي ، وزودتني كذلك بأحسن مترجم لي إلى اللغة الروسية .

جاء ذات يوم ليراني السيد (جوليس سوبيرفييه)<sup>(١)</sup> ، كنت قد حصلت على جواز سفر تشيلي باسمي وكانت مدة صلاحيته لما تنته بعد . كان هذا الشاعر القديم الكبير النبيل قلماً يخرج إلى الشارع آنذاك فتأثرت وتفاجأت بزيارته .  
- أنقل إليك خبراً مهماً . إن صهري ، زوج ابنتي ، (بيرتاوكس) ، يريد أن يراك ، لست أدري بم يتعلق الأمر .

إن (بيرتاوكس) هذا كان مدير الأمن العام . وصلنا إلى دائرته : الشاعر العجوز وأنا ، جلسنا مقابله ، أمام الطاولة ، أبدأ ما رأيت طاولة تحتوي على هواتف أكثر من طاولة هذا المدير . كم عددها؟ أعتقد أنه لا يقل عن عشرين هاتفاً . كان وجهه الذكي الخبيث ينظر إليّ من بين تلك الغابة الهاتفية . أنا كنت أفكر في أنه لا بد أن تكون في هذا المكان الرفيع جداً ، خيوط الحياة الباريسية تحت الأرضية كلها . تذكرت (فاتوماس) Fantomas و«الكوميسير» (مايغريت)<sup>(٢)</sup> .

كان هذا المدير قد قرأ كتيبي وكانت له معرفة غير متوقعة بشعري .  
- لقد استلمت طلباً من سفير تشيلي بأن أسحب منك جواز سفرك . إن السيد

(١) جوليس سوبيرفييه : كاتب وشاعر من أورغواي ، أخذ الجنسية الفرنسية (١٨٨٤-١٩٦٠) .

(٢) مايغريت : شخصية في الروايات البوليسية التي كتبها (سيمينون (Simenon) .



السفير يقول بأن حضرتك تستعمل جوازاً دبلوماسياً ، وهذا ليس شرعياً . أفصحح ما يقول؟

- إن جوازي ليس دبلوماسياً -أجبتة- . إنه جواز رسمي بسيط ، أنا عضو في مجلس الشيوخ ببلدي ، وبهذه الصفة فإن لي الحق بامتلاك هذه الوثيقة . على كل حال ، فها هو هنا وتستطيع حضرتك أن تدقق فيه ، شريطة ألا تسحبه مني فهو ملكي ، خاص بي .

- أهو صالح حتى الآن؟ من جدده؟ سألني السيد (بيرتاوكس) أخذاً جواز سفري .

- هو صالح طبعاً ، -قلت له- أما بالنسبة لمن جدده لي ، فإن لا أستطيع أن أبوح باسمه ، إن بحث فإن حكومة التشيلي ستعزله من منصبه .

فحص رئيس الشرطة في دقة جوازي ، ثم استعمل واحداً من هواتفه الكثيرة وأمر أن يوصلوه بسفير تشيلي .

المحادثة الهاتفية جرت في حضوري .

- كلا ، أيها السيد السفير ، لا أستطيع أن أفعل هذا فإن جواز سفره شرعي قانوني وما زال صالحاً ، إنني لا أعرف من جدده له ، أكرر القول في أنه سيكون غير صحيح أخذنا منه أوراقه . لا أستطيع ، يا سعادة السفير ، إنني لأسف جداً .

كان يستشف من هذه المحادثة إصرار السفير وكذلك كان واضحاً غضب خفيف من جهة (بيرتاوكس) . في النهاية وضع الهاتف وقال لي :

- يبدو أنه عدو لدود لك . لكن حضرتك تستطيع البقاء في فرنسا ما شئت من الزمن .

خرجت مع (سورفييه) الشاعر العجوز ما كان يستطيع أن يفهم كيف يجري هذا الأمر ، وأنا من جهتي ، كنت أحس بشعور انتحار ممزوج بشعور آخر من الاشمزاز والاستنكار . لقد كان ذلك السفير الذي يناكدني ، ذاك المتواطىء مع مطاردي في تشلي هو (جواكين فيرنانديث) ذاته ، من كان يفتخر ويتباهى بأنه صديق لي ولم يكن يضيع فرصة إلا وتلقني ، والذي في صباح ذلك اليوم نفسه أرسل لي تحية مع سفير غواتيمالا .

## جذور:

إن (إيهرينبورغ) الذي كان يقرأ ويترجم شعري ، كان يلومني : إنك تكرر كلمة «جذر» كثيراً في شعرك ، لماذا هذه الجذور الكثيرة في شعرك؟  
إن هذا حقيقة ، لقد غلغلت أراضي الحدود جذورها في شعري فلم تستطع أبداً أن تخرج منه بعد . إن حياتي لهي حج طويل المدى يطوف حول العالم دائماً ، ودائماً يعود إلى الغابة الجنوبية لبلادي ، إلى الغابة الضائعة .

هناك الأشجار الكبيرة هوت طريحة الثرى بما لها من سبعمائة سنة من حياة مديدة قديرة ، أحياناً أخرى اقتلع جذورها زلزال أرضي أو حرقها الثلج أو هدمها الحريق . لقد أحسست بالأشجار السامقة وهي تسقط في عمق الغابة : البلوط الذي يخر في نوح مصيبة صماء كما لو أنه قرع بيده الضخمة على أبواب الأرض طالباً جدناً .

بيد أن الجذور تظل في العراء ، معرضة للدهر العدو ، للرطوبة الطاغية ، لحزازات الصخور وأشنياتها ، للتلف المتتابع الناخر القارض .

لا شيء أجمل من هذه الأيدي المبسوطة الكبيرة ، الجريحة المحروقة التي تحكي لنا حين نعبر درياً في الغابة عن سر الشجرة الدفين ، عن لغز الأوراق ، عن طلسم الأغصان ، عن أحجية العضلات العميقة لهذه الطاقة النباتية ، إنها لترينا وهي في وضع مأساوي وحالة مهلوبة مزبثرة ، جمالاً جديداً : إنها أعمال العمق في فن النحت : إنها مؤلفات أنثودجية سرية للطبيعة الخالقة :

ذات مرة ، فيما كنت أسير مع (رافائيل البرتي) بين الشلالات والأحراج والغابات قرب «اوسورنو» ، لفت (رافائيل) نظري إلى أن كل غصن هو مختلف عن الآخر ، وأن الأوراق تتنافس في تغيير الأسلوب اللانهائي .

- إنها لتبدو وكأنها اختيرت من لدن عالم نبات لتزين حديقة رائعة - كان يقول

لي .

بعد سنين في روما ، تذكر (رافائيل) تلك النزهة وحن إلى ثروة غاباتنا الطبيعية . هكذا كان . . . وهيهات أن يعود . . . إني لأذكر في كآبة ، خطاي في عهد الطفولة وزمن الشباب ، بين «بوروا» و«كاراهويه» أو نحو «تولتين» في تجليات الشاطئ . كم من اكتشاف كان لي! رشاقة أشجار القرفة وشذاها غب المطر ، الأشنة التي تتدلى لحاها الشتوية من وجوه الغابة التي لا حصر لها .

لقد كنت أنبش الأوراق الساقطة محاولاً أن أعثر على بريق بعض مغممات الأجنحة : القوارب المذهبة التي ارتدت صباغ عباد الشمس الأزرق كي ترقص رقصة «باليت» صغيرة تحت الجذور .

في ما بعد ، حين كنت أعبر على جواد سلسلة الجبال نحو الجانب الأرجنتيني ، تحت عقود الأشجار السامقة الخضراء برز عائق : جذر إحدى هذه الأشجار ، أكثر علواً من مطايانا ، كان يسد علينا الدرب ، فما كان إلا أن أعملنا فيه الفأس وبأس شديد حتى قدرنا على اختراقه . إن تلك الجذور لهي كاتدرائيات مقوضة رأساً على عقب : كانت العظمة الجلدية تفرض علينا هيبتها وجبروتها .



## الفصل التاسع بداية منفى ونهايته

### في الاتحاد السوفييتي،

في عام ١٩٤٩، حدث الخروج من المنفى، دعيت لأول مرة إلى الاتحاد السوفييتي، بمناسبة إحياء ذكرى (بوشكين) المثوية. وصلت مع الشفق إلى موعدي، مع درة «البليطيق» الباردة إلى لينينغراد القديمة الجديدة، النبيلة البتلة. إن لمدينة (بترس) الأكبر و(لينين) «ملاكاً» كما لباريس. لها ملاك رمادي: شوارع بلون الفولاذ، قصور من حجارة رصاصية، بحر من فولاذ أخضر. كانت أكثر المتاحف روعة في العالم، كنوز القياصرة، أزيائهم، جواهرهم الباهرة، ملابسهم للاحتفالات، أسلحتهم، وأوانيتهم، كلها أمام ناظري. والذكريات الجديدة الخالدة: الطراد «أورورا»<sup>(١)</sup> Aurora الذي مدافعه وأفكار لينين هدّت أسوار الماضي وفتحت أبواب التاريخ.

لقد بادرت إلى موعد مع شاعر مات منذ ١٠٠ سنة (أليكساندر بوشكين) مؤلف أساطير خالدة كثيرة ومبدع روايات. إن أمير الشعراء الشعبين هذا يملأ قلب الاتحاد السوفييتي العظيم. بمناسبة ذكره المثوية رم الروس حجراً حجراً وقطعة قطعة قصر القياصرة. كان كل سور قد رفع كما كان قبل، ناشتاً من الأنقاض المسحوقة بفعل من المدفعية النازية. لقد استخدمت التصميمات القديمة للقصر، واثق تلك الفترة التي بنى فيها أول مرة، كي يشيدوا من جديد النوافذ الزجاجية الملونة البراقة، الأطناف المطرزة، تيجان العواميد المزهرة، على شرف شاعر رائع من عهد آخر، تكريماً له وتخليداً.

إن أول ما أثر بي في الاتحاد السوفييتي كان شعوره بالامتداد، انزواؤه الفضائي فهو يمتد عرضاً لا طولاً، حركة أشجار الـ«بتولا» في المروج، الغابات النقية الهائلة

(١) أورورا: كلمة إسبانية تعني الصبح أو الفجر.

بشكل أعجوبي ، الأنهار الكبيرة ، الأحصنة المختالة فوق حقول القمح .  
لقد عشقت في أول نظرة الأرض السوفيتية وأدركت أنها لا تلقي درساً أخلاقياً  
على أركان الوجود الإنساني كله ، وتعلم الإنسانية كيفية تسوية الإمكانيات والتقدم  
النامي في الإنتاج والتوزيع فحسب ، بل كذلك أدركت أنه من تلك القارة السهوية  
ذات النقاوة الطبيعية الغنية ، كان سينتج طيران كبير . إن الإنسانية قاطبة تعرف أنه  
هناك تصنع الحقيقة العملاقة ، وأن في العالم ثمة توتراً مذهلاً ينتظر ما سيحدث .  
بعضهم ينتظر في فزع وبعضهم ينتظر أمعة ، وبعضهم يؤمن أنه لا بد أن يقع ما يتوقع  
وأنا كنت أتوقع أنه سيحدث طيران عظيم عبر المدى والفضاء .

كنت أجدني وسط غابة من الفلاحين ، لابسين أزياء قديمة مهرجانية ، ينصتون  
إلى قصائد (بوشكين) . كان كل ذلك يخفق : البشر ، أوراق الأشجار ، المدى حيث  
القمح الجديد يبدأ الحياة . كانت الطبيعة تبدو وكأنها تشكل وحدة منتصرة وإنسانها  
الجديد . كان لا بد أن يبرز ذات مرة ، من قصائد (بوشكين) في غابة  
(ميشايسلويسكي) الإنسان الذي سيطر نحو كواكب أخرى .

فيما الفلاحون يشهدون مهرجان التكرم هذا وإذ بديمة سكوب تفرغ شحنتها وإذ  
بصاعقة تصعق بالقرب منا فتحرق رجلاً وشجرة كانت تؤويه وتظله . فبدالي هذا  
كله أنه داخل إطار الطبيعة العاصفي . أضف إلى هذا أن ذلك الشعر المصاحب بالمطر  
كان منذ زمن في كتبي وكان ذا علاقة وثيقة بي .

إن البلد السوفيتي يتغير بشكل دائم مستمر ، تبنى مدى وقنوات هائلة ، حتى  
الجغرافيا تتبدل . لكن في أول زيارة لي انطبعت في نفسي ثابتة راسخة نواحي  
التشابه التي كانت تلصقني بهم ، كذلك كل ما كان يبدو لي فيهم غريباً عن روحي  
بعيداً عن نفسي ، كل ما كان يصعب عليّ فهمه أو التقاطه .

إن الكتاب في موسكو يعيشون دوماً في احتدام جدال مستمر . لقد علمت  
هناك ، قبل أن يكتشف ذلك الغربيون محبو الفضائح ، بكثير ، أن (باسترناك)<sup>(١)</sup> كان  
الشاعر السوفيتي الأول ، في قرن واحد و(ماياكوفيسكي) . إن (ماياكوفيسكي) هو  
الشاعر الجماهيري ذو الصوت الرعدي والمظهر البرونزي والقلب العظيم النبيل الذي  
استطاع أن يطوع اللغة ويواجه أكثر القضايا صعوبة في الشعر السياسي وأكثر مشاكله

(١) باسترناك (بوريس) : شاعر وكاتب روسي (١٨٩٠-١٩٦٠) .

البيانية تعقيداً ، بينما (باسترناك) هو شاعر شفقي كبير ، شاعر الذاتية الميتافيزيقية ، وهو سياسياً شاعر رجعي متواضع ، ما استطاع أن يرى في تحول وطنه وتغييره أبعد مما كان يرى سادن كنيسة مثقف . على كل حال فإني استمعت إلى أكثر النقاد صرامة في انتقاده بسبب جموده السياسي وهم ينشدون قصائده عن ظهر قلب كثيراً من الأحيين .

إن وجود اعتقادية Dogmatismo سوفييتية في الفنون خلال مراحل طويلة لأمر لا يمكن إنكاره ، بيد أنه يجب أن يقال كذلك إن هذه «الاعتقادية» اعتبرت دائماً عيباً كوفح وجهاً لوجه . إن عبادة الشخصية أدت ، عن طريق المقالات النقدية التي كان يكتبها (زدانوف Zadhanov) ، وهو «اعتقادي» لامع ، إلى تصلب خطير في مجرى الثقافة السوفييتية وتطورها ، لكن كانت هناك إجابات كثيرة من الجهات جميعها على هذه المقالات ، وإنه لأمر معروف أن الحياة هي أقوى وأعند من الفروض والأوامر والقواعد ، إن الثورة لهي الحياة وإن الفروض تبحث دائماً عن نعشها وقبرها . ما زال (أيهرينبورغ) على كبره في العمر المهيج الأكبر لكل ما هو حقيقي وجوهري وحي في الثقافة السوفييتية . لقد زرت مرات كثيرة صديقي الطيب الودود في شقته بشارع (غوركي) ، شقته المكوكة بلوحات (بيكاسو) ، أو في عزبته (Dacha) قرب موسكو . لقد كان له هوس بالنباتات فهو دائماً في حديقته ينزع النباتات الطفيلية ويجني ثمار كل ما ينمو حوله .

في ما بعد أنشأت صداقة متينة مع الشاعر (كيرسانوف) الذي ترجم إلى الروسية شعري ترجمة تبعث على الإعجاب حقاً . إن (كيرسانوف) ، مثل السوفييت جميعاً ، وطني متوهج . إن لشعره ومضاً متفجراً ، جرساً تمنحه اللغة الروسية الجميلة التي يقذف بها إلى الهواء بريشته فتنبعث تفجرات وشلالات .

كنت على الدوام أزور في موسكو أو في الريف شاعراً كبيراً آخر ألا وهو الشاعر التركي (ناظم حكمت) ، وهو كاتب خرافي أسطوري ، كانت حكومة بلده الغربية عن شعبه قد سجنته خلال ١٨ سنة .

لقد اتهم (ناظم) بأنه كان يريد إثارة فتنة وتمرد في صفوف البحرية التركية فأدانوه بكل عقوبات جهنم . جرت المحاكمة على ظهر بارجة عسكرية . كانوا يحكون لي كيف أنهم جعلوه يمشي حتى درجة الانهالك على جسر الباخرة ، ومن بعد أدخلوه إلى المرحاض حيث كان الغائط يعلو أكثر من نصف متر ، فشعر أخي الشاعر

بالإغماء وخارت قواه . كانت الرائحة الكريهة تجعله يتقزز ويرتعد . عند ذلك فكر : لا بد أن الجلادين يرقبونني من نقطة ما ، فهم يريدون أن يروني أتداعى ، يريدون أن يروني تعيساً بائساً . فانبعثت قواه في أنفة وعنجهية وبدأ يغني ، أولاً في صوت خفيض ومن بعد في صوت أكثر علواً ، في النهاية شرع يغني ملء حنجرتة ، غنى الأغاني كلها ، الغزل الذي كان يذكره ، جميع قصائده التي نظمها ، مواويل الفلاحين ، أناشيد شعبه النضالية ، غنى كل ما كان يعرفه من غناء . وهكذا انتصر على الرجس والنجاسة والعذاب . عندما قص عليّ ذلك ، قلت له : «يا أخي ، إنك بهذا قد أجببت عنا جميعاً ، فلم نعد نحتار فيما نفعله ، فما نحن جميعاً معشر الشعراء نعرف متى يجب علينا أن نبدأ الغناء» .

كان يحكي لي كذلك عن آلام شعبه ، عن الفلاحين الذين يضطهدهم في قساوة سادة تركيا الإقطاعيون . كان (ناظم) يراهم وهم يأتون على السجون جماعات جماعات ، كان يراهم وهم يستبدلون التبنك بقطعة الخبز التي كانوا يعطونهم حصّة وحيدة وجراية يتيمة . أخذوا ينظرون إلى مرعى الباحة في السجن بذهول ، من بعد بانتباه وتركيز ، من بعد بشراهة ونهم ، ذات يوم التقطوا أقداء الحشائش والأعشاب وقربوها من أفواههم ثم راحوا يقتلعونها حزماً حزماً ملء الأيدي فيبتلعونها إلى أن انتهوا إلى أن يرعوا بأربعة أرجل كما الدواب .

لقد عاش (ناظم) ، الذي كان عدواً لدوداً للاعتقادية ، سنين طويلة منفياً في الاتحاد السوفييتي . إن حبه لهذه الأرض التي حضنته لمتمثل في هذه الجملة التي قالها : «أنا أوّمن بمستقبل الشعر ، أوّمن لأنني أحيا في بلد يشكل الشعر فيه أكثر مقتضيات الروح لزوماً وضرورة» . في هذه الكلمات تنوس أسرار كثيرة لا تدرك من على بعد . إن الإنسان السوفييتي ، والأبواب منفتحة على المكتبات كلها والقاعات جميعها والمسارح قاطبة ، لهو مركز اهتمامات الكاتب السوفييتي . ليس من مجال لnesiaه حين يُتناقش حول مصير العمل الأدبي . فمن ناحية ، يجب على الصيغ الجديدة ، أي التجديد الضروري لكل ما يوجد ، أن تتجاوز القوالب الأدبية الجاهزة وأن تعمل على تحطيمها . ومن ناحية أخرى كيف يمكن للأدب أن لا يرافق خطى ثورة عميقة مديدة؟ كيف يمكن له أن يتعد عن المواضيع الأساسية ، الانتصارات ، المنازعات ، المشاكل الإنسانية ، عن خصب وحركة وتناسل شعب كبير يواجه تغييراً شاملاً للنظام السياسي الاقتصادي الاجتماعي الذي كان سائداً في بلده؟ كيف



يمكن له أن لا يتضامن مع هذا الشعب الذي يهاجمه غزاة شرسون ويحاصره مستعمرون لا يرحمون يعكرون صفو الأجواء الإنسانية كلها؟ أفتستطيع الآداب والفنون أن تتخذ موقفاً مستقلاً استقلالاً هوائياً هساً إزاء أحداث جوهرية ومجريات أساسية؟

إن السماء لبيضاء ، في الرابعة مساء تغدو سوداء ، منذ هذه الساعة يغلق الليل المدينة .

إن موسكو لهي مدينة شتوية ، هي مدينة الشتاء الجميلة . لقد تمركز الثلج فوق سطوح المنازل المتكررة المترامية بشكل لا نهائي . تلتصق الشوارع النظيفة أبداً . إن الهواء لهو بلور قاس شفاف . لون فولاذي ناعم ، زغب ثلجي يحوم ، ذهاب المارة وإيابهم كما لو أنهم لا يحسون للبرد طعماً ولا لذعاً ، كل هذا يجعلنا نحلم في أن موسكو ما هي إلا قصر للشتاء كبير ذو زخارف شبحية وحية ، خارقة ومدهشة .

ثلاثون درجة تحت الصفر في موسكو هذه التي هي مثل نجمة من نار ومن ثلج ، مثل قلب متوهج مشتعل ، قلب يكمن وسط صدر الأرض .

هأنذا أنظر عبر النافذة ، ثمة حراس في الشوارع ، فماذا يجري؟ لقد توقف حتى الثلج عن الحركة عن الهطول ، إنهم يدفنون (فيسهينسكي Vishinski) العظيم ، تنفتح الشوارع في جلاله ووقار كي يمر موكبه . يسود سكون عميق ، خفوت في قلب الشتاء احتراماً لهذا المحارب الكبير . إن نار (نيسهينسكي) توؤب إلى أس الوطن السوفييتي .

ما زال الجنود الذين حبوا بأسلحتهم الموكب حين مر في أماكنهم ثابتين في تشكيلات ثلاثية ، من حين إلى حين يقوم أحدهم برقصة صغيرة ، رافعاً يديه القفازيتين ومحدياً بعزمته الطويلة لحظة . ثم يرجع متصلباً راسخاً ثابتاً .

لقد روى لي صديق إسباني أنه خلال الحرب العظمى في أشد الأيام برداً وصقيعاً ، إثر غارة جوية داهمة ، كان المسكوبيون يُرون وهم يأكلون الثلجات في الشوارع ، «أنداك أدركت أنهم لا بد رابحو الحرب - كان يقول لي صديقي - ، حين رأيتهم يأكلون الثلجات في هدوء وطمانينة نفس وسط حرب رهيبة وبرد شديد» .

لقد تزرقت أشجار الحدائق بيضاء من ثلج . لا شيء يقرن بهذه الأوراق المتبلورة في الحدائق بشتاء موسكو ، إن الشمس تجعلها أكثر شفافية ، تقطلع منها لهباً أبيض دون أن تذوّب أية قطرة من قامتها الزهرية من قوامها الثلجي . إنه لكون مشجر

يدعك ترى من خلال ربيع الثلجي أبراج «الكريمين» العتيقة القديمة ، السهام  
الرشيقة الهيفاء الألفية ، قباب كنيسة «القديس باسيل» المذهبة .  
إنني لأرى ، بعد أن عبرت ضواحي موسكو باتجاه مدينة أخرى ، دروباً عرضية  
بيضاء ، إن هي إلا الأنهار المتجمدة . في مجاري هذه الأنهار الجليدية يطلع من حين  
إلى حين بما ذبابة في خوان أبيض باهر ، طيف صياد مطرق الرأس . يقف الصياد  
وسط السماط السببب المديد الجليد ، يختار نقطة ، يثقب الجليد حتى يدع التيار  
الدفين مرثياً جلياً ، في هذه اللحظة نفسها لا يمكن له الصيد إذ إن الأسماك المباحة  
هربت مذعورة من ضجيج الماثقب الحديدية التي عملت في الجليد ثقباً وتنقيباً ،  
حينذاك يبعثر الصياد بعضاً من طعم هنا وبعضاً من طعم هناك كي يجذب الأسماك  
الفارة ثم يرمي بصنارته ويترقب ، ينتظر ساعات وساعات في ذاك البرد الإبليسي  
اللعين .

إن عمل الكتاب ، في رأيي ، له شبه كبير بعمل أولئك الصيادين في القطب  
الشمالي ، على الكاتب أن يبحث عن النهر فإن وجده متجمداً فإنه يضطر أن يثقب  
الجليد . عليه أن يجلد ويصبر ، أن يتحمل الطقس المعادي والنقد المضاد . أن يتحدى  
التفاهة ، أن يبحث عن التيار العميق ، أن يرمي بالصنارة الصالحة الصائبة ، ليُخرج  
بعد جهد جهيد وصبر شديد سمكة صغيرة . بيد أنه لا بد له من أن يرجع الكرة  
ويعود للضيغ من جديد ، ضد البرد ، ضد الصقيع ، ضد الماء ، ضد النقد ، وهكذا  
دواليك حتى يُخرج في كل مرة صيداً أكبر وأعظم .

دعيت لحضور مؤتمر للكتاب ، كان يجلس هناك في سدة الرئاسة صيادو  
الأسماك العظماء ، كتاب الاتحاد السوفييتي الكبار (فاديف) بابتسامته البيضاء  
وشعره الفضي . (فيدين) بوجهه النحيل الحاد كوجه صياد إنجليزي . (ايهرينبورغ)  
بنواصي شعره المضطربة وببذلته التي وإن كان قد دشنها حديثاً تعطي انطباعاً بأنه  
كان ينام وهو يرتديها . و(تيخونوف) .

كان كذلك ممثلين في الرئاسة بوجههم المنغولية ، الناطقون باسم آداب أكثر  
الجمهوريات السوفيتية بعداً ، يمثلو شعوب ما كنت أدري أنا حتى بأسمائها ، شعوب  
ما كانت لها الأبجدية من قبل .

## الهند المزارة من جديد،

كان عليّ في عام ١٩٥٠ أن أسافر إلى الهند على غير توقع أو انتظار . لقد استدعاني إلى باريس (جوليوت كوري Joliot Curie)<sup>(١)</sup> كي يكلفني بمهمة ألا وهي السفر إلى «دلهي الجديدة» للاتصال هناك بأناس من مختلف الآراء والاتجاهات السياسية ، والبحث هناك عن إمكانيات تدعيم الحركة الهندية من أجل السلام العالمي . كان (جوليوت كوري) هو الرئيس الدولي لأنصار السلام ، تحدثنا في إسهاب . كان يقلقه أن السلم في الهند ليس له الوزن الذي يجب أن يكون عليه . غير أنه كان للهند سمعة حسنة في أنها دولة مسالمة من الطراز الأول . وكان لرئيس وزرائها نفسه ، (البانديت نهرو) ، الشهرة في أنه زعيم السلام ، إن قضية السلام لهي قديمة عميقة بالنسبة لتلك الأمة .

أعطاني (جوليوت كوري) رسالتين : واحدة منهما لعالم بحاثة مسالم في «بومباي» والأخرى لرئيس الوزراء (نهرو) على أن أسلمها له يداً بيد ، لقد استغربت أنه اختارني على التعيين للقيام بسفر مرهق طويل وبعمل سهل جداً ، كما كان يبدو . ربما أنه اعتمد على حبي الذي ما خمد أبداً نحو ذاك البلد حيث قضيت بضع سنين أثناء شبابي ، أو لعله استند إلى أنني حزت في هذه السنة نفسها على جائزة السلام بقصيدتي «فليستيقظ الحطاب» ميزة منحت كذلك إلى (بابلو بيكاسو) و(ناظم حكمت) .

ركبت الطائرة متوجهاً إلى «بومباي» . بعد ثلاثين سنة كنت أعود إلى الهند من جديد ، والهند الآن ليست مستعمرة تكافح في سبيل تحررها وانعتاقها بل هي جمهورية<sup>(٢)</sup> ذات سيادة : حلم (غاندي) الذي حضرت مؤتمراته الأولى عام ١٩٢٨ . لم يعد من أصدقائي الطلبة الثوريين إذاك الذين أودعوني في ثقة وأخوة حكاياهم الكفاحية البطولية أي فرد حي ، هذا ما كنت أفكر فيه حين وصلت .

ما إن نزلت من الطائرة حتى توجهت إلى الجمارك وفي نيتي أن أتوجه إلى أي فندق مهما كان ، كي أسلم الرسالة إلى العالم الفيزيائي (رامان)<sup>(٣)</sup> وأواصل سفري

(١) جوليوت كوري Fre'deric : فيزيائي - كيميائي (١٩٠٠-١٩٥٨) .

(٢) من المعروف أن الهند هي دولة تابعة للكومنولث البريطاني .

(٣) رامان Chandrasekhara Venkata : عالم فيزيائي هندي ولد عام ١٨٨٨ .

من بعد إلى دلهي الجديدة . لم أكن أحسب حساب الضيافة والإقامة عند هذا العالم . لكن حقائبي ما كانت لتخرج من سورها إذ إن مجموعة ممن كنت أحسبهم رجال جمارك ، كانوا يفتشون حقائبي تفتيشاً دقيقاً وبحثاً متطايماً وفي عدسة مكبرة : لقد شاهدت في حياتي تحريات وتفتيشات عديدة لكنني أبداً ما شاهدت كما هذه المرة : لم يكن عفشي بالكثير النامي : حقيبة صغيرة تحتوي على ملابس ومحفظه تتضمن لوازمي الشخصية . راحت سراويلي وملابسي الداخلية وأحذيتي تعلقو في الهواء ترقبها خمسة أزواج من العيون ، كانت الجيوب والغزازات والدروز تنقب تنقيباً دقيقاً مجهرياً . كي لا تتسخ ملابسي بأحذيتي فقد كنت في مطار روما قد طويت هذه الأحذية بصحيفة متجعده عشرت عليها في غرفة فندقني هناك وأظن أنها «الابسيرفاتور رومانو» . ففرشوا هذه الصحيفة على طاولة وأخذوا ينظرون إليها بالنور الكاشف ثم طووها في اعتناء كما لو أنها وثيقة سرية ثم وضعوها قرب أوراقني ووثائقي الأخرى . كذلك فإنهم درسوا وفحصوا أحذيتي من الداخل ومن الخارج كأنها نماذج فريدة من الحفريات الهائلة .

لقد دام هذا البحث الخرافي زهاء ساعتين . لقد صنعوا من أوراقني (جواز سفر ، مفكرة عناوين ، الرسالة التي كان عليّ أن أسلمها إلى رئيس الحكومة ، صحيفة «الابسيرفاتور رومانو») ربطة مطولة ختموها بشكل احتفالي بالشمع الأحمر أمام ناظري ، بعد أن قالوا لي إنني أستطيع التوجه إلى الفندق . بذلت جهداً تشيلياً كي لا أفقد صبري ، ثم أنذرتهم بأنهم لن يقبلوني في أي من الفنادق إن لم أكن مزوداً بوثيقة تثبت هويتي ، وأن موضوع زيارتي إلى الهند هو إعطاء الوزير الأول الرسالة التي لن أستطيع إعطاءها له لأنهم خطفوها مني وبقيت معهم . - نحن سنتكلم مع الفندق كي يقبلوك فيه ، أما بالنسبة للأوراق فإننا سنعيدها إليك في اللحظة المناسبة .

هذا هو البلد الذي شكل كفاحه من أجل الاستقلال جزءاً من مصيري وشبابي . قلت في نفسي . أغلقت حقيبتي وفي الوقت نفسه أغلقت فمي ، كان فكري ، في داخلي ، يشكل كلمة واحدة لا غير : خرا .

التقيت في الفندق مع الأستاذ (بايرا) فحكيت له محنتي . كان هو رجلاً هندياً ذا مزاج طيب . لم يول الأمر الأهمية اللازمة فلقد كان متسامحاً مع بلده ومتساهلاً ؛ إذ إنه اعتبر الهند في مرحلة التشكل والتكون فيما كنت أنا على العكس ، فلقد

رأيت في تلك الفوضى شيئاً سيئاً جداً ، شيئاً ما كنت أنتظره من أمة مستقلة جديدة تجري لي هذا الاستقبال الفاضح المخزي .

كان صديق (جوليوت كوري) الذي كنت أحضر له رسالة التقديم ، هو مدير الدراسات الفيزيائية-الذرية في الهند ، فدعاني لزيارة مراكزه النووية هذه وأضاف قائلاً بأننا مدعوان إلى الغداء في اليوم نفسه على مائدة أخت رئيس الوزراء . هكذا كان حظي وهكذا كانت حياتي كلها دوماً : بيد يلطمونني على أضلاعي وبيد أخرى يقدمون لي باقة ورود كي أغفر الحيف .

إن معهد الأبحاث النووية كان واحداً من هذه الأماكن النظيفة الواضحة المشعة التي فيها ترى رجالاً ونساءً وهم يرتدون ملابس بيضاء فضفاضة شفافة ، يحومون ويطوفون كالماء الجاري ، يعبرون دهاليز وممرات ، يتفادون التماس بأدوات وألواح كبيرة وأوان وأوعية كثيرة . مع أنني لم أفهم إلا القليل من تلك الشروح العلمية فإن تلك الزيارة أفادتني كأنها حمام من مطر كان ينظفني ويغسل عني أضرار تلك البقع التي لطخني بها رجال الشرطة وتنكيداتهم وإزعاجاتهم وتفتيشاتهم . أذكر في غير وضوح أنني رأيت من بين الأشياء الأخرى نوعاً من الزئبق أدهشني . لا شيء أروع من هذا المعدن الذي يعرض طاقته كأنها حياة حية . لقد سرنني دائماً بحركته وتحركه : قدرته على التحول السائلي الكروي السحري .

لقد نسيت اسم أخت (نهر) التي تغدينا معها ذلك اليوم . حين رأيتها زال عني المزاج السيء . كانت امرأة ذات جمال وحسن عظيمين ، متزينة ، متبرجة كأنها ممثلة غربية النوع ، كان رداؤها Sari يبرق في ألوان زاهية ، وكان الذهب والدر والجوهر تزودها بزخارف تزيد من جمالها ، لقد أعجبتني كثيراً . لقد كان ، فعلاً ، شيئاً مناقضاً أن تراها وهي تأكل بيدها ، أن ترى أناملها الطويلة المحلاة بالزينة وهي تغرز من الأرز ومرق Curry . قلت لها إنني سأذهب إلى دلهي الجديدة كي أرى أباها وأقابل أنصار السلام العالمي . أجابتنني أنه ، في رأيها ، سكان الهند جميعاً يجب عليهم أن ينخرطوا في هذه الحركة العالمية .

في المساء سلمني رجال الشرطة السفظ وأوراقي . لقد كان أولئك المنافقون من رجال الشرطة قد كسروا الخواتم الشمعية التي هم بأنفسهم وضعوها حين صفتوا وثائقي في حضوري . بالتأكيد أنهم صوروا كل شيء حتى وصول حسابات محل تنظيف الثياب التي كنت أحملها في جيبي . ومع مضي الوقت عرفت أنهم استجوبوا

جميع الأشخاص التي كانت عناوينهم تبدو في مفكرتي ، ومن بين هؤلاء الأشخاص أرملة (ريكاردو غويرالديس)<sup>(١)</sup> التي هي أخت زوجتي في ذلك الوقت . كانت هذه السيدة امرأة متصوفة سطحية ليس لها من هوى ولا هوس إلا الفلسفات الآسيوية ، وكانت تعيش في ضيعة نائية جداً في الهند ، ومع ذلك فقد أزعجوها نظراً لأن اسمها كان من جملة الأسماء التي أحملها في مفكرتي .

في دلهي الجديدة رأيت سبعاً من الشخصيات بالعاصمة الهندية ، في يوم وصولي نفسه ، حيث كنت أجلس في حديقة تحت ظلال تحميني من وهج النار السماوية . كانوا كتاباً ، فلاسفة ، كهنة هندوساً أو بوذيين ، من أناس الهند ، هؤلاء البسطاء جداً إلى درجة تبعث على التقدير والتقدير ، غير مزودين بأي تبجح مصطنع ولا زهو مزيف . ارتأوا بالإجماع أن يشكل أنصار السلام حركة واحدة تنصهر مع الروح القديمة لهذا البلد العريق بتقاليده الحية من حب للخير وتفاهم مشترك . أضافوا في حكمة أنهم يرون أنه من الضروري أن تصلح العيوب ، عيوب الميل نحو جانب دون آخر أو سيطرة قسم على آخر : ليس على أحد أو فئة أن يدعي الحركة لنفسه سواء أكان من الشيعيين أم البوذيين أم البورجوازيين . إن مساهمة الاتجاهات كلها كان هو المحور الرئيسي وعقدة الأمر . كنت على اتفاق معهم .

جاء ليراني سفير تشيلي في دلهي الجديدة وهو صديق قديم كاتب وطبيب يدعى الدكتور (خوان مارين)<sup>(٢)</sup> وحين وصل كنت أنا أتغدى . بعد كثير من اللف والدوران والمواربة في الكلام قال لي إنه كان قد قابل رئيس الشرطة . فأخبره رئيس الشرطة الهندي في هذا الطابع الجدي الذي يتكيفه الرجال المسؤولون حين يتوجهون لمخاطبة الدبلوماسيين ، أن نشاطاتي تزعج حكومة الهند وتقلقها ، وأنه ليتني أهجرت الهند عما قريب . فأجبت السفير أن نشاطاتي قد اقتصررت على مقابلة سبعة من الأشخاص الشهيرين المعروفين في حديقة الفندق ، أفكارهم معروفة لدى الجميع ، كنت أفترض أنا . أما بالنسبة لي ، قلت له ، فإنني حين أسلم رسالة (جوليوت كوري) إلى رئيس الوزراء ، لن أرغب من بعد أن أستمر في بلد يعاملني ، على الرغم من وقوفي المجرّب إلى جانب قضاياه ، بهذه الوقاحة وقلة الكياسة دون أي مبرر أو داع .

(١) ريكاردو غويرالديس : روائي أرجنتيني (١٨٨٦-١٩٢٧) .

(٢) خوان مارين : روائي ومؤرخ تشيلي (١٩٠٠-١٩٦٣) .

لقد كان سفيرى ، مع أنه كان واحداً من مؤسسى الحزب الاشتراكي بتشيلي ، خامداً هامداً . قد يكون بسبب تراكم السنين عليه وبسبب تراكم الامتيازات الديبلوماسية لم يبد أي احتجاج على الإهانة التي لحقت به وبى من جراء هذا السلوك الغيبي من لدن الحكومة الهندية ، وأنا لم أطلب منه أي دعم أو تضامن معي بل ودعته بالتى هي أحسن ، فمضى هو مرتاحاً من الحمل الثقيل الذي كان يعنى بالنسبة له وجودي في الهند ، وانا مضيت يائساً إلى الأبد من حساسيته ومن صداقته .

كان (نهر) قد حدد لي موعداً في صباح اليوم التالي بمقر الحكومة في مكتبه . وقف ومد يده دون أية ابتسامة من ترحيب وتكريم . إن مقر الحكومة هذا قد وصف كثيراً فلا حاجة بي للكلام عنه . نظرت إليّ عينيان داكنتان باردتان من غير عاطفة ولا شعور . قبل ثلاثين سنة قدموني إليه وإلى أبيه في اجتماع حاشد من أجل استقلال الهند ، فذكرته بهذا الاجتماع واللقاء فلم تتغير ملامحه أبداً . على كل ما كنت أقوله كان يجيب في مقاطع قصيرة من الكلام ذات حرف أو حرفين وهو يرقبني بنظرته الباردة الجامدة الثابتة .

ناولته من بعد رسالة صديقه (جوليوت كوري) فقال لي بأنه يشعر نحو هذا العالم الفرنسي شعور التقدير والاحترام ، ثم قرأ الرسالة في رصانة . كان حديثه في الرسالة عني ويطلب منه مساعدتي في مهمتي . انتهى من قراءتها وأدخلها من جديد في ظرفها ونظر إليّ دون أن يقول لي شيئاً . فكرت لتوي أن حضوري بسبب له اشمئزازاً لا يقاوم ، كذلك مر في ذهني أن هذا الرجل ذا اللون الأصفر الشاحب لا بد أنه يمر في لحظة فيسيولوجية سيئة أو سياسية مزعجة أو نفسية مضايقة . كان في سلوكه بعض من الأنفة والتشامخ ، شيء من التكبر والعجرفة ، زهو شخص متعود على أن يكون أمراً ناهياً دون أن يكون له شيء من هيبة القائد . تذكرت أن أباه (البانديت موتيلال زيمندار) ، سليل جنس قديم من السادة ، كان أمين خزانة (غاندي) وأنه ساهم ليس بمعرفته السياسية فحسب بل كذلك بشروته الكبيرة في حزب المؤتمر الهندي . فكرت في أنه ربما يكون هذا الرجل قد عاد ليصير بشكل مهلهل (زيماندارا) وأنه لهذا السبب يرمقني في احتقار ولا مبالاة كما لو كان ينظر إلى فلاح حاف عار .

- ماذا عليّ أن أقول للأستاذ (جوليوت كوري) حين أعود إلى باريس؟

- سأجيب على رسالته - قال في جفاف .

احتفظ بالسكون والصمت خلال بضع دقائق بدت لي دهرًا . كان يظهر لي أن (نهر) ليست عنده أية رغبة في أن يقول لي شيئاً ، لكن ما كنت أبدي أي تلمل أو عدم صبر كما لو أنني كنت أستطيع البقاء هناك جالساً إلى الأبد بدون أي غرض ولا هدف ، يملؤني شعور بأنني أضيع وقت رجل عظيم جداً ومهم جداً .

اعتبرت أنه لا بد لي من أن أقول له بضع كلمات عن مهمتي . إن الحرب الباردة تهدد بأن تصير ساخنة بين لحظة وأخرى . إن هاوية جديدة قد تبتلع الإنسانية كلمته عن خطر الأسلحة الذرية الرهيبة وعن أهمية أن يتكلم جميع الذين يريدون تجنب الحرب الذرية أو أكثرتهم على الأقل .

كما لو أنه ما سمع مني شيئاً ، استمر في تأمله وإطرافه الفكري الروحي . بعد انتهاء بضع دقائق تفوه قائلاً :

إن ما يحصل هو أن كتلة وأخرى تتراشقان بحجج السلام .

- بالنسبة لي -أجبتة- إن الذين يتكلمون عن السلام أو يريدون المشاركة في السلم جميعاً يستطيعون أن ينتموا إلى الكتلة نفسها ، إلى الحركة نفسها ، فنحن لا نريد إقصاء أحد عن حركتنا ما عدا أنصار الحرب ودعاة الانتقام .

استغرق الصمت طويلاً فأدركت أن الحديث قد انتهى فوقفت ومددت له يدي مودعاً فصافحني في سكون . حين كنت أتوجه نحو الباب سألني في شيء من الود : ماذا أستطيع أن أعمل في سبيل حضرتك؟ ألا أستطيع أن أقدم لحضرتك شيئاً؟ أنا عادة بليد الإجابة غير سريع الخاطر ، غير مجهز بالخبث والمكر ، لكن للمرة الوحيدة في حياتي استفدت من تلك الفرصة السانحة :

- بلى ، طبعاً ، لقد نسيت ، على الرغم من أنني قد جئت سابقاً إلى الهند فإنني لم تسنح لي فرصة زيارة «تاج محل» القريب جداً من دهلي الجديدة . كان من الممكن أن تكون هذه هي الفرصة المناسبة لزيارة هذا المشهد التذكاري الرائع لو لم تخبرني الشرطة أنني لا أستطيع مغادرة المدينة ، وأن عليّ أن أعود إلى أوروبا في أسرع وقت ممكن ، ولهذا فإنني سأرحل غدا .

كنت فرحاً بأنني رشقته بالسهم<sup>(١)</sup> . حييته في خفة وغادرت مكتبه .

---

(١) رشقته بالسهم : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، كالتاء له الصاع صاعين ، وإن كان التعبير العربي

في الأصل يعني الخير والمودة .



في قاعة الاستقبال بالفندق كان المدير ينتظرنني .

- عندي رسالة لحضرتك ، رسالة شفوية ، لقد اتصلت بي الحكومة هاتفياً لتخبرني أن حضرتك تستطيع زيارة «تاج محل» حين يطيب لحضرتك .

- أعد حسابي -أجبتة- إني لأسف لعدم قدرتي على القيام بهذه الزيارة ، فإنني سأتوجه الآن حالاً إلى المطار كي أخذ أول طائرة تقلني إلى باريس .

بعد خمس سنين على هذا كلفت أن أكون عضواً في لجنة الجوائز التي كل سنة تمنح جائزة لينين للسلام في موسكو ، وهذه اللجنة هي محكمة أممية أشكل أنا جزءاً منها . حين حانت لحظة تقديم أسماء المرشحين لذلك العام ، قذف مندوب الهند باسم رئيس الوزراء (نهر) .

أنا ابتسمت ابتسامة لم يفهمها أحد من الأعضاء الآخرين وصوتت إيجابياً . بتلك الجائزة الأمية نصّب (نهر) واحداً من أبطال السلام في العالم .

### زيارتي الأولى للصين:

لقد زرت الصين مرتين بعد الثورة ، الأولى عام ١٩٥١ ، حين شاركت في مهمة حمل جائزة لينين للسلام إلى السيدة (سونغ سين لينغ) أرملة (سون يات سين Sun Yat Sen)<sup>(١)</sup> .

لقد منحت هي هذه الميدالية الذهبية بناء على اقتراح (كوو مو خو)<sup>(٢)</sup> نائب رئيس الصين وكاتب شهير . كان (كوو موخو) كذلك نائب رئيس لجنة الجوائز مثلما كان كذلك (أراغون) . إلى هذه اللجنة كان ينتمي : (أنا سيفيرس) ، السينمائي (اليكساندروس)<sup>(٣)</sup> ، و(ايهرينبورغ) وأنا ، وآخرون لا أذكر الآن أسماءهم . كان ثمة حلف سري مؤلف من (أراغون) و(ايهرينبورغ) ومني ، عن طريق هذا الحلف توصلنا إلى أن تمنح اللجنة الجائزة في أعوام أخرى إلى (بيكاسو) ، إلى (بيرتولد بريخت)<sup>(٤)</sup> إلى (رافائيل البرتي) . لم يكن الأمر سهلاً ، على فكرة .

(١) سون يات سين : سياسي صيني (١٨٦٦-١٩٢٥) .

(٢) كوو مو خو : كاتب صيني ولد عام ١٨٩٥ .

(٣) اليكساندروف : مخرج سينمائي روسي ولد عام ١٩٠٣ .

(٤) بريخت : مؤلف مسرحي وشاعر ألماني معروف (١٨٩٨-١٩٥٦) .

خرجنا بالقطار المتجه نحو الصين العابر «سيبيريا» . لقد كان حشر نفسي في هذا القطار الأسطوري مثل الدخول في باخرة تبهر عبر الأرض في المدى السحري الغريب . لقد كان كل شيء أصفر في ما حولي . على كل جانب من كوتتي في القطار ، فرسناً إثر فرسخ ، كان الخريف السيبيري يسود ويسيطر ولا شيء يُرى غير أشجار «البتولا» الفضية ذات الأوراق الصفراء . ثم بدا المرج المديد ، صحراء جليدية أو غابات الصنوبريات Taiga ومن حين إلى حين تقترب من محطات المدن الجديدة . كنا نهبط ، (ايهرينبورغ) وأنا ، كي تنتشط بعد التخدير القطاري . كان الفلاحون ينتظرون القطار في المحطات ومعهم حزم وطرود وحقائب مكمومة في قاعات الانتظار .

لم يكن لدينا من الوقت إلا القليل نستفيد منه كي نقوم ببعض الخطوات عبر هذه القرى . كانت جميعها سواء وفي كل قرية كان ثمة تمثال لستالين ، من إسمنت . أحياناً كان التمثال مدهوناً بالفضة وأحياناً أخرى بالذهب . من عشرات التماثيل التي شاهدناها والتي كانت رتيبة سواء ، لست أدري أيها كان أقبح وأبشع أهي الفضية أم الذهبية . حين نعود إلى القطار الذي أبحر بنا لمدة أسبوع كان (ايهرينبورغ) يسليني بحديثه الظريف المرتاب ولو أنه كان وطنياً وسوفيتياً . كان (ايهرينبورغ) يحدثني في ازدراء وتهكم عن كثير من جوانب الحياة في تلك الفترة .

كان (ايهرينبورغ) قد وصل إلى برلين مع الجيش الأحمر . كان هو ، بلا شك ، ألمع المراسلين الحربيين على الإطلاق . كان الجنود الأحمر يحبون هذا الرجل الغريب الأطوار اللامركزي . لقد أراني في موسكو قبل السفر بقليل هديتين كان أولئك الجنود قد أهدوهما إليه بعد أن استخرجوهما من بين الأطلال الألمانية . إن إحدى هاتين الهديتين هي بندقية صنعها صانعوا أسلحة بلجيكيون لنابوليون بونابرت ، والأخرى هي عبارة عن مجلدين صغيرين من أعمال (رونسارد) قد طُبعاً في فرنسا عام ١٦٥٠ . كان هذان المجلدان الصغيران مشيطين وملوثين بالمطر والدم .

تنازل (ايهرينبورغ) عن بندقيته إلى المتاحف الفرنسية ، ماذا أصنع بها؟ كان يقول لي وهو يداعب ماسورة هذه البندقية النابوليونية الجميلة الجيدة الصنع وقندقها المصقول اللامع . أما بالنسبة لمجلدي (رونسارد) قد احتفظ بهما لنفسه في غرفة وحيدة .

كان (ايهرينبورغ) متفرنساً متحمساً . أنشدني في القطار قصيدة من قصائده السرية ، كانت قصيدة قصيرة يتغنى فيها بفرنسا كما لو كان يغازل امرأة يهيم بها .

أقول إن القصيدة سرية لأنها كانت الفترة التي فيها بدأت بروسيا تشن الاتهامات ضد «الكونية» Cosmopolitismo . كانت الصحف تنشر وشايات معممة ضد الكونيين . فقد كان الفن الحديث كله يبدو لهذه الصحف أنه كوني . كان هذا الكاتب أو ذاك الرسام يسقط ضحية هذا الاتهام ويمحى اسمه كلياً . وهكذا كان على قصيدة (ايهرينبورغ) المتفرنسة أن تحمي حنانها كما زهرة سرية .

إن الكثير بما كان يطلعي عليه (ايهرينبورغ) كان يختفي من بعد إلى الأبد في ليل (ستالين) المعتم المظلم اختفاءات كنت أنا أرجع أسبابها إلى طبعه المتمرد المتناقض .

كان (ايهرينبورغ) بالنسبة لي بوفرة شعره غير المنتظمة وبتقطيب جبينه العميق وبأسنانه المتسمة بالتغ ، وبعينيه الرماديتين الباردتين ، هو الارتياحي القديم ، الخائب الكبير . أنا كنت أفتح عيني ، حديثاً ، على الثورة العظيمة ولم يكن في متسع لجزئيات مشؤومة . كنت أخالف قليلاً الذوق العام السائد إذاك والمتمثل في تلك التماثيل المدهونة بالذهب أو الفضة . ولقد أثبت الزمن أنني لست على صواب وحق ، لكنني أعتقد أنه لا أحد ولا حتى (ايهرينبورغ) كان يدرك عمق المأساة وفداحة المصيبة إلى أن انعقد المؤتمر العشرون فكشف لنا جميعاً عن ذلك كله .

كان يظهر لي أن القطار يسير في بطء كثير عبر المدى الأصفر ، يوماً بعد يوم ، شجرة «ال بتولا» إثر سجرة «ال بتولا» . هكذا كنا نقترّب عبر «سيبيريا» من جبال «أورال» .

كنا ذات يوم نتغدى في عربة المطعم حين لفت نظري جندي كان يشغل مائدة وحده ، كان ثملاً جداً وهو شاب أشقر كثير الابتسام . كان يطلب في كل لحظة من النادل أن يأتي له ببيض نبيء ، ثم يكسر هذا البيض وفي سرور<sup>(1)</sup> كبير واضح يفرغ كل بيضة في طبق ثم يطلب زوجاً آخر من البيض ، وفي كل مرة كان يحس أنه أكثر سعادة ، يستدل على هذا من ابتسامته الطروب ومن عينيه الزرقاوين الفرحتين فرح طفل صغير . لا بد أنه قد قضى وقتاً كثيراً وهو يكسر ويصب ويطلب ثم يكسر

---

(1) سرور : في الأصل البروز Alborozo ، وهي كلمة عربية من معانيها في الإسبانية الطرب والفرح

ويصب ويطلب لأن زلال البيض أخذ يتدفق ويفيض بشكل خطير من أطباقه ويسقط على أرضية العربة .

- Tovarich - كان ينادي الجندي في حماسة على النادل ليطلب منه بيضات جديدة كي يضاعف من كثره وثروته البيضوية .

وأنا كنت أراقب في حماسة كذلك هذا المشهد السريالي البريء جداً ، المباحث جداً في إطار تلك الوحشة السيبيرية المحيطة .

إلى أن نادى النادل المستنفر على شرطي عسكري . نظر الشرطي المسلح تماماً من علوه إذ كان طويلاً جداً ، في حزم وجدية إلى الجندي ، فلم يعره هذا أي انتباه بل استمر في عمله يكسر البيض ويهشمه .

افترضت أنا أن السلطة سوف تخرجه في عنف من حلمه المسرف المبذر ، لكنني دهشت حين رأيت الشرطي الهرقلي يجلس قربه ويمر يده في حنان عبر الشعر الأشقر ويكلمه في نصف صوت ، مبتسماً له ومحاولاً إقناعه إلى أن جعله يقوم فجأة في نعومة ورشاقة من مقعده وقاده من ذراعه كأنه أخ كبير له ، إلى مخرج العربة نحو المحطة نحو شوارع القرية .

فكرت في مرارة ماذا كان يقع لو أن سكيراً مسكيناً هندياً جعل يكسر البيض في قطار اكوادوري .

خلال تلك الأيام السيبيرية كان يسمع في الأضاحي والأماسي عزف (ايهينبورغ) في قوة على معازف آتة الكاتبة . هناك أنهى رواية «الموجة الأولى» وهي الأخيرة قبل روايته الأخرى «ذويان الجليد» . من جهتي كنت لا أكتب إلا على فترات متقطعة بعض قصائد من ديواني «أشعار القبطان» وهي قصائد غزل بـ(ماتيلده Matilde) سأنشرها من بعد في «نابولي» غفلاً من التوقيع .

وتركنا القطار في «ايركوتز» . قبل أن نأخذ الطائرة إلى «مونغوليا» ، ذهبنا للقيام بنزهة عبر البحيرة ، بحيرة «بايكال» الشهيرة ، في أطراف «سيبيريا» التي كان تعني في العهد القيصري باب الحرية . نحو هذه البحرية كانت تتجه أفكار المسجونين والهاربين وأحلامهم . كانت الطريق الوحيدة الممكنة للفرار والهرب . «بايكال» ، ما زالت حتى الآن ترددها الأصوات الروسية الفخمة وهي تغني الأناشيد القديمة .

لقد دعانا معهد أبحاث البحيرات إلى الغداء ، فكشف لنا العلماء عن أسرارهم

العلمية . أبداً ما استطعنا تحديد عمق تلك البحيرة التي هي ابنة جبال «اورال» وعينها . من على بعد ألفي متر عمقاً تُستخرج أسماك غريبة عجيبة ، أسماك عمياء ، تستخرج من هاويتها المعتمة الليلية . ما إن سمعت هذا حتى أخذتني الشهية وتمكنت من إقناع العلماء الباحثين من أن يحضروا لي إلى مائدتي زوجاً من تلك الأسماك العجيبة . إنني لواحد من الأشخاص القلائل في العالم ، الذين استطاعوا أن يأكلوا أسماكاً قعرية عميقة مروية بـ«فودكا» سيبيرية جيدة .

من هناك طرنا إلى مونغوليا . ما زلت أحتفظ بذكرى ضبابية لتلك الأراضي القمرية حيث يعيش السكان هناك في خيام بدوية ، بينما شرعوا في خلق أوائل مصانعهم وإنشاء أوائل جامعاتهم . حول «اولان باتور» تفتتح أرض باب مدورة لا نهائية شبيهة بصحراء «اتاكاما» في وطني ، لا يخرها إلا قوافل الجمال التي تجعل وحشتها ووحدها أكثر قدماً . بالمناسبة تذوقت في طاسات<sup>(١)</sup> فضية مصنوعة في شكل مذهل ويسكي المونغوليين . إن كل قرية تصنع كحولها<sup>(٢)</sup> بما تستطيع . إن هذا الذي ذقته كان من حليب ناقة متخثر متخمّر . ما زلت حتى الآن كلما ذكرته يقشعر بدني . لكن ، كم هو رائع أنني كنت في «أولان باتور» ، أنا من يعيش في الأسماء الجميلة ، أنا أحياناً في هذه الأسماء كما لو كنت أحياناً في منازل الأحلام ، لقد عشت متمتعاً متلذذاً بكل مقطع من اسم «سينغابور» من اسم «سمرقند» . إنني أريد حين أموت أن يدفنوني في اسم ، في اسم رنان جيد الاختيار ، كي تغني مقاطعه فوق عظامي ، قرب البحر .

إن الشعب الصيني هو من أكثر الشعوب ابتساماً في العالم ، عبر الاستعمار الذي لا يرحم ، عبر الثورات ، عبر المجاعات ، عبر المجازر ، يبتسم ، يعرف أن يبتسم في المآسي أكثر من أي شعب آخر . إن ابتسامه الأطفال الصينيين لهي أجمل حصاد أرز تفرطه هذه الجمهرة الغفيرة من الخلق . غير أن ثمة نوعين من الابتسامات الصينية . ثمة نوع من الابتسامه الطبيعية تضيء الوجوه بلون قمحي ، هي ابتسامه الفلاحين وابتسامه الشعب العديد . النوع الثاني هو ابتسامه «انزع وضع»<sup>(٣)</sup> ، تتشاب ، تلصق

(١) طاسات : هكذا في الأصل Tazas ، عن العربية .

(٢) كحول : هكذا في الأصل Alcohol ، عن العربية .

(٣) انزع وضع : تعبير إسباني بمعنى النفاق والزيف .

ثم تحقق تحت الأنف ، إنها ابتسامة الموظفين .

لقد كلفنا جهداً أن نميز بين هذين النوعين حين وصلنا ، أنا و(ايهرينبورغ) إلى مطار بكين لأول مرة . لقد رافقتنا الابتسامات الحقيقية خلال الأيام الأولى ، كانت ابتسامات زملائنا الكتاب الصينيين ، روائيين وشعراء ، استقبلونا أحسن استقبال في كرم ضيافة وجود نفس . هكذا تعرفنا على (تينغ لينغ) وهو روائي ، حائز على جائزة (ستالين) ، ورئيس اتحاد الكتاب . على (ماو دونغ) ، على (ايي سيوا) ، على (أي شينغ) الرائع وهو شيوعي قديم وأمير الشعراء الصينيين . ثم كانوا يتكلمون الفرنسية أو الإنجليزية . لقد دفنتهم الثورة الثقافية جميعاً بعد سنوات قلائل . لكن في ذلك الحين ، حين وصلنا ، كانوا شخصيات الأدب الصيني الأوائل .

في اليوم التالي ، بعد منح جائزة (لينين) التي كانت تدعى بجائزة (ستالين) ، أكلنا في السفارة السوفييتية . لقد كان حاضراً في هذه الوليمة ، بالإضافة إلى السيدة التي منحناها الجائزة ، (شو اين لاي) والمارشال العجوز «شو تيه»<sup>(١)</sup> وآخرون قلائل . كان السفير بطلاً من أبطال «ستالينغراد» وهو عسكري سوفييتي أصيل كان يغني ويشرب الأنخاب بشكل متكرر سريع . لقد جلست أنا قرب (سونغ سين لينغ) كانت امرأة وقورة جداً وما زالت بعد جميلة . لقد كانت الشخصية الأنثوية الأكثر احتراماً في تلك الفترة .

كل واحد منا كان له تحت تصرفه زجاجة صغيرة مليئة بالفودكا . كانت 'gambe' تتفجر في فيض ووفرة . إن النخب الصيني يجبرك على أن تشرب الكأس كلها حتى السلافة دون أن تدع فيها قطرة واحدة . كان المارشال العجوز (شو تيه) ، مقابلي ، يملأ قدحه مراراً وتكراراً وابتسامته الفلاحية الكبيرة كان يحثني على نخب جديد في كل لحظة . في نهاية الأكل انتهزت لحظة شرود فكر هذا الاستراتيجي القديم كي أذوق جرعة من زجاجته الفودكية . لقد تأكدت شكوكي حين عرفت أن المارشال كان يتناول ماء نقياً خلال الأكل فيما أنا كنت أنجرح كميات كبيرة من السائل الناري .

حين حانت ساعة تقديم القهوة ، أخرجت جرتي في المائدة (سونغ سين لينغ) أرملة (سن يات سين) المرأة الرائعة التي جئنا كي نقلدها الوسام ، من علبة الدخان

(١) شو تيه : سياسي وعسكري صيني ولد عام ١٨٨٦ .

سيجارا . من بعد ، في ابتسامة ضئيلة جداً قدمت لي آخر . « لا ، أنا لا أدخن ، شكراً جزيلاً » قلت لها . وحين مدحت لها علبة سجايرها ، أجابتنني : « إنني أحتفظ بهذه العلبة لأنها ذكري ثمينة جداً في حياتي » . لقد كانت هذه العلبة شيئاً مذهباً باهراً ، كانت مصنوعة من ذهب خالص نقي ، مرصعة بالجواهر والألماس واليواقيت والدر . بعد أن أمعنت النظر في العلبة وأضفت مدائح جديدة أعدتها إلى صاحبته . لقد نسيت هي في ما بعد إنني أرجعت العلبة إليها ، فحين وقفنا لنندع المائدة اتجهت نحوي في شيء من التوتر قائلة :

- علبة سجائري Please<sup>(1)</sup> .

أنا ما كنت أشك قطعاً في أنني أعدت العلبة إليها ، لكن ، على كل حال ، بحثت عنها فوق المائدة ثم تحت المائدة دون أن أعثر عليها . لقد تلاشت ابتسامة أرملة (سن يات سين) واضمحلت ، وما كان في وجهها إلا عينان سوداوان تخترقاني كما شعاعان لا يرحمان . لم يكن ليُعثر على تلك الحاجة المقدسة في أية جهة من الجهات وبدأت أنا أشعر أنني مسؤول عن ضياع هذا الشيء الثمين المقدس ، لقد كانت تلك الأشعة السوداء تقنعني في أنني أنا لص الجواهر المرصعة .

لحسن حظي في الدقيقة الأخيرة من الاحتضار لمحت العلبة التي عادت للظهور بين يديها . لقد عثرت عليها في محفظتها ، ببساطة وبشكل طبيعي . فاستعادت هي ابتسامتها ، لكنني لم أعد أبتسم خلال عدة سنين طويلة . إنني لأفكر الآن مهموماً في أنه ربما أن الثورة الثقافية قد تركتها بشكل نهائي من غير علبة سجائرها الذهبية الثمينة .

كان الصينيون في ذلك الفصل من السنة يلبسون اللون الأزرق ، بدلة ميكانيكي كانت تغطي كل واحد منهم سواء الرجال والنساء ، وكان هذا اللون يعطيهم مظهراً سماوياً متوحداً جماعياً . لم تكن هذه الأردية أسماً كما لم يكن عندهم سيارات . بل إنها لجماهير غفيرة تملأ كل شيء وتطفو في كل ناحية وتبرز في كل زاوية . لقد كنا هناك في العام الثاني للثورة الصينية . بشكل أكيد كان هناك قلة من المواد ومصاعب في أماكن مختلفة ، لكن هذا كله ما كان يشاهد أثناء التجوال في مدينة بكين . إن ما كان يشغل بالنا بشكل خاص : بال (ايهرينبورغ) وبالي هو هذه

(1) Please : كلمة إنجليزية ، معناها ، من فضلك .

الجزئيات الصغيرة ، بعض تشنجات النظام . حين أردنا أن نشترى زوجاً من الجرابات أو المناديل تحولت المسألة إلى مشكلة دولة . كان الزملاء الصينيون يتناقشون في ما بينهم ، بعد مداوات عصبية انطلقنا من الفندق في كروان<sup>(١)</sup> على رأس القافلة كانت تهدر سيارتنا ، من بعد سيارة الحرس ، فسيارة الشرطة ثم سيارة المترجمين . انطلق فوج السيارات في عجلة وسرعة ففتح طريقاً وسط الجماهرة المزدحمة من الناس البسطاء . حين وصلنا إلى المخزن نزل من السيارات أصدقاءنا الصينيون فطردوا من المحل المشترين جميعهم وأوقفوا حركة السير وشكلوا بأجسادهم حاجزاً وبسواعدهم ساباطاً إنسانياً عبرناه : (ايهرينبورغ) وأنا ، مطاطي الرأسين كي نخرج منه بعد خمس عشرة دقيقة كذلك مطاطي الرأسين وفي أيدينا صفت صغير وتصميم على ألا نشترى من بعد زوجاً من الجرابات البتة .

كانت هذه الأشياء تجعل (ايهرينبورغ) غاضباً حانقاً . فتصور كيف كان في المطعم الذي سأروي قصته الآن . كانوا يقدمون إلينا في مطعم الفندق أسوأ الطعام الإنجليزي ، أطعمة خلفتها في الصين الأنظمة الاستعمارية . أنا نظراً لأنني معجب كبير بالطهي الصيني ، قلت لمترجمي الشاب بأنني أحترق رغبة للتمتع بفن الطهي البكيني الشهير . أجبني بأنه سيطلب الاستشارة حول هذا الأمر .

أجهل فيما إذا استشار أم لا لكن ما هو أكيد أننا ظللنا نمنع ونملك لحم البقر المشوي التافه في الفندق . عدت فكلمته عن الموضوع ، بصمت مطرقاً مفكراً ثم قال : إن الزملاء قد اجتمعوا عدة مرات لدراسة هذه الحالة ، والمشكلة على وشك أن تحل .

في اليوم التالي اقترب منا عضو مهم في لجنة الاستقبال . بعد أن علّق في وجهه ابتسامة بشكل صحيح ، سألنا إن كنا فعلاً راغبين ي أن نأكل طعاماً صينياً فقال له (ايهرينبورغ) في حزم أن أجل ، وأنا أضفت إنني منذ أيام صباي وأنا أسمع عن أكلهم الشههي الغني ، وإنني منذ ذلك الحين وأنا متشوق لتذوق متعة بكين الشهيرة جداً .

-إن الموضوع لصعب- قال الزميل الصيني وهو في حالة انشغال وقلق .  
سكون ، حركة رأس ، ثم أوجز قائلاً :

(١) كروان : هكذا في الأصل Caravana عن العربية ، من أصل فارسي .



- إنه لشبه مستحيل .

(ابهرينبورغ) ابتسم ابتسامته المعهودة المرة ، ابتسامه مستهزئ متشكك يصر على شكوكه . أنا ، على العكس غضبت - أيها الزميل - قلت له - اعمل المعروف بتجهيز أوراقك كي أعود إلى باريس حالاً . إن لم أستطع أن أكل الطعام الصيني في الصين فأني سأكله في الحي اللاتيني بباريس . فهو هناك ليس بمشكلة .  
إن احتجاجي العنيف لاقى نجاحاً ، بعد أربع ساعات وصلنا ونحن مقادان من لدن حاشيتنا العديدة إلى مطعم مشهور يعد منذ خمسمائة سنة طبق البط المصنوع بصمغ اللك ، طبقاً صغيراً لكنه جدير بالذكر والذكرى .  
كان المطعم الذي يفتح ليلاً نهاراً لا يبعد أكثر من ثلاثمائة متر عن مطعم فدنقنا .

### «أشعار القبطان»

من اتجاه إلى اتجاه في هذه التجولات ، تجولات منفي ، وصلت إلى بلد ما كنت أعرفه فتعلمت أن أحبه حباً شديداً : إيطاليا ، لقد بدا لي في هذا البلد كل شيء رائعاً وبخاصة البساطة الإيطالية : الزيت ، الخبز ، الخمر الطبيعي . حتى تلك الشرطة . . . تلك الشرطة التي ما أزعجتني أبداً ولا عاملتني معاملة سيئة قط ، لكنها طاردتني مطاردة لا تتعب ولا تمل ، شرطة وجدتها في الجهات جميعها ، حتى في الأحلام وفي الحساء .

لقد دعاني كُتّاب إيطاليا لقراءة أشعاري فقرأتها في نية حسنة في كل مكان ، في الجامعات ، في المسارح ، في موانئ «جنوا» في فلورنسا ، في قصر «لا لانا» ، في «تورين» ، في البندقية .

كنت أقرباً في متعة لا نهائية أمام قاعات مكتظة بالناس . أحدهم كان يجلس قربي على المنصة ليعيد من بعد ، إنشاد أشعاري مقطعاً مقطعاً ، في لغة إيطالية سامية ، فكان يعجبني سماع أبياتي في هذا البريق الذي تضيفه عليها اللغة الإيطالية الرائعة . لكن ما كان هذا ليعجب الشرطة الإيطالية كما هو يعجبني . في القشتالية ، جواز مرور ، بينما في الإيطالية كان ثمة نقاط ومسائل شرف . إن مدائح السلام وهي كلمة محرمة عند «الغربيين» . والأفدح من هذا أن اتجاه شعري نحو تجسيد النضال الشعبي ، كان يؤدي إلى نتائج خطيرة .

كانت مجالس البلديات قد ربحتها في الانتخابات الأحزاب الشعبية ، ولهذا فإنهم استقبلوني في هذه المجالس الفخمة الفاخرة ضيف شرف عليها . كثيراً من المرات كانوا يُعَيِّنونني عين المدينة : فأنا مواطن شرفي في ميلان ، في فلورنسيا ، في جانوا . قبل إنشادي أو بعده كان المستشارون يضعون لي أوسمتهم . كان يجتمع في القاعة مواطنون أعيان وأرستقراطيون وأساقفة . كانوا يشربون نخبي كؤوس شمبانيا ، وكنت أشكرهم على هذا باسم وطني البعيد النائي . كنت أهبط درجات القصور الفخمة لمجالس البلديات بين العناق والتقبيل . في الشارع كانت الشرطة تنتظرني فلا تتركني لحظة لا في الشمس ولا في الظل <sup>(١)</sup> .

أما ما حدث في البندقية فقد كان سينمائياً . أُلقيت قصائدي في القاعة كما هي عادتي في إيطاليا . عينت مرة أخرى مواطن شرف ، لكن الشرطة كانت تريد أن أذهب من المدينة حيث ولد وتعذب (ديسديونا) ، لقد رفض رجال الشرطة ليلاً نهاراً على أبواب الفندق .

جاء صديقي القديم (فيتوريو فيدالي) «الرائد كارلوس» من «تريستا» ليسمع أشعاري . وصاحبني كذلك في المتعة الخالدة بالتجوال عبر القنوات ، فكنا نرى ونحن في الجندول القصور الرمادية الساحرة . أما بالنسبة للشرطة فإنها حاصرتني أكثر مما تحاصرني من قبل . فلقد كان رجال الشرطة يمشون مباشرة خلفنا ، على بعد مترين . حينذاك قررت أن أهرب كما فعل (كازانوف) من هذه المدينة التي كانت تريد أن تضيق عليّ الخناق . خرجنا منطلقين جرياً ، أنا و(فيتوريو فيدالي) والكاتب الكوستاريكي (خواكين غوتيبيريث) الذي كان هناك صدفة ، وعلى أثرنا انطلق الشرطيان . في سرعة توصلنا إلى أن نركب في الجندول الآلي الوحيد بالبندقية ، جندول رئيس البلدية <sup>(٢)</sup> الشيوعي . لقد خدّد جندول السلطات البلدية مياه القناة ومخر مسرعاً فيما السلطات الأخرى كانت تجري كما الأياثل السمر بحثاً عن زورق آخر إلى أن عثرت عليه . كان الزورق الذي ركبناه واحداً من هذه القوارب الرومانطيكية الكثيرة ذات المجذاف المدهونة باللون الأسود ، وذات الزخارف الذهبية

(١) لا في الشمس ولا في الظل : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، لا في الحر ولا في القرم .

(٢) رئيس البلدية : في الأصل Alcalde ، وهي الكلمة العربية القاضي ، وكان القاضي في الأندلس يقوم بمهام رئيس البلدية كذلك .

التي يستعملها العشاق في البندقية . كان زورقهم يطاردا من على بعد وبدون أمل  
كما بطة تلاحق دخساً بحرياً .

في نابولي هذه المطاردات استعجل بها وكانت على نحو آخر . وصل رجال  
الشرطة إلى الفندق حيث كنت أبيت في وقت ليس هو بالمبكر إذ إنه في نابولي لا  
أحد يعمل مبكراً ولا حتى رجال الشرطة . احتجوا بنخاً في جواز السفر ورجوني أن  
أرافقهم إلى مديرية الشرطة . هناك قدموا لي قهوة «ايكسبريس» وأخبروني بأنني  
يجب أن أغادر الأراضي الإيطالية في اليوم نفسه .

لم يفدني بشيء حبي لإيطاليا .

- إن الأمر لا بد أن يكون خطأ- قلت لهم .

- لا شيء من هذا القبيل ، إننا لنأسف كثيراً ، لكن عليك أن تغادر البلد حالاً .  
ثم بشكل غير مباشر وبطريقة زائغة أخبروني أن سفارة تشيلي هي التي طلبت  
طردي من إيطاليا .

كان القطار سيخرج في المساء . كان أصدقائي قد خفوا قبلي إلى محطة القطار  
لتوديعي . قبل . زهور . هتافات . (باولوريكيثي) ، آل (اليكانا) . آخرون كثيرون .  
Arivederci : مع السلامة ، مع السلامة .

لقد أسرف رجال الشرطة الذين كانوا يرافقونني في رحلتي القطارية المتجهة إلى  
روما في اللطف والكياسة . لقد رفعوا لي حقائبي ووضعوها كما يجب واشتروا لي  
صحيفة 'L'Unite' وصحيفة El Paize Sera ولا بأي شكل صحيفة من الصحف  
اليمينية . كانوا يطلبون مني أن أعطيهم صوراً لهم ولأقربائهم . أبداً ما شاهدت في  
حياتي شرطة أكثر رقة ولطافة من الشرطة الإيطالية .

- إننا لنتأسف لهذا الأمر كثيراً يا صاحب السعادة فنحن أرباب عائلات فقيرة  
وعلينا أن نطيع الأوامر ، إنه لشيء مقرف . . .

في محطة روما ، حيث كان عليّ أن أغير القطار لأواصل سفري نحو الحدود ،  
لحمت من نافذة القطار جمهرة غفيرة من الناس . سمعت هتافات ، لاحظت حركات  
غامضة وعنيفة . حزم كبيرة من الزهور كانت تسير نحو القطار مرفوعة فوق نهر من  
الرؤوس .

- بابلو! بابلو!

حين نزلت من القطار وأنا محروس في أنيقة ، صرت حالاً وسط وطيس معركة

هائلة . فلقد اختطفني من أيدي رجال الشرطة كَتَاب وكاتبات ، صحفيون ، نواب ، حوالي ألف من الأشخاص الهاجمين . رجال الشرطة من جهتهم تقدموا في عملية معاكسة واسترجعوني من أذرع أصدقائي . لقد ميزت في تلك اللحظات المأساوية بعض الوجوه الشهيرة : (ألبرتو مورافيا) وزوجته : (إيلسا مورانتي) روائية مثله ، الرسام المشهور (رينانو غوتوسو) ، شعراء آخرين ، رسامين آخرين . . . كان المؤلف المعروف (كارلو ليفي) مؤلف «المسيح توقف في ايبولي» يناولني باقة من الزهور ، لكن الزهور كانت تتساقط متبعثرة على الأرض ، كانت تطير قبعات ومظلات ، كانت ترن صفعات ولكمات ولكزات كأنها الانفجارات . كان رجال الشرطة ينالون من هذا كله النصيب الأكبر والقسم الأسوأ ، وشن أصدقائي حملة معاكسة واستردوني . أثناء المناوشة والاشتباك استطعت أن أرى وجه الحلوة (إيلسا مورانتي) وهي تضرب بقبعتها الحريرية على رأس أحد رجال الشرطة . ثم أخذت تمر العربات التي تأخذ وتجلب الحقائق في محطة القطار ، وإذ بواحد من هؤلاء الحمالين ذوي المرسات الغليظة Facchino يهوي بهراوته ضرباً على ظهور القوة البوليسية ، لقد كان هذا تعبيراً عن تضامن الشعب الرومي<sup>(1)</sup> معي . لقد احتدم النزاع وصارت المعركة عويصة شائكة إلى درجة أن رجال الشرطة قالوا لي على حدة :

- تكلم مع أصدقائك . قل لهم بأن يهدأوا . . .

كانت جمهرة الناس تهتف :

نيرودا يبقى في روما . نيرودا لن يغادر إيطاليا . فليبق الشاعر ، فليبق التشيلي ، فليرحل النمساوي . («النمساوي» هو (دي غاسبري) رئيس وزراء إيطاليا) .

بعد نصف ساعة من الحرب السجال والهجمات المضادة وصل أمر سام من السلطات العليا بالسماح لي في البقاء بإيطاليا ، فعانقني أصدقائي وقبلوني فابتعدت عن تلك الحطة وأنا أدوس في أسى تلك الزهور المتناثرة ضحايا المعركة .

لقد أصبحت أصبوحه اليوم التالي في دار أحد النواب ، المتمتع بالحصانة البرلمانية ، حيث أخذني إليه الرسام (ريناتو غوتوسو) الذي لم يثق بالكلمة الحكومية . هناك وصلتنني برفقية من جزيرة «كابري» بعثها المؤرخ الشهير العظيم (ايروين ثيريو) الذي لم أكن أعرفه شخصياً . كان يعبر في هذه البرقية عن أنه شعر بالإهانة إزاء هذا

(1) الرومي : نسبة إلى روما .

العمل الشائن والاستخفاف بالتقاليد الإيطالية وثقافة إيطاليا ، وانتهى قائلاً بأنه يقدم لي «فيلا» بكابري نفسها كي أقضي فيها ما شئت من الوقت لعله بذلك يزيل شيئاً مما لحقني من حيف في بلده .

لقد كان كل شيء يبدو وكأنه حلم من الأحلام . وحين وصلت إلى كابري في صحبة (ماتيلده أورتوتيا) صار الإحساس اللاواقعي بالأحلام أكبر وأعظم .

وصلنا ليلاً وفي فصل الشتاء إلى هذه الجزيرة البديعة . في الظل كان الشاطئ يمتد أبيض عالياً ، غربياً صامتاً ، ماذا سيجري؟ ماذا سيجري لنا؟ كانت تنتظرنا هناك عربة خيل . صعّدت العربة وصعّدت عبر الشوارع الليلية الخلاء ، بيوت بيضاء خرساء ، أزقة ضيقة شاقولية . أخيراً توقف الحوذي ، أنزل حقائبنا ووضعها في تلك «الفيلا» ، كذلك بيضاء وعلى ما يبدو خاوية فارغة .

حين ولجنا الدار رأينا النيران وهي تتوهج في المدفأة الكبيرة . على ضوء الشمعدانات المضاء رأينا هناك رجلاً طويلاً أبيض الشعر واللحية والبدلة . كان هذا هو السيد (إيروين ثيريو) صاحب نصف جزيرة كابري ، وهو مؤرخ وعالم في التاريخ الطبيعي . كان وسط اللهب شامخاً كأنه طيف (تايتا) إله الحكايا الطفولية .

كان له ما يقرب من تسعين سنة من العمر وكان أكثر الرجال شهرة في الجزيرة .  
- إن هذه الدار دارك وتستطيع أن تكون هنا مطمئناً مرتاحاً .

غاب عدة أيام لم يكن يزورنا ذوقاً وأدباً وكياسة ، بل كان يرسل لنا رسائل صغيرة مختزلة جداً فيها نصائح وزهرة أو ورقة من حديقة داره . لقد مثل لنا (إيروين ثيريو) قلب إيطاليا الفسيح العميق الكرم النبيل .

من بعد تعرفت على مؤلفاته ، على كتبه التي هي أكثر صحة من كتب (إليكس مونثي)<sup>(١)</sup> ولو أنها أقل شهرة . كان العجوز النبيل (ثيريو) يعيد في مزاح ودعابة :

- إن عمل الإله النموذجي هو ساحة جزيرة «كابري» .  
لقد كنا : أنا و(ماتيلده) ، نطوي على حينا . كنا نقوم بجولات عبر «أناكابري» للجزيرة الصغيرة المجزأة إلى ألف بستان وبستان ، بريق طبيعي كتب عنه الكثير وفعلاً هو بريق طأغ غريب . بين الصخور ، حيث تسوط الشمس والريح ، عبر الأرض

(١) إليكس مونثي : كاتب وطبيب سويدي (١٨٥٧-١٩٤٩) .

الجافة ، تنفجر نباتات وتنبثق زهور صغيرة ، تنمو متناسقة في إطار تأليف موسيقي حداثتي . إن جزيرة «كابري» العميقة هذه التي يطوف بها المرء بعد حج طويل ، وبعد أن تسقط عن ملابسه إشارة سائح ، جزيرة «كابري» الشهيرة بصخورها ودواليها الصغيرة ، وبأناسها المتواضعين العاملين ، لسحراً أخاذاً . ها هو المرء ينصهر في ذات واحدة والأشياء والناس . ها هو المرء يعرفه الحوذيون والصيادون . ها هو المرء يشكل جزءاً من «كابري» الخفية الفقيرة . ها هو المرء يعرف أين النبيذ الجيد الرخيص وأين يشتري الزيتونات التي يأكل مثلها أهالي «كابري» .

إنه محتمل أن خلف أسوار القصور المليئة بالندماء تدور الشرور والكأس والطاس والخلاعة والقمار ، الأشياء الروائية التي تقرأ في الكتب ، لكنني شاركت في حياة سعيدة في عزلة كاملة أو بين أكثر الناس بساطة في العالم ، إنه لزمّن لا ينسى . كنت أنظم في كل صباح وفي المساء كانت (ماتيلده) تنسخ على الآلة الكاتبة ما أكتبه من قصائد . لأول مرة كنا نحيا معاً في دار واحدة . لقد نما حبنا وزاد في ذلك المكان ذي الجمال المدهش المسكر . لم نعد نستطيع أن نفترق أبداً .

هناك أنهيت كتاب حب . كتاباً مفعماً بالعاطفة والألم ، طبع في ما بعد نابولي في شكل مغفل التوقيع : «أشعار القبطان» .

والآن سأروي لكم حكاية هذا الكتاب . هو من بين كتبي أكثرها بحثاً للمجادلة والمناقشة فيه وحوله . لقد بقي زمناً طويلاً سراً لا تسبر له أبوة ولا نسب ، ظل زمناً طويلاً وهو لا يحمل اسمي على غلافه كما لو أنني كنت أتبرأ منه أو أن الكتاب نفسه ما كان ليعرف من هو أبوه الذي خلفه . كما أن هناك أبناء غير شرعيين طبيعيين ، أبناء الحب الطبيعي ، كذلك كان كتابي هذا ابناً طبيعياً لا شرعياً .

إن القصائد التي يتضمنها هذا الكتاب نظمت هنا أو هناك ، على مدى منفاي في أوروبا . ثم نشرت بشكل مغفل في نابولي عام ١٩٢٥ . إن حبي لـ(ماتيلده) ، حنيني إلى تشيلي ، عواظفي ومشاعري ، تملأ صفحات هذا الكتاب الذي حافظ على نفسه دون اسم صاحبه في طبعات كثيرة .

لطبعته الأولى ، حصل الرسام (باولوريكثي) على ورق جدير بالإعجاب وعلى نماذج حروف قديمة للطباعة ، وعلى نقوش أخذها عن كؤوس من «بومباي» . لقد أعد (باولور) كذلك في حماسة أخوية قائمة المشتركين ، ولم يطل الوقت حتى ظهر المجلد الأول الجميل ولم يطبع منه حينذاك أكثر من خمسين نسخة . فاحتفلنا لهذه المناسبة

احتفالاً استغرق كثيراً من الوقت ، أعددتنا مائدة مزهرة عليها Frutti di mare واحتسينا نبیذاً شفافاً كالماء ، الابن الوحيد لدوالي «كابري» . يصحبنا فرح الأصدقاء الذين أحبوا حبنا .

لقد عزا بعض النقاد المرتابين إلى أسباب سياسية ظهور هذا الكتاب بلا توقع . «الحزب قد عارض ، الحزب لم يقر قصائد هذا الكتاب» قالوا إن حزبي لا يعارض أبداً أي تعبير عن الجمال .

الحقيقة الوحيدة هي أنني ما شئت ، خلال زمن طويل ؛ أن تجرح هذه القصائد شعور (ديليا ديل كاريل) زوجتي التي كنت أنفصل عنها . لقد كانت (ديليا) ، وهي عابرة ناعمة جداً في حياتي ، خيطاً من فولاذ وحرير ربط يدي خلال الأعوام الرنانة الصاخبة ، وخلال ثماني عشرة سنة كانت لي الرفيقة المثالية . كان هذا الكتاب ذو الهوى الجارف المتأجج سيهوي كما الحجر المقذوف على بنائها الطري الهش . لقد كانت هذه وليست أخرى هي الأسباب العميقة ، الشخصية ، المحترمة لإغفالي ذكر اسمي على الكتاب الغفل .

ثم شب الكتاب ولو أنه بلا اسم ولقب وغدا رجلاً ، رجلاً طبيعياً وقيماً . لقد شق له درباً في الحياة فكان عليّ في نهاية الأمر أن أعترف به ابناً . ها هو الآن يمضي عبر الطرقات ، أي ، عبر المكاتب والمكتبات ، ها هو ديواني «أشعار القبطان» يحيا موقعاً عليه بتوقيع القبطان الحقيقي .

### نهاية المنفى؛

لقد اقترب منفاي من نهايته عام ١٩٥٢ ، وصلنا عبر سويسرا إلى «كان» Cannes كي نركب باخرة إيطالية نقلنا إلى «مونتبيديو» ، هذه المرة ما كنا نريد أن نرى أحداً في فرنسا . ما أخبرت بمرورنا إلا (أليس غاسكار) ، مترجمتي وصديقتي لزمن طويل ، غير أنه كانت تنتظرنا في «كان» حوادث غير متوقعة .

لقد التقيت في الشارع ، قرب شركة السفريات البحرية ، (بول إلوار) وبزوجته (دومينيك) ، كانا قد علما بوصولي فانتظراني عند باب الشركة كي يدعواني للغداء الذي سيحضره (بيكاسو) . من بعد التقينا بالرسام التشيلي (نيميسيو انتونيث) وزوجته (اينيس فيفيروا) اللذين دُعيا كذلك .

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأيت فيها (بول إلوار) . إنني لأذكره وهو تحت

أشعة شمس «كان» ببللته الزرقاء التي تبدو وكأنها بيجاما . لن أنسى أبداً وجهه الملوح المتورد ، عينيه الزرقاوين ، ابتسامته الفتية دائماً تحت الضوء الأفريقي في شوارع «كان» المتلاذثة . لقد جاء (إلوار) من «سينت-ترويث» كي يودعني ، أحضر (بيكاسو) وأعدّ الغداء ، كانت الحفلة مسلحة .

حدث غيبي غير متوقع خرب لي اليوم كله . لم يكن في جواز سفر (ماتيلده) تأشيرة دخول إلى الأوروغواي . فكان لا بد من اللجوء إلى قنصلية هذا البلد . اصطحبتها في سيارة تكسي وانتظرت عند باب القنصلية . ابتسمت (ماتيلده) متفائلة حين خرج القنصل لاستقبالها . كان يبدو أنه شاب طيب . كان يدندن بأنغام Madame Butterfly ويرتدي ما هوليس بقنصلي : قميصاً داخلياً وسروالاً قصيراً Short هي ما كانت لتتصور أنه خلال مجرى الحديث سيتحول هذا النموذج El Tipo إلى مزيج رخيص تافه حقير . لقد أراد بمظهره مظهر Pinkerton أن يقبض أجرة ساعات إضافية فوضع أمامها أنواع العراقيل كلها . فاحتفظ بنا في سباق<sup>(١)</sup> طيلة الصباح كله . كان طعم Bouillabaise خلال الغداء مثل طعم المرارة في فمي . عدة ساعات كلف (ماتيلده) الحصول على التأشيرة . كان Pinkerton هذا يضع لها في كل لحظة قيوداً وعراقيل : أن تتصور ، أن تغير الدولارات فهو لا يقبض إلا فرنكات ، أن تدفع تكاليف المكالمات الهاتفية مع مدينة «بورديو» . ارتفعت التعريفة<sup>(٢)</sup> إلى أكثر من مائة وعشرين دولاراً ثمن تأشيرة عبور كان من المفروض أن تمنح مجاناً . لقد بلغ بي التفكير إلى أنني كنت أخشى أن تفقد (ماتيلده) الباخرة وفي هذه الحالة أنا كذلك لن أركب الباخرة . لزم من طويل اعتبرت ذلك اليوم أكثر الأيام مرارة في حياتي .

### علم وصف المحيطات المختلفة:

إني لعاشق البحر . منذ سنين عديدة وأنا أجمع معارف لا تفيدني كثيراً لأنني أبهر فوق الأرض .  
هأنذا أعود إلى تشيلي ، إلى بلدي المحيطي وتقرب سفينتي من سواحل أفريقيا .

(١) في سباق : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، الجبل على الغارب .

(٢) التعريفة : هكذا في الأصل la Tarifa ، عن العربية .



لقد عبرت أعمدة «هرقل» القديمة<sup>(١)</sup>، اليوم هي مدرعة هذه الأعمدة، في خدمة الإمبريالية قبل الأخيرة.

أنظر إلى البحر نظرة مجردة عن المنفعة، نظرة عالم المحيطات النقي الطاهر الذي يعرف السطح والعمق، بلا لذة أدبية، بل بتذوق المكتشف، بمذاق العالم الدارس.

لقد أعجبتني دوماً القصص البحرية وعندني شبكة منها في رفوف داري. أكثر كتاب أعود إليه للمراجعة هو كتاب لـ (وليم بيبب)<sup>(٢)</sup> أو بحث يصف الحلازين البحرية في بحر الشمال.

إن ما يهمني هي مجموعة الأحياء البحرية، هذا الماء الغذائي الهباتي الكهربائي الذي يصبغ البحار بلون برق بنفسي. هكذا توصلت إلى معرفة أن الحيتان تتغذى من هذا النماء البحري المتكاثر الذي لا حصر له. إن نباتات صغيرة جداً ونقايعات وهمية تعمر قارتنا الراعشة الراجفة. الحيتان تفتح أشداقها الهائلة فيما تنزاح، وتتزحزح، رافعة ألسنتها حتى الحلق الأعلى كي تملأها هذه المياه الحية ذات الأحشاء وتغذيتها. هكذا يغتذي الحوت الأخضر الزاهر Bahiametas Claucas الذي يبحر باتجاه جنوب المحيط الهادي نحو الجزر الساخنة الدافئة، قبالة نوافذ داري في «إيسلا نيغرا».

من هناك يعبر كذلك الدرب سمك «البريبس» المهاجر، أو الحوت ذو الأسنان، وهو أكثر الحيتان المطاردة «تشيلية». لقد زخرف البحارة التشيليون عالم البحر الفولكلوري بهذا النوع من الحيتان. فقد نقشوا بالسكين في أسنانها قلوباً وسهاماً، أنصاب حب صغيرة، صوراً طفولية لزوارقهم الشراعية ولخطيباتهم. لكن حوتنا الأخضر الزاهر الذي يبحر، باتجاه الجنوب، يعبر المضيق ورأس «أورنوس» El Cabo de Hornos وبحر الشمال وأوبته، ليس في بساطة كي يفرك حنك سمك «البريبس» المهتد بل لكي يسلب منه كنزه الشحمي، وأكثر من هذا كي يخطف منه كيسه العنبري<sup>(٣)</sup> الرمادي الذي يخبئه هذا الحيوان الضخم في جبله الجوفي، وما من حيوان غيره له مثل هذا الكيس الغني.

(١) أعمدة هرقل القديمة: هي أعمدة قرب مضيق جبل طارق الذي يحتله الإمبريالون البريطانيون.

(٢) وليم بيبب: هو عالم الطبيعة، الأمريكي الشمالي (١٨٧٧-١٩٦٢).

(٣) عنبر: هكذا في الأصل Ambar، عن العربية.

هأنذا أتى الآن من جهة أخرى . لقد خلفت ورائي آخر معبد أزرق في البحر الأبيض المتوسط ، كهوف جزيرة «كابري» وضواحيها البحرية وتحت البحرية حيث كانت عرائس البحر يخرجن كي يسرحن شعرهن الأزرق فوق الصخور ، لأن حركة البحر كانت قد صبغت وضمخت صفائر شعرهن المجنونة .

لقد استطعت أن أشاهد في مماهة «نابولي» الذرات الكهربائية للأجهزة العضوية الربيعية ، صعود وهبوط السعلاة المصنوعة من دخان وفضة ، تهتز تتماوج في رقصها العذب الجليل ، مكتنفة من الداخل بالحزام الكهربائي الوحيد الذي ما وضعته حتى الآن أية سيدة من سيدات الأعماق البحرية إلأها .

منذ سنين كثيرة ، في «ماداس» بالهند المتجهمة لشبابي ، زرت مماهة رائعة . ما زلت حتى الآن أذكر تلك الأسماك الصقيلة البراقة ، الأسماك البنية السامة ، مجموعات الأسماك المرتدية حرائق وأقواس قزح ، وأكثر من هذا وذاك ، الإخطبوطات الجدية الرزينة جداً ، المعدنية كأنها آلات حاسبة ، يعيون لا حصر لها ، بأطراف وأرجل لا عد لها ، برياح شديدة ، بمعارف كثيرة .

من ذاك الأخطبوط الكبير الذي عرفناه جميعاً لأول مرة في كتاب «عمال البحر» لـ(فيكتور هوغو)<sup>(١)</sup> أن (فيكتور هوغو هو كذلك أخطبوط الشعر الضخم المتعدد النغمات) ، من ذاك النوع ما استطعت أن أرى غير قطعة ذراع في متحف التاريخ الطبيعي بـ«كوبنهاغن» . هذا ، أجل ، كان «كراكين» القديم ، رعب البحار القديمة ، كان يمسك بشرائح فيطويه طياً ويمزقه إرباً يرفعه فوقه ، يخترقه ويشربكه . قطعة الذراع التي رأيتها أنا محفوظة بالكحول في المتحف كانت تشير إلى أن طول ذاك الأخطبوط كان يتعدى ثلاثين متراً .

لكن الحيوان الذي كنت أبحث عنه في إصرار واستمرار هو أثر كركدن البحر أو بالأحرى جسده . نظراً لأن أصدقائي كانوا لا يعرفون هذا الكركدن البحري وحيد القرن الهائل في بحار الشمال ، صرت أشعر أنني مخزن وحيد للكركدن ، إنني أنا نفسي كركدن بحري .

هل يوجد الكركدن؟

هل من الممكن أن حيواناً بحرياً مسالماً يحمل في جبينه حربة من العاج بطول

(١) فيكتور هوغو Victor Hugo : الكاتب الفرنسي المعروف (١٨٠٢-١٨٨٥) .

أربعة أو خمسة أمتار مخددة مثلومة على مدى طولها ، على نمط حربى النبى سليمان ،  
منتهىة بثقب ، يمر دون أن ينتبه إليه ملايين البشر ، ولا أن يعرفوا حتى أسطوره ولا  
حتى اسمه الرائع؟

عن اسمه أستطيع القول - Narval أو Narwhal<sup>(١)</sup> إنه أبداع اسم من أسماء  
حيوانات أعماق البحار ، اسم كأس بحرية تتغنى ، اسم صيصة زجاجية .  
لماذا إذن لا أحد يعرف اسمه؟

لماذا ليس هناك آل «نارفال» ، دار جميلة باسم «نارفال» وأكثر من هذا ، لماذا ما  
من أحد يدعى «نارفال راميرث» أو «نارفالا كارفاخال»؟

ليس ثمة من هذا شيء . إن وحيد القرن البحرى يظل فى سره ، فى تياراته ذات  
الظلال عابرة البحار ، فى سيفه العاجى الطويل الغارق فى لجة المحيط المجهول .

لقد كان صيد وحيدى القرن فى العصر الوسيط رياضة صوفية وجمالية . لقد  
بقي وحيد القرن الأرضى إلى الأبد باهراً ساحراً ، فى السجاجيد ، تحيط به السيدات  
المرميات الرخاميات ذوات الأبهة والشعر المسترسل ، وتكلمه فى جلالته الطيور  
المزغردة الصداحة كلها .

أما بالنسبة لوحد القرن البحرى فإن السلاطين فى العصور الوسيطة كانوا  
يتهادون قطعة من جسمه الرائع البديع ، من هذه القطعة كانوا يكشفون غباراً وفتاتاً  
يحلونها فى سوائل خاصة يشربونها فتمنحهم حلم الإنسان الخالد ألا وهو الصحة  
والشباب والقوة .

بينما كنت شارداً ذات مرة فى الدانيمارك ، دخلت إلى حانوت قديم يبيع تحف  
التاريخ الطبيعى ، هذه السلع المجهولة فى قارتنا الأمريكية ، والتي هى بالنسبة لى  
تحتوى على سحر الأرض كله . هناك اكتشفت وهى مهملة فى زوايا الحانوت ، ثلاثة  
أو أربعة قرون من الكركدن البحرى ، أكبر هذه القرون كان يقيس تقريباً خمسة أمتار .  
فتناولتها وبقيت ألمسها وأداعبها خلال فترة من الوقت .

كان صاحب الحانوت العجوز يرانى وأنا أشهر هذه الحربة العادية وأقوم بطعنات  
وهمية ، ضد طواحين البحر غير المرئية . من بعد كنت أتركها ، كل واحد أضعه فى  
زاويته . ما استطعت أن أشتري إلا قرناً صغيراً لكركدن حديث الولادة من هذه التى

(١) كلمتان من أصل سويدي .

تخرج أحياناً لتسبر سطح المياه الشمالية الجليدية بمقدمة قرنها البريء .  
وضعت في حقيبتي ، لكن في نزل صغير بسويسرا ، أمام بحيرة «اليمان»  
احتجت أن أرى ذلك الكنز السحري لوحيد القرن البحري وأن ألمسه فأخرجته من  
حقيبتي .

الآن لا أجده .

هل تركته في نزل «فيسيناث» أو أنه تدحرج في آخر لحظة تحت السرير؟ أم أنه  
عاد في شكل سحري ليلي إلى الدائرة القطبية؟  
هأنذا أنظر إلى الأمواج الصغيرة ليوم جديد في المحيط الأطلسي .  
تدع الباخرة على كل ضلع من قيدها مزقاً بيضاء ، زرقاءن كبريتية من مياه ،  
من أزياد ، من مهاو مهتزة .

إنها أبواب المحيط ترتجف ، تضطرب .

من فوق القيدوم تطير الأسماك الصغيرة الصاروخية الفضية الشفافة .  
هأنذا أعود من منفاي .

أنظر إلى المياه مستغرقاً متأملاً . أبحر فوقها نحو مياه أخرى : أمواج وطني  
المعصوفة .

سما يوم طويل تغطي المحيط كله .

سيحل الليل عما قريب ومع ظله سأخبي مرة أخرى قصر اللغز الأخضر الكبير .

## الفصل العاشر إبحار مع إياب

### خروف في داري؛

لقد جاء قريب لي كان نائباً في البرلمان ليقضي بضعة أيام في داري بـ«إيسلا نيجرا» بعد أن فاز في انتخابات برلمانية جديدة . هكذا تبدأ حكاية الخروف .

فما إن درى بذلك أكثر منتخبيه حماسة حتى خفوا للاحتفال به وتكرمه . في أمسية أول يوم من أيام هذه الاحتفالات أتوا بخروف وشووه على طريقة أرياف تشيلي ، بصلاء في الهواء الطلق وسفود يسلك في جوف هذا الحيوان من أوله إلى آخره ، ولهذا فإن هذه الطريقة من الشيء تدعى «الشيء على السفود» ، ويشربون عادة ، فيما همن يسلخون منه فيأكلون ، كثيراً من النبيذ ويعزفون على القيثارة النواحة الصداحة .

وكان لديهم خروف آخر ينتظر مصير أخيه ، أبقوه إلى أمسية اليوم التالي ، فقيدوه قرب نافذتي . طيلة الليل كان يئن ويبكي ، يشغوة ويشكو من وحدته . كان يمزق قلبي سماع صيحاته وأناته فقررت أن أنهض وأن أخطفه وأسرقه .

وضعته في سيارة وأخذته معي إلى داري في «سانتياغو» التي تبعد عن «إيسلا نيغرا» مائة وخمسين كيلومتراً ، فهناك لن تطاله السكاكين ، ما إن أطلقت سراحه حتى راح يقضم في نهم شديد أفضل أعشاب حديقة داري . استهوته زهور الخزامى فحصدتها ولم يبق منها شيئاً حياً . لم يجرؤ على تذوق الورود لأسباب شوكية لكنه انقض على زهور الخيري<sup>(1)</sup> والزنابق فالتهمها في لذة غريبة . لم يكن بد من أن أربطه مرة أخرى وأقيده ، فجعل يشغو محاولاً أن يؤثر بي ويشير شجوني كيما أرق له كما فعلت من قبل ، فبقيت حائراً لا أدري ما أفعل .

---

(1) الخيري : هكذا في الأصل Aleli ، وتكتب كذلك Alheli ، وهذه الكلمة يستعملها (فيديريكو غارثيا

لوركا) كثيراً ، وقد أعددنا كتاباً عن الموضوع العربي والكلمات العربية عند (لوركا) .

الآن سوف ترتبط قصة (خوانيتو) بحكاية الحروف . حصل أنه في ذلك الوقت قام الفلاحون في جنوب تشيلي بإضراب عنيف استطاع الإقطاعيون الذين ما كانوا يدفعون أكثر من عشرين «سنتيما» في اليوم لكل فلاح يعمل عندهم ، أن ينهوه بواسطة القمع والضرب والحبس والاضطهاد .

شعر شاب فلاح شارك في الإضراب بخوف شديد جعله يقفز إلى قطار كان يسير مسرعاً . هذا الفتى الشاب يدعى (خوانيتو) ، وكان كاثوليكياً مؤمناً وما كان يعرف عن أمور العالم شيئاً . حين مر جابي القطار ليفتش تذاكر السفر ووصل إليه أجابه الفتى بأنه ليس لديه أية تذكرة وأنه متجه إلى العاصمة ، وأنه كان يظن أن القطارات هي كي يركب فيها من شاء السفر من الناس ، مجاناً . حاول الجابي إنزال الفتى من القطار لكن المسافرين بالدرجة الثالثة -أناس من الشعب ، كرماء دائماً- قاموا في ما بينهم بحملة جمع للنقود ودفَعوا ثمن تذكرة الفتى .

مضى (خوانيتو) عبر شوارع العاصمة وساحاتها وتحت إبطه حزمة من الملابس أتى بها من قريته . بما أنه لم يكن يعرف أحداً من سكان العاصمة ، فهو لم يشأ أن يكلم من الناس أحداً . فقد كان يسمع وهو في قريته أن سكان العاصمة هم لصوص في أكثريتهم ، فكان يخشى أن ينزعوا عنه قميصه وأن يخطفوا منه نعليه المصنوعين من القنب ، واللذين كان يحملهما تحت إبطه وقد لفهما بجريدة عثر عليها في ناصية أحد الشوارع . كان الفتى يشرّد خلال النهار في الشوارع الأليفة المكتظة بالناس الذين هم على عجل ، يسيرون دوماً يتعرقلون به أو يدفعونه فلا يدري أين يسير ، ويستغربون لهذا Caspar Hauser<sup>(1)</sup> الذي هوى من كوكب آخر . أما في الليل فإنه كان يبحث أيضاً عن أكثر الأحياء أحياء ، شوارع الحانات والكهوف الليلية ، فكان حضوره هناك يبعث على الاستغراب والاستهجان . فمن هو هذا الراعي الشاحب الوجه التائه بين السكارى والأثمين . لم يكن له سنتيم واحد يشتري به ما يسد رمقه ، صبر وكابد إلى أن هوى ذات يوم فاقد الوعي من جوع ومن حسرة .

أحاط بالفتى الملقى على رصيف الشارع حشد كبير من محبي الاستطلاع ثم حملوه وأدخلوه إلى مطعم صغير قريب من هناك وتركوه كما كان مطروحاً ملقياً . «إنه القلب» قال بعضهم ، «بل هو إغماء كبدي» قال آخر ، اقترب صاحب المطعم منه

(1) غاسبر هاوسير : هو أمير «بادن» Baden الذي سجن منذ أن ولد حتى عام ١٨٢٨ (١٨١٢-١٨٣٣) .

ونظر إليه فقال : «إنه الجوع» . ما إن أكل بضع لقمات حتى استعادت تلك الجثة أنفاسها واستردت الحياة . استخدمه صاحب المطعم عنده في غسل الصحون والأواني وكان يودّه ويحبه . وكان لهذا الود أسباب إذ إن الفتى كان يبتسم دائماً وهو يغسل جبلاً من الأطباق والملاعق . كان يشعر أن الأمور تجري على ما يرام فهو الآن يأكل أكثر مما كان وهو في قرينته .

لقد شاءت الصدف أن يجتمع في داري الراعي والخروف معاً .

طاب للراعي ذات يوم أن يتعرف على المدينة فقادته خطاه إلى ما هو أبعد من جبال الصحون والأواني تلك ، فاجتاز في لهفة شارعاً ثم عبر في شوق ساحة فشارعاً فساحة ، وكان كل ما يراه يفتنه ويخلب لبه ، وحين أراد العودة إلى مطعمه لم يعد يعرف من أين يتجه ، لم يكن قد سجل عنوانه لأنه لا يعرف الكتابة ، فبحث عبثاً عن ذاك الباب الذي حضنه وأكرمه وأطعمه فما استطاع أن يجد إليه سبيلاً .

قال له أحد المارة وقد رق لحاله وحزن لحيرته إن عليه ان يتوجه إلى الشاعر (بابلو نيرودا) . ليست أدري لماذا أوحى إليه بهذه الفكرة . قد يكون لأن الناس في تشيلي عندهم ميل غريب بأن يكلفوني بكل ما يخطر على بالهم من أفكار ، وكذلك أن يحملوني مسؤولية كل ما يقع من مصائب . إنها لعادة قومية عجيبة .

وصل ذات يوم الفتى والحيوان الأسير في داري . لم يكن صعباً عليّ أن أقوم بخطوة أخرى فأتكفل بهذا الراعي بعد أن تحملت مشقة التكفل بالخروف غير الضروري . كلفت الفتى بعمل ألا وهو الاعتناء بالحيوان المجترّ كي لا يقضم أزهارها كلها ، بل أن يرعى من حين إلى حين ليشبع نهمه كلاً الحديقة ويدع لي فيها شيئاً من الزهور والورود .

لقد تفاهم الراعي والخروف تفاهماً كاملاً ، فوضع الفتى خروفه منذ اليوم الأول للأمان والضمان حبيلاً في عنقه كان يقوده به من مكان إلى آخر ، كان الخروف يأكل بلا هوادة والراعي لا يقصر هو الآخر في هذا الشأن ، وكلاهما يسرح عبر الدار كلها حتى في غرف النوم . لقد كان بينهما تكامل تام توصلنا إليه بواسطة رحم الأم الأرض وحبل سرّتها الذي يؤاخيها ، وهو ما ينحول الإنسان أن تكون له سلطة أصيلة حقيقية على الحيوان . هكذا انقضت أشهر كثيرة . كلاهما أثرى كنوزه اللحمية ، بخاصة ، المجترّ الذي لم يكن ليقدر أن يرعى كثيراً ، متنقلاً من مكان إلى آخر ، بسبب ما كان له من الإلية وما أصبح له من السمنة . كان يلج أحياناً في رصانة إلى

غرفتي ، ينظر إليّ في غير اكتراث ثم يخرج بعد أن يترك لي على الأرض مسبحة صغيرة من خرز داكن اللون غامق .

انتهى كل شيء حين شعر الفتى الفلاح بحنين إلى قريته فقال لي إنه سيعود إلى أراضيه النائية . كان قراره هذا قد اتخذه في آخر لحظة لأن عليه أن يفي بنذر إلى مريم العذراء بقريته . ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه الخروف معه فتودّعا في حنان . ركب الفتى الراعي القطار ، ولكن هذه المرة بتذكرة كان يحملها في يده متباهياً . لقد كان ذاك الرحيل مثيراً للشجون وللدموع .

لم يدع في حديقتي خروفاً بل مشكلة خطيرة أو بالأحرى سمينة . ما العمل مع هذا المجتر؟ من سيعتني به الآن؟ لقد كانت لي مشاغل سياسية كثيرة . كانت داري مختلة إثر الملاحقات التي جلبها لي شعري المكافح . أخذ الخروف من جديد يشغو ويرسل أناته الشاكية الأليمة .

أغمضت عينيّ وقلت لأختي أن تأخذه . آه وأواه هذه المرة كنت متأكداً من أنه لن ينجو من السفود .

### من آب عام ١٩٥٢ إلى نيسان عام ١٩٥٧

إن الأعوام التي انقضت من آب عام ١٩٥٢ ونيسان عام ١٩٥٧ لن ترتسم بشكل مفصل في مذكراتي لأنني قضيت معظم هذا الوقت في تشيلي ، ولم تقع لي أشياء غريبة ولم أقم بمغامرات يمكن لها ، إن رويتها ، أن تسلي قرائي . غير أنني أجد أنه من الضروري سرد بعض الأحداث المهمة التي جرت في هذه الفترة المذكورة . لقد نشرت كتابي «الأعنان والريح» . اشتغلت في همة وإصرار على تهيئة «أناشيد بدائية» و«أناشيد بدائية جديدة» و«كتاب الأناشيد الثالث» . نظمت مؤتمراً قارياً للثقافة انعقد في «سانتياغو» وحضره أدباء وكتاب مشهورون جاءوا من أمريكا كلها . احتفلت كذلك في «سانتياغو» بعيد ميلادي الخمسين بحضور كتاب مهمين قدموا من العالم جميعه : من الصين جاء (أي شينغ) و(إيمي سياو) ، من الاتحاد السوفييتي طار قادما إلي (ايليا ايهرينبورغ) ، ومن تشيكوسلوفايكا (دريدا) و(كوتفاليك) ، من بين الأمريكيين اللاتينيين جاء (ميغيل انخيل استورياس) و(اوليبيرو خيروندو) و(نوراه لانجه) و(البيو روميرو) و(ماريا روسا اوليبر) و(راوول لارا) . وآخرون كثيرون . أهديت إلى مكتبة تشيلي مكتبتي الخاصة ومنافع أخرى . قمت برحلة إلى الاتحاد السوفييتي



لأشارك بصفتي عضواً في اللجنة المحلفة التي تمنح جائزة لينين للسلام ، التي أنا نفسي كنت قد حصلت عليها في هذه الفترة حين كانت لما تزل تسمى جائزة ستالين . انفصلت نهائياً عن زوجتي (ديليا ديل كاريل) . بنيت داراً سميتها «لا تشاسكونا» انتقلت إليها كي أعيش و(ماتيلده اوروتيا) فيها . أسست مجلة «صحيفة تشيلي» وأخرجت منها بضعة أعداد . ساهمت في الحملات الانتخابية وفي نشاطات أخرى قام بها الحزب الشيوعي بتشيلي . نشرت دار النشر «لوسادا» ، في بونوس آيريس ، أعمالها الكاملة في ورق كورق الكتاب المقدس .

### سجين في «بونوس آيريس»

بعد انتهاء هذه الفترة من الزمن دعيت لحضور مؤتمر السلام الذي كان سيعقد في «كولومبو» بجزيرة سيلان ، التي عشت فيها منذ زمن بعيد . كان ذلك في نيسان ١٩٥٧ .

ليس الالتقاء بالشرطة السرية أمراً خطيراً ، لكن إذا كانت هذه الشرطة هي البوليس الأرجنتيني السري فإن اللقاء يأخذ طابعاً آخر ، طابعاً لا يخلو من الدعابة ولكنه ذو نتائج مبالغتة غير متوقعة . بعد أن وصلت من تشيلي إلى الأرجنتين وفي نيتي مواصلة السفر إلى الأقطار النائية القصية ، ذهبت إلى السرير وأنا مرهق جداً وما إن أخذ النوم يسري في أعصابي التعب حتى اقتحم رجال الشرطة الدار حيث كنت أنام وأخذوا يفتشونها تفتيشاً دقيقاً بطيئاً ، نزعوا الكتب والمجلات ، خلعوا خزائن الملابس ، حشروا أنفسهم في الملابس الداخلية . كانوا قد أخذوا الصديق الأرجنتيني الذي أضافني في بيته ، عندما اكتشفوني في الغرفة التي كنت أنام فيها وهي غرفة خافية في عمق الدار .

- من هذا السيد؟ سألوا .

- اسمي (بابلو نيرودا) - أجبت .

- أهو مريض؟ - استقصوا زوجتي .

- أجل ، إنه لمريض وتعب جداً من السفر ، لقد وصلنا صبيحة هذا اليوم

وسأخذ غداً طائرة نقلنا إلى أوروبا .

- حسناً جداً ، حسناً جداً - قالوا ثم خرجوا من الغرفة .

بعد ساعة من الزمن عادوا من جديد ومعهم سيارة إسعاف . احتجت (ماتيلده)

لكن هذا لم يغير شيئاً من الأمور . فقد كانت لديهم تعليمات مشددة بأن يأخذوا جسدي ، تعباً أو طازجاً ، سليماً أو مريضاً ، حياً أو ميتاً .

كانت السماء تظمر تلك الليلة ، قطرات سميكة عنيفة كانت تهطل من سماء «بونوس أيريس» المثقلة بالغيوم الكثيفة . كنت أشعر أنني في بلبلية وتشويش وفي هذيان وتخدير . كان الجنرال بيرون قد سقط من الحكم والجنرال (أرامبورو)<sup>(١)</sup> باسم الديمقراطية أطاح بالاستبداد والطغيان . غير أنني غدوت سجيناً دون أن أدري كيف ولم ومتى وإلى أين ، دون أن أعرف إذا كان السبب لهذا أو لذاك أو لذلك ، الغير سبب أم للأسباب جميعها ، وأنا مريض هالك أو شبه هالك . لقد أصبح سرير سيارة الإسعاف الذي أنزلوني به وأنا محاط بأربعة من رجال الشرطة مشكلة عويصة أثناء نزول الدرج ، صعود الدرج ، العبور بين الممرات ، الصعود بالمصاعد ، الهبوط بالمهابط . كان رجال النقالة يتزحلقون ويعانون كثيراً ، ولكي تزيد (ماتيلده) من معاناتهم فإنها قالت لهم بأنني أزن مائة كيلوغرام . وفي الحقيقة كنت أزن هذا الوزن بالمعطف والبطانيات التي كانت تغطيني من أخمص قدمي حتى رأسي . لقد كنت ألتصع مثل جرم ، مثل بركان «أوسورنو» . فوق تلك المحفة التي خصّصتني بها الديمقراطية الأرجنتينية . كنت أفكر ، وهذا كان يخفف عني أوجاع التهاب الوريد ، إن من كان يحمل النقالة ليس هم أولئك الفقراء المساكين الذين كانوا يجهدون ويتصببون عرقاً تحت ثقلتي ووزني ، بل هو الجنرال (أرامبورو) بذاته .

فاستقبلت من لدن الروتين الحبسي والتصنيف السجني والتفتيش المعتقلي فاستولوا على حاجاتي الشخصية جميعها ، ولم يدعوني أحتفظ بالرواية البوليسية الشيقة التي كنت أحملها معي لأقرأها فلا أمل داخل هذا السجن الرهيب . لكن الحقيقة هي أنه ما كان لدي وقت للملل . كانت تفتح الطاقات الحديدية ثم تغلق . كانت الحمالة تعبر الدهاليز والبوابات الحديدية ، تحفها أكثر فأكثر عمقاً وشدة أنغام الأقفال وأزيز الأغلاق الفولاذية . فجأة وجدنتني وسط حشد كبير من السجناء الذين أتى بهم إلى السجن هذه الليلة نفسها ، كان عددهم يربو على الألفين . لم أستطع الاتصال بأحد منهم وما كان يقدر منهم أحد على الاقتراب مني ، لكن ما نقصتني اليد التي كانت تتسلل من تحت البطانيات كي تصافحني ، ولا الجندي الذي يترك

(١) أرامبورو Pedro Eugenio : عسكري وسياسي أرجنتيني (١٩٠٥-١٩٧٠) .

بندقيته جانباً كي أوقع له على ورقة يخفيها في جيب سرواله .  
 من بعد وضعوني فوق ، في زنزانة بعيدة جداً لها طاقة عالية جداً . كنت أرغب  
 أن أستريح ، أن أنام ، أن أنام أن أنام . لم أستطع ذلك لأن الفجر قد بزغ والسجناء  
 الأرجنتينيون شرعوا بالقيام بضجيج يصم الأذان وبجلبة مدوية صخابة كما لو أنهم  
 كانوا يشاهدون مباراة بين «ريفير» River و«بوكا» Boca .

بعد بضع ساعات تحرك تضامن الكتاب والأصدقاء في الأرجنتين وتشيلي وفي  
 بلدان أخرى عديدة ، مما اضطرهم إلى إخلاء سبيلي من الزنزانة ، فأخذوني إلى  
 المستوصف وأعادوا لي هناك حوائجي الشخصية التي كانوا سلبوها مني وأعتقوني .  
 كنت على وشك مغادرة السجن حين اقترب مني أحد حراسي ووضع في يدي  
 ورقة ، كان عليها قصيدة مكتوبة يهديها إليّ ، أبيات بدائية مليئة بالأخطاء ومفعمة  
 بالبراءة الشعبية . أعتقد أن شعراء قلائل في العالم أهدى إليهم ما أهدى إليّ وتلقوا  
 تكريماً شعرياً من قبل الشخص الذي كانت مهمته هي الحراسة القاسية الشديدة كما  
 تلقيت من حارسي الشاعر .

### شعروشرطة:

ذات يوم قالت لنا الخادمة : «أيتها السيدة ، يا سيد (بابلو) ، أنا حامل» . ثم  
 وضعت طفلاً . أبداً ما استطعنا أن نعرف منها من هو والد هذا الطفل . بالنسبة للخادمة  
 ما كان يهمها والده في شيء وكل ما كان يهمها هو أن نقبل ، أنا و(ماتيلده) ، أن نكون  
 عرابين لهذا الوليد . لكن هذا لم يكن ممكناً . ما استطعنا ذلك ، إن أقرب كنيسة إلينا هي  
 في «ال تابو» El Tabo ، وهي ضيعة صغيرة سعيدة نقف فيها عادة لنضع للسيارة بنزيناً .  
 تقنفذ القس كالقنفذ قائلاً : «أعراب شيوعي؟ ، أبداً ، (نيرودا) لن يدخل هذا الباب ولو  
 حمل في ذراعيه ابنك الصغير» . عادت الفتاة إلى مكنستها وأشغالها في الدار ،  
 مطأطئة الرأس ، غير قادرة على فهم السبب الذي أدى بهذا القس إلى الرفض .

في وقت آخر رأيت السيد (استيريو) وهو يعاني ويتألم . كان هذا السيد مصلح  
 ساعات قديماً وهو أحسن ضابط للساعات في «البارائيسو» كلها ، كان يصلح ساعات  
 البحرية العسكرية في إتقان ودقة . كانت زوجته تنازع ، رفيقة عمره التي صاحبته  
 خمسين سنة في هذه الحياة كانت تموت فتألمت له ولها ، وقلت : يجب عليّ أن أكتب  
 شيئاً عنها ، شيئاً يواسيها قليلاً في محنتها الكبيرة ، شيئاً يقرأه لزوجته المحتضرة لعلها

تسترد بعض أنفاسها . هكذا فكرت ، لست أدري إن كنت على صواب في ذلك أم لم أكن ، فكتبت القصيدة وعبرت فيها عن إعجابي وعاطفتي نحو الفنان وفنه ، ووصفت فيها حياته النقية بين «تيك تاك» الساعات العتيقة . أخذت هذه القصيدة (ساريتا فيال) لنشرها في الصحيفة ، كانت هذه الصحيفة تسمى «لا اونيون» La union<sup>(1)</sup> يديرها رجل يدعى (باسكال) . السيد (باسكال) هذا هو كاهن . لم يشأ نشر القصيدة ، لن ننشر هذه القصيدة مطلقاً فمؤلفها (نيرودا) هو شيوعي مطرود من الكنيسة ، لم يشأ ، ماتت السيدة ، رفيقة السيد (استيريو) القديمة والكاهن أضرب فلم تنشر القصيدة .

إنني أريد أن أحيي في عالم بلا محرومين ولا مطرودين . لن أحرم أحداً . لن أقول غداً لهذا الكاهن : «لن تستطيع تعميم أحد لأنك ضد الشيوعية» . إنني لأرغب أن أعيش في عالم يكون فيه البشر بشراً ، دون أية ألقاب ولا نعوت إلا كون المرء إنساناً ، من غير أن يلصق في رأسه شيء : لا إعلاناً ولا قاعدة ولا كلمة . أريد ألا يكون في مكنة من يشاء ، الدخول إلى الكنائس كلها ، إلى المطابع جميعها . أريد أن ينتظروا أحداً عند بوابة دار البلدية كي يعتقلوه أو يطردوه بعد اليوم . أريد أن يدخل الجميع إلى دار البلدية أو يخرجوا منها مبتسمين فرحين . لا أريد لأحد أن يهرب في جندول . لا أريد لأحد أن يطارد بدراجات نارية . أريد للأغلبية القصوى ، للأغلبية الوحيدة ، للناس كلهم أن يستطيعوا الكلام ، القراءة ، الاستماع ، الازدهار . لم أفهم أبداً الصراع إلا على أنه الصراع في سبيل القضاء على الصراع . لم أفهم قط الشدة إلا كي تنتهي الشدة إلى الأبد . لقد اتخذت لي طريقاً لأنني أعتقد أن هذه الطريق ستؤدي بنا جميعاً إلى هذه المحبة الدائمة . إنني أناضل في سبيل هذه الطيبة الكلية الشاملة اللامنتهية . من بين هذه اللقاءات بين الشعر والشرطة ، من بين هذه الحوادث العرضية التي جرت لي وحوادث أخرى لن أرويها تجنباً للتكرار وحوادث ما جرت لي ولكن لآخرين ما استطاعوا أن يرووها لنا ، خرجت وأنا أوؤمن إيماناً مطلقاً بالمصير الإنساني ، وعندني القناعة التامة بأننا نقرب من عهد الحنان الكبير العظيم . إنني لأكتب وأنا أدري أن فوق رؤوسنا جميعاً يحوم خطر القنبلة الذرية الساحقة الماحقة ، التي لن تبقي ولن تذر في الأرض شيئاً ولا أحداً . ولكن هذا لن يبدل من أملي

(1) لا اونيون : معناها ، الاتحاد .

ورجائي . إننا لنعرف أنه في هذه اللحظة الحرجة . في هذا الخفق والرعدة من الاحتضار ، لا بد أن يدخل النور إلى العيون الساهمة . سنتفاهم جميعاً . سنتقدم معاً ، وهذا الأمل هو قطعي أكيد .

### «سيلان» ألقاها من جديد:

لقد أعادتني من جديد إلى «كولومبو» قضية دولية ألا وهي الصراع ضد الموت الذري . عبرنا الاتحاد السوفييتي باتجاه الهند على متن طائرة Tu 104 كانت هذه الطائرة النفثة الرائعة قد انطلقت كي تقل وفدنا الكبير . ما توقفنا إلا في «طاشقند» قرب «سمرقند» على مرحلتين طارت بنا كي تضعنا في قلب الهند . كنا نظير على ارتفاع ١٠,٠٠٠ متر . كي نستطيع أن نجتاز جبال «هملايا» فإن هذا الطير الهائل حلق على ارتفاع ١٥,٠٠٠ متر . من الأعلى كنا نلمح منظرًا طبيعيًا خلاباً كان يبدو وكأنه لا يتحرك مع تحرك طائرنا السريعة . ها هي الحواجز الأولى تبدو من تحتنا ، تظهر منحدرات سلسلة جبال «الهملايا» الزرقاء والبيضاء . هناك لا بد أنه يمشي إنسان الثلوج المهيب في وحدته الرهيبة . من بعد ، على يسارنا ، تتميز هضبة جبل «إيفيريست» بين أكاليل الثلوج وتيجانها . الشمس تشرق فوق ذاك المنظر الغريب ، نورها يحزّ ويجزّ جوانب الصخور المستنّة ، قدرة السكون الثلجي المسيطرة السائدة .

أذكر جبال «الأندلس» الأمريكية التي اجتزتها عدة مرات . هنا لا تسود تلك الفوضى ، ذاك الغضب الهائل ، تلك الصحراء الوبائية الموجودة في سلسلة جبالنا . تبدو لي هذه الجبال الآسيوية أكثر كلاسيكية ، أكثر تنظيمًا ، أكثر اتساعًا وامتدادًا . قممها الثلجية تنقش أديرة ، تحفر معابد هندية أو صينية في المدى الفسيح اللانهائي . إن وحدتها الهي أكثر عرضًا واتساعًا . ظلالها لا ترتفع أسواراً من حجارة رهيبة بل تمتد حدائق غريبة عجيبة زرقاء في دير كبير هائل .

أقول لنفسي بأنني الآن أستنشق أنقى هواء في العالم ، وإنني أنظر إلى أعلى مرتفعات الأرض من أعلى مرتفع . إنه لإحساس فريد تمتزج فيه السرعة والثلوج والوضوح والافتخار .

نظير نحو سيلان . الآن قد هبطنا إلى ارتفاع قليل ، فوق أراضي الهند الساخنة الحارة . لقد تركنا الطائرة السوفييتية في دلهي الجديدة كي نأخذ طائرة هندية ، أجنحتها تثر وتهتز بين سحب سوداء عنيفة . أفكارنا وسط التراجع هي الآن في

الجزيرة المزدهرة التي كنت أعيش فيها وليس لي من العمر إلا اثنان وعشرون عاماً .  
لقد عشت في سيلان وجوداً متوحداً منعزلاً ، وكتبت هناك أكثر أشعاري مرارة وأنا  
محاط بطبيعة الفردوس المتنوعة الخلابة .

أعود بعد انقضاء زمن طويل على تلك الأيام ، أيام صباي وشبابي ، إلى هذا  
الاجتماع المؤثر من أجل السلام ، الذي دعت إليه حكومة سيلان . لقد لاحظت وجود  
المئات من الرهبان البوذيين جماعات جماعات ، بيردوهم ذات اللون الزعفراني ، وهم  
غارقون بالتأمل الذي يميز تلامذة (بوذا) وأتباعه . حين يناضل هؤلاء الكهنة ضد الحرب  
والدمار والموت فإنهم بهذا يؤكدون من جديد مبادئ السلام ومشاعر الوثام التي دعا إليها  
قديماً الأمير (سيدراتا غاوتاما) المدعو كذلك (بوذا) . كم هي بعيدة -أفكر- عن  
الاضطلاح بهذه المهمة وسلوك هذا النهج ، الكنيسة في أقطارنا الأمريكية ، إنها كنيسة  
من نوع إسباني ، رسمية وداعية إلى الحرب ، كم هو منعش ومشجع أن يرى المسيحيون  
الحقيقيون كهنتهم الكاثوليك وهم من على منابرهم يحاربون أفدح الجرائم وأكثرها  
خطورة وأشدها إرهاباً ، ألا وهي جريمة الموت الذري الذي يغتال ملايين من الأبرياء  
ويترك إلى الأبد لظخاته البيولوجية في سلالات الإنسانية وذرياتها .

لقد مضيت متخبطاً عبر الأزقة باحثاً عن الدار التي كنت أعيش فيها بضاحية  
«فيلا واثا» . فجهدت كثيراً حتى عثرت عليها . كانت الأشجار قد غمت ووجه الشارع  
قد تغير .

كانت الغرفة القديمة حيث كتبت أشعاري الأليمة ستهدم نظراً لأن جدرانها  
كانت متأكلة متداعية ، فقد أذت رطوبة المدار هذه الحيطان التي كانت تنتظرني واقفة  
كي تودعني في هذه اللحظة الأخيرة من حياتها .

ما التقيت بأحد من أصدقائي القدامى . غير أن الجزيرة عادت لترن في قلبي  
بلحنها القاطع لأوتار القلب ، بوميضها المديد . البحر ما زال يغني غناءه القديم نفسه  
تحت سعف النخيل ، ضد أرصفة الميناء . عدت لأجول عبر طريق الغابة ، عدت لأرى  
الفيلة ذات الخطو الجليل وهي تملأ الدروب ، عدت لأشعر بعبق العطور الفواحة ،  
بوشوشة النمو وحفيف الحياة في الغابة . لقد وصلت إلى صخرة «سيخيريا» حيث  
شاد هناك ملك مجنون حصناً له . لقد بجلت كما أكرمت من قبل ، تماثيل بوذا  
الهائلة العديدة التي يمضي الرجال تحت ظلها وكانهم حشرات صغيرة .  
ابتعدت من جديد وأنا متأكد أنني بعد هذه المرة لن أعود أبداً إلى هذه الجزيرة .

## زيارة ثانية للصين:

لقد طرنا من «كولومبو» بعد انتهاء مؤتمر السلام هذا عبر أجواء الهند، وكان معنا (خورخه امدو)<sup>(١)</sup> وزوجته (ثيليا). إن الطائرات الهندية كانت تطلع دوماً وهي غاصة بمسافرين معتمين ومليئة بالأسفاط والسلل ومزدحمة بالأشكال والألوان. كان يبدو مستحيلاً حشر هذا العدد الكثير من الناس في مثل هذه الطائرة التي أقلتنا. حشد ينزل في أول مطار وحشد يصعد. كان علينا أن نواصل السفر إلى ما هو أبعد من «مدراس» إلى «كلكوتا». كانت الطائرة تتمايل تحت العواصف الاستوائية. كان النهار الليلي الذي هو أكثر ظلمة من الليل يطوينا فجأة ثم يهجرتنا تاركاً مكانه لسماء باهرة ساطعة. ثم تعود الطائرة تتمايل وترتعد وترتجف، على حين غرة تنفجر الصواعق والبروق فتضيء السماء وتجلو العتمة لماماً. كنت أنظر إلى وجه (خورخه امدو) وهو يمر من اللون الأبيض إلى الأصفر، ومن الأصفر إلى الأخضر، وكان هو يرى في وجهي تحول الألوان ذاته الناتج عن الخوف الذي كان يخنق أنفاسنا ويبدل ألواننا. بدأت الطائرة بالأمطار، كانت المياه تتسرب، تترشح من ثقوب في سقفها كثقوب السماء، تتساقط قطرات ثخينة تذكرنني ببيتي في «تيموكو» أثناء فصل الشتاء، لكن هذه القطرات لم تكن تستهويني على ارتفاع ١٠,٠٠٠ متر. لكن ما كان يستهويني هو أن راهباً كان يجلس خلفنا فتح مظلة احتمى تحتها من المطر وأخذ يقرأ في جديّة شرقية نصوص كتابه المحتوي على كنوز المعرفة القديمة.

لقد وصلنا بلا حوادث إلى «رانغون» في «بيرمانيا». لقد اكتملت في هذه الأيام ثلاثون سنة على مقامي في الأرض، على إقامتي في «بيرمانيا» حيث كتبت هناك أشعاري الأليمة وأنا إذّاك غير معروف البتة. في عام ١٩٢٧ حين كان لي من العمر ٢٣ سنّة نزلت في «رانغون» هذه نفسها. لقد كانت «برمانيا» حينذاك أرضاً تهذي من الحر، أرضاً لا تتفد إليها اللغات، أرضاً ساخنة ساحرة. لقد كان المستعمرون الإنجليز يستغلونها استغلالاً بشعاً ويخنقون أنفاسها، غير أن العاصفة كانت نظيفة ومضيئة، كانت الشوارع تلتمع بالحياة وواجهات المحلات كانت تتباهى بمغرياتها الاستعمارية.

أما الآن فهذه المدينة تبدو نصف فارغة، واجهات المحلات غير مزودة بأي شيء

(٣٣٢) خورخه امدو: روايتي برازيلتي ولد عام ١٩١٢.

ما يغري ويجذب الأنظار، الشوارع فيها مليئة بالأوساخ والأقذار المتراكمة. إن صراع الشعوب من أجل استقلالها ليس بالأمر السهل، لا بد، بعد قعقة السلاح وتفجر الأرواح وانتصاب الرايات وتحقيق التحرير، من أن تشق هذه الشعوب طريقها عبر العواصف والمصاعب. أنا لا أعرف حتى الآن تاريخ «بيرمانيا» المستقلة الحبيسة قرب نهرها القدير، نهر «إيراودهي» وفي سفوح معابدها الذهبية، لكنني أستطيع أن ألمح - أبعد من القمامة في الشارع ومن الحزن المتموج - المأسى كلها التي تهز الجمهوريات الجديدة. إنه كما لو كان الماضي ما يزال يستمر في اضطهاد هذه الجمهوريات الفتية. لم أجد أي ظل لـ (خوسيه بليس)، بطلة قصيدتي «تأنغو الأرملة». لا أحد استطاع أن يدلني شيئاً عنها، عن حياتها أو موتها. حتى الحي الذي كنا نعيش فيه معاً لم يعد له من وجود.

لقد طرنا الآن من «بيرمانيا» عابرين سلاسل الجبال التي تفصلها عن الصين. إنه لمنظر متجههم عابس، ذو سكون رعوي. لقد حلقت الطائرة من «ماندالاي» فوق حقول الأرز، فوق المعابد المفرطة في الزخرفة، فوق ملايين من أشجار النخيل، فوق الحرب الأخوية بين البيرمانيين وتغلغلت في الهدوء الصارم المحاذي لمناظر الصين الطبيعية.

كان ينتظرنا في «كون مينغ» وهي أول مدينة صينية بعد الحدود، صديقي القديم، الشاعر (أي تشينغ). لقد كانت تقاسيم وجهه العريض الأسمر ونظرات عينيه الكبيرتين المليئتين بالطيبة والشيطنة المتيقظة، مرة أخرى، تقدمه فرح لسفر طويل. إن (أي تشينغ) و(هو تشي مينغ) كانا شاعرين من جفن الكرم الشرقية القديمة، متشككين بين القارة الاستعمارية في الشرق ووجود صعب في باريس. إن هذين الشاعرين ذوي الصوت العذب الطبيعي، وقد خرجا من السجون، تحولاً خارج بلدهما إلى طالبين فقيرين يعملان في المطاعم. لقد حافظا على ثقتهما بالثورة. وعادا في الوقت المناسب وهما ناعمان جداً في الشعر وصلبان جداً في السياسة، إلى بلدهما لكي يؤديا مهماتهما المصيرية.

أشجار الحدائق في «كون مينغ» كانت قد أجريت لها عملية جراحية جمالية. كانت جميعها تأخذ أشكالاً غير طبيعية، وأحياناً كانت تلمح وتلاحظ ندوب مبتورة قد غطيت بصلصال وطين أو غصون ملتوية لم تزل مضمدة مثل ذراع جريح. أخذونا لنرى البستاني، العبقري العظيم الذي كان يسيطر على تلك الحديقة الغريبة. رأينا



أشجار التنوب الغليظة العتيقة وهي لما تنم بعد أكثر من ثلاثين سانتيمتراً وكذلك رأينا أشجار برتقال ، أقزاماً تغطيها برتقالات ضئيلة كأنها حبات أرز مذهبة .

كذلك ذهبنا لزيارة غابة أحجار باسلة ، كانت كل صخرة تتناول كأنها مسلة من حجر واحد أو تستشيط كأنها موجة من بحر جلمود . عرفنا أن هذا الذوق بالأحجار العجيبة هو إرث قديم منذ قرون سحيقة . لقد زينت هذه الصخور الكبيرة العديدة ذات المظهر المبهم للغز ساحات المدن القديمة ، حين كان الحكام في الزمن القديم يريدون أن يقدموا أحسن هداياهم إلى الامبراطور فإنهم كانوا يرسلون إليه واحدة من هذه الصخور الضخمة ، وكان وصولها يتأخر سنوات عديدة ، كان يدفعها عشرات من العبيد خلال آلاف الكيلومترات حتى تصل إلى بكين .

إن الصين بالنسبة لي ، ليست لغزا ، على العكس إنني أراها ، حتى داخل حدة الاندفاع الثوري الرائع ، بلداً قد بني منذ آلاف السنين وما زال يبني ويشاد على الدوام . إنني أراها معبداً هائلاً من بنيانه القديم يدخل ويخرج البشر والأساطير ، المحاربون والفلاحون والآلهة . لا شيء عفوياً يوجد فيها ، ولا حتى الابتسامة . عبثاً يبحث المرء في الجهات كلها عن أشياء الفن الشعبي البدائي الصغير غير المتقن ، عن هذا الفن المصنوع بأخطاء في التصميم الذي يلمس أحياناً حدود المعجزة . إن الدمى الصينية ، والأعمال الفخارية والخزفية والأحجار المرصعة والأخشاب المزخرفة ، جميعها تكرر نماذج ألفية ، إن كل شيء له طابع إتقان معاد .

لقد كانت مفاجأتي الكبرى حين عثرت في سوق ضيعة صغيرة على أقفاص صغيرة للزيزان مصنوعة من خيزران رقيق . كانت رائعة لأنها في دقتها البنائية كانت مبنية غرفة فوق أخرى ، وكل غرفة يزيزها الحبيس الأسير ، تشكل قلاعاً في ارتفاع متر ، تقريباً . لقد بدا لي وأنا أنظر إلى الأعشاش التي كانت تقيد الزيزان وإلى اللون الأخضر الطري في عيدان الخيزران ، أن اليد الشعبية كانت تطل منبعثة من الأقفاص ، البراءة التي تستطيع أن تصنع الأعاجيب . حين رأى الفلاحون دهشتي وإعجابي بهذه الأقفاص لم يشأوا أن يبيعوني واحداً منها بل أهدوا إلي قلعة صداحة ، أكبر قفص وأجمله . بهذا الشكل رافقتني غناء الزيزان القداسي خلال عدة أسابيع عبر أعماق الأراضي الصينية . لا أذكر أنني تلقيت هدية مثل هذه الهدية البرية الجديرة بالذكرى إلا في طفولتي .

شرعنا السفر في باخرة تقل ألف مسافر عبر نهر «يونغ تسه» إنهم فلاحون ،

عمال ، صيادون ، جمهرة مليئة بالنشاط والحيوية . لقد جلنا خلال عدة أيام ، باتجاه «نان كينغ» في هذا النهر العريض جداً ، المليء بالقوارب والأشغال ، الذي تعبده وتمخره آلاف الحيوانات ذوات الأحلام والهموم . إن هذا النهر لهو الشارع الرئيسي في الصين . لقد كان نهر «يانغ» العريض الهادئ يغدو أحياناً نحيلاً ضيقاً ، فلا تكاد الباخرة تعبر حلقيمه الجبارة إلا بصعوبات قاسية ، على كل جانب من جانبيه تبدو الجدران الحجرية العالية السامقة وكأنها تتلامس في الأعالي ، حيث تلمح من حين إلى حين غمامة سوداء في السماء ، رسمتها رسماً أنموذجياً أيد شرقية بأقلام رصاص ، أو ترى غرفة إنسانية صغيرة بين ندوب الأحجار .

ليس في الأرض إلا مناظر قليلة لها مثل هذا الجمال الرهيب . ربما نستطيع مقارنتها بفجاج القوقاس العنيفة أو بقنواتنا الجلييلة المنعزلة في مضيق «ماغايانيس» . بعد خمس سنوات على زيارتي الأولى للصين ألاحظ الآن تغييراً ملحوظاً يتأكد كلما توغلت في هذا البلد من جديد .

في البداية ملاحظتي كانت مشوشة . ماذا ألاحظ الآن؟ ما هي التغييرات الطارئة على الشوارع وعلى الناس؟ أه ، إنني لأفتقد اللون الأزرق . منذ خمس سنين زرت في هذا الفصل نفسه شوارع الصين ، كانت دائماً غاصة خافقة بالحيوات البشرية . لكن إذآك كان الناس كلهم يمضون وهم مرتدون ملابس زرقاء بروتيتارية ، نوعاً من القماش أو النسيج العمالي الرقيق . كانت هذه هي ملابس الرجال والنساء والأطفال . لقد كان يلذ لي هذه البساطة في البدل ، في تدرجاتها المختلفة من الزرق ، لقد كان بديعاً أن أرى حينذاك هذه التموجات الزرقاوية العديدة وهي تعبر شوارع وطرقاً .

الآن هذا قد تبدل ، فماذا جرى؟

ببساطة ، الصناعة النسيجية في هذه السنوات الخمس نمت كثيراً إلى درجة أنه أصبح ممكناً أن يلبس الناس ما شاؤوا من ألوان وأنواع ، مخططة أو منقطة ، أصبح ممكناً لباس الملايين من الصينيين بكل أصناف الحرير ، والسماح لهم أن يستعملوا منها ألواناً عديدة وأقمشة أحسن وأفضل مما كانوا يستعملون من قبل .

إن الشوارع الآن هي أقواس قزح من ذوق الصين الدقيق النقي . إن الجنس الصيني لا يعرف أن يصنع شيئاً قبيحاً . هذا البلد مزهر ومزدهر حتى الصندل الأكثر بدائية يبدو فيه وكأنه زهرة من قش .

لقد انتبهت وأنا أبحر عبر نهر «يانغ تسه» إلى وفاء الرسوم الصينية القديمة . هناك ، في أعلى الفجاج ، شجرة أرز ملتفة مثل معبد صيني صغير ، جلبت إلى ذهني حالاً الصور التخيلية القديمة . ثمة أماكن قليلة في العالم ، حقيقية جداً ، خيالية جداً ، مفاجئة جداً ، مبالغتها جداً ، مثل هذه الفجاج التي يخترقها هذا النهر العظيم ، فجاج ترتفع إلى علو غير معقول ، فجاج تريك في كل صدع أو شق في هذه الصخرة أو تلك الأثر النفساني القديم لهذا الشعب المدهش العريق : خمسة أمتار أو ستة من بقول حديثة الغرس ، أو معبد صغير ذو خمسة سطوح أو ستة للتفرج والتأمل . يبدو لنا هناك بعيداً أننا نرى في أعلى الصخور القرعاء الصلعاء ، العباءات البيضاء أو دخان الأساطير ، وإن هي إلا الغيوم وطيران عصافير رسمه عدة مرات أكثر رسامي الصور المصغرة الملونة قديماً ومعرفة على وجه الأرض قاطبة . إن شعراً عميقاً ينطلق من هذه الطبيعة الجليلة العظيمة ، شعراً موجزاً مختزلاً عارياً كطيران طير أو البريق الفضوي لماء يطفو شبه ساكن بين الأسوار الحجرية .

بيد أن ما هو فائق بشكل لا نهائي في هذا المنظر الطبيعي هو رؤية الإنسان وهو يعمل في مستقيمات قائمة الزوايا ، صغيرة ، في أشكال قمرية خضراء بين الصخور . على ارتفاع هائل في قمم الأسوار الشاقولية ، حيث يوجد منحني يحتفظ بقليل من التركة الصالحة للزراعة ، ثمة هناك رجل صيني يزرع ويغرس . إن الأرض الأم الصينية هي واسعة وفسيحة . لكنها قاسية وصعبة . لقد ربت الإنسان وأعطته شكلاً وحولته إلى آلة عمل ، لا تتعب ، آلة ذكية وغنيذة . إن هذا التركيب المؤلف من أرض فسيحة ومن جهد إنساني خارق ومن إلغاء متدرج لكل أنواع الظلم والقهر ، سيجعل الصين الجميلة المديدة العميقة الإنسانية تزدهر وتتقدم .

لقد بدا لي (خورخه أمادو) خلال عبور نهر «يانغ تسه» كله أنه كان عصبياً كثيراً . كانت تزعجه جوانب من الحياة لا حصر لها في الباخرة ، وكذلك كانت تزعج (ثيليا) زوجته . لكن (ثيليا) لها طبع هادئ يسمح لها أن تمر بالنار دون أن تحترق . واحد من هذه الأسباب التي كانت تزعجه هو أننا أصبحنا على غير إرادتنا ذوي امتياز وتمييز في هذا المركب . لقد كنا نشعر في غرفنا الخاصة ومطعمنا الخاص بنا شعوراً سيئاً وسط مئات الصينيين الذين كانوا يتكلمون في جهات المركب كله . كان الروائي ينظر إليّ بعينين ساخرتين ولا يترك فرصة إلا وعلق عليها بتعليقاته اللطيفة القاسية .

الحقيقة هي أن كشف الحقائق المتعلقة بالفترة الستالينية قد عطل أحد النواضح في أعماق (خورخه امدو) . نحن صديقان قديمان ، تقاسمنا أعوام المنفى معاً ، دوماً كنا نمتزج في قناعة وأمل مشتركين . لكنني أعتقد أنني كنت متمذّباً بأقل مقدار من تشيعة ومذهبه فلقد كانت طبيعتي الخاصة نفسها وطبعي ذاته يجعلاني أكثر ميلاً للتفاهم مع الآخرين ، فيما (خورخه) كان على العكس من ذلك صارماً دائماً . لقد قضى معلمه (لويس كارلوس بريستيس) خمس عشرة سنة من حياته ، سجيناً . إنها لأشياء لا يمكن أن تنسى ، بل تجعل الروح صلبة صلدة . أنا كنت أبرر أمام نفسي تشييع (خورخه) دون أن أشاطره هذا التعصب والتحزب .

إن تقرير المؤتمر العشرين كان اضطراب أمواج دفعنا نحن الثوريين كلنا ، نحو مواقع جديدة ونتائج حديثة ، بعضنا شعر وكأنه يولد من جديد إثر تلك الكأبة الناجمة عن كشف الحقائق القاسية ، يولد من جديد نظيفاً من الدياتجير والرعب ، مستعداً لمواصلة الدرب والحقيقة تسطع في يده .

(خورخه) ، على العكس ، يبدو أنه بدأ ، هناك على حافة تلك الباخرة ، بين الفجاج الهائلة لنهر «يونغ تسه» ، مرحلة مختلفة في حياته . منذ ذلك الحين صار أكثر هدوءاً ، غداً أكثر اعتدالاً في أفعاله وفي أقواله . أنا لا أعتقد أنه فقد إيمانه الثوري بل إنه غرق أكثر من قبل في مؤلفاته ، ونزع عنه الطابع السياسي المباشر الذي كانت تتميز به بشكل مفرط طاع . كما لو أنه أطلق الأبيقورية التي فيه فاندفع يكتب أحسن كتبه مبتدئاً برواية «غابرييل» ، مسمار وقرنفلة» ، وهي رواية أنموذجية ، تفيض بالحسية والبهجة ، بالشهوانية والفرح .

لقد كان الشاعر (أي تشينغ) هو رئيس الوفد المرافق الذي كان يقودنا ويدلنا . كل ليلة كنا نتعشى : (خورخه امدو) و(ثيليا) و(ماتيلده) و(أي تشينغ) وأنا ، في غرفة منفصلة . كانت المائدة تتغطى بيقول خضراء ومذهبة ، بأسماء حامضة - حلوة ، بأوز ، بديكة ، بفراريج مطبوخة بطريقة غريبة ، دائماً لذيدة . بعد عدة أيام أصبحت تلك الأكلة الرائعة تغص في حلوقنا ولو أنها كانت من قبل تسري فيها بسرعة وكانت تطيب لنا . وجدنا فرصة كي نتحرر ولو لمرة واحدة من تلك الأطعمة الطيبة اللذيذة لكن مبادرتنا وجدت طريقاً صعبة ، راحت تتلوى هذه الطريق أكثر فأكثر مثل غصن من تلك الأشجار المضايقة المعذبة .

حصل أن عيد ميلادي كان يصادف وقوعه في تلك الأيام . (ماتيلده) و(ثيليا)

وضعنا مخططاً كي يكرماني بأكلة غريبة تغير من رتابة طعامنا ، كان الأمر هو القيام بتكريم متواضع : إعداد فروج مشوي على طريقتنا مع سلطة من طماطم ويصل على الطريقة التشيلية . المرأتان صنعنا من هذه المفاجأة سراً كبيراً . توجهتا بكل ثقة إلى أختينا الطيب الشاعر (أي تشينغ) ، فأجابهما الشاعر وهو قلق قليلاً ، إنه لا بد له من الاجتماع بالأعضاء الآخرين في اللجنة للتداول حول هذا الأمر .

كان الجواب مفاجئاً ، إن البلاد كلها تمر في موجة من التقشف ، و(ماو تسي تونغ) تخلى عن احتفاله بعيد ميلاده حتى يساهم مع شعبه في التقشف والتوفير ، فكيف يمكن أن يحتفل بعيد ميلادي تجاه هذه الإجراءات الصارمة من التقشف؟ (ثيليا) و(ماتيلده) ردتا على هذه الحجة بأن الأمر هو مناقض كلياً ، فنحن نريد أن نستبدل فروجاً واحداً مشوياً على الفرن ولكن بأسلوب تشيلي ، بكل ما في هذه المائدة من أكل لذيق متنوع (كان على المائدة فراريج وأسماك وديكة لم تلمس بعد) . أجاب (أي تشينغ) بعد اجتماعه إلى اللجنة غير المرئية التي كانت تقود التقشف ، في اليوم التالي ، بأنه ليس ثمة من فرن على ظهر الباخرة التي كنا نبحر بها . (ثيليا) و(ماتيلده) اللتان كانتا قد تكلمتا مع الطاهي ، أجابتا (أي تشينغ) بأنهم مخطئون وإن فرناً رائعاً كان يسخن في انتظار فروجنا المحتمل . أغمض (أي تشينغ) عينيه بين وبين أوضاع نظرتة في تيار نهر «يانغ تسه» .

كان لنا في يوم ١٢ تموز ، تاريخ عيد ميلادي ، على المائدة فروجنا المشوي ، جائزة ذهبية من ذلك النزاع والمداولة . زوج من الطماطم مع بصل حار حاد كانت تلتمع في صينيتنا الصغيرة . وهناك من على بعد كانت تمتد المائدة الكبيرة المزخرفة مثل بقية الأيام بأطباق براقه وقصعات لماعة مليئة بأكل صيني طيب .

أنا كنت قد مررت عام ١٩٢٨ بـ«هونغ كونغ» وبـ«شانغهاي» . تلك كانت صينياً مستعمرة بشكل حديدي ، فردوساً للمقمارين ولمدخني الأفيون ، للمتددين على المواخير وبيوت الدعارة ، للصوص الليل للدوقات الروسيات المزيفات ، لقراصنة البحار والأراضي . مقابل المؤسسات المصرفية الكبيرة في تلك المدن الكبيرة كان ثمة ثماني أو تسع مدرعات رمادية تكشف عن عدم الطمأنينة والخوف ، عن اغتصاب الاستعمار وتعبه ، عن احتضار عالم بدأ يفوح برائحة الموت . رايات بلدان كثيرة ، تمثل قناصل لؤماء ، كانت تتلألأ فوق بواخر قرصنة تابعة لجناة مجرمين ، صينيين أو ملايويين . كانت المواخير تابعة لشركات عالمية . أنا قد رويت في مكان آخر من هذه المذكرات

كيف أغار عليّ اللصوص ذات ليلة وتركوني بلا ثياب ، بلا نقود ، بلا وثائق شخصية ، مهجوراً في أحد الشوارع الصينية .

لقد عادت هذه الذكريات إلى رأسي حين وصلت إلى الصين الثورة . هذه الصين أصبحت بلداً جديداً ، مدهشاً في نظافته الأخلاقية . إن العيوب ، والمشاكل الصغيرة والاختلافات الضئيلة وكثيراً مما أحكيه الآن عن صين الثورة ، ما هي إلا ظروف عابرة ليست بذات أهمية . إن انطباعي العام السائد هو أنني لاحظت أن ثمة تغييراً ظاهراً وتحويلاً جذرياً في الأرض الفسيحة ذات أقدم ثقافة في العالم . ففي كل جهة كان يشرع بتجارب لا حصر لها وباختبارات مهمة . كان النظام الإقطاعي قد دحر تماماً والزراعة بدأت في نهج ومنهج جديدين . كان الجو النفسي المعنوي شفافاً كما بعد مرور زوبعة عاصفة .

إن ما أقصاني عن سنين التطور الصيني لم يكن (ماو تسي تونغ) بل الماوسوتونغية أي الماوستالينية ، تكرار عبادة زعيم اشتراكي . من يستطيع أن ينفي عن (ماو) كونه شخصية سياسية ومنظماً عظيماً ومحرراً كبيراً لشعبه؟ كيف أقدر أنا أن أفلت من سحر هالته الملحمية ، من بساطته الشعرية ، من تواضعه الكئيب ، من أصالته العريقة؟

لكن ، خلال زيارتي ، رأيت كيف أن المثات من الفلاحين الفقراء العائدين من أعمالهم كانوا يخشعون قبل أن يدعوا عدتهم ، وهم يحيون صورة بطل «يونان» Yunan المحارب المتواضع الذي تحول الآن إلى إله . أنا رأيت كيف ان المثات من المخلوقات كانوا يهزون في أيديهم الكتاب الأحمر ، إكسيراً عالمياً للفلوز في «البيونغ-يونغ» ، لشفاء التهاب الزائدة الدودية ، لحل المشاكل السياسية . لقد كان التملق يطفو على كل فم وفي كل يوم ، يتدفق من كل صحيفة ومن كل مجلة ، من كل دفتر ومن كل كتاب ، من كل تقويم ومن كل مسرح ، من كل تمثال ومن كل رسم .

كنت قد ساهمت بمقداري في عبادتي الشخصية ، في حالة (ستالين) . لكن في تلك الأوقات كان (ستالين) يبدو لنا على أنه المنتصر القاهر لجيوش (هتلر) ، على أنه المنقذ للإنسانية العالمية . لقد كان انتكاس شخصيته مجرى مبهماً ، ما زال حتى الآن لغزاً بالنسبة للكثيرين منا .

والآن هنا ، في وضوح النور ، في المدى الأرضي والسماوي الرحب للصين الجديدة ، يراد من جديد أمام ناظري ، أن تستبدل أسطورة تحتكر الضمير الشوري ،

تقتصر على قبضة يد واحدة خلق عالم سيكون للجميع . لم يكن سهلاً بالنسبة لي أن أبتلع للمرة الثانية هذا القرص .

في «تشونغ كينغ» أخذني أصدقائي الصينيون إلى جسر المدينة . لقد عشت الجسور طيلة حياتي كلها . لقد أوحى لي والدي ، وهو عامل في السكك الحديدية ، أن أكن لها احتراماً كبيراً . لم يكن يدعوها أبداً بالجسور . كان هذا النعت سيدنسها وينتهك حرمتها . بل كان يدعوها بالأعمال الفنية ، نعتاً ما كان ليطلقه على الرسوم واللوحات وأعمال النحت بله على قصائدي ، طبعاً . كان هذا النعت مقتصراً على الجسور فقط . لقد أخذني معه عدة مرات كي نشاهد جسر «ماييكو» الرائع ، بجنوب تشيلي . حتى الآن كنت أظن أنه أجمل جسر في العالم ، وهو ممتدد بين سندس الجبال وخضرتها الجنوبية ، عالياً ، نحيلاً ، نقياً مثل كمان من فولاذ بأوتاره المشدودة المهيأة لعزف الرياح عليها ، رياح «كوييبوي» Collipulli . إن الجسر الهائل الذي يعبر نهر «يانغ تسه» هو شيء آخر . إنه أعظم عمل قامت به الهندسة الصينية بمشاركة المهندسين السوفييت . وهو ، بالإضافة إلى هذا ، نهاية صراع دام قرونًا . لقد كانت مدينة «تشونغ كينغ» يفصلها هذا النهر إلى قسمين منذ قرون وكان عدم الاتصال هذا بين شقيها يعني تأخرًا وبطئًا وعزلة .

إن حماسة أصدقائي الصينيين الذين كانوا يرونني الجسر هي أكثر مما كانت تستطيع أن تتحملة ساقاي وقدماي . كان هؤلاء الأصدقاء يجعلونني أصعد أبراجاً ، أهبط مهاوي كي أرى المياه التي تنساب هناك منذ آلاف السنين والتي تقطعها اليوم هذه القضبان الحديدية المؤلفة من كيلومترات عديدة ، عبر هذه السكك الحديدية ستمر القطارات ، هذه الأرصفة ستكون لسائقي الدراجات ، هذا النهج الهائل سيكون مخصصاً للمشاة . أحس باختناق من هذه العظمة الكثيرة .

ياخذنا (أي تشينغ) ، ليلاً ، إلى الأكل في مطعم قديم ، مأوى أكثر الأطعمة تقليدية . مطر من أزهار الكرز ، قوس قزح من سلطة خيزران ، بيض له من العمر مائة سنة ، شفاه فتية شابة من أسماك قرشية . إن هذه الأطعمة الصينية هي مستحيلة أن توصف في تعقيدها وتنوعها الغريب ، في اختراعها الشاذ ، في قوالها غير المعقولة . زدونا (أي تشينغ) بمعارف عنها ، وقال إن القواعد العليا الثلاث التي يجب أن تتوفر في أية أكلة جيدة هي : أولاً ، الطعم ، ثانياً : الرائحة ، ثالثاً : اللون ، هذه الجوانب الثلاثة يجب أن تحترم دائماً وأن يصر عليها دوماً ، الطعم يجب أن يكون لذيقاً ،

الرائحة يجب أن تكون ممتعة ، اللون يجب أن يكون منعشاً ومتناغمًا ومتسقاً . «في هذا المطعم حيث سنأكل -قال (أي تشينغ) ستوفر ميزة أخرى : النغم» . يضاف إلى الطبق<sup>(١)</sup> المصنوع من الخنزف الصيني المحاط بـ«المنجار» ، في آخر لحظة ، شلال صغير من طوابير «الجمبري» التي تصب في صفيحة معدنية تسخن على الجمر واللهب كي ينتج لحن ناي ، مقطع موسيقي يكرر دائماً ويعاد .

في بكين استقبلنا (تين لينغ) التي كانت تترأس لجنة الكتاب التي خصصت كي ترافقنا أثناء زيارتنا للصين . كذلك كان موجوداً أثناء هذا الاستقبال صديقنا القديم الشاعر (امي سياو) وزوجته الألمانية المصورة . كل شيء كان لطيفاً وضاحكاً ومبتسماً . تنزهنا في زورق بين عرائس البحرية الاصطناعية الهائلة التي بنيت لتسلية آخر امبراطورة . زرنا مصانع ، دور نشر ، متاحف ، معابد . أكلنا في أصغر مطعم في العالم (صغير جداً إلى درجة أنه لا يحتوي إلا على مائدة واحدة) تتردد إليه سلالة الأسرة الامبراطورية . كنا نحن الأمريكيين الجنوبيين الأربعة نجتمع في مقر الكتاب الصينيين كي نشرب وندخن ونضحك كما لو كنا في أي جزء من قارتنا الأمريكية . أنا كنت كل يوم أعطي الجريدة إلى مترجمنا الشاب المسمى (لي Li) وكنت أشير بإصبعي إلى عواميد الصحيفة المكتوبة بحروف صينية وأقول له :

- ترجم لي .

كان يشرع بعمله في لغة إسبانية تعلمها حديثاً ، ويقرأ لي المقال الافتتاحي عن الزراعة ، الآثار السياحية (ماو تسي تونغ) ، الأبحاث الماوماركسية ، الأخبار العسكرية التي كانت تبعث في نفسي الملل ما إن يبدأ بترجمتها .

- Stop - كنت أقول له . اقرأ لي من هذا العمود فهو أفضل .

هكذا فوجئت ذات يوم حين عثرت على دمل في المكان حيث وضعت إصبعي . كانت الصحيفة تتحدث عن دعوى سياسية يتهم فيها أصدقائي الذين كنت أراهم كل يوم ، والذين كانوا يشكلون قسماً من الوفد المرافق لنا . مع أن القضية تبدو أنها مشاركة منذ وقت طويل فهم أبدأ ما كانوا قالوا لنا أية كلمة حول هذا الشأن

---

(١) الطبق Fuente : ومن معاني هذه الكلمة باللغة الإسبانية كذلك ، النبع ، نشير لهذا لأن (نيرودا)

يستغل المعنى الثاني للحديث عن الطبق .



ولا تفوهوا مطلقاً بأنهم تحت الاستجواب والاستنطاق ، وأن خطراً يهددهم وأن تهديداً ينخر في مصائرهم .

لقد تغيرت الفترة ، والزهور انغلقت . حين هذه الزهور انفتحت بأمر من (ماو تسي تونغ) ، ظهرت قصاصات من ورق -في المصانع والمراتب ، في الجامعات والمكاتب ، في المزارع والحقول- كانت تعلن عن ظلم وتشكو من جرم وتفضح أفعالاً يرتكبها الرؤساء البيروقراطيون .

هكذا كما من قبل كانت قد توقفت بأمر سام الحرب ضد الذباب وضد العصافير الدورية ، حين تبين أن تصفيتها سيجلب نتائج غير متوقعة ، كذلك الآن انتهت بشكل حازم مرحلة تفتح البراعم . لقد وصل من أعلى أمر . اكتشاف اليمينيين . وفي الحال بدأ الصينيون في كل منظمة ، في كل معمل ، في كل منزل ، الاعتراف الذاتي عن نزعة يمينية أو جعل الآخرين يعترفون بهذه النزعة اليمينية كي يُقضى عليها نهائياً .

صديقتي الروائية (تينغ لينغ) اتهمت بأنها أقامت علاقات غرامية مع جندي من أتباع (تشاينغ كاي تشيك)<sup>(١)</sup> . لقد كانت هذه التهمة حقيقة ، ولكن حدثت هذه العلاقات قبل الحركة الثورية العظيمة . وفي سبيل الثورة هي رفضت عشيقها ذاك ، ومن «يينان» Yenan<sup>(٢)</sup> حملت وليدها ومضت لتشارك في المسيرة الكبرى في تلك السنوات البطولية . ولكن هذا لم يُقِيم لها بشيء ، فقد طردت من منصبها كرئيسة لاتحاد الكتاب وحكم عليها أن تقدم الطعام أجيرة في مطعم اتحاد الكتاب نفسه الذي كانت قد ترأسته خلال عدة سنين . لكنها كانت تؤدي عملها في هذا المطعم في أنفة وكرامة ثم أرسلت من بعد للعمل في مطبخ مشاعة فلاحية في مكان ناء . كان هذا آخر ما عرفته عن هذه الكاتبة الشيوعية الكبيرة التي كانت الشخصية الأولى في الأدب الصيني .

لست أدري ماذا حل بـ(أمي سياور) ، أما بالنسبة لـ(أي تشينغ) الشاعر الذي كان يرافقنا في كل ناحية وركن ، فإن مصيره كان حزيناً جداً ، فقد أرسلوه في أول

---

(١) تشاينغ كاي تشيك : هو ديكاتور فورموزا المعروف ، ولد عام ١٨٨٦ .

(٢) يينان : لسنا ندري إن كانت هذه المدينة هي نفسها التي كان الشاعر (نيرودا) قد أشار إليها من قبل ولكنه كتبها هكذا : Yunan ، وقد يكون الأمر خطأ مطبعياً .

الأمر إلى صحراء «غوبي» ثم سمح له بالكتابة على ألا يوقع ما يكتبه باسمه الحقيقي الشهير داخل وخارج الصين ، وهكذا حكم عليه بالانتحار الأدبي .  
كان (جورج أمادو) قد انطلق نحو البرازيل ، من قبل ، أما أنا فإني سأرحل في وقت لاحق وفي فمي طعم من المرارة ما زلت أشعر به حتى الآن .

### قُرود «سوخومي»:

لقد عدت إلى الاتحاد السوفييتي فدعوني هناك إلى رحلة نحو الجنوب . حين هبطت من الطائرة بعد أن عبرت أراضي شاسعة ، كنت قد خلفت ورائي السهوب والقفار ، الهضاب والتلال ، الطرق والمعابر ، القرى السوفييتية والمدن العظيمة . لقد وصلت إلى الجبال القوقازية المهيبة العامرة بأشجار التنوب والحيوانات الغاية . لقد تزين البحر الأسود ببدة زرقاء كي يستقبلنا ويجثو تحت أقدامنا ، كان عقب عنيف من البرتقال المزهر يأتي إلينا من كل جهة .

نحن الآن في «سوخومي» ، عاصمة «أفغاسيا» Afgasia ، وهي جمهورية سوفييتية صغيرة ، هذه هي «لا كولشيدا» Colchida الأسطورية . إنها منطقة الجلود الذهبية التي جاء إليها (خاسون)<sup>(١)</sup> ستة قرون قبل ولادة المسيح ليسرق ويسلب : إنها وطن «القلقاس» Los dioseuros الإغريقيين . في وقت لاحق سأرى في المتحف نقشاً من مرمر هليني استخراج حديثاً من البحر الأسود . على ضفاف هذا البحر احتفلت الآلهة اليونان بأسرارهم وألغازهم . اليوم قد استبدل بالسر واللغز الحياة البسيطة العاملة ، حياة الشعب السوفييتي . ليسوا هم بأناس «لينينغراد» . إن لهذه الأرض الشمسية ، القمحية ، العنبية ، لحناً آخر ، لها نبرة صوت من البحر الأبيض المتوسط . هؤلاء الرجال لهم طريقة أخرى في المشي والسير ، إن لهاته النساء عيوناً وأيدي من إيطاليا أو من اليونان .

أعيش بضعة أيام في بيت الروائي (سيمونوف) في بستان داره بأشجاره الجميلة . أعرفها وأذكرها ، فكلما ذكر لي اسم شجرة كنت أجيبه كما فلاح متعصب لأرضه :  
- من هذه ، يوجد في تشيلي ، من هذه الأخرى ثمة في وطننا الكثير ، وكذلك من تلك الأخرى . فينظر إليّ (سيمونوف) في ابتسامة مستهزئة ، فأقول له :

(٢) خاسون : بطل من أبطال الأساطير اليونانية .

- إنه ليحزنني جداً أنك لن تستطيع أن ترى العريشة في داري بـ«سانتياغو» ولا أشجار الحور المذهبة بالخريف التشيلي ، فليس هناك من ذهب مثل ذهبه . لو ترى في طريق «ميليبيا» كيف يضع الفلاحون عرائس الذرة الذهبية فوق أسطح المنازل . لو ترى أشجار الكرز المزهرة في فصل الربيع . لو تنسم شذى «البولدو»<sup>(١)</sup> . لو تغرق رجلك وساقيك في مياه «ايسلا نيغرا» النقية الباردة . لكن الأقطار والبلدان ، يا عزيزي (سيمونوف) ، ترفع حواجز في ما بينها ، تلعب لعبة الأعداء في ما بينها ، تتقاذف النيران في حروب باردة فتصبح نحن معشر البشر منعزلين متباعدين . نقرب من السماء بصواريخ سريعة ولا نقرب أيدنا من أيدنا في أخوة إنسانية .

- ربما تتغير الأشياء - يقول لي (سيمونوف) مبتسماً ويقذف بحصوة بيضاء إلى الآلهة الغرقى في البحر الأسود .

إن مفخرة «سوموخي» هي في مجموعتها من القرود . لقد ربّيت هناك معهد طب تجريبي ، مستغلاً الطقس تحت الاستوائي ، أصناف القرود الموجودة في العالم جميعها . فلندخل . سنرى في أقفاص واسعة قروداً متحركة كهربائية وقروداً ساكنة استاتيكية ، بعضها كبير وبعضها صغير ، بعضها أجرد وبعضها أشعر ، بعضها ذو عيين انعكاسيتين وبعضها ذو عيين مثيرتين للشر ، أيضاً بعضها مطرق مسكين وبعضها طاغ مستبد . بعضها رمادي اللون وبعضها أبيض ، بعضها ذو إست ولية بثلاثة ألوان ، وبعضها كبير السن متقشف ، وبعضها متعدد الزوجات أناني الطبع لا يسمح لزوجته أن تتغذى دون إذنه ، لا يمنحها هذا الإذن إلا بعد أن يبتلع في وقار وسكينة أكله الخاص به .

إن أكثر المحابر تقدماً في علم الأحياء هو في هذا المعهد ، وإن أفضل البحوث تجري في هذا المعهد تُدرس بأجهزة القرود الجهاز العصبي ، الوراثة ، ويقام ببحوث دقيقة حول سر الحياة وإمكانية إطالة الأعمار .

تلفت نظرنا قرودة صغيرة لها طفلان . واحد منهما يتبعها باستمرار والآخر تحمله بذراعيها في حنان إنساني . يحكي لنا المدير أن القرد الصغير الذي ترضعه كثيراً ليس بابنها وإنما هو لقيط تبنته . كانت هي على وشك أن نفست بوليدها حين ماتت قرودة أخرى بعد أن خلّفت قروداً ، فتبنت هذه القرودة الأم لتوها اليتيم ، منذ ذلك الحين

(١) البولدو : نوع من الشجر ، ذو أوراق خضراء وزهور دائمة لها عطر فوّاح .

انصرفت بحنانها الأمومي وعطفها الأنثوي نحو هذا الابن المتبنى أكثر مما انصرفت نحو ابنها الحقيقي . فكّر العلماء أن هذا الميل الأمومي الشديد سيجعلها تتبنى أبناء آخرين لقطاع لا يمتون إليها بصلة لكنها رفضتهم جميعاً واحداً إثر الآخر ، لأن سلوكها لم يكن يخضع ببساطة إلى قوة حيوية بل إلى ضمير قد شعر حين ماتت رفيقتها بتضامن أمومي .

## «أرمينيا»

الآن نظير نحو أرض مجد أسطورية . نحن في «أرمينيا» . هناك ، نحو الجنوب ، تتراأس تاريخ «أرمينيا» القمة الثلجية لجبال «أارات» حيث رست سفينة نوح حسب ما جاء في الكتاب المقدس ، كي يعاد تعمير الأرض . لقد كان عملاً صعباً لأن «أرمينيا» هي أرض وعرة وبركانية . لقد زرع الأرمن هذه الأرض في تضحية لا يمكن وصفها ورفعوا حضارتها على أعلى قمة في العهود القديمة . لقد أعطى المجتمع الاشتراكي إلى هذه الأمة النبيلة المعذبة تطوراً وازدهاراً فائقين . فلقد ذبح الغزاة الأتراك على مدى قرون عديدة الأرمن واستعبدهم . كل حجر في الهضاب ، كل بلاطة في المنازل ، صبغ وصبغت بالدم الأرمني . لقد كان البعث الاشتراكي لهذا البلد أعجوبة ، ورداً عظيماً على أقوال المتخربين حول إمبريالية سوفيتية . لقد زرت في «أرمينيا» معامل نسيج تشغل ٥,٠٠٠ عامل ، مشاريع هائلة في الري وتوليد الطاقة ، مصانع أخرى كثيرة وقديرة . لقد تجولت من طرف إلى آخر في المدن في الأرياف في المراعي فلم أر إلا أرمناً ، رجالاً ونساءً ، أرمناً . وجدت روسياً واحداً ، كان مهندساً ، فريداً في عينيه الزرقاوين بين آلاف العيون السود لأولئك المواطنين السمر . كان ذاك الروسي يدير مركزاً كهربائياً في بحيرة «سيفان» . إن سطح البحيرة هو كبير جداً ومياها تنسرب من مجرى واحد للنهر ، فالمياه القيّمة تتبخّر دون أن تستطيع أرمينيا العطشى أن تستفيد من هبات هذه المياه . فلكي تُقهر عملية التبخير هذه ويكسب منها الوقت قبل أن تقلل من حجم المياه ، فلقد وسّع مجرى النهر وبهذا تتدفق المياه ويقل حجم البحيرة شبه الراكدة ، وفي الوقت نفسه ستخلق بمياه النهر الجديدة ثمانية مراكز كهربائية ، صناعات جديدة ، مرائب للألومينيوم ، طاقة كهربائية للإضاءة ، ما يكفي من المياه لإرواء الأرض كلها في هذا البلد . أبدأ لن أنسى زيارتي لذلك المصنع الكهربائي المظلل على البحيرة التي تنعكس في مياها

النقية جداً زرقة سماء «أرمينيا» التي لا تنسى . حين سألني الصحفيون عن انطباعاتي حول كنائس «أرمينيا» وأديرتها القديمة ، أجبتهم مبالغاً :  
- إن أكثر كنيسة أعجبتني هي المركز الكهرمائي ، ذاك المعبد المطل على البحيرة .

لقد شاهدت في «أرمينيا» أشياء كثيرة . أعتقد أن مدينة «إيريفان» Erevan هي من أجمل مدن العالم ، إنها لمبينة من جير بركاني ، وهي متناسقة كأنها الورد الموردة . إن زيارتي للمركز الفلكي بـ«بيناكان» هي زيارة لا تنسى ، هناك رأيت لأول مرة كتابه النجوم . كانت أجهزة دقيقة جداً تلتقط إشعاعات الكواكب المرتعشة وتروح تكتب خفق النجم في الفضاء كأنه برقية كهربائية تأتي من السماء . لقد لاحظت في تلك الخطوط البيانية أن لكل نجم نوعاً من الخط والحرف مختلفاً ، ساحراً ومرتبجلاً ، مع أنه غير مفهوم بالنسبة لعيني : عيني شاعر أرضي .

توجهت مباشرة ، في حديقة الحيوانات بـ«إيريفان» نحو قفص «الكندور» ، لكن ابن بلدي لم يعرفني . كان هناك في ركن قفصه ، أصلع ، بهاتين العينين غير المباليتين ، عيني «كاندور» بلا آمال ولا رغبات ، عيني عصفور كبير يحن إلى سلسلة جبالنا . نظرت إليه في حزن لأنني سوف أعود أنا إلى وطني وسيبقى هو سجيناً في هذا القفص .

إن مغامرتي مع «الـ تابير» El Tapir كانت مختلفة . كان التابير يملك حديقة الحيوانات في «إيريفان» - قليلة هي حدائق الحيوانات التي لها مثل هذا الحيوان - إن «التابير» من «الأمازون» وهو حيوان بجسد ثور ووجه عظيم الأنف وعينين صغيرتين . يجب الاعتراف في أن «التابير» يشبهني كثيراً ، إن هذا ليس بسر .

كان «تابير» مدينة «إيريفان» يغفو في حظيرته قرب البحيرة الصغيرة . حين رأيته رشقني بنظرة ذكاء لعلنا كنا قد تلاقينا ذات يوم في البرازيل فذكرني . سألني المدير إن كنت أرغب في أن أراه وهو يسبح فأجبتته بأنني كنت أرحل عبر العالم وليس لي من قصد إلا أن أرى «تابير» يسبح . ففتحوا له بوبيا فخرج منه وهو ينظر إليّ بسعادة وغبطة وانقذف إلى الماء ساخراً كالحصان البحري ، مثل خيلان<sup>(1)</sup> أشقر . كان يعلو رافعاً جسده كله من الماء ثم يغطس مسبباً موجاً عاصفياً . كان ينهض نشوان من الفرح ، كان

(1) خيلان : حيوان خرافي نصفه رجل ونصفه سمك ، وهو النسناس البحري .

يرنخر ويشخر ومن بعد يواصل في سرعة كبيرة أعباه البهلوانية غير المعقولة .  
 - أبداً ما رأيناه فرحاً جزلاً كما هو عليه الآن - قال لي مدير حديقة الحيوانات .  
 في الظهر ، عند الغداء الذي قدمته لي جمعية الكتاب ، رويت لهم في خطابي  
 لإسداء الشكر على حفاوتهم بي مآثر الـ«تابير» الأمازوني وحدثتهم عن هوسي  
 بالحيوانات وإني لا أدع زيارة أية حديقة من حدائق الحيوانات .  
 في الخطاب الجوابي ، رئيس الكتاب الأرمن قال :  
 - لم يكن (نيرودا) بحاجة كي يذهب لزيارة حديقة الحيوانات في بلدنا ، فلقد  
 كان يكفيه المجيء إلى جمعية الكتاب كي يجد الأصناف والأنواع كلها هنا  
 مجتمعة ، فنحن هنا لدينا أسود ، نمور ، ثعالب ، عجول بحرية وكذلك نسور ، أفاع ،  
 جمال ، بَيْغاوات .

### النبيذ والحرب:

لقد توقفت في موسكو بطريق عودتي . إن هذه المدينة ليست هي العاصمة  
 العظيمة للاشتراكية فحسب ، ليست هي مقر الأحلام المتحققة فقط ، بل هي  
 بالنسبة لي كذلك منزل أكثر أصدقائي محبة إلى نفسي . إن موسكو لهي ، بالنسبة  
 لي ، مهرجان واحتفال . ما إن أصل إليها ، عادة ، حتى أخرج وحيداً عبر الشوارع ،  
 فرحاً بالتنفس فيها ، مصفراً لحن «كويكا»<sup>(١)</sup> . أنظر إلى وجوه الروس ، إلى عيون  
 الروسيات وخصلات شعرهن ، إلى الثلجات التي تباع في زوايا الطرقات ، إلى الزهور  
 الورقية الشعبية ، إلى واجهات المحلات بحثاً عن أشياء جديدة ، عن أشياء صغيرة  
 تجعل الحياة كبيرة .

ذات مرة ذهبت ، كعادتي ، لأزور (ايهرينبورغ) . فأراني هذا الصديق الطيب أول  
 ما أراني زجاجة «ماء الحياة»<sup>(٢)</sup> نرويجية Aequavite على سطح هذه الزجاجاة  
 رسمت سفينة شراعية كبيرة في مكان آخر كتب تاريخ انطلاق الباخرة وتاريخ  
 عودتها . انطلقت معها كذلك هذه الزجاجاة حتى «أستراليا» ثم عادت معها إلى  
 موطنها «إسكاندينافيا» .

(١) كويكا : يقال له كذلك «ثامايكا» ، وهو نوع من الرقص التشيلي .

(٢) ماء الحياة : هو نوع من الخمر يشبه العرق .

جعلنا نتحدث عن النبيذ . تذكرت تلك الفترة من شبابي حين كان نبيذنا الذي ورثناه أباً عن جد ، يسافر إلى الخارج ، بناء على دعوة لكونه ممتازاً فاخراً . لقد كان النبيذ إذًاك غالباً جداً بالنسبة لنا نحن الذين كنا نستعمل ملابس السكك الحديدية ، وكنا نعيش حياة بوهيمية عاصفة .

لقد كنت أهتم دائماً في كل بلد أحل به ، بسنن النبيذ ومسالكه ، منذ أن يولد من «أرجل الشعب» إلى أن يتدورق في بلور أخضر أو زجاج ذي وجوه . لقد طاب لي في «جليقيا» تناول نبيذ «ريبيرو»<sup>(١)</sup> الذي يشرب في طاسات ويدع على الفخار علامات دموية كثيفة متخثرة . إنني لأذكر أنني شربت في «هنغاريا» نبيذاً مكثفاً معتقاً يدعى «دم الثور» ، حين ينطح يجعل أوتار العنجر ترتعد وترتجف الحاناً وأنغاماً .

لقد كان لأجدادي كروم عنب . إن قرية «برال»<sup>(٢)</sup> ، حيث ولدت ، هي مهد سلافة حريفة . لقد تعلمت من أبي ومن أعمامي : (دون<sup>(٣)</sup> خوسه انخيل) و(دون خويل) ، و(دون اوسياس) ، و(دون أموس) ، أن أميز النبيذ المعتق من المصفى . لقد كلفني جهداً أن أجعلهم يميلون نحو النبيذ غير المكرر الذي يرشح في الزق وينصب من قلب أصيل سخي غير محصن . كما في الأشياء جميعها كلفني جهداً أن أعود إلى ما هو بدائي ، إلى منبع القوة والنشاط ، بعد أن تمرست على مجاوزة حاسة الذوق ، بعد أن تذوقت الطعم الشكلي التقليدي . إن الشيء نفسه يجري للفن : إن المرء يستيقظ على «افروديت» لـ(براكسطليس Praxiteles) ويظل يحيا مع تماثيل «أوثيانيا» البرية الهمجية .

لقد تذوقت بباريس في بيت رفيع نبيذاً رفيعاً . كان النبيذ «موتون-روتشيلد» Mouton-Rothschild ذا جسد معصوم ، ذا شذى لا يمكن التعبير عن روعته ، ذا تماس كامل . البيت كان بيت (أراغون) و(إيلسا تريولي) . لقد تلقيت هذه الزجاجات لتوي وسأفتحها لك الآن - قال لي (أراغون) . وروى لي الحكاية .

---

(١) ريبيرو: هي كلمة من اللغة الجليقية تطلق على هذا النوع من النبيذ الشائع جداً في «جليقيا» وهي منطقة تقع في الشمال الغربي من إسبانيا .

(٢) برال : معناها عريشة أو دالية ، وقد كنا ذكرنا ذلك .

(٣) دون : إن هذه الكلمة تعني السيد باللغة الإسبانية .

كانت الجيوش الألمانية تتقدم داخل الأراضي الفرنسية . وصل (لويس أراغون) وهو الشاعر الضابط وأكثر جنود فرنسا ذكاء ، إلى موقع متقدم . كان هو أمر فصيل من المرضين . فأعطاهم الأمر بالتقدم إلى ما هو أبعد من هذا الموقع المتقدم ، إلى بناء يقع على بعد ثلاثمائة متر منه . فأوقفه رائد ذلك الموقع الفرنسي . وكان هذا الرائد هو (الكنت الفونس دي روتشيلد) ، أصغر من (أراغون) وهو ذو دماء حارة مثل دماء (أراغون) .

- إنك لن تستطيع أن تمر من هنا - قال له - فالنيران الألمانية ستطلق حالاً .  
- إن أوامري هي أن يتقدم فصيلي حتى ذلك البناء - رد (أراغون) في حزم وجزم .

- إن أوامري هي أن لا تتقدم وأن تظل هنا - أجاب الرائد .  
إني متأكد ، لأني أعرف (أراغون) جيداً ، إنه في ذلك النقاش خرجت منه شرارة إثر شرارة كما القنابل ، إجابة كأنها السيوف . لكن هذا النزاع لم يدم أكثر من عشر دقائق إذا سقطت ، على حين غرة ، أمام عينيّ (روتشيلد) المفتوحين وأمام ناظر (أراغون) كذلك ، قبلة من مدفع هاون ألماني فوق ذاك البناء القريب منهما فأحالتها إلى دخان وأنقاض ورماد في هنيهة .

هكذا أنقذ الشاعر الأول لفرنسا بفضل عناد (روتشيلد) وإصراره .  
منذ ذلك الحين ، في تاريخ تلك الحادثة ، الحولي نفسه يتلقى (أراغون) كل سنة بضعة Bonnes Bouteilles من «موتون-روتشيلد» ، من كروم «الكونت» الذي كان رائده في الحرب العالمية الأخيرة .

الآن أنا في موسكو ، في دار (إيليا ايهرينبورغ) . لقد كان هذا المحارب الكبير بالأدب ، العدو الخطير للنازية إلى درجة أنه وحده يساوي فرقة بأربعين ألف رجل ، كذلك أبيقورياً صافياً . أبداً ما استطعت أن أعرف إن كان هو يعرف عن (ستندال)<sup>(١)</sup> أم عن (فواغراس) ، كان يتذوق أشعار (جورج مانريك) في لذة كثيرة بقدر ما كان لا يتذوق (بومري-غرينو) . إن أكثر حبه حيوية وحياة كانت فرنسا بكاملها ، روح وجسد فرنسا اللذيذة الشديدة .

الموضوع هو أنه ، بعد الحرب ، ترددت إشاعة في موسكو بأنه ستعرض للبيع

(١) ستاندال : روائي فرنسي (١٧٨٣-١٨٤٢) .



بعض زجاجات النبيذ الفرنسي . كان الجيش الأحمر أثناء زحفه نحو «برلين» قد استولى على معقل-قبو ، مليء بدعاية (غوبلز)<sup>(١)</sup> غير الصحية وزجاجات نبيذ كان هذا قد سلبها من خوابي فرنسا العذبة . أرسلت أوراق الدعاية وزجاجات النبيذ إلى ثكنات الجيش الغالب ، فلم يجد الجيش الأحمر الذي بحث في الأوراق واحتفظ بالوثائق ما يفعل بالنسبة لهذه الزجاجات .

كانت الزجاجات المصنوعة من بلور مجيد تتباهى في عناوين خاصة بتواريخ ميلادها . تنحدر جميعها من أصول رفيعة ومن مواسم قطاف شهيرة معروفة . كانت زجاجات النبيذ 'Romane وBeaume وchateau-neuf-du Pape تحاذي زجاجات Pouilly الشقراء وزجاجات Vourray العنبرية وزجاجات Chambertin المخملية . كانت المجموعة بأسرها مدعومة بأرقام تسلسلية تبين تواريخ قطاف أعنابها الرفيعة جداً .

لقد وزعت العقلية الاشتراكية النازعة إلى المساواة في كل شيء على الحوانيت أمجاد المعاصر الفرنسية السامية هذه بسعر النبيذ الروسي نفسه . وفرضت على ذلك قيلاً وحيداً ألا وهو أن كل مشتر لا يستطيع الحصول إلا على عدد محدد ومختصر من هذه الزجاجات . إنها لعظيمة مقاصد الاشتراكية ، بيد أننا نحن الشعراء على نمط سواء في أنحاء الدنيا كلها . كل واحد من زملائي في الأدب أرسل أقاربه ، جيرانه ، معارفه ، كي يشتروا له بسعر منخفض جداً زجاجات نبيذ ذات محتد سام وصنف عال . فانتهدت من السوق في يوم واحد فقط .

لقد وصلت إلى دار (ايهرينبورغ) كمية لن أبوح بها . بهذه المناسبة وجدتني في صحبة عدو النازية اللدود ، نتحدث معاً عن النبيذ ونشرب جزءاً من قبو (غوبلز) ، نخب الشعر وعلى شرف الانتصار .

### القصور المستردة:

لم يدعني الأشراف إلى بيوتاتهم الكبيرة يوماً ، ألبتة ، والحقيقة هي أنني لم يكن لي من حب الاستطلاع إلا القليل النادر ، دائماً . إن الرياضة القومية في تشيلي هي المزايدة . أنك لترى أناساً كثيرين يخفون في زحمة وازدحام إلى المزدادات

(١) غوبلز Joseph Paul : سياسي ألماني (١٨٩٧-١٩٤٥) :

الأسبوعية التي تميز بلدي . كل مزاد له حظيرته الخاصة به وكل حظيرة دار لها مصيرها . حين تصل اللحظة المناسبة تبدأ بالمزايدة على أحسن مزايد الحواجز الحديدية التي ما تركتني مرة أتخطاها ، لم تتركني ولا تركت العامة التي أشكل جزءاً منها ، ومع هذه الحواجز الحديدية التي تحيط بالحظائر تغير أصحابها ومالكها المقاعد والكراسي ، تماثيل المسيح المدماة ، صور الفترة الحالية ، الصحن ، الملاعق ، الملاحف التي تحتها تناسلت حيوات كسلى كثيرة . إنه ليعجب الإنسان التشيلي أن يدخل ، أن يلمس ، أن يجس ، أن ينظر ، أن يساوم ويفاصل . قليلون هم الذين يشتررون في آخر الأمر . من بعد يهد بناء كل حظيرة فيزيد على كل قطعة من قطع البناء . فيأخذ المشتررون معهم العيون ، أي النوافذ ، الأمعاء ، أي السلالم والأقدام هي أرضيات البناء الخشبية ، وأخيراً فإنهم يتقاسمون كل شيء حتى أشجار النخيل المغروسة .

في أوروبا ، على العكس من هذا فإن الدور يحافظ عليها ولا تباع كما في تشيلي . إنك لتستطيع أن ترى ، أحياناً ، صورة لكل «دوق» ولكل «دوقة» ، معلقة هناك على الجدران ، صوراً رسمها رسام محظوظ لأصحاب هذه المنازل وسيداتهن وهن عاريات ، فكانت متعة لنا نحن الذين نتمعن الآن في هذه الرسوم وفي هذه الانحناءات التي بها . إننا لتستطيع أن نلمح أيضاً الأسرار ، الجرائم ، الشعر المستعار ، هذه السجلات المحيرة التي هي الجدران ذات الزرابي والسجاجيد التي امتصت أحاديث كثيرة مختصة بمقصورة المستقبل الإلكتروني .

لقد دعيت لزيارة «رومانيا» فلبيت الدعوة مسرعاً وأسرعت إلى الموعد . أخذني الكتاب للاستجمام إلى دارهم الريفية الجماعية وسط الغابات الجميلة . لقد كان منزل الكتّاب الرومانيين من قبل قصراً لـ (كارول Carol) ذاك الطائش الذي أصبحت غرامياته فوق الطبيعية مهيزلة عالمية . إن القصر الآن بأثاثه الجديد وحمّاماته المرمرية قد وضع تحت خدمة الفكر والشعر برومانيا . لقد نمت يوماً مريحاً جيداً في سرير جلالة الملكة ، وفي اليوم التالي ذهبنا لنزور قصوراً أخرى أصبحت متاحف أو منازل استجمام أو مواضع لقضاء الإجازات . كان يصحبني من الشعراء (جيبيليانو) و(بينويك) و(رادو باورلانو) . في الصباح الأخضر ، تحت عمق أشجار التنّوب بالحدائق الملكية القديمة ، كنا نغني في إفراط ، كنا نضحك في صخب ، كنا نشد أشعاراً بكل اللغات . إن الشعراء الرومانيين بتاريخهم الطويل من الآلام والأوجاع

خلال الأنظمة الملكية-الفاشية ، هم أكثر الشعراء قيمة وفي الوقت ذاته أكثرنا فرحاً . لقد كان أولئك المنشدون الرواة الرومانيون جداً كما عصافير بلادهم الاحراجية ، الحازمون في قوميتهم الجازمون في ثورتهم ، المغرمون بالحياة غراماً ثملاً ، اكتشافاً بالنسبة لي . في أماكن قليلة استطعت أن أفوز بأخوة كثر في وقت قصير كما في «رومانيا» .

رويت للشعراء الرومانيين كي أسرهم وأبعث في نفوسهم فرحاً كبيراً أن زيارتي السابقة لقصر نبيل كانت هي زيارتي لقصر «اليربا» بمدريد في عز الحرب الأهلية . فيما كان العدو يمضي منصرفاً إلى عمله المقدس بقتيل الإسبان ، يشاركه في هذا الطليان والمغاربة والصلبان المعقوفة ، احتل رجال «الميليشيا» ذاك القصر الذي كنت أراه مراراً وتكراراً لدى عبوري بشارع «أرغوايس» في عامي ١٩٣٤-١٩٣٥ . كنت من حافلة الركاب التي تقلني أوجه نظرة الاحترام ، ليست نظرة طاعة لهؤلاء «الدوقيين» الجدد من آل (البا) الذين ما كانوا ليقدروا على إخضاعني وأنا أمريكي أجنبي شبه همجي ، بل كنت مسحوراً مأخوذاً بهذه الجلالة التي لا يملك مثلها إلا الخيول وشواهد القبور ونواويسها الصامتة البيضاء .

حين اندلعت الحرب الأهلية ظل (دوق ، البا) هذا مقيماً في إنجلترا ، لأن لقبه في الحقيقة هو (بيرويك) . بقي هناك مع أحسن لوحاته ومع أكثر كنوزه . متذكراً هذا الهرب «الدوقي» قلت لزملائي الرومانيين إنه في الصين ، بعد التحرير ، هرب آخر سليل من سلالة (كونفوشيوس) الذي اغتنى بمعبد الفيلسوف المرحوم وبعظام قبره ، إلى «فيرموزا» مزوداً بلوحات وشراشف وأوان ، وعظام كثيرة كذلك . لا بد أنه جيد التموضع هناك نظراً لأنه يقبض ثمن بطاقات الدخول ليرى الناس رفات جسده المغفور له .

من إسبانيا كانت تخرج في تلكم الأيام ، نحو بقية أنحاء العالم ، أخبار رهيبية مرعبة : «قصر (دوق البا) التاريخي يسطو عليه الحُمر» . مشاهد أئمة من التخريب والتهدم . «فلننقذ هذه التحفة التاريخية» .

لقد ذهبت لأرى القصر الذي كنت أستطيع أن أدخل إليه بعد أن احتله «الميليشيا» . كان الناهبون المفترضون عند الباب واقفين في ملابسهم العمالية الزرقاء وبنادقهم في أيديهم . كانت تتساقط أوائل القنابل فوق مدريد من طائرات الجيش الألماني . طلبت من رجال «الميليشيا» أن يتركوني أدخل إلى القصر . دققوا في أوراق

الثبوتية تدقيقاً دقيقاً وفحصاً متمعناً . كنت على وشك أن أبدأ بأوائل خطاي داخل القاعات الثرية الغنية حين منعوني من ذلك لأنني ارتكبت خطأ فادحاً : لم أكن قد نظفت حذائي في الممسحة الموجودة عند البوابة . في الواقع إن مدامات القاعات وأرضياتها كانت تلمع كالمرايا . نظفت الحذاء ودخلت . كانت المستطيلات الفارغة في الجدران تعني لوحات غائبة . كان رجال المليشيا يعرفون ذلك كله . لقد قصوا عليّ كيف أن «الدوق» كان قد أخذ هذه اللوحات إلى مصرفه في «لندن» منذ سنين كثيرة ووضعها هناك في صندوق محكم . إن الشيء المهم الوحيد في القاعة الكبيرة كان هو تذكارات صيد ، رؤوس ذات قرون ، لا حصر لها وخراطيم وحوش مختلفة . ما كان يلفت النظر أكثر من غيره هو دب أبيض كبير واقف على قدميه وسط الغرفة ورافع ذراعيه القطبيتين المفتوحتين ، وله وجه ضاحك يفتر عن أسنانه كلها ، وكان هذا الدب هو المفضل لدى رجال «المليشيا» إذ إنهم ينفضونه بفرشاة كل يوم ويسحجونه .

طبعاً لقد اهتمت بغرف النوم حيث كان ينام الكثيرون من آل (البا) مع كوابيس تسببها الأشباح «الفلامنكية» التي تأتي في الليالي لتدغدغ لهم أرجلهم . الأرجل لم تعد هناك موجودة لكن ، أجل ، أكبر مجموعة من الأحذية رأيتها في حياتي . إن هذا الدوق الأخير لم يزد شيئاً في مجموعة لوحات القصر غير أن مجموعة أحذيته كانت شيئاً مفاجئاً ، شيئاً لا يحصى لكثرتة . رفوف طويلة ذات زجاج كانت تصل حتى السقف ، فيها تحفظ آلاف الأحذية . كان ثمة ، كما في المكتبات ، سلالم خاصة ، ربما أنها تستعمل كي تأخذ هذه الأحذية من كعابها . نظرت في حيلة وتمعن إليها . كان ثمة مئات الأزواج من الجزم البديعة لركوب الخيل ، بعضها أصفر وبعضها أسود . كذلك كان هناك من هذه الأحذية ذات الكعوب العالية ، ذات الأقمشة المخملية والأزرار الصدفية . كان هناك كميات هائلة من الأحذية الكبيرة ، من النعال ، من الأخفاف ، كل واحد منها وقلبه في داخله ، وهذا ما كان يجعلها تبدو وأن لها سيقاناً وأقداماً ثابتة صلبة تحت تصرفها وطوع أمرها . فإن فتحت الواجهة لهذه الأحذية فإنها ستركض جميعها إلى «لندن» وراء «الدوق» ! يمكن للمرء أن يستعرض هذه الأحذية ذات الكعوب العالية المصطفة على طول ثلاث غرف أو أربع ، استعراضاً بنظره ، بنظره فقط لأن رجال «المليشيا» وقد تنكبوا البنادق لن يسمحوا له ولا حتى لذبابه أن تلمس هذه الأحذية . «الثقافة» كان المدعون يقولون : «التاريخ» كان المتخصصون يزعمون . لقد كنت أنا أفكر بالفتيان

الفقراء المنتعلين نعالاً من قنّب ، الموقفين زحف الفاشية في قمم «سوموسيرا»<sup>(١)</sup> الرهيبة ، المدفونة في الثلج والوحل .

كان قرب سرير «الدوق» لوحة ذات أطر ذهبية جذبتني بحروفها القوطية . عجباً ، فكرت ، لا بد أن شجرة أسرة (البا) قد رسمت هنا وخطت ، لقد كنت على خطأ فلقد كانت قصيدة «إيف» لـ(روديارد كيبيلينغ)<sup>(٢)</sup> هذا الشاعر المبتذل المنافق ، رائد مجلة «ريدير ديجيست» الذي مستواه الفكري لا يزيد علواً في رأيي على مستوى أحذية (الدوق البا) ، مع اذن الامبراطورية البريطانية .

إن حمّام «الدوقة» سيكون مثيراً للغاية ومهيجاً جداً ، كنت أفكر أنا ، لا بد أنه سيثير بي أشياء كثيرة . بنخاصة تلك العذراء المتكئة الموجودة في متحف «الباردو»<sup>(٣)</sup> التي وضع لها (غويا) الحلمتين الواحدة بعيدة جداً عن الأخرى ، إلى درجة أن المرء يفكر كيف قاس الرسام الثوري البعد ، مضيفاً قبلة على قبلة إلى أن ترك لها عقداً غير مرثي من نهد إلى نهد . لكن الغلط استمر فأخطأت مرة أخرى في توقعاتي . لقد أخطأت في الدب ، في موضع الأحذية ذات الكعوب العالية ، في «الاويريت» الإسبانية ، في الـ«إيف» ، وأخيراً بدلاً من حمّام إلهة وجدت مرحاضاً مدوراً ذا أبهة مزيفة بنصف برميل تحت مستوى الأرض ، ببجع مصنوعة من الهيصم ، متأنقة ، حاملات قناديل متحلقة متكلفة متصنعة هزلية ، في النهاية ، قاعة حمّام للجارية كأنه حمّام في فيلم أمريكي شمالي .

كنت على وشك الانسحاب في عدم رضا كئيب حين خُفّف عني إذ إن رجال «المليشيا» دعوني إلى الغداء . هبطت معهم إلى المطابخ . كان قد استمر هنا أكثر من أربعين أو خمسين من الطهاة والخدم والبستانيين الذين كانوا يعملون عند «الدوق» ، يعيشون ويطبخون لهم ولرجال «المليشيا» الذين كانوا يحرسون القصر . اعتبروا زيارتي مشرفة لهم . بعد بضع همسات وبعد الذهاب والإياب وتوقيع وصول لا بد منها أخرجوا زجاجة مغبرة وإذ بها من نوع Lachrima Christi لها من العمر مائة سنة ، فما تركوني أشرب منها إلا بضع جرعات ، كان نبيذاً لا عجباً حاراً مركباً من عسل

(١) سوموسيرا: هي سلسلة جبال قريبة من مدريد .

(٢) روديارد كيبيلينغ: روائي وشاعر انجليزي (١٨٦٥-١٩٣٦) .

(٣) البارادو: هو متحف مدريد الشهير .

ونار، وفي الوقت نفسه عنيفاً شديداً، لا يدرك باللمس. لن أنسى بسهولة دموع «الدوق» التي انسكبت في الأقداح.

بعد أسبوع أغارت طائرتان ألمانيتان وألقنا أربع قنابل محرقة فوق قصر «ليريا». لقد شاهدت وأنا على شرفة بيتي طيران العصفورين العرافين، تألقا ملوناً جعلني أدرك لتوي أنني أشاهد لحظات القصر الأخيرة.

لقد مررت ذاك المساء نفسه بالأطلال الدخانية -أقول هذا للكتاب الرومانيين منهيماً حكايته-.

هناك علمت بشيء مؤثر جداً -أضفت من بعد- إذ إن رجال «المليشيا» النبلاء انصرفوا تحت النار التي كانت تنزل من السماء، وبين الانفجارات التي كانت تهز الأرض ووسط الحرائق التي كانت تزداد وتنمو، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه فما استطاعوا أن ينقذوا إلا الدب الأبيض، وكادوا أن يهلكوا في محاولتهم هذه إذ إن الدعامات كانت تنهدّ وكل شيء كان يشتعل، وكان هذا الحيوان المنخط الهائل يصر ويغاند كي لا ير من بين النوافذ أو الأبواب. لقد رأيته من جديد ولآخر مرة بذراعيه المنفتحتين وبلونه الأبيض ميتاً من الضحك فوق عشب حديقة القصر.

### عهد عابري القضاء:

موسكو من جديد. في صبيحة يوم ٧ من تشرين الثاني حضرت استعراض الشعب لرياضيه، للفتوة السوفييتية المضيئة. لقد كان الشبان يسيرون ثابتين أكيدون فوق الساحة الحمراء. كانت تتأملهم عينان حادثان لرجل مات منذ سنوات طويلة، إنه لمؤسس هذا الأمن، لمؤسس هذا الفرح وهذه القوة: (فلاديمير إيليش اوليانوف)<sup>(١)</sup> المعروف بشكل بلينين.

لقد عُرِضت هذه المرة أسلحة قليلة، ولكن لأول مرة شوهدت الصواريخ عابرة القارات، الهائلة. تقريباً كنت أستطيع أن ألمس باليد تلك السجائر العظيمة النقية ذات المظهر الدمث، القادرة على حمل التدمير النووي إلى أبعد نقطة في الكرة الأرضية.

لقد منحوا في ذاك اليوم نفسه أوسمة للروسيين اللذين عادوا من السماء. لقد

(١) فلاديمير إيليش اوليانوف: هو (لينين) بطل الثورة البروليتارية في الاتحاد السوفييتي (١٨٧٠-١٩٢٤).

كنت أنا أشعر أنني قريب جداً من أجنحتهما . إن مهنة الشاعر هي ، في قسمها الأكبر ، الطيران كما العصفير . لقد جاءتني الرغبة عبر شوارع موسكو ، عند ضفاف البحر الأسود ، بين الفجاج الجبلية بالقوقاس السوفييتي ، في أن أنظم ديواناً عن عصفير تشيلي . لقد كان شاعر «تيموكو» بشكل واع منصرفاً إلى «التعصفر» ، إلى الكتابة عن أرضه النائية القصية ، عن البلبل والعندليب ، عن القبرة والدوري ، عن «الكندور» والكناري ، بينما كان عصفوران بشريان ، عابراً فضاء سوفييتان ينطلقان ، يحلقان في الفضاء ويدهشان العالم أجمع . لقد حبسنا جميعاً أنفاسنا ونحن نشعر فوق رؤوسنا بهما ، وننظر بعيوننا إلى الطيران الكوني الثنائي .

ذاك اليوم كانوا يمنحونهما أوسمة . وكان بالقرب منهما ، وجميعهم أرضيون بشكل كامل ، عائلاتهم ، أقاربهما ، أصلهما ، جنسهما ، جذرهما الشعبي . كان للرجال الشيب شوارب فلاحين كبيرة غزيرة وكانت النساء العجائز يغطين رؤوسهن بمناديل الأرياف الأصيلة . لقد كان رائدا الفضاء هذان مثلنا سواء بسواء ، فنحن جميعاً أرواح من الحقل ، من الضيعة ، من المصنع ، من المكتب . لقد استقبلهما في الساحة الحمراء ، باسم الأمة السوفييتية (نيكيتا خروتشوف)<sup>(١)</sup> . من بعد رأيناها في قاعة القديس (جورجوس) فقدموني إلى (غورمان تيتوف)<sup>(٢)</sup> رائد الفضاء رقم اثنين ، وهو شاب لطيف له عينان مضيئتان . فسألته ، فجأة :

- قل لي ، أيها الرائد ، حين كنت تبهر عبر الكون وتنظر نحو كوكبنا ، أفكنت تلمح تشيلي؟ كان ذلك كما لو أنني قلت له : «إنك لتدرك أن ما هو مهم في رحلتك كان هو رؤية «تشيلي» من عل» .

لم يتسم كما كنت أتوقع بل فكر بضع ثوان ثم قال :  
إنني لأذكر أنني رأيت سلسلة جبال صفراء بأمريكا الجنوبية وكنت ألاحظ أنها عالية جداً ، ربما أنها كانت تشيلي .  
- طبعاً كانت تشيلي ، أيها الرفيق .

لقد تركت موسكو في الوقت الذي اكتملت فيه أربعون سنة على نشوء الثورة الاشتراكية ، وأخذت القطار المتجه إلى «فينلانديا» . حين كنت أعبر المدينة باتجاه

(١) نيكيتا خروتشوف Nikita Jruschov : هو الزعيم السياسي السوفييتي (١٨٩٤-١٩٧٣) .

(٢) غورمان تيتوف : رائد الفضاء السوفييتي ، ولد عام ١٩٣٥ .

المحطة كانت تصعد صواريخ نارية كبيرة مضيئة ، فوسفورية ، زرقاء ، حمراء ، بنفسجية ، خضراء ، صفراء ، برتقالية ، وتلحق عالياً جداً كأنها شحنات فرح تفرغ ، علامات صداقة تنطلق نحو الشعوب قاطبة من تلك الليلة المجيدة .

اشترت في «فينلانديا» ناب كركدن بحري ومضينا في سفرنا . أخذنا الباخرة التي ستعيدنا إلى أمريكا . كذلك أمريكا ووطني بمضيان مع الحياة ومع الزمن . عندما مررنا بـ«فينزويلا» في طريقنا إلى «البارائيسو» أرسل الطاغية (بيريث خيمينيث)<sup>(١)</sup> ، الطفل المدلل لدائرة الدولة بالولايات المتحدة ، نغل (تروجيللو)<sup>(٢)</sup> و(سوموثا)<sup>(٣)</sup> بضعة جنود كما لو كانوا يركبون إلى الحرب ، في مهمة منعنا من النزول إلى «فنزويلا» ، ليس منع الركاب جميعهم بل منع رفيقة حياتي ومنعي من النزول من الباخرة . لكن ، ما إن وصلنا إلى «البارائيسو» حتى كانت الحرية قد طردت الطاغية الفينزويلي ، فهول المرزبان العظيم نحو «ميامي» مثل أرنب مروبص . إن العالم يسير بسرعة منذ طيران «سبوتنيك» . من كان يقول إن أول شخص سيقرع باب غرفتي في الباخرة بميناء «البارائيسو» كي يرحب بمجيئنا ، هو الروائي (سيمونوف) الذي كنت تركته يسبح في البحر الأسود؟

---

(١) بيريث خيمينيث Marcos : جنرال فينزويلي ، ولد عام ١٩١٤

(٢) تروجيللو Rafael Le'onidas : جنرال دومينيكاني (١٨٩١-١٩٦١) .

(٣) سوموثا "Tachi" Anatasio : جنرال نيكراغوي (١٨٩٦-١٩٥٦) .



## الفصل الحادي عشر الشعر حرفة

### قدرة الشعر:

لقد كان ميزة من ميزات فترتنا - بين الحروب والثورات والحركات الاجتماعية الكبرى- إنماء خصوبة الشعر حتى حدود ليست بمشبهة . لقد كان على الإنسان الاجتماعي أن يواجه الشعر بشكل جارح أو مجروح ، سواء أكان في وحدته منعزلاً وسواء أكان مشاركاً في جماهير الاجتماعات العامة المحتشدة .

أبدأ ما فكرت من قبل ، حين كتبت أوائل كتبي المفعمة بالحزن والوحدة ، أني مع مضي السنين سأجدني أنشد شعري في ساحات وشوارع ومعامل وقاعات ومسارح وحدائق عامة . لقد جبت وجلت في أنحاء تشيلي كلها أنثر شعري بين أناس شعبي .

سأروي الآن ما جرى لي في «الغوطة المركزية» التي هي أكبر سوق وأكثرها شعبية وشهرة في تشيلي . مع شروق الشمس تصل إليها الشاحنات والعربات والسيارات التي تجلب البقول والفواكه والأطعمة على اختلاف أنواعها وأصنافها من المزارع التي تحيط بالعاصمة اللاعقة الملتهمة الشرهة . يتكاثر الحمالة - وهم حشد كبير ، حفاة عراة ، ذوو أجور قليلة زهيدة- في المقاهي الصغيرة والمحابيع الليلية المجاورة لأحياء «الغوطة» .

ذات يوم جاء بضعة رجال في سيارة يبحثون عني فدخلت إلى السيارة دون أن أعرف إلى أين ولماذا أنا أمضي معهم في هذه السيارة . كنت أحمل معي في جيبي نسخة من ديواني «إسبانيا في القلب» . ثم شرحوا لي في السيارة أني مدعولكي ألقى محاضرة في نقابة حمالي «الغوطة» .

حين دخلت إلى تلك القاعة غير المرتبة شعرت ببرد «ليل» (خوسيه اسونثيون سيلفا)<sup>(١)</sup> ، ليس بسبب فصل الشتاء المتقدم في زمهريره وأمطاره فحسب ، بل كذلك

(١) خوسيه اسونثيون سيلفا : شاعر كولومبي (١٨٦٥-١٨٩٦) .

بسبب ذلك الجو في تلك القاعة ، الذي جعلني مندهشاً مرتعداً . كان يجلس على صناديق خشبية أو مقاعد ليست بمقاعد ، أكثر من خمسين رجلاً ، بعضهم يضع على خاصرته كيساً مربوطاً على شكل مريول ، وبعضهم يغطي جسده بقميص مرقع عتيق ، وبعضهم الآخر يتحدى برد شهر تموز<sup>(١)</sup> ببدنه العاري . أنا جلست خلف طاولة صغيرة تفصلني عن ذلك الجمهور الغريب العجيب ، كانوا جميعاً ينظرون إليّ بعيون فحمية ساكنة ، عيون شعب بلدي .

تذكرت (لا فيرت) العجوز . كان (لا فيرت) ينعت هؤلاء المتفرجين الثابتي الجنان الذين لا يحركون أية عضلة من عضلات وجوههم ، وينظرون نظرات ثابتة جريئة ، بنعت كان يجعلني أضحك كثيراً . ذات مرة قال لي حينما كنا في سهول ملح البارود . «انظر إلى هذين المسلمين المستندين إلى عامود هناك في آخر القاعة ، اللذين ينظران إلينا ، لا ينقصهما إلا البرنس<sup>(٢)</sup> كي يبدوا وكأنهما من مؤمني الصحراء الرابطي الجأش والجنان» .

ما العمل مع هذا الجمهور؟ عم يمكن لي أن أحدثهم؟ ما هي أشياء حياتي التي في مكنتها أن تثير اهتمامهم؟ دون أن أستطيع أن أقرر شيئاً ، وقد أخفيت رغباتي بالخروج من هناك مهرولاً ، أخذت الكتاب الذي كنت أحمله معي وقلت لهم : لقد كنت في إسبانيا منذ زمن قريب . هناك كان ثمة صراع كبير وطلقات رصاص كثيرة ، اسمعوا ما قلته حول ذلك الموضوع .

يجب عليّ هنا أن أشرح أن كتابي «إسبانيا في القلب» لم يبد لي قط على أنه كتاب سهل الفهم . له طموح إلى الوضوح لكنه مغموس في زحمة تلك الآلام الكبيرة المتعددة .

ما هو أكيد أنني فكرت أن أقرأ بضعة أبيات ثم أودعهم . لكن الأشياء لم تجري هكذا . عندما شرعت أقرأ قصيدة إثر قصيدة ، مدفوعاً بإحساسي أن هناك سكوناً عميقاً يسود وأن كلماتي تتساقط فيه كما لو كان ماء عميقاً ، وأن عيوناً تعلوها حواجب داكنة كثيفة الشعر تتابع في اهتمام بالغ شعري ، أدركت أن كتابي قد بلغ

---

(١) تموز : هو شهر بارد من أشهر الشتاء في أمريكا الجنوبية ، حيث الفصول هناك مغايرة لفصولنا المعهودة .

(٢) البرنس : هكذا في الأصل Alborno ، عن العربية .

غايته وحقق غرضه فمضيت أقرأ وأقرأ ، متأثراً أنا نفسي بنغم شعري ، مهتزاً بالعلاقة المغناطيسية بين أشعاري وبين تلك الأرواح المهجورة .

لقد استغرقت قراءتي أكثر من ساعة . حين كنت على وشك الانسحاب نهض واحد من أولئك الرجال ممن يحملون الكيس المعقود حول الخصر وقال :

- أريد أن أقدم لك الشكر باسم الجميع -قال ذلك في صوت عال- وكذلك أريد أن أقول لك إننا لم ننفع من قبل كما انفعلنا ونحن نصغي إلى أشعارك . حين انتهى من كلمته هذه انفجر في نحيب وطفق آخرون عديدون يبكون . خرجت إلى الشارع بين نظرات بليلة ومصافحات بأيدٍ خشنة غليظة .

هل يستطيع شاعر أن يكون هو نفسه بعد أن يمر بهذه التجارب من الورد والنار؟ عندما أريد أن أتذكر (تينا مودوتي) فإنني أبذل جهداً كبيراً لو أنني ألتقط قبضة ضباب . كانت هشة ذكراها ، غير مرئية . أعرفتها أم لم أعرفها؟ .

كانت لما تزل جميلة : وجهه بيضوي شاحب متأطر بجناحين سوداوين من شعر ملموم ، وعينان مخمليتان واسعتان تظران من خلال السنين . لقد طبع (دييغو ريبيرا) صورتها ، قوامها ووجهها ، على جدارية من لوحاته ، مكلفة بتويجات نباتية ومزارق من ذرة .

لقد كانت هذه المرأة مناضلة ثورية إيطالية ، فنانة كبيرة في فن التصوير ، وصلت إلى الاتحاد السوفييتي منذ زمن بغرض تصوير الجماهير والنصب التذكارية . لكنها ، هناك وقد أحيطت بأنغام الخلق الاشتراكي المبهرة ، رمت بألة التصوير إلى نهر «موسكوف» وأقسمت أن تكرر حياتها كلها لتأدية أكثر مهام الحزب الشيوعي تواضعاً . حين كانت تؤدي هذه المهام أو قسماً منها عرفت أنها في المكسيك وشعرت أنها تموت تلك الليلة .

وقع هذا عام ١٩٤١ . كان زوجها هو (فيتوريو فيدالي) الرائد المشهور باسم (كارلوس) في الطابور الخامس . ماتت (تينا مودوتي) بسكتة قلبية في التاكسي الذي كان يقلها إلى بيتها . هي كانت تعرف أن قلبها ما كان يسير سيراً حسناً لكنها لم تبج بهذا الأمر إلى أحد حتى لا يرضوا عليها بالعمل الثوري الذي كانت تؤديه ، فقد كانت مستعدة لتنفيذ ما لا ينفذه أحد غيرها : مسح المكاتب وتنظيفها ، الذهاب مشياً على الأقدام إلى أبعد المناطق وأكثرها شعبية ، قضاء الليالي في سهر وهي تكتب على الآلة الكاتبة ، الرسائل والتقارير أو وهي تترجم مقالات . وفي الحرب

الأهلية الإسبانية كانت ممرضة لجرحي مناضلي الجمهورية الإسبانية .  
لقد وقعت لها حادثة مأساوية في حياتها حين كانت رفيقة الزعيم الكبير الشاب (خوليو أنطونيو مييا) الذي كان لاجئاً حينذاك في المكسيك . لقد أرسل الطاغية (جيراردو ماتشادو)<sup>(١)</sup> من «لا هافانا» عصابة من حاملي المسدسات المجرمين كي يقتلوا هذا الزعيم الثوري . كانا يخرجان ذات مساء من السينما ، «تينا» واطعة ذراعها بذراع «مييا» ، حين أطلقت عليهما عيارات نارية ، فسقط هو صريعاً وتدحرجت هي معه على الأرض ملطخة بدماء صاحبها فيما كان المقتالون المجرمون يهربون وهم محميون بشكل جيد . والطامة الكبرى هي أن رجال الأمن هؤلاء الذين حموا المجرمين حاولوا اتهام (تينا مودوتي) زاعمين أنها هي القاتلة .

بعد مضي اثنتي عشرة سنة على ذلك الحادث استنفرت في صمت قوي (تينا مودوتي) . حاولت السلطات المكسيكية أن تكرر تلك الفضيحة التي ارتكبتها حين أرادت هذه السلطات اتهام (تينا) بموت (مييا) ، مدعية أن موتها يتعلق بفضيحة . أثناء ذلك (كارلوس) وأنا كنا نكشف عن تلك الجثة الصغيرة . إن رؤية معاناة رجل قوي جداً وشجاع جداً ليست بالمنظر اللطيف . لقد كان ذاك الأسد يدمى حين يتلقى في جراحة سم الفضيحة القارض التي كان يراد بها تلطيخ (تيان مودوتي) مرة أخرى وهي ميتة . كان الرائد (كارلوس) يزمجر ويزأر بعينيه المحمرتين ، (تينا) أصبحت من شمع في تابوتها الصغير ، تابوت لاجثة وأنا كنت ساكناً غير قادر على عمل شيء تجاه ذاك الكرب الإنساني المجتمع في تلك الغرفة .

كان الصحفيون يملأون صفحات كاملة من سلسلة قصص قدرة . كانوا يسمونها «امرأة موسكو الغامضة» . بعضهم كان يضيف «ماتت لأنها كانت تعرف أكثر مما يجب» . متأثراً بالأم (كارلوس) الغاضب ، اتخذت قراراً . كتبت قصيدة متحدية ، ضد أولئك الذين كانوا يهينون ميتتنا النبيلة . أرسلتها إلى الصحف كافة دون أدنى أمل بأن ينشروها . ها لقد حدثت الأعجوبة . فلقد ظهرت في اليوم التالي على الصفحات الأولى بدلاً من الفضائح المزورة المزيفة ، قصيدتي الساخطة الغاضبة . كانت القصيدة معنونة على الشكل التالي «(تينا مودوتي) قد ماتت» قرأتها

(١) جيراردو ماتشادو : كان رئيساً للدولة الكوبية (١٨٧١-١٩٣٩) .

ذلك الصباح ، في مقبرة «المكسيك»<sup>(١)</sup> حين أودعنا التراب جسدها حيث ترقد هناك إلى الأبد تحت حجر غرانيتي مكسيكي . فوق شاهد هذا الحجر نقشت قصيدتي .  
أبداً لم تعد تلك الصحافة تكتب سطرأ واحداً ضد (تينا مودوتي) .

كان ذلك في «لوتا» منذ سنوات عديدة . لقد خف إلى اجتماع سياسي أكثر من عشرة آلاف عامل من عمال المناجم . إن منطقة الفحم هي منطقة متزعزعة مهتزة لما فهيا من فقر دام أكثر من قرن . فجاء منها إلى ساحة «لوتا» عمال كثيرون غصت بهم الساحة . تكلم الخطباء السياسيون كثيراً . كانت تطفو في الهواء الحار لمنتصف النهار رائحة كرائحة الفحم وملح البحر . قريباً من هناك كان المحيط ، تمتد تحت مياهه على مدى أكثر من عشرة كيلومترات الأنفاق المعتمة التي كان أولئك الرجال يستخرجون منها الفحم .

ها هم الآن يصغون في عز الشمس . المنصة عالية جداً ومنها ألحظ ذاك البحر من خلال قبعات العمال السوداء وخوذهم . كان دوري في الكلام هو الأخير . حين أعلن عن اسمي وعن عنوان قصيدتي «نشيد حب جديد إلى «ستالينغراد»» ، حدث شيء خارق ، مهرجان لن أستطيع أن أنساه أبداً .

إن الجماهير الغفيرة ، حين سمعت اسمي وعنوان قصيدتي انكشفت في هدوء . انكشفت لأنه ، بعد تلك اللهجة الحاسمة والجمل السياسية الحازمة سيتكلم شعري : الشعر . أنا رأيت من على تلك المنصة العالية حركة القبعات الهائلة : عشرة آلاف يد كانت تنزل في إيقاع واحد ، في توج لا يوصف ، في حركة بحر ساكن ، في زيد أسود ذي وقار صامت واحترام خاشع .

إذآك قصيدتي نمت واكتسبت نبرتها النضالية التحريرية المطلقة .

هذا الشيء الآخر جرى لي في أعوامي الفتية . حينذاك كنت شاعراً طلابياً أرندي برودة غامقة اللون ، شاعراً لا يتغذى بما فيه الكفاية كشعراء تلك الفترة جميعهم . كنت قد انتهيت من نشر ديواني «شفقيات» ، وكنت أزن أقل من ريشة سوداء .

دخلت مع أصدقائي إلى ملهى ذي مينة سيئة<sup>(٢)</sup> . كان زمن «التانغو» وعهد

(١) المكسيك : هو اسم عامة المكسيك كذلك .

(٢) مينة سيئة : تعبير إسباني بمعنى ، سيء أو بمعنى ، سمعة سيئة .

العريضة الدنيئة . فجأة توقف الرقص وتهشم «التانغو» كما كأس انفجرت على حائط .  
كان في مركز الحف حيث كان الناس يرقصون ، وغدان شهيران يتشاقمان  
ويتهازمان ويتلامزان . حين يتقدم أحدهم كي يصفع الآخر ، يتقهقر الثاني وترتد مع  
تقهقره جمهرة محبي الموسيقى الذين كانوا يتمرسون خلف الطاولات . كان هذا كله  
يبدو وكأنه رقصة بدائية وحشية في ساحة وسط الغابة البكر .

دون أن أفكر ملياً اقتربت منهما وانتهرتهما وأنا ما أنا عليه من ضعف جسدي  
وهزال عضلي :

أيها العربييدان الرعديان ، أيها الحقيران التافهان ، أيها الخسيسان البخسان ، أيها  
الفرخان المشاغبان ، اتركنا الناس وشأنهم في راحة وهدوء فهم ما جاؤوا إلى هنا  
لمشاهدة هذه المهزلة بل للرقص والمتعة .

نظر أحدهم إلى الآخر مندهشين متفاجئين كما لو لم يكن أكيداً ما كانا إليه  
ينصتان . توجه أقصرهما الذي كان ، قبل أن يغدو وغداً ، ملاكماً معروفاً ، نحوي يريد  
أن يقضي عليّ ويغتالني ، وكان عليّ وشك أن يزيلني من الوجود لو لم تظهر عليّ  
حين غرة قبضة أصابت هدفها فدرجت «الغوريلا» على الأرض ، لقد كانت قبضة  
خصمه الذي قرر أخيراً ضربه والخلاص منه .

حين أخرجوا البطل المهزوم كما لو كان كيساً ، بدأت الأيدي من الطاولات  
المنتشرة هناك تمد لنا الزجاجات والراقصات أخذن يبتسمن لنا متحمسات فرحات ،  
والعملاق الذي جاءت منه ضربة أراد المشاركة ظاناً أنه يستحق التكرم بعد أن برأ  
نفسه بضرب خصمه ، لكنني شتمته وردعته بشكل صارم :

- انسحب من هنا فلائت من العينة السافلة ذاتها .

انتهت لحظاتي من المجد بعد قليل ، إذ إننا لمنا حين كنا نمر عبر مخرج ضيق نوعاً  
من جبل له حزام من نمر يسد باب المخرج . لقد كان الملاكم الآخر من طغمة الأوباش  
والأوغاد ، كان الغالب الذي ضربته بكلماتي وطرده يقطع علينا الممر في حراسة  
انتقامية .

كنت أنتظرك - قال لي .

بضربة خفيفة نحاني نحو باب هناك فيما كان أصدقائي يعدون هارين علي غير  
هدى . بقيت مهجوراً مخذولاً وحيداً أمام جلادي . نظرت نظرة سريعة علني أعثر  
على ما يمكن أن ألتقطه فادافع عن نفسي به فلم يكن هناك من شيء . قطع المرمر

الثقيلة التي تغطي الطاولات ، الكراسي الحديدية مستحيلة الرفع فلا أصيبص زهر ولا زجاجة ولا عكاز بائسة منسية .

فلنتكلم - قال الرجل .

أدرت أن أي جهد أبدله في الحوار سيكون عديم الجدوى ، وفكرت في أن هذا الوحش يريد روزي قبل التهامي كما النمر مع الأيل الوليد ، وفهمت أن دفاعي الوحيد هو ألا أتم عن الخوف الذي كنت أشعر به . أعدت إليه الضربة التي أعطانيها لكنني لم أستطع زحزحته ولا ميليمتراً واحداً فقد كان جداراً صخرياً صلداً . فجأة حتى رأسه نحو الخلف وغيّرت عيناه : عينا سبع ، من تعابيرهما .

- هل حضرتك الشاعر (بابلو نيرودا)؟

- أجل أنا (بابلو نيرودا) .

أخفض رأسه واستمر قائلاً :

- يالي من حقير! أنا أمام الشاعر الذي أعجب به جداً وهو من قال لي في وجهي إني حقير دنيء .

ومضى يتأسف ورأسه بين يديه كلتيهما :

- إني قواد سافل والآخر الذي ضربته هو مهرب كوكائين ، نحن أسفل السفلاء لكن ثمة في حياتي شيء نقي ظاهر ألا وهو خطيبتي ، حبي لخطيبتي . انظر إليها يا سيد (بابليتو)<sup>(١)</sup> ، انظر إلى صورتها ، سأقول لها إن صورتها لمستها يداك وهذا سيسرها ويهجهها .

ناولني صورة فتاة مبتسمة .

- هي تحبني بسببك ، يا سيد (نابليتو) ، بسبب أشعارك التي حفظناها عن ظهر قلب .

ثم انطلق ينشد :

- «في أحشائك ، جاثياً جنين حزين مثلي ينظر إليّ» . . .

في هذه اللحظة فتح الباب بدفعة واحدة وإذ بأصدقائي يعودون وقد جاؤوا بمعدات وأسلحة . رأيت الرؤوس تتزاحم عند الباب مندهشة ذاهلة .

---

(١) بابليتو : هو تصغير تحب لمن يسمى (بابلو) .

خرجت في بطاء ، ظل الرجل هناك وحيداً ، دون أن يغير من موضعه وحالته ، واستمر يقول منشداً :

«فدى لهذه الحياة التي تضطرم في شرايينه سأفني يدي» .

لقد هزمه الشعر .

لقد هوت طائرة الطيار (بويرس) التي أرسلت في مهمة تجسسية فوق الأراضي السوفييتية ، من علو لا يصدق . صاروخان رائعان أدركاها فأسقطاها من غيومها . أسرع الصحفيون إلى المكان الجبلي الذي انطلقت منه القذيفتان .

كان المدفعيان شابين صغيرين ، منعزلين في ذاك العالم الهائل المليء بشجر التنوب والثلوج والأنهار . كانا يأكلان تفاحاً أو يلعبان الشطرنج أو يعزفان على «الأكورديون» أو يقرآن كتباً ويحرسان . هما كانا قد صوبا نحو السماء دفاعاً عن السماء الفسيحة ، سماء الوطن الروسي .

فانهال الصحفيون عليهما بالأسئلة العديدة .

- ماذا تأكلان؟ من هم أبأؤكما؟ هل يعجبكما الرقص؟ ما هي الكتب التي

تقرآنها؟

أجاب واحد من هذين الشابين المدفعيين على السؤال الأخير بأنهما كانا يقرآن أشعاراً وأنه من بين شعرائهما المفضلين الشاعر الكلاسيكي (بوشكين) والشاعر التشيلي (نيرودا) .

أحسست بفرح غامر حين عرفت ذلك . لقد كان ذاك الصاروخ الذي صعد وحلق وأسقط ، من عل إلى أسفل سافلين ، يحمل ذرة من شعري المتوقد .

### (الشعر)

... كم من عمل فني ... لم يعد العالم ليسع هذه الأعمال لكثرتها ... لا بد من تعليقها خارج الغرف ... كم من كتاب ... كم من كتيب ... من يستطيع أن يقرأها جميعها؟ ... لو أنها صالحة للأكل ... لو أننا نقدر في موجة شهية عارمة أن نجعلها سلطة فنفرمها وتبلها ... لم نعد نستطيع أن نطبق منها أكثر ... لقد ضقنا ذرعاً بها ... لقد اختنق العالم في دوامة الكتب ... (ريفيردي)<sup>(1)</sup> قال لي : «لقد

(1) ريفيردي : شاعر فرنسي ، ولد عام ١٨٨٩ .



أعلمت دائرة البريد بأن لا ترسل لي ما يصلها باسمي من كتب . لم أعد أستطيع فضها . لم يعد عندي مكان لها . لقد تسلفت الجدران فخشيت من كارثة أن تنهال فوق رأسي» . . . إنكم جميعاً تعرفون (إليوت)<sup>(١)</sup> . . . قبل أن يكون رساماً ، قبل أن يصبح مخرجاً مسرحياً ، قبل أن يغدو كاتب مقالات في النقد ، كان يقرأ أشعاري . . . فكنت أشعر بالغبطة . . . لا أحد كان يفهم شعري كما يفهمه (إليوت) . . . إلى أن بدأ ذات يوم ينشدني أشعاره وأنا ، بشكل أناني انطلقت مستنكراً : «لا تقرأ لي أشعارك ، لا تقرأ لي أشعارك» . . . ثم حبست نفسي في الحمام ، لكن (إليوت) ، من خلف الباب ، طفق ينشد أشعاره على مسمع مني . . . فشعرت بحزن شديد . . . الشاعر الاسكوتلاندي (فريزر) الذي كان حاضراً آنذاك نهرني : «لماذا تعامل (إليوت) هذه المعاملة السيئة؟» . . . فأجبت : «إني لا أريد أن أخسر أحسن قرائي فلقد رببته حتى عرف كل شيء عن شعري حتى تغضناته وتجاعيده . . . إن له لنبوغاً كثيراً . . . يستطيع أن يرسم اللوحات . . . يقدر أن يكتب المقالات . . . بيد أنني أريد أن أحافظ على هذا القارئ ، أن أحفظ به ، أن أرويه كما أروي نبتة نادرة . إنك لتفهمني وتفهمني يا (فريزر) . . . لأن الحقيقة ، إن استمر هذا الوضع كما هو عليه ، هي أن الشعراء سينشرون شعرهم كي يقرأه الشعراء الآخرون ، ليس إلا . . . كل واحد منا سيخرج معدنه ، قصيدته ويدسها في جيب الآخر أو يضعها في طبقه . . . (كيبيلدو) ترك قصيدة من قصائده تحت منشفة الملك فوق مائدته . . . هذا ، نعم ، كان يستحق الهم والمغامرة . . . فإما أن نضع الشعر في ساحة تحت أوج الشمس . . . أو أن الكتب تستهلك وتتلف في أصابع الجماهير الإنسانية . . . لكن هذا النشر من شاعر إلى شاعر لا يغربني ، لا يستهويني ، لا يشوقني بل يحدوني إلى أن أنتبذ مكاناً قصياً وسط الطبيعة ، قرب الصخر والموج ، نائياً بنفسني عن دور النشر وعن الورق المطبوع . . . لقد قد الشعر صلته بالقارئ البعيد . . . فعليه أن يستردها . . . عليه أن يجوس الدياجير حتى يلتقي بقلب الرجل ، بعيني المرأة ، بهؤلاء المجهولين الذين يعبرون الشوارع ، الذين فقد يحتاجون في ساعة شفقية أو في ليلة ذات نجوم إلى بيت شعر واجد على الأقل . . . إن هذه الزيارة المباغثة تعادل كل ما مشيناه ، كل ما قرأناه ، كلما تعلمناه . . . لا بد لنا من أن نضيع بين من لا نعرفهم كي يقطفوا عما

(١) إليوت : شاعر وناقد أمريكي شمالي (١٨٨٨-١٩٦٥) .

قريب ثمار أشعارنا من الشارع ، من الرمال ، من الأوراق المتساقطة منذ ألف سنة وحتى الآن في الغابة ذاتها . . . فيتناولوا في حنان هذا الشيء الذي صنعناه نحن . . . حينذاك سنكون شعراء حقيقيين . . . وفي هذا الشيء الذي نصنعه ليقطفه الآخرون سيحيا الشعر . . .

### أنا أحياء مع اللغة،

أنا ولدت عام ١٩٠٤ . في عام ١٩٢١ نشرت لي قصيدة في كتيب . في عام ١٩٢٣ طبع لي أول ديوان وهو «شفقيات» . وهناك أكتب هذه المذكرات في عام ١٩٧٣ . لقد مضت خمسون سنة على تلك اللحظة المثيرة التي يشعر فيها الشاعر بأوائل ابتهالات المخلوق الوليد المطبوع ، حياً ، مهتزاً ، راغباً في أن يلفت الأنظار إليه كأبي وليد آخر .

ليس في مكنة المرء أن يعيش طيلة حياته كلها بلغة واحدة وهو يمطها طولانياً ، يسبرها عمقاً ، ينبش شعرها ، يقلب أمعائها ، دون أن تشكل هذه المعاشة وهذه الألفة جزءاً من تركيبها العضوي . وهذا ما حصل لي مع اللغة الإسبانية . إن للغة الكلام أبعاداً أخرى بينما لغة الكتابة تتخذ طولاً غير متوقع . إن استعمال اللغة كرداء ، أو كبشرة في الجسم ، بأكاماه ، برقعه ، بترشحاته ، بلطخاته من الدم أو من العرق يكشف عن الكاتب . هذا هو الأسلوب . أنا وجدت فترتي التي عشت فيها ، مشوشة مضطربة بثورات الثقافة الفرنسية . لقد جذبتني هذه الثورات دوماً لكنها ما كانت لتتلاءم مع جسدي كرداء له . لقد تكفل (هويدوبرو) وهو شاعر تشيلي ، بالنماذج الفرنسية الرائجة التي طوعها لتتلاءم وطريقته في الوجود والتعبير ، بشكل يستحق التقدير والإعجاب . أحياناً بدا لي وكأنه يتجاوز نماذجه ويتفوق عليها . شيء مثل هذا جرى ، في درجة أعلى ، لـ(روين داريو) حين اقتحم الشعر «الهيساني»<sup>(١)</sup> . بيد أن (روين داريو) كان فيلاً عظيماً صخاباً هشاً زجاج نوافذ فترة كاملة من فترات اللغة الإسبانية كي يتسرب إلى محيطها هواء العالم كله . فدخل وتسرّب .

---

(١) الهيساني : تقترح هذه الكلمة للدلالة على ما هو مكتوب باللغة الإسبانية مقابل «إسباني» (Espouno) الذي يقتصر على ما هو من إسبانيا دون أن يشمل أمريكا اللاتينية .

إن اللغة تفصل ، أحياناً ، بين الإسبان والأمريكان وبخاصة عقيدة اللغة ، فهي تنقسم إلى قسمين . إن جمال (غورنغورا) الجماد لا يناسب أدمادنا وأمادنا ، وليس ثمة من شعر إسباني وإن كان آخر ما كتب إلا وله هذه العادة السيئة بالاقتراب عن الثروة «الغونغولية» . إن شريحتنا الأمريكية لهي من حجر مغبر ، من حمم مطحونة ، من صلصال ودم . إننا لا نعرف أن نشمن الزجاج بقرعه على الحجر ، فنحن نروز الشيء بقرعه في الفراغ حتى يرن فنعرف قيمته . إن قطرة واحدة من نبيذ (مارتين فييرو) أو من شهد (غابرييلا ميسترال) تجعل المثلثين يقفون في مكانهم مندهشين كأنهم ينظرون إلى أصص زهور نادرة .

لقد أصبحت اللغة الإسبانية مذهبة بعد (ثيرفانتيس)<sup>(١)</sup> . أناقة وتهذيباً ، فقدت القوة الهمجية التي جلبتها من (غونثالو دي بيرثيو)<sup>(٢)</sup> ومن (ارثيبيريسته)<sup>(٣)</sup> ، فقدت نزعة الإخصاب التي كانت ما تزال تتوهج في (كيبيدو) . لقد جرى الشيء نفسه في إنجلترا ، في فرنسا ، في إيطاليا . إن إفراط (تشوسر)<sup>(٤)</sup> و(رايبلايس)<sup>(٥)</sup> قد خصي وشظف . إن «البيتراركية»<sup>(٦)</sup> التثمينية جعلت الزمرد والماس والجوهر تلتمع لكن نبع العظمة بدأ ينضب .

لقد كان لهذا الينبوع السالف علاقة بالإنسان في كليته ، مداه ، غزارته ، فيضه . على الأقل هذه كانت مشكلتي مع أنني لم أطرحها على نفسي بهذه الحدود . إن كان لشعري من معنى ، فهو هذا النزوع الفضائي اللامحدود الذي لا يقنع داخل غرفة مسدودة . لقد كان عليّ أن أتجاوز حدودي غير أنني ما صممت حدوداً داخل إطار ثقافة بعيدة . لقد كان عليّ أن أكون أنا إياي ، مجتهداً أن أمتد<sup>(٧)</sup> مثل أراضي

(١) ثيرفانتس : الكاتب الإسباني المعروف مؤلف دون كيخوته (١٥٤٧-١٦١٦) .

(٢) غونثالو دي بيرثيو : شاعر إسباني (١١٨٥-١٢٦٤) .

(٣) ارثيبيريسته : شاعر إسباني مات عام ١٣٥٠ .

(٤) تشوسر : شاعر إنجليزي (١٣٤٠-١٤٠٠) .

(٥) رايبلايس : كاتب فرنسي (١٤٩٤-١٥٥٣) .

(٦) البيتراركية : نسبة إلى الشاعر (بترايك ، فرانثيسكو Pe'trarca, Francisco) ايطالي (١٣٠٦-١٣٧٤) .

(٧) من المعروف أن تشيلي هي أرض طويلة رفيعة ممتدة ، عرضها قليل جداً كما يبدو من الخريطة .

موطني ، مسقط رأسي ، لقد ساعدني في هذا السبيل شاعر آخر من القارة نفسها ألا وهو (والث وايمان)<sup>(١)</sup> ، زميلي ، من «مانهاتان» .

### يجب على النقاد أن يتعذبوا:

إن «أغاني مالدورور» تشكل في العمق قصة متسلسلة كبيرة . لكن يجب ألا ينسى أن (ايسيدور دو كاس) أخذ اسمه المنتحل عن رواية لكاتب القصص المتسلسلة (أوجين سو)<sup>(٢)</sup> وهي رواية لوتريامون المكتوبة في «شاتيناي» عام ١٨٧٣ . لكن (لوتريامونت) ، نعرف ذلك ، مضى أبعد من (لوتريامونت) ، راح إلى ما هو أعمق فقد أراد أن يكون جهنمياً . وراح إلى ما هو أعلى فقد أراد أن يكون ملاكاً لعيناً . إن (مالدورور) ، في عظمة التعاسة ، يحتفل بـ«زواج الجنة بجهنم» . إن الغضب والقصائد الحماسية الغنائية والاحتضار تشكل الأمواج الجارفة في البلاغة «الدوكاسية» . (مالدورور) : مالدولور<sup>(٣)</sup> .

لقد خطط (لوتريامونت) لمرحلة جديدة ، أنكر وجهه المكفهر فكتب مقدمة لشعر متفائل لم يستطع إنجازه وخلقه فقد أخذت المنية هذا الشاعر الأورغواي في باريس . غير أن هذا التغيير الموعود في شعره ، هذه الحركة نحو الطيبة والصلاح ، اللذين ما أمهلت المنية كي يقوم بهما ، قد أثارا من النقد الكثير . فهو يمجّد في آلامه لكنه يُدان في عبوره إلى الفرح . يجب على الشاعر أن يتعذب ويعاني ، عليه أن يحيا بائساً ، لا بد له من أن يظل يكتب الأغنية اليائسة<sup>(٤)</sup> . هذا كان رأي شريحة اجتماعية ، رأي طبقة . لقد أطاع وخضع لهذه الصيغة «الشاهدية»<sup>(٥)</sup> الكثيرون ممن

(١) والث وايمان : شاعر أمريكي شمالي (١٨١٩-١٨٩٢) .

(٢) أوجين سو : شاعر فرنسي (١٨٠٤-١٨٥٧) .

(٣) مالدولور : كلمة تعني الألم السيء . لاحظ التشابه اللفظي بين اسم بطل الرواية Maldoror وبين هذه الكلمة Maldolor .

(٤) الأغنية اليائسة : إشارة إلى قصيدة لنيرودا نفسه ، ترجمناها في كتابنا ، نيرودا ، مختارات شعرية ص ٥٤-٥٨ .

(٥) الشاهدية : نسبة إلى شاهد القبر الحجري ، ومن معاني هذه الكلمة في الإسبانية La pidaril : الناقد أو الثمنن أو حكاك الأحجار الثمينة ، ويستغل (نيرودا) هنا هذه المعاني كلها .

رزحوا تحت العذاب الذي فرضته قوانين ليست مكتوبة لكنها ليست أقل من المكتوبة شاهدة . إن هذه المراسيم غير المرئية تعاقب الشاعر بالكوخ ، بالحذاء المفتوق ، بالمستشفى ، بالتسول . وهكذا الناس كلهم يصبحون فرحين ويمضون في حفلاتهم بقليل من الدموع .

لقد تغيرت الأشياء لأن العالم قد تغير . ونحن الشعراء ترأسنا ، فجأة ، تمرد الفرح . إن الكاتب التعيس والكاتب المصلوب يشكلان جزءاً من طقوس السعادة في غروب الرأسمالية . لقد صُرف اتجاه الذوق العام ، في مهارة ، إلى تضخيم المصيبة وجعلها خميرة في الخلق الفني العظيم . لقد اعتبر السلوك السيء والوجع وصفيتين جيدتين في العمل الشعري . لم يُعط في نهاية القرن ، (هولديرلين) الجنون بالقمر والبائس ، و(رامبو)<sup>(١)</sup> التائه المتمرمر ، و(جيرارد دي نيرفال)<sup>(٢)</sup> الذي شق نفسه في عامود كهرباء عند زقاق بائس ، حدة الجمال واحتداه فحسب بل كذلك درب الألام ، فصار المذهب هو أن هذا الدرب من الأشواك يجب أن يكون الشرط اللازم لكل نتاج روحي .

لقد كان (ديلان توماس) هو الأخير في السنكسار<sup>(٣)</sup> الموجّه .

إن ما هو غريب عجيب أن هذه الأفكار البورجوازية العتيقة الفظة ما زالت سارية المفعول في بعض الأنفس ، أنفس لا تجس نبض العالم في أنفه حيث يجب أن يُجس لأن أنف العالم يشتم المستقبل .

ثمة نقاد يشبهون القرع ، أغصانهم الدالة وتطعيماتهم ، تبحث عن آخر نفس لآخر تقليعة خوفاً من أن تضيع منها لكنما جذورهم وشروشهم ما تزال مطمورة بالماضي .

نحن الشعراء لنا الحق في أن نكون سعداء ، على أساس أن نكون متحدين بشكل حديدي مع شعوبنا وأن نصارع من أجل سعادتها .

«إن (بابلو) هو واحد من بضعة رجال قلائل سعداء ، بمن عرفتهم في حياتي»

(١) رامبو : الشاعر الفرنسي المشهور (١٨٥٤-١٨٩١) .

(٢) جيرارد دي نيرفال : كاتب فرنسي (١٨٠٨-١٨٥٥) .

(٣) السنكسار : أخبار الشهداء والقديسين .

يقول (إيليا ايهرينبورغ) في أحد كتبه . و(بابلو) هذا هو أنا و(ايهرينبورغ) لا يخطيء البتة .

لهذا لا أستغرب أن ينشغل كاتبو مقالات أسبوعية مشهورون أمجاد بوضعي المادي مع أن «الشخصوية» يجب ألا تكون موضوع النقد . إنني لأفهم أن رفاهيتي المفروضة تغيظ الكثيرين لكن الأمر هو أنني سعيد من الداخل . لديّ ضمير مطمئن وعقل غير مطمئن .

إنني لأهيب بالنقاد الذين يحسدون الشعراء ، إن كان لهم مستوى من الحياة أفضل ، أن يفتخروا بأن الدواوين الشعرية تطبع وتباع وتؤدي مهمتها بإيجاد عمل للنقاد ، أن يستهجوا في أن حقوق المؤلف تدفع له وأن بعض المؤلفين ، على الأقل ، يستطيع أن يعيش من عمله المقدس . يجب على الناقد أن يفتخر بهذا كله لا أن يطلق الشعر على الحساء<sup>(١)</sup> .

لهذا ، حين قرأت منذ وقت قريب العبارات التي خصني بها ناقد شاب ، لامع «واكليروسكي» كئاسي ، بدالي ما كتبه سخفاً ، وليس لأن هذا الناقد فذ لامع بدا لي ما كتبه أقل سخفاً وخطأً بما لو كان غير فذ لامع .

بناء على ما يزعمه أن شعري يشعر بالسعادة ولذلك فهو يصف لي العذاب . وفق هذه النظرية فإن التهاب الزائدة الدودية سينتج نشراً ممتازاً وإن التهاب الصفاق سينتج أناشيد رقيقة .

أنا أمضي أعمل بالمواد التي أملك والتي هي أنا . إنني ألتهم كل شيء : المشاعر ، المخلوقات ، الكتب ، الأحداث ، المعارك . لو أستطيع لأكلت الأرض كلها ولشربت البحر جميعه .

### أبيات قصيرة وطويلة:

لأنني شاعر فعال نشيط فقد حاربت تأملاتي الذاتية . لذلك فإن العراك بين ما هو واقعي وبين ما هو ذاتي ، قد انحسم أمره داخل وجودي نفسه . دون أن أزعج أنني بهذا أنصح أحداً من الناس ، أقول إن تجاربي تستطيع أن تساعد وتفيد . لنر النتائج لأول وهلة .

(١) إطلاق الشعر الحساء ، تعبير إسباني بمعنى تدنيس النقاوة وتعكير الجو الصافي .

إنه لمن الطبيعي أن يخضع شعري لحكم النقد الرفيع وأن يتعرض لهوى الانتقاد الحقيقير ، سواء بسواء . إن هذا يدخل في اللعبة . ليس لي حول هذه الناحية من النقاش صوت ، لكن لي رأي لأجل النقد الجوهري ، ان رأيي هو شعري بأسره المتمثل في كتبي ، لأجل الانتقاد المعادي لي أيضاً حق إبداء الرأي وهذا الرأي كذلك مكوّن من إبداعي الذاتي الدائم .

إن ظهر ما أقوله على أنه زهو وغرور فأنتم على حق وهو كذلك فعلاً . إن غروري هو زهو الصانع الذي مارس حرفته خلال سنوات كثيرة في حب لا يمحي .

لكنني راض من شيء واحد ألا وهو أنني بشكل أو بآخر ، جعلت الناس ، على الأقل في وطنين يحترمون حرفة الشعر ، مهنة الشعر .

حين بدأت بنظم الشعر ، كان الشعراء على نوعين اثنين ، شعراء سادة كبار يكسبون احترام الناس بأموالهم التي تساعدهم على اقتناء أهميتهم الشرعية أو اللاشرعية ، والأسرة الثانية من الشعراء هي أسرة المحترفين المتشردين وهم مجانين سحرة ، ساهرون متروصبون ، عمالقة لكنهم معذبون . يبقى كذلك ، حتى لا أنسأهم ، وضع أولئك المربوطين إلى طاولات الدوائر العامة كما يربط المحكوم عليه بالليمان إلى السفينة بسلاسله . لقد كانت أحلامهم ، دوماً ، تخنقها جبال من الأوراق المخنومة ومخاوف رهيبة تجاه السلطة والعار .

لقد قذفت بنفسي إلى الحياة وأنا أكثر عرياً من آدم لكنني كنت مصمماً على المحافظة على طهارة شعري . لم يكن هذا الموقف غير المزحج نافعاً لي فقط بل كذلك أهداف منه أن يدع التافهون الاستهزاء من الشاعر . فكان هؤلاء التافهون ، إن كان لهم قلب وضمير ، يستسلمون أمام شعري القيم وما يوقظه فيهم من معان إنسانية ، وأما الذين هم أشرار فإنهم بدأوا يتخوفون مني .

وهكذا احترم الناس الشعر المكتوب بالحرف الكبير ، ليس الشعر فحسب بل كذلك الشعراء كل الشعراء .

إنني لواع بهذه الخدمة التي قدمتها إلى المجتمع ولن أدع أن يسلبني هذا الفضل أحد من الناس ؛ لأنه يطيب لي أن أحمل هذا الفضل وساماً على صدري دائماً . إن غير ذلك من الأمور قابل للنقاش أما هذا الذي أرويه الآن فإنه تاريخ حاسم وحقيقة مسلمة .

إن أعداء الشاعر العنيد سيشهرون حججاً لم تعد تفيده في شيء ، لقد

سَمُونِي فِي صَبَاي : المِيت جوعاً ، وَالآن هَا هُم يَعَادُونَنِي وَيَحَاوِلُونَ تَنكِيدَ عَيْشِي بِجَعْلِ النَّاسِ يَظُنُّونَ أَنِّي مِثْر ، أَمَلِكُ ثَرَوَةً هَائِلَةً ، إِنَّهُ لِيَعْجَبُنِي أَنَّ أَمَلِكُ هَذِهِ الثَّرَوَةَ إِنْ كُنْتُ لَا أَمَلِكُهَا كَيْي أَنُكِدَ عَيْشَهُمْ وَأَزِيدَهُمْ غَيْظاً بِالإِضَافَةِ إِلَى الأَشْيَاءِ الأُخْرَى الَّتِي أَمَلِكُهَا وَتَبْعَثُ فِي نَفُوسِهِمُ الغَيْظَ وَالْحَسَدَ .

أَخْرُونُ بِقَيْسُونِ سَطُورَ أَشْعَارِي لِيشْتَوُوا أَنِّي أَقْسَمُ هَذِهِ الأَبْيَاتَ إِلَى أَقْسَامِ صَغِيرَةٍ أَوْ أَطِيلُهَا كَثِيراً . لَيْسَ لِهَذَا مِنْ قِيَمَةٍ أَوْ أَهْمِيَةٍ . مِنْ هُوَ الَّذِي يَنْظُمُ الأَشْعَارَ وَيَجْعَلُهَا قَصِيرَةً أَوْ طَوِيلَةً ، نَحِيلَةً أَوْ ثَخِينَةً ، صَفْرَاءَ أَوْ حَمْرَاءَ؟ إِنَّهُ الشَّاعِرُ الَّذِي يَقْرَرُ ذَلِكَ ، يَحْدُدُ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ وَدَمِهِ ، بِمَعْرِفَتِهِ وَجَهْلِهِ لِأَنَّ هَذَا كُلَّهُ يَدْخُلُ فِي خَبِزِ الشَّعْرِ .

إِنْ كَانَ الشَّاعِرُ غَيْرَ وَاقِعِي فَإِنَّهُ لَمِيتٌ ، لَكِنْ ، إِنْ كَانَ الشَّاعِرُ وَاقِعِيّاً فَقَطْ فَإِنَّهُ كَذَلِكَ لَمِيتٌ . إِنْ كَانَ الشَّاعِرُ وَهْمِيّاً فَقَطْ فَإِنَّهُ لَنْ يُفْهَمَ إِلاَّ مِنْ لَدُنْ حَبِيبَتِهِ وَمِنْ نَفْسِهِ ، وَهَذَا مَحْزَنٌ لِلغَايَةِ ، وَإِنْ كَانَ الشَّاعِرُ عَقْلَانِيّاً فَقَطْ فَإِنَّهُ سَيُفْهَمُ مِنْ قَبْلِ الجَمِيعِ وَحَتَّى مِنْ قَبْلِ الحَمِيرِ وَهَذَا كَذَلِكَ مَحْزَنٌ جَدّاً . لَيْسَ ثَمَّةُ مِنْ أَرْقَامٍ وَصَيْغٍ مَكْتُوبَةٍ عَلَى الأَلْوَاحِ بِالنِّسْبَةِ لِهَذِهِ المَعَادِلَاتِ ، وَلَيْسَ ثَمَّةُ مِنْ عُنَاصِرٍ وَمَوَادِّ قَدَرَهَا اللهُ أَوْ قَرَرَهَا الشَّيْطَانُ ، بَلْ إِنْ هَاتَيْنِ الشَّخْصِيَّتَيْنِ المَهْمَتَيْنِ تَتَصَارَعَانِ دَاخِلَ الشَّعْرِ ، وَفِي هَذِهِ المَعْرَكَةِ قَدْ يَغْلِبُ هَذَا أَوْ قَدْ يَغْلِبُ ذَلِكَ لَكِنْ الشَّعْرُ لَنْ يَهْزِمَ البَتَّةَ .

إِنَّهُ لَمَنْ الوَاضِحُ أَنَّ حَرْفَةَ الشَّاعِرِ أَصْبَحَتْ مَغْشُوشَةً نَوْعاً مَا . يَخْرُجُ شَعْرَاءُ مَبْتَدِئُونَ كَثِيرُونَ وَشَوَاعِرُ مَبْتَدِئَاتٌ كَثِيرَاتٌ إِلَى دَرَجَةٍ أَنَا سَنَبِدُو عَمَّا قَرِيبَ جَمِيعاً شَعْرَاءَ وَسَيَخْتَفِي القَرَاءُ . سَيَكُونُ عَلَيْنَا أَنَّ نَذْهَبَ لِلبَحْثِ عَنِ القَرَاءِ فِي رِحَالَاتِ تَجْتَازُ الرَّمَالَ عَلَى ظُهُورِ الجَمَالِ أَوْ تَحْلُقُ فِي السَّمَاءِ بِسَفْنِ فِضَائِيَّةٍ .

إِنَّ الشَّعْرَ لَهُوَ النِّزْعَةُ العَمِيقَةُ فِي الإِنْسَانِ ، فَمِنْ الشَّعْرِ خَرَجَتْ الطَّقُوسُ الدِّينِيَّةُ ، وَالمِزَامِيرُ وَكَذَلِكَ مَحْتَوَى الأَدْيَانِ . لَقَدْ فَسَّرَ الشَّاعِرُ مَظَاهِرَ الطَّبِيعَةِ وَتَجَمَّرَ عَلَيْهَا وَتَقَلَّبَ فِي العُهُودِ الأُولَى كَاهِناً كَيْي يَصُونُ دَعْوَتَهُ ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الشَّاعِرَ ، فِي العَصْرِ الحَدِيثِ ، كَيْي يَدَافِعُ عَنِ شَعْرِهِ ، يَرْتَدِي الزِّي الَّذِي تَحْلَعُهُ عَلَيْهِ الجَمَاهِيرُ وَالشَّوَارِعُ . إِنْ الشَّاعِرُ المَدْنِيُّ اليَوْمَ لَا يَزَالُ هُوَ أَقْدَمُ كَاهِنٍ وَرِثَ الكَهَنُوتِيَّةَ السَّحِيقَةَ فِي القَدَمِ . لَقَدْ تَحَالَفَ مِنْ قَبْلِ مَعَ الدِّيَاجِيرِ وَعَلَيْهِ الآنُ أَنَّ يَشْرَحَ النُّورَ .

## الأصالة:

أَنَا لَا أَعْتَقِدُ بِالأَصَالَةِ . إِنَّهَا لِصَنْمٍ آخَرَ ، مَخْلُوقٍ فِي عَصْرِنَا ذِي الإِنهْيَارِ السَّرِيعِ



المسبب للدوار . إنني لأعتقد بالشخصية من خلال أية لغة ، أي شكل ، أي معنى للخلق الفني . لكن الأصالة الهاذية الهتراء هي اختراع حديث وغش انتخابي . ثمة من يريد أن يختار الشاعر الأول في بلده ، في لغته ، في العالم بأسره . عند ذلك يجري بحثاً عن ناخبين ، يلعن كل من يظن أن لديه احتمالاً في أن ينافس على الفوز بهذا الصولجان ، وبهذا الشكل يتحول الشعر إلى مهزلة .

غير أنه من الضروري الاحتفاظ بالاتجاه الداخلي . المحافظة على النمو الذي تساهم به الطبيعة والثقافة والحياة الاجتماعية لتطوير ميزات الشاعر وميزاته .

لقد كتب ، في الأزمنة القديمة ، أكثر الشعراء نبلاً وأكثرهم صرامة ، مثل (أوفيديو) Ovidio ، مثلاً ، قصائدهم مع هذا التنبيه : «تقليد لـ(هوراثيو) Horacio» (١) ، «تقليد لـ(أوفيديو)» (٢) ، «تقليد لـ(لوكراتيو) (Lucrecio)» (٣) .

من جهتي ، إنني لأحافظ على لحنِي الخاص بي الذي راح يتوطد بفضل طبيعته الذاتية مثلما تنمو الأشياء الحية كلها . لا مندوحة من أن العواطف تشكل جزءاً أساسياً في أوائل دواويني ، فأه للشاعر الذي لا يجيب بغنائه على نداءات قلبه الناعمة أو الغاضبة! بيد أنني ، بعد أربعين سنة من التجربة ، أعتقد أن التأليف الشعري يستطيع التوصل إلى سيطرة على العواطف أكثر جذرية وأساسية . إنني لأؤمن بالارتجالية الموجهة أو العفوية المسيرة أو التلقائية المقننة . لأجل هذا فلا بد من أن تكون ثمة أرصدة يجب أن توضع تحت تصرف الشاعر دوماً ، فلنقل إنه يجب أن يحملها معه في جيبه ، لأية طارئة قد تحدث . أول ما يجب أن يزود به الشاعر هو رصيده من الأشكال والمضامين ، من الكلمات ، من الأوزان ، من الألحان ، من الصور ، ومن هذه الأشياء التي تمر إزاء المرء كما النحل . يجب أن تصاد توأ وأن توضع في الجيب . أنا جد كسول في هذا المعنى ، لكنني أدري أنني بهذا أعطي نصيحة طيبة للشعراء الآخرين . لقد كان لدى (ماياكوفيسكي) كراس صغير يلجأ إليه بلا هوادة أو تريت . ثمة أيضاً مخزون العواطف . فكيف تحفظ هذه؟ تحفظ بنوعيتها حين

---

(١) هوراثيو : شاعر لاتيني من القرن الأول قبل المسيح .

(٢) أوفيديو : شاعر لاتيني من القرن الأول قبل المسيح .

(٣) لوكراتيو : شاعر لاتيني من القرن الأول قبل المسيح .

تحدث . من بعد ، أمام القرطاس ، سنتذكر هذا الوعي في حيوية أكثر من حيوية العاطفة نفسها .

في قسم كبير من تاليفي أردت أن أبرهن على أن الشاعر يستطيع أن يكتب حول ما يشار له به ، حول كل ما هو ضرورة للمجموعة الإنسانية . إن أكثر المؤلفات العظيمة في القدم قد كتبت بناء على مطالب ضيقة خاصة . إن كتاب «جورجيكاس» هو دعاية للزراعة الرومانية يستطيع الشاعر أن يكتب للجامعة أو النقابة ، للمنظمات وجمعيات الحرف . أبداً لم يفقد الحرية بهذا . إن الوحي السخري وإن اتصال الشاعر بالله إن هما إلا اختلافين مغرضين وابتكارين ذوي مصلحة . في أكثر لحظات الإبداع غيبوبة قد يكون النتائج ، جزئياً ، بعيداً عن صاحبه ، متأثراً بقراءاته وبضغوط خارجية عنه .

هأنذا أقطع هذه الاعتبار والأحكام التي هي نظرية لا تذكر الحياة الأدبية التي خضتها في أعوامي الفتية . كان ثمة ، إذآك ، رسامون وكتاب يتهيجون هياجاً أصم . كان ثمة ، حينذاك ، غنائية خريفية في الرسم وفي الشعر . كل واحد كان يحاول أن يكون أكثر فوضوياً ، أكثر انفلاشاً . كانت الحياة الاجتماعية التشيلية تتحرك بشكل عميق . (اليساندرى) كان يلقي خطباً تستهدف قلب النظام . في سهول ملح البارود أخذ العمال ينظمون أنفسهم فخلقوا أكثر الحركات الشعبية أهمية في القارة الأمريكية . لقد كانت تلك الفترة أيام صراع مقدس . أيام (جان غاندولفو) و(كارلوس بيكونيا) . لقد التحقت أنا بحركة العقيدة الفوضوية الطلابية . كان كتابي المفضل هو «سانشا يغوليف» Sancha Yegulev لـ(أندريف) . كان الآخرون يقرأون الروايات الإباحية لـ(ارزيفاشيف Arzivachev) وكانوا ينسبون إليه استنتاجات عقائدية كما يقع اليوم بالنسبة للإباحية الوجودية . كان المثقفون يلتجئون إلى النوادي الليلية فكان النبيذ المعتق يجعل البؤس يلتمع التمتع الذهب حتى مطلع الفجر في اليوم التالي . (جان إيجانيا Juan Egana) ، شاعر موهوب جداً ، كان قد أفلس حتى القبر<sup>(١)</sup> فيحكى عنه أنه ورث أموالاً كثيرة أنفقها على الكأس والطاس فوق طاولة في حانة مهجورة . كان السمّار ينامون نهاراً ويخرجون ليلاً للبحث عن نبيذ فيحتسون دنائاً

(١) أفلس حتى القبر : تعبير إسباني ، حتى الضنك .

بأسرها . غير أن هذا الشعاع القمري لشعر (خوان ايغانيا) هو ارتعاش غير معروف في «غابتنا الغنائية» ، وهذا هو العنوان الرومانطيكي لكتاب المختارات الكبير الذي ألفه (مولينا نونيث) و(و . سيغورا كاسترو O. Segura Castro) ، وهو كتاب واسع محيط مليء بالعظمة والجدود ، وهو الحصيلة الشعرية لفترة مضطربة مرتبكة ، متميزة بفراغات هائلة وببريق نقى جداً . إن أكثر شخصية بهرتني هي شخصية ديكتاتور الأدب الفني الحديث ، لم يعد يذكره أحد ، كان يسمى (البيرو اويارتون) ، لقد كان (بودليريا) ضامراً ، كأنه في عصر الانحطاط لكنه مليء بالمزايا الفريدة ، كأنه (باربا-جاكوب) بالنسبة لتشيلى . كان يتكلم بصوت أجش في قامته الطويلة . لقد اخترع هذه الطريقة الهيروغليفية الغامضة فعرض القضايا والمشاكل الفنية الجمالية ، وهو عرض فريد من نوعه في عالمنا الأدبي . كان يرفع صوته ويبدو جبينه كأنه قبة صفراء في معبد الذكاء . كان يقول مثلاً : «ما هو دائر في الدائرة» ، «ما هو «ديونيسي» في (ديونيسوس Dionysos)» ، «ما هو معمه في المعتمات» . لكن (أليرو اوريثون) لم يكن غيباً ، بل كان يلخص في ذاته ما هو فردوسي وما هو جهنمي في الثقافة . لقد كان كونياً : فبسبب حبه للتنظير ، قتل جوهره الأصيل . يقولون إنه كي يكسب في مرانته كتب قصيدته الوحيدة ، وأنا لا أفهم لماذا لا ترد هذه القصيدة الرائعة في كتب المختارات الشعرية التشيلية كلها .

## زجاجات وتمائيل

هو ذا عيد ميلاد يقترب . كل عيد ميلاد يمر ، يقربنا من عام ٢٠٠٠ . من أجل هذه البهجة المقبلة من أجل سلام الغد ، من أجل العدالة الكونية العالمية صارعنا وأنشدنا نحن شعراء هذا الزمن .

لقد طلب مني ، في ٢٤ كانون الأول من عام ١٩٣٠ ، (سوقراط اغييره) ، ذاك الرجل الناعم الفاخر الممتاز الذي كان رئيسي في قنصلية تشيلي بـ«بونوس ايبيرس» ، أن أجعل من نفسي القديس (نيقولاً) أو رجل الفصح العجوز بداره . لقد صنعت أشياء كثيرة سيئة في حياتي ، لكن ما من شيء صنعته كان أسوأ من هذا «رجل الفصح العجوز» . لقد كانت تتساقط مني شواربي القطنية وأخطأت كثيراً في توزيع الألعاب . وكيف يمكن لي أن أخفي صوتي وقد جعلته طبيعة الجنوب التشيلي اغنأخن ، أنفيا ، خاطبت الأطفال باللغة الإنجليزية ، لكن الأطفال كانوا يفرزون بي عدة

أزواج من عيون سوداء وزرقاء ويبدون ارتياباً وشكاً وعدم ثقة لا تليق بهم فهم على خلق عظيم وتربية صالحة .

من كان سيقول إن ثمة من بين أولئك الأطفال ، طفلة ستصبح من أحسن صديقاتي المفضلات ومن أحسن من كتبوا سيرتي وترجموا لي ، أعني بها الكاتبة الشهيرة (مارغاريتا غيره) .

لقد جمعت في بيتي ألعاباً صغيرة ودمى كبيرة ، لن أستطيع العيش بدونها . إن الطفل الذي لا يلعب ليس بطفل ، لكن الرجل الذي لا يلعب فإنه سيفقد للأبد الطفل الذي كان يعيش في داخله والذي سيحتاج إليه دوماً . لقد شيدت بيتي كذلك مثل لعبة ألعب بها من الصباح إلى الليل .

إنها لعبتي الخاصة بي ، لقد جمعتها طيلة حياتي كلها بهدف علمي ألا وهو أن أتسلى بها وحدي . سأصفها من أجل الأطفال : الأطفال الصغار وأطفال الأعمار كلها .

عندي سفينة شراعية داخل زجاجة . لكي أقول الحقيقة إن عندي أكثر من واحدة . إنها لأسطول حقيقي لها أسماؤها المكتوبة ، قضبانها ، قلاعها ، قياديتها ، مراسيها ، مخاطيفها ، بعضها جاء من بعيد ، من بحار أخرى صغيرة . واحدة منها ، وهي من أجمل السفن ، أرسلوها لي من إسبانيا كدفع لحقوق المؤلف عن كتاب من كتب أناشيدي . في الأعلى ، على السارية الكبيرة ترفرف رابتنا التشيلية بنجمتها الوحيدة الصغيرة . لكن ، البواخر الأخرى ، تقريباً كلها ، هي من صنع السيد (كارلوس هوياندير) والسيد (هوياندير) هو بحار عجوز ، أعاد إنتاج الكثير من السفن الجليلة الشهيرة التي كانت تجيء من «هامبورغ» أو من «سالم» أو من الشاطئ البريطاني لشحن ملح البارود أو لصيد الحيتان من بحار الجنوب .

حين أهبط الطريق الطويل لتشيلى كي أجد في «كورونيل» البحار العجوز بين رائحة الفحم والمطر الغزير بهذه المدينة الجنوبية ، فإنني في الحقيقة ألج إلى الترسانة حيث يوجد أصغر مرآب لبناء السفن في العالم . في القاعة ، في غرفة الطعام ، في المطبخ ، في الحديقة كانت تتراكم وتتنظم المواد التي ستحشر داخل الزجاجات الشفافة الواضحة التي قد أفرغ منها «البيسكو»<sup>(١)</sup> . يلمس السيد (كارلوس) بصفيhre

(١) البيسكو : نوع من الخمر يشبه العرق .

السحري قياديم ، أشرعة ، صواري ، فيستحيل كل ما يمر بين يديه حتى أصغر دخان في المرفأ إلى خلق وإبداع ، إلى سفينة زجاجية جديدة ، نضرة مشعة ، مهياة للبحر الوهمي . تبرز في مجموعتي في كبرياء و غطرسة ، من بين السفن الأخرى التي اشتريتها في «امبيرس» أو «مارسيليا» ، السفن التي خرجت من يدي ملاح «كورونيل» المتواضعتين . فهو لم يمنح هذه السفن الحياة فحسب بل أضاءها بمعرفته ، ملصقاً عليها إعلاناً يحكي الاسم والرقم ومآثر كل نموذج يقلده ، الأسفار التي قامت بها كل سفينة ، الأحوال التي لاقتها ، الحمولات التي وزعتها حين كانت تمخر ضد الريح مرتعشة عبر المحيط الهادي بأشرعتها التي لن نراها من بعد أبداً .

أنا عندي سفن زجاجية قديرة وعظيمة وشهيرة جداً مثل سفينة «بوتوسي» الرائعة وسفينة «بروسيا» الهائلة التي انطلقت من «هامبورغ» وغرقت في قناة «المانش» عام ١٩١٠ . إن المعلم (هوياندير) قد خصني فصنع لي كذلك نموذجين من سفينة «ماريا ثيلبيسته»<sup>(١)</sup> التي منذ عام ١٨٨٢ تحولت إلى نجمة ، في سر من الأسرار .

لست مستعداً لكشف السر الملاحى الذي يحيا في شفوف هذه السفن الزجاجية . وهو يتعلق بمعرفة كيف دخلت هذه السفن الصغيرة في زجاجاتها الهشة جداً . أنا ، بصفتي خادعاً محترفاً ، بغرض التزوير ، وصفت بشكل دقيق في نشيد ، العمل المسهب الضئيل في هذه البنى الغربية العجيبة ، ورويت كيف تدخل وتخرج من الزجاجات البحرية . لكن السر ظل قائماً .

إن أفضل لعبي لهي تماثيل القياديم المقنعة . كبقية أشياء كثيرة فإن هذه التماثيل المقنعة قد عولجت في الصحف وفي المجلات ، قد نوقشت في رفق أو في حقد في رضا أو في سنخط ، الذين يحكمون لها في رفق ورضا يضحكون ويقولون :

يا له من مخبول معتوه ، ما الذي أدى به إلى هوس جمع هذه الأشياء! والذين يحكمون عليها في حقد وسنخط يرون الأشياء بشكل آخر . واحد منهم ، متمرر بسبب مجموعاتي وبسبب الراية الزرقاء ذات السمكة البيضاء التي أنا أرفعها فوق داري بـ«ايسلا نيغرا» قال :

- إنني لا أنصب راية خاصة وليس عندي تماثيل قياديم .

(١) ماريا ثيلبيسته : معناها ، مرم السماوية .

كان المسكين يبكي بكاء صبي يحسد الصبيان الآخرين على الخدروف الذي يلعبون به ، فيما كانت تماثيلي البحرية تبتسم مفتونة زاهية ، تضحك من الحسد الذي تبعته فيهم جميعاً .

في الحقيقة كان يجب أن يقال دوماً ، دفعاً للالتباس ، تماثيل قياديم ، إنها لأشكال نصفية ، إنها لنصب بحرية ، إنها لصور للمحيط الضائع . حين بنى الإنسان أشرعته أحب أن يسمو بقياديم سفنه في معنى أجلّ وأرفع . فوضع منذ القدم في أشرعته أشكال طيور ، عصافير طوطمية ، حيوانات خرافية ، نقوشاً في الخشب . من بعد ، في القرن التاسع عشر نحتت البواخر الحيتانية الضخمة أشكالاً ذات صفات رمزية : إلهات نصف عاريات أو سيدات يمثلن العهد الجمهوري بقبعات قشبية جمهورية .

أنا عندي تماثيل قياديم مذكرة ومؤنثة . أصغر واحدة من المؤنثات وأبدعها تسمى «ماريا ثيليستة» وقد حاول (سالفادور ايننده Salvador Allende)<sup>(1)</sup> أن يخطفها مني عدة مرات ، وهي كانت تنتمي إلى سفينة فرنسية ذات حجم صغير ولعلها لم تبحر إلا في مياه نهر «السين» ، وهي منحوتة من شجر بلوط ، ذات لون غامق إذ إنها بعد مضي السنين ، وبعد العديد من الإبحار أصبحت سمراء إلى الأبد . إنها لصبية صغيرة تبدو وكأنها تطير لدى إشارة من الريح في ملابسها الجميلة من أزياء الإمبراطورية الثانية . تنظر عيناها ، من فوق غمازات خديها ، إلى الأفق البعيد ، وهاتان العينان ، وإن بدا هذا غريباً ، تبكيان خلال فصل الشتاء في كل سنة . لا أحد يستطيع أن يفسر هذه الدموع الفصلية . ربما أن الخشب المصنوعة منه له صمغ يتضمخ بالرطوبة . لكن ما هو أكيد أن هاتين العينين الفرنسييتين تبكيان في الشتاء ، أنا أرى كل سنة في هذا الفصل الدموع الرائعة وهي تتصبب من وجه «ماريا ثيليستة» الصغير .

قد يستيقظ شعور ديني في الإنسان تجاه الصور والتماثيل ، أكانت هذه مسيحية أم وثنية فالأمر سواء . واحدة أخرى من تماثيلي الأثوية مكثت خلال بضعة أعوام في المكان الذي يناسبها ألا وهو مقابل البحر ، في وضعية مائلة منحدره كما لو أنها كانت تمخر في الباخرة . غير أن (ماتيلده) وأنا اكتشفنا ذات مساء بعض السيدات

---

(1) سالفادور (ايننده) هو رئيس جمهورية تشيلي ، انتخب رئيساً عام ١٩٧٠ ، وقتل عام ١٩٧٣ على إثر

الانقلاب العسكري اليميني .

المتدينات التقييات في «ايسلا نيغرا» وقد قفز من على حاجز الدار كما يعتاد أن يفعل الصحفيون الذين يريدون إجراء مقابلة معي ، رأيناهن وهن راكعات أمام تمثال القيدوم المضاء بكثير من الشموع التي كنا قد أشعلناها لهذا التمثال الأثوي . لعل ديناً جديداً قد ولد . لكن مع أن التمثال كان في موضع عال ويبدو طويلاً جليلاً مثل (غاربيلا ميسترال) فقد كان علينا أن نبعث اليأس في نفوس المؤمنات كي لا يمكنهن هناك عابدات في براءة ووقار ، صورة امرأة بحرية كانت قد أبحرت عبر أكثر البحار خطيئة في كوكبنا المذنب مقترف الخطايا دائماً .

منذ ذلك الحين ، نحيتها من الحديقة وها هي الآن قربي عند المدخنة .

كتب ووقوع :

إن هاوي الكتب الفقير له مناسبات لا نهاية لها للمعاناة والعذاب ، فالكتب لا تفر من بين يديه ، بل تعبر أمامه عبر الهواء في طيران عصفور ، في طيران أسعار عالية .

غير أنه بعد تنقيب كثير وبحث عسير تبرز الدرّة .

أذكر دهشة بائع الكتب (غارثيا ريكو Garcia Rico) بمدريد في عام ١٩٣٤ حين اقترحت عليه أن أشتري منه طبعة قديمة من ديوان (غونغورا) الذي كان ثمنه ١٠٠ «بيسيته» فقط ، بأقساط شهرية قدرها ٢٠ «بيسيته» كل شهر . لقد كان ثمن هذا الديوان مبلغاً زهيداً غير أنني ما كنت أملكه فدفعت له في الموعد المحدد على مدى ستة أشهر<sup>(١)</sup> . لقد كانت هذه الطبعة هي طبعة (فوبينيس) . هذا الناشر الفلامنكي طبع بحروف رائعة لا يمكن مقارنتها بغيرها نظراً لجودتها وجمالها ، في القرن الثامن عشر ، أعمال المعلمين الأسبان الفطاحل من العصر الذهبي<sup>(٢)</sup> .

لا يعجبني أن أقرأ لـ(كيببدو) إلا في تلك الطبعات حيث الـ«سونينوس»<sup>(٣)</sup> تبرز في خط دفاعي مثل بوارج حديدية . من بعد ألفت غابة دكاكين الوراقين في ضواحي المدينة الوعرة حيث تباع كتب «اليد الثانية»<sup>(٤)</sup> وتترن على أروقة المكتبات

(١) يبدو أنه حين اشترى الديوان لم يدفع شيئاً ولذلك يقول على مدى ستة أشهر وليس خمسة أشهر .

(٢) هو القرن السادس عشر الميلادي .

(٣) السونينوس : هي قصائد تشبه الأراجاز العربية .

(٤) اليد الثانية : تعبير إسباني بمعنى للمرة الثانية .

الضخمة التي تشبه أروقة الكاتدرائيات في فرنسا وإنجلترا . لقد كانت يداي تخرجان بعد اللمس والبحث مغبرتين ، لكن من حين إلى حين كنت أحصل على كنز ، أو على الأقل ، على الفرح بافتخاري في أنه كنز .

لقد ساعدتني الجوائز الأدبية التي دفعت لي عدأً ونقداً على اقتناء بعض النسخ بأثمان شاذة فأصبحت مكتبتي معتبرة ، كانت كتب الشعر القديمة تبرز فيها وضاحة براقه ، وكذلك فإن شغفي بالتاريخ الطبيعي ملاًها بكتب ضخمة من علم النبات في كل صنف ولون ، ومن علم الطيور ومن علم الحشرات ومن علم الأسماك . لقد وجدت كتب رحلات وأسفار ساحرة ، طبعت لكتاب «جون كيخوته» لا تصدق ، مطبوعة من قبل (ايبارا Ibarra) كتيبات لـ(دانتي Dante)<sup>(١)</sup> في طباعة رائعة ، حتى إنني عثرت على كتاب لـ(موليير Moliere)<sup>(٢)</sup> كان قد طبع في نسخ قليلة جداً (Adusnm Delphine) لابن ملك فرنسا .

لكن ، في الواقع ، إن أحسن ما جمعت في حياتي كانت هي قواعي . لقد منحنتني متعة بنيتها المدهشة : لنقاوة القمرية : نقاوة «بورسلان» غريب ساحر بالإضافة إلى العديد من الأشكال الملساء ، الغوطية ، الفخمة .

إن آلاف الأبواب الصغيرة البحرية قد انفتحت أمام معرفتي منذ ذلك اليوم الذي أهدى إليّ فيه عالم الرخويات الكوبي السيد (كارلوس دي لا توريه) أحسن نماذج مجموعته . منذ ذلك الوقت وأنا ، حيث أسافر ، أجوب البحار السبعة بحثاً عنها . لكن عليّ أن أعترف أن بحر باريس ، بين موجة وموجة ، هو من كشف لي قواع أكثر . كانت باريس قد نقلت أصداف المحيطات كلها إلى دكاينها لبيع تحف التاريخ الطبيعي ، إلى «أسواقها البراغيشية» .

لقد كان أسهل من إدخال الأيدي في صخور «بيراكروث» (Veracruz) أو «كاليفورنيا» السفلى ، العثور ، تحت غلاف المدينة ، بين زجاج مكسر وأحذية قديمة ، على الطيف الشائق لحلزونة «الزيتونة المحاكة» أو مفاجئة حلزونة الرمح المصنوع من المرو الذي يتناول ويتناول ، كبيت شعر من الماء ، في (La Rosellaria Fusus) لا أحد يستطيع أن ينزع مني الانبهار والزهو بأني قد استخرجت من البحر (el

(١) دانتي Alishieri : الأديب الإيطالي المعروف مؤلف الكوميديا الإلهية ، (١٢٦٥-١٣٢١) .

(٢) موليير : الأديب الفرنسي الشهير (١٦٢٢-١٦٧٣) .



(Espondylus) الوردية وهو محارة مرصعة بأشواك مرجانية . وقدرت أن أشاهد (el Espondylus) الأبيض وهو مفتوح بين بين ، وهو مصنوع من قضبان وأشواك ثلجية بيضاء تبدو كالنوازل الكليسة المترسبة في مغارة «غونغورية» .

بعض هذه الانتصارات كانت تاريخية . أذكر أنه في متحف بكين فتحوا الصندوق الأكثر تقديساً ، المليء برخويات البحر الصيني وأهدوا إليّ نموذجاً من النموذجين الاثنين الوحيدين من صنف (Thatcheria Mirabilis) استطعت أن أكرر هذا العمل الفني الخارق الذي به أهدى المحيط إلى الصين أسلوب المعابد والهيكل الذي عم وشاع إلى الآن في تلك الأصقاع .

لقد استغرقت ثلاثين سنة وأنا أجمع كتباً كثيرة . كانت رفوفي تحتوي على كتب طبعت قبل زمن بعيد ومجلدات كانت تهزني ، كتب لـ (كيبيدو) و(ثيرفانتس) و(غونغورا) في طبعتها الأصلية الأولية ، كذلك على كتب لـ (لافورغه) (Luforque) لـ (رامبو) لـ (لورتيامون) . كانت هذه الصفحات تبدولي وكأنها ما زالت تحتفظ بلمس هؤلاء الشعراء الأحياء . لقد أهدى إليّ (بول أيلوار) بمناسبة عيد ميلادي في باريس الرسالتين اللتين كتبهما (ايسابيل رامبو) إلى أمه في المستشفى بمرسيليا ، حيث بُترت لهذا المتشرد التائه ساقه . لقد كانت هاتان الرسالتان كنز ين يطمع بهما : المكتبة الوطنية في باريس وجامعو الكتب الشرهون في «شيكاغو» .

لقد جبت العوالم كلها إلى درجة أن مكتبتي نمت في إفراط وجاوزت شروط المكتبة الخاصة . ذات يوم أهديت مجموعة القواقع التي قضيت عشرين سنة وأنا أجمعها وتلك المجلدات التي بلغ عددها الخمسة آلاف التي اخترتها في حب عظيم في أقطار العالم كله ، إلى جامعة تشيلي فاستقبل مدير الجامعة هذه الهبة بالجمل الطنانة والكلمات الجميلة .

أي إنسان متبلور شفاف سيفكر في البهجة التي عمت تشيلي إثر هديتي هذه ، لكن ثمة أناس ضد المتبلورين وغير متبلورين . لقد كتب ناقد رسمي مقالات غاضبة يحتج فيها بحدة وشدة على سلوكي هذا . متى سيقطع دابر الشيوعية الدولية؟ كان يصرخ ، سيد آخر ألقى في البرلمان خطاباً ملتعباً ضد الجامعة لأنها قبلت هداياي الرائعة ، القابلة للمهد منها وغير القابلة<sup>(١)</sup> وهدد بقطع الإعانات التي تتلقاها الجامعة

(١) تعبير إسباني ، بمعنى الصالح والطالح .

الوطنية . بين كاتب المقالات ونائب البرلمان شن آخرون موجة من الصقيع فوق عالم تشيلي الصغير ، فكان مدير الجامعة يروح ويغدو عبر كواليس البرلمان شاحب الوجه مرتعداً ، ثم فصل وعزل .

لقد انقضت عشرون سنة على ذلك التاريخ وما من أحد عاد فرأى كتبي أو قواعي ، يبدو أنها رجعت إلى دكاكين الوراقين وإلى المحطات .

### زجاج مهشم،

منذ ثلاثة أيام عدت لأدخل بعد غياب طويل إلى داري في «البارائيسو» فرأيت شقوفاً تجرح الحيطان والزجاج قد أصبح شظايا مهشمة تشكل سجادة أليمة فوق الأرض في الغرف جميعها . كانت الساعات التي هوت على الأرض تشير إلى ساعة حدوث الزلزال . كم من الأشياء الجميلة تكنسها الآن (ماتيلده) بمكنسة! كم من الأغراض الغريبة التي حولتها الهزة الأرضية إلى قمامة ونفاية!

يجب علينا تنظيف الدار وترتيب الحاجات والبدء من جديد . إنه ليكلف جهداً العثور على الورق في وسط الفوضى ، وإنه لصعب من بعد ، إيجاد الأفكار . كانت آخر أعماله هي ترجمة «روميو وجوليت» وقصيدة غزل طويلة في أوزان قديمة ، لكنها ظلت غير منتهية .

هيا ، أيتها القصيدة الغزلية انهضي من بين الزجاج المهشم فلقد حانت ساعة الغناء .

ساعديني ، أيتها القصيدة الغزلية ، على إعادة الصفاء ، على الغناء فوق الألم . إنها لحقيقة أن العالم لا يتطهر من الحرب ، لا يغسل من الدم ، لا يلم من الكراهية ، إنها لحقيقة .

بيد أنها كذلك ، في حد سواء ، لحقيقة أننا نقترب من الجلاء : إن العنيفين ينعكسون في مرآة العالم ، ووجههم ليس جميلاً حتى في نظرهم أنفسهم . وما زلت أعتقد في إمكانية الحب . لديّ يقين بأن التفاهم بين البشر سيتم على الرغم من الآلام ومن الدم ومن الزجاج المهشم .

### (ماتيلده اوروتيا) ، زوجتي،

إن زوجتي لهي قروية مثلي أنا . ولدت في بلدة بالجنوب تدعى «تسييان» ، وهذه

البلدة شهيرة ، من الناحية السعيدة ، بأواينها الفخارية الريفية ، ومن الناحية  
التعبية ، بزلازلها الرهيبة .

قد قلت كل ما أريد أن أقوله لها في ديواني «مائة أرجوزة حب» (Cien sone'tos  
de amor)<sup>(١)</sup> .

ربما تستطيع هذه الأشعار أن تدل عما تعينه هي بالنسبة لي . لقد جمعتنا الحياة  
والأرض .

مع أن هذا لا يهم أحداً غيرنا فإني أقول ، نحن سعيدان جداً . نقسم وقتنا  
المشترك إلى جلسات طويلة في شاطئ تشيلي المنعزل الوحيد . ليس في الصيف لأن  
الشريط الساحلي الذي تعيد تجفيفه الشمس طيلة الصيف يعلن عن نفسه أصفر  
أجرد صحراوياً . بلى في الشتاء حين يرتدي هذا الشريط في تزهير غريب مع الأمطار  
والبرد ، الأخضر والأصفر ، الأزرق والأرجواني . بعض الأحيان نصعد من المحيط  
البري الوحيد إلى المدينة العصبية ، إلى العاصمة «سانتياغو» التي فيها نعاني معاً من  
وجود الآخرين المعقد .

(ماتيلده) تغني في صوت قدير أغاني وقصائدي .

إنني لأهدي إليها كل ما أكتب وكل ما أملك ، ليس بالكثير لكنها سعيدة  
راضية .

الآن ألمها وهي تدفن حذاءها في طين الحديقة ومن بعد تدفن يديها الصغيرتين  
في عمق النبتة .

لقد جلبت لي من الأرض برجليها ويديها وعينيها وصوتها الجذور كلها ، الزهور  
جميعها ، ثمار السعادة الشذية جمعاء .

### مخترع نجوم:

رجل كان ينام في غرفته بفندق بباريس ، ربما أنه كان سهيراً كبيراً فلا تندھشوا  
إن قلت لكم إنه كان يظل نائماً إلى ما بعد منتصف النهار .

لقد اضطر أن يستيقظ ذات يوم وكانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة فقد انهار  
الجدار الشمالي على حين غرة ثم انهار الحائط المواجه ، لم يكن الأمر بغارة جوية .

(١) لقد ترجمنا الكثير من هذه «الأراجيز» في كتابنا «بابلو نيرودا : مختارات شعرية» .

كان يدخل عبر الفجوات الحديثة الحفر عمال ذوو شوارب كبيرة والحماله بأيديهم فينتهرون النوم :

(Eh, le've, bourgeois) تناول كأساً معنا .

انفتحت زجاجات الشمبانيا ، دخل رئيس البلدية بشريط ذي ثلاثة ألوان على صدره . صدح بوق بنغمات «المارسيليز» . ما هو السبب الذي أدى إلى هذه الأعمال الغريبة؟ حصل أنه هناك تحت أرض غرفة ذلك الحالم وقعت نقطة الاتصال بين طرفي السكة الحديدية التي تحت الأرضية في باريس ، التي كانت في تلك الفترة بمرحلة الإنشاء .

منذ تلك اللحظة التي روى لي ذلك الرجل هذه الحكاية قررت أن أكون صديقه أو بالأحرى مريده أو تلميذه ، بما أنه كانت تقع له أشياء غريبة جداً فما كنت أريد أن تفوتني واحدة منها ولذلك فقد رافقته في التجول عبر بلدان كثيرة . (فيديريكو غارثيا لوركا) اتخذ موقفاً شبيهاً بموقفي ، فقد كان أسير وهم واعتقاد بمثل هذه الظواهر والغرائب . (فيديريكو) وأنا كنا جالسين ذات يوم في «مبيرة» (محل بييرة) «كوربوس»<sup>(١)</sup> مقابل «ثيبيليس»<sup>(٢)</sup> المدريدية فاقترح مجلسنا نؤوم باريس ، مع أنه في مظهره كان متباهياً وخرائطياً فقد وصل متفككاً متخلعاً . لقد وقع له مرة أخرى ما هو فائق الوصف ، فقد كان في مخبئه المتواضع جداً ، وأحب أن ينظم أوراقه الموسيقية ، لقد نسيت أن أقول إن صاحبنا هذا كان مؤلفاً موسيقياً ساحراً . فماذا جرى؟

- توقفت سيارة عند باب فندقي . سمعت كيف كانت الأقدام تصعد الدرجات ، كيف كانت الخطوات تدخل إلى الحجره المجاورة لحجرتي . من بعد بدأ المستأجر الجديد بالشخير ، في البداية كان شخيره وشوشة ثم ارتجّ الجو وبدأت الحيطان والخزائن تهتز وتتحرك تحت الدفع المتناغم لذلك المشخر العظيم .

لا بد أنه ، بلا شك ، حيوان متوحش . حين انطلقت الشخيرات في شلال عارم لم يكن عند صاحبنا أدنى شك في أنه الجبلي<sup>(٣)</sup> الأقرن . لقد كانت قعقعته في بلدان أخرى قد هزت كنائس كبيرة ، سدت الطرق وأهاجت البحار . فما الذي

(١) كوربوس : هو مبنى البريد والبرق في مدريد .

(٢) ثيبيليس : هي ساحة بمدريد مقابل مبنى البريد ، في وسطها تمثال لهذه الآلهة .

(٣) الجبلي : هكذا في الأصل el jabali ، وهو الخنزير البري ، عن العربية .

سيجري مع هذا الخطر الفلكي ، مع هذا الحيوان الضخم الكريه الذي يهدد سلام أوروبا؟

كل يوم كان يروي لنا صروفاً وخطوباً رهيبة عن هذا الخنزير البري الأقرن ، ونحن جميعاً ، أنا و(فيديريكو) و(رافائيل البرتي) والنحات (البرتو) و(فولخينشو ديأت باستور) و(ميغيل ايرنانديث) ننصت إليه متشوقين ونودعه ونحن نرغب في المزيد .

إلى أن جاء ذات يوم بضحكته الكروية العتيدة وقال لنا :

- لقد انلحت المشكلة الرهيبة . لقد قبل (el Graaf Zeppelin) الألماني أن يشحن الجبلي الأقرن وسيسقطه في الغابة البرازيلية ، وهناك الأشجار الكبيرة ستغذيه ولن يكون ثمة خطر في أن يشرب «الأمازون» في ورده واحدة . وهو هناك سيظل يرج الأرض بشخيره الرهيب .

كان (فيديريكو) يصغي إليه منفجراً من الضحك بعينيه المطبقتين من حدة التأثير . ثم أخذ صاحبنا يروي علينا أنه ذهب ذات مرة ليرسل برقية فأقنعه عامل البرق بألا يرسل أبداً أية برقية بل رسالة ؛ لأن الناس تخاف كثيراً حين تستلم البرقيات المجنحة السريعة ، وحتى إن بعضهم مات بالسكتة القلبية قبل أن يفضّ البرقية التي استلمها . وحكى لنا كذلك أنه حضر ذات يوم كمتفرج محب للاستطلاع مزاداً على الخيول «ذات الدماء النقية» في لندن ، فرفع يده كي يحيي صديقاً له شاهده هناك ، فما كان من الضارب بالمطرقة إلا أن هوى بمطرقة معلناً وقوف المزاد عند صاحبنا ، وباعه بعشرة آلاف ليرة استرلينية فرساً كان (أغا خان) قد نافسه عليها فوصل بمزايده حتى تسعة آلاف وخمسمائة .

- كان عليّ أن أحمل الفرس إلى فندق وأن أعيدها في اليوم التالي - أنهى كلامه .

الآن الراوية لا يستطيع أن يروي لنا حكاية الجبلي الأقرن ولا أية قصة أخرى فلقد توفي هنا في تشيلي . هذا التشيلي المداري ، الموسيقي من مصراع إلى مصراع<sup>(١)</sup> ، المسرف في حكايا لا مثيل لها ، كان اسمه في حياته (اكاريو كوتابوس Acario Cotapas) . لقد كان عليّ أن أتكلم عند دفن هذا الإنسان غير القابل للدفن ، فقلت فقط: «اليوم نهب إلى الظلال كائناً مشرقاً كان يهبنا نجمة كل يوم» .

(١) من مصراع إلى مصراع : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه .

## (إيلوار) الرابع:

لقد مات ريفي (بول إيلوار) منذ زمن قريب . لقد كان جد كامل ، جد محكم ، جد رائع فكلفني ألماً وجهداً أن أعتاد على فقدانه وأن أعود على اختلافه . كان نورماندياً أزرق وريداً ، ذا بنية قوية ونسيج رقيق ، إن الحرب العالمية الأولى تركته يدين مرتجفتين دائماً . لكن (إيلوار) أعطاني في كل لحظة فكرة اللون السماوي ، فكرة الماء العميق الهادئ ، فكرة عذوبة تعرف قوتها . من شعره النقي جداً ، الشفاف جداً مثل قطرات مطر ربيعي على الزجاج ، كان يمكن أن يبدو (بول إيلوار) إنساناً لا سياسياً ، شاعراً ضد السياسة ولكنه لم يكن هكذا فقد كان يشعر بأنه ملتصق التصاقاً قوياً بالشعب الفرنسي ، بأراء شعبه وبنضاله .

كان (بول إيلوار) حازماً ، نوعاً من برج فرنسي بهذا الجلاء العاطفي الذي ليس هو سواء والغباء العاطفي ، السائد العام .

لأول مرة ، في المكسيك ، حيث سافرنا معاً ، رأيته على حافة هاوية مظلمة ، هو الذي دوماً كان يترك مكاناً مريحاً للحزن ، مكاناً يواظب عليه بقدر ما كان يواظب على اكتساب المعرفة .

لقد كان مرهقاً متضيقاً . أنا كنت قد أقنعت وجرجرت هذا الفرنسي القطب إلى هذه الأراضي النائية ، وهناك في اليوم نفسه الذي دفنا (خوسه كليمينته اوروثكو) هويت أنا أيضاً بالتهاب الوريد ، وهو مرض خطير احتفظ بي مربوطاً إلى سريري خلال أربعة أشهر بكاملها . فشعر (بول إيلوار) أنه وحيد كثيب ، مهجور كما لو كان رائداً مكتشفاً أعمى قد ترك وحده . لم يكن يعرف أحداً ، لم تكن تفتح له الأبواب . شعر كأنه أرمل بلا حب ولا رفيق كان يقول لي : «إننا نحتاج إلى رفقة كي نرى الحياة ، نحتاج إلى أحد يشاركنا جوانب الحياة كلها . إن وحدتي لأمر محال والجريمة» .

ناديت أصدقائي فأجبرناه على الخروج ، غصباً عنه أخذوه كي يتجول في دروب المكسيك ، وفي منعطف درب عثر على حبه الأخير : (دومينيكه) .

إنه لمن الصعوبة أن أكتب حول (بول إيلوار) . فسأظل أراه يحيا بجانبني ، تشتعل في عينيه أعماق الزرقة الكهربائية التي تنظر نظرة واسعة عريضة بعيدة . لقد خرج من الأرض الفرنسية وأكاليل الغار والجذور تحوك موارثه الشدية . لقد كانت قامته الطويلة مصنوعة من ماء وحجر ، وعلى هذه القامة كانت تتسلق نباتات قديمة تحمل زهراً وبريقاً ، أعشاشاً وأغاني شفافة .

شفافية ، هذه هي الكلمة ، شعره زجاج من حجر ، ماء توقف في مجراه المغني .  
لقد وضع شاعر الحب الفلكي ، شعلة الظهر النقية ، في أيام فرنسا العصبية ،  
وسط وطنه ، قلبه ومنه خرجت النار الحاسمة للمعارك .

هكذا وصل بشكل طبيعي إلى صفوف الحزب الشيوعي . إن كونه شيوعياً كان  
يعني بالنسبة له التأكيد بشعره وبحياته على قيم الإنسان والإنسانية .

يجب ألا يعتقد بأن (إيلوار) كان أقل سياسياً منه شاعراً . لقد أدهشتني دائماً  
بصيرته الواضحة وتنبؤه العلمي وحجته الجدلية الرائعة . لقد حللنا معاً أشياء كثيرة ،  
بشراً وقضايا في عصرنا ، فأفادني جلاؤه دوماً .

لم يضع في السريالية اللاعقلية المحالة لأنه لم يكن مقلداً بل كان خالقاً مبدعاً .  
وبما أنه كان هكذا فقد أفرغ فوق جثة السريالية طلاقات من جلاء وذكاء .

لقد كان لي صديق كل يوم ، كفاف يومي وإني أفتقد حنانه الذي كان جزءاً من  
خبزي ، كفاف يومي . لا أحد يستطيع أن يعطيني ما حمله معه لأن أخوته الفعالة  
كانت قيمة فاخرة من قيم حياتي .

يا برج فرنسا ، يا أخي ، إنني لأنحني فوق عينيك المطبقتين اللتين ما زالتا  
تعطيناني النور والعظمة ، البساطة والاستقامة ، الطيبة والتواضع ، كل ما غرسته أنت  
في هذه الأرض .

**(بيير ريفيردي)؛**

ابداً لن أدعو شعر (بيير ريفيردي) بالساحر ، لأن هذه الكلمة ، شائعة عامة في  
فترة ، هي كقبعة مهرج في مهرجان : ولا أية حمامة برية تخرج من جوفه كي تشرع  
بالطيران .

لقد كان (ريفيردي) شاعراً حسيماً مادياً يذكر الأشياء بأسمائها ويلمس أشياء لا  
عد لها من الأرض والسماء . كان يعدد كل ما هو جلبي وبراق في العالم .

لقد كان شعره مثل عرق من معدن المرو ، عميقاً ، براقاً ، ليس ينفد . أحياناً  
يضيء في قساوة بلمعان معدن أسود وقد اقتلع في صعوبة من باطن الأرض الكثيف  
وأحياناً يطير فجأة في شرارته الفوسفورية المتألقة أو يختفي في نفق منجمه ، بعيداً  
عن الوضوح ولكنه يظل مشدوداً إلى حقيقته الذاتية مرتبطاً بها . ربما أن هذه الحقيقة ،  
هذا التلاحم بين جسد شعره وبين الطبيعة ، هذه الطمأنينة «الريفيردية» ، هذه

الأصالة الثابتة الراسخة غير المتزعزعة أو المتذبذبة قد عجلت له النسيان فقد راح الآخرون شيئاً فشيئاً يعتبرونه مثل حقيقة مسلمة ، ظاهرة طبيعية : داراً ، نهراً ، شارعاً معروفاً ، شيئاً لن يغير أبداً من مظهره ولا من موضعه .

الآن قد غير من موضعه ، الآن سكون عظيم أكبر من سكونه الفخور الشريف قد أخذه إليه ، فترى أنه لم يعد موجوداً وأن هذا البريق الذي لا يعوض قد اختفى ، قد دفن في أرض وفي سماء .

أقول أنا إن اسمه مثل ملاك منبعث ، سيحطم ذات يوم أبواب النسيان غير العادلة .

سنراه ، بلا أبواق ، وهو مكمل بهالة النور المنبعث من سكون شعره العظيم الحلي الرنان ، في يوم الحكم النهائي ، في يوم الميعاد الجوهري فيبهرنا بخلود أثره البسيط .

### (جيرزي بوريزجا Jerzy Borezjha):

لم يعد ينتظرنني في بولونيا (جيرزي بوريزجا) . لقد احتفظ القدر لهذا المهاجر القديم بحقه في أن يرى وطنه وقد استرجع واسترد . حين دخل إليه جندياً مقاتلاً ، بعد سنوات كثيرة من الغياب عنه كانت «فرصوفيا» عبارة عن كومة من الأنقاض المطحونة ، لم يكن فيها سوارع ولا أشجار . لم يكن من أحد فيها ينتظره . لقد عمل (بوريزجا) وهو ظاهرة ديناميكية حيوية ، مع شعبه . من رأسه خرجت خطط هائلة ، فبادرة رائعة : دار الكلمة المطبوعة . لقد بنيت الدار طابقاً فوق طابق على مراحل ، وصلت المطابع الرحوية من أحسن المطابع في العالم . وهناك تطبع الآن آلاف وآلاف من الكتب والمجلات . لقد كان (بوريزجا) محولاً دنيوياً للرغبات إلى أعمال ، لا يتعب ولا يهدأ . لقد نُفِذت مشاريعه الجريئة في بولوني الجديدة ذات الحيوية الخارقة ، بكاملها كما تبنى القلاع في الأحلام .

لم أكن أعرفه . ذهبت لأتعرّف عليه في الحقل حيث كان يقضي العطلة ، بشمال بولونيا في المنطقة ذات البحيرات «الماشورية» حيث كان ينتظرنني .

حين هبطت من السيارة رأيت رجلاً أرقل عديم الرشاقة ، سيء الهندام ، لم يحلق ذقنه منذ أيام كثيرة ، يرتدي سروالاً قصيراً (شورت) ذالون صعب التحديد . ناداني حالاً في طاقة محتدمة بلغة إسبانية تعلمها من الكتب : «يا (بابلو) ،



اخلوقلت مرهقاً لا مندوحة في أن تأخذ قسطك من الاستجمام»<sup>(١)</sup>. لم يدعني في حقيقة الأمر أن أخذ «ولا أرى أي قسط من الاستجمام». كان حديثه مسهباً مطنّباً، متنوعاً متنقلاً، مفاجئاً مبالغاً، في نداءات وتساؤلات وتعجبات متداخلات. كان يحكي لي في الوقت نفسه عن سبع خطط مختلفة مختلطة مع تحليلات لكتب تصنيف تفسيرات جديدة لوقائع تاريخية أو لأمر الحياة. «كان البطل الحقيقي هو سانشو بانثا Sancho Panza<sup>(٢)</sup> وليس (دون كيخوته)، يا (بابلو)». بالنسبة له كان (سانشو) هو صوت الواقعية الشعبية، القطب الحقيقي لعالمه ولزمنه» «حين يحكم (سانشو) فإن حكمه سيكون جيداً لأن الشعب هو من يحكم عند ذلك».

كان يسحبني من السرير في وقت مبكر ويصيح بي دوماً: «لا بد لك من أن تأخذ قسطك من الراحة والاستجمام» فيأخذني عبر غابات شجر التئوب والأرز كي يريني هناك معبداً لطائفة دينية هاجرت إلى هذا المكان من روسيا منذ قرن من الزمن، وظلت تحافظ على طقوسها كلها فكات الراهبات يستقبلنه كأنه بركة تحمل عليهن، فقد كان (بوريزجا) كله لياقة وكياسة واحتراماً تجاه الراهبات المتدينات. لقد كان رقيق العواطف فعلاً نشيطاً. تلك السنون كانت رهيبة، زمن الاحتلال النازي. ذات مرة أراني المسدس الذي أعدم به مجرم حرب، بعد محاكمة حقيقية عامة.

كانوا قد عثروا مع هذا المجرم النازي على مفكرة سجل فيها بشكل دقيق جرائمه كلها. عجّز وأطفال خنقهم بيديه، صبايا هتك أعراضهن. ففاجأوه في الضيعة نفسها حيث كان يقوم بهذه الأعمال الوحشية وألقوا القبض عليه. ثم اصطف الشهود يدلون بشهاداتهم حول هذه الأعمال، وقرئت مفكرته التي تدينه إدانة واضحة فاضحة. لم يجب هذا المجرم المتحدي إلا بجملته واحدة: «سأعيد فعل ذلك إن استطعت أن أبدا من جديد». لقد أمسكت أنا بهذه المفكرة بيدي وكذلك بالمسدس الذي أنهى حياة ذلك المجرم القاسي العنيد.

(١) نحاول أن ننقل إلى العربية أسلوبه الفصيح الذي تعلمه من الكتب القديمة.

(٢) سانشوبانثا: هو مرافق (دون كيخوته) في رائعة (ثيرفانتيس) الخالدة، وهو يشبه شيبوب في قصة عنتر بن شداد الشعبية، وقد كان (دون كيخوته) قد وعد مرافقه بإعطائه حكم مقاطعة إن انتصر على الأعداء، انظر كتابنا، دون كيخوته في القرن العشرين.

في البحيرات الموسورية ، المتزايدة حتى اللانهاية ، تصطاد ثعابين المياه . كنا ننتقل في ساعة مبكرة من الصباح إلى الصيد فنرى هذه الثعابين خفاقة بليلة كأحزمة سوداء .

لقد ألفت تلك المياه بصيادها ومناظرها الطبيعية الخلابة . كان صديقي من الصباح حتى الليل ، يجعلني أصد وأهبط ، أجري وأجدف ، أتعرف على الناس والأشجار . كل ذلك على صيحة أن : هنا لا بد لك من أن تتناول قسطاً من الراحة والاستجمام ، ليس من مكان مثل هذا من أجل الاستجمام . حين انطلقت من البحيرات الموسورية ، أهدى إليّ ثعباناً بحرياً نفثاً ، أطول ثعبان بحري رأيته في حياتي .

هذا العكاز الغريب العجيب عقّد حياتي ، أنا كنت أريد أن ألتهمه لأنني لست من أنصار الثعابين النفثة ، وهذا الثعبان يجيء من بحيرته مسقط رأسه بشكل مباشر من غير مخازن ولا وسطاء ولا باعة فهو طيب بلا شك . لكن في هذه الأيام لم تكن الثعابين البحرية لتتقصني في كل وجبة أتناولها بفندقتي ، ولم تسنح لي الفرصة بأن أحضر ثعباني وأقلبه لأكله ، لا في الليل ولا في النهار . فبدأ الثعبان يشكل لي وسوسة مزعجة متسلطة على عقلي .

في الليل كنت أخرجته إلى شرفة الغرفة كي يتناول الهواء الطازج . أحياناً وأنا في مجرى أحاديث مهمة كنت أتذكر بأن ثعباني لم يزل في الخلاء تحت السماء وبغز الشمس وقد جاوز النهار الظهيرة ، عند ذلك أفقد كل اهتمام بموضوع الحديث وأركض كي أضعه في مكان بارد من غرفتي ، داخل الخزانة ، مثلاً .

في النهاية عثرت على هاو مغرم فأهديت هذا الثعبان المائي النفث ، بل أطول ثعبان وأطرى ثعبان وأحسن الثعابين النفثة التي شاهدها في حياتي ، طبعاً ندمت على ذلك وأنبني ضميري كثيراً .

الآن ، (بوريزجا) العظيم ، الـ(كيخوته) النحيل الديناميكي النشط ، المعجب بـ(سانشو) على أنه (كيخوته) آخر ، الحساس العالم العارف ، يستجم لأول مرة ، يستجم في الـ(دياجير) التي أحبها كثيراً . في مستقره المريح يبذل عالماً أعطاه هو تفجره الحيوي ، ناره التي لا تتعب ولا تخمد .

(سومليو جورجي Somlyo Georgy):

إنني لأحب في هنغاريا تشابك الحياة والشعر، التاريخ والشعر، الزمن والشعر. في أماكن أخرى يناقش هذا الموضوع في براءة أكثر أو أقل. في هنغاريا كل شاعر هو ملتزم قبل أن يولد. إن (اتيلا جوزيف) و(أدي اندريه) و(غيولا أليس) لهم نتاج طبيعي لذبذبة كبيرة متراوحة بين الواجب والموسيقى، بين الوطن والظل، بين الحب والألم.

إن (سومليو جورجي) لهو شاعر رأبته ينمو في ثقة وقدرة منذ عشرين سنة. إنه شاعر ذو لحن ناعم متصاعد كما الكمان، شاعر يهتم بحياته وبالحيوات الأخرى، شاعر هنغاري حتى العظم، هنغاري في استعداده السخي للمشاركة في واقع شعبه وأحلامه. إنه لشاعر الحب الأكثر تصميمًا والعمل الأكثر توهجًا واشتعالًا، يحفظ في عالميته الطابع المتميز للشعر العظيم في وطنه.

إنه لشاعر شاب ناضج، جدير بانتباه عصرنا. إن شعره لشعر هادئ، شفاف، مسكر مثل نبيذ الرمال الذهبية.

(كواسيمودو Quasimodo)<sup>(١)</sup>:

إن أرض إيطاليا تحفظ أصوات شعرائها القدماء في أحشائها النقية جداً. حين أطأ رحاب الأرياف، حين أجتاز الحدائق حيث تتفرق المياه وتتلألأ، حين أعبر رمال محيطها الأزرق الصغير، يبدو لي وكأنني أطأ جواهر جوهريّة، مضامين ألماسية، أكواباً زجاجية خافية سرية، البريق كل البريق الذي حفظته القرون. لقد أعطت إيطاليا إلى شعر أوروبا، شكلاً، صوتاً، نغمًا، رشاقة، ظرافة، احتداماً فأخرجته من شكله الأولي العديم الشكل، من بدائيته غير المهذبة المرتدية برذعة ودرعاً. لقد حول نور إيطاليا أسمال الرواة وصلابة الأناشيد البطولية الحماسية إلى نهر غزير وافر من الألماس المصقول المثقف المرصع.

لقد كان مدهشاً لعيوننا، عيون شعراء حديثي الوصول إلى المعرفة، قادمين من أقطار حيث المختارات الشعرية تبدأ بشعراء عام ١٨٨٠، أن ترى في المختارات الشعرية الإيطالية تاريخ ١٢٣٠ ونيف أو ١٣١٠ أو ١٤٥٠ وبين هذه التواريخ قصائد

(١) كواسيمودو Salvatore: شاعر إيطالي (١٩١٠-١٩٦٧).

«الترثيتو»<sup>(١)</sup> الباهرة: الزينة المثيرة، العمق والترصيع في أعمال (اليجيري Alishieri)، (كافالكاتي)<sup>(٢)</sup> (بيتراركا)، (بوليزيانو)<sup>(٣)</sup>.

إن هذه الأسماء وهؤلاء الرجال قد أعاروا نوراً «فلورنسيا» إلى كاتبنا العذب القدير (غارثيلاسودي لا بيبغا)، إلى الحلم اللطيف (بوسكان Bosca'n)<sup>(٤)</sup>، وأضواء لـ(غونغورا) وصبغوا بنشاطهم الظليلة كآبة (كيبيدو) وصاغوا «سونيتوس» (وليم شكسبير) في إنجلترا وأشعلوا مضامين فرنسا وبذلك أزهرت ورود (رونسارد) و(دو بيلآي).

هكذا إذن: الولادة في أراضي إيطاليا هي مهمة صعبة، بالنسبة لشاعر، مشروع ذو نجوم يتضمن أن يأخذ الشاعر على عاتقه القبة الزرقاء ذات المواريث المشرقة المتألقة.

إنني لأعرف منذ سنوات (سالفاتوري كواسيمودو) وأستطيع القول بأن شعره يمثل ضميراً قد يبدو لنا طيفاً شبحياً بسبب شحنته الثقيلة المتوهجة. إن (كواسيمودو) هو أوروبي مزود بعلم أكيد في المعرفة، في التوازن، في أسلحة الذكاء كلها. غير أن موقعه كإيطالي مركزي كممثل حالي لكلاسيكية غير متواصلة لم يجعله محارباً سجيناً داخل حصنه. إن (كواسيمودو) هو رجل عالمي بامتياز لا يقسم العالم تقسيماً حربياً إلى شرق وغرب، بل يعتبر أن الواجب المعاصر المطلق هو محو الحدود بين الثقافة وإقرار الشعر والحقيقة والحرية والسلم والفرح، على أن هذه الأشياء كلها هي هبات لا تقبل القسمة والتقسيم.

في (كواسيمودو) تتحد الألوان والألحان لعالم هادئ بشكل كثيب. لكن حزنه لا يعني ريبة (ليوباردي)<sup>(٥)</sup> المهزومة بل انزواء الأرض الخصب في المساء، هذا الورع الذي يتخذ المساء حين تحمي العطور والألحان والألوان والأجراس عمل أكثر البذور عمقاً في الأرض. إنني لأعشق اللغة القطف في هذا الشاعر العظيم، وكلاسيكيته

(١) الترتيتو el terceto: وزن من أوزان الشعر يشبه بحر المديد العربي.

(٢) كافالكاتي Guido: شاعر وفيلسوف إيطالي (١٢٦٩-١٣٠٠).

(٣) بوليزيانو Angelo: شاعر إيطالي (١٤٥٤-١٤٩٤).

(٤) بوسكان Juan: شاعر إسباني (١٤٩٢-١٥٤٢).

(٥) ليوباردي Giacomo: شاعر إيطالي (١٧٩٨-١٨٣٧).

ورومانطيكته وأعجب خاصة بما فيه من تضيخ خاص لاستمرارية الجمال ، كذلك بقدرته على تحويل ذلك كله في لغة ذات شعر حقيقي مهز مؤثر .  
 إني لأرفع عبر المدى وفوق البحر والبعد تاجاً شديداً مصنوعاً من أوراق «أراوكانيا» وأدعه يطير في الهواء كي تحمله الرياح والحياة لتضعه فوق جبين (سالفاتوري كواسيمودو) . ليس هو بتاج الغار «الأبولوني» الذي رأيناه مرات كثيرة في صور (فرانثيسكو بيتراركا) بل هو تاج من غاباتنا غير المرتادة ، من أوراق ليس لها حتى الآن من أسماء ، مضمخة بالندى في أسحار جنوبية .

### (باييخو Vallejo) (١) يحيى من جديد،

رجلاً آخر كان (باييخو) . أبداً لن أنسى رأسه الكبير الأصفر ، الشبيه بالرؤوس التي نراها في الشبابيك القديمة بـ«بيرو» . لقد كان (باييخو) جديداً ونقياً . مات في باريس . مات في هواء باريس القذر ، من النهر القذر حيث أخرجوا أمواتاً كثيرين . لقد مات (باييخو) من جوع ومن اختناق . لو كنا أحضرناه إلى موطنه «بيرو» ، لو كنا جعلناه يتنشق هواء وأرضاً بيروية فلربما كان لا يزال حياً حتى الآن يغني وينشد . لقد كتبت في فترتين مختلفتين قصيدتين عن صديقي الحميم ، عن رفيقي المخلص . أعتقد أنني وصفت فيهما سيرة صداقتنا الموزعة . القصيدة الأولى هي «نشيد إلى (ثيسر باييخو) وهي تظهر في الجزء الأول من «أناشيد بدائية» .

في الأوقات الأخيرة ، في هذه الحرب الصغيرة حرب الأدب ، الحرب القائمة بين جنود صفار ذوي أسنان مفترسة أخذوا يقذفون بـ(باييخو) بظل (ثيسر باييخو) بغياب (ثيسر باييخو) بشعر (ثيسر باييخو) ضدي وضد شعري . هذا يمكن أن يقع في الجهات كلها . إن الأمر هو جرح من عملوا كثيراً وإهانتهم . يقولون : «هذا ليس بجيد ، (باييخو) بلى كان جيداً ، لو أن (نيرودا) كان ميتاً لقدفوا به ضد (باييخو) الحي» .

القصيدة الثانية عنوانها هو حرف واحد فقط ألا وهو حرف (V) (٢) وهي تظهر في ديوان «شاذ» (Estravagario) .

(١) باييخو Cesar : شاعر مشهور من البيرو (١٨٩٣-١٩٣٨) .

(٢) (V) هو أول حرف من اسم (باييخو) ، ونحب هنا أن نلفت أنظار القارئ العربي إلى أن هذا الحرف ينطق باللغة الإسبانية كما ينطق حرف (B) .

للبحث عما هو غير محدد ، عن الدليل أو الخيط الذي يربط الإنسان بأثره ،  
 أتكلم عنمن كان لهم علاقة ما أو كثير من العلاقة بي . لقد عشنا الحياة معاً وهأنذا  
 الآن أحياهم من جديد . ليس لي بد من أن أسبر غور ما يسمى بالسر الشعري وأنا  
 سأسميه بالوضوح الشعري . لا بد أن كون ثمة علاقة بين الأيدي والأثر ، بين عيون  
 الإنسان ، أحشائه ، دماثه وبين عمله . لكن ليست لي نظرية . أنا لست أسير  
 ومذهبي تحت ذراعي كي أتركه يسقط فوق رأس أحد من الناس . مثل البشر كلهم أنا  
 أرى كل شيء واضحاً يوم الاثنين ، وأرى كل شيء غامضاً يوم الثلاثاء وأعتقد أن هذا  
 العام هو واضح-غامض . الأعوام القادمة ستكون بلون أزرق .

### (غابرييلا ميسترال)؛

لقد قلت سابقاً إنني عرفت (غابرييلا ميسترال) في قريتي ، في «تيموكو» . لقد  
 نزحت هي عن هذه القرية إلى الأبد من بعد . (غابرييلا) كانت إذناك في منتصف  
 حياتها الشاقة المجتهدة وكانت ، خارجياً ، ديرية ، كأنها رئيسة على راهبات  
 مستقيمات .

في تلكم الأيام كتبت هي قصائد «الابن» مصنوعة في نثر نقي مطرز مكوكب  
 لأن نثرها كان في معظم الأحيان أكثر شعرها تأثيراً . بما أنها في قصائد «الابن»  
 تصف الوهن والطلق والمخاض والنمو فإن شيئاً مشوشاً قد وشوش به في «تيموكو» ،  
 شيئاً مبهماً غير محدد ، شيئاً بديئاً بشكل بريء ، ربما كان تعليقاً فظاً جرح كونها  
 عزباء ، تلفظ به هؤلاء الناس العاملون بالسكة الحديدية أو بالأخشاب الذين أعرفهم  
 جيداً ، فهم أناس أجلاف عاصفيون ولكن صريحون يسمون الخبز خبزاً والنبيد نبيداً .  
 شعرت (غابرييلا) أنها مهانة وماتت وهي تشعر أنها مهانة .

بعد سنوات ، في الطبعة الأولى لكتابها العظيم ، وضعت ملاحظة بلا فائدة  
 ضد ما كان قد قيل وهمس به حول شخصها في تلك الجبال بأخر العالم .

في مناسبة انتصارها التاريخي بجائزة «نوبل» التي توجت بها ، كان عليها أن تمر  
 أثناء سفرها بمحطة «تيموكو» . كانت المدارس تنتظرها كل يوم ، والطلبات كن يصلن  
 إلى المحطة مضخمت بالمطر مختلجات بزهور «كوبيهويه» . إن «ال كوبيهويه» (el  
 copihue) هي الزهرة الكوكبية ، التويج الجميل البري من «لا اراوكانيا» . لقد كان  
 انتظارهن عديم الجدوى إذ إن (غابرييلا ميسترال) رتبت الأمر كي تمر من هناك ليلاً

فقد بحثت عن قطار ليلي معقد كي لا تستلم زهور «كوبيهويه» من «تيموكو» .  
حسناً هل هذا يسيء إلى (غابرييلا)؟ هذا يعني ببساطة أن الجراح كانت تدموم  
في مشاعر نفسها وأنها لم ترقأ في سهولة . إن هذا يكشف أن في روح هذه المؤلفة  
ذات الشعر العظيم جداً ثمة صراعاً كما في روح أي إنسان ، صراعاً بين الحب  
والحقد ، بين المحبة والكراهية .

لقد كانت دوماً تبتسم لي ابتسامة مفتوحة ، ابتسامة رفيقة طيبة ، ابتسامة  
طحينية في وجهها ذي الخبز الأسمر .

لكن ، ما هي أحسن المضامين في فرن أعمالها؟ ما هو السر المقوم لشعرها الأليم  
دوماً؟

أنا لن أروح أستقصي عن ذلك ، وبالتأكيد لن أتوصل إلى معرفته ، وإن عرفته لن  
أبوح به .

في شهر أيلول<sup>(١)</sup> هذا يزهر اللفت البري فالحقل سجادة صفراء مرتعشة . هنا في  
الساحل تعصف الريح الجنوبية في غضب رائع منذ أربعة أيام . الليل مليء بحركتها  
الصاخبة الرنانة . المحيط هو في الوقت نفسه زجاج أخضر مفتوح وبياض هائل .

فتصلين أنت يا (غابرييلا) أيتها الابنة الحبيبة لزهور اللفت البري هذه ، لهذه  
الحجارة ، لهذه الريح الهائلة فنستقبلك جميعنا في فرح . لن ينسى أحد أغانيك  
للأشواك ، للثلوج في تشيلي . إنك لتشيلية . تنتمين إلى الشعب . لن ينسى أحد  
أبياتك عن أقدام أطفالنا الحفاة . لم ينس أحد «كلمتك اللعينة»<sup>(٢)</sup> . إنك لنصيرة  
للسلم مؤثرة . لهذه الأسباب ولغيرها أحبينك ونحبك .

تصلين أنت يا (غابرييلا) إلى زهور اللفت البري وإلى أشواك تشيلي . إنك  
لتستحقين أن أرحب بك الترحاب الحقيقي ، المزهو المخشوشن بما يناسب عظمتك  
ويتلاءم وصدافتنا التي لا تنهار . إن أبواب أيلول الحجرية الربيعية تفتح لك . لا  
شيء أحب إلى قلبي من رؤية ابتسامتك العريضة وهي تدخل إلى الأرض المقدسة  
التي يجعلها شعب تشيلي تزهر وتزدهر وتغني .

إنه ليخجني أن أشاركك الجوهر ، والحقيقة التي بفضل صوتنا وأفعالنا ستصبح

(١) أيلول : هو بداية فصل الربيع في أمريكا اللاتينية .

(٢) كلمتك اللعينة : هي قصيدة لهذه الشاعرة العظيمة بعنوان «كلمة لعينة» .

محترمة . فليطمئن قلبك الرائع وليكافح وليغن وليبدع في وحدانية الوطن المحيطة  
«الأنديسية» .

إنني لأقبل جبينك النبيل وأجلّ شعرك الرحب .

**(بيثينته هويدوبرو):**

لقد لاحقني الشاعر الكبير (بيثينته هويدوبرو) الذي تبنى دائماً الدسياسة  
الخبیثة تجاه الأشياء كله بدسائسه العديدة ، فكان يرسل رسائل بلا توقيع يتهمني  
فيها بالانتحال والاقتباس . إن (هويدوبرو) لمثل صف طويل من المتمادين في غيهم ،  
المصرين على ضلالهم . إن هذا الشكل من الدفاع عن النفس في حياة تلك الفترة  
المضطربة التي لا تمنح الكاتب أي دور ، كان صفة عامة صبغت الأعوام السابقة على  
الحرب العالمية الأولى ، إن الوضعية المركزة على الذات انعكست في أمريكا كصدي  
لتبجّحات (دانونثيو)<sup>(١)</sup> في أوروبا . هذا الكاتب الإيطالي ، المسرف الكبير ، المنتهك  
لسنن البورجوازية الصغيرة ترك في أمريكا صوى بركانية من «المهدية»<sup>(٢)</sup> . وكان أكثر  
أتباعه فخفخة وثورية هو (بارغاس بيلا)<sup>(٣)</sup> .

إنه لمن الصعوبة جداً أن أذم (هويدوبرو) فقد شرفني طيلة حياته كلها بحرب  
مدادية تستحق المشاهدة . لقد تقلد لقب «إله الشعر» ولم يجد عدلاً أنني ، وأنا شاب  
أصغر منه بكثير ، أشكل جزءاً من «وادي عبقر»<sup>(٤)</sup> الذي هو إلهه . أبداً ما استطعت  
أن أعرف على وجه الدقة ماذا كان يدور في «وادي عبقر» هذا . كان أناس (هويدوبرو)  
يبتدعون ، «يتسريلون»<sup>(٥)</sup> ، يلتهمون آخر ورقة طبعت في باريس . أنا كنت أقل شأنًا  
منهم ، قروياً لا يمكن صياغته من جديد ، أرضياً ، شبه متوحش .

لم يكن (هويدوبرو) ليقنع بأنه شاعر موهوب جداً كما كان فعلاً بل كان يريد  
كذلك أن يكون «سوبرمان» ، كان ثمة شيء جميل طفولي في شيطنته . لو أنه ظل

(١) دانونثيو Gabriel : كاتب وسياسي إيطالي (١٨٦٣-١٩٣٨) .

(٢) المهدية : في الأصل (Mesianismo) الاعتقاد بمجيء مخلص من السماء .

(٣) بارغاس بيلا : كاتب وديبلوماسي من كولومبيا (١٨٦٠-١٩٣٣) .

(٤) وادي عبقر : في الأصل (Olimpo) ، وهو جبل الشعر وموضع اللجنة في ديانة اليونان القديمة .

(٥) يتسريلون : يتمذهبون بالسريالية .



حياً حتى هذه الأيام لكان تطوع في أول رحلة إلى القمر . أتخيله وهو يبرهن للعلماء أن جمجمته هي الوحيدة فوق هذه الأرض المؤهلة طبيعياً بسبب ما لها من شكل ومن مرونة للتلاؤم مع الصواريخ الكونية والمراكب الفضائية .

بعض النوادر قد تحدده . مثلاً ، حين عاد إلى تشيلي بعد الحرب العالمية الأخيرة وقد غدا عجزواً يقترب من نهايته أخذ يرى الناس كلهم هاتفاً صدىً ، وكان يقول :  
- لقد اختطفته شخصياً من (هتلر) فقد كان هذا الهاتف هو المفضل لدى «الفوهرر» .

ذات مرة أروه عملاً نحتياً أكاديمياً سيئاً فقال :

- يا للفظاعة! إنه لأسوأ من أعمال (ميغيل أنجيل) .

يستحق الذكر أيضاً الكلام عن مغامرة رائعة كان هو بطلها بباريس في عام ١٩١٩ . فقد نشر (هويدوبرو) كتيباً معنوناً بـ (Finis Britannii) فيه كان يتوقع انهيار الامبراطورية البريطانية العاجل . بما أنه لا أحد علم بتنبؤه هذا فقد اختار الشاعر أن يختفي عن الأنظار ، فاهتمت الصحافة بأمر اختفائه : «ديبلوماسي تشيلي بشكل غامض مختطف» بعد بضعة أيام ظهر مسطحاً عند باب داره .

(Boy-Scouts) انجليز اختطفوني - صرح إلى الشرطة - وربطوني إلى عامود في مكان تحت الأرض وأجبروني على أن أهتف ألف مرة : «تحيا الامبراطورية البريطانية» .

ثم عاد إلى الإغماء . لكن رجال الشرطة فحصوا سقيطاً كان يحمله تحت إبطه فوجدوا فيه بيجاما جديدة كان (هويدوبرو) نفسه قد اشتراها قبل ثلاثة أيام من محل جيد في باريس . فكشف كل شيء . لكن (هويدوبرو) خسر صديقاً وهو الرسام (جان غريس Juan Gris)<sup>(١)</sup> الذي كان قد اعتقد بدون ريب في أمر الاختطاف ، وعانى عذابات أليمة بسبب المداهمة الامبريالية واعتدائها على الشاعر التشيلي . فلم يغفر له أبداً تلك الأكذوبة .

إن (هويدوبرو) لشاعر من زجاج ، يلمع أثره الشعري من كل الجهات ، ولأثره بهجة باهرة ، إن في شعره كله بريقاً أوروبياً يبلوره هو ويصوغه في صنعة لطيفة ذكية . إن أكثر ما يفاخروني في أثره عدة مرات هو شفافيته . إن هذا الشاعر الأديب

(١) خوان غريس : رسام إسباني (١٨٨٧-١٩٢٧) .

الذي تابع واتبع النماذج التي كانت سائدة في فترة معقدة متشابكة ، والذي صمم على ألا يصغي لجلال الطبيعة ووقارها ، يجعل الغناء المائي الدافق أبداً ينساب من خلال شعره وحفيف الهواء والأوراق والإنسانية العظيمة تسيطر تماماً على قصائده الأخيرة وما قبل الأخيرة .

إن في (هويدوبرو) ، انطلاقةً من زخارف شعره المتفرنس الرائعة حتى قوى أبياته الأساسية المتينة ، صراعاً بين الصنعة والنار ، بين التملُّص والمعاناة . هذا الصراع يشكل مشهداً ، يجري في نور مطلق وفي وعي مطلق ، تقريباً ، بوضوح باهر .

ليس من شك في أننا عشنا بعيدين عن أثره الشعري متوهمين أننا في غنى عنه وفي اكتفاء . إننا لنتفق على أن ألد أعداء (بيشنته هويدوبرو) كان هو (بيشنته هويدوبرو) نفسه . لقد أسدل الموت ستاراً على حياته الفنية ولكنه رفع ستاراً آخر فكشف إلى الأبد عن نوعيته الباهرة . لقد اقترحت أن يقام له نصب تذكاري قرب نصب (روبن داريو) . لكن حكوماتنا مقتررة في إقامة تماثيل للمبدعين الخلاقين بقدر ما هي مبذرة في إقامة تماثيل بلا معنى ولا مغزى .

إننا لا نستطيع أن نفكر في (هويدوبرو) كبطل سياسي على الرغم من غاراته السريعة على الساحة الثورية . لقد كانت له تجاه الأفكار والمبادئ متناقضات طفلة مدلل . غير أن هذا عفى عليه الزمن وصار أمراً قديماً حملة العجاج وسنكون نحن متناقضين إن نصبنا أنفسنا لنغرز فيه الخلال<sup>(١)</sup> في مخاطرة إتلاف أجنحته والفت من عضده . إنه لأحرى بنا أن نقول إن قصائده في ثورة تشرين وفي موت (لينين) لهي مساهمة أساسية جوهريّة قدمها (هويدوبرو) إلى اليقظة الإنسانية .

لقد مات (هويدوبرو) في عام ١٩٤٨ بـ «قرطاجنة»<sup>(٢)</sup> قرب «ايسلا نيغرا» ولكنه قبل أن يموت كتب قصائد من أكثر القصائد التي قرأتها في حياتي جدية وتأثيراً في النفس . قبيل موته زارني في داري بـ «ايسلا نيغرا» في رفقة (غونثالو لوسادا) وهو ناشر وصديق حميم لي . (هويدوبرو) وأنا تكلمنا في مودة شاعرين ، تشيليين ، صديقين .

(١) الخلال : هكذا في الأصل Alfieres ، وهي الإبر والدبابيس ، عن العربية .

(٢) قرطاجنة : هي بلدة في تشيلي وليست قرطاجنة الإسبانية ولا قرطاج التونسية .

إنني لأفترض أن النزاعات بين الكتاب في قدر كبير أو صغير قد وجدت وستظل توجد في مناطق العالم كلها .

يكثر بين أدباء القارة الأمريكية المنتحرون العظام . في روسيا الثورية أحقق الحاسدون بـ(ماياكوفسكي) إلى أن أطلق على نفسه النار .

إن الأحقاد الصغيرة تستشري وتستثيب في أمريكا اللاتينية . يصل الحسد أحياناً إلى أن يكون حرفة . يقال بأن شعور الحسد هذا ورثناه عن إسبانيا الاستعمارية المنقرضة . الحقيقة هي أننا نجد في (كيبيلو) وفي (لوبيه)<sup>(١)</sup> وفي (غونغورا) بشكل مألوف ، الجراح التي سببها بعض لبعض . إن القرن الذهبي على الرغم من بريقه الفكري الأدبي الرائع كان فترة تعيسة بالجوع الذي يطوف حول القصور ويغني وينشد .

في السنوات الأخيرة أخذت الرواية مساحة جديدة في أقطارنا . إن أسماء (غارثيا ماركت Garcia Marquez)<sup>(٢)</sup> ، (جان رولف Juan Rulf)<sup>(٣)</sup> ، (بارغاس يوسا Vergas Llosa) ، (ساباتو Sabato)<sup>(٤)</sup> ، (كورتاثار Cortazar) ، (كارلوس فوينتيس)<sup>(٥)</sup> ، (التشيلي دونوسو Donoso) ، أخذت تسمع وتقرأ في كل جهة . لقد عمّدوا أنفسهم باسم (Boom) . وإنه لأليف أن تسمع من يقول بأنهم يؤلفون مجموعة مطنطنة متبجحة .

لقد عرفتهم كلهم تقريباً فوجدتهم بشكل ملحوظ أصحاب كرماء . إنني لأفهم - كل يوم في وضوح أكثر - أن بعضهم اضطر إلى مغادرة وطنه بحثاً عن طمأنينة أكبر تساعده في عمله ، بعيداً عن سياسة الضغينة والأحنة والحسد المتكاثر المستشري . إن أسباب هجرتهم الاختيارية لا تدحض ولا تنقض : لقد راحت كتبهم تصير جوهريّة ، أكثر فأكثر ، في حقيقة بلداننا وأحلامها .

(١) لوبيه (de Vega) : كاتب إسباني معروف (١٥٦٥-١٦٣٦) .

(٢) غارثيا ماركت (Gabriel) : روائي من كولومبيا ولد عام ١٩٢٨ .

(٣) جوان رولف : روائي مكسيكي ولد عام ١٩١٨ .

(٤) ساباتو (Ernasto) : روائي أرجنتيني ولد عام ١٩١١ .

(٥) كارلوس فوينتيس : روائي مكسيكي ولد عام ١٩٢٨ .

كنت أتردد في أن أتكلّم عن تجاربي الشخصية مع هذا الحسد المتطرف . لم أكن أرغب في أن أبدو على أنني أناني لا هم لي إلا الحديث عن نفسي دوماً والانشغال بذاتي دائماً . لكن لحسن حظي كان من نصيبي حساد ملحون مصرون طريفون جداً إلى درجة أنني وجدت مفيداً الشروع بالقول .

إنه لمن المحتمل أن هذه الأشباح المطاردة المزعجة أغضبتني ذات مرة ، بيد أن الحقيقة هي أنهم كانوا يؤديون بشكل غير إرادي واجباً دعائياً غريباً كما لو أنهم ألفوا مؤسسة تعمل على أن يصبح اسمي يرن في كل مكان .

لقد ترك موت أحد هؤلاء الخصوم الأشباح ، موتاً مأساوياً ، نوعاً من الفراغ في حياتي . كان يشن الحرب خلال سنين عديدة على كل ما كنت أفعله وأقوله ، إلى حد أنني أفقدتها بعد أن فقدتها .

إن أربعين سنة من المطاردة الأدبية لهو أمر رائع حقاً . إنني لأشعر بشيء من الابتهاج حين أبعث هذه المعركة الوحيدة الطرف التي كانت معركة إنسان ضد ظله ذاته ، من رقادها ، هي وحيدة الطرف لأنني لم أشارك فيها البتة .

لقد نشر خمساً وعشرين مجلة مدير غير قابل للتغيير (كان هو نفسه مديراً لهذه المجلات دوماً) واختصت هذه المجلات بمحاولة تهديمي أدبياً فكانت تنسب لي كل نوع من أنواع الجرائم ، الخيانات ، الذبول الشعري ، الشح الإبداعي ، الشذوذ الجنسي ، الانحراف الخطير . كذلك كانت تظهر منشورات ضدي توزع في مشابرة وإلحاح ، وريبورتاجات لا تخلو من الفكاهة ، وأخيراً ظهر مجلد ضخيم معنون «أنا ونيردوا»<sup>(١)</sup> وهو كتاب سمين بدين ينطوي على شتائم مقدعة .

كان خصمي هذا شاعراً تشيلياً أكبر مني عمراً ، متعصباً ، متطرفاً ، استبدادياً ، أكثر إيماء في حركاته منه فعلاً وأصيلاً . إن هذا النوع من الكتاب الموهوبين أنانية شرسة يكثر عددهم في بلدان أمريكا ، وهم يتبنون أشكالاً كثيرة من الفظاظة والاكْتفاء الذاتي والتركيز على الذات ، لكن نسبهم «الدانونزيا» هو ، بشكل مأساوي ، حقيقي .

كنا نحن الشعراء الجلياع المرتدين أسماً رثة نطوّف عبر مجالاتنا الفقيرة في

---

(١) أنا ونيردوا : العنوان هو تقليد وتلميح لكتاب «أنا وحماري» للأديب الشاعر الإسباني (خوان رامون خيمينيث) .

الأسحار غير الرحيمة بين تقيؤ السكارى . كان الأدب في هذه الأجواء البائسة ينتج بشكل غريب شاذ غامض معرّبة ، أشباحاً من الصعلوكية الباقية على قيد الحياة . إن العدمية ، استهتاراً «نيتشويماً» مزيفاً ، كانت تدفع بالكثير من جماعتنا إلى التخفي تحت أقنعة إجرامية . ليس بالقليل من عوج سبيل حياته نحو الجريمة أو التدمير الذاتي .

إن خصمي الخرافي الأسطوري نشأ من هذا المشهد . أول الأمر حاول أن يغريني ويغويني ، أن يدخلني في لعبته وقواعدها . فلم يكن هذا لتقبله ريفيتي البورجوازية الصغيرة . لم أكن أجرو وما كان يعجبني أن أحييا في الاحتياي والغش . بطلنا هذا على العكس كان خبيراً في استخراج العصير من الفرص السانحة<sup>(١)</sup> . كان يعيش في عالم مهزلة مستمرة حيث يحتال على نفسه ويغش ذاته مخترعاً له شخصية مهذّدة كانت تفيده كحرفة وكحماية .

لقد حان الوقت كي نسمي هذه الشخصية المسرحية ، إنه (بيريكودي بالوديس Perico de Paloths) . كان رجلاً قوياً أشعر يجاول أن يؤثر ببلاغته وبمظهره . في إحدى المناسبات ، حين لم يكن لي من العمر سوى ثماني عشرة سنة أو تسع عشرة ، اقترح عليّ أن تصدر مجلة أدبية . كانت المجلة ستحتوي فقط على قسمين ، في قسم سيؤكد هو نثراً وشعراً وبحثاً ولحناً على أنني شاعر عبقرى قدير ، وفي القسم الآخر أثبت أنه على مدى الجهات الأربع أنه هو ذو الذكاء المطلق والموهبة غير المحدودة وبهذا كل شيء يسلك وينتظم .

مع أنني كنت فتياً صغيراً فقد بدالي ذلك المشروع مفرطاً مبالغاً . غير أنني بذلت جهداً كبيراً ضد نفسي كي أنصرف عنه نظراً لإغرائه . هو كان ناشراً للمجلات عجبياً غريباً . لقد كانت مدهشة حقاً قدرته على نبش أرصدة كي يحافظ على إصدار منشوراته الهجائية الخالدة .

في المحافظات المنعزلة ذات الأمطار والعواصف كان يضع خطة عمل دقيقة . كان يصنع قائمة طويلة بأسماء الأطباء والمحامين وأطباء الأسنان والمهندسين الزراعيين والأساتذة والمهندسين والمديرين والموظفين الكبار الخ . كان بطلنا هذا يأتي إليهم وهو مكمل بهالة كبيرة من منشوراته الضخمة ومجلاته الكثيرة وأعماله الكاملة وكتبه

(١) استخراج العصير من الفرص السانحة : تعبير إسباني وهو واضح المعنى .

الملحمية والغنائية ، على أنه رسول الثقافة الكونية . كل ذلك كان يقدمه بشكل جاد صارم إلى هؤلاء الرجال المغمورين الذين يزورهم في بيوتهم ومن بعد يتفضل فيتنازل بقبول بضعة «اسكودو»<sup>(١)</sup> منهم . أمام كلامه الفصيح البليغ الضححية تتضاءل إلى حجم ذبابة . بشكل عام كان (دي بالوديس) يخرج من بيت ضحيته وفي جيبه مبلغ من «الاسكودو» تاركاً الذبابة منصرفة للتحويم فوق عظمة الثقافة العالمية .

أحياناً أخرى كان (بيريشيو دي بالوديس) يقدم نفسه على أنه خبير في الدعاية الزراعية ويقترح على الفلاحين الجنوبيين البريثين أن يقوموا بنشر أبحاث فاخرة جداً عن أملاكهم مع صورهم وصور أبقارهم . لقد كان منظرًا يستحق المشاهدة حين يصل وهو يرتدي سروال ممتطي الخيول ويتنعل جزمة مثل جزم رجال الإطفاء ويلتف بستره رائحة كان أتى بها من مصدر غريب . بين إغراءات وتهديدات زائفة بكتابات مضادة كان زلتنا يخرج ببعض الشيكات من أراضي هؤلاء الملاك الذين هم بخلاء ولكنهم واقعيون إذ إنهم كانوا يناولونه بعض الأوراق النقدية كي يتخلصوا منه .

إن الميزة السامية العليا في (بيريشيو دي بالوديس) : وهو فيلسوف «نيتشوي» وحاك «فوتوغرافي» لا شفاء له ، لهي عربدته الفكرية ومشاغبته الفيزيولوجية . لقد كان يمارس «المنفخة» في الحياة الأدبية بتشيلي . كان له خلال سنين كثيرة شرذمة من الفقراء المساكين يطبلون ويزمرون . لكن الحياة معتادة على أن «تنفس» بلا رحمة هؤلاء المنتفخين العرضيين من المخلوقات البشرية .

إن النهاية المأساوية لخصمي النزق هذا -انتحر وهو عجوز- جعلتني أتردد كثيراً قبل أن أكتب عنه هذه الذكريات . لقد فعلت هذا أخيراً ، خاضعاً لأمر أملتة عليّ الفترة وأجبرني عليه المكان . إن سلسلة كبيرة من الكراهية تكتسح الأقطار الناطقة باللغة الإسبانية ، تنخر آثار الكاتب في جسد لجوج . إن الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذه الشراسة المهذمة هي عرض حوادث هذا الحسد الخطير على الناس والتشهير به .

لقد كانت المطاردة الأدبية - السياسية المتسلسلة التي أطلقها ضدي وضد أعماله الشعرية رجل من «أوروغواي» مشبوه ذو لقب جليقي ، شيء هكذا مثل (ريبيرو Ribero) ، معتوهة جداً وملحاحة جداً على حد سواء . إن هذا الزلّة ينشر منذ عدة سنين بالإسبانية وبالفرنسية كتباً هجائية ينهشني فيها ويقطعني إرباً إرباً . إن ما

(١) اسكودو : اسم العملة المتداولة .

يدهش هو أن مآثره ضد «النيرودية» لا تغطي على ورق الطباعة التي ينفق عليها هو بنفسه ، فحسب بل كذلك يقوم بتمويل سفريات باهظة تهدف إلى تدمير بلا رحمة .

لقد رحل هذا البطل متحملاً مشقة السفر حتى وصل إلى مقر جامعة «أوكسفورد» إذ إنه علم أنهم هناك سيمنحونني لقب دكتور فخري . وصل هذا الشعور الشويعر المتشاعر إلى ذلك المكان وهو مزود بمجموعة من سهام الاتهامات الخيالية ومستعد لتقويض أديباً . لقد قص عليّ السادة أساتذة الجامعة في فكاهاة ، الاتهامات التي وجهها ضدي حين كنت لما أزل أرتدي الجبة القرمزية اللون الرسمية بعد أن استلمت الامتياز الفخري ، أثناء ما كنا نحتسي النبيذ الطقوسي .

كان أكثر محالاً وأشدّ تطاولاً سفر هذا الأوروغواني إلى «استوكهولم» عام ١٩٦٣ . فقد كان يشاع بأني سأحصل في تلك المناسبة على جائزة «نوبل» . حسناً إذن هذا الزلّة أجرى مؤتمرات صحفية ، تكلم بالإذاعة كي يؤكد أنني كنت واحداً ممن اغتالوا (تروتسكي) . وكان يحاول بهذه المناورة أن يحرمني من جائزة نوبل . لقد ثبت بعد مضي الزمن أن الرجل كان سيء الحظ دوماً فقد فقد سواء في «أوكسفورد» وسواء في «استوكهولم» بشكل حزين ، ماله وجهه .

### نقد ونقد ذاتي:

لا يمكن إنكار أنني حظيت بنقاد جيدين . لا أقصد الولاثم والمآذب الأدبية التي أقيمت لي ولا أعني الشتائم التي أثرتها بشكل غير إرادي . أعني أناساً آخرين ، من بين الكتب التي ألّفت عن شعري ، بعد أن استثنيت ما كتبه شبان هواة متحمسون ، أخص بالذكر وأضع في المكان الأول الأفضل ما ألّفه الكاتب السوفييتي (ليف اوسبوفات Lev Ospovat) فلقد توصل هذا الشاب إلى إتقان اللغة الإسبانية ، فرأى شعري بشيء أكثر من الاقتصار على فحص للمعنى والمبنى : فقد سلط عليه منظوراً مطابقاً من نور عالمه الشمالي .

لقد نشر (أمير رودريغيث مونيغال Emir Rodriguez Monegal)<sup>(١)</sup> وهو ناقد من الطراز الأول ، كتاباً حول أعماله الشعرية وعنوانه «الرحالة المستقر» . يلاحظ من النظرة

(١) أمير رودريغيث مونيغال : كاتب معاصر من الأوروغواي .

البسيطة أن هذا الدكتور ليس بغبي فقد انتبه في سرعة إلى أنني أحب أن أسافر دون أن أتحرّك من بيتي ، دون أن أخرج من بلدي ، دون أن أبتعد عن نفسي . (في نسخة عندي من ذلك الكتاب الرائع عن الأدب البوليسي المعنون بـ«الحجر القمري» ثمة صورة تعجبني جداً تمثل فارساً إنجليزيّاً متشجّحاً بحلته أو بـ(Macfrlan) أو بزِيّه الرسمي أو ، مهما كان ، جالساً قرب المدفأة ، وكتاب في يده ، وجليون في اليد الأخرى ، وكلبان نائمان عند قدميه . هكذا يطيب لي أن أمكث دوماً ، أمام النار ، إزاء البحر ، بين كليين ، قارئاً الكتب التي كلفني جمعها جهداً جهيداً ، مدخناً غلاييني) .

إن كتاب (أمدادو الونسو)<sup>(١)</sup> - «شعر (بابلو نيرودا) وأسلوبه» - هو صالح للكثيرين . مهم جداً تنقيبه الشغوف الكلف في الظلال بحثاً عن المستويات بين الكلمات والواقع المنزلق اللزج . أضف إلى هذا ، أن دراسة (الونسو) تكشف عن أول اهتمام جدي في لغتنا بأثر شاعر معاصر . وهذا يشرفني كثيراً جداً .

لقد استعان بي لدراسة شعري وتوضيحه وتحليله نقاد كثيرون من بينهم (أمدادو الونسو) نفسه الذي كان يحدق بي بأسئلته الكثيرة ويمضي بي إلى جدار الوضوح ، حيث كنت إذّاك لا أستطيع مجاراته .

يظن بعضهم أنني شاعر سريالي وبعضهم الآخر أنني شاعر واقعي وهناك من لا يؤمن في أنني شاعر . وأنا أرى أن لديهم جميعاً قليلاً من الحق وقليلاً من الباطل . إن ديوان «مقام الأرض» نظم أو على الأقل شرع بنظمه قبل ازدهار السريالية ، كما أن ديوان «محاولة الإنسان اللامحدود» كتب كذلك قبل السريالية ، بيد أنه يجب ألا يوثق في أمر التأريخ هذا . إن هواء العالم ينقل ذرات الشعر سواء أكان هذا الشعر خفيفاً مثل الطلع أو ثقيلاً مثل الرصاص ، فتسقط هذه البذور في الأتلام أو فوق الرؤوس وتمنح الأشياء جو ربيع أو جو معركة ، وتنتج أزهاراً أو قذائف على حد سواء .

أما بالنسبة للواقعية فيجب عليّ أن أقول ، أقول : «يجب» لأنه لا يناسبني أن أقول أنا ما سأقوله ، إنني أمقت الواقعية حين يتعلق الأمر بالشعر . وأكثر من هذا ليس هناك ما يفرض على الشعر أن يكون فوق الواقعية أو تحت الواقعية ، لكن يمكن له أن يكون ضد الواقعية : وهذا الأمر الأخير ، بالمعقول كله وباللامعقول جميعه ، أي بالشعر .

(١) أمدادو الونسو : هو باحث لغوي إسباني ، هاجر إلى الأرجنتين (١٨٩٦-١٩٥١) .



يروقني الكتاب ، مادة العمل الشعري الكثيفة ، غابة الأدب ، يروقني كل شيء ، حتى كعاب الكتاب تروقني ، لكن لا تستهويني عناوين المدارس . أريد كتباً بلا مدارس وبدون وضع علامات مثل الحياة .

يعجبني «البطل الإيجابي» في (والث ويطمان)<sup>(١)</sup> وفي (ماياكوفيسكي) ، أي في من وجدوه بدون وصفة طبية فتمثلوه ليس بلا معاناة ، وجسده في ألفة حياتنا الجسدية وجعلوه يشاركنا الخبز والحلم .

إن على المجتمع الاشتراكي أن يقضي على ميثولوجيا فترة مستعجلة كانت فيها اللافتات تساوي أكثر من السلع وفيها أهملت المضامين . لكن الحاجة الماسة ، هي أن يكتب الكتاب كتباً جيدة . كما يعجبني «البطل الإيجابي» الذي عشر عليه في مدارس الحروب الأهلية المضطربة كل من الأمريكي الشمالي (وايطمان) والسوفييتي (ماياكوفيسكي) ، فإن قلبي يسع كذلك البطل المتشع بشباب الحدود عند (لوتريامونت) والفراس المتحسر لدى (لافورجيه) والجندي السلبي في (شارل بودلير)<sup>(٢)</sup> . حذار من فصل نصفي تفاحة الخلق بعضاً عن بعض لأنه إن فعلنا ذلك ، ربما نقسم القلب فلقطين وندع الوجود . حذار ، يجب أن نطلب من الشاعر أن يتخذ له مكاناً في الشارع وفي المعركة كما في النور وفي الظل .

ربما أن واجبات الشاعر كانت هي نفسها على مدى التاريخ كله . إن شرف الشعر كان يخرج إلى الشارع كان المشاركة في هذا العراك وفي ذلك . لم يرتعد الشاعر حين قالوا له إنك لعاص فالشعر هو العصيان . لم يشعر الشاعر بالإهانة حين دعوه بالتمرد فالحياة تتخطى البنى والصيغ وإذ بسنن جديدة للروح . إن البذرة تقفز من كل جهة ، كل الأفكار هي غريبة ، نحن ننتظر في كل يوم تغييرات هائلة ، نحيا في حماسة تحول النظام الإنساني : إن الربيع لهو نائر .

أعطيت أنا كل ما ملكت ، لقد قذفت بشعري إلى الرمل ، ونزفت مع شعري دوماً ، معانياً الاحتضارات وبمجداً المآثر التي كان من حظي أنني شاهدها وعشتها . بسبب أو آخر لم يفهمني الآخرون وليس هذا بسيء من النواحي جميعها . لقد قال ناقد إكوادوري إنه ليس في كتابي «الأعنان والريح» أكثر من ست

(١) والث ويطمان : شاعر مشهور من الولايات المتحدة الأمريكية (١٨١٩-١٨٩٢) .

(٢) شارل بودلير : الشاعر والناقد الفرنسي المعروف (١٨٢١-١٨٦٧) .

صفحات من الشعر الحقيقي . لقد قرأ هذا الناقد الأكوادوري بلا محبة ديواني هذا لأنه كتاب سياسي ، كما أن نقاداً آخرين سياسيين أكثر من اللازم مقتوا ديواني «مقام في الأرض» لأنهم اعتبروه كتاباً باطنياً قائماً داجياً . إن (جان مارينيو)<sup>(١)</sup> الفذ الشهير جداً أدانه في زمن آخر باسم المبادئ . إنني أرى أن كلاً من الطرفين يرتكب خطأ فادحاً ناشئاً عن المنطلقات نفسها .

أنا كذلك تكلمت ذات مرة ضد «مقام الأرض» لكنني فعلت ذلك وأنا أفكر ، ليس في الشعر ، بل في الجو المتشائم الذي يخلقه كتابي هذا ويتنفس فيه . لا أستطيع أن أنسى مطلقاً أنه منذ سنوات قليلة انتحر شاب من «ساتياغو» على جذع شجرة وترك كتابي مفتوحاً على القصيدة المعنونة «يعني ظلالاً» .

أعتقد أن لكتاب «مقام في الأرض» وهو كتاب أساسي وظليل معتم في أثري الشعري ، ولكتاب «الأعنان والريح» وهو كتاب ذو رحاب فسيحة ونور كثير ، حقاً في أن يوجد في ناحية ما من أعمال الشعرية وأنا في هذا القول لا أتناقض .

الحقيقة هي أن في نفسي بعضاً من الميل إلى كتاب «الأعنان والريح» ربما لأنه أكثر كتبي عدم تفهم من لدن الآخرين ، أو لأنه عبر صفحاته شرعت أنا بالمسير في العالم . إن له لغبار دروب وماء أنهار ، فيه أحياء ومخلوقات ، إن فيه مجالات ومحيطات ، أماكن أخرى ما كنت أعرفها فراحت تنكشف لي لكثرة ما جبت وجلت . إنه لواحد من أحب الكتب إلى نفسي ، أكرر وأعيد .

من بين كتبي كلها ديوان «شاذ» ليس هو أكثرها غناء بل هو أكثرها وأحسنها وثباً . إن أبياته الوثابة تقفز متجاوزة الوجاهة والوقار والاحترام ، والحماية المشتركة ، والسنن والواجبات ، كي ترعى الاستهتار المكرم . بسبب وقاحته هو أكثر كتبي ألفة في نفسي . بسبب بلوغه يتوصل إلى نباهة وأهمية داخل شعري . على طريقتي الخاصة في الذوق والتذوق هو كتاب خطير عسير له طعم ملحي كطعم الحقيقة .

في «أناشيد بدائية» افترضت لنفسي ركنيزة أصيلة ، مولدة . أحببت إعادة وصف أشياء كثيرة غُثيت وقيلت وأعيدت مراراً وتكراراً . كانت نقطة انطلاقتي المعتمدة يجب أن تكون نقطة انطلاق الطفل الذي يبدأ ، وهو يمص القلم ، لإنشاء وظيفة مدرسية إجبارية عن الشمس ، أو عن السبورة ، أو عن الساعة ، أو عن الأسرة

(١) خون مارينيو : شاعر وكاتب كوبي ولد عام ١٨٩٨ .

الإنسانية . ولا موضوع كان يمكن أن يبقى خارج دائرتي ، كان عليّ أن المس كل شيء وأنا سائر أو وأنا طائر ، مخضعاً تعبيري للشفافية القصوى والبتولة الكبرى .  
لأنني شَبَّهت بعض الحجارة ببضع بطّات صغيرات ، استهجن ذلك ناقد أورغوايي فقد كان هو قد أصدر مرسوماً ينص على أن البطّات وكذلك بقية الحيوانات الصغيرة ليست بمادة شعرية . حتى هذا الحد من الهزل وعدم الجدية وصل الهراء الأدبي . يريدون إجبار المبدعين على عدم معالجة شيء إلا المواضيع السامية الرفيعة . لكنهم يخطئون ، إننا نحن معشر الشعراء سنصنع شعراً حتى من أكثر الأشياء احتقاراً من لدن معلمي الذوق الجيد .

البورجوازية تطلب شعراً يبتعد أكثر فأكثر عن الواقع . إن الشاعر الذي يعرف أن يسمي الخبز خبزاً والنبيد نبيداً لهو خطير بالنسبة للرأسمالية المحتضرة المحشرجة . إن ما يناسب الرأسمالية هو أن يعتقد الشاعر في أنه «إله صغير» ، كما لو أن (بيثينته هويدوبرو) كان قد قال ذلك . إن هذا الاعتقاد أو هذا السلوك لا يزعج الطبقات الحاكمة . فهكذا يمكث الشاعر في برجه العاجي متأثراً بعزلته الربانية فلا يحتاج إلى أن يرتشي أو أن يسحق . هو نفسه قد رشا نفسه حين حكم على نفسه بالنفي إلى السماء فيما الأرض تضي وتترجّج في طريقها وفي بريقها .

إن بين شعوبنا الأمريكية للملايين من الأميين ، يحافظ على اللاتقافة كظرف موروث وكامتياز من الإقطاعية . نستطيع القول ، أمام عطالة سبعين مليون من الأميين في بلادنا ، إن قرأنا لما يولدوا بعد . يجب علينا أن نعجل بهذا المخاض حتى يولد من يقرأ لنا ويقرأ للشعراء جميعاً . لا بد من شق رحم أمريكا كي نخرج منه النور المجيد . إن نقاد الكتب بشكل مألوف يعملون على إرضاء أفكار الرؤساء الإقطاعيين . مثلاً ، في عام ١٩٦١ ، ظهرت لي ثلاثة دواوين : «أغنية مفخرة» ، و«أحجار تشيلي» ، و«أناشيد شعائرية» ، فلم يذكر نقاد بلدي ولا حتى عناوينها في مجرى العالم كله . حين نشرت لأول مرة قصيدتي «مرتفعات ماكتشو بيكتشو» كذلك لم يجرؤ أحد من النقاد على ذكر هذه القصيدة في تشيلي . ذهب ناشر هذه القصيدة إلى مكاتب أضحخم صحيفة في الصحف التشيلية وهي صحيفة «الماركوريو»<sup>(١)</sup> ، تصدر منذ حوالي قرن ونصف من الزمن ، وكان معه وصل مدفوع للإعلان عن ظهور هذا

(١) ماركوريو : هو عطاردهو إله التجارة عند اليونان .

الكتاب فقبلوا أن ينشروا هذا الإعلان شريطة أن يحذف اسمي .  
- لكن ، إذا كان (نيرودا) هو المؤلف ... - احتج الناشر (نبيرا) .  
- لا يهم .

فكان على كتاب «مرتفعات ماكتشو بيكتشو» أن يظهر في الإعلان كما لو كان مؤلفه غفلاً مجهولاً . فماذا تفيد هذه الصحيفة مائة وخمسون سنة من العمر؟ فهي في هذا الزمن كله لم تتعلم احترام الحقيقة ولا الوقائع ولا الشعر .  
أحياناً لا تخضع الأهواء السلبية ضدي ببساطة إلى انعكاس صراع الطبقات الملتهب بل إلى أسباب أخرى . على الرغم من أنني أعمل منذ أربعين سنة متواصلة وأني منحت عدة جوائز أدبية ، وأن كتبي نشرت في أغرب اللغات فإنه لا يمر بي يوم دون أن ألقى صفيحة أو صفيحة من الحسد المحدق بي ، هذه هي حال داري . لقد اشتريت منذ عدة سنوات هذه الدار في «إيسلا نيغرا» بمكان خال قفر حين لم يكن هناك ماء صالح للشرب ولا كهرباء . ثم حسنتها ورفعتها على دفعات كتب . أحضرت تماثيل خشبية حبيبة إلى نفسي ، تماثيل قياديم لسفن عتيقة فوجدت في داري هذه مراحاً ومستراحاً بعد أسفار مرهقة طويلة .

لكن ثمة كثيرين من الناس لا يبسحون لشاعر أن يتوصل كثمرة لأثره الأدبي المنشور في كل جهة من العالم إلى حياة الكرامة المادية التي يستحقها الكتاب كلهم والموسيقيون جميعهم والرسامون قاطبة . إن الكتبة الرجعيين المنبوذين لقدمهم ، الذين يطلبون في كل لحظة تكريمات إلى (غوته Goethe)<sup>(١)</sup> يابون أن يكون لشعراء اليوم حق في الحياة . إن امتلاك سيارة يخرجهم من مفصلة الباب<sup>(٢)</sup> . ففي رأيهم السيارة يجب أن تكون مقتصرة على التجار ، على المضاربين ، على القيمين ، على المواخير ، على المرابين ، على الغشاشين .

كبي أزيد من حنقهم وغضبهم أهديت داري في «إيسلا نيغرا» إلى الشعب ، وهناك ذات مرة ستعقد اجتماعات نقابية وستقضى إجازات استراحة واستجمام لعمال المناجم والفلاحين .  
حينذاك سيثار لشعري .

(١) غوته : الكاتب الألماني المشهور (١٧٤٩-١٨٣٢) .

(٢) الخروج من مفصلة الباب : تعبير إسباني بمعنى الخروج عن الطور وفقدان الاتزان .

## عام آخريبدأ،

يسألني صحفي :

- كيف ترى حضرتك العالم في هذا العام الذي يبدأ؟  
أجبهته :

- في هذه اللحظة بالضبط ، في الساعة التاسعة وعشرين دقيقة من صباح يوم الخميس من شهر كانون الثاني أرى العالم بأسره وريداً وأزرق .

ليس في هذا القول أية مقتضيات أدبية أو سياسية أو ذاتية . هذا يعني أن دوحاً كبيرة من أزهار وردية أراها من نافذتي ، وأن هناك على المدى المحيط الهادي والسماء ينصهران في عناق أزرق .

لكنني أدرك ، ونحن جميعاً نعرف ذلك ، أن ألواناً أخرى توجد في مرأى العالم . من يستطيع أن ينسى لون الدماء الكثيرة المهرقة بلا جدوى كل يوم في الفيتنام؟ من يستطيع أن ينسى لون القرى المحروقة بالنابالم؟

أجيب عن سؤال آخر وجهه إليّ الصحفي . كما فعلت في السنوات الأخرى فأني سأنشر كتاباً جديداً في هذه الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً . أنا متأكد من ذلك . إنني أداعب الكتاب ، أزعجه ، أكتبه كل يوم .

- ماذا تعالج فيه؟

ماذا أستطيع أن أجيب؟ يُعالج دوماً في كتبي الموضوع نفسه ، دائماً أكتب الكتاب ذاته . فليغفر لي أصدقائي أن ليس ما أقدمه لهم في هذه المرة الجديدة في هذه السنة الجديدة إلا أشعاري ، الأشعار الجديدة ، الأشعار نفسها .

لقد أتى لنا العام المنصرم بانتصارات إلى الأرضيين جميعنا : انتصارات في الفضاء ومداراته . لقد أحببنا نحن البشر جميعاً أن نظير في ذلك العام المنصرم . لقد سافرنا جميعاً في أحلام فضائية . إن ارتياد العلاء العظيم ينحصنا جميعاً سواء أكان أمريكيين شماليين أم سوفيتيين من تمتطقوا بأول هالة قمرية وأكلوا أولى الأعناب القمرية .

يجب أن يكون من نصيبنا نحن الشعراء الحصة الكبرى من الهبات المكتشفة . إن الكوكب الشاحب ، من (خوليو فيرنه)<sup>(1)</sup> الذي «مكنك» الحلم الفضائي القديم

(1) خوليو فيرنه : رواي فرنسي (1828-1905) .

في كتاب ، إلى (جولسي لافورغويه) و(هاينريش هايني) و(خوسه اسونثيون سيلفا) ، دون نسيان (بودليس) الذي اكتشف رقيته المؤذية ، قد بحثنا فيه نحن الشعراء وغنيناه وشهرناه قبل أي إنسان .

تمر السنون . المرء يُستهلك ، يزدهر ، يعاني ويتمتع . السنون تجلب للمرء الحياة وتأخذ منه الحياة . تصير التوديعات أكثر مألوفة ، يدخل الأصدقاء السجن أو يخرجون منها ، يروحون إلى أوروبا أو يعودون منها ، أو ببساطة يموتون .

إن الذين يمضون حين يكون المرء بعيداً جداً عن المكان حيث يموتون ، يبدو أنهم يموتون أقل ، يستمرون يحيون داخل المرء نفسه كما كانوا . إن شاعراً يُحيي أصدقاءه ليميل إلى القيام بمختارات شعرية حدادية في عمله الشعري . أنا توقفت عن إتمام هذه المختارات خوفاً من رتوب الألم الإنساني تجاه الموت . إذ إن المرء لا يحب أن يصبح فهرساً للمتوفين ، ولو أن هؤلاء كانوا أكثر الناس حباً إلى قلبه . حين كتبت في «سيلان» عام ١٩٣١ «غياب (خواكين)» إثر موت صديقي وزميلتي الشاعر (خواكين ثيوفونتييس سيبولفيدا) وحين في وقت لاحق نظمت (البرتو روخاس خيمينيث) يأتي وهو يطير» في «برشلونة» عام ١٩٣١ ظننت أن لا أحد سيموت لي من بعد . مات لي كثيرون . هنا ، قريباً ، في التلال الأرجنتينية عند «قرطبة»<sup>(١)</sup> يرقد مدفوناً أحسن أصدقائي الأرجنتينيين وهو (رودولفو ارأوس الفارو) الذي ترك أرملة ابنة بلدنا (مارغاريتا غيرهه) .

في هذا العام المنصرم ، حملت الريح قامة (إيليا ايهرينبورغ) الهشة ، وهو صديق حبيب جداً ، ومدافع صنديد عن الحقيقة وملاحق جبار للكذب . في موسكو نفسها وفي هذا العام المنصرم نفسه دفنوا الشاعر (أوفادي سافيش) الذي كان قد ترجم شعر (غابرييلا ميسترال) وشعري إلى الروسية ليس بدقة وجمال فحسب بل بحب مشع كذلك . ريح المنية أخذت مني أخويّ الشعارين (ناظم حكمت) و(سيمون كيرسانوف) وآخرين كثيرين .

لقد كان فجيعة مرة اغتيال (تشي غيفارا)<sup>(٢)</sup> رسمياً في «بوليفيا» الخزينة جداً .

---

(١) قرطبة : نلفت أنظار القارئ العربي إلى أن أسماء المدن الأنلسية قد انتشرت في أمريكا اللاتينية وأطلقت على مدن وقرى هناك كما يظهر الآن من اسم قرطبة وكما ظهر من قبل من اسم قرطاجنة .

(٢) تشي غيفارا : هو طبيب أرجنتيني ساهم في الثورة الكوبية ثم ساهم في الثورات بأمريكا اللاتينية ، ويعتبر بطلاً من أبطال التحرر والتقدم في عصرنا هذا (١٩٦٩-١٩٢٨) .

إن نعيه طاف في العالم مثل قشعريرة مقدسة : ملايين المرثي حاولت أن تصنع «جوقة» كي تمجد وجوده البطولي المأساوي . لقد انهدرت عبر الدنيا أشعار ما كانت دوماً على مستوى هذا الألم . تلقيت برقية من «كوبا» من عقيد أديب يطلب مني مرثيتي التي لم أكتبها حتى الآن . أفكر أن مثل هذا الرثاء يجب أن يحتوي ليس على الاحتجاج الفوري فحسب بل على الصدى العميق لهذه القصة الأليمة . سأترؤى في هذه القصيدة حتى تنضج في رأسي وفي دمي .

إنه ليهزني أن أكون أنا الشاعر الوحيد الذي ذكره (تشي غيفارا) ، هذا القائد العظيم في حرب العصابات ، في يومياته . أذكر أن (ال تشي) حكى لي ذات مرة ، أمام الرقيب (ريتامار) كيف كان يقرأ مرات كثيرة كتابي «النشيد العام» على أوائل ملتحي «سيراً مايسترا»<sup>(١)</sup> المتواضعين الأمجاد . ينقل في يومياته ، بجلاء هاجس ، بيت شعر من قصيدتي «نشيد (بوليفار)»<sup>(٢)</sup> «جثته الصغيرة ، جثة قائد مقدم . . .» .

### جائزة «نوبل»

إن لجائزة «نوبل» التي حزت عليها لقصة طويلة . خلال سنوات كثيرة رن اسمي كمرشح لهذه الجائزة دون أن يتبلور هذا الرنين في شيء . في عام ١٩٦٣ كانت المسألة جدية جداً . أذاعت محطات البث مراراً وتكراراً أن اسمي يناقش فيه بشكل حاسم في «استوكهولم» وأني أكثر المرشحين احتمالاً في الفوز بهذه الجائزة . عند ذلك أنا و(ماتيلدا) وضعنا قيد التنفيذ الخطة رقم ٣ في الدفاع المنزلي . علقنا قفلاً كبيراً في البوابة الكبيرة لدارنا بـ«ايسلا نيغرا» وعمّونا ب مواد غذائية وبنبيذ أحمر قان . أضفت بضع روايات بوليسية لـ(سيمنون)<sup>(٣)</sup> على هذه الاحتياطات الاعتزالية الانزوائية .

وصل الصحفيون مبكرين فأبقيناهم على بعد يكظمون الغيظ ؛ إذ أنهم لم يستطيعوا النفوذ عبر البوابة المزودة بقفل برونزي بقدر ما هو جميل هو تقدير متين . كانوا يدورون من وراء الجدار الخارجي ويطوفون كمنور غاضبة . ماذا كانوا يحسبون

(١) سيراً مايسترا : هي سلسلة جبال في كوبا منها انطلقت الثورة الكوبية .

(٢) بوليفار : هو زعيم التحرر والاستقلال في أمريكا اللاتينية (١٧٨٣-١٨٣٠) .

(٣) سيمنون : روائي بلجيكي ولد عام ١٩٠٣ .

ويظنون؟ ماذا كنت أستطيع أن أقول عن مناقشة لا يشارك فيها إلا أكاديميون سويديون في الطرف الآخر من العالم؟ بيد أن الصحفيين ما كانوا يخفون نياتهم على استنباط الماء من عود يابس<sup>(١)</sup>.

كان الربيع قد تأخر مجيئه إلى شاطئ المحيط الهادي الجنوبي . لقد أفادتني تلك الأيام المنعزلة في أن أتألف والربيع البحري الذي وإن كان جاء متأخراً ، قد تزين لأجل الاحتفال بمهرجانه الموحش المتفرد . لا تسقط خلال الصيف أية قطرة من المطر للأرض طينية جافة صخرية مسننة ، لا يلحظ أي قذى أخضر . خلال الشتاء تطلق ريح البحر غضباً ، ملحاً ، زبد أمواج هائلة ، وإذآك الطبيعة تبرز مكفهرة فريسة لتلك القوى الرهيبة .

يبدأ الربيع بعمل أصفر كبير ، كل شيء يتغطى بأزهار مذهبة صغيرة لا عد لها ولا حصر . إن هذا التناسل الصغير القدير يكسو السفوح ، يحدق بالصخور ، يزحف نحو البحر ويطلع وسط دروبنا اليومية كما لو أنه يريد أن يتحدثنا ، أن يبرهن لنا على أنه موجود حي . لقد تحملت هذه الأزهار حياة لا مرئية خلال زمن كثير جداً ، لقد أفحمها رفض الأرض البياب المكدر المدمر إلى حد أنها الآن لا تقنع بشيء ويبدولها كل شيء قليلاً لأجل خصوبتها الصفراء .

من بعد تذبل وتحمد الأزهار الشاحبة الصغيرة فكل شيء يتغطى بتزهير بنفسجي فاقع . لقد عبر قلب الربيع من الأصفر إلى الأزرق ومن بعد إلى الأحمر . فكيف استعاضت بعضها ببعض ؛ تويجات الأنوار الصغيرة غير المحدودة وغير المعروفة؟ كانت الريح تهز لونها وفي اليوم التالي لونهاً آخر ، كما لو أن الربيع كان يبدل فسطاطه بين التلال والروابي المتوحدة ، وكما لو أن الجمهوريات المختلفة كانت تتباهى برأياتها الغازية .

في هذه الفترة تزهو أشجار الـ«كاكتو»<sup>(٢)</sup> في الساحل . بعيداً عن هذه المنطقة ، في سفوح سلسلة الجبال «الأنديسية» تشمخ أشجار الـ«كاكتو» عملاقة ، ذات أخاديد وأشواك ، مثل طوابير معادية . بينما ، أشجار الـ«كاكتو» في الساحل ، على العكس ، هي صغيرة ومدورة . رأيتها وهي تتوج ، كل واحدة منها ، بعشرين برعماً

(١) استنباط الماء من عود يابس : تعبير إسباني بمعنى محاولة المستحيل .

(٢) الـ كاكتو : نوع من نبات الصبار .



قرمزيًا كما لو أن يداً كانت قد تركت هناك دية متوهجة من قطرات دماء . من بعد تفتقت البراعم . إن المرء ليلمح مواجه الأزيد البيضاء العظيمة المنبعثة من المحيط آفاقاً من أشجار الـ«ككتو» المتقدة بأزهارها المنطلقة السائدة .

إن السيزال العتيق في داري أخرج من عمق أحشائه ومن حشاشة قلبه نوره الجريء المنتحر . هذه الشتلة الزرقاء الصفراء ، الغليظة العملاقة استغرقت في غوها أكثر من عشر سنين عند باب داري إلى أن صارت أطول مني . والآن تزهر كي تموت . لقد نما نبتت أخضر قدير ، سما إلى ارتفاع سبعة أمتار ثم أوقفت نموه تشكيله أزهار جافة لا يكسوها إلا القليل من الهباء الذهبي . من بعد أوراق السيزال الأمريكي تخرّ فتموت .

وإذ ، مقابل الزهرة الكبيرة التي تموت ، زهرة ضخمة تولد . لا أحد سيعرف هذه الزهرة خارج وطني ، لا توجد هذه الزهرة إلا في هذه الأصقاع «الانطارية»<sup>(١)</sup> «تشاتشوال»<sup>(٢)</sup> إن هذه الشتلة السلفية قد عبدها «الأراوكانوس» . لم يعد «الأراوكانوس» القديم يوجد الآن . إن الدم والموت والدهر ومن ثم أناشيد (ألونسو دي إيرثيا)<sup>(٣)</sup> الملحمية ختمت التاريخ التليد القديم لقبيلة من صلصال<sup>(٤)</sup> استيقظت على حين غرة من نومها الجيولوجي كي تدافع عن وطنها المكتسح المغزو . حين أرى طلوع أزهار هذه القبيلة مرة أخرى ، فوق قرون من أموات داكين ، فوق طبقات من فناء دام ، أعتقد أن ماضي الأرض يزهر ضد وجودنا ، ضد ما نحن عليه الآن . إن الأرض وليس إلا الأرض ، تستمر كائنة حية أبدية محتفظة بالماهية والذات . لكن نسيت أن أصفها .

إنها «بروميلاثيا»<sup>(٥)</sup> ذات أوراق منشارية . تقتحم الدروب مثل حريق أخضر ،

---

(١) الانطارية Antartica : نسبة إلى القطب الجنوبي .

(٢) معناها : منحس تشيلي .

(٣) ألونسو دي إيرثيا : شاعر إسباني (١٥٣٣-١٥٩٤) ، كنا قد عرفنا به من قبل .

(٤) لاحظ التشابه الصوتي بين لقب المؤلف (Ercilla) وكلمة صلصال (Arcilla) فالجناس من خصائص (نيرودا) .

(٥) بروميلاثيا : هي نوع من النبات ، والاسم مأخوذ من اسم عالم نبات سويدي من القرن الثامن عشر وهو (Bromel) .

تكوّم في خزانة الأسلحة سيوفها الزمرجدية الغريبة . لكن ، فجأة ، زهرة هائلة واحدة وحيدة ، عنقود يولد لها من خصرها ، وردة خضراء هائلة بارتفاع قامة الإنسان الكهل . إن هذه الزهرة المنقطعة النظير المؤلفة من جمهرة براعم ، المتجمعة في كاتدرائية خضراء واحدة ، المتوجة بالطلع الذهبي تلتمع على نور البحر . إنها الزهرة الخضراء الهائلة الوحيدة التي رأيتها تغدو نصباً تذكارياً للموجة .

إن الفلاحين والصيادين في بلدي قد نسوا منذ زمن بعيد أسماء النباتات الصغيرة ، الأزهار الصغيرة ، فلم يعد لها الآن من اسم . لقد راحوا ينسون هذه الأسماء شيئاً فشيئاً وراحت الأزهار تفقد كرامتها بشكل بطيء . غدت الأزهار غامضة مهملة كما الأحجار التي تجرفها الأنهار من أعالي الثلوج «الأنديسية» حتى السواحل غير المعروفة . لقد ظل الفلاحون والصيادون وعمال المناجم والمهربون ، عاكفين على وعورة حياتهم ، على ديومة الموت والانبعاث في واجباتهم وهزائمهم . إنه لغامض أن يكون المرء بطلاً في أراضٍ لما تكتشف بعد . الحقيقة هي أنه ليس يلتمع في ذواتهم ، في غنائهم ، إلا الدماء المجهولة الأصول ، والأزهار التي لا أحد يعرف أسماءها .

من بين هذه الأزهار ثمة واحدة اكتسحت داري كل داري . إنها زهرة زرقاء ذات قد طويل صقيل مزهو صامد . في كثيسها تتبختر الزهيرات المتكاثرة المتعددة الألوان من نيلوفر فاتح إلى كحلي غامق . لست أدري إن كان في مكنة البشر كلهم أن يحظوا بتأمل هذه الزرقة السامية الرفيعة . أم أن هذه المتعة ستقتصر على بعضهم؟ أفستمكث هذه الزرقة محجوبة غير مرئية ، عن عيون أناس آخرين حرّمهم إله أزرق من هذا التأمل المزورق؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون غير فرحي الذاتي المتغذي في الوحدة ، المتحول إلى زهو ، المفتخر في أنه عثر على هذه الزرقة ، هذه الموجة الزرقاء ، هذه النجمة الزرقاء ، في هذا الربيع المهجور؟

أخيراً سأتكلم عن نباتات الـ«دوكاس» . لست أدري إن كانت توجد في جهات أخرى هذه النباتات المتكاثرة ملايين وملايين ، التي تغرز في الرمال أصابعها المثلية الشكل . لقد ملأ الربيع هذه الأيادي الخضراء بخواتم غير مألوفة ذات لون غريب . إن الـ«دوكاس» تحمل اسماً اغريقياً :

إن روعة «ايسلا نيغرا» في هذه الأيام المتأخرة من الربيع لهي هذه الـ(aizoaceae) التي تنسكب مثل اجتياح بحري ، مثل فوحان مغارة البحر الخضراء ، مثل عصير

العناقيد الأرجوانية الذي خزنه في حانته ، «نتون» Neptuno<sup>(١)</sup> النائي البعيد .  
في هذه اللحظة بالضبط تعلن لنا الإذاعة أن شاعراً يونانياً جيداً قد حصل على  
جائزة نوبل الشهيرة . فهاجر الصحفيون ، أخيراً استطعنا ، أنا و(ماتيلدا) ، أن نظل  
هادئين بعد أن تخلصنا من الصحفيين . سحبنا في وقار قفل البوابة الكبيرة كي  
يدخل الناس كل الناس كما كانوا يدخلون من قبل ، دون أن يقرعوا على باب دارى  
ودون أن يعلنوا عن أنفسهم كما الربيع .

في المساء جاء ليراني السفير السويدي وزوجته . كانا يحضران معهما سلة  
زجاجات (delicatessen) كي نحتفل بجائزة نوبل التي كانا يعتقدان اعتقاداً أكيداً  
أنها ستكون من نصيبي . لم نعد حزاني بل تناولنا جرعة نخب «سيفيريس» الشاعر  
اليوناني الذي فاز بالجائزة . لدى التوديع أخذني السفير جانباً وقال لي :  
- بالتأكيد رجال الصحافة سيأتون ليقابلوني ولست أدري شيئاً في هذا الشأن .

أستطيع حضرتك أن تقول لي من هو (سيفيريس)؟  
أجبت في صراحة وصدق : أنا كذلك لست أدري شيئاً عنه .  
الحقيقة هي أن كل كاتب على سطح هذا الكوكب المدعو «الأرض» يريد أن  
يحصل ذات مرة على جائزة نوبل حتى أولئك الذين لا يفصحون بذلك وحتى هؤلاء  
الذين يرفضون الجائزة .

في أمريكا اللاتينية ، بشكل خاص ، للأقطار مرشحوها ، يخططون لحملاهم  
ويرسمون استراتيجيتهم . أمريكا اللاتينية هذه خسرت الجائزة لبعض هؤلاء الكتاب  
الذين كانوا يستحقونها . هذا هو حال (رومولو غاييغوس)<sup>(٢)</sup> ، أثره الأدبي عظيم  
ولا تق . لكن «فينزويلا» هي بلد النفط ، أي ، بلد المال ولهذا السبب وفي هذا السبيل  
قد صُمم على أن تربح الجائزة «فنزويلا» في اسم (رومولو غاييغوس) . ولذلك عينت  
«فينزويلا» سفيراً لها في «السويد» ، هدفه الأعلى حدّد بالحصول على الجائزة . فكان  
هذا السفير يسرف في الولائم والدعوات ، ينشر مؤلفات الأكاديميين السويديين في  
اللغة الإسبانية بمطابع خاصة تابعة لسفارته في «استوكهولم» ذاتها . لا بد أن هذا كله

---

(١) نتون : هو إله الماء عند اليونان ، وهو كذلك الكوكب نتون الذي اكتشف في منتصف القرن التاسع

عشر .

(٢) رامولو غاييغوس : روائي فنزويلي (١٨٨٤-١٩٥٩) .

بدا للأكاديميين المتحفظين الحساسين مفرطاً زائداً عن حده . أبداً ما كان يعرف (رومولو غايغس) بفعالية سفير بلده الطافحة الزائدة عن اللزوم ، وقد يكون هذا هو السبب الذي أدى إلى حرمانه من استلام هذا اللقب الأدبي الذي يستحقه فعلاً .

في باريس حكوا لي في مناسبة ما قصة حزينة ، محاطة بمزاح قاس . كان الأمر يتعلق هذه المرة بـ(بول فاليري)<sup>(١)</sup> كان يشاع اسمه على أنه المرشح الأكثر احتمالاً في الفوز بجائزة «نوبل» لذلك العام ، وكانت تردد ذلك الإذاعات والصحافة في فرنسا كلها . في صباح اليوم نفسه الذي كانت فيه هيئة المحلفين تتداول بـ«استوكهولم» خرج (فاليري) مبكراً جداً من داره الريفية مصاحباً بعكازه وبكلبه ، بحثاً عن إخماد الحالة العصبية التي سببها له هذا الخبر المثير .

عاد من جولته في منتصف النهار ، في ساعة الغداء . فما إن فتح الباب حتى بادر إلى سؤال السكرتيرة :

- هل من مكالمة هاتفية؟
- أجل ، أيها السيد ، لقد اتصلوا بك من «استوكهولم» منذ عشر دقائق .
- أية بشرى زفوها إليك؟ قال وقد أفصح عن تأثره .
- لقد كان صوت صحفية سويدية تريد أن تعرف رأيك في حركة التحرير النسوية .

كان (فاليري) نفسه يشير إلى هذه الفكاهة في شيء من التهكم ، والحقيقة هي أنه شاعر جد كبير وجد عظيم وكاتب متقن جداً ومع ذلك فهو أبداً ما فاز بهذه الجائزة الشهيرة .

لكن ، في ما يخصني فيجب على الآخرين أن يعترفوا لي بأني كنت دوماً محترساً محتاطاً جداً . كنت قد قرأت في كتاب لعلامة تشيلي أراد إطراء (غابيريلا ميسترال) ، الرسائل العديدة التي وجهتها مواطنتي المتقشفة إلى أماكن كثيرة دون أن يفقدها ذلك تقشفها وزهدا ، ولكنها كانت تدفعها رغباتها في التقرب من الجائزة . هذا جعلني أصبح كتوماً أكثر . منذ أن علمت بأن اسمي يتردد (لست أدري كم من مرة تردد ذكر اسمي من قبل) على أي مرشح ، قررت ألا أعود إلى السويد ، وهو بلد طالما جذبني منذ أن كنت صبياً حين جعلنا من أنفسنا ، أنا و(توماس لاغو) ،

(١) بول فاليري : شاعر وأديب وناقد فرنسي معروف (١٨٧١-١٩٤٥) .

تلميذين حقيقيين لراع بروتستانتني سكير مطرود من الكنيسة اسمه (غوستا بيرلينغ) .

زد على ذلك أنني كنت قد سئمت من أن أذكر كل سنة دون أن تذهب الأمور إلى أبعد من الذكر ، وكان يبدو لي مغيظاً أن أرى اسمي في المباريات السنوية كما لو أنني جواد سباق . من جهة أخرى كان التشيليون ، أدباء أو جماهير ، يشعرون بالإهانة بسبب لا مبالاة الأكاديمية السويدية بي . كان هذا وضعاً يتاخم ما يضحك بشكل خطير .

أخيراً ، الناس كلهم يعرفون ذلك ، منحوني جائزة «نوبل» . كنت أنا في باريس ، عام ١٩٧١ . حديث الوصول لتأدية مهامني سفيراً لتشيلى ، حين بدأ اسمي بالظهور في الصحف مرة أخرى . أنا و(ماتيلدا) قطبنا الجبين لقد فقدت بشرتنا الإحساس بعد أن تعودنا على الفشل . ذات ليلة من تشرين الأول من تلك السنة دخل (خورخه ايدواردس) وهو كاتب كان مستشاراً في السفارة بباريس ، إلى غرفة الطعام في منزلي . اقترح ، على الرغم من تقييره الذي يميزه ، عليّ قبول رهان بسيط جداً . إن منحوني جائزة «نوبل» هذا العام فإن عليّ أن أدفع ثمن وجبة في أحسن مطعم بباريس له ولزوجته ، وإن لم يمنحوني فسيدفع هو ثمن وجبة لي ولزوجتي . قلت له : موافق . سنأكل بشكل رائع على حسابك .

جزء من سر (خورخه ادواردس) ومن رهانه المغامر بدأ ينكشف في اليوم التالي . عرفت أن صديقة له كانت قد اتصلت به هاتفياً من «استوكهولم» وكانت هذه الصديقة كاتبة وصحفية . قالت له إن الاحتمالات كلها تشير إلى أن (بابلو نيرودا) سيفوز بجائزة «نوبل» هذه المرة .

بدأ الصحفيون يتصلون من على بعد كبير . من «بونوس أيريس» ، من «المكسيك» وبخاصة من «إسبانيا» . في هذا البلد الأخير كانوا يعتبرون الأمر مقضياً . طبعاً رفضت أن أدلي بتصريحات لكن شكوكي بدأت تظل من جديد . تلك الليلة جاء ليراني (أرتور لوندبكي فيست) وهو صديقي الوحيد من الكتاب السويديين . كان (لوندبكي فيست) أكاديمياً منذ ثلاث سنوات أو أربع . وصل من بلده إلى باريس في طريقه إلى جنوب فرنسا . بعد الأكل قصصت عليه ما لدي من صعوبات كي أرد على المخابرات الدولية التي يقوم بها الصحفيون الذين ينسبون لي الجائزة .

قلت له : أريد أن أطلب منك شيئاً ، يا (أرتور) . في حالة إن كان هذا حقيقة ، فإنه يهمني جداً أن أعرف ذلك قبل أن ينشر في الصحافة . أريد أن أخبر به ، أول ما أخبر ، (سلفادور أبينده) الذي شاركت معه في صراعات كثيرة ، فإنه سيفرح كثيراً إن كان هو أول من يتلقى هذه البشرى .

الأكاديمي الشاعر (لونديكييفيست) نظر إليّ بعينين سويديتين وقال في جدية قصوى :

- إنني لا أستطيع أن أقول لك شيئاً . إن كان ثمة شيء من هذا القبيل فإنه سيعلمك به برقية ملك السويد أو سفير السويد في باريس .

هذا كان يجري يوم ١٩ أو ٢٠ من تشرين الأول . في صباح يوم ٢١ بدأت قاعات السفارة تمتلئ بالصحفيين . كان العاملون في التلفزيون السويدي ، الألماني ، الفرنسي ، وتلفزة أقطار أمريكا اللاتينية يبدون تمللاً وعدم صبر يهدد بأن يستحيل إلى تمرد ضد صمتي الذي لم يكن إلا لافتقادي أية معلومات أمدهم بها . في الساعة الحادية عشرة والنصف اتصل به هاتفياً السفير السويدي يطلب مني أن أستقبله في السفارة ، دون أن يخبرني عما يتعلق الأمر ، وهذا لم يعمل على إخماد الحالات المتهيجة لأن المقابلة كانت ستجري بعد ساعتين . كانت الهواتف تواصل رنينها بشكل هستيري .

في هذه اللحظة أطلقت إذاعة في باريس إشعاعاً (فلاش) ، خبر آخر دقيقة ، معلنة أن جائزة «نوبل» لعام ١٩٧١ قد منحت إليّ . نزلت توأً لمجابهة تجمهر الأوساط الإعلامية الصخّاب . لحسن الحظ ظهر في هذه اللحظة صديقان قديمان لي وهما (جان مارثيناك) و(أراغون) (مارثيناك) ، شاعر كبير وأخ لي في فرنسا ، كان يطلق هتافات فرح . (أراغون) من جهته كان يبدو أكثر فرحاً مني بالخبر . كلاهما ساعدني في هذه اللحظة الحرجة على مصارعة الصحفيين .

أنا كنت إذّاك وقد أجريت لي عملية جراحية ، هزلاً ، فقير الدم ، أمشي الهوينا ، قليل الرغبة بالتحرك . وكان قد وصل ليتعشى معي تلك الليلة كثير من الأصدقاء (ماتا) من إيطاليا ، (غارثيا ماركيث) من برشلونة ، (سيكيروس) من المكسيك ، (ميغيل أوتيرو سيلفا) من «كراكاس» ، (اورتورو كاماتشو راميرث) من باريس نفسها ، (كورتاثار) من منخبته ، (كارلوس فاسايو) وهو تشيليّ ، سافر من روما إلى باريس كي يصحبني إلى «استوكهولم» .

البرقيات (التي حتى الآن ما استطعت قراءتها كلها ولا الإجابة عنها) تكومت في جبال صغيرة . من بين الرسائل العديدة وصلت رسالة غريبة عجيبة وبشكل ما مهددة . أرسلها من هولاندا رجل بدين ومن الجنس الأسود ، حسب ما كان يتبين من قصاصة جريدة أرفقتها مع الرسالة . «أمثل - كان يقول ، تقريباً ، في الرسالة- الحركة المعادية للاستعمار في «جيورجيتون» ، «غوايانا الهولاندية» . لقد طلبت الحصول على بطاقة كي أتمكن من حضور الاحتفال الذي سيجري في «استوكهولم» بمناسبة تسليمك جائزة «نوبل» . فأخبروني في السفارة السويدية أنه لا بد لي من لبس بدلة رسمية Frac وأنا أبداً لن أضع بدلة مستعملة مستأجرة لما في هذا من إهانة لأمركي حر مثلي . ولهذا فإني أعلمك بأني بالمال الزهيد الذي يمكن لي أن أجمعه سأسافر إلى «استوكهولم» كي أعقد مؤتمرات صحفية لأفصح فيها الطبيعة الامبريالية وغير الشعبية لمثل هذه الاحتفالات . فليحتفل هكذا بتكريم أكثر الشعراء العالميين عداً للامبريالية وأكثرهم شعبية» .

في شهر تشرين الثاني سافرت و(ماتيلده) إلى «استوكهولم» . لقد صاحبني في سفرنا بعض الأصدقاء القدماء . فأنزلونا في «الفندق الكبير» الباهر . كنا نرى من هنالك المدينة الجميلة الباردة والقصر الملكي مقابل نوافذنا . في الفندق نفسه حل كذلك المتوجون الآخريين لذلك العام ، في الفيزياء والكيمياء والطب الخ . شخصيات مختلفة ، بعضهم مهذارون شكليون سطحيون . وآخرون بسطاء أجلاف كأنهم عمال ميكانيكيون حديثو الخروج من مراثيمهم بالصدفة . لم يكن الألماني (ويلي براندت)<sup>(١)</sup> ينزل في الفندق نفسه بل كان يستلم جائزة «نوبل» للسلام في «النرويج» . تأسفت لذلك كثيراً لأنه كان من بين أولئك الفائزين بالجائزة جميعهم أكثر واحد يهمني معرفته والتحدث إليه . لم أستطع أن ألمح من بعد إلا وسط الاستقبالات بعيداً أحدنا عن الآخر كثيراً يفرق بيننا ثلاثة أو أربعة أشخاص على الأقل .

كان ضرورياً لأجل الاحتفال إجراء تجربة سابقة . لقد جعلتنا المراسم السويدية نخرج للتمثيل في المكان نفسه حيث سيجري الاحتفال . كان مضحكاً حقاً رؤية أناس جديدين جداً وهم يقفزون من أسرّتهم ويخرجون من الفندق مهرولين في ساعة مبكرة ليصلوا في الوقت المحدد بالضبط إلى مبنى فارغ ، ثم يصعدون الدرج دون أن

(١) ويلي براندت : السياسي الألماني المعروف الذي كان رئيساً للحكومة في ألمانيا الغربية .

يخطئوا ثم يمضون على اليسار وعلى اليمين في ترتيب صارم ، ثم كان علينا أن نجلس في المنصة كل على مقعده المخصص له ليستلم جائزته في اليوم التالي . كل هذا ونحن نواجه أجهزة التلفزة في قاعات فارغة هائلة تبرز فيها كراسي الملك والعائلة المالكة الفارغة الخاوية في شكل كئيب كذلك . أبداً ما استطعت أن أعرف ولا أن أفسر لأي هوس كان التلفزيون السويدي يصور ذلك التمرين المسرحي الذي يقوم به ممثلون ثقيلون جداً ، بليدون جداً .

لقد توافق يوم تسليم جائزة «نوبل» مع عيد القديسة «لوثيا» . أيقظتني بعض الأصوات التي كانت تعني بشكل عذب في ممرات الفندق . من بعد ، الصبايا الشقراوات الاسكندنافية ، المتوجات بزهور ، المضاءات بشموع مشتعلة ، اقتحمن غرفتي وكنّ يحضرن لي الفطور وكذلك يحضرن ، كهديّة ، لوحة طويلة جميلة تمثل البحر .

في وقت لاحق حصل حادث حرّك شرطة «استوكهولم» وأثارها . في مكتب الاستقبال بالفندق أعطوني رسالة . فتحتها وإذا هي موقعة من ذاك الرجل نفسه عدو الاستعمار ، الراكب رأسه ، المطلق زمامه ، العضو الفعال في حركة «جيورجيتون» ، «غوايانا الهولندية» . لقد وصلت حديثاً إلى «استوكهولم» ، كان يقول في رسالته . كان قد فشل في تصميمه على عقد مؤتمر صحفي ، لكنه بما أنه رجل قضية ثورية وفعل ثوري فإنه قد اتخذ إجراءاته . إنه لمحال أن يستلم (بابلو نيرودا) شاعر المسحوقين والمتواضعين جائزة «نوبل» وهو يرتدي بدلة رسمية . وبالتالي فقد اشترى مقصاً أخضر سيقطع لي به علانية وأمام الناس «خرق البدلة الرسمية المتدلية وأية خرق متدلية أخرى» . «لهذا فإني أؤدي واجبي بأن أحذرك من مغبة هذا . حين ترى رجلاً ملوناً ينهض من آخر القاعة فإنه عليك أن تفترض ما سيجري بعد هنيهة» .

ناولت الرسالة الغريبة إلى الشاب الدبلوماسي ، ممثل المراسم السويدية الذي كان يصحّني في تحركاتي جميعها . قلت له مبتسماً إنني كنت قد تلقيت في باريس رسالة أخرى من هذا المجنون نفسه ، وإنه في رأبي يجب ألا نهتم بهذا الأمر كثيراً ولكن الشاب السويدي لم يكن على اتفاق معي في هذا الشأن .

- في هذه الفترة من المباحكات يمكن أن تحدث أكثر الأشياء غرابة . إن واجبي هو أن أعلم شرطة «استوكهولم» بهذا الأمر - قال لي وانطلق بسرعة لأداء ما كان يعتبره واجباً عليه .

يجب أن أشير إلى أن من بين مرافقيّ إلى «استوكهولم» كان الفينزويلي (ميغيل



ارتيرو سيلفا) وهو كاتب كبير وشاعر ظريف ، وهو بالنسبة لي ليس ضميراً أمريكياً فحسب بل زميل لا يقارن . كان الاحتفال على وشك الابتداء حين رويت خلال الأكل الجدية التي كان السويديون قد أبدوها تجاه مسألة الرسالة المحتجة . (اوتيرو سيلفا) الذي كان يتغدى معنا ضرب كفاً على جبينه وصرخ :

- لكن ، هذه الرسالة كتبتها أنا بيدي وفي خطي لكي أتناول شعر<sup>(١)</sup> (بابلو) .  
ماذا سنفعل الآن مع رجال الشرطة الذين يبحثون عن فاعل لا يوجد؟

- ستقاد إلى السجن جزاء لك على نكتتك الثقيلة الهمجية نكتة «البحر الكاريبي» ، ستلقى العقاب الذي يستحقه رجل «جيورجيتون» - قلت له .  
في هذه اللحظة جلس معنا حول المائدة الشاب السويدي ، مرافقي الذي كان يعود بعد أن أعلم الجهات المختصة . قلنا له ما جرى :

- إن الأمر لا يعدو أن يكون غير مزاح سيء المزاج ، والفاعل ها هو يتغدى معنا ،  
الآن .

عاد للخروج مستعجلاً عجبلاً . لكن رجال الشرطة كانوا قد زاروا فنادق «استوكهولم» كلها بحثاً عن أسود «جيورجيتون» أو أسود أية أرض أخرى شبيهة .  
واتخذوا احتياطاتهم إذ إنني و(ماتيلده) كذلك ، حين دخلنا إلى الحفلة وحين خرجنا من رقص الاحتفال ، لاحظنا أنه كان يبادر إلى الاهتمام بنا بدلاً من الحجاب العاديين أربعة أو خمسة من الشبان الأقوياء الأشداء ، حراس ظهر ، شقر ، متهيثون لأية محاولة من ضربة بالمقص .

كان للاحتفال المراسيمي بتسليم جائزة «نوبل» جمهور حافل . هادئ ومتدرب على النظام ؛ إذ إنه ما كان يصفق إلا في الوقت المناسب وفي كياسة وأدب . كان العاهل العجوز يصافح كل واحد منا ، يعطي كل واحد منا الديلوم ، الوسام ، التشيك . كنا نعود إلى أماكننا في المنصة واحداً إثر آخر ، وكنت هذه المنصة مليئة بالزهور والمقاعد المشغولة ، وليس كما كانت من قبل هزيلة قذرة ، حين كنا نجري التمرين والمناورة . يقال (أو هذا ما قاله ل(ماتيلده) كي يجعلوها تتأثر كثيراً) إن الملك بقي معي وقتاً أكثر مما بقي مع الملكين الآخرين الحائزين على الجائزة ، وأنه شد على يدي خلال وقت أطول ، وأنه عاملني بلطافة ظاهرة بادية على محياه . ربما كانت هذه

(١) تناول الشعر : تعبير إسباني بمعنى المزاح وهو يشبه التعبير العربي الضحك على الذقون .

اللطافة تذكّار تلك التي كان الملوك في العهد القديم يبدونها للرواة . على كل حال ولا أي ملك آخر مد لي يده لوقت قصير أو طويل .

لقد كان لذلك الاحتفال البروتوكولي الصارم الوقار المناسب . قد يحيا هذا الوقار الجاري في المناسبات المهمة إلى الأبد في العالم . يبدو أن الإنسان بحاجة إليه . غير أنني وجدت شبيهاً لطيفاً بين ذلك الاستعراض الذي قام به الفائزون الشهيرون وبين توزيع الجوائز المدرسية في مدينة صغيرة بمحافظة نائية .

### تشيلي الصغيرة:

كنت أجيء أنا من «بورتو أبانيث»، مندهشاً بالبحيرة الكبيرة «جينرال كاريرا» مندهشاً من هذه المياه المعدنية التي هي ذي اللون الفيروزجي ، في «كوبا» أو ببخيراتنا «بيتروهويه» . ثم قفزة نهر «إيبانيث» الهمجية ، وهو نهر عظيم رهيب . كنت أجيء أيضاً كثيباً مكروباً بسبب فقر شعوب المنطقة وعدم الاتصال في ما بينها ، مع أنهم يجاورون الطاقات الكهربائية فهم غير مزودين بالكهرباء . مع أنهم يعيشون بين قطعان الأغنام الصوفة التي لا حصر لها فهم لا يرتدون إلا أسملاً ممزقة . إلى أن وصلت إلى «تشيلي الصغيرة» .

هناك كان الشفق الكبير ينتظرنى وهو يغلق النهار . كانت الريح المؤبدة تمزق الغيوم «الكوارتزية»<sup>(١)</sup> . أنهار من نور أزرق كانت تحجز ديمة كبيرة كانت الريح تحافظ عليها في عطالة بين الأرض والسماء .

مزارع مواش ، مزارع كانت تصارع تحت ضغط الريح اللولبية . كانت ترتفع الأرض حول هذه المزارع والمزارع بأبراج «لا روكا كاستيو»<sup>(٢)</sup> الصلبة ، برؤوس حادة مسننة ، بفوهات قوطية ، باستحكامات وشرفات طبيعية من غرانيت . كانت جبال «ايسين» التعسفية المكورة مثل الخذروف ، المرتفعة المساء مثل الطاومات ، تُري مستطيلات ومثلثات من ثلج .

وكانت السماء تصنع شفقتها من خيوط الحرير ومن فلزات المعادن : يتلألأ اللون الأصفر في الأعالي محوماً كما الطير الهائل عبر الفضاء النقي ، كان كل شيء يتغير

(١) الكوارتزية : نسبة إلى «كوارتز» وهو المرو .

(٢) لا روكا كاستيو : معناها ، الصخرة القلعة .

فجأة ، يتحول إلى فم حوت ، إلى غمر أرقط متوهج ، إلى مشاعل تجريدية .  
 شعرت أن السعة كانت تنتشر فوق رأسي وقد رسمتني فأسمتني شاهد  
 الـ«ايسين» الباهر بأطواده ، بشلالاته ، بملايينه من الأشجار الميتة المحروقة التي تتهم  
 قاتليها القدماء ، مع سكون عالم يولد فيه كل شيء معد : مهرجانات الأرض  
 والسماء . لكن ينقصه الكنف ، النظام الجماعي ، التشييد ، الإنسان . إن من يعيش  
 في مثل هذه الأرض الخلاء يحتاج إلى تضامن إنساني جد فسيح مثل هذه  
 المساحات الواسعة الكبيرة .  
 ابتعدت حين كان ينطفئ الشفق ، واللليل كان يخيم أزرق مفزعاً .

### رايات أيلول:

إن شهر أيلول في جنوب القارة الأمريكية اللاتينية لهو شهر عريض مزهر .  
 كذلك إن هذا الشهر مليء بالمرارات .  
 في بداية القرن الماضي في عام ١٨١٠ وفي شهر أيلول هذا انبثقت أو توطدت  
 الانتفاضات ضد السيطرة الإسبانية في أراض عديدة بأمريكا الجنوبية .  
 في شهر أيلول هذا نحن أمريكيان الجنوب نذكر التحرر والاعتاق ، نحتفل  
 بالأبطال ، نستقبل الربيع الرحب الفسيح جداً إلى حد أنه يتجاوز مضيق  
 «ماغايانيس» ليزهر حتى في «باتاغونيا اوسترال» حتى في «كابودي اورنوس» .  
 لقد كانت مهمة جداً للعالم سلسلة الثورات الدورية التي كانت تنفجر من  
 المكسيك حتى الأرجنتين وتشيلي .

لم يكن القواد يتشابهون في ما بينهم . فد(بوليفار) كان محارباً ودمثاً ، موهوباً  
 بإشراق نبوي . (سان مارتين)<sup>(١)</sup> كان منظماً عبقرياً لجيش عبر سلسلة الجبال الأكثر  
 ارتفاعاً وصعوبة على وجه الأرض كي يشن في تشيلي المعارك الحاسمة في سبيل  
 تحريرها . (خوسيه ميغيل كاريرا)<sup>(٢)</sup> ، (برناردو اوهيغينس)<sup>(٣)</sup> كانا مبدعي أوائل  
 الجيوش التشيلية ، كما كانا كذلك السباقين في جلب المطابع إلى تشيلي وسن

(١) سان مارتين : بطل من أبطال التحرر في أمريكا اللاتينية (١٧٧٨-١٨٥٠) .

(٢) خوسيه ميغيل كاريرا : بطل من أبطال التحرر في تشيلي ، كان عسكرياً وسياسياً (١٧٨٥-١٨٢١) .

(٣) برناردو اوهيغينس : بطل من أبطال التحرر في تشيلي (١٧٧٨-١٨٤٢) .

القوانين المحرمة للرق الذي ألغى قبل سنوات كثيرة من إلغائه في الولايات المتحدة .  
إن (خوسيه ميغيل كاريرا) و(بوليفار) وبعض المحررين الآخرين كانوا يخرجون  
من الارستوقراطية الـ«كروييا» . كانت مصالح هذه الطبقة تصطدم بشكل عنيف مع  
المصالح الإسبانية في أمريكا . لم يكن الشعب يوجد بعد كتنظيم بل كان في شكل  
جمهرة غفيرة من عبيد تحت أوامر السيطرة الإسبانية . كان على الرجال ، من أمثال  
(بوليفار) و(كاريرا) ، الذين كانوا قد قرؤوا الموسوعات وتخرجوا من الكليات العسكرية  
الإسبانية أن يحطموا جدار العزلة والصمت والجهل كي يتوصلوا إلى تحريك الروح  
القومية في نفوس الشعب .

إن حياة (كاريرا) كانت قصيرة ولكنها ملتهبة مثل برق . «العسس التعيس»  
عنونت أنا كتاباً قديماً يحتوي على ذكريات ، نشرته أنا بنفسى منذ عدة سنين . إن  
شخصيته الجذابة جلبت النزاعات حول رأسه كما مانعة الصواعق تجذب وتجذب  
شرارات العواصف . آخر الأمر أعدم رماً بالرصاص في «ميندوثا» بأمر من حكام  
الجمهورية الأرجنتينية الحديثة الإعلان إذآك . كانت رغباته الجامحة بتحطيم السيطرة  
الإسبانية قد وضعت على رأس الهنود المتوحشين في السهول الأرجنتينية . حاصر  
«بونوس إيريس» وكان على وشك أن يأخذها عنوة . بيد أن رغباته الحقيقية كانت  
تميل إلى تحرير تشيلي ، وفي هذا الإصرار استعجل فقام بحروب وحروب عصابات  
أدت به إلى خيبة الإعدام . لقد التهمت الثورة في تلك السنين المضطربة أحد أبنائها  
الأذكياء الشجعان . يُدين التاريخ بهذا الفعل الدامي (أوهيغينيس) و(سان مارتين) .  
لكن التاريخ في شهر أيلول هذا ، الشهر الربيعي المليء بالرايات يغطي بأجنحته  
ذكرى الأبطال الثلاثة في هذه المعارك التحريرية التي دارت رحاها على مسرح واسع  
من سهول هائلة ومن ثلوج خالدة .

إن (أوهيغينيس) وهو بطل آخر من محرري تشيلي ، كان رجلاً متواضعاً بسيطاً .  
كانت حياته ستكون غامضة هادئة ، لو لم يكن قد تلاقى في لندن ، حين لم يكن له  
من العمر إلا سبع عشرة سنة ، مع تأثر قديم كان يجوب بلاطات ملوك أوروبا كلها  
بحثاً عن مساعدة لقضية الانعتاق الأمريكي . كان يسمى السيد (فرانثيسكو دي  
ميراندا)<sup>(١)</sup> . ومن بين أصدقائه الكثر اعتمد على ود إمبراطورة روسيا

(١) فرانثيسكو دي ميراندا : بطل من أبطال التحرر في أمريكا الجنوبية (١٧٥٠-١٨١٦) .

(كاتالينا)<sup>(١)</sup> ودعمها القدير . بجواز سفر روسي وصل إلى باريس وكان يدخل ويخرج في إمارات أوروبا ودويلاتها .

إنها لرواية رومانطكية ذات نفس يمثل «فترة» مما يجعلها تبدو مغناة (Opera) .  
(أوهيغينيس) كان ابناً غير شرعي لنائب الملك الإسباني وكان هذا جندياً جمع ثروة كبيرة فأصبح حاكماً باسم الملك على تشيلي وهو من أصل إيرلاندي . رتب الأمور (ميراندا) لإثبات أصل (أوهيغينيس) حين أدرك فائدة الشاب وما يمكن أن يكون لأصله من نفع في تحريض شعوب المستعمرات الإسبانية في أمريكا . في كتب التاريخ تروي اللحظة التي كشف فيها (ميراندا) للشاب (أوهيغينيس) سر أصله ودفعه إلى العصيان والتمرد . خر الشاب الثائر راعياً وعانق (ميراندا) ، وبين النحيب والبكاء وعده بالانطلاق من لندن إلى تشيلي حالاً ليقود هناك حركة التمرد ضد النفوذ الإسباني . كان (أوهيغينيس) هو من حقق الانتصارات النهائية في القضاء على النظام الاستعماري بتشيلي وهو يعتبر مؤسس جمهوريتنا .

أما (ميراندا) فقد قضى نحبه حين كان سجيناً من قبل الإسبان في سجن «لا كاراكا» ب«قادش» . إن جسد هذا الجنرال في الثورة الفرنسية ومعلم ثورين كثيرين قد لُفَّ في كيس وألقي به إلى البحر من أعلى السجن .

(سان مارتين) مات بعد أن نفاه أبناء قومه ، في «بولونيا» بفرنسا عجزواً وحيداً .  
(أوهيغينيس) محرر تشيلي مات في «البيرو» بعيداً عن كل ما يحب ، مطروداً ، بعد أن استولت الطبقة الإقطاعية «ال كريبوا» على الثورة .

منذ وقت قريب ، حين مررت ب«ليما» Lima وجدت في متحف «البيرو» التاريخي بعض اللوحات التي رسمها الجنرال (أوهيغينيس) في أعوامه الأخيرة . موضوع هذه اللوحات كلها هو تشيلي . كان يرسم ربيع تشيلي ، أوراق وأزهار شهر أيلول في تشيلي . في شهر أيلول هذا جعلت أذكر تلك الفترة من الانعتاق والتحرر ، أسماء أبطالها ، حوادثها ، رغباتها وآلامها ، بعد مضي قرن على تلك الفترة ها هي الشعوب تهتز من جديد ، وها هو تيار مضطرب من ربح وغضب يحرك الرايات . إن كل شيء قد تغير منذ تلك السنين القصية السحيقة ، لكن التاريخ يتابع مسيره وها هو ربيع جديد يملاً أصقاع أمريكا وأجواءها .

(١) كاتالينا : هي إمبراطورة روسيا (١٧٢٩-١٧٩٦) .

ولا أي زعيم شيوعي في أمريكا كانت حياته معرضة للخطر دوماً كما كانت عليه حياة (لويس كارلوس بريستيس). لقد كان بطلاً عسكرياً وسياسياً للبرازيل. لقد تجاوزت حقيقته وأسطورته منذ زمن كثير التقييدات العقائدية فاستحال هو إلى تجسيد حي للأبطال القدماء الأشاوس.

لهذا، حين تلقيت دعوة وأنا به «إيسلا نيغرا» لزيارة البرازيل والتعرف على (بريستيس) قبلت الدعوة حلاً. عرفت كذلك أنه لن يكون هناك مدعو أجنبي آخر غيري، وهذا ملأني فخراً فشرعت أني أشارك بشكل ما في حركة انبعاث.

كان (بريستيس) حديث الخروج إلى الحرية بعد أن قضى أكثر من عشر سنوات في عبودية السجن. إن هذه الاعتقالات الطويلة الأمد ليست استثنائية شاذة في بلدان «العالم الحر». فزميلي وصاحبني الشاعر (ناظم حكمت) قضى ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة في سجون تركيا. الآن وأنا أكتب هذه الذكريات أذكر أن ستة أو سبعة من شيوعيين «الأورغواي» قد دفنوا في السجون دون أي اتصال بالعالم منذ اثنتي عشرة سنة. لقد سلّمت الديكتاتورية البرازيلية زوجة (بريستيس) وهي ألمانية الأصل، إلى «غيستابو». قيدها النازيون بالسلاسل إلى الباخرة التي كانت تقلها إلى عذاب الموت. وضعت طفلة تعيش الآن مع أبيها، أنقذتها من بين أنياب «الغيستابو» السيدة المحترمة التي لا تملّ، السيدة (ليوكاديا بريستيس) والدة هذا الزعيم. بعد أن وضعت زوجة (لويس كارلوس بريستيس) طفلتها في فناء سجن، دق النازيون عنقها. إن هذه الحيوانات المستشهادة كلها جعلت الناس لا ينسون (بريستيس) أبداً طيلة السنوات الطويلة التي قضاها في السجن.

أنا كنت في المكسيك حين ماتت والدته السيدة (ليوكاديا بريستيس). كانت هي قد دارت العالم كله وهي تطالب بتحرير ابنها. أيرق الجنرال (لثارو كارديناس)<sup>(١)</sup> وهو رئيس سابق للجمهورية المكسيكية، إلى الديكتاتور البرازيلي طالباً منه أن يعطي (بريستيس) بضعة أيام من حرية تسمح له أن يحضر جنازة والدته. كان الرئيس (كارديناس) في رسالته يقول بأنه يضمن شخصياً عودة (بريستيس) إلى

(١) لثارو كارديناس: زعيم سياسي مكسيكي، كان جنرالاً في الجيش ثم أصبح رئيساً للجمهورية

حبسه فكان جواب (غيتوليو بارغاس)<sup>(١)</sup> سلبياً .

لقد ساهمت في سخط العالم كله فكتبت قصيدة على شرف السيدة (ليوكاديا) وفي ذكرى ابنها الغائب وفي لعنة الطاغية .

أنشدتها على ضريح السيدة النبيلة التي قرعت أبواب العالم عبثاً في سبيل تحرير ابنها . كانت قصيدتي تبدأ في وقار واعتدال :

سيدتي ، لقد جعلت من قارتنا الأمريكية أكبر وأعظم .

لقد منحتها نهراً نقياً من مياه جمّة ،

لقد منحتها شجرة كبيرة ذات جذور لا نهائية :

ابناً لك جديراً بوطنه العميق .

لكن ، بمقدار ما كانت القصيدة تستمر كانت تغدو أكثر عنفاً ضد المستبد

البرازيلي .

لقد أنشدتها في جهات كثيرة ثم راحت تنسخ وتطبع في منشورات وعلى

البطاقات البريدية فجابت القارة بأسرها .

ذات مرة ، حين كنت أمر بـ«بناما» أرفقتها بمجموعة من القصائد في إحدى

قراءاتي الشعرية بعد أن أنشدت قصائدي الغزلية . كانت القاعة مليئة وكان حر

البرزخ يجعلني أعرق وأرشح . كنت قد وصلت في إنشادي إلى الأبيات التي تلحن

الرئيس (بارغاس) حين شعرت أن حنجرتي قد جفت . توقفت عن الإنشاد ومددت

يدي نحو كأس كانت قريبة مني . في هذه اللحظة رأيت شخصاً يلبس بدلة بيضاء

يقترّب مني مستعجلاً نحو المنبر . أنا ، معتقداً أنه مستخدم تابع للقاعة ، مددت له

الكأس كي يملأها لي بالماء . لكن الرجل هذا المرتدي البدلة البيضاء رفض ذلك وقد

شعر بالإهانة والتفت إلى الحضور ثم صرخ بشكل عصبي Soy Embaixador do

Brasil<sup>(٢)</sup> . احتج لأن (بريستيس) ما هو إلا مجرم عام . . . » .

فقاطع الجمهور هذه الكلمات بتصفير حاد مدو . طالب شاب ملون ، عريض

كخزانة ، نهض من وسط القاعة وشق له درباً نحو المنبر ومد يديه إلى عنق السفير .

أنا أسرعت كي أحمي الديبلوماسي ولحسن الحظ استطعت أن أخرجه من ذاك المكان

(١) غيتوليو بارغاس : زعيم سياسي برازيلي (١٨٨٣-١٩٥٤) .

(٢) العبارة بالبرتغالية ، معناها ، أنا سفير البرازيل .

دون أي ضرر كان يمكن أن يلحق بمنصبه وسمعته .

بهذه السوابق بدأ سفري من «ايسلا نيغرا» إلى البرازيل للمشاركة في الابتهاج الشعبي ، طبيعياً بالنسبة للبرازيليين . لقد اندهشت حين رأيت الجمهرة الغفيرة التي كانت تملأ ملعب «باكايبو» Pecaimbu في «سان باولو» . يقولون إنه كان هناك أكثر من مائة ألف نسمة . كانت الرؤوس ترى صغيرة جداً داخل تلك الدائرة الواسعة جداً . لقد بدا لي (بريستيس) ذو القامة الضئيلة وهو بجانبني وكأنه (العازن) وقد خرج من القبر ، نظيفاً ومتريناً للمناسبة . كان ضامراً أبيض حتى الشفافية ، بهذا الشحوب الغريب الذي يبدو على ملامح السجناء . نظرتة الحادة الشديدة ، دواتره المزرقة حول عينيه ، أساريره الرقيقة جداً ، رصانته الخطيرة ، كل شيء كان يذكر بالتضحية الطويلة خلال حياته كلها . غير أنه تكلم في هدوء جنرال منتصر .

أنا أنشدت قصيدة على شرفه كتبها ساعات قليلة من قبل . غير فيها (خورخه أمادو) كلمة واحدة وهي كلمة البنّائين<sup>(١)</sup> واستبدل بها كلمة Pedreiras<sup>(٢)</sup> البرتغالية . على الرغم من تخوفاتي فقد فهم الحشد الغفير كله قصيدتي المكتوبة والمقروءة باللغة الإسبانية . بعد كل سطر من قراءتي المتمهلة البطيئة كان ينفجر تصفيق البرازيليين . كان لتلك التصفيقات رجح عميق في شعري . إن شاعراً ينشد أشعاره أمام مائة وثلاثين ألف نسمة ليس في مكنته أن يظل هو نفسه كما كان من قبل ، ولا يستطيع أن يكتب بالطريقة نفسها بعد هذه التجربة .

في النهاية أجد نفسي وجهاً لوجه أمام البطل الأسطوري (لويس كارلوس بريستيس) كان ينتظرني في منزل أحد أصدقائه . إن كل ملامح (بريستيس) - قامته الصغيرة ، نحولته بياضه كبياض الورق الشفاف ، تتطلب إمعاناً كإمعان التصوير الدقيق . كذلك كلماته ، ولربما تفكيره ، تبدو في تناسق مع هذا المظهر الخارجي .

إنه ودي معي ولطيف داخل إطار تحفظه المعروف به . أعتقد أنه يخصني بهذه المعاملة الودودة التي نحن الشعراء نجدها دوماً لدى الآخرين في معاملتهم لنا وهي معاملة تلتف بين الطراوة والمراوغة ، شبيهة جداً بمعاملة الكبار حين يتحدثون إلى الصغار .

دعاني (بريستيس) إلى الغداء في يوم من أيام الأسبوع التالي . عند ذلك الوقت

(١) البنائين : هكذا في الأصل Albaniles ، عن العربية .

(٢) معناها : الحجارة .



وقعت لي واحدة من هذه المصائب التي لا يمكن عزوها إلا إلى القدر أو إلى فوضويتي وعدم مسؤوليتي . إن اللغة البرتغالية ، مع أنها تملك سبتها وأحدها لا تشير إلى الأيام الأخرى مثل الاثنين والثلاثاء والأربعاء إلا بتسميات شيطانية على النحو التالي Segonda Feira, Terna Feira, Guarta Feire قافزة عن Feira الأول باعتباره تحصيل حاصل . أنا أتخربط بهذه الأيام البرتغالية دون أن أدري في أي يوم يكون يومها . رحت لأقضي بضع ساعات على الشاطئ مع صديقة برتغالية جميلة ، مذكراً نفسي في كل لحظة أنه في اليوم التالي ينتظرنني (بريستيس) على الغداء . في La quarta Feira علمت أن (بريستيس) انتظرنني في Terna Feira بلا جدوى والمائدة جاهزة بينما كنت أنا أقضي تلك الساعات في شاطئ «ايباناما» Ibanima . بحث عني في كل جهة دون أن يعرف أحد أين موضعي . القائد الزاهد كان قد أحضر تكريماً لي زجاجات نبيذ فاخرة ممتازة من الصعب الحصول عليها في البرازيل . كنا سنتغدى نحن الاثنين وحدنا .

كلما ذكرت هذه الحكاية ، أريد أن أموت خجلاً . لقد استطعت أن أتعلم كل شيء في حياتي غير أسماء أيام الأسبوع بالبرتغالية .

### (كودوفيا Codvila) ،

لدى خروجي من «سانتياغو» عرفت أن (فيتوريو كودوفيا) كان يريد التحدث معي فذهبت لأراه . كنت أحافظ دوماً على صداقة طيبة معه حتى موته . كان (كودوفيا) ممثلاً للأمية الثالثة وكانت تجتمع فيه عيوب تلك الفترة كلها . كان شخصانياً استبدادياً ، وكان يظن أنه يملك الحق دوماً ، كان يفرض رأيه ويعتقد أنه الفيصل ، كان يتدخل في آراء الآخرين كما السكين في الزبدة . يدخل إلى الاجتماعات في عجلة واستعجال ليعطي الانطباع بأن كل شيء عنده قد انجز وأنه فكر في كل أمر ووجد له حلاً . يبدو عليه حين ينصت إلى آراء الآخرين وكأنه يفعل ذلك في كياسة وذوق ، وفي تملل وعدم صبر . من بعد كان يعطي أوامره الباتة وتعليماته القاطعة . قدرته كانت هائلة وسيطرته على الإنشاء والتركيب كانت باهظة تبعث الآخرين على الإرهاق . كان يعمل بلا كلل وكان يفرض هذا النسق السريع المتواصل على رفاقه . لقد تكونت لي فكرة دائمة عنه ألا وهي أنه آلة كبيرة للفكر السياسي في تلك الأوقات .

لقد كان له نحوي دوماً شعور خاص جداً بالتفهم والمراعاة . لقد كان هذا الإيطالي المهاجر النفعي فيما هو مدني ، إنسانياً بشكل فائض ، ذا شعور عميق وحس فني يجعلانه يتفهم نقاط الضعف في رجال الثقافة ، ولكن هذا ما كان ليمنعه من أن يكون عديم الشفقة -وأحياناً نحساً- في الحياة السياسية .

كان منزعجاً منشغلاً ، قال لي ، بسبب عدم تفهم (بريستيس) لموقفه المعادي للديكتاتورية «البيرونية» . فقد كان (كودوفيا) يعتقد أن (بيرون) وحركته كانا امتداداً للفاشية الأوروبية . ولا أي إنسان معاد للفاشية يمكن له أن يقبل بتضخم «بيرون» ونشاطاته المتكررة في القمع والاستبداد . كان (كودوفيا) والحزب الشيوعي الأرجنتيني وساريون آخرون يفكرون في تلك الفترة أن الجواب الوحيد على (بيرون) هو العصيان .

(كودوفيا) كان يريد أن أتكلم أنا في هذا الموضوع مع (بريستيس) . ليس هذا بمهمة يجب عليك تأديتها ، قال لي . لكنني شعرت بأنه كان منشغلاً في إطار هذه الثقة بالنفس التي كانت تميزه .

بعد المهرجان السياسي الذي جرى في «باكيامبو» تحدثت مطولاً مع (بريستيس) . لم يكن ممكناً العثور على رجلين مختلفين متناقضين أكثر منهما . الإيطالي-الأرجنتيني الضخم الطافح كان دائماً يشغل الغرفة كلها ، الطاولة بأسرها ، الجو بكامله . (بريستيس) الضامر الزاهد كان جد هش إلى حد أن هبة ريح كانت تستطيع أن تحمله عبر النافذة .

غير أنني وجدت من وراء المظاهر رجلين صلبين جداً لا يختلف أحدهما عن الآخر في صلابته وعناده .

«ليس ثمة من فاشية في الأرجنتين ، إن (بيرون) هو قائد وليس زعيماً فاشيستياً» قال لي (بريستيس) مجيباً عن أسئلتني . «أين هي القمصان البنية؟ القمصان السوداء؟ المليشيا الفاشيستية؟» .

«زد على هذا ، أن (كودوفيا) يخطيء . يقول (لينين) إنه لا يمكن اللعب بالعصيان . ولا يمكن أن تعلن حرب بدون جنود ، إذا كان لا يعتمد فيها إلا على المرشحين العفويين» .

كان الرجلان المختلفان جداً في أعماقهما متشابهين في أنهما لا يمكن إقناعهما . أحدهما ، بشكل محتمل (بريستيس) ، كان له الحق في هذه الأشياء لكن اعتقادية

كليهما ، اعتقادية هذين الثورين المستحقين للإعجاب ، كانت تثير حولهما بشكل دائم جواً أنا كنت أجدّه خانقاً .

يجب عليّ أن أضيف هنا أن (كودوفيليا) كان رجلاً حيويًا . بالنسبة لي فقد كانت تعجبني جداً محاربه للحشمة وتصنع الحياء و«البوريتانية»<sup>(١)</sup> لفترة شيوعية . كان (لا فيرته) رجلنا التشيلي العظيم جداً في تلك الأوقات القديمة المتعصبة المتحزبة ، ضد «الكحولية» حتى الهوس . كان (لا فيرته) العجوز يقبع<sup>(٢)</sup> كذلك في كل لحظة ضد الحب والعلاقات الغرامية التي كانت تنشأ خارج «حكم الشرع»<sup>(٣)</sup> بين رفاق الحزب ورفيقاتهم . كان (كودوفيليا) يهزم معلمنا المحدود بما له من سعة حيوية .

### (ستالين)؛

إن كثيراً من الناس قد اعتقدوا في أنني سياسي مهم ، أو أنني كنت ذلك السياسي . لست أدري من أين خرجت هذه الأسطورة الشهيرة جداً . ذات مرة رأيت ، ضدفة ، صورة لي صغيرة مثل صور الطوايع ، في صحيفة من صفحات مجلة Life . كانت هذه المجلة تعرض على قرائها صور قادة الشيوعية العالمية . لقد بدت لي صورتني المحشورة بين صورة (بريستيس) وصورة (ماوتسي تونغ) فكاهة مسلية ، غير أنني ما أوضحت أنا لقراء المجلة شيئاً لأنني دائماً كنت أكره رسائل الاستدراك أو الاحتجاج التي تبعث عادة إلى الصحف لتوضيح أمر أو آخر . كذلك كان شيئاً لطيفاً أن أترك C.I.A.<sup>(٤)</sup> على خطتها مع أن لها في العالم أكثر من خمسة ملايين من العملاء والمخبرين .

إن أطول اتصال قمت به مع زعيم قطب في العالم الاشتراكي جرى خلال زيارتي للصين حين تبادلت مع (ماوتسي تونغ) في مجرى احتفال ، شرب الأناخب . عندما تلامست كأسانا نظر إليّ بعينين مبتسمتين وبابتسامة عريضة واسعة بين

(١) البوريتانية : هي مذهب التمحيص والتمسك المتشدد بالدين ، يمكن ترجمتها بـ الحنبلية .

(٢) يقبع : قبع الخنزير ، أي دلمدم وهمهم .

(٣) حكم الشرع : في الأصل Registro Civil ، أي السجل المدني .

(٤) إدارة الاستخبارات الأمريكية .

لطيفة ومستهزئة ، احتفظ بيدي في يده حين سلم عليّ ، ضاغطاً عليها خلال بضع ثوان أكثر مما هو معتاد عليه . من بعد عدت إلى المائدة لأجلس في مكاني .  
أبدأ ما شاهدت أثناء زيارتي الكثيرة للاتحاد السوفييتي لا (مولوتوف)<sup>(١)</sup> ولا (فيسهينسكي) ولا (بيريا)<sup>(٢)</sup> ولا حتى (ميكويان) ، ولا (ليتفيتوف) وهذان الأخيران هما شخصيتان اجتماعيتان أكثر من غيرهما وأقل غموضاً من الآخرين .  
أما (ستالين) فقد محته أكثر من مرة ، ودوماً في النقطة نفسها : المنصة التي تعلو فوق الساحة الحمراء وتغص بالقادة السوفييت ذوي المناصب العالية ، سواء في الأول من أيار أو في السابع من تشرين الثاني كل عام . لقد قضيت ساعات طويلة في «الكرميلين» بصفتي عضواً في اللجنة المحكمة لمنح الجائزة التي كانت تحمل اسم (ستالين) دون أن نتواجه البتة ، في مر ، ودون أن يأتي هو ليزورنا خلال مداولاتنا أو ولائمتنا أو أن يدعونا ليحيينا . لقد منحت الجوائز دوماً بإجماع الأصوات لكن كان يسبق الاقتراع نقاش مغلق لاختيار المرشح . لقد كان لدي الانطباع بأن شخصاً ما من أمانة سر اللجنة المحكمة كان يعدو بما كنا نتفق عليه ، قبل اتخاذ القرارات النهائية ، ليرى فيما إذا كان الرجل الكبير يصادق عليها أم لا . لكن لا أذكر مطلقاً أنه كان ثمة اعتراض أو أية ممانعة من قبله ، ولا أذكر كذلك أنه ، على الرغم من قربه المحسوس منا ، كان يشعر بأنه يعلم بوجودنا . لقد كان (ستالين) بشكل مقرر يزرع الغموض كمنهاج يتخذه ، أو أنه كان هيّاباً كبيراً ، رجلاً سجين نفسه . ربما يمكن إرجاع هذه الميزة إلى التأثير المسيطر الذي كان (بيريا) عليه . لقد كان (بيريا) هو الوحيد الذي يدخل ويخرج ، دون إعلام مسبق ، إلى غرف (ستالين) .

بيد أنه كان لي في مناسبة ما علاقة غير متوقعة ، ما زالت تبدولي حتى الآن غريبة ، مع رجل «الكرميلين» الغامض . كنا نروح في صحبة آل (أراغون) - (لويس) و(أيلسا) - في طريقنا إلى موسكو لنشارك في اجتماع اللجنة المحكمة التي كان عليها أن تتداول في منح جائزة (ستالين) لذلك العام . فأوقفنا في «فرصوفيا» عواصف ثلجية هائجة هائلة . فعرفنا أننا لن نصل إلى «موسكو» في الوقت المحدد . أحد مرافقينا السوفييت تكلف بإرسال أسماء المرشحين الذين أنا و(أراغون) كنا قد

(١) مولوتوف : سياسي سوفييتي ولد عام ١٨٩٠ .

(٢) بيريا : سياسي سوفييتي مشهور (١٨٩٩-١٩٥٣) .

اخترناهم ، بريقاً باللغة الروسية إلى «موسكو» . على فكرة ، هذه الأسماء قد ووفق عليها في الاجتماع . لكن ما هو غريب حقاً في هذا الأمر أن السوفييتي الذي تلقى الإجابة على ذلك هاتفياً ، أخذني جانباً وقال لي على حين غرة :

- أهنتك ، أيها الرفيق (نيرودا) . إن الرفيق (ستالين) حين قدمت إليه قائمة المرشحين للفوز بالجائزة صرح متسائلاً : «ولماذا اسم (نيرودا) ليس بين هذه الأسماء» .

في العام التالي استلمت أنا جائزة (ستالين) للسلم والصدقة بين الشعوب . ربما أنني كنت أستحقها عن جدارة لكنني أتساءل كيف علم ذلك الرجل النائي بوجودي؟

عرفت في تلكم الأوقات بتدخلات مشابهة لستالين . حين كانت تتفاقم الحملة ضد «الكونية» El Cosmopolitismo ، حين كان المتحزبون ذوو «العنق القاسي» يطالبون برأس (إيهرينبورغ) رن جرس الهاتف ذات صباح في منزل مؤلف «خوليو خورنيتو» فردت على النداء (لوبا) . صوت غير معروف بشكل غامض ، سأل :

- أوجود (إليا غريغوريفيتش)؟

- من حضرتك؟ أجابت (لوبا) .

- هنا (ستالين) - قال الصوت .

- يا (إليا) ، ثمة رجل يمزج يريد التكلم معك - قالت (لوبا) (إيهرينبورغ) .

لكن حين أخذ الهاتف عرف الكاتب أنه صوت (ستالين) المسموع جداً من لدن الناس جميعهم :

- لقد قضيت الليلة وأنا أقرأ كتابك «سقوط باريس» . فأحببت أن أتصل بك كي أقول لك أن تظل مستمراً على كتابة مثل هذه الكتب المهمة جداً ، أيها العزيز (إليا غريغوريفيتش) .

قد تكون هذه المكالمات الهاتفية غير المتوقعة قد جعلت حياة (إيهرينبورغ) العظيم تطول .

مثال آخر . كان (ماياكوفسكي) قد مات ، لكن أعداءه الرجعيين العنيدون كانوا يهاجمون ذكرى الشاعر بأنياب وبسكاكين ، مصممين مصريين على محوه من خارطة الأدب السوفييتي . حينذاك حدث أمر غير كل ما بيته وافترضوه . كتبت حبيبته (ليلي بريك) رسالة إلى (ستالين) تشير له فيها إلى ما هو مخجل وعار في تلك

التهجمات وتدافع بشكل مؤثر عن شعر (ماياكوفيسكي). كان المعتدون يظنون أنهم لن يعاقبوا على فعلتهم محميين بتألبهم الجماعي. فأصيبوا بخيبة أمل. لقد كتب «ستالين» على هامش رسالة (بريك): «إن (ماياكوفيسكي) لهو أحسن شاعر في العهد السوفييتي».

منذ تلك اللحظة أخذت تبني المتاحف وتقام النصب التذكارية تكريماً لـ(ماياكوفيسكي) وتكاثرت طبعات دواوين شعره الفاخر جداً. فصعق المخرصون وخمدوا أمام نفخة (يهوه) في الصور.

علمت كذلك أنه حين مات (ستالين) عثروا بين أوراقه على قائمة أسماء كتب عليها «منوع للمس»، بخط يده. في رأس هذه القائمة كان اسم الموسيقي (شيوكاكوفيتش)<sup>(١)</sup> ثم تتلو أسماء شهيرة أخرى. (ايسنتستين)<sup>(٢)</sup>، (باسترناك)، (إيهرينبورغ)، الخ.

إن الكثيرين ظنوا أنني ستاليني مقتنع. لقد صورني الفاشيون والرجعيون على أنني مفسر غنائي لستالين. لا شيء من هذا يغضبني ويزعجني. إن الاستنتاجات كلها ممكنة في عهد مشوش بشكل شيطاني.

إن المأساة الذاتية بالنسبة لنا نحن الشيوعيين كانت هي أننا أدركنا أنه، في نواح عديدة من مشكلة ستالين، كان للعدو الحق. لقد تلت هذا الكشف الذي هز النفس حالة وعي أليمة. بعض الشيوعيين شعر أنه كان مخدوعاً فقبل في عنف، منطلق العدو وعبر إلى صفوفه. آخرون اعتقدوا أن الأحداث الرهيبة المفزعة التي كشف عنها المؤتمر العشرون بشكل غير رحيم تفيد في أن تبرهن على نزاهة حزب شيوعي أنقذ نفسه وهو يري العالم الحقيقة التاريخية وهو يقبل مسؤوليته الذاتية.

إن كان فعلاً أن هذه المسؤولية تقع علينا جميعاً، فإن فضح تلك الجرائم كان يعيدنا إلى النقد الذاتي والتحليل وهما مادتان جوهريتان في مذهبنا. كان هذا يعطينا الأسلحة كي نمنع أن تتكرر مثل هذه الأشياء الرهيبة جداً.

هذا كان موقفي: على الرغم من دياجير عهد (ستالين)، التي لم أكن أعرفها

(١) شيوكاكوفيتش: مؤلف موسيقي سوفييتي، ولد عام ١٩٠٦.

(٢) ايسنتستين: مخرج سينمائي سوفييتي (١٨٩٨-١٩٤٨).

كان يبرز أمام عيني (ستالين) الأول ، رجل مبدئي ، طيب ، دمث ، قانع مثل زاهد ، مدافع جبار عن الثورة الروسية . بالإضافة إلى هذا كان ذاك الرجل القصير ذو الشاربين الكبيرين قد أصبح عملاقاً في الحرب ، فقد اقتحم الجيش الأحمر واسم (ستالين) على كل شفة ، حصن الأبالة الهتلريين فجعله غباراً .

بيد أنني ، كتبت قصيدة واحدة أهديتها إلى هذه الشخصية القديرة وكان ذلك في موته . يستطيع من يشاء أن يعثر عليها في أعماله الكاملة . إن موت مارد «الكريمين» كان له وقع دولي . فلقد اهتزت الغابة الإنسانية له . قصيدتي هذه التقطت مشاعر ذاك الهلع الأرضي .

### درس في التواضع:

لقد باح لي (غابرييل غارثيا ماركيث) ، وهو يشعر بإهانة كبيرة ، كيف أنهم حذفوا في موسكو بعض العبارات الغرامية من كتابه الرائع «مائة سنة في الوحدة» .  
- إن هذا لسيء جداً - قلت أنا للناشرين .  
- لكن الكتاب لا يفقد شيئاً - أجابوني ، وأنا أدركت بأنهم كانوا قد شذّبوه من غير نية سيئة . لكنهم شذّبوه .

كيف يتم إصلاح هذه الأشياء؟ إنني في كل مرة أصبح أقل علماً في المجتمع . خارج مبادئ الماركسية العامة ، خارج كراهيتي للرأسمالية وثقتي في الاشتراكية ، كل مرة أغدو أقل فهماً لتناقض الإنسانية العنيد .  
كان علينا نحن شعراء هذه الفترة أن نختار . لم يكن الاختيار سريراً من ورود . لقد أصبحت الحروب الرهيبة الظلمة ، الاضطهاد المستمر ، ظلم المال واعتداؤه ، المظالم كلها ، أكثر إمعاناً ووضوحاً . لقد كانت صنّارات النظام الهرم هي «الحرية» المشروطة ، الناحية الجنسية ، العنف والمليذات المدفوعة على أقساط شهرية مريحة .

لقد بحث شاعر الحاضر عن مخرج من قلقه . بعضهم التجأ إلى الصوفية أو نحو حلم العقل . بعضهم الآخر يشعر أنه مفتون بالعنف العفوي المهدم للشباب ، فعبر ليصير «تلقائياً» دون الأخذ بعين الاعتبار أن هذه التجربة ، في العام الحالي الحربي ، قد أدت دوماً إلى القمع والتعذيب الجسدي العقيم .

لقد وجدت في حزبي ، الحزب الشيوعي التشيلي ، مجموعة كبيرة من أناس متواضعين كانوا قد نحووا جانباً الغرور الشخصي ، حب الزعامة ، المصالح المادية .

شعرت بأنني سعيد في معرفة أناس متواضعين يناضلون في سبيل التواضع العام أي في سبيل العدالة .

قط لم تكن لي من مصاعب مع حزبي الذي بتواضعه توصل إلى تحقيق انتصارات عظيمة لشعب تشيلي ، شعبي . ماذا أستطيع أن أقول أكثر من هذا؟ إنني لا أطمح إلا إلى أن أكون جد متواضع مثل رفاقي ، جد مثابر وغير قابل للهزيمة كما هم عليه . أبداً لا يتعلم المرء ما فيه الكفاية من التواضع . قد ما علمني شيئاً الافتخار الشخصي الذي يتحصن في «المذهب الارتياحي» el escepticismo كي لا يتضامن مع العذاب الإنساني .

### (فيديل كاسترو Fidel Castro) (١) ،

بعد أسبوعين من دخوله المنتصر إلى «لا هافانا» وصل (فيديل كاسترو) إلى «كاراكاس» في زيارة قصيرة . لقد جاء ليشكر علناً الحكومة والشعب الفنزويليين على المساعدة التي كانت «فينزويلا» قد قدمتها له . هذه المساعدة كانت عبارة عن أسلحة لقواته ولم يكن ، طبعاً ، (بيتانكورث) (٢) (المنتخب حديثاً رئيساً للجمهورية) من أمده بهذه المساعدة بل كان أمير البحر (وولفغانغ لارازابال) . لقد كان (لارازابال) صديق الحركات اليسارية الفينزويلية بما فيها الحزب الشيوعي فلبى مطلب التضامن مع كوبا ، الذي وجهه إليه هؤلاء اليساريون .

لقد رأيت في حياتي قليلاً من الاستقبالات السياسية الحماسية جداً مثل الاستقبال الذي خص به الفينزويليون هذا الشاب المنتصر في الثورة الكوبية . لقد تكلم (فيديل كاسترو) خلال أربع ساعات مستمرة في الساحة الكبرى المسماة «ال سيلنثيو» (٣) وهي قلب «كاراكاس» . أنا كنت واحداً من المائتي ألف شخص الذين استمعوا وهم واقفون على أرجلهم بدون نبس إلى ذلك الخطاب الطويل . بالنسبة لي كما بالنسبة لآخرين كثيرين كانت خطب (فيديل) وحيماً وتنزيلاً . حين كنت أسمعته يتكلم أمام ذلك الحشد الغفير ، أدركت أن عهداً جديداً قد بدأ بالنسبة لأمريكا

(١) فيديل كاسترو : الزعيم الكوبي المعروف ، ولد عام ١٩٢٦ .

(٢) بيتانكورث : سياسي فنزويلي ، ولد عام ١٩٠٨ .

(٣) ال سيلنثيو : معناها السكون .



اللاتينية . لقد أعجبت بجدة لغته . لقد اعتاد أحسن القادة النقابيين والسياسيين على هرس صيغ قد يكون محتواها ذا قيمة لكنها كلمات مستهلكة وهنة من كثرة التكرار . لقد كان (فيديل) يتجاهل مثل هذه الصيغ . لغته كانت طبيعية تعليمية ، كان يبدو وكأنه هو نفسه يتعلم فيما كان يتكلم ويعلم .

لم يكن الرئيس (بيتانكورث) يحاضر في الاحتفال ، كانت ترهبه فكرة أن يتواجه وشعب «كاراكاس» إذ لم يكن فيها شعيباً أبداً . كل مرة كان (فيديل) كاسترو) يذكر فيها اسمه في خطابه كانت تسمع توأ تصفيرات واستنكارات التي كانت يدا (فيديل) تحاولان تهديتها . أنا أظن أن ذلك اليوم قد وضع ختماً نهائياً لعداوة استفحلت شيئاً فشيئاً بين (بيتانكورث) والثوري الكوبي . لم يكن (فيديل) ماركسياً ولا شيوعياً في ذلك الوقت ، كلماته نفسها كانت تنأى كثيراً عن هذا الموقف السياسي . إن رأيي الشخصي هو أن ذلك الخطاب ، شخصية (فيديل) اللامعة والحماسة الجماهيرية التي كانت تنبعث ، الشغف الذي أبداه شعب «كاراكاس» حين كان ينصت إليه ، أحزنت كل هذه الأشياء قلب (بيتانكورث) وهو سياسي ذو أسلوب عتيق ، ذو بلاغة ، رجل محافل واجتماعات سرية . منذ ذلك الحين و(بيتانكورث) يمقت في حنق لا يرحم كل حكاية تجعله يشتمّ من قريب أو بعيد رائحة (فيديل كاسترو) أو الثورة الكوبية .

في اليوم التالي لذلك المهرجان السياسي ، حين كنت أنا في الريف أقوم بنزهة يوم الأحد ، وصلت إلينا بعض الدرجات النارية كانت تحضر لي دعوة إلى السفارة الكوبية . كانوا قد بحثوا عني طيلة النهار كله دون أن يعثروا عليّ وفي النهاية اكتشفوا موضعي . كان الاستقبال سيجري في مساء ذات اليوم نفسه . (ماتيلده) وأنا اتجهنا مباشرة إلى مقر السفارة . كان المدعوون جد كثيرين إلى درجة أنهم كانوا يتجاوزون سعة القاعات والحدايق ، في الخارج كان الشعب يتزاحم وكان صعباً جداً اجتياز الشوارع التي تؤدي إلى مقر السفارة .

تخطينا قاعات مزدحمة بالناس ، متراساً من أذرع تحمل كؤوس «كوكتيل» كانت ترتفع فتعبر . أخذنا شخص ما عبر دهاليز وسلام إلى طابق آخر . في مكان مفاجئ كانت تنتظرنا (ثيليا Celia) صديقة (فيديل) وسكرتيرته وأقرب الناس إليه . (ماتيلده) بقيت معها ، أما أنا فقد أدخلوني إلى الغرفة المجاورة . وجدت نفسي في غرفة نوم إضافية كأنها غرفة نوم بستاني أو سائق . لم يكن ثمة غير سرير واحد يبدو

أن أحد الأشخاص كان نائماً عليه فنهض منه في استعجال تاركاً الشراشف في فوضى والمخدة<sup>(١)</sup> على الأرض . ثمة طاولة سرير صغيرة ولا شيء آخر . ظننت أنهم من هناك سيأخذوني إلى قوينة لأثقة كي أقابل القائد . لكن هذا لم يكن هكذا إذ فتح على حين غرة واذ (فيديل كاسترو) يملأ الفراغ بقامته .

كان أطول مني برأس . اتجه نحوي بخطى سريعة .

- مرحبا ، (بابلو) - قال لي وغمرني بذراع شادة ضاغطة .

لقد فاجاني صوته النحيل الرقيق ، الطفولي تقريباً . كذلك شيء في منظره كان يتطابق مع لحن صوته . لم يكن (فيديل) يعطي الانطباع بأنه رجل كبير ، بل طفل صغير كانت قد تناولت فجأة ساقاه دون أن يفقد وجهه وجه فتى ، ولحيته الضئيلة ، ذقن مراهق .

ترك ذارعه عني في فضاظة وخشونة . ثم ظل كمن لذعته الكهرياء . دار نصف دورة واتجه عازماً حازماً نحو ركن في الغرفة . دون أن أنتبه أنا كان قد دخل في خفوت مصور صحفي ، ومن هذا الركن أخذ يوجه آتته التصويرية نحونا . (فيديل) انقضّ عليه دفعة واحدة . رأيتة وهو يمسك به من خناقه ويهزه فسقطت آلة التصوير على الأرض . اقتربت من (فيديل) وأخذته من ذراعه وقد فزعت حين رأيت المصور الضئيل يكافح بلا جدوى ويحاول أن يتملص منه ويتخلص . غير أن (فيديل) قذف به نحو الباب وأجبره على الاختفاء . من بعد التفت إليّ مبتسماً ، التقط آلة التصوير من الأرض ورمها فوق السرير .

لم نتكلم عن الحادثة بل عن إمكانات إنشاء وكالة أنباء لأمريكا بأسرها . يظهر لي أنه من جراء تلك الحادثة الثنائية ولدت وكالة «الصحافة اللاتينية» . من بعد كل واحد منا خرج من باب ليعود إلى الاستقبال .

بعد ساعة على ذلك ، حين كنت أعود من السفارة في صحبة (ماتيلده) رجعت إلى مخيلتي وجه ذاك الصحفي المروع والسرعة الغريزية لرئيس حرب العصابات الذي انتبه إلى وصول الدخيل الخفوت من وراء ظهرنا .

هذا كان أول لقاء لي مع (فيديل كاسترو) . لماذا رفض بشكل قاطع تلك التصويرية؟ أكان رفضه يتضمن سراً سياسياً صغيراً؟ إلى الآن لم أستطع أن أتوصل

---

(١) المخدة : هكذا في الأصل Almohada ، عن العربية .

إلى فهم ، لأي سبب كانت مقابلتنا يجب أن تتسم في جو ذي طابع سري جداً .  
كان أول لقاء لي مع (تشي غيفارا) مختلفاً جداً . جرى اللقاء في «لا هافانا» .  
وصلت لأراه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، تقريباً ، وقد دعاني لزيارته في  
مكتبه بوزارة المالية أو الاقتصاد ، لا أذكر الآن على وجه الدقة . مع أنه كان قد حدد  
لي منتصف الليل ، وأنا وصلت متأخراً . كنت أحضر اجتماعاً رسمياً وأجلسوني في  
المنصة فلم أستطع المغادرة .

كان «تشي» ينتعل جزمة ، ويرتدي زياً عسكرياً للميدان ويتمنطق بحزام فيه  
مسدسان . كان نمط لباسه هذا لا يتسق وجو المكتب المصرفي .

كان (تشي) أسمر ، متمهلاً في الكلام ، ذا نبرة أرجنتينية واضحة . كان رجلاً  
يصلح الحديث معه في ترو ، بسهولة «بامبا» Pampa بين «ماته»<sup>(١)</sup> و«ماته» . جملة  
كانت قصيرة موجزة تقضب في ابتسامة كما لو أنه يترك التعليق معلقاً في الهواء .

لقد لذ لي ما قاله لي عن كتابي «النشيد العام» . كان يعتاد قراءته ليلاً على  
رجاله المحاربين في «لا سييرا مايسترا» . الآن ، بعد أن مرت السنون ، أقشع حين أفكر  
أن أشعاري رافقته كذلك في موته . عن طريق (ريجيس دوبري)<sup>(٢)</sup> عرفت أنه في  
جبال «بوليفيا» احتفظ حتى آخر لحظة في زوادته بكتابين لا غير وهما : كتاب في  
علم الرياضيات وكتابي «النشيد العام» .

لقد قال لي (تشي) تلك الليلة شيئاً بلبني كثيراً ولكنه من ناحية يفسر مصيره  
الذي آل إليه . كان نظره يشرذ عني نحو النافذة المعتمة لذلك البناء المصرفي . كنا  
نتكلم عن احتمال غزو أمريكي شمالي لكوبا . أنا كنت قد شاهدت في شوارع «لا  
هافانا» أكياس رمل منتشرة في نقاط استراتيجية . هو قال لي بشكل مفاجيء :

- الحرب ... الحرب نحن دوماً ضد الحرب ، أما وقد قمنا بها فنحن لا نستطيع  
الحياة بدون الحرب في كل لحظة نريد أن نعود إليها .

كان يفكر في صوت عال ويخاطبني . أنا استمعت إليه في ذهول صريح واضح .  
بالنسبة لي الحرب هي تهديد وليست بمصير .

---

(١) ماته : كنا قد أشرنا إلى أنه نوع من الشاي يشربه الأمريكيون اللاتينيون والمغتربون العرب العائدون  
إلى وطنهم العربي من أمريكا اللاتينة .

(٢) ريجيس دو بريه : هو الصحفي الفرنسي الذي رافق (تشي غيفارا) في «بوليفيا» ثم سجن هناك .

ودعته وما عدت فرأيته من بعد قط . من بعد جرت معركته التي خاضها في الغابة البوليفية وانتهت بموته المأساوي . لكنني ما زلت أرى في (تشي غيفارا) ذلك الرجل المتأمل المفكر الذي خصص دوماً في معاركه البطولية ، إزاء الأسلحة ، مكاناً للشعر .

إن كلمة «أمل» تعجب كثيراً أمريكا اللاتينية . يطيب لي أن تسمى قارتنا «قارة الأمل» . لو أن المرشحين للنيابة ، لعضوية مجالس الشيوخ ، للرئاسة ، يسمون أنفسهم «مرشحي الأمل» .

في الواقع إن هذا الأمل هو شيء هكذا مثل الفردوس الموعود ، وعد بالدفع ، أداؤه يتأجل دوماً . يؤجل إلى المرحلة التشريعية القادمة ، إلى السنة القادمة أو القرن القادم .

حين نشبت الثورة الكوبية حدثت لملايين الأمريكيين الجنوبيين يقظة فجائية . ما كانوا أول الأمر يصدقون ما كانوا يسمعون . لم يكن هذا مكتوباً في أسفار قارة قد عاشت وهي تفكر بيأس في الأمل .

وإذ ، على حين غرة ، (فيديل كاسترو) وهو كوبي لم يكن أحد قبل يعرفه ، يمسك بالأمل من شعره أو من قدميه ولا يسمح له أن يفلت من بين يديه بل يجلسه في مائدة أو دارة شعوب أمريكا .

منذ ذلك الحين إلى الآن تقدمنا كثيراً في طريق الأمل هذا الذي غدا واقعاً حياً . لكننا نحيا والروح في خيط<sup>(١)</sup> . بلد مجاور ، جسد قدير وجد إمبريالي ، يريد سحق كوبا مع الأمل ومع كل شيء . تقرأ جماهير أمريكا الصحف كل يوم ، تنصت إلى الإذاعات كل ليلة ، تتنفس هذه الجماهير الصعداء . كوبا توجد ، يوماً آخر ، سنة أخرى ، نصف عقد آخر<sup>(٢)</sup> . لم يقطع رأس أملنا ، لن يقطع .

### رسالة الكوبيين:

منذ زمن والكتاب البيروبيون ، الذين لي بينهم أصدقاء كثر أعتمد عليهم دوماً ،

(١) الروح في خيط : تعبير إسباني بمعنى الجزع والهلع .

(٢) في الأصل كلمة واحدة وهي Iustro تعني مدة خمس سنين ، نقترح أن تترجم إلى العربية بكلمة

خاموس .

كانوا يضغطون كي يمنحني بلدهم وساماً رسمياً . أعترف أن الأوسمة بدت لي دائماً إلى حد ما مضحكة . إن الأوسمة القليلة التي أملكها هي أوسمة علفت على صدري بدون أية محبة ، على مهام أدبتها ، بسبب أعمال قنصلية قمت بها أي بسبب لياقة أو عادة مألوفة . مررت ذات يوم بـ«ليما» فأصر (ثيرو إليغريا)<sup>(١)</sup> الروائي الكبير صاحب رواية «الكلاب الجياع» الذي كان إذًاك رئيس الكتاب البيرويين ، على أن يمنحني بلده وساماً آنذاك . كانت قصيدتي «مرتفعات «ماكتشو بيكتشو» قد صارت جزءاً من الحياة البيروية ، ربما أنني استطعت أن أعبر في أبياتها عن بعض المشاعر التي كانت ترقد نائمة مثل حجارة لبناء عظيم . أضف إلى هذا أن الرئيس البيروي لذات الوقت وهو المهندس المعماري (بيلاونده)<sup>(٢)</sup> كان صديقي وقارئي . مع أن الثورة التي طردته من بلده في ما بعد ، وهبت البيرو حكومة ، بشكل غير متوقع منفتحة في طرق التاريخ الجديدة ، فإني ما زلت أعتقد أن المهندس المعماري (بيلاونده) كان رجلاً ذا عفة نفس ليس تمحي ، انهمك في أعمال باطلة نوعاً ما قادت في النهاية به إلى أن يصبح معزولاً عن الواقع الرهيب ، وأن يغدو مفصلاً عن شعبه الذي كان هو يحبه بشكل عميق .

قبلت أن أمنح وساماً ، هذه المرة ليس بسبب خدماتي القنصلية بل بسبب قصيدة واحدة من قصائدي . بالإضافة إلى هذا وليس هو بالأمر الأقل شأنًا ، كانت لما تنزل بين شعب «تشيلي» وشعب «بيرو» جراح لم ترقأ . ليس الرياضيون والديبلوماسيون والسياسيون هم وحدهم من يجب عليهم أن يعملوا على إيقاف نزيف دماء الماضي بل كذلك ، وفي حق أكثر ، الشعراء الذين حدود أرواحهم أقل من حدود أرواح الآخرين .

في تلك الفترة نفسها قمت بسفر إلى الولايات المتحدة . كان الأمر يتعلق بمؤتمر عالمي «نادي القلم»<sup>(٣)</sup> . من بين المدعوين إليه كان أصدقائي : (آرثر ميلر)<sup>(٤)</sup> الأرجنتينيان (ايرنستو ساباتو) و(فيكتوريا أوكامبو) ، الناقد الأورغوايبي (أمير

(١) ثيرو إليغريا : روائي وشاعر من البيرو (١٩٠٩-١٩٦٧) .

(٢) بيلاونده : سياسي من البيرو . كان رئيساً للأمم المتحدة ، الجمعية العامة (١٨٨٣-١٩٦٦) .

(٣) نادي القلم : كنا قد أشرنا إلى أنه ناد يجمع الأدباء الامبرياليين والصهيونيين .

(٤) آرثر ميلر : كاتب مسرحي أمريكي شمالي ، ولد عام ١٩١٥ .

رودريغيث مونيغال) ، الروائي المكسيكي (كارلوس فوينتيس) . كذلك شارك كتاب من بلدان أوروبا الاشتراكية كلها تقريباً .

بلغت كذلك حين وصولي أن الكتاب الكوبيين كانوا مدعويين أيضاً . كان أعضاء «نادي القلم» مندهشين لأن (كاربينتيير)<sup>(١)</sup> لم يكن قد وصل ، فطلبوا مني أن أستعلم عن الأمر ، فتوجهت إلى ممثل وكالة «الصحافة اللاتينية» في نيويورك الذي تفضل فسمح لي أن أرسل برقية من وكالته إلى (كاربينتيير) .

كان الجواب الذي جاء عن طريق وكالة «الصحافة اللاتينية» هو أن (كاربينتيير) لم يستطع المجيء لأن الدعوة وصلته متأخرة جداً ، وأن تأشيرة الدخول الأمريكية لم تكن جاهزة . أحد ما كان يكذب في هذه المناسبة : كانت التأشيرات قد منحت منذ ثلاثة أشهر ، ومنذ ثلاثة أشهر كذلك كانوا يعرفون بالدعوة وقد قبلوها . يفهم من هذا أن أمراً بالتغيب صدر من جهة عليا في آخر ساعة .

أنا أدت أشغالي الدائمة . ألقيت قراءتي الشعرية الأولى في نيويورك بمكان فسيح جداً امتلأ إلى درجة أنهم اضطروا إلى وضع شاشات تلفزة خارج المسرح كي يرى ويسمع آلاف الناس الذين ما استطاعوا الدخول . لقد أثر بي الوقع الذي أحدثته قصائدي المعادية للإمبريالية في عنف ، في هذا الحشد من الأمريكيين الشماليين . لقد أدركت أشياء كثيرة هناك في «واشنطن» وفي «كاليفورنيا» حين أخذ الطلبة والعوام يعبرون عن استحسانهم لكلماتي التي تدين الإمبريالية . تأكدت عن كذب أن الأعداء الأمريكيين الشماليين لشعوبنا هم كذلك على حد سواء أعداء الشعب الأمريكي الشمالي .

أجروا معي بعض المقابلات الصحفية . إن مجلة Life التي تصدر بالقتشالية<sup>(٢)</sup> والتي يشرف عليها أمريكيون لاتينيون ودخلاء قد تعسفت في آرائي وبترتها . لم يستدركوا حين طلبت منهم ذلك . لكن الأمر لم يكن شيئاً خطيراً . إن ما حذفوه كان فقرة أدين بها الحرب في الفيتنام وفقرة أخرى حول زعيم أسود اغتيل في تلك الأيام .

---

(١) كاربينتيير : روائي كوبي ، ولد عام ١٩٠٤ .

(٢) القشتالية : تسمى اللغة الإسبانية كذلك القشتالية Castellano ، وهي تسمية أكثر دقة نظراً لوجود

عدة لغات أخرى في إسبانيا .

فقط بعد سنوات شهدت الصحيفة التي أجرت المقابلة أن المقابلة قد خضعت للمراقبة .

عرفت خلال زيارتي -وهذا يشرف زملائي الكتاب الأمريكيين الشماليين- أنهم مارسوا ضغطاً قوياً كي أمنح تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة . يبدو لي أنهم وصلوا إلى حد أنهم هددوا «مكتب الدولة» بإصدار استنكار علني يتخذه أعضاء «نادي القلم» إن استمروا على رفضهم بإعطائي تأشيرة الدخول . في اجتماع عام كانت فيه تستلم وسام الشخصية الأكثر احتراماً واعتباراً في الشعر الأمريكي الشمالي ألا وهي الشاعرة العجوز (ماريانه مور) التي ماتت بعد شهور من ذلك التاريخ ، تناولت هي الكلمة لتعلن عن بهجتها بأن دخولي الشرعي إلى البلد قد تحقق بفضل وحدة الشعراء . لقد حكوالي بأن كلماتها المرترجة المؤثرة قد قوبلت بتصفيق حاد وهتاف عال .

وما هو أكيد وما لم يسبق إليه هو أنني ، بعد هذه الجولة المتميزة بفعالياتي السياسية ونشاطي الشعري المكافح ، وبعد أن قمت في الدفاع عن الثورة الكوبية ودعمها أثناء القسم الأكبر من جولتي هذه ومن نشاطي هذا ، تلقيت ما إن عدت إلى تشيلي رسالة الكتاب الكوبيين الشهيرة الوبيلة ، التي تهدف إلى اتهامي بالانصياع بله بالخيانة . لم أعد أذكر العبارات التي استعملها المدعون العامون في شأني . لكنني أستطيع القول بأنهم كانوا ينصبون أنفسهم معلمين للثورات ، مؤدبين في السنن التي يجب أن تطبق على كتاب اليسار . بغطرسة وبسلاطة لسان وبمداهنة كانوا يحاولون أن يقوموا من فعالياتي الشعرية والاجتماعية والثورية . إن منحي الوسام على قصيدة «ماكتشو بيكتشو» وحضوري مؤتمر «نادي القلم» وتصريحاتي وقراءاتي الشعرية ، كلماتي وأعمالي المعادية للنظام الأمريكي الشمالي التي عبرت عنها في الذئب<sup>(1)</sup> ، كل هذا كان يوضع موضع الشك ، مزيفاً أو مفترى من لدن الكتاب السابق ذكرهم ، إن كثيراً منهم حديثو الوصول إلى الميدان الثوري ، وكثيراً منهم يتقاضون مكافآت عن حق واستحقاق أو عن ظلم وإجحاف من الدولة الكوبية الجديدة .

إن هذا العدل من الشتائم قد تضخم بتواقيع أكثر فأكثر طولب بها في عفوية

---

(1) في فم الذئب : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي بين شذقي الأسد أو في عرينه أو في جفن

مشكوك بها من منابر جمعيات كتاب وفنانين . وكلاء مفوضون كانوا يتراكمون من هنا إلى هناك في «لا هافانا» بحثاً عن تواقيع نقابات مهنية بكامل أعضائها ، لموسيقين وراقصين وفنانين تشكيليين . كان ينادى للتوقيع على الفنانين والكتاب العديدين العابرين الذين دَعُوا إلى كوبا في سخاء عظيم فلبوا الدعوة وامتثلت بهم الفنادق الفخمة ذات الفخفخة والأبهة . بعض الكتاب الذي ظهرت أسماؤهم مختومة<sup>(١)</sup> على هامش الوثيقة المحففة أوصل إليّ أخباراً ملفقة : «لم أوقع تلك الرسالة قط ، علمت بضمونها بعد أن رأيت عليها توقيعِي الذي أبداً ما وضعته» . صديق لـ(خوان مارينيو) قد زعم بأن هذا هو ما جرى له كذلك ، مع أنني لم أستطع التأكد من ذلك كله . لكنني تأكدت من ذلك بالنسبة لآخرين .

لقد كان الموضوع كبة خيوط ، خذروف ثلج أو تلفيقات عقائدية كان من الضروري جعل الآخرين يعتقدون بها مهما كلف الأمر . تمركزت وكالات مختصة في مدريد وباريس وعواصم أخرى ، عكفت على إرسال أعداد من الرسالة الكذوب أو طبعها من جديد فخرجت الآلاف من هذه الرسالة ، وبخاصة في مدريد ، في إرساليات بعشرين أو ثلاثين نسخة إلى كل عنوان وكل شخص . لقد كان مسلياً بشكل نحس<sup>(٢)</sup> استلام هذه الظروف المزخرفة بصور (فرانكو) على الطوابع البريدية وفي ضمنها كان يتهم (بابلو نيرودا) بأنه ضد - ثوري .

لا يخصني التحري عن أسباب تلك النوبة<sup>(٣)</sup> : الزيف السياسي ، الخور العقائدي ، الأحقاد والأحساد الأدبية ، ماذا أدري أنا كم من أشياء دفعت بهؤلاء الكثر لشن معركة ضد رجل واحد . لقد رووا لي من بعد أن المحررين المتحمسين ، المحرضين والمتصيدين لتواقيع تلك الرسالة الشهيرة ، كانوا هم الكتاب (روبيرتو

---

(١) نحب أن نلفت أنظار القارئ العربي إلى أن (نيرودا) يستعمل هنا كلمات لها معان كثيرة بعضها لطيف والآخر عنيف ، فهنا كلمة مختومة قد تعني كذلك مداسة ، أو مركولة .

(٢) بشكل نحس : هذه الكلمة بالنص الإسباني قد تعني كذلك : يساوي ، كما في العربية ، أيسر = أعسر .

(٣) النوبة : هي في الأصل Arrebato ، وهي الكلمة العربية الرباط ، ومن معانيها بالأندلس العربية ، الهجوم المفاجئ ، ومن معانيها بالإسبانية اليوم ، ما قيدناه .



فيرنانديث ريتامار) و(أدموند ديسنويس) و(ليساندرو أوتيرو) . بالنسبة لـ(ديسنويس) ولد(أوتيروه) لا أذكر أنني قد قرأت لهما شيئاً أبداً ولا عرفتهما شخصياً . أما بالنسبة لـ(ريتامار) قبلي . في «لاهافانا» وفي «باريس» كان يلاحقني بإطرائه وتلقه بشكل مثابر مواظب . كان يقول لي بأنه كان قد نشر مقدمات متوالية ومقالات تقرظية حول مؤلفاتي . الحقيقة هي أنني ما اعتبرته أبداً بذني قيمة بل اعتبرته واحداً من هؤلاء الذين يطفون فجأة من السياسيين والأدباء في عصرنا .

ربما أنهم تصوروا أنهم بهذا يستطيعون أن يؤذوني أو يدمروني كحزبي ثوري . لكن حين وصلت إلى شارع تياتينوس في «سنتياغو» بتشيلي لمعالجة الموضوع لأول مرة مع اللجنة المركزية للحزب ، وجدت أن لهم رأيهم ، على الأقل من الناحية السياسية . يتعلق الأمر بأول هجوم ضد حزبنا التشيلي ، قالوا لي .

كانت تعاش في تلك الأوقات نزعات جديدة . كان الشيوعيون الفنزويليون والمكسيكيون يتنازعون عقائدياً مع الكوبيين . من بعد ، في ظروف مأساوية لكن بشكل ساكن اختلف كذلك البوليفيون .

الحزب الشيوعي التشيلي قرر منحي في احتفال عام مدالية (ريكاربرين) التي أحدثت حينذاك وخصصت لتمنح إلى أحسن أعضائه . لقد كان ذلك جواباً مقنعاً . لقد تحمل الحزب الشيوعي التشيلي في ذكاء تلك الفترة من الاختلافات وأصر على عزمه بتحليل اختلافاتنا داخلياً . مع الزمن امحى كل ظل لهذا النزاع ويوجد الآن بين الحزبين الشيوعيين ، وهما أكثر الأحزاب الشيوعية أهمية في أمريكا اللاتينية ، تفاهم واضح وعلاقة أخوية .

أما بالنسبة لي فما زلت أنا من كتب كتاب «أغنية مفخرة» . إنه لكتاب ما يزال يعجبني . ولا أستطيع أن أنسى أنني كنت أول شاعر خصص كتاباً بكامله لتمجيد الكوبية .

إنني لأدرك ، طبعاً ، أن الثورات وبخاصة رجالها ، تقع من حين إلى حين في الخطأ وفي الظلم . إن القوانين التي ما كتبت أبداً في الإنسانية تلف على حد سواء الثورين وغير الثورين . لا أحد يستطيع أن ينجو من الأخطاء ، نقطة صغيرة عمياء داخل مسيرة كبرى ليس لها من أهمية في سياق قضية كبيرة . لقد ظللت أغني ، أحب ، أحترم الثورة الكوبية ، شعبها ، أبطالها النبلاء .

لكن كل واحد وله نقطة ضعفه . أنا لذي نقاط ضعف كثيرة . مثلاً ، لا يعجبني

أن أتخلى عن الافتخار الذي أشعر به بسبب سلوكي الصلب ، سلوك مناضل ثوري .  
ربما أنه لهذا أو لثلمة أخرى في ترهاتي رفضت حتى الآن وسأظل أرفض أن أصافح  
أي واحد من الذين وقَّعوا بوعي أو بغير وعي تلك الرسالة التي ستظل تبدولي  
وصمة عار .

## الفصل الثاني عشر وطن عذب وقاس

### تطرف وجواسيس؛

إن الفوضويين القدماء -والشيء نفسه ينطبق على فوضوي اليوم هذا- يميلون إلى موقف مريح جداً ، بشكل أليف جداً ، وهو موقف الفوضرأسمالية<sup>(١)</sup> ، وهو وكر ينحشر فيه كذلك السياسيون الهدافون<sup>(٢)</sup> ومدعو اليسارية والمستقلون المزيفون . إن العدو الرئيسي للرأسمالية القامعة ، هم الشيوعيون ، وهي لا تخطئ في تصويب سلاحها نحوهم . إن هؤلاء الفرديين المتمردين جميعهم يمكن تطويعهم بشكل أو بآخر بواسطة الحكمة أو الدهاء الرجعي الذي يعتبرهم مدافعين بطوليين عن مبادئ مقدسة . إن الرجعيين يعرفون أن خطر التغييرات في مجتمع ما لا يكمن في التمردات الفردية بل في تنظيم الجماهير وفي وعي طبقي شامل .

لقد شاهدت هذا كله بوضوح في إسبانيا خلال الحرب . كانت بعض المجموعات المعادية للفاشية تلهو في عيد المرافع تجاه قوات (هتلر) و(فرانكو) الزاحفة نحو مدريد . أستثني منهم طبعاً أولئك الفوضويين الأشاوس الذين لا يُقهر ولا يستسلمون من أمثال (دوربوتي Durputi) ورفاقه الكتلان<sup>(٣)</sup> الذين قاتلوا في «برشلونة» قتال الأسود .

إن الجواسيس لهم أسوأ من المتطرفين بألف مرة . يتسلل إلى صفوف مناضلي الأحزاب الثورية من حين لآخر العملاء المعادون ، المخبرون ، المندسون الذين يعملون لصالح الشرطة أو الأحزاب الرجعية أو الحكومات الأجنبية . يؤدي بعض منهم مهمات خاصة من تحريض وزج وتوريط ، وبعضهم الآخر يكتفي بمراقبة طويلة الأناة .

(١) الفوضرأسمالية : الفوضوية - الرأسمالية .

(٢) الهدافون : رجال المطاوعة ، وهم رجال من المقاومة غير منظمين ، يحسنون إصابة الهدف .

(٣) الكتلان : هم سكان المنطقة الشمالية الغربية من إسبانيا .

إنها لحكاية قديمة قصة (أزيف) . فلقد شارك قبل سقوط القيصريّة الروسية بعدة عمليات إرهابية وسجن مرّات عديدة . إن مذكرات مدير الأمن العام في العهد القيصري التي ظلت سرّية إلى أن نشرت بعد الثورة تروي في تفصيل كيف أن (أزيف) كان في كل لحظة عميلاً لـ «أوتشرانا» . لقد اتسق في رأس هذه الشخصية الغريبة ، الإرهابي والمخبر معاً ، في إحدى العمليات التي قام بها قتل أحد «الدوقات» .

تجربة أخرى من هذه التجارب المدهشة وقعت في «لوس أنجلوس» «سان فرانسيسكو» أو بمدينة أخرى من ولاية «كاليفورنيا» . خلال الفترة «المكارتية» الجنونية اعتقل أعضاء الحزب الشيوعي في تلك المحلة كلهم . كانوا خمسة وسبعين شخصاً ، معدودين ، محصين ، مؤرخين حتى في أقل جزئيات حياتهم حسناً جداً ، تبين أن هؤلاء جميعاً بلا استثناء كانوا عملاء للشرطة . لقد سمحت لنفسها مؤسسة F.B.T<sup>(١)</sup> أن تنشئ حزبها الشيوعي الصغير الخاص بها من عناصر ما كان يعرف بعضهم بعضاً ، لكي تلاحقهم من بعد وتنسب لنفسها انتصارات عظيمة على أعداء غير موجودين . لقد توصلت هذه المؤسسة إلى اختلاق حوادث مضحكة مثل فصل رأس الكرنب ، حيث كان يحفظ فيه الأسرار الدولية المتفرقة رجل يدعى (تشالميرس Chalmers) وهو شيوعي قديم باع نفسه مقابل دولارات إلى الشرطة . كذلك نسجت هذه المؤسسة حكايات فظيعة من بينها الحكاية التي نسبت إلى الزوجين (روسينبرغ Rosenberg)<sup>(٢)</sup> اللذين أعدما فأثار هذا سحق الإنسانية .

لقد كان تسرب العملاء إلى صفوف الحزب الشيوعي التشيلي صعباً جداً دوماً ؛ لأن هذا الحزب هو منظمة ذات تاريخ طويل وذات أصل بروتيتاري بشكل مغلق . إن نظريات حرب العصابات في أمريكا اللاتينية ، على العكس ، فتحت الأبواب لكل صنف من الوشاة والنافخين . إن العفوية والارتجالية و«الشيوعية» الحديثة العهد بالنضال في هذه المنظمات جعلت من الصعب فضح هؤلاء الجواسيس المندسين واعتقالهم . لهذا فإن الشكوك رافقت دوماً قادة رجال العصابات المقاتلة إذ كان عليهم أن يحتاطوا حتى من ظلمهم . لقد غذى روح المغامرة بشكل ما الحماس الرومانطيكي

(١) F.B.T : هي مؤسسة الشرطة السرية في الولايات المتحدة الأمريكية .

(٢) روسينبرغ Alfred : سياسي ألماني (١٨٩٣-١٩٤٦) .

والتنظير الخاص بحرب العصابات الجامعة التي غمرت أمريكا اللاتينية كلها . ربما أن هذا العهد قد انتهى باغتيال (أرنيسو غيفارا) وموته البطولي . لكن خلال زمن طويل أنخم داعمو هذا التكتيك النظريون القارة كلها بنظريات وفرضيات التي تعهد الحكومة الثورية الشعبية في المستقبل ، ضمناً ، إلى المجموعات المسلحة في «الفلاقة»<sup>(١)</sup> وليس إلى الطبقات التي تستغلها الرأسمالية . إن عيب هذا التعليل والتبرير يكمن في ضعفه السياسي . قد يحدث في بعض الظروف أن قائد حرب العصابات يكون مزوداً بعقلية سياسية قديرة كما في حالة (تشي غيفارا) ، لكن هذا قليل الحديث ويخضع للصدفة . إن من يبقى سالمًا بعد انتصار حرب العصابات ليس في مكنته توجيه دولة بروتيتارية لكونه فقط كان أكثر شجاعة من غيره ولكونه حظي بحظ أكبر تجاه الموت أو لأنه أحسن التصويب تجاه الأعداء أو أنه أقدر على إطلاق النار من غيره من الأحياء .

الآن سأروي تجربة شخصية . أنا كنت إذّاك في تشيلي حديث الوصول من المكسيك . في إحدى الاجتماعات السياسية التي كنت أنا أتردد عليها اقترب مني رجل ليحييني . كان سيداً ذا عمر متوسط ، مثلاً للنبي العصري ، يرتدي هنداماً لائقاً جداً ويضع نظارة من هذه النظارات التي تمنح المرء وقاراً أمام أعين الناس وهي عبارة عن عدستين بلا أطر أو حامل ، من هذه التي تعلق فوق الأنف . وإذ به شخصية لطيفة مهذبة جداً .

يا سيد (بابلو) ، لم تجرأ أبداً على الاقتراب من حضرتك مع أنني أدين لك بحياتي . إنني واحد من اللاجئين الذين أنقذتهم حضرتك من معسكرات الاعتقال ومن أفران الغاز ، حين شحنتنا في باخرة «وينيبينغ» باتجاه تشيلي . أنا كتلاني وماسوني . وضعي هنا جيد إذ إنني أعمل خبيراً في بيع الأدوات الصحية بشركة كذا وهي أحسن شركة في تشيلي الخ .

---

(١) الفلاقة : كلمة كان يطلقها المستعمرون الفرنسيون على الثوار في المغرب العربي ، وجدناها صالحة لترجمة كلمة la mintonera أي مجموعة من الثوار يمتطون الخيل ويحاربون قوات الحكومة . وواضح أننا لا نتبنى مفهوم «الفلاقة» الذي يعني عند المستعمرين الفرنسيين ، قطاع الطرق بل مفهوم الاغنية الجزائرية : «قالوا . فلاقة ، يا فرنسا ، ما أحناش ، فلاقة ، لكن رفاقة ، خيوه (أخوة) في جيش التحرير ، الله ينصر» .

حكى لي أنه يسكن في شقة محترمة بمركز «سانتياغو» وأن جاره هو بطل في «التنس» مشهور يدعى (أغليسياس) كان زميلي في المدرسة . كانا يتكلمان عني دائماً وأخيراً ، قررا أن يدعواني لكي يكرمانني . لهذا جاء ليراني وبلغني الدعوة . إن شقة هذا الكتلاني كانت تدل على الرفاهية التي كانت تتمتع بها بوجوازيتنا الصغيرة . أثار كامل ، «بهية»<sup>(١)</sup> Paelal مذهبة ووافرة . كان (أغليسياس) معنا خلال فترة الغداء كلها . كنا نضحك متذكرين المدرسة القديمة في «تيموكو» التي في سراديبها كانت أجنحة الخفافيش تلامس وجوهنا . في نهاية الغداء قال المضيف الكريم الكتلاني بضع كلمات قليلة وأهدى إلي تكريماً لي نسختين تصويريتين رائعتين : واحدة لـ(بودليس) والثانية لـ(ادغار بو Edgar Poe)<sup>(٢)</sup> . وهما عبارة عن رأسي شاعرين رائعين ما زلت أحتفظ بهما في مكتبتني .

ذات يوم من الأيام سقط هذا الكتلاني صاحبنا صريع الشلل ، هامداً في سريره دون أن يستطيع التكلم أو الحراك أو التعبير بالإشارات والحركات . لا يتحرك فيه غير عينيه اللتين كانتا تتردان في ألم أن تبوحا بشيء إلى زوجته وهي إسبانية جمهورية ممتازة ذات تاريخ مجيد لا تشوبه شائبة أو إلى صديقه وجاره (أغليسياس) بطل «التنس» صديق طفولتي . لكن الرجل مات بدون كلام أو حراك أو بوح .

حين امتلأت الدار بالدموع وبالأصدقاء وبالأكاليل تلقى الجار لاعب «التنس» مكالمه غريبة غامضة «نحن نعرف مدى الصداقة المتينة التي كانت بين حضرتك وبين المرحوم الكتلاني . هو لم يتعب من إطراء حضرتك والثناء على فضائلك ومزاياك . إن أردت حضرتك أن تقوم بمعروف كبير وخدمة جليلة لذكرى صديقك فافتح الصندوق الكبير واستخرج منه علية حديدية مستودعة هناك . سأعود للاتصال بحضرتك بعد ثلاثة أيام» .

لم تشأ الأرملة أن تسمع شيئاً من هذا القبيل لقد كان حزنها محتداً محتتماً فلم ترد أن تعرف شيئاً حول هذا الموضوع ، تركت الدار وانتقلت لتسكن في غرفة بـ«بنسيون» يقع في شارع «سانتو دومينغو» . صاحب «البنسيون» كان يوغوسلافياً من

(١) بهية : هي صنف من الطعام يصنع من الرز والخضروات واللحم والأسماك تشتهر به مدينة «بلنسية» بإسبانيا .

(٢) ادغار بو Allan : كاتب من الولايات المتحدة الأمريكية (١٨٠٩-١٨٤٩) .

رجال المقاومة في يوغوسلافيا إبان الاحتلال النازي ، رجلاً متمرساً في السياسة .  
 عثر هذا اليوغوسلافي على العلبة الحديدية ففتحها في صعوبة ومشقة . اذًاك قفز  
 أكثر الأرناب البرية مفاجأة<sup>(١)</sup> . كشفت الوثائق المحفوظة عن أن المرحوم كان دوماً  
 عميلاً فاشياً . كانت نسخ رسائله تبين أسماء العشرات من المهاجرين الذين حين  
 عادوا إلى إسبانيا بشكل سري وغير شرعي سجنوا أو أعدموا . ومن بين هذه الرسائل  
 كان ثمة رسالة يشكره النازيون فيها على خدماته . توجيهات أخرى أرسلها الكتلاني  
 هذا أفادت البحرية النازية لكي تغرق بواخر حمولة كانت تخرج من الساحل التشيلي  
 محملة بأعتدة حربية . إحدى هذه الضحايا كانت بارجتنا الجميلة ، فخر البحرية  
 التشيلية ، «لاوتارو» Lautaro المحنكة المجربة . فأغرقت خلال الحرب بحمولتها من ملح  
 البارود حين خرجت من مينائها : ميناء «توكوبيا» . فقد الحياة في غرق هذه البارجة  
 سبعة عشر تلميذاً من المدرسة البحرية العسكرية ماتوا جميعاً غرقى أو متفحمين .  
 هذه هي مآثر الكتلاني الإجرامية الذي ابتسم لي ذات يوم ودعاني إلى الغداء .

### الشيوعيون

... لقد انقضت بضع سنين على انتسابي إلى الحزب ... أنا راض ...  
 الشيوعيون يؤلفون أسرة طيبة ... بشرتهم مدبوغة ولكن قلبهم مشدود الأوتار ... من  
 كل جهة يتلقون ضربات الهراوات ... هراوات مقتصرة عليهم ... فليحيي  
 الروحانيون ، الملكيون ، الشاذون ، المجرمون على اختلاف أصنافهم ... فلتعش الفلسفة  
 ذات الدخان لكن بلا هياكل ... فليحيي الكلب الذي ينبج ويعض<sup>(٢)</sup> ... فليعش  
 المنجمون اللوطيون ... فلتعش صور الدعارة ... فليحيي مذهب الاستهتار  
 والخلاعة ... فليحيي القريديس ... فليحيي العالم كل العالم إلا الشيوعيين ...  
 فلتعش أحزمة العفة<sup>(٣)</sup> ... فليحيي المحافظون الذين لم يغسلوا أقدامهم العقائدية منذ  
 خمسمائة سنة ... فليحيي القمل في الأحياء البائسة ... فليعش الرسم الجماعي

(١) تضمين للمثل الإسباني : «من حيث لا يتوقع المرء ، يقفز الأرناب البري» .

(٢) تضمين للمثل الإسباني : «كلب ينبج لا يعض أبداً» ، وقد جعله هنا ، يعض .

(٣) أحزمة العفة : كانت الراهبات في العصور الوسطى يضعن أحزمة لا يخلعنها أبداً ، حول

المجاني ... فليحي الفوضرأسمالية ... فليحي (ريلكه Rilke)<sup>(١)</sup> ... فليحي (اندرية جيد)<sup>(٢)</sup> مع غلامه ... فليعيش التصوف والاتصالات الروحية على جميع أنواعها ... فكل شيء جيد حسن ... وكلهم أبطال ... الصحف جميعها يجب أن تصدر ... كلهم يستطيعون أن ينشروا ما شاؤوا ما عدا الشيوعيين ... السياسيون جميعاً يجب أن يدخلوا في «سانتو دومينغو» بلا أصفاد ... يجب عليهم جميعاً أن يحتفلوا بموت السفاح ، موت (ال تروخيو) إلا الذين قاتلوه بصلافة أكثر ... فليحي «الكرنفال»<sup>(٣)</sup> ، آخر أيام «الكرنفال» ... ثمة أقنعة للجميع ... أقنعة مسيحي مثالي ، أقنعة يساري متطرف ، أقنعة سيدات محسنات وفاضلات مشفقات ... لكن ، حذار ، امنعوا الشيوعيين من الدخول ... أوصدوا الباب جيداً ... لا تخطئوا ... فليس للشيوعيين الحق في شيء ... فلنهتم بما هو ذاتي ، بماهية الإنسان ، بماهية الماهية ... هكذا سنصبح جميعاً قانعين راضين .. لدينا حرية ... ما أعظم الحرية! ... هم لا يحترمونها ، لا يعرفونها ... الحرية للاهتمام بالماهية ... بما هو جوهر في الماهية ...

... هكذا انقضت السنوات الأخيرة ... انقضى «الجاز» ، أتى «ال سوول» el Soul ، غرقنا في بديهيات الرسم التجريدي ، زعزعتنا الحرب وقتلتنا ... في هذا الجانب من العالم كل شيء ظل على حاله ... أم لم يبق على حاله؟ ... بعد عدة خطب عن الروح وبعد عدة عصي على الرأس ، شيء كان يسير على غير ما يرام ... يسير سيئاً جداً ... أخطأت التقديرات ... فالشعوب تنظمت ... أخذت تتوالى حروب العصابات والإضرابات ... كوبا وتشيلي استقلتا ... شرع رجال كثيرون ونساء كثيرات بتريد النشيد الأمي (الانترناشيونال) ... يا للغرابة ... يا للإحباط ... ها هم يغنون هذا النشيد باللغة الصينية ، باللغة البلغارية ، باللغة الإسبانية في أمريكا ... يجب اتخاذ إجراءات عاجلة ... يجب منع هذا النشيد ... يجب أن نزيد في الكلام عن الروح ... يجب أن نزيد في إطراء العالم الحر ... يجب أن نزيد في ضربات الهراوات ... يجب أن نزيد في دفعات

(١) ريلكه (Rainer Maria) : شاعر ألماني مشهور (١٨٦٩-١٩٥١) .

(٢) أندريه جيد : كاتب فرنسي معروف (١٨٦٩-١٩٥١) .

(٣) الكرنفال : هو عيد المراقع .



الدولارات... هذا يجب ألا يستمر... بين حرية العصي والخوف من (خيرمان ارثينيغاس)<sup>(١)</sup>... والآن كوبا... في نصف كرتنا الخاصة بنا، في منتصف تفاحتنا، هؤلاء المتحون يغنون النشيد نفسه... فبماذا ينفعنا المسيح؟... وبأي شكل قد خدمنا القساوسة؟... لم نعد نثق بأحد... ولا حتى بالقساوسة أنفسهم... فهم لا يرون وجهات نظرنا... لا يرون كيف هبطت أسهمنا في السوق المالية (البورصة)...

... أثناء ذلك يتسلق البشر عبر النظام الشمسي... تبقى آثار أحذية في القمر... كل شيء يصارع من أجل التغيير، إلا الأنظمة القديمة... إن حياة الأنظمة العتيقة ولدت من أنسجة العناكب في العصر الوسيط... أنسجة أكثر قساوة من حدائد المعدات الآلية... بيد أنه، ثمة أناس يؤمنون بالتغيير وقد مارسوا التغيير، وقد جعلوا التغيير ينتصر وجعلوه يزدهر... عجباً... إن الربيع حتمي...

### شاعرية وسياسية Poe'tica Politica<sup>(٢)</sup>،

لقد قضيت عام ١٩٦٩ كله تقريباً في «إيسلا نيغرا». يقتني البحر في الصباغ شكلاً خيالياً من النمو يبدو وأنه يعجن رغيف خبز هائلاً. إنه لأبيض مثل الطحين الزبد المسفوح الذي تدفعه خميرة العمل الباردة.

إن فصل الشتاء لساكن وذو ضباب. نضيف كل يوم على روعته الأرضية حطب الدفء في المدفأة. يهبنا بياض الرمال في الشاطئ عالماً خالياً وحيداً كما كان قبل أن يوجد السكان أو المصطافون على سطح هذه الأرض. لكن أرجو ألا يظن أنني أمقت الحشود الصيفية من الناس. ما إن يقترب الصيف حتى تقترب الصبايا من البحر. رجال ونساء يلجئون في الأمواج على حذر ثم يخرجون قافزين من خطر. هكذا يؤدون رقصة الإنسان الألفية تجاه البحر، ولربما أن هذه الرقصة هي أول رقصات البشر.

في فصل الشتاء تحيا منازل «إيسلا نيغرا» ملتحفة ظلام الليل. ما من دار تشتعل غير داري. أحياناً أظن أن ثمة أحداً في الدار المواجهة. أرى نافذة مضاءة. وما هو إلا سراب. ما من أحد في دار القبطان. إنه نور داري ينعكس على نافذته.

(١) خيرمان ارثينيغاس: مؤرخ وعالم اجتماعي معاصر، من كولومبيا.

(٢) لاحظ التشابه الصوتي بين الكلمتين.

خلال أيام هذه السنة كلها كنت أمضي لأكتب في ركن مكتبي . ليس الوصول إليه بالأمر السهل ولا المكوث فيه . ثمة شيء يجذب كلبتي (باندا Panda) و(تشو تو Chou tu) وهو جلد نمر من «بنغالا» Bengala فرشناه في الحجره الصغيره ، كنت قد أحضرته معي من الصين منذ سنوات كثيره ، فتساقطت منه مع مضي السنين مخالب وشعر بالإضافة إلى العث الذي انتشر فيه وكنا أنا و(ماتيلده) نحذر منه .  
كان يروق لكلبتي التمدد فوق جلد عدوهما القديم . كما لو كانا قد خرجا منتصرين من عراك معه ، كانا يرقدان وتأخذهما سنة النوم سريعاً وقد أنهكهما العراك معه . كانا يتمددان متصلبين عند باب الحجره كأنهما يريدان إجباري على عدم الخروج ، على البقاء لأواصل عملي .

في كل لحظة كان يقع شيء في البيت . كان يرن جرس الهاتف البعيد عني فماذا يقولون للهاتف الداعي؟ لست هنا . ثم يعود فيرن مرة أخرى ، فماذا يجيبون؟ أنا هنا .

لست هنا . أنا هنا . أنا هنا . لست هنا . هذه هي حياة شاعر لم يعد ركنه النائي في «إيسلا نيغرا» بناء .

دوماً يسألونني وبخاصة ، يسألني الصحفيون . في أي كتاب أشتغل ، ما هو الشيء الذي أكتبه . دائماً أندesh من مثل هذا السؤال بسبب سطحيته . لأن الحقيقة هي أنني دائماً أشتغل بالشيء نفسه . أبداً لم أدع أن أعمل الشيء ذاته . أهو شعر؟

لقد علمت بعد مدة طويلة بأن ما كنت أفعله وأكتبه يسمى شعراً . ما اهتمت قط بالتحديدات والعناوين . تبعث في نفسي السأم حتى درجة الموت النقاشات الأدبية الجمالية . لا أستصغر من يجرون هذه المناقشات بل إنني بقدر ما أشعر أنني لا أمت بصلة إلى شهادة الميلاد أشعر كذلك أنني غريب el Post Mortem في الخلق الأدبي . «أن لا يتوصل أي شيء خارجي إلى أن يسيطر علي» قال (والث وايتمان) . ويجب ألا تحل الزينة مهما كانت قيمتها محل الخلق العاري .

لقد بدلت الكثير من الدفاتر خلال السنة كلها . ها هي هناك هذه الدفاتر المربوطة بنحيط خطي الأخضر . لقد حبرت الكثير من هذه الدفاتر التي راحت تصير كتباً كما لو أنها كانت تمر من حالة تحوّل إلى أخرى ، من الجمود إلى الحركة ، من اليرقانات إلى الحباحب .

لقد أتت الحياة اسياسية كما يجيء الرعد لتخرجني من أعمالي فعدت مرة أخرى إلى جمهرة الناس .

إن الجمهرة الإنسانية كانت بالنسبة إليّ درس حياتي . أستطيع أن أصل إلى هذه الجمهرة بنجل الشاعر المتأصل فيه ، بفرع الخائف ، لكن ، ما إن أصبح في حضن هذه الجمهرة ، حتى أحس بالتقمص وإذ بي جزء من الأغلبية الجوهرية وإذ بي ورقة من أوراق شجرة الإنسانية الكبيرة العظيمة .

وحدة وجمهرة ستظلان واجبات الشاعر الأساسية في زمننا هذا . لقد اغتنت حياتي بمعركة تلاطم الأمواج في الساحل التشيلي . غمرتني واستهوتني المياه المقاتلة والصخور المقاتلة والتكاثر في الحياة المحيطية ، والتشكيلة المتقنة من «العصافير التائهة» وروثق الزبد البحري .

لكنني تعلمت أكثر من توجج الحيوانات العظيم ، من نظرة الحنان في آلاف العيون التي نظرت إليّ معاً . قد لا يلتقط الشعراء جميعهم رسالة العيون هذه ، لكن من أحس بها مرة سيحفظها في قلبه ، سيجريها في أعماله الأدبية .

إنه لجدير بالذكرى ومزق للقلب بالنسبة للشاعر أن يجسد لأناس كثيرين ، خلال دقيقة ، الأمل .

### مرشح لرئاسة الجمهورية:

صباح ذات يوم من عام ١٩٧٠ وصل إلى مخبأي البحري ، إلى داري في «ايسلا نيغرا» الأمين العام لحزبي ورفاق آخرون . جاؤوا ليعرضوا عليّ الترشيح المبدئي لرئاسة الجمهورية وهو ترشيح سيقترحونه في ما بعد على ستة أو سبعة أحزاب في الوحدة الشعبية la unidad Popular كانوا قد هيأوا كل شيء : برنامج ، طبيعة الحكومة ، إجراءات عاجلة في المستقبل القريب الخ . حتى تلك اللحظة كانت تلك الأحزاب قد تقدمت بمرشحيها وكل حزب كان يريد إبقاء مرشحه باستثناء الشيوعيين فلم تكن قد تقدمنا بمرشحنا بعد . كان موقفنا هو دعم المرشح الوحيد الذي تختاره أحزاب اليسار وسيكون هو مرشح الوحدة الشعبية . لكن لم يكن هناك حينذاك إجماع وقرار حاسم ، وما كان من الممكن أن تترك الأمور تستمر على هذا النحو . كان مرشحو اليمين قد انطلقوا وبدأوا بحملات الدعاية . إن لم نتحد في مرشح عام واحد بهذه الانتخابات فإننا سنصاب بهزيمة نكراء .

كانت الطريقة الوحيدة لاستعجال تحقيق هذه الوحدة هي أننا نحن الشيوعيين نعين مرشحنا الخاص . حين قبلت بالترشيح بناء على رغبة حزبي أصبح الموقف الشيوعي واضحاً جلياً . سندعم المرشح الذي يضمن موافقة الآخرين على ترشيحه مثلاً وحيداً للوحدة الشعبية . إن لم يتوصل إلى هذا الإجماع فإن ترشيحي سيحافظ عليه حتى النهاية .

كانت وسيلة مشرفة لإجبار الآخرين على الاتفاق . عندما قلت للرفيق (كورفالان) بأني موافق على الترشيح كنت أدرك أنهم سيوافقون من بعد على انسحابي في المستقبل لاعتقادي أن تنازلي في ما بعد هو أمر لا مناص منه . فلم يكن ثمة احتمال قوي بأن يتفقوا على ترشيح مرشح شيوعي يلتفون حوله . بتعبير أفضل كانوا جميعاً يحتاجون إلينا كي ندعمهم (بمن فيهم بعض مرشحي الديمقراطية المسيحية) ولكن ولا واحد منهم كان يحتاجنا كي يدعنا .

لكن ترشيحي الذي خرج في ذلك الصباح البحري «ايسلا نيغرا» قبض على النار . لم يبق مكان في تشيلي إلا وطلب حضوري إليه . لقد تأثرت جداً أمام المئات بل الآلاف من الرجال والنساء الذين كانوا يعصرونني ، يقبلونني ويبيكون . سكان ضواحي «سانتياغو» ، عمال المناجم في «كوكيمبو» ، رجال النحاس والصحراء ، فلاحون ينتظرونني خلال ساعات وساعات وصغارهم على أكتافهم أو بأذرعهم ، أناس تعيش الإهمال وعدم الاعتناء من نهر «بيو بيو» Bio Bio إلى أبعد من مضيق «ماغايبانيس» ، كنت أحدثهم جميعهم أو أقرأ لهم قصائدي في عز المطر ، في وحل الشوارع والطرق ، تحت الريح الجنوبية التي تجعل الناس يرتعدون برداً .

كنت أتممس ، ففي كل مرة كان يأتي إلى مهرجاني أناس أكثر ، كل مرة يجيء نساء أكثر . في افتتان وفزع بدأت أفكر في ما عليّ عمله إن فزت برئاسة جمهورية بلد من أكثر البلدان شراسة بشكل مأساوي تعنتاً وأكثرها استدانة وقد يكون أكثرها نكراناً للجميل . كان يهتف للرؤساء خلال الشهر الأول فقط ومن بعد خلال الخمس سنوات والأحد عشر شهراً المتبقية كانوا يعذبون بعدل أو بدون عدل .

### حملة ايينده (Allende)؛

في لحظة مناسبة وصلت البشرية : ظهر (اليندي) على أنه المرشح المحتمل للوحدة الشعبية بأسرها . بعد موافقة حزبي قدمت على جناح السرعة انسحابي من

الترشيح . أمام حشد هائل جذل فرح تكلمت أنا لأعلن انسحابي وتكلم (الهندي) ليعلن ترشيحه ويطلب المبيعة له . لقد عقد هذا المهرجان السياسي في حديقة عامة فكان الجمهور المكتظ يملأ المدى كله وكذلك الأشجار . من غصون الأشجار كانت تبرز سيقان ورؤوس . ليس من شيء مثل هؤلاء التشيليين المدربين على التسلق . أنا كنت أعرف المرشح . كنت قد رافقته ثلاث مرات سابقة ، وأنا أقذف الأشعار والخطب عبر أراضي تشيلي الوعرة اللامتناهية كلها . ثلاث مرات متعاقبة ، كل ست سنوات ، كان صاحبي الملحاح جداً يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية . هذه ستكون الرابعة والرابعة<sup>(١)</sup> .

يروي (أرنولد بينيت)<sup>(٢)</sup> أو (سومرست ماوغهام)<sup>(٣)</sup> (لا أذكر جيداً أي الاثنين) إنه ذات مرة كان عليه أن ينام (من يروي هذه القصة) في غرفة (وينستون تشرشل)<sup>(٤)</sup> نفسها . أول شيء عمله ذلك السياسي المهيب حين فتح عينيه هو أنه مد يده وتناول سيجاراً كوبياً كبيراً من على الطاولة الصغيرة التي كانت قرب السرير وبدأ بتدخين هذا السيجار . هذا لا يستطيع عمله إلا رجل المغاوير القوي الصحيح ذو الصحة المعدنية في العصر الحجري .

إن صمود (اينده) واحتماله وجلده كانت تدع مرافقيه جميعاً وراءه . كان له فن جدير (تشرشل) بأمر عينه . كان ينام حين يعن له النوم . أحياناً كنا نمضي عبر الأراضي القاحلة اللامتتهية في شمال تشيلي . (إلندي) كان ينام نوماً عميقاً في ركن من أركان السيارة . على حين غرة تبدو نقطة حمراء صغيرة في الطريق : حين تقترب تستحيل هذه النقطة إلى مجموعة مؤلفة من خمسة عشر رجلاً أو عشرين مع نسائهم وأطفالهم وراياتهم . تتوقف السيارة ، (اينده) يفرك جفنيه كي يواجه الشمس الشاقولية والمجموعة الصغيرة التي كانت تنشد ، يتحد معهم ينشدون معاً النشيد الوطني ، ثم يحدثهم حديث النشيط السريع الفصيح البليغ ثم يعود إلى السيارة فتتابع

(١) الرابعة والرابعة : التعبير الإسباني المعروف هو مثل التعبير العربي : الثالثة الغالبة .

(٢) أرنولد بينيت : كاتب إنجليزي (١٨٦٧-١٩٣١) .

(٣) سومرست ماوغهام : كاتب إنجليزي (١٨٧٤-١٩٦٥) .

(٤) وينستون تشرشل : هو السياسي الإنجليزي المعروف (١٨٧٤-١٩٦٥) .

متجولين عبر طرق تشيلي الطويلة جداً ، يعود (اليندي) فيغرق في نومه بدون أي جهد . كل خمس وعشرين دقيقة كان المشهد يُعاد : مجموعة ، رايات ، نشيد ، خطاب ، عودة إلى النوم وهكذا دواليك .

كان يقابل التظاهرات الهائلة المؤلفة من آلاف من التشيليين ، يبدل بالسيارة القطار وبالقطار الطائرة وبالطائرة الباخرة وبالباخرة الحصان ، فأتم (اينده) بلا تردد أشغال تلك الأشهر المضنية المنهكة . ومن خلفه كان أعضاء موكبه منهكين مرهقين . من بعد ، حين أصبح رئيساً فعلياً وشرعياً لتشيلي سببت فعاليته غير الرحيمة أربع أو خمس سكتات قلبية بين مساعديه ومعاونيه .

### سفارة في باريس؛

حين وصلت لأقوم بأعباء سفارتنا في باريس أدركت أن عليّ أن أدفع ضريبة ثقيلة إلى بطلاني . لقد وافقت على هذا المنصب دون أن أفكر في الأمر ملياً ، تاركاً نفسي لذبذبة الحياة . كان يطيب لي أن أمثل حكومة شعبية منتصرة توصلنا إليها بعد سنين طويلة من الصبر على حكومات غبية وكذابة . ربما أن الدافع الأكبر في أعماقي كان هو أن أدخل إلى دار السفارة التشيلية بباريس في كرامة جديدة ، فلطالما ذلت فيها حين كنت أنظم ترحيل الجمهوريين الأسبان باتجاه بلدي . كان كل واحد من السفراء السابقين قد ساهم في اضطهادي وتعذيبي ، كان كل واحد منهم قد شارك في إيذائي وجرح كرامتي . سيجلس المضطهد على كرسي المضطهد ، سيأكل على مائدته ، سينام على سريريه ، سيفتح النوافذ كي يدخل الهواء الجديد إلى بناء السفارة العتيق .

كان أصعب شيء هو جعل الهواء يدخل . لقد تسرب الأسلوب الصالوني الخانق إلى خياشمي وعينيّ حين وصلت و(ماتيلده) في تلك الليلة من آذار عام ١٩٧١ إلى غرفة النوم واضطجعنا على الفراش الفاخر ، حيث مات بعض السفراء وبعض السفيرات في هدوء أو في فزع .

إنها غرفة نوم صالحة لإيواء فارس وفرسه ، ثمة سعة كافية لكي يتغذى الفرس وينام الفارس . إن السقف عال جداً ومزين بشكل ناعم . أما الأثاث فهو عبارة عن أشياء مخملية ذات لون غامق مثل لون ورقة جافة ، مزخرفة بهدابات مرعبة ، ينم هذا الأثاث عن ثروة وانحطاط في الوقت نفسه . ربما أن الزرابي قبل ستين سنة كانت

جميلة لكنها الآن اتخذت لونا لا يقهر من حف ودعس ، ورائحة عث كرائحة  
أحاديث مجاملة ميتة .

كي يزيد الطين بلة فإن موظفي السفارة العصبيين كانوا قد فكروا في كل شيء  
إلا في تدفئة غرفة النوم العملاقة . قضينا ، أنا و(ماتيلده) ، أول ليلة دبلوماسية في  
باريس ونحن متشنجان متجمدان .

في الليلة التالية سرت التدفئة في الغرفة ، كان لهذه المدفأة المركزية ستون سنة  
من العمر ، وهي تستعمل وتستخدم فتعطلت فيها المصافي والمسام . لم يكن الهواء  
الساخن في هذا الجهاز العتيق يترك شيئاً يمر إلا اللامائي من حامض الكربون . لم  
يكن عندنا الحق في أن نشكو من البرد كما في الليلة السابقة لكننا كنا نشعر  
بالاختلاج والغم من جراء التسمم . كان علينا أن نفتح النوافذ كي يدخل البرد  
الشتائي . ربما أن السفراء القدماء كانوا بهذا ينتقمون من متسلق جاء ليحل محلهم  
دون أن تكون له مميزات بيروقراطية ولا مآثر سلالية وعائلية .

فكرنا : يجب علينا أن نبحث لنا عن منزل حيث نستطيع التنفس مع الأوراق ،  
مع الماء ، مع العصافير ، مع الهواء . هذا التفكير كان يتحول مع الزمن إلى هوس . مثل  
سجينين مورقين ينتظران إطلاق حريتهما كنا نبحث ونبحث عن الهواء النقي خارج  
باريس .

كوني أصبحت سفيراً كان شيئاً جديداً وغير مريح بالنسبة لي . لكن هذا  
المنصب كان يتضمن تحدياً . كانت قد نشأت في تشيلي ثورة ، ثورة على الطريقة  
التشيلية ، محللة جداً ومناقش فيها كثيراً . كان أعداء الداخل والخارج يسنون  
أسنانهم كي يقوضوها . لقد تعاقب خلال مائة وثمانين سنة على حكم بلدي الحكام  
أنفسهم ولو كانوا بعناوين مختلفة . فعل هؤلاء الحكام جميعهم الشيء نفسه .  
استمرت الأسمال ، المنازل غير اللائقة بالبشر ، الأطفال بدون مدارس ولا أحذية ،  
السجون وضربات الهراوي على رؤوس شعبي المسكين .

الآن نستطيع أن نتنفس وأن نغني . هذا هو ما كان يعجبني في وضعي الجديد .  
إن التعيينات الدبلوماسية في تشيلي تتطلب موافقة مجلس الشيوخ . كان  
اليمن التشيلي قد تملقني بشكل مستمر كوني شاعراً حتى إنه ألقى خطاباً على  
شرفي . إنه لواضح أنهم كانوا سيلقون هذه الخطب بسرور أكثر على لحدي وفي  
مأثمي . في تصويت مجلس الشيوخ لإبرام تعييني سفيراً أنقذت بأكثرية ثلاثة أصوات

لا غير . صوت شيوخ اليمين وبعض الشيوخ من المنافقين-المسيحيين<sup>(١)</sup> ضدي تحت سر الكريات البيضاء والسوداء .

كان السفير السابق قد غطى الحيطان بصور أسلافه في المنصب دون تمييز بالإضافة إلى صورته الشخصية . كانوا مجموعة هائلة من شخصيات فارغة ما عدا اثنين أو ثلاثة منهم ، من بين هؤلاء الشهير المجيد (بليست غانا)<sup>(٢)</sup> وهو يعتبر «بلزكانا» التشيلي الصغير . أمرت بإنزال الصور الطيفية واستبدلت بها أشكالاً أكثر صلابة : خمسة تماثيل منقوشة لأبطال منحوا تشيلي راية ، قومية ، استقلالاً ، وثلاث صور معاصرة : صورة (اغيره ثيردا) وكان رئيساً للجمهورية تقدماً ، صورة (لويس ايميليو ريكايرين) وهو مؤسس الحزب الشيوعي التشيلي ، وصورة (سالفادور أليندي) . أصبحت الحيطان أحسن وأفضل .

لست أدري ماذا كان يفكر به موظفو السفارة الديبلوماسية وهم في مجموعهم يمينيون . كانت الأحزاب الرجعية قد طوقت واحتوت إدارة البلاد خلال مائة سنة . لم يكن يعين أحد ولا حتى حاجب إن لم يكن محافظاً أو ملكياً . برهن الديموقراطيون المسيحيون الذين يطلقون على حزبهم اسم «ثورة في حرية» من جهتهم على شره وحب في التسلط مثل الرجعيين العتاق . من بعد ستتحذ المتوازيات إلى أن تصبح خطأ واحداً تقريباً . البيروقراطية ، أرخبيلات الأبنية العامة ، كل شيء ظل مليئاً بموظفين ، بمفتشين ، بمستشارين من اليمين . كما لو أنه ما انتصر (اليندي) والوحدة الشعبية أبداً في تشيلي ، كما لو أن وزراء الحكومة الآن ليسوا اشتراكيين وشيوعيين .

في مثل هذه الظروف طلبت أن يملأ منصب المستشار في سفارتنا بباريس بأحد أصدقائي ، وهو ديبلوماسي خريج المدرسة الديبلوماسية وكاتب ذو أهمية كبيرة ، ألا وهو (خورخه ادوارس)<sup>(٣)</sup> مع أنه ينتمي إلى أسرة من أكثر الأسر رجعية في بلدي ، فقد كان رجلاً يسارياً دون انتماء حزبي معين . إن ما كنت أحتاج إليه هو موظف ذكي يعرف مهنته ويكون أهلاً لثقتي . كان (ادوارس) حتى تلك اللحظة القائم

(١) المنافقون-المسيحيون (Hipocrita-Cristiano) : لاحظ التلاعب اللفظي مع (Democrata-

Cristianos) ، أي ، الديموقراطيون-المسيحيون .

(٢) بليست غانا Cuillermol : روائي وديبلوماسي تشيلي (١٨٣٠-١٩٢٢) .

(٣) خورخه ادوارس : كتب كتاباً هاجم فيه حكومة كوبا الثورية .



بأعمال سفارتنا في «لا هافانا» . كانت قد وصلت إليّ بعض الأخبار الغامضة عن بعض الصعوبات التي كان يلاقيها في كوبا . بما أنني كنت أعرفه على أنه رجل يساري خلال سنوات عديدة فلم أعط أهمية كبيرة لهذا الموضوع .

وصل مستشاري الفذ من كوبا عصبياً جداً وباح لي بحكايته . تكوّن لديّ الانطباع بأن الحق كان عند كلا الجانبين ولم يكن عند أي منهما ، كما يحدث أحياناً في الحياة . استعاد (خورخه ادواردس) شيئاً فشيئاً أعصابه الممزقة . فلم يعد يأكل أطافره وعمل معي بقدرة جلية وبذكاء ووفاء وإخلاص وجدارة . كان مستشاري هذا خلال تلك السنتين من العمل الصعب المرهق في السفارة ، أحسن زملائي ، وكان الموظف الوحيد في هذا المكتب الكبير الذي لم يكن فيه عيب من الناحية السياسية .

حين حاولت الشركة الأمريكية الشمالية فرض الحظر على النحاس التشيلي اجتاحت أوروبا بأسرها موجة من الغضب ، لم تكن الصحف والتلفزات والإذاعات هي وحدها من اهتم بهذا الموضوع بل دوفع عنا مرة أخرى بضمير شعبي كاسح .

عمال الموانئ في فرنسا وفي هولندا رفضوا تفرغ شحنات النحاس في موانئهم لكي يعلنوا عن سخطهم تجاه هذا العدوان . لقد هز هذا السلوك الرائع العالم كله . إن مثل هذه الحكايا التضامنية تعلم تاريخ زمننا هذا أكثر مما يمكن أن يعلمه أساتذة الجامعات .

أذكر أيضاً حالات أكثر تواضعاً مع أنها أكثر تأثيراً في القلوب . في اليوم التالي على الحظر أرسلت لنا سيدة فرنسية متواضعة من مدينة صغيرة في محافظة من محافظات فرنسا مائة فرنك ، ثمرة توفيراتها كي تساعد في الدفاع عن النحاس التشيلي . وكذلك رسالة تضامن حارة وقعها السكان جميعاً ورئيس البلدية وراهب الكنيسة والعمال والرياضيون والطلبة .

من تشيلي كانت تصلني رسائل من مئات الأصدقاء المعروفين وغير المعروفين تهنئني على مجابهتي للقراصنة الدوليين دفاعاً عن نحاسنا . لقد تلقيت وساماً أرسلته امرأة فلاحه يحتوي على قرعة وأربع من الكمثرى ونصف «دزينة» من فليفلة خضراء حادة .

في الوقت نفسه أصبح اسم تشيلي عظيماً رائعاً . لقد تحولنا إلى بلد يوجد ويفرض وجوده . قبل كنا نمر فلا نرى في مجموعة البلدان المتأخرة . الآن لأول مرة كانت لنا سيماء خاصة بنا ولم يكن في العالم من يجروّ على إنكار عظمة صراعنا في تشييد مصير قومي لنا .

إن كل ما كان يحدث في وطننا كان يشير عاطفة فرنسا بله أوروبا قاطبة . اجتماعات شعبية ، مؤتمرات طلابية ، كتب تنشر في اللغات كلها ، كانوا يتدارسوننا ، كانوا يفحصوننا ، كانوا يصفوننا . أنا كان عليّ أن أكبح الصحفيين الذين كانوا في كل يوم يريدون أن يعرفوا كل شيء وأكثر من كل شيء . أصبح الرئيس (الهندي) رجلاً عالمياً . إن ثبات طبقتنا العمالية كان مثاراً للإعجاب والثناء .

إن المودة المتقدمة نحو تشيلي قد تضاعفت بسبب المنازعات المتفرعة عن تأميم طبقات نحاسنا . لقد فهم الناس في أنحاء العالم كله أن هذا التأميم هو خطوة جبارة في سبيل استقلال تشيلي الجديد . لقد جعلت الحكومة الشعبية ، بدون أية موارد من أي صنف ، سيادتنا على نحاسنا من أجل وطننا نهائية حاسمة .

### الإياب إلى تشيلي؛

حين عدت إلى تشيلي استقبلني سندس جديد في الطرقات وفي الحدائق . كان ربيعنا الرائع قد جعل يرسم باللون الأخضر على أوراق الغابات . تحتاج عاصمتنا القديمة الرمادية إلى الأوراق الخضراء كما يحتاج قلب الإنسان إلى الحب . فتنشقت النسيم الندي من هذا الربيع الفتى . حين نكون بعيدين عن الوطن لا نذكر البتة فصول شتائه . إن البعاد يحو أسى الشتاء وذكرى القرى المهملة ومنظر الأطفال الحفاة في البرد . لا يأتي لنا فن التذكر إلا بالأرياف الخضراء والأزهار الصفراء والحمراء والسماء المزروقة التي يتغنى بها النشيد الوطني . هذه المرة شاهدت الفصل الجميل الذي كان من قبل رؤيا بعاد .

خضرة أخرى كانت تلتطخ جدران المدينة . كان طحلب الكراهية يغطيها . لافتات ضد كوبا ، لافتات ضد السوفييت ، لافتات ضد السلام والإنسانية ، لافتات ضد الشيوعية تقطر سفاهة وكذباً وبهتاناً ، لافتات سفاحة سفاكة أفাকে تتكهن بمذابح ومجازر و«جاكارتاس»<sup>(1)</sup> . هذه هي الخضرة الجديدة التي كانت توسخ جدران المدينة .

---

(1) جاكارتاس Yakartas : ج جاكارتا وهي عاصمة اندونيسيا ، وهو بهذا يشير إلى المذابح التي اقترفت ضد الثوريين الأندونيسيين على أثر الانقلاب العسكري اليميني العميل للامبريالية الأمريكية الذي أطاح بحكم (سوكارنو) .

أنا كنت أعرف بالتجربة لحن هذه الدعاية ومعناها . فلقد عشت في أوروبا السابقة على عهد (هتلر) . كان هذا هو روح الدعاية الهتلرية ، الإفراط في الكذب ، حرب صليبية من تهديد وذعر ، انتشار أسلحة الكراهية كلها ضد المستقبل . شعرت بأنهم يريدون تغيير جوهر حياتنا نفسه . ما كنت أقدر أن أفسر لنفسي كيف يمكن أن يوجد تشيليون يهينون بهذا الشكل روحنا القومية .

حين غدا الإرهاب ضرورياً بالنسبة لليمين الرجعي استخدم اليمين الإرهاب بلا تردد وبلا تأنيب ضمير . إن الجنرال (شنيدير) الذي كان القائد الأعلى للجيش ، وهو رجل محترم ومحترم عارض قيام انقلاب عسكري كان يهدف إلى منع تسلّم (اينده) سدة رئاسة الجمهورية فاغتالوه . مجموعة متنوعة من الأشرار الأثمين رشته بالرصاص في ظهره فهوى قتيلاً قرب داره . كان يقود العملية جنرال سابق طرد من صفوف الجيش . كانت هذه الحفنة مؤلفة من شرادم صغار ومن مجرمين محترفين .

بعد أن ثبتت الجريمة على هذا الجنرال الذي خطط للجريمة سجن وحكمت عليه المحكمة العسكرية بثلاثين سنة في الحبس ، ولكن الحكم خفض إلى سنتين من لدن محكمة العدل العليا . إن رجلاً فقيراً يسرق عن جوع دجاجة يلقي ضعف العقوبة التي أنزلت بمن اغتال القائد الأعلى للجيش . إنه التطبيق الطبقي للقوانين التي سنتها وشرعتها الطبقة المسيطرة .

إن انتصار (اينده) قد سبب لهذه الطبقة المسيطرة ذعراً ممتاً . لأول مرة فكروا في أن القوانين التي فبركوها في حيطة وحذر قد تضربهم على رؤوسهم . هزلوا بأسهمهم المالية وبجواهرهم وجليهم وعمالاتهم الصعبة إلى الالتجاء في جهة من الجهات . ذهبوا مع ذهبهم إلى الأرجنتين ، إلى إسبانيا حتى إنهم وصلوا إلى أستراليا . إن خوفهم من الشعب قد جعلهم يصلون في سهولة إلى القطب الشمالي . من بعد سيعودون .

(فريي(Frei)<sup>(١)</sup>؛

إن الطريق التشيلي المحدد من كل جهة بعراقيل جهنمية شرعية كان في كل

---

(١) فريي Eduardo : كان رئيساً للجمهورية التشيلية منع عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٦٥ ، ومن هذا العام إلى عام ١٩٧٠ ، أي إلى أن تولى (اليندي) مقاليد الأمور في تشيلي .

لحظة دستورياً ضيقاً . أثناء ذلك أصلحت طبقة الأقلية الحاكمة من ثوبها المهلهل الممزق وتحولت إلى عصابة فاشية . إن الحصار الذي فرضته الولايات المتحدة على تشيلي إثر تأميم النحاس أمسى أكثر تعنتاً وظلماً . لقد رمت L.T.T بالاتفاق مع الرئيس السابق (فريبي) الديمقراطية المسيحية في أحضان اليمين الفاشي الجديد .

لقد شغلت شخصيتا (البندي) و(فريبي) المتناقضان المتنافرتان شعب تشيلي على الدوام . ربما يعود ذلك إلى هذا التباين في ما بينهما فهما رجلان جد مختلفين ، زعيمان على طريقتهما الخاصة بكل منهما في بلد بدون زعامة ، كل واحد منهما له أهدافه وطريقه المحدد جداً .

أعتقد أنني أعرف معرفة جيدة الرئيس (اينده) ، لم يكن فيه أي شيء مبهم معمي . أما بالنسبة لـ(فريبي) فقد كنت زميله في مجلس الشيوخ . هو رجل غريب الأطوار ، متبصر جداً ، بعيد جداً عن العفوية الأليندية . مع ذلك ينفجر بشكل مألوف في ضحكات عنيفة في قهقهات تصرّ الأذان . بالنسبة لي فإنه يعجبني الناس الذين يضحكون مقهقهين (أنا ليست لي هذه المهوبة) . لكن ثمة قهقهات وقهقهات . قهقهات (فريبي) تخرج من وجه مهموم ، جاد ، يراقب خرم الإبرة التي يخيط بها خيطه السياسي الحيوي . إنها للضحكة مفاجئة تذهل شيئاً ما كما نعيب بعض الطيور الليلية . أما من جهة أخرى فإن سلوكه يكون عادة رصيناً وودوداً بشكل بارد .

إن تعرجاته السياسية كانت تحبب عزائمي إلى أن أياستني منه تماماً . أذكر أنه جاء ذات مرة ليراني في داري بـ«سانتياغو» . كانت تطفو في ذلك الحين فكرة تفاهم بين الشيوعيين والديموقراطيين المسيحيين . هؤلاء ما كانوا آنذاك يُسمون هكذا بل كانوا ما يزالون يحتفظون باسم «فلانخه ناثيونال»<sup>(١)</sup> Falange Nacional وهو اسم فظيع تبنيه تحت التأثير الذي أحدثه فيهم الشاب الفاشي (بريمو دي ريبيرا) ، من بعد ، حين انقضت الحرب الإسبانية ، أثر فيهم (ماريتاين)<sup>(٢)</sup> وأصبحوا معادين للفاشية وغيروا الاسم .

كان حديثي معه غامضاً ولكنه كان ودياً . بالنسبة لنا نحن الشيوعيين كان يهمننا التفاهم مع جميع الناس والجهات ذات النية الطيبة ، إن كنا منعزلين لن نصل إلى

(١) فلانخه ناثيونال : معناها ، الكتائب الوطنية .

(٢) ماريتاين Jacques : فيلسوف فرنسي ، ولد عام ١٨٨٢ .

أية جهة . أكد لي (فيريني) داخل مراوغته الطبيعية يسارته الظاهرية لذلك الوقت . ودعني وهو يهدي إليّ واحدة من هذه القهقهات التي تتساقط من فمه كالأحجار . «سنوات الحديث» ، قال ، لكن بعد يومين أدركت أن حديثنا قد انتهى إلى الأبد . بعد انتصار (اينده) خلق (فريي) وهو السياسي الطموح البارد حلقاً رجعيّاً له لكي يعود إلى السلطة . لقد كان مجرد حلم العنكبوت السياسي المجدد . نسيجه لن يدوم ، لن يفيد في شيء الانقلاب العسكري الذي استهواه . إن الفاشية لا تسمح بالتعاقدات بل تطلب امتثالاً وخضوعاً . إن شخص (فريي) سيصبح في كل عام أكثر عتمة وسيكون عليه أن يجابه ذات يوم مسؤولية الجريمة .

### (توميك Tomic) :

لقد اهتمت بالحزب الديمقراطي-المسيحي منذ ولادته ، منذ أن هجر اسمه المنكر اسم «فلانخه» . لقد نشأ هذا الحزب حين شكلت مجموعة قليلة من المفكرين الكاثوليك حلقة «ماريتانية» و«تومية»<sup>(١)</sup> . لم أهتم بهذا التفكير الفلسفي إذ إن لي لا مبالاة طبيعية تجاه منظري الشعر والسياسة والجنس . لقد تجلّت النتائج العملية لهذه الحركة الصغيرة بشكل فريد غير متوقع . توصلت إلى أن أجعل بعض القادة الشبان في هذه الحركة يتكلمون لصالح الجمهورية الإسبانية في مهرجانات سياسية كبيرة نظمتها بعد عودتي من مدريد المناضلة . لقد كانت هذه المشاركة غير عادية إلى درجة أن الزعامة الدينية الإكليريكية العتيقة كانت على وشك أن تحل الحزب الجديد يدفعها إلى ذلك الحزب المحافظ . لن ينقذهم من الانتحار السياسي سوى تدخل أسقف رائد . إن بيان أسقف «تالكا» Talca أنقذ حياة هذه المجموعة التي أصبحت مع الزمن أكثر الأحزاب السياسية عدداً في تشيلي . تغيرت عقيدته مع مضي السنين بشكل كامل .

لقد كان الرجل الأهم بين المسيحيين الديمقراطيين بعد (فريي) هو (رادوميرو توميك) . عرفته أثناء فترتي البرلمانية ، وسط الإضرابات والحلوات الانتخابية في شمال تشيلي . لقد كان الديمقراطيون المسيحيون أذكّ يطاردوننا (أقصد الشيوعيين) ليشاركوا في مهرجاناتنا السياسية . نحن كنا (وما زلنا) أكثر الناس شعبية في

(١) تومية : نسبة إلى مذهب (توما الأكويني) في الفلسفة .

صحراء ملح البارود والنحاس ، أي ، بين أكثر الكادحين تضحية في القارة الأمريكية . من هناك كان قد خرج (ريكابازين) ، هناك كانت قد ولدت الصحافة العمالية وأوائل النقابات ، لولا الشيوعيون ما كان وجد شيء من هذا كله .

لم يكن (توميك) في تلك الفترة أمل الديموقراطيين المسيحيين فحسب ، بل كان كذلك شخصيتهم الجذابة جداً وكلمتهم الفصيحة جداً .

كانت الأشياء قد تغيرت كثيراً في عام ١٩٦٤ حين رحبت الديموقراطية المسيحية الانتخابات التي رفعت (فريبي) إلى سدة رئاسة الجمهورية . إن حملة المرشح الذي فاز على (ايننده) قد قامت فوق قاعدة من العنف ضد الشيوعية لم يسبق لها نظير ، منظمة بألحان صحفية وإذاعية كانت تهدف إلى إرهاب السكان . كانت تلك الدعاية توقف شعر الرأس : الراهبات سيعدمن! الأطفال سيمثل فيهم بالحراب الملتحون الشبهون بكاسترو! الطفلات الصغيرات سيؤخذن عنوة عن آبائهم وأمهاتهم ليرسلن إلى سيبيريا! عُرف في ما بعد من تصريحات أدلت بها لجنة التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ في الولايات المتحدة أن إدارة C.I.A أنفقت عشرين مليون دولار في تلك الحملة الإرهابية .

بعد أن نُصّب (فريبي) رئيساً للجمهورية ، صنع حاضراً يونانياً لمنافسة الكبير الوحيد في الحزب : عين (رادوميرو توميك) سفيراً لتشيلي في الولايات المتحدة . كان (فريبي) يعرف أن حكومته ستعيد النظر في الاتفاقيات المعقودة مع شركات النحاس الأمريكية الشمالية . ففي تلك اللحظة كان البلد كله يطالب بتأميم النحاس . استبدل (فريبي) بصفته خبيراً مشعوذاً ، بعبارة التأميم كلمة «تشيليل النحاس»<sup>(١)</sup> فأبرم باتفاقيات جديدة موضوع تسليم ثروتنا الوطنية الرئيسية إلى الشركتين الطائنتين «كينوكوت» و«أناكوندا كويبر كومباني» كانت النتيجة الاقتصادية لتشيلي مريعة جداً . النتيجة السياسية بالنسبة لـ(توميك) . كانت حزينة جداً : فلقد محاه (فريبي) من الخراطة . إن سفيراً لتشيلي في الولايات المتحدة يساهم في تسليم النحاس للشركات الأجنبية لن يدعمه الشعب التشيلي مطلقاً . لذلك جاء (توميك) في الانتخابات الرئاسية الثالثة من بين ثلاثة مرشحين .

بعد قليل من تخليه عن منصبه سفيراً لتشيلي في الولايات المتحدة جاء

---

(١) تشيليل النحاس : أي جعله تشيلياً .

(توميك) في مطلع عام ١٩٧١ ليراني في «إيسلا نيغرا». كان حديث الوصول من الشمال وفي ذلك الوقت لما يكن بعد قد رشح نفسه رسمياً للرئاسة ، لقد حافظنا على صداقتنا وسط الاضطرابات السياسية وما زلنا نحافظ عليها حتى الآن . لكننا في صعوبة تفاهمنا هذه المرة ، هو كان يريد إجراء تحالف أوسع بين القوى التقدمية بدلاً من حركتنا حركة الوحدة الشعبية تحت اسم اتحاد الشعب . إن مثل هذا الاقتراح كان مستحيل التحقيق ، فمشاركته في المفاوضات النحاسية لا تؤهل ترشيحه أمام اليسار السياسي ، أضف إلى هذا أن الحزبين الأساسيين الكبيرين في الحركة الشعبية : الشيوعي والاشتراكي كانا قد بلغا سن الرشد وعلى قدرة كافية لكي يوصلا إلى سدة الرئاسة واحداً من صفوفهما .

قبل أن يذهب من داري ، وقد كان يائساً ، باح لي (تويك) بأمر مهم . وزير المالية الديموقراطي المسيحي (اندريس ثالديبار) أطلعه بالوثائق على إفلاس الواقع الاقتصادي في البلد آنذاك .

- نحن نمضي على الهاوية -قال لي (توميك)- . إن الوضع لا يسمح بأكثر من أربعة أشهر . إنها لمصيبة . لقد زدوني (ثالديبار) بكل التفاصيل عن إفلاسنا الذي لا مفر منه .

بعد شهر من انتخاب (ايننده) وقبل أن يتولى رئاسة الجمهورية رسمياً أعلن (ثالديبار) على الملأ أن مصيبة البلد الاقتصادية مشرفة على الوقوع ، لكنه عزاها هذه المرة إلى ردود الفعل الدولية التي أثارها انتخاب (أليندي) هكذا يكتب التاريخ . على الأقل هكذا يكتبه السياسيون الملتون الانتهازيون من أمثال (ثالديبار) .

(ايننده Allende)؛

كان شعبي أكثر شعب عُدر به في هذا الزمن . لقد نشأت من صحاري ملح البارود ، من مناجم الفحم تحت البحرية ، من المرتفعات الرهيبية حيث يرقد النحاس وتستخرجه أيدي شعبي بأعمال غير إنسانية ، نشأت حركة تحريرية ذات أهمية كبيرة . هذه الحركة حملت إلى رئاسة الجمهورية في تشيلي رجلاً يدعى (سالفادور ايننده) لكي يقوم بإجراء إصلاحات وتأدية مهام عادلة لا يمكن تأجيلها ، حتى ينقذ ثروتنا القومية من الخالب الأجنبية . حيث حل ونزل ، في أكثر الأقطار بعداً عن بلدنا ، أعجبت الشعوب بالرئيس (ايننده) وأثنت على جبهة حكومتنا الائتلافية

الرائعة . أبداً في تاريخ مقر هيئة الأمم المتحدة بنيويورك ما سمع تصفيق حاد كالذي قابل به مندوبو العالم كله رئيسنا . هنا ، في تشيلي ، كان يشاد ، بين صعوبات جمّة ، مجتمع عادل بشكل حقيقي ، يقام على قاعدة سيادتنا ، على أسس كرامتنا القومية ، على دعامة بطولة أحسن سكان تشيلي . كان إلى جانبنا ، إلى جانب الثورة التشيلية ، الدستور والقانون ، الديمقراطية والأمل .

لم يكن ينقص الجانب الآخر شيء من الأشياء . كان لهم مهرجون ومشعرون ، سحرة مدربون ، إرهابيون ، حملة مسدسات وسلاسل حديدية ، رهبان مزيفون وعساكر مخلوعون حقيرون . هؤلاء وأولئك كانوا يدورون ويلفون في «كاروسيل»<sup>(١)</sup> المكتب . كانوا يروحون يداً بيد مع الفاشي (خاربا Jarpa) وبنيه «وطن وحرية»<sup>(٢)</sup> مستعدين لكسر رأس كل ما يوجد وإزهاق روح كل من يوجد بغرض استرداد الحانوت الكبير الذي كانوا يسمونه : «تشيلي» . بجانبهم لكي يحيي سهرة هذه الفرقة المتجولة ، كان يرقص راقص مصرفي كبير ، شيء ملوث بالدماء ، وبطل رقصة «الرومبا» هذا هو (غونثاليث بيديلا) الذي سلم وهو «برومي» ، حزبه منذ زمن طويل إلى أعداء الشعب . الآن كان (فريي) هو من يعرض حزبه الديمقراطي المسيحي على أعداء الشعب أنفسهم ، فكان يرقص على الوقع الذي يعزفه هؤلاء له ، وكان يرقص كذلك مع العقيد السابق (بياكوس) الذي شاركه في فعلته . هؤلاء كانوا الفنانين الرئيسيين في المهزلة . كانوا قد أعدوا وهياؤا مؤن الاحتكار : «المجيبين»<sup>(٣)</sup> ، أدوات السحل ، الرصاصات التي بالأمس أماتت شعبنا في «اكيكه» ، في «رانكين» ، في «سالفادور» ، في «بورتو مونت» ، في «لا خوسه ماريا كارو» ، في «فروتيار» ، في «بوينته التو» ، وفي عدة أماكن أخرى . إن مغتالي (هرنان ميري) كانوا يرقصون مع الذين كان من المفروض أن يدافعوا عن ذكراه على الأقل . كانوا يرقصون رقصاً طبيعياً بشكل منافق . كانوا يشعرون بالإهانة أن عوتبوا على هذه «الأشياء الصغيرة» .

إن لتشييلي تاريخاً مدنياً طويلاً بقليل من الثورات وكثير من الحكومات الثابتة

---

(١) كاروسيل Carrousel : هي كلمة فرنسية معناها ، أرجوحة الخيل ، حيث عدة فرسان يؤدون حركات

تبهير الأناظر ، وهي بمعنى التهريج .

(٢) وطن وحرية : شعار الحزب .

(٣) المجيبون Miguelitos : كل من يسمى بـ(ميجيل) وهو هنا بالتصغير للتحقير .



وهي حكومات محافظة وقليلة الشأن . رؤساء صغار كثيرون ما عدا اثنين كانا رئيسين كبيرين وهما (بالمائيدا)<sup>(١)</sup> و(اينده) .

وما هو غريب حقاً أن كليهما ينحدر من الوسط نفسه ، من البورجوازية المثرية التي تسمي نفسها هنا بالأرستوقراطية . بما أنهما كانا رجلي مبادئ وهبا نفسيهما في سبيل إعلاء شأن بلد جعلته الطبقة الحاكمة الغبية قليل الشأن ، فقد قيّدا إلى الموت بالطريقة نفسها . أجبِر (بالمائيدا) على الانتحار لأنه قاوم ضد منح ثروتنا من ملح البارود إلى الشركات الأجنبية .

(اينده) اغتيل لأنه أمم الثروة الأخرى المخترنة في جوف أرض تشيلي وهي النحاس . وفي كلتا الحالتين قامت الأقلية التشيلية بثورات دامية ، وفي كلتا الحالتين تحول العساكر إلى كلاب صيد لهذه الطبقة المستغلة . الشركات الإنجليزية في عهد (بالمائيدا) والشركات الأمريكية في عهد (اينده) حرصت على هذه الانتفاضات العسكرية وأنفقت عليها الأموال .

وفي كلتا الحالتين نُهب منزل الرئيس بأمر من «أرستوقراطيتنا» المبجلة . قاعات منزل (بالمائيدا) قوضت بضربات الفؤوس . أما منزل (اينده) ، فبفضل تقدم العالم ، قصفه من الجو طيارونا البواسل .

غير أن هذين الرجلين كان يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً . كان (بالمائيدا) خطيباً أسراً . كانت له طبيعة تحب السيطرة أخذت تقربه أكثر فأكثر من الحكم الفردي . كان أكيداً من سمو مقاصده . في كل لحظة كان يرى أنه محاط بالأعداء . لقد كان تفوقه على الوسط الذي كان يعيش فيه كبيراً جداً وكذلك غدت وحدته كبيرة جداً فأدت به إلى الانطواء على نفسه . أما الشعب الذي كان من المفروض أن يدعمه فلم يكن حينذاك يوجد كقوة ، أي ، لم يكن منظماً . لقد كان مصير ذاك الرئيس أن يصبح إشعاعاً ، أن يظل حاملاً : إن حلمه بالعظمة بقي حلاماً . بعد اغتياله تملك التجار الأجانب الجشعون والبرلمانيون «الكريويون» ملح البارود . للأجانب الملكية والامتياز و«اللكروييين» المومسات . بعد أن تقاضوا أجرهم عادت الأمور إلى مجاريها وجفت دماء آلاف الرجال من أبناء الشعب الذين سقطوا في ميادين المعركة . فلم يتوقف عمال شمال تشيلي وهم أكثر طبقة مستغلة في العالم ، منذ ذلك الحين عن

(١) بالمائيدا Jose' Manuel : هو محام وسياسي تشيلي (١٨٣٨-١٨٩١) .

إنتاج كميات هائلة من الليرات الإسترلينية في سبيل «لندن سيتي» .  
لم يكن (اينده) خطيباً بارزاً أبداً . أما بصفته سياسياً فقد كان حاكماً يستشير  
قبل اتخاذ أي إجراء ، لقد كان عدواً للديكتاتورية وكان ديموقراطياً مبدئياً حتى في  
الجزئيات الضئيلة ، فلقد حالفه الحظ إذ وجد بدل شعب (بالمائيدا) الغر طبقة عمالية  
قوية كانت تعرف كل شيء . لقد كان هذا الرجل ، مع أنه لم يخرج من بين صفوف  
الطبقة العاملة ، نتاج نضال هذه الطبقات ضد الجمود وفساد الطبقة المستغلة . لهذه  
العوامل والأسباب كان ما حققه (اينده) خلال هذه الفترة القصيرة أكثر بكثير مما  
حققه (بالمائيدا) بل هو أعظم ما حقق على مدى تاريخ تشيلي كله . إن تأمين  
النحاس وحده كان عملاً جباراً بالإضافة إلى مشاريع أخرى تمت في عهد حكومته  
ذات الطبيعة الجماعية .

إن أعمال (اينده) وآثاره ذات القيمة القومية التي لا تحصى أغضبت أعداء  
حريتنا ، والرمز المأساوي لهذه الأزمة ينم عنه قصف القصر الرئاسي . إن المرء ليتذكر  
la Blitz Krieg للطيران النازي في قصف مدن آمنة عزلاء ، مدن إسبانية وإنجليزية  
وروسية ، الآن كانت الجريمة نفسها تحدث في تشيلي إذ أن طيارين تشيليين نهشوا  
وانقضوا على القصر الذي كان خلال قرنين من الزمن مركز الحياة المدنية في البلاد .

إنني أكتب هذه السطور العاجلة في مذكراتي بعد انقضاء ثلاثة أيام فقط على تلك  
الأحداث التي لا يمكن نعتها ، والتي أدت إلى موت صاحبي ورفيقي العظيم الرئيس  
(اينده) . لقد أحاطوا اغتياله بجدار من الصمت ودفنوه سرّاً ولم يسمحوا إلا لأرملته  
بأن ترافق ذاك الجثمان الذي لا يموت . إن رواية المعتدين هي أنهم وجدوه جثة هامدة  
بأدلة بيّنة على أنه انتحر . أما الرواية التي انتشرت في الخارج فهي مختلفة إذ إنه بعد  
القصف الجوي اقتحمت الدبابات ، الدبابات الكثيرة ، لتقاتل في بسالة رجلاً وحيداً  
فرداً : ألا وهو رئيس جمهورية تشيلي (سلفادور أليندي) الذي كان ينتظرهم في  
مكتبه دون أن يكون له من رفيق غير قلبه العظيم ، وقد أحيط بالدخان والنيران .

لقد كان لهم أن ينتهزوا هذه الفرصة النادرة ، كان لا بد من إفراغ الرصاص من  
الرشاشات في جسده فهو لن يتخلى أبداً عن منصبه . فدفن ذاك الجسد سرّاً في  
مكان ما . لقد مضى ذاك الجثمان إلى اللحد لا يصاحبه إلا امرأة واحدة وحيدة تحمل  
في نفسها ألم العالم كله ، إن تلك الشخصية المجيدة الميتة كانت غمضي وهي مخرقة  
برصاص رشاشات عساكر تشيلي الذين خانوا تشيلي مرة أخرى .

## نيرودا - حياته وأعماله

- ١٩٠٤ - ١٢ تموز: يولد نيفتالي ريبس باسواتو (بابلو نيرودا) في قرية «العريشة» بتشيلي .
- أب: تموت أمه ، وقد ترك موتها في نفسه أثراً يظهر في شعره وفي حياته .
- ١٩٠٦ - ينتقل والده إلى بلدة «تيموكو» ليعمل سائق قطار في السكك الحديدية . فيأخذ الطفل معه إلى هذه البلدة ، حيث يعود الأب ليتزوج من جديد .
- ١٩١٠ - ينتسب إلى معهد هذه البلدة إلى أن ينهي دراسته الثانوية - قسم الآداب .
- ١٩١٧ - ١٨ تموز: ينشر في إحدى صحف هذه البلدة أول محاولة أدبية له ، وهي مقالة بعنوان «حماسة ومثابرة» موقعة باسمه الحقيقي .
- ١٩١٨ - ٣٠ تشرين الثاني: ينشر في مجلة كانت تصدر في العاصمة «سانتياغو» أول قصيدة له عنوانها «عيناي» .
- تظهر له في هذه السنة ثلاث قصائد منشورة في المجلة نفسها بالإضافة إلى قصائد أخرى نشرت في مجلات طلابية أدبية .
- ١٩١٩ - يبدأ بنشر قصائده تحت عدة أسماء مستعارة .
- يشترك في مسابقة شعرية فيحصل على الجائزة الثالثة عن قصيدة له بعنوان «ليلي مثالي» .
- ١٩٢٠ - تشرين الأول: يتخذ له نهائياً اسماً مستعاراً ، وهو الاسم الذي عرف به حتى إنه طغى على اسمه الحقيقي ومحاه كلياً ، وسبب اتخاذ هذا الاسم (بابلو نيرودا) يعود إلى إعجابه الفائق بالشاعر والكاتب القصصي التشيكوسلوفاكي (جان نيرودا) الذي عاش في براغ ما بين عام ١٨٣٤ و عام ١٨٩١ .
- ٢٨ تشرين الثاني: يحصل على الجائزة الأولى من لجنة مهرجان الربيع ببلدة تيموكو .
- يعين رئيساً للنادي الأدبي في هذه البلدة وينتخب نائب الأمين العام لجمعية الطلبة في هذه المنطقة .
- يعد ديوانين للنشر ولكنه لا ينشرهما بل يختار بضع قصائد منهما لينشرها في أول ديوان له «شفقيات» .
- ١٩٢١ - ينتقل إلى العاصمة سانتياغو لينتسب إلى معهد يعدّه ليصبح مدرساً للغة الفرنسية .
- ١٤ تشرين الأول: يحصل على الجائزة الأولى في مسابقة أعدها اتحاد الطلبة بتشيلي عن قصيدته «أغنية المهرجان» .
- ١٩٢٢ - تشرين الأول: تنشر مجلة «الأزمان» عدداً خاصاً عن شعر تشيلي الجديد ، وتعتبر (بابلو نيرودا) شاعر المستقبل وأحسن من يمثل هذا الشعر الجديد .

- ١٩٢٣ - أب : يظهر أول ديوان له تحت عنوان «الشفقيات» .
- ١٩٢٤ - حزيران : ينشر ديوانه الثاني «عشرون قصيدة حب وأغنية (بالرفع) يائسة» . .
- ١٩٢٥ - ينشر قصيدة طويلة في كتاب مستقل بعنوان «محاولة الإنسان اللانهائي» .  
يتراس تحرير إحدى المجلات الأدبية ويساهم في مجلات عديدة .
- ١٩٢٦ - ينشر كتاب «خواتم» وهو نشر فني ، اشترك معه في هذا الكتاب الأديب الكاتب ، مواطنه ، (توماس لاغو) . ينشر رواية له بعنوان «القاطن وأمله» . يبدأ بترجمة العديد من الكتاب والشعراء الفرنسيين كان قد ترجم - من قبل عن الفرنسية - ولكن هذه الترجمات لم تلق النجاح الذي أخذت تلقاه ترجماته الجديدة .
- ١٩٢٧ - يعين قنصلاً فخرياً في «رانغون» (بيرمانيا) .  
في طريقه إلى رانغون يزور ليشبونيه ومدريد وباريس ومارسيليا .
- ١٩٢٨ - يعين قنصلاً في «كولومبو» (سيلان) .
- ١٩٢٩ - يحضر في كالكوتا بالهند مؤتمراً من أجل استقلال الهند .
- ١٩٣٠ - يعين قنصلاً في باتابيا (جوه ، اندونيسيا) .
- ٦ تشرين الثاني : يتزوج من (ماريا Maria) التي التقى بها في «جاوه» .
- ١٩٣١ - يعين قنصلاً في سينغابور .
- ١٩٣٢ - يعود إلى تشيلي بحراً .
- ١٩٣٣ - ٢٤ كانون الثاني : ينشر ديوانه «حامل المقلاع المتحمس»  
نيسان : ينشر الجزء الأول من ديوانه الرائع «إقامة في الأرض» ، يضمه مجموعة من القصائد كتبها ما بين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٣١ .
- ٢٨ أب : يصل إلى «بونوس ايرس» عاصمة الأرجنتين ليستلم منصبه قنصلاً عاماً فيها .
- ١٣ تشرين الأول : يتعرف على الشاعر الإسباني الخالد (فيدريكو غارثيا لوركا) الذي كان يزور الأرجنتين .
- ١٩٣٤ - ٥ أيار : يسافر إلى برشلونة بإسبانيا لاستلام منصبه قنصلاً فيها .
- ٤ تشرين الأول : تولد في مدريد ابنته (مالبا ماريا) .
- ٦ كانون الأول : يقدمه (لوركا) لطلبة جامعة مدريد في مهرجان تكريمي له حيث ينشد مختارات من شعره .
- ١٩٣٥ - ٣ شباط : ينتقل من برشلونة إلى مدريد قنصلاً عاماً في العاصمة الإسبانية .
- ١٥ أيلول : يظهر الجزء الأول والثاني من ديوانه «إقامة في الأرض» (١٩٢٥-١٩٣٥) .
- تشرين الأول : يظهر العدد الأول من مجلة «حصان أخضر من أجل الشعر» برئاسة تحرير (بابلو نيرودا) .

١٩٣٦ - ١٨ تموز : تنشب الحرب الأهلية في إسبانيا ويقتل صديقه (لوركا) .

يعزل من منصبه .

يسافر إلى باريس .

يصدر مجلة «شعراء العالم يدافعون عن الشعب الإسباني» .

ينفصل عن زوجته التي عاش معها تعبساً غير سعيد .

١٩٣٧ - شباط : يلقي في باريس محاضرة عن (لوركا) .

١٠ تشرين الأول : يعود إلى تشيلي .

٧ تشرين الثاني : يؤسس ويرأس «حلف مثقفي تشيلي من أجل الدفاع عن الثقافة» .

١٣ تشرين الثاني : ينشر ديوانه «إسبانيا في القلب» .

١٩٣٨ - ٧ أيار : يموت والده في تيموكو . ولم يكن (نيرودا) يشعر نحوه بأية محبة .

أب : يرأس تحرير مجلة «فجر تشيلي» .

١٩٣٩ - يسافر إلى فرنسا .

١٩٤٠ - ٢ كانون الثاني : يعود إلى تشيلي .

١٦ آب : يصل إلى المكسيك حيث عين قنصلاً عاماً .

١٩٤١ - يسافر إلى غواتيمالا .

١٩٤٢ - نيسان : يسافر إلى كوبا .

٣٠ أيلول : ينشر قصيدته «نشيد حب إلى ستالينغراد» .

تموت ابنته في أوروبا وهي مريضة بشلل الأطفال منذ ولادتها ، ولم يرزق بغيرها .

١٩٤٣ - يسافر إلى الولايات المتحدة .

١ أيلول : يشرع بالعودة إلى تشيلي ماراً بالعديد من الأقطار الأمريكية اللاتينية حيث يلقي

الترحيب وحسن الاستقبال إلى أن يبلغ سانتياغو في ٣ تشرين الثاني .

يتزوج للمرة الثانية في المكسيك بامرأة تكبره بخمس عشر سنة : كان قد التقى بها في مدريد

وتدعى (ديليا Delia) وهي رسامة أرجنتينية أثرت فيه عقائدياً وجعلته ينحو منحى جديداً

في حياته .

١٩٤٤ - يحصل على جائزة المجلس البلدي لمدينة سانتياغو .

١٩٤٥ - ٤ آذار : ينتخب نائباً في البرلمان .

يحصل على الجائزة القومية للأدب .

٨ تموز : ينتسب إلى الحزب الشيوعي التشيلي .

١ آب : يشرع السفر لیتجول في بعض أقطار أمريكا الجنوبية حيث ينشد قصائده ويلقي

محاضرات عديدة .

- أيلول : يكتب ملحمة الرائعة عن جبال «البيرو» تحت عنوان «مرتفعات ماكتشو-بيكتشو» .
- ١٩٤٦ - ٢٨ أيلول : يصدر حكم قضائي يعلن أن اسمه الرسمي قد أصبح (بابلو نيرودا) .
- ١٩٤٧ - يصدر ديوانه الكبير «إقامة الثالثة» ، ويضمنه كتباً صغيرة كان قد نشرها من قبل مثل «إسبانيا في القلب» .
- ١٩٤٨ - يصدر الأمر باعتقاله بعد عزله من مجلس النواب فيختفي عن أنظار رجال الأمن .
- ١٩٤٩ - ٢٤ شباط : يخرج هارباً من تشيلي عبر الجبال .
- ٢٥ نيسان : يحضر المؤتمر العالمي الأول لأنصار السلام وبذلك يظهر لأول مرة بعد طول اختفاء ، ويعين عضواً في المجلس العالمي للسلام .
- يسافر إلى الاتحاد السوفييتي لأول مرة حيث يحضر الذكرى المائة والخمسين لبوشكين .
- ٢٧ حزيران : يجري له أدباء الاتحاد السوفييتي حفلة تكريم يحضرها أدباء من جميع أنحاء العالم .
- تموز : يزور بولونيا وهنغاريا .
- أب : يسافر إلى المكسيك حيث يمرض فيبقى فيها إلى نهاية العام تحت المعالجة .
- ١٩٥٠ - ينشر في المكسيك ديوانه الضخم «النشيد العام» . يسافر إلى غواتيمالا .
- حزيران : يسافر إلى براغ ثم إلى باريس .
- يسافر إلى روما ثم إلى نيولهي حيث يلتقي بنهرو .
- تشرين الثاني : يحضر في فارصوفيا المؤتمر الثاني لأنصار السلام .
- ٢٢ تشرين الثاني : يمنح جائزة السلام العالمي .
- يدعى لزيارة تشيكوسلوفاكيا فيليب الدعوة ويقضي في أحد قصورها فترة من الزمن .
- ١٩٥١ - يذهب إلى إيطاليا فيتنقل في أنحاءها منشداً شعره أو مشرفاً على ترجمات كتبه .
- أب : يحضر في برلين مهرجان الشباب العالمي الثالث .
- يذهب بالقطار إلى جمهورية منغوليا الشعبية .
- يزور الصين الشعبية .
- ١٩٥٢ - يقيم في إيطاليا .
- ينشر ديوان «أشعار القبطان» .
- ١٢ أب : يعود إلى تشيلي فتجري له حفلات استقبال كثيرة .
- كانون الأول : يسافر إلى الاتحاد السوفييتي بصفته عضواً في لجنة جائزة السلام العالمية .
- ١٩٥٣ - ٢٢ كانون الثاني : يعود إلى تشيلي .
- ٢٠ كانون الأول : يستلم جائزة ستالين للسلام .
- ١٩٥٤ - تموز : ينشر ديوانه «أناشيد بدائية» .
- تموز : ينشر ديواناً آخر بعنوان «الأعقاب والريح» .

- ١٩٥٥ - يفصل عن زوجته الثانية التي لم يكن يحبها بل كان يعجب بها وثقافتها الواسعة . يتزوج للمرة الثالثة والأخيرة بماتيلده Matilde التي أحبها كثيراً وتغنى بها في كثير من قصائده .
- ينشر كتابه «أسفار» Viajes وهو كتاب نثر يحكي فيه عن مشاهداته في رحلاته .
- ١٩٥٦ - كانون الثاني : ينشر ديوانه الجديد «أناشيد بدائية جديدة» .
- ١٩٥٧ - يختار رئيساً لجمعية الكتاب في تشيلي .
- ١٨ كانون الأول : ينشر ديوانه «كتاب ثالث للأناشيد» .
- ١٩٥٨ - ١٨ آب : ينشر ديوانه الجديد «شاذ» .
- ١٩٥٩ - يتجول في فنزويلا لمدة خمسة أشهر .
- ٥ تشرين الثاني : ينشر ديواناً جديداً بعنوان «ابحارات وعودات» .
- ٥ كانون الأول : ينشر ديوانه الغزلي «مائة أرجوزة غزلية» .
- ١٩٦٠ - يسرح في رحلة طويلة يزور فيها العديد من الأقطار الأوروبية والأمريكية .
- ينشر في كوبا ديوان «أغنية مفخرة» .
- ١٩٦١ - شباط : يعود إلى تشيلي .
- ٢٦ تموز : ينشر ديوانه «أحجار تشيلي» .
- ٣١ تشرين الأول : ينشر في تشيلي ديوانه «أناشيد شعائرية» .
- ١٩٦٢ - ينشر في كتاب (بالاشتراك مع (ينكانور بارا) Nicanor Parra مجموعة خطب تحت عنوان «خطب» .
- يسافر من جديد ليزور كثيراً من البلدان .
- ٦ أيلول : ينشر ديواناً جديداً بعنوان «صلاحيات كاملة» .
- ١٩٦٣ - تنشر له أعماله الكاملة - طبعة ثانية - .
- ١٩٦٤ - ١٢ تموز : ينشر له كتابه الجميل الكبير «مذكرة الجزيرة السوداء» في خمسة أجزاء بعنوانين مختلفين .
- ٩ أيلول : ينشر ترجمته لرائعة شكسبير «روميو وجوليت» .
- ١٩٦٥ - شباط : يعود فيسافر إلى أوروبا .
- حزيران : يمنح لقب دكتور شرف من جامعة أوكسفورد .
- في هنغاريا يكتب (بالاشتراك مع الكاتب الروائي المعروف ، جائزة نوبل ، (ميفيل انخيل أستورياس) مجموعة مقالات نشرت في كتاب تحت عنوان «ونحن نأكل في هنغاريا» . وقد ترجم هذا الكتاب إلى أربع لغات أخرى ونشر الكتاب في أصله الإسباني وترجماته في وقت واحد .

يسافر إلى موسكو فيمنح الشاعر الإسباني (رافائيل البارتني) جائزة لينين بصفته عضواً في اللجنة المحكمة .

يعود إلى تشيلي عن طريق الأرجنتين .

١٩٦٦ - يعود للسفر فيذهب إلى الولايات المتحدة والمكسيك والبيرو .

ينشر ديوانه عن الطيور «فن العصافير» .

يكتب مسرحية بعنوان «بريق وموت» (خواكين موريتا) .

ينشر في برشلونه بإسبانيا ديوانه «الدار في الرمال» .

١٩٦٧ - نيسان : يعود فيسافر من تشيلي .

٢٢ أيار : يشارك في مؤتمر الأدباء السوفييت المنعقد في موسكو .

يزور إيطاليا وفرنسا وبريطانيا .

أب : يعود إلى تشيلي .

تطبع له مسرحيته وتمثل في تشيلي .

ينشر ديواناً جديداً بعنوان «أغنية للبحارة» .

تنشر له أعماله الكاملة (طبعة ثالثة مزيدة) في بونوس أيريس بالأرجنتين عن دار النشر

«لوسادا» .

١٩٦٨ - ينشر ديوانه الجديد «أيادي النهار» وكان هذا الديوان قد نشر في أعماله الكاملة (الطبعة

الثالثة) .

١٩٦٩ - ينشر ديواناً جديداً «نهاية العالم» .

١٩٧٠ - ينشر ديواناً آخر «أحجار السماء» . وآخر «السيف المتوقد» .

يعين سفيراً لبلاده في باريس .

١٩٧١ - ٢١ تشرين الأول : يفوز بجائزة نوبل للآداب .

ينشر ديواناً جديداً «ما زال» .

١٩٧٢ - ينشر آخر ديوان له «جغرافيا باطلة» .

يعود إلى بلاده ماراً بإسبانيا .

١٩٧٣ - ٢٣ أيلول : يموت بالسرطان في سنتياغو عاصمة تشيلي حيث دفن . بعد أن شهد الانقلاب

العسكري الذي أطاح بالحكم الديموقراطي الذي كان هو أحد دعائمه ، ولذلك فإنه يقال بأنه

قتل كما قتل الرئيس (سالفادور اينده) بأيدي أعداء الحرية والنور والعدالة .





إنّ هذه المذكرات أو الذكريات متقطّعة تتناوب على فترات كثيرة السهو، النسيان، لأنّه هكذا سنّة الحياة. إنّ تعاقب الحلم يجعلنا نقوى على تحمّل مشقّات العمل. حين أستحضر الذكريات أجد أنّ كثيرًا منها قد أمحى وعفا وبغداد غبارًا ليس يهدأ كمثّل زجاج جريح ليس يبرأ.

إنّ مذكرات كاتب المذكرات ليست مذكرات الشاعر، ذاك ربّما عاش أقل من الشاعر. لكنّه التقط صورًا أكثر منه، فهو لذلك يمتعنا بالجزئيات المتقنة المهذّبة، بينما الشاعر يمنحنا معرضًا من الأشباح المهترّة المتراوحة بين النار والظلّ كانعكاس لعصر الشاعر.

ربّما أنّي لم أعش في ذاتي. ربّما عشت حيوات الآخرين. بقدر ما استودعت هذه الصفحات من كتابة ستجود دائمًا. كما في غيل الخريف وكما في موسم الكرمة - الأوراق الصفراء التي تروّح تموت والأعنان التي ستنبعث في النيذ المقدّس. حياتي هي حياة صيغت من كلّ الحيات: حيوات الشاعر.



أعترف  
بأنني  
قد  
عشت

بابل نرودا



ISBN 978-614-419-504-8



9 786144 195048

